

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

الجزء الثاني

تأليف: ف. هاسيد

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

مراجعة: د. عز الدين فودة
مستشار مركز الدراسات والبحوث
بجامعة القاهرة



١٩٩١

● ● لا بد لنا ، في مقالة الجزء التالي من هذا العمل الموسوعي التفتيش ، ألا وهو تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، أن نشع بإيجاز إلى ما أحاط به الجزء الأول من هذا الكتاب من معلومات شاملة في هذا المجال الفسيح .

بدأ الجزء الأول بدراسة الحقبة الأولى من هذا الموضوع الذي يهيئ بالنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية في منطقة الشرق الأدنى ، وتقسيم البدايات منذ الفتوحات الكبرى حتى الحروب الصليبية ، واستهل بمصر جوستانيان وخطاباته (من أباطرة بينظية) في القرن السادس الميلادي ، ويتحدث هذا القسم عن طوفان القسوف المتبررة في شمال أوروبا ووسطها ، وسقوط روما ، وما استتبع ذلك من آثار في الحياة الاجتماعية في أوروبا في الحقبة الأولى من العصور الوسطى . وفي هذا القسم إشارة إلى اكتشافات الطريق البحري المؤدى إلى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، واتصال التجارة بأعماق الشرق ، مع بقاء الطرق التجارية الكبرى كما كانت في العصور القديمة ويتطرق هذا الجزء لفتون الامبراطورية البيزنطية ، والمسلمين البحرية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا .

ثم يدرس صناعة الحرير ، والتقاليد من الصين إلى الغرب ، كما يبحث بالدرس والتحليل دور فارس والهند وأيوبيا وبيزنطة والجزيرة العربية في التجارة البحرية . كما يتحدث عن ظهور الأتراك في وسط آسيا ، ودولة السامانيين في فارس ، والتجارة في الجزيرة العربية ، وموروا ، ومصر ، وعن ضعف النشاط التجاري في البلاد الجرمانية الأصلية .

وفي الفصل الثاني من هذا الجزء الأول ، يتحدث عن ظهور الاسلام ، وانتشاره ، وبداية الحروب الصليبية ، ويصف الطرق التجارية في الجزيرة العربية ، وأثر اتساع الدولة الاسلامية على ازدهار التجارة ، وخاصة في مصر الميناء ، والاتصالها بفارس ، والهند ، والصين ، واستخدامها الطرق البحرية ، بالمحيط الهندي ، والخليج الفارسي ، والبحر الأحمر ، وكذا الطرق البرية . وفي هذا المجال ينص بالذكي

حركة الحجاج ، وأهمية الاسكندرية ، وبنفاد ، والمدن العراقية
والسورية ، وطريزون ، وأرمينيا الكبرى ، وآسيا الصغرى ، وأرخوم ،
وجورجيا ، وسمرقند ، وبخارى ، وثقور بحر قزوين ، والخزر ، والبحر
الأسود ، وبحر آزوف ، وبحر ارال ، والتسطنطينية ، وشمال أفريقيا ،
وآسيايا ، وصقلية -

وينتقل البحث الى الحركة التجارية في اليونان وجزر الارخبيل .
وفي روسيا واسكندناوة ، والمانيا ، وبريطانيا العظمى تكتشف
نفوذ الحضية عربية في الطرقات التي أجريت بها ، دلالة على مساهمة أهال
تلك البلاد التجارة مع الشرق . أما فرنسا المروغجية فكان لها صلات
تجارية نشطة مع مصر وسوريا وبلاد العرب . خاصة في عهد شرفان
ومحمود الرشيد . كذلك كان لاطاليا صلات تجارية قوية بالشرق .

يل كل ذلك حلية ثانية في تاريخ التجارة ، خاصة بالمستوطنات
التجارية على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

وتشتمل الحروب الصليبية ، وتنفذ دول صليبية في سوريا تضم
مستوطنات تجارية ، وتجهز الاساطيل لهذه الافراس ، العسكرية
والتجارية . وتجرى دراسة تفصيلية لتنظيم السياسية والتنصليبة
والانارية ، والنشاطات التجارية . والنزاعات المتتالية بين ملوك وأمراء
الدول الصليبية ، والامارات العربية ، والمؤسسات التجارية ، والتنظم
البحرية . ويصف هذا الفصل وصفا اجماليا حوالى الأمم التجارية التي
تطل على البحر المتوسط ، والبحر ايجة ، والبحر الادرياتي والبحر الايوني ،
والبحر التيرانى ، كما يتحدث بالتفصيل عن الامبراطورية اللاتينية .
والحلة الصليبية الرابعة ، والحروب بين البندقية ، وجنوا وبيزا .

وثمة دراسة تتناول آسيا الصغرى ، وجزيرتي كريت ورودس ،
والدول الصليبية في سورية في غضون القرن الثاني من وجودها ،
والحركة التجارية في اهم مدنها ، وفي مستوطنات جنوا ، والبندقية ،
وبيزا ، وبروغاس في سوريا .

أما الجزء الثاني من الموسوعة ، والذي يهد له بهذه المقدمة ، فإنه
يستهل بدراسة جزيرة قبرص ، وأرمينيا الصغرى ، وسورية ، ومصر .
ثم يبحث في نمو تجارة الشرق الأدنى في اعقاب انهلاك قارة آسيا . من
أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الرابع عشر . وظهر التنافس
وأرمينيا الصغرى ، وطريزون ، وفارس ، والهند ، كما يتبين القارىء
في رؤوس الموضوعات المدونة في فهرس هذا الكتاب .

الترجم : أحمد رضا محمد رضا

٢ - جزيرة قبرص ، من حيث موقعها قبالة الدول الصليبية

على الرغم من موقع جزيرة قبرص بالقرب من سواحل سوريا ، فإن فكرة غزوها لم تطرأ على الغربيين إلا بعد القضاء زمن طويل نسبياً :
لثمة فترة تبلغ قرابة المائة عام تفصل بين الحملة الصليبية الأولى وبين اليوم الذي قضى فيه ريتشارد قلب الأسد على السيادة البيزنطية في الجزيرة (١١٩١) . وحتى ذلك الحين لم يبد أن التجارة اجتذبت إليها الكثير من الغربيين . ومع ذلك كانت هناك أهم تجارية إيطالية تربطها مفاوضات بالامبراطورية الروم (١) تتمتع بحرية مطلقة في إرسال سفنها التجارية إلى الجزيرة . ففي المعاهدة التي أبرمها الامبراطور مانويل مع البندالية في عام ١١٤٨ ، يذكر الامبراطور صراحة جزيرة قبرص بعد

(١) أقرنا في هذه الترجمة أن تعرب كلمة *Gross* بالروم . بدلاً من اليونان لفظة هذا الاسم في التاريخ العربي حين كان المسلمون يستولون على القلاع البيزنطية في جملتها بلاد الروم . وكان لفظ الروم يسمي الروماني في العصور الإسلامية الأولى فراقب عند المسلمين « المصريين » سواء أكان من اليونان أم اللاتين ، كما كانوا يسمون البحر المتوسط باسم بحر الروم أيضاً . وصارت لكلمة « الروم » سرود الأيام اسم الأقرب للأقاليم النصرانية من بلاد الإسلام . ومن لغة صارت « الروم » اسماً لاسم المسيحي عند العرب ، وهي البلاد الناطقة التي انطلقت نهائياً في غمام الملة الخامسة (الخلافة العباسية) إلى أيدي المسلمين باستيلاء الترك السلجوقية عليها (كي استغراجه) . بلقان بالكلية المصرية ، بغداد ، ١٩٥٤] - المراجع .

جزيرة كريت ، ضمن البلاد المتاخمة للبينداقية (٢) . وثمة سفير بندقي مسافر في عام ١٣٠٢ الى بلاط هنري الثاني ديلوزينيان ، ليذكر الملك بالاملاك والحقوق ، والاعتمادات التي تتمتع بها جمهورية البندقية في جزيرة قبرص ، وبخاصة في نيقوسيا وليماسول *Limasol* في عهد السيادة الرومية (٣) ، باعتبارها امورا مسلما بها . ويذكر آخر مؤرخ امالفي *Amalfi* (٤) ان مواطنيه كانوا يملكون فيما مضى وكالات تجارية في قبرص ، وان لم يمن بتقديم البتة لذلك . ولكن للواقع ذاته لا يخالف ذلك في شيء . فنحن نعلم من جهة ان الامالفيين كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بسياسة امبراطورية الروم ، وانهم من جهة أخرى كانت لهم علاقات تجارية كثيرة على طول السواحل المصرية والسورية من حول جزيرة قبرص . كما تدل قصة غزو دلتسارد قلب الأسد الجزيرة على وجود مستوطنات لتجار غربيين بالجزيرة منذ عهد السيادة البيزنطية . فالواقع انه بينما كان الملك يتجول بأسطوله على مراكب من ايساسول . انبأه بعض اللاتينيين القسيسين بالهيلة ان الروم قد جنوا عنها ، وانها قد أصبحت عاجزة عن المقاومة (٥) . واذا كان هؤلاء اللاتينيون قد عرضوا هذا الامر على الغازي ، فذلك دون شك لانهم كانوا والتقى من ان التجار الغربيين لن يشعروا بالثقة بالامان والراحة في جزيرة قبرص ، ولن يتمكنوا بها جاليات موسرة ان لم يطرد منها الروم ، وتحل محلهم حكومة لاتينية . وقد كانوا هل حق في ذلك ، كما كان الموقف مواتيا لنمو التجارة نموا سريعا . بشرط ان تكون الحكومة صديقة بالفعل : وكانت هي حكومة أسرة لوزينيان التي حظيت بتناج الملكة الجديدة ، واحتفظت به ثلاثة قرون متصلة دون انقطاع ، بفضل ميول امراء هذه الأسرة الطبيعية ، واحتياهم ايضا بمصالحهم الشخصية . ومن ثم اقتصروا من منح الامتيازات والهبات ، التي ساعدت بذلك على ازدهار الحياة التجارية .

وقد وثق أول ملوك هذه الأسرة ، جي دو لوزينيان ، احسن العلاقات بالبيزيين ، ويسر لهم دخول الجزيرة ، واتاح لهم احسن الظروف . وعندما بدأ يلقه سلطاناه في مملكة القدس ، وراهم على استعداد لمساعدته في استرداد عرشه ، وعندهم بهبات وامتيازات كبيرة في ملكه الجديدة

Taf, et Thom, I 124; voy aussi 263.

(٦)

Mas-Latrie, Nouvelles preuves de Philé de Chypre : Bihl, de l'école des Chartes, xxxiv (1873), p. 54.

(٧)

Camero, Storia della città e costiere d'Amalfi (1ère éd.) p. 266.

(٨)

Coella, de Guili, de Tyr, p. 104.

(٩)

بجزيرة قبرص . وفي اعتقادي أنه أولى بوعونه ، خاصة وأن البيزنت قد ظلوا حلفاء له من تلك الآونة حتى حالت ساعة وفاته . وإن كان ولاهم هذا وراء طردهم أيضاً من عكا (٦) .

وقبل أن يمر عزم الدول الرئيسية في إيطاليا على إنشاء مناطق تجارية كبيرة في قبرص ، كانت هناك مدينة صغيرة في جنوب إيطاليا ، تصادف اسمها كثيراً في أخبار ذلك العصر ، لأن الكثير من الصليبيين كانوا يذهبون إليها وترسو سفنهم بها : تلك هي مدينة تراني *Trani* التي حصلت على إعفاء تام لمواطنيها من الرسوم الجمركية . وفي عام ١١٩٦ كلف سامارس *Samarus* رئيس أساقفة تلك المدينة بمهمة خطيرة في بلاط قبرص : ذلك أن أموري دو لوزينيان *Amoury de Lusignan* (خليفة « جي ») أراد أن يدعم تاجه بتكريس من شخصية عظيمة لها نفوذها ، ومن ثم اتفق على منحى السادس إمبراطور المانيا أن يأتي ويسلمه بيديه شارات الملك . ووافق الإمبراطور على ذلك ، بل كان في عزمه بالفعل أن يذهب بنفسه ويضع التاج على رأس أموري ، ولكن لم يتيسر له أن يحقق غرضه هذا . وفيما بعد أجرى كورناد ، رئيس أساقفة هيلدسهايم *Hildesheim* ، الاحتفال بذلك باسم الإمبراطور . وقبل ذلك أرسل الإمبراطور الصولجان مع أسقف برنديزي ، وتراني (٧) . وانتزع الأسقف الثاني هذه الفرصة فطلب إعفاء أهل بلدته . وهم بنحارة لشيطنون . من الرسوم الجمركية في قبرص ، فتمنحه أموري هذا الإعفاء في شهر مايو من السنة نفسها (٨) . وليس في وسعنا أن نقول أن أي مدى استفاد أهالي تراني من هذا الامتياز ، لعدم وجود أدلة على ذلك .

وبين جنوا ومملكة قبرص الصغيرة الزدادت العلاقات وتولقت ، وبخاصة في الفترة التي كان فيها هنري الأول حفيد أموري وخليفته قاصراً ، وما ترتب على ذلك من طول فترة الوصاية . وفي غضون هذه الفترة كانت مقاليد الحكم أولا في يد فيليب ديبلان *Philippe d'Ibelin* (توفي عام ١٢٢٧) ثم أكتبه يوحنا ، صاحب بيموت (توفي عام ١٢٣٦) .

Ibid., *Mss.*, D. p. 189, 202 et s.

(٦)

Annales Marchicenses, dans *Perle* SS. XVII, 167, (Annal. Argentin éd. Bohmer, Fontes, III, 89), *Toche*, *Heinrich VI*, p. 381. et s. 462.

(٧)

(٨) انظر الرسوم رقم ٧ في الوثائق ، في : *Forges Davignatz*, *Dissertatione sulla seconda moglie del re mandrodi e sul loro figliuoli* Nap 1791, *Huttlard*, *Bréholes*, *Hist. dipl. Trid II Isid* : *Mae-Latrie*, *Histoire de Chypre*, I, 427; *Toche*, op. cit., p. 381, not. 6 (*Beltrami*, *Sugli antichi ordinamenti maritimi del Trani*, p. 33-44).

وسبق أن تحدثت عن النضال الشديده الذي قامت به في ذلك الحين أسرة ديبلان وأنصارها ضد سلطة آل هوهنشتاوفن ، وقلت ان الجنويين كانوا بين سائر الأمم التجارية أول من انضم الى الحزب المضاد للجنبيين ، وبقوا أوفياء لهذا الحزب . ومن ثم فلا داعي للمودة الى الحديث في هذا الخصوص . وللاذكرة أن الجنويين كانت لديهم كل البواصت التي تجعلهم على الاعتراف بجيبل أسرة ديبلان . كما سبق أن رأينا كيف أن يوحنا قد ائتمن عليهم الاملاك والامتيازات في بلدته بيروت ، وأن فيليب قد أسس في قبرص أولى المستعمرات التي نمت فيما بعد وبلغت أبعادها شاسعة . وتمثلت البداية المتواضعة الأولى عام ١٢١٨ في منح قطعتين من الأرض للنبش ، أحدهما في ليماسول Limisso والأخرى في فاماغوستا Famagouste (٩) . وفي الوقت ذاته أذن الأمير للجنويين أن يمتدوا لقتل في الجزيرة ، ومنحها سلطة القضاء ، باستثناء الجرائم التي عقوبتها الاعدام ، فقد بقى من اختصاص محاكم الملك (١٠) . ولكن أهم الامتيازات التي منحها ، واستحق من أجلها اعتراف الجنويين بجيبله ، هو امتلاكهم من الرسوم الجبركية ، ومن كل الضرائب المفروضة على المنتجات التي يستوردونها للتجار من بلدتهم . ولا شك أنه كان في ذلك دعم لارتباطهم بآل ايبلان . غير أنه كان على يوحنا ديبلان أكثر من التزام نحوهم : بفضل أنهم كانوا قد تعاونوا معه في فلسطين لاستقاط الأميراطوريين (أو اللومبارديين كما كانوا يسمون في ذلك الوقت) ، كما أعازوه في قبرص عندما يحارب بها أعداءه في الداخل والخارج (١١) .

(٩) الواقع أن هذه البراءة قد منحها الملكة إيزابلا الكبرى

(Lib. jur. I, 825; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 39).

غير أنه لا كانت الملكة قد تركت تصريف القسطن كلها لليبيب ، لأنه يمكن القول بأن هذا الأخير هو الذي منح بالفعل هذا الامتياز . والسفير الذي سجل على هذه الأمانة هو ييرون بولناردو .

(١٠) ثمة بعض ملاحظات لأمانة تمت لصالح لتأسيس جنوا الحق في التطبيق واستدار الأستقام حتى في القضاة العامة . ولم تطبق للمحاكمة الملكية سوى تنفيذ الأحكام : Mas-Latrie, I, c. II, 53, 228 et s.

Mas-Latrie, Hist. de Chypre, I, 228.

(١١)

(١٢) Lib. jur. I, 820 et ss. ; Mas-Latrie, II, 61 et ss. ; Mas-Latrie, I, 281, 282.

الكتابة في الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب هي diplôme . وقد كانت تعني في اللسان أوراق الاعتماد لرؤساء البعثات الدبلوماسية * Lettres de Créance . وله جرى العرف والاسم بالقضية للفاضل على ترجمتها بكلمة « براف » . ولكن الثانية فيما نسبته ١٢٢٢ في شأن العلاقات الفصلي في ترجمتها العربية الرسمية (المجردة الرسمية - العدد ١٨٩) أطلقت هذه الكلمة « براف » . Lettres de provision يعني الوثيقة ss.

وقد صممه القنصلان الجنوبيان في سورية . هوجو فيراريو Hugo Ferrario وجوچيليلمو دي اورتو Guglielmo de Otto في هذه السفن حتى فاماچوستا ، ومن ثم فانه . اقرارا بشكره للجالية الجنوبية ، صلحها في ١٠ من يولييه ١٢٣٢ خطابا بالاعفاء (من الرسوم الجبركية والضرائب) يوسع كثيرا . وبمزيد من الدقة الامتيازات التي تتضمنها الاجازة القنصلية السابقة (١٢) . وبهذا التصرف منح التجار الجنوبيين منازل في المدن الأربع الأكثر أهمية في الجزيرة . نيقوسيا . ليماسول . وفاماچوستا . وبافو (بالوس) - Baffo (Paphos) كما منحوا برجا حصينا في ليماسول (١٣) . ولتحسين حالتهم المالية في المدن . خصص لهم سانات ومخازن . ولتزويدهم بما يحتاجون اليه من الحبوب والنبيل امداهم عزبة مجاورة لليماسول . بما فيها من الاعمال الفلاحي . وتبين ان كل المنازل المنوحة . والمذكورة في الرسوم في المدن الأربع صالحة لسكنى القناصل والفيكونتات الجنوبيين . ثم ان اختصاصات هؤلاء القناصل والفيكونتات كانت محددة بالطريقة الأكثر فائدة للجنوبيين . والواضح ان حكومة الجزيرة لم تبد اى اعتراض على تعيين هؤلاء الموظفين . ويبدو مع ذلك ان الجمهورية لم تجعل الاستفادة من هذا الترخيص المنصوص عليه بصورة عامة في معاهدة عام ١٢١٨ . واستمرت زمنا طويلا في ادارة شئون مستوطنتها في قبرص عن طريق قناصلها في سوريا . وهاكم ديلان على ذلك : ففي شهر ديسمبر ١٢٣٣ . أبرمت الجمهورية في نيقوسيا معاهدة تحالف مع ملك قبرص . او بالأحرى الوصى على المملكة . يوحنا ديلان . ولم يكن مثملا حقيقيا في نيقوسيا . ولكنه كان مندوبا عموما من قبل قناصل سورية (١٤) . وفي عام ١٢٤٩ . أثبت قناصل سوريا في قائمة الممتلكات التابعة للمستعمرات بلقهم : حيافا في نيقوسيا . وعزلا في فاماچوستا . كما لو كانت هذه المستعمرة أو المستوطنة ملحقة بسورية .

والتي تقوم بأعمالها الدولة المولدة - لرئيس البعثة القنصلية للإبلاغ عن تعيينه وإثبات صفته واسمته ومرتبه ودرجته ودائرة اختصاصه وعقر البعثة القنصلية . أما الترخيص exequatur الذي تمنحه الدولة المستقبلة للبعثة القنصلية ورئيسها ليمارس اصاله ايا كان شكل هذا الترخيص (والذي أطلق عليه حايه جتا *diplôme*) فله اساس في الدرجة الرسمية للاتفاقية فيما لسنة ١٩٦٣ اصدارها « اجازة قنصلية » . ومن ثم . تجريها تصديق الدرجة على هذا الوجه . (للراجع)

(١٢) في عام ١٢٩٥ . استول البندقية على ليماسول فجاء ودمروا هذا البرج :

ولم يكن لها وجود خاص بها (١٥) . وقبل عام ١٢٩٢ لم يكن في
المستطاع - على الأقل استناداً إلى الوثائق الموجودة - إثبات وجود رئيس
للمستوطنة الجنوية في جزيرة قبرص ، مقيم بها .

ولم تصل إلينا أية إجازة قنصلية صدرت لصالح البنادقة في
قبرص في الفترة التي نحن بصدها ، حتى أننا لا نعلم حتى الآن إلا
الشيء القليل جداً عن الأموال والحقوق التي كانت في حوزتهم . ومع
ذلك فهناك على الأقل ثلاث من هذه الإجازات : أولاً منحت إلى بيتيرو
دانولو Pietro Dandolo ، ولوفا بارباني Leon Barbani سفير
البندقية في فترة الوصاية على هنري الأول « القاصر » (١٢١٨ -
١٢٢٣) (١٦) ، وحصل ماركو باربو Marco Barbo على إجازة ثانية
من بلاسنتيا Placentia الوصية على العرش ، وذلك بين ١٢٥٣
و ١٢٦١ ، وأخيراً حصل باربو هذا على الإجازة الثالثة من هوجو الثالث
Hugues III (١٢٦٧ - ١٢٨٤) . وقد حرر ملخص لهذه الإجازات
«القنصلية» في مناسبة سفارة بعثت إلى قبرص في عام ١٣٠٢ (١٧) .
وأثبت مجلس شيوخ البيليقية أنها تتضمن امتيازات كبيرة .

ولنعم الآن نعرف أحسن من ذي قبل مجموعة الممتلكات والحقوق
التي كانت للبنادقة في الجزيرة ، وذلك بفضل اكتشاف أجراء حديثاً
الإستاذ توماس Thomas (١٨) ، وهو عبارة عن صحيفة من نوع التقارير
للمشهوره مارسيليو جورجيو Marsilio Giorgio عن ممتلكات الجمهورية في
مسوريا ، ويبدو أنها حوت في العصر نفسه أو قريباً منه . وفي هذا
التقرير جاء أن البنادقة كانوا يعاملون على قدم المساواة مع الجنويين من
حيث الضرائب ، عند وصولهم الجزيرة ، وأقامتهم فيها أو رحيلهم عنها .
بالإضافة إلى أنه كان لهم قضاؤهم الخاص، مثلهم مثل بارونات المملكة ، وكان
مركزهم الرئيسي لينابسول ، حيث يملك الكثير من البنادقة منازل
وحوانيت وحطائق وزيتائن كروم ، ومزارع في الضواحي ، ويبدو أن
عدد هذه الممتلكات الخاصة كان أكثر بكثير قبل للعصر الذي حرر فيه
الكاتب صحيفته هذه . ومن ذلك الحين فقد البنادقة جزءاً كبيراً من
وممتلكاتهم ، انتقل إلى حوزة البيزيين والجنويين والبروفانسيين والروم ،

Archiv. de l'Or, lat. II, 2, p. 219.

Tab. jur. II., 278.

Mss. Latine, Nouvelles preuves de l'hist. - de Chypre, I, C.P., 84 et s.

Sitzungsberichte der Philos.-philol.-hist. Cl der Münchener Akad., 1878, I, 2, p. 148 et sq.

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

وفرسان القديس يوحنا أو مرسان الهيكل ، أما بالاحتلال غير المشروع ، أو بالبيع أو الترواة • وكان للأمة (البندقية) في ليماسول بندق منحه الملك لهم ، وكينستان ، أحدهما مكرسة للقديس مرقس (سان مارك) ، والأخرى للقديس جورج ، وبيت للمساعدة ، ومستشفى • ولم يكن • ما يملكوه في نيقوسيا وبافو يقارن بهذا الذي يملكوه في ليماسول • ومع ذلك كان لهم كنيسة في كل من هاتين المدينتين •

وكان لانتونا أيضا في ذلك العصر علاقات تجارية مع قبرص • وفي عام ١٢٧٢ قدم إليها بعض تجار هذه المدينة ومعهم خطابات توصية من حاكمهم ، ومن شارل دانجو ملك نابولي (١٩) •

وقد كان البروفانسيون الأمة الوحيدة التي حصلت - إلى جانب الإيطاليين - على امتيازات في قبرص في القرن الأول من السيادة الفرنسية ففي شهر أكتوبر ١١٩٨ حصلت مدينة مرسيليا وحدها من الملك أموري على الاعفاء التام من الرسوم الجمركية في الدخول والخروج (٢٠) • وفي عام ١٢٣٦ قام قنصل مرسيليا في عكا ، بالاشتراك مع ممثل من مونتبيليه (٢١) بسماع أسفرت عن حد مبريان هذا الامتياز إلى مائتي مئة البروفانسي • ومع ذلك فإن اسم مونتبيليه هو وحده الذي ذكر في هذه الإجازة • وتتضمن هذه المساعدة الثانية بعض التعميمات ذات الأهمية الثنائية • من ذلك أنه كان على البروفانسيين أن يدفعوا ديوارا ييز لطيا من كل مائة دينار من ثمن البضائع الواردة من سوريا ، أو من سلطة ايكوليوم (قونية حاليا) أو من أماكن أخرى على الساحل الغربي لآسيا ، والمبيعة في قبرص • فإذا لم يتم بيع هذه البضائع ، وأعيد تصديرها ، فاعلم (أي البروفانسيين) يستطيعون حملها معهم - إذا كانت واردة أصلا من سوريا - دون أن يدفعوا عنها ضرائب • أما بضاعة الشب ، والصوف ، والجلود ، والحديد ، الواردة من آسيا الصغرى فأنها تخضع لبعض الرسوم التي تقدر بتميلة لا نستطيع أن نبحث هنا تفاصيلها (٢٢) •

Misleri Riccio, Il regno di Carlo I d'Angio 1271-1272, p. 89. (١٩)

Méry et Guindon, I, 188. M. de Mas-Latrie (Hist. de Chypre, II, 24 et s. (٢٠)

Rabroux de Conchis, Hist. du commerce de Montpellier, I, 283. (٢١)

- ديون ديكوتلي ، شهد في المدينة التي ولد فيها أحداثا ذات أهمية عامة (١٢٢٥ ، ١٢٢٦) لهذه ذات مرة (١٢٢٣) اتصالا للمدينة ، انظر : — Teulet Laveites-du trésor des Chartes, II, 4, 53, 80, 808.

(٢٢) أبرمت هذه المعاهدة مع هنري الأول ملك قبرص ، ونجدها في : Méry et Guindon, I, 419 et s.

غير انه لم يكن هناك ثمة لمعامل يرومانسيون أو املاك استيطانية في حورة المدن البروقانسية ، ومع ذلك يمكن استثناء مدينة مرسيليا التي كانت تملك غيمة Canal اسمها فلاميا Flavia اسمها اياها الملك امورى في عام ١١٨٩ .

وطاما بقيت مواى الساحل السوري في ايدي المسيحيين كان التيار الرئيسي للملاحة التجارية الغربية يتجه اليها ، وهناك تركزت المنشآت التجارية الرئيسية ، ولم تكن قبرص سوى محطة وسطي ذات أهمية ثانوية . وكان سقوط عكا دلالة على سقوط الللاب مقاس في الامم . فمن تلك اللحظة ، رى كل الامم التجارية الغربية تحول انظارها الى قبرص ، وتبدل مساعيها للحصول ثمة على احياء واعطالت .

٢- ارمنيا الصغرى ، من حيث علاقات الجوار والصداقة بينها وبين الدول الصليبية :

هناك وراء حدود ايطالية . عند ذروة الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى ، يله يسكنه شعب مسيحي تطلقه مصالحه السياسية والدينية الى التقرب من الدول الصليبية ومن العالم الروماني . الجرماني : وعلى مزية كبرى لتجارة الغرب ، وفي زمن غير بعيد عن وصول الصليبيين الاوائل الى آسيا ، كان عقد كبير من الارض قد هاجروا حفاظا على قويتهم ، حين هددهم نفوذ الروم تلوفا مترايدا في البلاد التي يرونها التجري المعوى لهر الفرات . واستقر هؤلاء الارمن أولا في الجبال شمال قليقية Cilicia . ولكنهم ما لبثوا أن اهدروا الى القسم الخفيض من هذا الاقليم ، وانتزعوا ملكيته طوعا أو كرها من الروم سادته القدامى . ومن زعماء هؤلاء الارمن أسرة تلوفا كثيرا على غيرها : تلك هي أسرة الروبينيد Roubénides ، ومن افرادها لاؤون (ليون) الثاني Leon II ، وهو جندي باسل ، وسياسي قدير ، أسس دولة ارمنية حديثة (١١٨٧ - ١٢١٩) ، كانت حصنا حصينا لمسيحي غرب آسيا . لذلك كان لاؤون يشعر شعورا عميقا بأهميته ، ويرى بتفوقه على سائر سادة أمته ، ومن ثم اتخذ لنفسه لقب الملك . ولكنه كان يرى أبعد مما يراه غالبية مواطنيه ، وأدرك أن القيمة التي يشعر بها السكان في أعمالهم ، وسلاسل الجبال التي تحيط ببلادهم ، لا يشكل أي منها للمملكة الجديدة سورا حصينا كائيا ، ولهذا شعر بالحاجة لنفسه ولتخلفاته من بعده بضرورة عقد اتفاقات مع دول الغرب ومستعمراتها في سوريا حتى

يستطيع أن يقاوم كلا من الأمراء المسلمين والأباطرة البيزنطيين . وما أن
 رسيخ هذا الاعتقاد في نفسه حتى حمل كل تصرفاته منسوبة معه .
 فالتبس من امبراطور ألمانيا ، صرى السادس ، أن يسلمه بيده تاج الملك
 وكون لنفسه بلاطاً على نسق بلاطات الغرب ، وجعل لمملكته نظاماً إقطاعياً
 مماثلاً ، بل عمل على التوفيق بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية
 الرومانية ، وودع جزءاً كبيراً من تصور بلده على بازومات من الفروحة
 وفرمان القديس يوحنا ، وعرسان الهيكل ، والنيوتون ، وكان القصد من
 كل هذه الأعمال إثارة اهتمام أوروبا برحاه مملكته ، وإلى هذه المجموعة
 من الأفكار التي سار على هديها هو وخلفاؤه يرجع الفضل في الترحيب
 الذي لقيه التجار الغربيون في مملكة الأرمن : فكان من المحتمل أن تأتي
 اللحظة التي تدعو الحاجة فيها إلى الاهتمام جدياً بالدماغ من هذه المملكة
 رعاة للحركة التجارية للدول الغربية ، وبخاصة الدول البحرية .

ومن وجهة التجارة ، كانت مملكة الأرمن في ظروف ملائمة : فهي
 الفترة التي كانت في أكثر اتساع لها ، أي في عهد لالون (ليون)
 الثاني ، تمت التجارة على السواحل لعموم كبيراً ، من الساحل الشرقي
 لتنجيق الاسكندرية حتى موقع يسمه بقسمة فراسخ عن شرم صاناليا
 Satalia ، وبعد وفاة هذا الأمير بوقت قليل ، أدت غزوات السلطان
 علاء الدين كيقباد السلجوقي إلى التكاثر حجم المملكة كثيراً ، وارتداد
 حدودها من فلجانب الغربي إلى مدينة سلوقية (سلنكة Seleucia
 الحالية) (٢٢) ، وطالع في « سانونو » Sannoto (٢٤) وصفاً متعاماً
 للساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، جعل للملاحين بنوع خاص ، وبلاط
 فيه بشأن القطاع الواقع بين النقاط المذكورة بماليه ، مجموعة من التذوق
 الجيدة التي لم يمد الغربيون يرتادونها في الوقت الحاضر إلا في القليل
 المتأخر ، وكان الأمر دون شك على خلاف ذلك في العصور الوسطى ،
 لأن عدداً كبيراً من هذا الموانئ قد ذكر في « سانونو » وفي المرحاض
 الساحلية القديمة بأسماء إيطالية ، حيث كان الثنا من هذه الموانئ
 بنوع خاص : آيأس Lazazzo ، قرياقوس Korykos (Gorighos)

(٢٢) هي مدينة سلوقية Seleucia في آسيا الصغرى والبراني القديم .
 ثم أصبحت تسمى سلوقية في العربية ، وسالكة في التركية منذ الفتح السلجوقي (نراجع)
 Houtsma Ub. e Turk Chron. p. 18 et ss.

Bongers, II, 88 et ss. ; Taf. et Thom. I, 375-381, supplément, ٧٤)
 III, 483 et s. : Vivien de Saint-Idartin, Asie mineure, I, 519-526 .

(٢٣) كان لهذا الموقع أهمية في عصر الإسكندرية البطلمية انظر
 Anna Comène éd. Bonn, II, 129 et s.

يشتملان برشاء كبير ، كما كانت طرسوس مدينة بحرية لم يسحب البحر بعيداً عن أسوارهما ، كما هو الحال في الوقت الحاضر ، ولم يكن بحر اليردان (كودس Oydaus أو طرسوس تشاي Tarsous-Lchaj) الذي يخترقها قد سدت الرمال مجراه ، وأما كان يتدفق منها نحو البحر (٢٦) ، وعلى بعد ما ، داخل الإقليم ، كانت مدينتا أطلة والمصيصة (Mamistra) موبسويست Mopsueste القديمة وحاليا المصيصة (Mlissa) تتصلان بالبحر عن طريق قنوات صالحة للملاحة (٢٧) ، ولم كزل المراكب قديمة الحولة تصعد في الوقت الحاضر نهر مسيحيان Siban-Tebai (لا ميارس قديما) حتى أطلسه ، كذلك لم يزل نهر جيحيان Djihan Tehai (بيرامس القديم Pyramus) صالحا للملاحة عند المصيصة (٢٨) ، وقد كان للنهرين وقتله مصب واحد ، أكثر الساما وأكثر صلاحية لجسول السفن (٢٩) .

وقامت مملكة الأرمن الصغيرة للتجارة أيضاً مزايأ أخرى ، خلاف ذلك الجوع من مواقع الرسوم الملأكة للتجارة ؛ ذلك أنها كانت بموقعها عند دروة الزاوية بين آسيا الصغرى وسوريا مهية بالطبيعة لمورد القوافل على أرضها . وكان الطريق البري من سوريا إلى أيكوليوم (لونية) وإلى القسطنطينية ، والذي ينتمى إليه من جهة طريق القرات ، ومن جهة أخرى طرق بلاد العرب - كان هذا الطريق يجتاز أرمينيا الصغرى بكل طولها . كما كانت القوافل القادمة من حلب وأنطاكية تصل إلى الإسكندرية في طريق يمر ببلان Ballan . ولم تكن مدينة بيلان (الميقلان ، وتعرف بالأرمنية باسم ليدا كران) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر سوى بقعة منعزلة (٣٠) ، ولكنها نمت في الألفية اللاحقة حتى أصبحت ميناء لحلب (٣١) ، وعلى بعد بضعة أميال شمال

Dulaurier, dans le Recueil des historiens des croisades, (٢٧)

Kotchy, Reise in den östlichen Taurus, p. 383 et s. (٢٧)

Chesney, Expedition for the survey of the river Euphrates, I, 308. (٢٨)

Dulaurier, L. c, p. XLII et s. (٢٩)

Wilbr., Oldenb., éd. Laurent p. 16; Abouf, Géogr. II, 2, p. 22, ; (٣٠)

Blüher, Indik XVII, 2, p. 1819 et 1823 et s. (٣١)

الاسكندروية يصل المرء الى الأبواب القليقية المشهورة (بورتيللا Portella) (٣٢) حيث المكتب الرئيسى للبحار الأرمينية ، وهو عمر شقيق محصور بين الجبل والخليج ، وكان مقلداً لبيب رحامى لم ترل أطلاله طاعرة الى الآن (٣٣) . ومن هذه الأبواب يستد الطريق الى القليق أرمينيا . فينتف حول الساحل ، ويصل الى المصيصة (مامستر) ، مامبينا ، ماميس (ثم الى أدمه (أملة) : ويعبر جبال طوروس Taurus عند ممر د جوليك بوشار Goulak Boghas ، ويشرف على هذا الدرب حصن كبير . يسمى جوجلاج Gouglag (٣٤) يحوى الجنود من ناحية الأتراك (٣٥) ، وكان هناك أيضاً على ما يبدو مكتب بمركى ، وعنده المخرج من الممر الجبل يستجه الطريق الى قونية . وهكذا نرى أن هذه الطريق يجتاز أرمينيا من الجنوب الغربى الى الشمال الغربى ، ويقطع يظفر من مامسترا وأطلته طريقاً آخر قادماً من المجرى الأوسط لنهر الفرات عن طريق مرارش Marsch (٣٦) ، فكان يزود هاتين القسيتين بنفسبيته من الحركة

وتعرف بـسوق الكرعى (من كريكوس اليونانى وتسمى بوم الرب) .
ويظهر كى استراتيج لى ، بلدان الخلافة الشرقية (طبعة بغداد سنة ١٩٥٤) أنها
لقد فى القوارىخ القديمة أسماء جديدة من هذه المدن مصرية ، ولكن معظم هذه الأسماء
لقد اختلفت عنها على غير هذه الصور بعد الفتح التركى . فقد أشار المستشرق العرب
الى جملة مواضع يفسب كتيبها الآن ان لا يسموا ما ذكره أو كئى فى الاسم . ص ١٧١ .
٢١٢ (لراجع) .

Wilhe I, c, ; Samuë, p. 244; Contin, de Guili de Tyr, p. 215. (٣٢)

Ainsworth, dans le Journ. of the geogr. society, VIII, 188 et (٣٣)
ss. :

Ritter, op. cit., p. 1828 ; Taf. et Thom, II, 309 et s., Gustronère
Miskriol, I, 2, p. 134 ; Müller, Geographi graeci minores, I, 478 et s.,
Dulaurier, dans le Recueil des hist. des-crois, I, a, Introd p. XXVII
et ss

Langlois, Voyage en Cilicie, p. 383 et s., 388; Mémoire sur
la constitution de l'Arménie, dans les Mém. de l'Acad. de S. Péters-
bourg, 7e série, T, III, p. 46; Dulaurier, dans le Rec. des hist. des
crois

(٣٤) هذا يسمى مر فى الأمم قلة الحث (Adak) لمرولا فى مؤلفات الرحالة
العرب ، كما كان الممر معروفاً يدرب الحث لم تسمى درب السلالة عن طريق القسطنطينية
الذى يجتاز جبال طوروس عند الأبواب القليقية (لراجع) .

Kotschy, Reise in den cilicischen Taurus, p. 71 et ss., (٣٥)
304 et s.

Edris, II, 189, 213 et ss. (٣٦)

والنشاط . كان هناك أيضا طريق ثالث ، ولكنه لم يكتسب أهمية بالسياسة إلى حركة التجارة إلا في زمن لاحق . وسوف نتحدث عنه فيما بعد (٣٧) .

وكانت هذه الطرق كلها تلقى على سواحل أرمينيا كميات من البضائع يأتي معظمها من وسط آسيا . ومع ذلك فمع العسجر معرفة أي من منتجات آسيا أو منتجات البلطية نفسه يجتذب التجار الغربيين أكثر من غيره . والواقع أن المنتجات الأهلية كانت كثيرة التنوع ، كما كانت زراعة القطن التي اعتنى بها عدد من التجار مزدهرة للغاية في العصور القوسقلية . وشرود الصناعة ببناء أولية ممتازة (٣٨) . وكان النمس يطلبون صوف أرمينيا ، وبخاصة شعر الماعز (٣٩) الذي يستعمل محليا في صناعة الشمال (جميع شمعة) المتجارة (٤٠) وكانت ماسيسيا متخصصة في تصدير الجلود والفراء . (٤١) وفي مناجم طوروس تستخرج معادن متنوعة ، وبالأخص الحديد (٤٢) ، كما كانت غابات الجبال تنتج الأحشاب بوفرة (٤٣) ، في حين تنتج السهول قمحا وتبيلدا وزبيبيا للتصدير (٤٤) . وأخيرا ، كانت الخيول والذئبال الأرمينية تعطي في الخارج بتقدير كبير (٤٥) .

ومن الراجح كثيرا أن (قيليقية Ciliolia) كان يزورها التجار الإيطاليون قبل أن تصبح مملكة أرمينية : فقد كانت القليبا بيريثيا . وكان الأباطرة يخصصون لجمهوريات إيطاليا التجارية يستولوا إقليم الامبراطورية ، ولابد أن هذا الترحيص كان يسرى قسما على سنوقية (قيليقية) . وبالفعل كان ثمة امتياز ممنوح لبلندقة في عام ١٠٨٢ يذكر صراحة من الأسواق المفتوحة لهم ، أسواق المصيبة ، وأدنه . وطرسوس (٤٦) . ومع ذلك فمما أن جاء الروم عن آخر ممتلكاتهم في

(٣٧) Kotschy, op. cit., p. 33.

(٣٨) غزيه من الإيضاح انظر الفصل الخامس للسلع التجارية .

(٣٩) Yates, *Textileum antiquorum*, 1er part Lond., 1843, p. 137 et ss.

(٤٠) انظر الفصل الخامس بهذا الموضوع

(٤١) Géogr. II, 2, p. 89.

(٤٢) Makrizi, *Histoire des sultans mamlouka* éd. Gastromère, II, 1, p. 207; Lib. jur. II, 184; Pegol. p. 44, 48.

(٤٣) Pegol. p. 44.

(٤٤) Pegol. p. 44; Lib. jur. II, 184; Aboulf. Géogr. II, 2, p. 34.

(٤٥) Not. et extr. XI, 117; Pegol. p. 290.

(٤٦) Taf. et Thom. I, 62, 118.

القسم السفلى من البلد ، وأصبح لاأزون الثاني ميناء الساحل بلا منازع ، حتى وجد سفراء جنوا والبنديقية يأتون الى بلاتله ملتجئين عظمه ووعايتيه . وإذا كان الأوروبيون بعامة مصرحاً لهم بالاعتماد على حسن استقبال لاأزون لهم ، فإن الجنوبيين كان لهم الحق في ذلك قبل غيرهم لأنهم قدموا كل ما في وسعهم من مساعدة لسفرائه في العرب (وغالباً في مناسبة المفاوضات التي جرت بينهم وبينه الامبراطور والبابا) * ولم يتركهم لاأزون ينتظرون مكافأاتهم ، فما أن وصل أول سفير لهم ، وهو أوجيرو دي باللو Ogerio di Pallo (٤٧) في شهر مارس ١٢٠١ (٤٨) حتى منح مواطنتي جنوا الاعفاء عن الرسوم الجمركية ، والتمكوس ، وسائر الضرائب في كل أنحاء ولاياته ، بالإضافة الى عقارات وأراضي لبناء المصنوع والمحاكم في ميس Sla حيث مقره (على رافد شمالى لنهر جيحان) (٤٩) . وفي المضيعة ، وطرسوس حيث أصبح لهم حق ممارسة الشعائر الدينية ولتدبيره الكنائس ، كما أصبح لهم الاختصاص القضائي بين مواطنيهم . وما أن تسلم الجنوبيون ممتلكاتهم حتى جعلوا المستوطنة تحت إدارة فيكونت ، شاباً شاب سائر مستوطناتهم في سوريا . وكان الفيكونت اوجونيه فيراريو Ugone Ferrario هو الذى حصل في عام ١٢١٥ لصالح مواطنتي على لاني اجازة موقعة من لاأزون (٥٠) . هذه الاجازة اكثرت من العقارات التي يمتلكها الجنوبيون في طرسوس ، فأتاحت لهم بناء فرن وحمام وضم حديقة ، ولكنها وضعت ليداً على الاعفاء من الرسوم والضرائب . فقد كان في الممتلكة أربعة بارونات ثم يستطع لاأزون أن يحصلهم على التنازل عن الرسوم والضرائب التي فرضوها على التجار الجنوبيين الذين يسيرون بأفانيهم ، ومن ثم وجد نفسه مضطراً لأن يستعمل الجنوبيين ، ويضعهم بأنه في حالة رجوع أى اقليم من هذه الاقاليم الى الملك فإنهم سوف يتمتعون في الحال بلبات الاعفاءات التي يتمتع بها مواطنوهم

(١٧) M. Saint-Martin (Not. et extr. XI p. 29) et Langlois (Trésor des chartes de l'Arménie p. 150 et s.); Annales Japonaises, p. 118; Lib. jur. I, 462 et ss. , Canale, Nuova storia di Genova, I, 367; II, 544.

Lib. jur. I, 468-470; Not. et extr. XII, p. 19 et ss. , Langlois. (١٨) Trésor, p. 103 et ss.

(١٩) أطلق المسلمون على نهرى ساروس وبيراس في آسيا الصغرى اسم نهر جيحان وجيحان ، على فرا وتسميتهم لنهرى اوكسس Oxus وجغمارسى Jaxartes في آسيا الوسطى ، وهذا أكثر شهرة باسم سيحون وجيحون . ومناخ النهرين الأقليم في شمال ارمينية الصغرى . ويذكر إير الكفاء أن الامة تسمى نهر جيحان بجموس جان الذى يصب في خليج ديانس الى شمال ميناء القون (ملس Malus . أما سيحون فاصغر منه وتقع مدينة اذنة على شاطئه - (المرجع)

Lib. jur. I, 674-676; Langlois, Trésor, p. 128 et ss. (٥٠)

في سائر أنحاء البلاد التي تتبعه تبعية مباشرة . هؤلاء البارونات هم أومون في طبرية ، وأدم في جاستون ، وعامرام في قرياقوس أو سوق الكركي (مارشال المملكة) ولأزون سيده حايان . وعلى الرغم من المركز الكبير (الذي كان لهذه الشخصيات في بلاد أرمنييا ، والدور الهام الذي أدوه في التاريخ ، فهم لا يسموا كثيرا في هذا المجال (٥١) . ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة إلى أقطاعياتهم ، لأن مواقع هذه الأقطاعيات تصلح لأن تكون لها بمثابة شواحي تدل على الطرق التي كان يسلكها التجار الجنوبيون . واسم طبرية Tabaria كسم لأسرة يرجع أصله إلى بحيرة طبرية Tiberiade بفلسطين ، فإن كان لا علم لنا بموقع أقطاعية أوتون تلك في طبرية ، مما يؤسف له . ويعتقد دولورييه Dulaurier أن قصر هذا البارون وجسر كايا عبد مود جولييك بولغاز ، الذي يجري حثمه الاتصال بين سوقية (قلبية) ومملكة قوية ، وإن كان هذا مجرد اقتراض لا يزودنا بأنياب قاطع (٥٢) . والأمر على العكس من ذلك بالنسبة إلى الأقطاعيات الثلاث الأخرى ، إذ يمكننا أن نحدد مواقعها على الخريطة . فهناك أولا مدينة قرياقوس (سوق الكركي) Korykos الكائنة على بعد خمسين ميلا فقط (٥٣) من جزيرة قبرص ، وهي موقع ملائم للحركة للتجارة التي تلتصق بمنطقة قوية (٥٤) . وكانت هذه المدينة على ما يبدو الميناء المفضل لدى الجنوبيين . أما قصر سيده جاستون Gaston (جاستيم Gastim) فقد كان يشرف على ممر بيلان ، على بعد أربعة أميال لحسب من الطاكية (٥٥) : بمعنى أنه كان على الجنوبيين في حيلهم للتجارة أن يجتازوا القنينة ، ذلك لأنهم كانوا يترددون كثيرا على الطريق الكبير الذي يبدأ من الطاكية ، ويمتد إلى خليج الاسكندرونة من

(٥١) Dulaurier, dans le Recueil des hist. des crois., Doc. armén., I, p. lxxxv et ss.

(٥٢) في عام ١١٩٨ كانت هذه القلعة في حراسة بارون أرمني اسمه سيباد Ibid., p. xciv - Semped

الفرعي لسفرج ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ - (المراجع) .

Mes-Latrie, Des relations de l'Asie mineure avec l'île de Chypre - Bibl. de l'école des chartes, 2e série, I, 302.

Gesta Ricardi I, éd. Suijbs, II, 184. (٥٣)

Mes-Latrie, Des relations de l'Asie mineure avec l'île de Chypre, Bibl. de l'école des chartes 2e série, I, 303. (٥٤)

wilber ab Oldsch. p. 124; Innoc. III, epist. lib. II, no. 239, lib. xii, no 45 ; Gesta Innoc. III, p. 72; p. 72, Raynold, Ansal, eccles. ad an. 1205 et la note de Mansel, Conf. de Guill. de Tyr, dans le Rec. p. 126 et note; Documents arméniens, I, éd. Dulaurier, dans le même Recueil, p. 171 et ss. not. (٥٥)

طريق جبل أمايوس *Amanus* (٥٦) ، ومن هناك إلى المصبصة وأطلنه .
وتقرأ في الوثيقة المشار إليها أن لاؤون سيده جابان *Gaban* فرض الأثوة
على التجار المارين بجيخان (٥٧) ، وكانت جابان قلعة كائنة في الجبل
شمال غربي مرعش (حراسيون) على رافده شمالي نهر جيخان (٥٨) ،
وكان إقليم السيد المعروف بهذا الاسم يمتد حتى نهر جيخان . وإذا كان
التجار الجنوبيون يذهبون هناك رسم مرور لذلك لأنهم يورزون الحدود
الشمالية الأرمنية .

ويعد التقضاء حوالي ستة شهور عن قنوم أو جيري دي باللو ، وصل
إلى أرمنية سفير من البندالية يدعى جاكوبو بادوارو *Jacopo Badoaro*
مبعوثا بمسندات مطلقة من قبل الدوج أنريكو دالندولو ، وحصل على
امتيازات ماثلة لقريسا للاستيلازات المسموحة للجنوبيين بأجارة عام
١٢٠٦ (٥٩) وأن كانت في الحقيقة أضيقت منها نظافا بكثير . وقد أرخت هذه
الاجازة التي لم تسمح البنادقة سوى كنيسة، ومستودع وأرض لبناء دار عامة
domus في المصبصة، دون أن يحطوا بشيء في سيس أو طرسوس ، بشهر
ديسمبر عام ١٢٠٦ . وكان تجارهم ماثونا لهم بممارسة التجارة بمطلق
الحرية في المملكة كلها ، وبأنور في البلاد المجاورة بشرط أن تكون
أرمنية على علاقة سلمية معهم . ولم تكن الرسوم الجزئية تستحق إلا
على البنادقة القيمين في الشرق (في سورية) ، على مرورهم من
الأبواب القبلية (بورتيللا) ، أما غيرهم من البنادقة فكانوا معاقبين من
هذه الرسوم ، فيما عدا المواد المصنوعة من ذهب أو فضة ومستوردة
بفرض تحويلها إلى نقود . ولم يرد في هذه الاجازة التي أصدرها لاؤون
القائم ذكر لتعيين قنصل أو حاكم مستعمرة *bails* بندق في أرمنية ،
ولا نجد أيضا ذكرا لذلك في الاجازة التي أصدرها حنرم *Hethoum*

(٥٦) ي هناك أنه إحدى جبال أو قمم سلسلة جبال طروس الداخلية التي هيها
الغرب باسم جبل الككام حيث كانوا يقيم في المثلث الصيني ، كان ذلك على كبر
من الغرباء (الرابع) .

Quatremere, Makrid, l.c. p. 300 , *Saint-Martin, Mémoires* (٥٧)
sur l'Asie-Mineure, I, 184; *Langlois, Trésor*, p. 119; *Cont. de Guili de*
Tyr, p. 308.

Saint-Martin, l.c. I, 302-303 ; *Dalouvier, l.c. p. XXV et s.* (٥٨)

188 et s., 483, 513, *Bilder, Kleinasiens*, II, 38 103, 187 (٥٩)
Archiv. stor. Ital. App., ix, p. 361-364; *Taf. et Thom*, I, 381 et ss.,
Langlois, l.c. p. 109.

في شهر مارس ١٢٤٥ (٦٠) ، وهي الاجارة الثانية من حيث تاريخها ،
 أما من حيث يودها الرئيسية فإنها ليست سوى نسخة من الأولى . وفي
 نصوص احارة عام ١٢٠٦ أنه اذا توفي أحد البنادقة ، ولم يكن هناك من
 مواطليه من يرثه ، تبقى ثروته مودعة عند كبير أساقفة سيس حتى يتصرف
 في أمرها دوج البندقية أو ساكن مستعمرة البنادقة *ballo* في عكا
 (ولد أضيخ هذا النص في برادة عام ١٢٤٥) . ولم يرد في أية واحدة
 من البرادتين ذكر لقاض يستقضي يفصل في المنازعات بين البنادقة ، وإنما
 يتدخل لقاض مثل هذه الأمور أي بنادقة آخرين بصفة محكمين من حضروا
 المناقشة موضوع النزاع . فإذا لم يكن هناك ثمة شهود للنزاع ، يمهّد
 بالفصل فيه إلى رئيس أساقفة سيس الذي يرجع إلى وظائفه الكنسية
 وظائف المستشار ورئيس القضاة (٦١) .

ومن المعلوم أنه وإن كانت منشآت البنادقة وقتئذ أقل حجما من
 منشآت الجنويين ، إلا أن تجارتهم كانت بالفعل أكثر نشاطا واتساعا .
 ويفترض من برادتي عامي ١٢٠٦ ، ١٢٤٥ أنهم يزورون كل البلاد المجاورة
 لأرمينية ، مسيحية كانت أو إسلامية ، ومن بين هذه الأخيرة بانتاكيه
 سلطنة قونية . ذلك لأن البندقيّة كانت منذ فجر القرن الثالث عشر
 مرتبطة مع أمراء هذه الدولة بمعاهدات تسمى إلى تنمية العلاقات التجارية
 بين البلدين .

والواقع أنه لم يكن لأرمينية وقتئذ في نظر الغربيين من حيث
 التجارة الأهمية التي صارت لها فيما بعد ، حيث لم تكن في نظرهم سوى
 دولة تابعة للدول الصليبية في سورية ، شأنها في ذلك شأن جزيرة
 قبرص ، وإن كانت قد تجاوزت قبل قبرص هذا الدور الثانوي ، ولزادت
 أهميتها يوما بعد يوم ، حتى صارت من المحاط الرئيسية في تجارة الشرق
 الأدنى . والحقيقة أن أصل هذا الازدياد في الأهمية يرجع إلى عشرين أو
 ثلاثين سنة قبل سقوط عكا ، مرتبطا في ذلك بطرق ليس في وسعنا
 أن نتحدث عنها هنا بالتفصيل . فهناك ثمة اعتبار يحملنا لتوقف عند
 هذا الحد . ذلك أننا داخلون في عصر آخر ، فينبغي أن سقطت . إمارة
 عكا ، ومنها الحصن الشمالي للدول الصليبية في أيدي المسلمين (١٢٦٨م)
 لم تعد أرمينية جارة لها ، وإنما أصبحت معتمدة على قوتها الذاتية .

Archiv, stor, i.e.p 365 et ss. ; Taf et Thom, II, 438
 et ss. , Langlois, p. 148 et ss. , p. 148.

(٦٠)

Langlois, p. 34 ; Dulaurier, i.e. p. lxxxvii.

(٦١)

— سورية المسلمة ، من حيث موقعها خلف الدول الصليبية

عندما يقتضى الأمر إيضاح الطريق الذى تسلكه مستجات الشرق لتصل الى الدول الصليبية ، ينبغي علينا أن نعود بخطانا الى الوراء وننتقل من البلاد الواقعة خلفها ، أى الى الجزء من سوريا الذى بقي فى أيدي المسلمين . فالواقع أن تجارة الحراس السورية كانت تنزود أساسا من الأسواق الكبرى فى حلب ودمشق ، وكذا من محاط أقل أهمية فى حمص وحماة . وينبغى أن نقضى وقت طويل قبل أن يجرؤ التجار الأوروبيون على المخاطرة فى هذه المناطق المتعيرة بلادا معادية . وشيئا فشيئا حلت حدة الأحقاد ، وكثرت عادت علاقات أهم أوروبا التجارية مع مسلمي مصر الى ما كانت عليه قبلا ، زال النور بالتدريج من أخوانهم فى الدين (أى المسلمين) فى سوريا . ومن اليوم الذى أصبح فيه سلاطين مصر سادة هذا البلد ، أى منذ أن تولى صلاح الدين مقاليد الحكم ، ضمنت المعاهدات التى أبرمتها هذه الأمم قبلا مع مصر ترحيبا طيبا بها فى سوريا . لذلك نرى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر تجار عكا من البندقية يزورون دمشق وعدنا اسلامية أخرى (٦٢) ومهات لهم أوطانهم الطريق بأن تبادلت السفراء مع سلاطين حلب ، والعديد من سفار أمراء شمائل سوريا . ولم تكن هذه الأمم تستهدف بذلك فقط توسيع نطاق تجارتها داخل القارة ، ولكنها كانت تنمى أيضا الاحتياط بمواقعها القديمة على الساحل . ونحن نعلم أن جيوش صلاح الدين المظفرة أنزلت بامارة أنطاكية خربة قاصمة ؛ وفى حين خرجت الإمارات الأخرى من هذه النكة وقد انكمشت حتى أصبحت قاصرة على شريط من الأرض يمتد على طول الساحل ، ولكنها ظلت متحدة ومتراصة ، قلقت امارات أنطاكية قسما من سواحلها ، ولتضم إقليم المسلمين فيما يشبه الزاوية حتى بلغ البحر بين أنطاكية وطرابلس ، وغرا صلاح الدين اللاتينية Leodicee وسيل Gibel (٦٣) . حقا ، لقد اضطرت الحاميات الاسلامية لهذين الموقعين فى عام ١١٩٧ الى الانسحاب أمام قوات الأمير بوهيموند الثالث (أمير أنطاكية) (٦٤) . ولكن نجاح المسيحيين هنا كان نجاحا مؤقتا . فى عام ١٢٠٣ سارت فرقة من الصليبيين برا من عكا الى أنطاكية فوجدت جبيل وقد احتلها أمير مسلم ، فواصلت طريقها

Taf et Thém II, 338.

(٦٢)

Aboulféda, dans le Recueil des hist. des crois, p. 38 , Ibn-
Alathir, Ibid, p. 719 et s.

(٦٣)

Wilken, V, 49.

(٦٤)

وكان عليها أن تمر بإقليم سلطان حلب ، فهاجمها العدو بالقرب من اللاذقية وهاجمها تقريبا (١٥) . وظل الخوف على حاله في عام ١٢١١ . عندما زار فيلبراند دولدنبورج Wilbrand d'Oldenbourg هذه البقاع . فمن مرجات Margath ، ركب هذا الحاج البحر ليبحث في ثلاث مدن إسلامية وإقاليمة : جبيل التي يحتلها صهر سلطان حلب ، وميجون Sébjoun وهي قلعة يملكها هذا السلطان ، واللاذقية . وكان عليه ، ليجده أوطى مسيحية ، أن يواصل طريقه حتى سويدين Souidin (السويدية Soueidih) حيث مرّ من السعيبة (١٦) . وهناك ، عن عشر السنين التالية ، دلائل تثبت احتلال المسلمين اللاذقية وجبيل . هذان الموقعان هما ضمن المواقف التي اصطفاها السلطان ، الملك الكامل ، للصليبيين في عام ١٢٢١ في مقابل مدينة حمص (١٧) ، ولا رفض عرضه هذه بقيت المدينتان في أيدي المسلمين كما كانتا من قبل ، وهذا أمر ثابت لا جدال فيه . حقا لقد تصرف الأميران البلدان ثدازعا خلافا بهمه انكاث في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، ريموند Raymond Roupen وبهيمه الرابع ، تصرفا كما لو كانا سادة جبيل ، صبح أحدهما المدينة لهرسان القديس يوسف ، وصحبها الثاني لهرسان الهيكل ، فمشا بين الطائفتين مراع لم ينته الا بقرار محكمة (١٨) . ولم يكن للملك أهمية : فالواقع أن جبيل لم تكن تابعة لا لروين ولا لبهيمه ، وكل ما كان في وسعها أن يمنعها هو الحق في غزو المدينة ، وكان هذا الحق هو موضوع النزاع بين الطائفتين . ولكن المدينة بقيت مسيئة (١٩) . وإلى الآن لم نلتفت إلى هذه التفاصيل ، ولكنها كافيية لكي ندر كيف أنه منذ بداية القرن الثالث عشر ، اخفي اسم اللاذقية وجبيل تساما من الاجازات التي منحها أمراء اطاكية لصالح الأمم التجارية . ولكي تستطیع هذه الأمم الاحتفاظ بممتلكاتها الاستعمارية في حاتین المدينتین ، والحقوق الملحقه بها ، لم يكن عندهم أن يتدخلوا أمراء اطاكية الذين لم يكن في وسعهم أن يصنعوا شيئا في هذا الخصوص ، وإنما كان عليهم أن يتوجهوا إلى أمراء حلب ، أو الأمراء الصغار التابعين لهم بسو

Contin de Guili, de Tyr, p. 347-348, (١٥)

Wilbrand ab. Oldenburg ; dans Laurent, Pègrimages (١٦)
medi occi, p. 170 et s.

Aboulf. l.c. p. ٥7; Ibn Anshir, dans Michaud-Reinaud, Bibl. (١٧)
des crois, IV, 413.

Paoli. Cod. dipl. I, 95, 99, 113, 120, 123, et s. (١٨)

Paoli, p. 124, (١٩)

ما ، وكان في أيديهم هاتان المدينتان وأقليتهما . على أن جمهورية البندقية كانت تريد شيئاً خلاف الاحتفاظ بالوصع القديم . كانت تريد توسيع تجارتها . ومن ثم عقدت علاقات دبلوماسية مع أمراء حلب . وفي عام ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ (عام ٦٠٤ هـ) رأى عياض الدين الظاهر ، ابن صلاح الدين ، وأول أمير من أسرة الأيوبيين التي حكمت حلب فترة قصيرة ، رأى ب . ماريغوني P. Marignoni مبعوث الدوج ريناني Ziani وقد وصل إلى بلاده ليعقده معه معاهدة تجارية . ومن ثم منح البنادقة في مدينة حلب فندقاً وحماماً وكنيسة ، ووقع من يأتي منهم للإقامة بها . وكما المقيمين في اللاذقية أن يساعدتهم موقوفه في الحالات التي يصعب عليهم فيها التوجه إلى القضاة ، وضمن لهم عدم المساس بثرواتهم في حالة الوفاة ، وحلّد بصورة عامة الرسوم الجمركية فجعلها ١/٢ عند الشحول والخروج . وبالنسبة إلى الآلة والأحجار الكريمة ، يتعين على التجار البنادقة أن يدفعوا الرسم نفسه كلما أراتوا إعادة تصديرها ليبيها في جهات أخرى . وبالنسبة إلى الفطن كان عليهم أن يسندوا عند باب مدينة رسماً قدره ١٧ درهماً على حيولة الدابة ، غير أن الأمير أعفاهم من المكوس التي تحصل عادة عند المرور بجبل سيفام Caffam (٧٠) .

وفي عام ١٢٢٥ ، في عهد الملك العزيز حليفة الظاهر ، أرسل الدوج سفيراً ثانياً اسمه تومازينو فوسكاريني Tommasino Foscarini فحصل هذا السفير على تخفيض الرسوم الجمركية إلى ١/٦ وضمانات أقوى لسلامة أموال الرعايا البنادقة في : الوفاة والفرق ، إذ كان البنادقة مهددين بانتزاع ممتلكاتهم في اللاذقية . ومن ثم التمس السفير من الأمير أن يحتفظ لهم بها . ولكن الأمير أجابه بأن ذلك ليس من سلطته ، وأجابه إلى أمير اللاذقية . وعلى ذلك ذهب فوسكاريني إلى هذه المدينة ، فأيد الأمير حق البنادقة في أن يمتلكوا في اللاذقية محكمة وقنصل وكنيسة وحماماً ومخبزاً ، وخفض القرية على المبيعات والمشتريات من ١/٨ إلى ١/٤ ، والرسوم الذي يحصل من حيولة الدابة (Soma) من ثلاثة دراهم إلى درهين .

(٧٠) انظر « البرقة » في ١

Taf. et Thom. II, 63 et ss. ou dans Cicogna, Iscrie Venez.

لما يصوصو جبل Caffam أو Caffam الذي اعترف إلى ثم أجده هذا الاسم أو أي اسم جديد له على طريق القوافل التجارية إلى حلب أو طريق اللاذقية إلى حلب . — (Aboulf. Géogr. II, 2 p. 39 . Chereffouddin, Chereffnamah, éd. Charney, I, 1, p. 370, 740).

— وكانت القوافل الداعية من اللاذقية إلى حلب تمر حتماً على هذا الجسر حيث

مرجده مكتب الجمارك : وهو معروف اليوم باسم جسر الشفور .

Ritter, Syrien, II, 308.

انظر

ومع ذلك لم تكن مهمة فوسكاريني قد انتهت ، إذ كان معه رسالة عليه أن يسلمها لسيد سيجون *Seuoun* ، وكانت قلعة مسيجون من أمنع القلاع القائمة في جبال شمالي سوريا (٧١) ، وتقع على مسيرة يوم واحد شرقي اللاذقية ، وتشرف على طريق القوافل يهيم حوض النهر الكبير وجبال النصيرية *Nossairis* ويسر بالاورونت (نهر العاص) عنه جسر الصغور *Djlar-ech-Chogr* ، ويتجه من ثمة إلى حلب (٧٢) . ومن الداعية الأخرى يستد الاقليم التابع للقلعة حتى البحر (٧٣) ، بين اللاذقية وجبيل ، ويمتد إلى نهر بلسان من الأرض يحس موردة (٧٤) كتيبا ما تأوى إليها سمن الغرب عند الضرورة . كان يهم السيادة من كل الوجوه أن يكونوا على وفاق تام مع سيد البلد ، فلقد لجئنا إلى سديهم على الساحل ، ولقد يموت تاجر منهم وهو يسر بالقلعة . ولكن وبمنوع خاص (وحذى مسألة ذات أهمية كبرى) قد يفرض السيد ضرائب مرتفعة على البضائع المنقولة من حلب إلى البحر ، أو العكس ، وبعد استيلاء صلاح الدين على القلعة في عام ١١٨٨ أعطىها القطاعية لم يدعى ناصر الدين مانكوبارس *Naasiroddin Mancoubars* (٧٥) . وليس في الامكان إثبات ما إذا كان سيد القلعة في عام ١٢٢٥ هو هذا الشخص نفسه ، ذلك أن فوسكاريني لم يذكر أي اسم ، على أنه لا أهمية لهذه المسألة : لقد أعطى (سيد القلعة) للسفير ، من أجل سلامة البداة ، وإموالهم نفس الضمانات التي لسائر الأمراء ، بالأهالة إلى تفتيش طفيف في الرسوم على القليل واللعن (٧٦) .

وفي أواخر عام ١٢٢٩ أوفد الدوق جاكوبو تيبولو *Jacopo Tiepolo* سفارة جديدة إلى مسيجون وحلب ، ويدهي السفير جيوفاني سوكوجولو

(٧١) في هذه القلعة ، انظر أبو الفتح (Géogr. II, 2, p. 38) وابن الأثير ،

(Revue, p. 721) وابن بطوطة ١، 186 .

— L'index géographique de Schultens dans la *Revue de la Géographie*, p. 82 ; Dulaurier, *Matériau d'Etudes* Rec. des hist. des crois. Des. armén., p. 18, Michaud-Reinoud, *Bibl. des crois.* IV, 227; Taf. et Thom. II, 269, 272 et Ansbart. exp. Frid., éd. Dobrowolski, p. 3

Ritter, *Reise*, XVII 1, p. 907 et s. 911 et s. 971 et s. (٧٢)

La relation de voyage de Wülbred d'Oldenbourg. (٧٣)

Cosmographie de Chemseddin-Dimeschky, trad. Mahren, (٧٤)

p. 83

Aboulsida, dans la *Rec. des hist. des crois.* p. 89, 90. (٧٥)

أبو الفتح ... ، ابن الأثير المرجع السابق ص ٧٢٢ .

(٧٦) نتائج سفارة فوسكاريني في حلب واللاذقية ، وسهري مفضلة في ورقة رقم ١ (Taf. et Thom. II, 266 et seq.)

Giovanni Succugulio • وكان أمير سيجون وقتئذ شخصاً يدمي
مظفر الدين (٧٧) ، چند واكد الامتيازات التي منحها سلفه ، وذلك
في مودينا الرئيسية ، ووعده بأن يترك للبيادقة مهمة تسوية المنازعات
التي تقع بينهم .^١

وفي اجازته تدرك في تعريفة رسوم التراخيص المفروضة على
القتل واللقطن بين محاولة الجمل وحسولة البعل ، ولم يمد السعر الذي
يحدده أسلافه لحسولة الدابة بوجه عام يطبق الا على حسولة الجمل ، أما
بالنسبة الى حسولة الفيل فقد خفض السعر بدرجة محسوسة (٧٨) • ووجد
سوكوجولو في حلب الأمير نفسه « الملك العربي » احدى تعامله معه قبلا
دوسكاريس • ولكن يشجع هذا الأمير التجار البيادقة على زيارة بلداه أكثر
من ذي قبل ، خفض بعض الرسوم التي يدفعونها عند الاستيراد
والتصدير ، ولكنه أبى على سعر متوسط قدره ١/٦ ، ووعده بأن يجعل
التجار البيادقة في مأمن من أي ضغط يقع عليهم عند البيع والشراء ،
وعين موظفا خاصا مهمته تلقي شكايتهم ضد المطالبات المرفوعة من جانب
موظفي الجمارك ، وخصص للبيادقة فضلا عن ذلك بالشم مستوطنة في
حلب واللاذقية ، وأن يقيموا على رأس هذه المستوطنات بايلا (سفيرا
بندقيا) ، يضم اختصاصه القضائي كل المنازعات والخصومات بين الرعايا
البيادقة ، ومنهم كنيسة في اللاذقية • وكانوا من قبل يملكون قنصلين
أحدهما في حلب ، والثاني في اللاذقية ، ووعده بأن يمنح لهم مدنا ثابتا
« بالقرب من الجسر (ad pontam) (٧٩) والواجب أن المقصود بذلك
هو جسر الصنوبر ، على ضفاف نهر العاصي الذي لا يند من عبوره للذهاب
الى حلب واللاذقية • كما وعد الأمير بالامتناع عن أي احراء تارى ضد
التجار البيادقة في حالة ارتكاب أحد مواطنهم سرقة اضرارا بأحد رعاياه ،
وأن يحس من تفرق سفينته ، من أمتهم في القيسية اللاذقية وجبيل (٨٠) •
وفي عام ١٣٥٤ زار مسافر يدعى ثالث اسمحه جيوفاني ساجريو
Giovanni Sagredo بلاط آخر أمراء حلب من سلالة صلاح الدين ،
الملك الناصر ، وحصل منه على خطابين محررين بالفرنسية ، اطلعنا عليهما ،

(٧٧) لم يذكره المؤرخون العرب الا ليقرؤوا الله أو سيف الدين الذي كان في
حوزة سيجون Séhjoum ، ١٢٦٢ ، ١٢٧٢ ، انظر ابن النديم (I.C. p. 148, 154)
في ١٢٦٢ - ١٢٧٢ انظر ابن النديم I.I. p. 170 ، والنعماني I.I. p. 179

(٧٨) انظر النماذج في Tar, et Thom, II, 272 et s.

(٧٩) Ritter Erdk. XVII 2, p. 1009 et ss.

(٨٠) Taf, et Thom. II, 274-276.

لا يحتويان إلا على وعود بالصداقة والحماية ، محررين بمبارات عامة ،
وإذ يتبين فقط أن البنادقة ما زالوا يمارسون في ذلك الحين تجارتهم
مع حلب (٨٦) .

وبعد بضعة سنين ، حلق الناصر من عرشه ، جدهم حولاً نحو ، حان
المغول (١٣٦٠) ، وقطعت رأسه في سجنه (١٣٦١) (٨٢) ، وبقيت
سلالة سادة سيجون بعد انقضاء سلالة الأيوبيين في حلب . وفي وسعنا
أن نتتبعها حتى مسابق الذي سليمان Sabik-eddin Soriman
الذي يملك القلعة مع أخيه قاضي الدين ، وتنفيدا للرغبات التي أبدتها
أبوه في وصيته ، سلم القلعة للسلطان بيبرس (١٢٧٢) (٨٣) . كما
حارب فيما بعد السلطان قلاوون ، بقوسادة خصمه سنقر الأشقر
Sonkor-Achkar ، حتى إذا انهزم فريقه وقع في الأسر وسجن (١٢٨٠) .
ومع ذلك احتلقت سنقر الأشقر بالقلعة ، وجعل منها حصه ، وبقي بها
عدة سنوات (٨٤) .

لماذا كان مصير البنادقة وسط هذه الانقلابات والتغيرات في الأمر
الحاكمية ؟ هل بقي لنبيلهم في حلب إبان الغزو المغول دون أن يصاب
بشيء ؟ وهل أحترم سادة حلب وسيجون أجدد المعاهدات القديمة ؟
لا علم لنا بشيء من ذلك . غير أن شيئا واحدا أكيدا : ذلك أنه في أواخر
المصور الوسطى كان عدد كبير من التجار البنادقة ما زالوا يذهبون إلى
حلب ، وآخرون مقيمين بها . وسوف نتكلم في هذا الخصوص ، ولا يبقى
سوى أن نضيف كلمة بشأن المواد التي كان البنادقة يستوردونها إلى
حلب ، والمواد التي يصنعونها منها . فمن المواد المستوردة تذكر المعاهدات
التي استمرضاها الآلات ، والأحجار الكريمة ، والفضة ، والنحاس ،
والأمشاط ، ومن مواد التصدير القطن الذي كانت سورية
تنتجه أيضا بوفرة ، والتوابل (وبخاصة الفلفل) التي تصل إلى حلب
من الخليج الفارسي والفرات . ولا ينبغي عن الجبال أنه عند تحرير هذه
المعاهدات لم يكن المقصود وضع قائمة كاملة بالأشياء التي يلتزم البنادقة
بتلديها للتجار ، سواء في حلب أو في الطريق ذهاباً وإياباً ، ولا

(٨٦) Théod. III, 60-62, Mes-Léris, dans la Biblioth. de l'école des
Chartes, 3^e série II, 227.

Well, Gesch. d. Chailf, IV, 18 et a. IV, (٨٢) .
(1, 2, p. 110) القريزي (Rép. p. 154) (٨٣) -
(II, 1, p. 18, 30, 41, 87 et a.) القريزي (٨٤)

لم تكن الأندلس الحربية قد سيطرت ، لأن حلب كانت من الأسواق الرئيسية لهذه السنة (٨٥) ، أو سى أيضا الشعب الذي يتجه هذا قبله ، والذي تصادفه كثيراً في الغرب اعتباراً من القرن الثالث عشر .

— مصر :

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان طريق البحر الأحمر هو بالتأكيد أكثر الطرق المرولة ملائمة للصلة بين الشرق والغرب ، فهو يختصر بأقل ما يمكن المساعب والتلفات الباهظة المترتبة على التوصلات البرية ، وبفض النظر عن الشريط الضيق من اليابس الذي يوصل البحر الأحمر عن النيل ، كانت البضائع المستوردة من الهند أو الصين تنقل دائماً بطريق البحر ، وتتبع الخط الأكثر استقامة ، أي الطريق الأحمر للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . ونحن نعرف دور مصر الهام في التاريخ القديم : وتدين مصر بهذا الدور الهام لموقعها المركزي ، وللمركبة التجارية الهائلة التي توجبت على هذا الموقع ، وفي المصور الوسيط لم يكن هذا الوضع قد تغير ، ويمكن القول عن مصر كلها ما قاله جويوم (ولیم) المصري عن الاسكندرية بسوق خاص (٨٦) : أنها سوق العالم .

ويتناول هذا الفصل بالإيضاح كيف كانت منتجات الشرق البادرة للطلوبة بكثرة تصل إلى مصر وتخرج منها في العصر الذي وصلت إليه دراستنا هذه ، أي في زمن الحروب الصليبية : لذلك ينبغي لنا أولاً أن نوجه أبحاثنا صوب الجنوب الغربي من بلاد العرب ، فقرة بلدان على الساحل : عدن ، وبيد حطينا بشهرة عالية بسبب اتساع نطاق ما كان لها من علاقات . وفي الأزمان القديمة كان سكان صمدان على ساحل عمان يرسلون سفننا إلى الهند والصين ، ولكن منذ أن مارس قرصان جزيرة

Voyez les extraits de l'Histoire d'Alep, par Ibn-ouf-Chi- (٨٥)
hach, communiqués par M. Kremer dans les Sitzungsberichte der
Wiener Akad, 1860, avril, p. 229, 242.

Gulf de Tyr, XIX, 27,

(٨٦) .

كيش غاراتهم في الخليج الفارسي ومجاوراته (٨٧) تركزت تجارة بلاد العرب كلها تقريباً في عدن ، وبجرت حركة ملاحية نشيطة بين هذه المدينة والبلاد التي يرونها بحر الاندوس (السند) ، وشبه جزيرة جوجارات Guzerato (٨٨) (على الساحل الغربي لهند) ، وساحل المنيار (٨٩) والهند الصينية ، والصين (٩٠) . ويكتفينا ، لكن نقدد كمية المنتجات التي ترد على عدن ، ان نتصفح ما أحصاه الادريسي منها . ولكننا نكتفي بذكر بعضها ، فمنها : المسك ، واللؤلؤ ، والأهال (المعروف بالهيهان) ، والكرفة ، والنولجان ، والاهليج (جنس شجر هندي ذو ثمر) ، والكافور ، وجوز الهند ، وجوز الطيب ، والصير ، والأينوس ، والعاج ، والحرشيب ، وكذلك الأراسي الفخارية التي قال عنها ريتز Bitter انها بوسلبي (خزف صيني) (٩١) .

وكانت زبيد تتلقى من عدن منتجاته الهند والصين ، اما بطريق البحر ، أو البر ، ولما كانت تلك المدينة تقع في سهول اليمن التي لشرف على البحر الأحمر كان سكان الشواطئ يفضلون أن يتزودوا منها بمؤناتهم لأن ذلك يجلبهم الرحلة إلى عدن التي تقع وراء مضيق باب المندب (٩٢) . أما عن التجارة العامة فان هذه المدينة (أي زبيد) ظلت بالنظر إلى موقعها على بعد يزيد على خمسة أميال من الشاطئ في المرتبة الثانية . وكانت عدن هي السوق الرئيسية الكبرى . وهناك تجري مساعدة (المساعدة) نقل البضائع من سفينة إلى أخرى من أشراف (البضائع الشرق) . وكثيراً ما يتنقل ملكية هذه البضائع من شخص إلى آخر .

يقول المقرئزي ، وهو كاتب حديث نسبياً ، ولكنه صديق في تاريخ مصر وجغرافيتها ، انه طوال الأزمان القديمة كانت سلع التجار الهنود

(٨٧) الادريسي . ترجمة Janbeet (I, 163)

(٨٨) ابن سجين (للقرن عام ١٧٧١) ، ذكره أبو اللها

Geogr. II, 2, p. 116.

(٨٩) كان يصل إلى عدن سفن قادمة من كولام Koulam الفري ابن سجين .

في أبو اللها

(٩٠) الادريسي ، II, 81 ، ابن الأثير في

(Rec. des hist. des crois hist I, 397)

يسمى عدن سوق الهند ، وزنجبار ، والعبيدة ، وصال ، وكريما ، وكيش ، وندرس . الخ وفيها يفتش بالصين . يذكر مؤرخ أسرة سونغ انه لم يفسد هذه الفترة كانت السلع الصينية تتخذ الطريق من القليم فر - كيش إلى جزر ليكوبار Nicobar (٩) في أرخبيل يوما ، ومن هناك إلى بلاد العرب (ربما إلى عدن) في سجن يوما . انظر :

Bretschneider, On the Knowledge, etc, p. 15 et s.

Arabian I, 243

(٩١)

Krist, I, 49.

(٩٢)

تلقى مراسيلها من عدن . وانها ، على ما يذكر الباس كافة لم تتجاوز ابدا هذا الميناء ، الا انه من الأرملة الأخيرة ، أي في القرن الخامس عشر بدأت تبحث عن مواقع للرسل داخل البحر الأحمر (٩٣) . وثمة سبب معقول كان يمنع سفن الهند من أن تتجه نحوها إلى الساحل المصري : ذلك أن الخليج العربي وهو الاسم القديم للبحر الأحمر - المخرج - ملئ بالصخور . وكان المعتقد أنه من الخطورة أن تسجله سفن ذات حمولة كبيرة ، يقودها ربالية لا خبرة لهم بهذه النواحي (٩٤) . وعلى ذلك كانت منتجات الشرق ت شحن في سفن صغيرة تمر من باب المندب . وقد سبق أن ذكرنا ان هذه البضائع كانت تستقل كثيرا من يد إلى أخرى في عدن . والغالب أن يتهنئ الهنود الذين يحضرونها فرصة وجودهم هناك ويبيعونها إلى تجار عرب أو مصريين قبل أن يعودوا إلى بلادهم . ومع ذلك كانوا يصحبون بضائعهم أحيانا حتى مصر ، ويبيعونها في أسواق هذا البلد . وكان هذا الأمر كثير الحدوث ، فلم يكن وجودهم هناك يثير أية دهشة (٩٥) .

وكان طريق السفن المحملة بمنتجات الهند يلتقي في وسط البحر الأحمر بطريق الحجاج الإفريقية الذهبية إلى مكة . فلقد كان الحجاج فيما مضى يسلكون الطريق البري في شبه جزيرة سيناء ، غير أنه منذ أن احتل الفرنجة مملكة بيت المقدس ، وجعلوا يهيئون سيطرتهم من وقت إلى آخر حتى خليج (العقبة) ، شعرت القوافل بالخطر الذي يحيط بها . ومن ثم غيرت طريقها ، فجعلت تسعد مجرى النيل ، ثم تدير الصحراء التي تصل بين النهر والبحر الأحمر وكان ميناء نزول الحجاج هو أيضا ميناء تغريف شحنات منتجات الشرق ، وموقعه في مصر العليا يسمى عيذاب Aïdab (٩٦) . ويسمى لنا أنه كان يقع في مجاورات رأس علية (٩٧) .

ويقول القرطبي أن سفن الهند واليمن كانت تفرغ شحناتها هناك ، ونسي أنه قال في موضع آخر ان سفن الهند كانت تتوقف عند عدن . وكانت السفن العربية والمصرية هي التي تأتي من عدن إلى عيذاب بالبضائع

De Sacy, Chresomethia, arabe, II, 54. (٩٣)

I, 29, 221 (٩٤) الاندلسي

Thévenet Hier in terram sanctam, éd. Tubier, p. 36 et s., (٩٥) éd. Laurent, p. 49.

(٩٦) الاندلسي : I, 123 أبو القاسم (Geogr. I, 144) ، الذي في : Quatremère, Mémoires sur l'Égypte, II, 162 et s. ; Oulé de Tyr, XIX, 28.

Vivien de Saint Martin, Le Nord de l'Afrique, p. 262. (٩٧)

ويعطى التجار القادمين من الهند ، ومن هناك ينقل التجار والبضائع إلى
ظهور الجمال إلى النيل عبر الصحراء .

ومن المؤسف له أن حويدم (ولیم) الصوري ، والادريسي لم يذكر
بلقح الذي تميل عنده القوافل على ضفاف النيل . وقد فكر في أسواق
حيث كانت المراكب النيلية تصعد النهر إلى هناك ، كما كان هناك طريق
من عذاب إلى أسوان عبر الصحراء (٩٨) . والواقع أن الادريسي ذكر
هذه المدينة ، ولكنه قال أنها المكان الذي تجرى عنده المبادلات بين مصر
والنوبة (٩٩) . وثمة ثلاثة كتاب في عصر قريب جدا من عصر الحروب
الصليبية : هم صانوتوا الأكبر ، وأبو الفدا ، وشهاب الدين ويذكر هؤلاء ،
كما سنرى فيما بعد مدينة قوص (١٠٠) الواقعة شمالي أسوان على أنه
كانت محطة في طريق تجارة الهند . بل يروي الادريسي أنه كان يجري
في قوص حركة استيراد وتصدير كبيرة ، كما كان يجد المرء بها شحدا
كثيرا من التجار . ويضيف صراحة أنه كان بين عذاب وقوص خلعة
منتظمة من القوافل (١٠١) . ولما كان الثابت أن عذاب كانت آمنة موضع
الترحال مستجابه الهند من المسلمين ، فانا لا نخطئ إذا قلنا أنه منذ القرن
الثاني عشر كانت قوص النقطة القصوى التي ينتهي عندها نقل البضائع
عن طريق البر . وكان عبور الصحراء بين عذاب وقوص يستغرق عشرين
يوما على الأقل حسبما يقول الادريسي ، وبسبعة عشر يوما على قول
إلقريزي . ومن قوص تنقل البضائع على مياه النيل حتى دمايط أو
وشيد . ومن وشيد إلى الاسكندرية طريقان : قناة الشاوير التي يسلكها
الملاحون بسهولة ، في وقت الفيضان فقط ، وفرع طبيعي (من النهر)
يصب في حوضين على التوالي ، ويسمح للمسلم أن تقترب إلى مسافة ستة
أميال تقريبا من الاسكندرية . وهذا الجزء الأخير من الطريق لا يمكن
سلوكه إلا بطريق البر (١٠٢) .

(٩٨) أبو الفدا . الادريسي I, 38

(٩٩) الادريسي I, 38

ومن المعلوم أن طريق الحج قد تحول بعد ذلك في عصر سلاطين المماليك إلى مذهب
الحج بسيده ، فصبحت به شجرة النور والظلمة ببيروت وتلاوين والقوى ... الخ (الراجع)
(١٠٠) هي أبولينيوبوليس باربا *Apollinopolis parva* المدينة الواقعة على
النيل أما كوبيوس *Koptos* فلهذا KIS ٤

(١٠١) الادريسي I, 127, 128 et s.

(١٠٢) الادريسي I, 38, 313, 328 et s. وأحسن ترجمة لهذا الجملتين يمكن
الرجوع إليها فيما يخص مصر ، لوجدنا في الكتاب لصوتون .

ويصف ماركو بولو الطريق التجاري من عدن إلى الإسكندرية (وان لم يكن قد رآه بنفسه) . فقد ردد المعلومات التي سمعها من أفواه التجار الذين قابلهم غالباً في الهند أو في الخليج الفارسي . ويحتلص الصحيح بالكاذب في هذا الوصف : والثابت مثلاً أن منتجات الهند كانت تنقل في عدد من السفن الكبيرة التي تأتي بها إلى سفن أقل حجماً وحمولة . والثابت أيضاً أنه في المياه التي تمرغ فيه البضائع ، تنقل هذه على ظهور الجمال حتى النيل ، ثم تهبط النهر في مركبه تصل بها إلى الإسكندرية . ونحن تبيناً للمعلومات الكاذبة : قصة معلومة تدل على أن الخلق لا يتحدث عن شيء رآه بعينه . على النص الأصلي (١٠٣) يمشي البحر الأحمر نهراً ، وفي الطبعة الثانية أصبح هذا الخطأ على ما تعتقد ، بمعنى أنه لم يعد ثمة ذكر لبحر أو نهر ، وإنما هناك سفن فقط (١٠٤) . على هذا بيانات كثيرة ما أوجبت المفسرين : فهو يقول أنه يلزم منبئة أيام ملاحه بين عدن وبين موضع الرسو والأبرار على السواحل الغربية لبحر ، وثلاثين يوماً للنقل البري بالقوافل من هذه المنطقة إلى النيل . غير أن أية منبئة تنقل من عدن يمكنها أن تصل إلى مصر في سبعة أيام على الأقل ، ويلزمها اسبوعان إلى ثلاثة أسابيع على الأقل لتتوصل إلى سواكن في أحسن الظروف (١٠٥) . وأكثر من ذلك طبعاً إذا كان عليها أن تواصل سيرها إلى المنطقة التي كانت عندها عذاب ، أو حتى إلى القصير . ولتسليم جدلاً أن ماركو بولو كان يقصد مصوع : عند هذا تبرز للحال صعوبة ، ذلك أنه يستحيل من هذا الموضع الوصول في ثلاثين يوماً إلى نقطة على النيل يبدأ النهر عندها يكون صالحاً للملاحة المتواصلة بلا انقطاع . وبإزاء هذه الصعوبة ، يفضي السيد ملتزان *Malizan* النظر عن رحلة السبعة الأيام في البحر (١٠٦) ، ولكنه يؤيد مسبة الثلاثين يوماً ، لأن هذا الرقم

= *Extrait Description de l'Afrique :*

et de l'Espagne, en arabe et en français, par Dozy et Goje,
Leyde 1866.

ولقد وصف الطرق المائية القديمة إلى الإسكندرية في سنوات ١٧٩ ، ١٨١ وما بعدها :

(١٠٣) لفر بصره « الجمعية الجغرافية الفرنسية » :

Recueil des voyages et des mémoires, I, p. 241

Ed. Parthelet, III, 708; cf. Yule, M. Polo J., *cxix*, II, 274. (١٠٤)

(١٠٥) هذا ما يؤكده السيد ملتزان *Malizan* في دراسته :

— M. Polo's Angaben über Sogardien und Habsch.

— التي نشرت في ، *l'Australasien* 1871, 10 Juill., p. 650 et s.

(١٠٦) اعطاه روموزير *Romozier* أنه لابد من إجراء تصحيح في نص السبعة

بولو ، فقد غير « سبعة » إلى « عشرين » ، وسمح لنفسه في هذا الجزء بإجراء التصحيح

و يبادل على وجه التقريب مدة الرحلة التي تقوم بها قافلة من سواكن الى كوروسكو Korosko حيث يعود النيل صالحا للملاحة ، و سواكن كما يقول مكان ارسو النسخن وتقرىها . ويميل السيد يول Yule الى تأييد هذا الرأي (١٠٧) . ولسوء الحظ في تقدير السيد منتزان ، فاما تلك حقيقة ثابتة تؤيدنا شواهد أبو الفدا ، وشهاب الدين ، والمقري ، وسابوتو : ذلك أن نقطة وصول القوافل ، وقيام الملاحة النيلية لم تكن كوروسكو ، ولكنها كانت قوص ، وهي بلدة تقع في الشمال على نهر النيل ، يفصلها عن سواكن مسافة يستحيل اجتيازها في ثلاثين يوما . ومن جهة أخرى ، لدينا في شأن تحديد ميناء تفريخ السفن ما هو افضل من اقوال ماركو بولو وتخمينا من ذلك أن وليم الصوري Guillaume de Tyr يميل بالأكيدة عيذاب ، كما يؤكد الجغرافيون العرب الذين ذكرناهم قبله شهادته هذه . وعلى ذلك فانا نسلم بأن الطريق الذي تحدث عنه ماركو بولو لم يكن سوى طريق عيذاب الى قوص (١٠٨) . والواقع أننا باختيار هذا الحل نفرض النظر من مسيرة الثلاثين يوما بعد نفس النظر من الملاحة سبعة أيام ، ذلك لأن الكتاب العرب يقدمون مسافة الطريق من عيذاب الى قوص كما رأينا بمسيرة ١٧ الى ٢٠ يوما .

كان المعروف في العرب في كل زمان أن نوابل الهند تصل الى البحر المتوسط من طريق النيل ، الا أنه كان من غير المعروف البلاد الحقيقية المنجبة لها ، ومن ثم تناولت للمساطر بسهولة كل الخفايا التي عرضها تاريخها في هذا الخصوص . فالتوايل ، نيلها مثل منبجات الأرض النيلية ، تأتي بالأكيدة من الجنة ، كما تبين في التصورات الشعبية التي تعتبر نهر الفردوس (Géhon في الكتاب المقدس) والنيل نهر واحد ، ليس له وصيف . ولقد قيل ان التوايل تسو على ضفاف النيل نفسه ، وتسقط من الأشجار على النهر فيجذبها تياره الى المناطق المعروفة ، ويستحبها المصريون بشبابهم من الماء . ولقد ألف جواظيل Joinville هذه القصة في كتابه عن تاريخ القديس لويس (١٠٩) ، وتحدث عن كل الأسماء الطيبة التي

= من التغيرات التي لحق كثيرا من النص الأول ، من ذلك مثلا أنه يكتب دائما « القاهرة » de Calre بدلا من بابليون أو بابيلونيا Babylonla, Babylone (ص ١٦٦) التي يستعملها دائما السيد بولو .

M. Polo, II, 374. (١٠٧)

(١٠٨) السيد يول يذكر أن القريزي (تاريخ السلطين السالك ، الجزء الثاني ، ص ١٨) ينبغي أن لا يقرأ أرسلهم ملكه اليه الى بلاد السلطان قلاوون (١٢٨١) . وكثيرا السائلة في عيذاب للعودة الى وطنهم . وهذا رأى يتفق مع رأينا .

Ed. de wailly (1874) p. 104. (١٠٩)

يجدها الاسبان عند المصريين ، مثل القرفة ، والراوند ، والقرنفل ، وخشب الصبر ، ولكنه يستعملون بيعهم للفرينين يمتن غال جمها اقسياه يجلبها لهم النيل ويلقيها بين أيديهم ، فيجمعونها بك مشقة . وسيت الاسطورة خشب الصبر بوع حاص الى هذا الاصل الفرديسي . فلما عرف في بعض الأحيان مصدره الحقيقي ، كما كان من المتصور دائما وجود صلة غير منقطعة بين الهند وأيوبيا ، كان من المسلم به دون تردد ان الشجرة التي تنتج مثل هذا الخشب تنمو عند اعال النيل ، وأن العصور التي تجفلها أو تلفلها تسقط في البحر ، وما على المصريين الا أن يلتقطوها (١١٠) وبقيت هذه الاسطورة راسخة بقوة ، خاصة بين الحجاج ، حتى في زمن كان لعدم التجار الكار أصبح من البلاد المستجة للتوابل ، وعن الكيفية التي تحصل بها التوابل الى مصر (١١١) .

وفي سوق الاسكندرية يتكس معظم منتجات الشرق الآكية بطريق النيل . ويقول ولیم الصوري ان كل المطور ، والأشجار الكريسة ، وسائر الاقشياء الثمينة التي لا توجد في أوروبا ترد الى الاسكندرية عن طريق البحر والنيل من بلاد الهند ، وسبأ ، وبلاد العرب ، وإثيوبيا ، وفارس ، والبلاد المجاورة لهؤلاء (١١٢) . بل ان بعض المسامرين ، مثل بنيامين دو توديل ، والائب Vicedominus بوركارد Burkhard الذي كان في مصر عام ١١٧٥ سافرا للإمبراطور فردريك بارباروسا دعسوا من كمية التوابل التي تأتي بها المراكب النيلية القادمة من الوجهة النيل لاصدة الاسكندرية (١١٣) . ويجوار الاسكندرية كان لسميط مركز مشرف ، لا من وجهة التجارة العامة فقط (١١٤) ، ولكن بخاصة كسوق لمنتجات الهند (١١٥) ، واستمر هذا الوضع حتى أواخر الحروب الصليبية : عندئذ فقط طرأ تغير سوف لتصلحت عنه فيما بعد . ويرى

(١١٠) Jacq. de Vilry, p. 1140. Plutarque circa instans, dans Serapion, fol. ce XXIV, Verso; Glosses sur l'Antido-farum de Nicolaus p. cixiv, Alberus M. de vegetabilibus, éd. Meyer et Jessen, p. 344 et R.

(١١١) Ludalphe de Sulzen, p. 80. Joh. Tucher dans le Reuebuch des heil. Landes p. 369, fol. 70bri, III, 136 et s. ; Braydembach, p. 118. Guili de Tyr, XIX, 58.

(١١٢) Boui de Tossal, éd. Ashor, I, 177. Arnold, Lubec, dans Pertz SSII, XXI, 327.

(١١٤) كان لسميط مثلها مثل سائر المدن التجارية . سولها London حيث تكثر كل السلع وتعرض للبيع . وهي اضطر السكان لاجلاء المدينة عند اقرب جيش الصليبيين بقيادة الكسيس لويي (١٢١٩) ، أخذوا الدواب في هذه السوق . انظر . — Jahnville, éd. de Wally, (1874), p. 40.

Chron. Ursperg, dans Pertz, SS. XXIII, 380.

(١١٥)

جاء دو وتری Jacques de Vitry أسقف عكا . ومع « حوليات كولونيا الكبرى » les Grandes Annales de Cologne (١١٦) في هذا الموضوع لوحة تكشف لمؤلفيها عن معلومات جغرافية شديدة الغموض فهم يتحدثون عن خمس تصل من الهند إلى دمياط مباشرة . ومن هناك تذهب ثانية إلى سوريا ، وجزيرة قبرص ، وأرمينيا ، واليونان ، في حين أن المراكب البعلبية هي التي كانت هي الواقع تحضر توابل الهند إلى دمياط حيث تتسلسل سفن كثيرة تنقلها إلى شواطئ البحر المتوسط . كذلك كانت رئيسية تتمتع وتتشبذ في القرن الثاني عشر بأزدهار تجاري كبير (١١٧) ، وليس لديها شك في أنها تقيمن بحره كبير من هذا الازدهار إلى ورود منتجات الهند إليها عن طريق النيل .

ولا بد أنه كان لواسي مصر جاذبية شديدة للأمم التجارية العربية . حقا كانت توابل الهند موجودة في سوريا أيضا ، ولكنها لا تصل إليها إلا بعد رحلات برية كثيرة التكاليف ترفع كثيرا من أثمانها . وكان في المستطاع احضارها بنقلات أقل من ذلك بكثير حتى مصاب لهر النيل ، فيكون سعر التكلفة هناك أكثر انخفاضاً ، حتى مع اعتبار الرسوم الجبركية التي كانت مرتفعة في مصر (١١٨) ، في حين لم تكن هذه الرسوم موجودة في سوريا بالنسبة إلى عدد كبير من هذه المواد . يضيف إلى ذلك أن الغربيين كانوا لهم ميزة الحصول في الموانئ المصرية على حاصلات الأراضي المصرية ومنتجاتها الصناعية ، ولم تكن هذه المنتجات زهيدة القيمة ، كما سنرى . وكان هناك من جهة أخرى أرباح كبيرة تتحقق بتوريده بعض السلع التي كانت مصر مخرجة منها تماما ، رغم ما تتمتع به من ثراء ، وكانت أوروبا ترودها بها بكميات وفيرة ، ونذكر اثنين فقط من أهم هذه المنتجات : الخشب والحديد ، وهما مادتان لا غنى عنهما ، وكان لابد لمصر من استيرادهما من الخارج (١١٩) .

كان في هذا ما يفرى الأمم التجارية الغربية ، ولكن توثيق رواج سلعية مع مصر لم يكن بالسهولة التي تبدو لأول وهلة ، فعالمنا بقيت الدول

Jacq. de Vitry, éd Bongers, p. 1128 ; Annales, Colon max., (١١٦)
Dana Peira, SS, XVII, 433.

Études, I, 328.

(١١٧)

(١١٨) في عام ١١٧٥ يقال أن جسر الاسكندرية زاد سلطان مصر بأكثر من

٨٠٠٠ مارك من الفضة بالمالا . انظر .

Arnold Lübeck, I, c, p. 280.

Haythou, Hist. orient., cap. 54 ; Sanuto, Sac. Hist. crue, (١١١)
p. 28, et Mémoires, dans Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 150 et s.

الصليبية ، كانت جارتها مصر عمدة لها بالضرورة ، ولما البداية كانت مصر ضعيفة ، وعرضة لهجمات ملوك القديس ، ولا تملك تقريبا القدرة على الدفاع عن نفسها ، ولكنها أصبحت بالتدريج إحدى القوى العسكرية الكبرى في العالم الاسلامي ، وأوقعت أكثر من مرة فرجة فلسطين في خندق شديد ، وكلما عظمت قوتها وعباس جوارحها خطرا على الدول الصليبية ، ازدادت كراهية العالم المسيحي لها ، وكان العمل على ادلائها وحربها في ظل الغرب أول واجبات المسيحية ، كما كان الهدف الذي يتقباه قادة الحملات الصليبية الأخيرة .

وكانت الأمم التجارية (العربية) تتساءل قبل أن ترتبط بعلاقات تجارية مع مصر ، هل تسيء بذلك الى باقي العالم المسيحي ؟ ألم يكن الذهاب الى مصر وشراء سلع بها ليزيد موارد هذا البلد ، إذ يربح التجار والمنتجون الوطنيون بذلك أموالا كثيرة ، كما تنتفع حرائق السطحات من حصيلة الرسوم الجمركية ؟ ألا يزود العربيون على هذا النحو المصريين بأشياء ينبغي حرمانهم منها حتى لا تنمو قوتهم ؟ كان التجار الغربي الذي يجرؤ على الاتجار مع مصر يوصف حشما بأنه مسيحي فاجر ، وكان السلاطين من ناحيتهم ، يترحيبهم هؤلاء التجار ، يتعرضون لضيق المتعصبين من رعاياهم ، ويضطرون لمكانة مشاعرهم ، وحين أمد الغرب حيلة بعد أخرى ضد مصر ، فهل اضطروا هؤلاء السلاطين أن يتركوا التجار للمسيحيين يمارسون بها تجارتهم في أمن وسلام ؟ وحين كانت المدن والبلاد التي يخرج منها هؤلاء التجار هي التي تجهز الأساطيل والجيوش للحملات الصليبية ضد مصر ، ألم يترغ السلاطين الى الألف بشارهم بالانقاص من هؤلاء التجار ؟

يتبين لنا إذن أنه من العسير قيام حركة تجارية بين أوروبا ومصر ، فكانت العقبات تأتي من الطرفين ، ولكن الأمل عند العربيين في الحصول على أرباح جسيمة كان يبدد الكثير من المخاوف .

ومن جهة أخرى كان عبادة مصر يحتلون ما يصيبهم من ويلات في ظلم الأرباح الهائلة التي تأتي بها التجارة لبلدهم وغنائمهم ، وكان أكثر السلاطين حبا للقتال ، أولئك الذين يعتبرون أن رسالتهم هي سحق صليبي فلسطين ، يرجعون مع ذلك بمواطني هؤلاء الصليبيين الذين يأتون عندهم للتجارة ، وبخاصة حين يحضرون معهم خشيما لبنا السفن ، وقارا وقطرا ، ومعدن مختلفة ، واسلحة ، وما شابه كل ذلك ، ولم يصل السلاطين أية وسيلة لتشجيع الاستيراد ، من بذل الوعود لهؤلاء

التجار ليبيعوا بضائعهم بسرعة وبيع ، وحظر التعريفات لهم (١٢٠) .
ولا شك في أن جهودهم في هذا السبيل قد حققت النتيجة المرجوة .
وسيطرة أخرى كان كثير من التجار الأوروبيين لا يتورعون عن تزويد
المصريين بمنتجات عربية تستخدم بالتالي في قتال الصليبيين (١٢١) .
ولا شك أن هذه الجرائم الضارة بالعالم المسيحي كانت تثير السخط
العالم ، وحصلت الكنيسة أكثر من مرة على التماس ، بل أثارت لائحة للمجامع
الدينية التي اعتبرت أن كل شخص يحرر في المستقبل على بيع حديد ،
أو سلاح ، أو خشب لبناء السفن ، أو سفن جاهزة للمسلمين ، أو يدخل
في خدمتهم بصفة قبطان سفينة يستحق عقوبة الحرمان ، لفصله عن
مصادرة أمواله ، وفقدته حريته الشخصية ، كما يرحس لمن يقبض عليه
أن يحتفظ به هناك له (١٢٢) . وكانت القوانين الكنسية تأمر بشهر هذه
الأسقام بصفة دورية في اللواتي ، كذلك أصدرت بعض المجامع الإقليمية
التي انعقدت في المناطق البحرية أحكاما بهذا المعنى (١٢٣) . ووجه الباباوات
في منشورات مختلفة ، تحذيرات صريحة في هذا الصدد لسكان المدن

- (١٢٠) انظر الوثائق البوذية التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل .
— Amari, *Dipl. arab.*, p. 248, 260, 264, 289.
(١٢١) يرضى صلاح الدين في خطاب بتاريخ عام ١١٨٢ موجه إلى الخليفة إلى أن البداوة
والخروج والبيوت يستوردون إلى مصر منتجات متلفة من الغرب . وبخاصة أسلحة وأقوات
عربية ، الأمر الذي يهدد الإسلام ويهدد المسيحية . انظر في ذلك
Amari, *Biblioth. arabo-sicula* p. 238 et s.
— *Storia dei Musulmani di Sicilia*, III, 525 et s. ;
هذا الخلف بالكسب الذي كان يسكن في شبالي التجار المسيحيين كل دارع ومسي
كان موضوعا لتسوية الصلح . انظر :
— Thadéus Neapolitanus, *Hist. de desolatione*
Civitat. Accorvensis, p. 37 et ss. et la *Bulle de Gergoire X* publ. par
Germain, *Hist. du commerce de Montpellier*, I, 267 et s.
(١٢٢) نجد هذه التهديدات مدونة على التوالي في القوانين الكنسية الصادرة في
المجامع ليدنية العامة الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، والثالثة عشرة (١١٧٩ ، ١٢١٥ ،
١٢١٥)
Mansel, *Coll. coschi.*, XXII, 330, 1080 ; XXIII, 631.
(١٢٣) نذكر على سبيل أمثال للمجامع انعقدت في جويلية في ١١٦٢ ، ١١٩٥ :
Mansel, *XXI* 1189 ; *XXII* 697.
وكذا في نيقوسيا (قبرص) في ١٢٠٩ المرجع السابق :
XXVI, 386.

التجارية (١٢٤) . ولم يكن في وسع السلطات في هذه المدن إلا أن تردده هذه التحذيرات ، وتفرض عقوبات على كل من يسيثون استعمال حرية التجارة . فأصدر قسامل جوا (١١٥١) وبييترو زيانى *Pietro Ziani* دوج البندقية (١٢٢٦) لمواطنيهم مراسيم خاصة بهذا الشأن . فعلى جايى *Jayme Ier* ملك أراجون الذي نفسه لسكان موبيلية (١٢٣١) ، وسكان برشلونة (١٢٧٤) (١٢٥) . وفرضت مدينة بيزا أحكاماً رادعة لهذه الانتهاكات ، أولاً في قانونها *Brève* لعام ١٢٨٦ ، ثم في قانوني عامي ١٣٠٥ ، ١٣٤٣ (١٢٦) . وعلى الرغم من هذه المجموعة الكبيرة من التهديدات الرسمية ، فإن لنا أن نشك في أنها أخلت مأخذ الجند ، وأن المعلومات المقررة طبقت بكل ما فيها من صرامة . ولعبت مدينة بيزا في هذه المسألة دوراً كبير القموض . ففي المعاهدات التي عقدتها لسفراء بيزا مع ملوك مصر ، كان لكل مواد بناء السفن ، والأسلحة التي مصر في السفن البيزية أمراً مضمراً باعتباره ممارسة مألوفة . أكثر من ذلك أن البيريين تهدوا في معاهدة عام ١١٧٣ صراحة بتوريد هذه المواد (١٢٧) . والحقيقة أن الأغراء كان قويا بالنسبة اليهم ، لأن انتاج الحديد والصلب كان من صناعات بلدهم الرئيسية (١٢٨) .

وفي غير هذه الأصناف من السلع كانت التجارة مع مصر تعتبر أمراً مشروعا طوال الحروب الصليبية . ففي ذات مرة ، حدد البابا ألويسنت الثالث (وهو في هذا الخصوص أكثر صرامة من غيره من الباباوات)

Innocent III aux Vénitiens, en 1198; Epist., éd. Baluze, I, 366; (١٢١)
Gregoire X aux bourgeois de Gênes et à ceux de Montpellier en 1272, en Termes à peu près identiques (Raynald, *Annales ecclésiastiques*, no 18-19; Germain, *Hist. de commerce de Montpellier*, I, 326 et ss.), à ceux de Narbonne (Port, *Essai sur l'hist. du commerce maritime de Narbonne*, 118).

Lib. jur., I, 156, *Taf.* et *Thom.*, III, 290 et ss. ; Germain, *Hist.* (١٢٥)
de la commune de Montpellier, II, 80, ss.; Company, *Mémoires*, II, 88 et s. ; Thomas, *Die ältesten Verordnungen der Venedig für auswärtige Angelegenheiten*, Abh. der München, Akad., Cl. I, sect. I, p. 189 et s.

- وبالنسبة للذهب ، يستلزم مرسوم من المحكمة الفينيسية لعام ١٢٨١ (المرجع السابق ١٢١) القوانين الصليبية والأفواج التي لا يتجاوز ثقلها ستة أقدام .

Stefano Pisani, éd. Borsini, I, 412 et s. ; III, 428, 478. (١٢٦)

Amari, *Dipl. arab.*, p. 243, 260, 269; Doc. mille relat., 690 p. 7. (١٢٧)

(١٢٨) كان العرب يعرفون لصيف القروانية البيرية ، ويطلقونها على الصيوف الهندية . انظر :
Gayangos, *Etude sur Al-Makkari*, I, 308 et s.

بالحرمين كل من يزاول التجارة مع المسلمين ، غير أن جمهورية البندقية
أوضحت له عن طريق سفرائها الضرر الذي يصيب رعاياها من جراء
اغلاق هذا السوق ، ومن ثم وافق البابا ، مراعاة لمصالحها أن يأذن
لها - بصفة مؤقتة على الأقل - بالابتداء على الوضع الراهن ، وقصر التحريم
على الموانئ الحربية (١٢٩) .

ومع ذلك ، كانت الكنيسة تطالب من وقت لآخر ، أثناء الاستعدادات
لحرب صليبية يوقف ارسال السفن التجارية الى مصر ، وكان لابد للأمم
التجارية أن ترخص لهذا الطلب ، لأن القصد من هذا الحظر هو توفير
وسايل النقل الكافية للصليبيين ، ومنع المسلمين الذين يقاؤونهم من أن
يتسللوا من الغرب (في الوقت الذي تقوم فيه الممالك) المعدات التي
هم في أمس الحاجة اليها لمواجهة الحرب (١٣٠) .

هذه الانقطاعات الوقتية لم تكن بالأجبال عميق حركة الملاحة
النشطة بين الغرب ومصر الا بصورة عرضية ، وقد يبدو أن عصر
الحروب الصليبية لم يكن ملائما لهذه الحركة التجارية ، ومع ذلك فانها
سمت لعمومها كبريا في هذه الفترة بالذات ، فالاسكندرية من قبل لم يكن
يزورها سوى البنادقة والأمازيغ والجنويع ، ولكن منذ ذلك العصر
راجحت اهم كبرى تشارك في نشاط هذا السوق الكبير ، ويذكر بنيامين
دو توديل (١٣١) أنه رأى تجار حوال ثمانية وعشرين بلدا أو مدينة في
ذاك السوق ، على أن ما كتبه طرا عليه تحريف كثير ، وهو لم يتبع
الترايب الجغرافي في تعداد هذه البلاد ، فيصعب أحيانا ، في الاسم
الذي دوله ، معرفة البلد الذي يسميه ، وها هي الأسماء مرتبة حسبما
ذكرها البندقية (١٣٢) ، سمكاليا ، لمبارديا ، بوليا ، أمالفي ، صقلية ،
راجورا (٩) ، أسبانيا ، روسيا (٩) ، ثابيا ، سكس (١٣٣) ، الدامسك ،

(١٢٩) انظر ببايه بيانات مشهور بايري لعام ١١٩٨ .

(١٣٠) انظر على سبيل المثال قرأتين جميع لارتان Leiran لعام ١٢١٥

Mand. I, c. XXXII, 1068.

(١٣١) Ed. Asher, I, p. du texte hébreu, p. 187 de la traduction an-
glaise; II, p. 218 et ss, des annotations.

L'éd. Asher porte "Valentia", mais la lecture du Cod. Bodlej. (١٣٢)
"de Venetia" est préférable ; Quant, dans la Revue des quest. hist.,
Janv 1878, p. 181, not. 1.

(١٣٣) يدل على ذلك على أنها لا تعني إنجلترا .

حاليسيا ، الفلاندر ارتوا ؟ (١٣٤) نورمانديا ، ايل دو فرانس ، بواتو
 انجو ، برمانديا ، مي ، بروقانس ، جنوا ، نيرا ، وجسكوبا ، رايون ،
 نافار . وقد وصفت علامة استعظام بعد كل اسم لم استوثق من مدلوله .
 ولا بد لي ان اتول أولا اني أشك كثيرا في صحة هذه القائمة .

وإذا كانت البلاد والمدن التي تشرف على البحر المتوسط تزاول
 التجارة مع مصر ، فإن هذا الأمر مؤكد بالنسبة لبعضها ، وقوى الاحتمال
 بالنسبة الى البعض الآخر . وإذا كانت السفن الروسية قد تجاوزت
 القسطنطينية ، وواصلت مبرعا حتى الاسكندرية ، فهذا امر ليس
 بغير كفاية السيد اشير Asher (١٣٥) . ومن المحتمل ايضا أن
 تكون سنكس - ولقصود بهذا الاسم شمال ألمانيا - ممتدة في الاسكندرية
 بعدد صغير من سفن برمن Brémn أو كولوبيا Cologne . ولكن
 لا ينبغي ان انسى في الاحتمالات الى ايعة من هذا ، من المتكوك فيه
 كثيرا ان تكون الفلاندر قد أرسلت في هذه الأونة سفنا تجارية الى مصر .
 أما بالنسبة لبلدان الأندلس الأخرى مثل الغمارك ، ونورمانديا ، وبواتو ،
 وجسكوبا ، ونافار ، وجاليسيا ، فمعلومة مما يثبت على التمام ان تكون
 قد أسهمت بنشاط فعال في تجارة البحر المتوسط . ولكن ما القول في
 الاتائج الواقعة وسط فرنسا ، مثل ايل دو فرانس ، وأنجو ، ومين ،
 والبرجند ؟ الواضح ان يسامين دو توديل قد دفعته الرغبة في ان يضر
 بصورة مؤثرة عن الأهمية الكبرى لمدينة عالية كالاسكندرية تضم اجناسا
 عديدة لربح يبالغ في ذلك ، وكان من العسير عليه ان يثبت ان بعض هذه
 البلاد اعتادت ان ترسل تجارا الى الاسكندرية ، وهو كسائح الصباية
 الدهشى من منظر الحشد العظيم من التجار الغربيين في المدينة . ففي
 عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ - ١٢١٦ م) مثلا ، كان عدد الذين قدموا من هؤلاء
 الى المدينة لا يقل عن ٣٠٠٠ (١٣٦) . كذلك كان ميناء دمياط ثانيه حلق

(١٣٤) الكلمة المصرية تبدو انها تصد ارتوا Artob . وهذا امر طبيعي نظرا
 لقرابته من الفلاندر ، ومن السهل معرفة كيف خرا على الكلمة تعديل بحيث صارت مثل
 le Hainaut في حالي

(١٣٥) هذا هو الباعث الوحيد لدى من أجله يزيل السيد اشير كلمة
 من النص ويستبدلها بكلمة Rustifon أو Roussillon . وهذا مجرد افتراض
 الرد عليه بأنه منذ عهد قسطنطين يوليوسينث وان حردالة كانت السفن الروسية
 تبحر حتى سوريا .

(١٣٦) Amari, Dipl. arab., p. IV, d'après la description de l'Égypte
 de Makrizi.

من بوليا ، والبندقية ، واليونان ، وأرمينيا ، وسورية ، وقبرص لتأخذ السلع التي تجلبها المراكب الفيلبية (١٣٧) .

ونسأول الآن كل أمة تجارية على حدة ، وببحث عما ينبغي به التاريخ عن علاقاتها بمصر . ومن أجل ذلك ينبغي لنا أن نعود إلى العصر السابق على صلاح الدين ، حين كان الفاطميون مترعين على عرش مصر ، فيالنسبة إلى بعض الملك مثل أمالفي ، والبندقية ، وجنوا وهي اسي وثقت علاقاتها بمصر منذ زمن قديم ، يمكننا أن نجزم بأنها حافظت على هذه العلاقات في عصر الحروب الصليبية ، رغم أنه لم تحصلنا أية وثيقة من أواخر الملوك الفاطميين أو أسلافهم ، فيها ذكر للامتيازات التجارية الممنوحة لمواطني هذه المدن ، إذ صاغ الكثير من الوثائق العربية القديمة . وإذا كان المطلوب معرفة كيف أمكن التثبت هذه الحقائق .

لهاكم مثالا مميذا : فلي نكتب وثائق جنوا . مجموعة من عقود بردية تنسب إلى الفترة من عام ١١٥٥ إلى عام ١١٦٤ ، وفي هذه المجموعة وريقات عليها حروف عربية صادرة من مكتب موثق المقود جيوفاني Giovanni Scriba الذي نقل لقرات من أوراق اعتماد diploma عربية محررة برسم ديوان الإلشاء Chancellerie في عصر السلاطين الفاطميين .

وبين سطور النص العربي ترجمة باللاتينية كتبت على ما يبدو في أوائل القرن العاشر . وتدل بضعة السطور في هذا النص والترجمة على أن الوثيقة كلها كانت أما كتابا موجها إلى مدينة عربية (قد تكون مدينة جنوا نفسها) ، وأما نسخة لمساعدة مع هذه المدينة ، يتعهد فيها سلطان مصر ببسط حمايته على مواطني هذه المدينة الموجودين في كل أنحاء مملكته (١٣٨) . وتشتمل الخربة التي أودعت فيها هذه الورقة على عقود إنشاء شركات بين بعض الجنوبيين لمشروعات تجارية بعيدة . وفيها نجد ما يثبت أنه خلال هذه السنوات التسع (ومن قبيل الصدف ، لم تحفظ أية عقود مشابهة عن سنوات أخرى) كان يتردد كثيرا على مصر سفن تجارية من جنوا ، ربما أكثر من أي بلد آخر (١٣٩) ، ولجده في هذه المقود اسم الاسكندرية يتردد ما لا يقل عن ست وستين مرة . يذكرها الشركاء على أنها غاية الرحلة المرمع الليلام بها . ولم يكن هناك أي ميناء آخر على البحر المتوسط يقصده الملاحون الجنوبيون بهذه الكثرة (١٤٠) .

La relation inédite d'Ascolin, citée par Webb dans l'Av. (١٣٧)
chéologie de Londres, XXI, 461 Jacq de Vitry, l.c., Annal Colon,
max, l.c. , Hesp Chroniques gréco-romanes, p. 39, not.

Amari, Dipl. arab., p. III, IV; Atti della Società (١٣٨)
Liguri, V, 833 et s.

Publiés dans les Monum. hist patr, Chartes, II, 287 et ss. (١٣٩)

(١٤٠) لا يذكر اسم ميناء بوجي Bougie في شمال إفريقيا في ثلاثين مرة .

التي للزوار الأخرى ميناء .

من أن بعض هذه العقود ليذكر الموضوع الذي تم بشأنه التماثل ، فيزود بمعلومات عن السلع التي يتناولها المشروع ، نرى فيها القفل ، وحشيش البقم ، وحور الطيب ، والقرقة والقرنفل ، والشب ، الخ (١١١) .

نذكر أيضا خطابين من المراسلات التجارية ، تاريخهما أقدم عشرين سنة من الوثائق التي شرحناها آنفا ، ومحفوظ في مجموعة من الرسائل المخطوطة (رقم ٢٥٠٧) بدار الكتب بليبيا (١٤٢) . هذان الخطبان متلها مثل مستندات المجموعة التي يمكن تحديد تاريخ كل منها يعلم ١١٣٢ ويقدمان لنا مثلا للمراسلة بين شريكين جنوبيين ، أحدهما يباشر بنجاح الاتصال الاسكندرانية ، ويتأهب للإبحار إلى القسطنطينية مارا بجزر بالارجريل (بحر إيجة) ، أما الثاني ، امبرياكو Gugl. Embrisco فانه يضرب في خطابه موعدا للأول في القسطنطينية . ويبدو في هذين الخطابين برحاما آخر على وجود علاقات تجارية بين جنوا ومصر في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي . وحتى إذا فرضنا أن هذين الخطابين ليسا سوى نموذجين من المراسلات فإن قيمتهما لا تقل من وجهة نظرا ، لأن من عادة مؤلفي هذا النوع من المكاتبات أن يستعملوا موضوعاتهم من الحياة الواقعية . وهناك فضلا عن ذلك برامهن أخرى ، خلال هذه الوثائق المتعلقة بمصالح الأفراد ، كما نلاحظ الوثائق التاريخية بالقرنات المتعلقة بالنشاط التجاري بين جنوا والاسكندرانية (١٤٣) .

ولا شك في أنه البنادقة ، شأنهم شأن الجنوبيين كانوا يضاعفون رحلاتهم إلى مصر سنة بعد أخرى (١٤٤) ، مع لبو تجارتهم لبوا مطردا ، أما أماليق فانبأ المدينة الوعيفة التي تقرر بأن علاقاتها بمصر قد تباطأت بالتفريج إلى أن تولدت تماما . وعالت مما أصابها من كربات سياسية .

وهناك غير هذه الأمم التي عرفت علاقاتها بمصر منذ أقدم العصور ، أم لا تظهر أسماؤها في تاريخ تجارة مصر إلا في عصر الحروب الصليبية . ومع ذلك ، فربما كان من الضروري لكي يشر على بداياتها أن نرجع إلى الزمة أقدم مما يوجد في الوثائق التي نملكها . فليما يتعلق بصليبية ترونا وثيقة رسمية لروجر الثاني في عام ١١٣٧ نسخة

(١١١) Mon hist, par l.e. p. 844, 846 814, 818, 820, 847, 787.

(١١٢) Wattenbach, Der ostrigum, dans l'archiv für Kunde osterr. Geschichte quellen, XIV, 78 et s.

(١١٣) Marang Annale Pis., p. 246, 253, 266 ; Annal Jan., p. 22, 69, Trinchera, Syllab. grec. membran., Neap. 1868, p. 146; Atti della Soc. Ig., II, 2, p. 9, 383.

(١١٤) كانت هذه الرحلات كتاب في لغات مختلفة .

عن وضعها وقتئذ . يتعهد روجر قوماً يتعهد به هي هذه الوثيقة الممنوحة لمدينة سالارو مكافأة لها على إخلاصها له ولييته أن يسعى للحصول على تخفيض الرسوم التي كان يقدمها في الاسكندرية تجاه تلك المدينة (سالارو) بالقلعة المجددة لتجار صقلية (١٤٥) . وعلى ذلك ، ففي عام ١١٣٧ كان الصقليون يتمتعون في مصر بتخفيض في التعريفات . وإذا كان روجر قد بر بوعده ، فلا بد أن سيكون سالارو قد حصلوا بالتالي على نفس الامتياز . ويقول المؤرخ ان هذا الملك عقد بعد بضعة سنوات معاهدة مع ملك مصر ، وجس منها شرقاً وكسياً (١٤٦) . ولا يخفى كثيراً اذا استخلصنا من هذه العبارة أنه حصل على تخفيضات جديدة لصالح التجارة في بلد . حقا ، حدث اثر ذلك ان أغارت بعض أساطيل صقلية على السواحل المصرية ، وهبت بعض المدن (١٤٧) . وحاصرت الاسكندرية بضعة أيام (١٤٨) ، غير أن هذا لم يكن سوى محاولة عابرة . فسرعان ما عادت الحركة التجارية بين مصر وصقلية الى نشاطها الطبيعي المعتاد . يشهد لنا بذلك بنجامين دو توديل ، واستمرت كذلك زمناً طويلاً بعد زوال الأسرة النورماندية الحاكمة .

أما بيزا ، فانها دبطت علاقات بمصر في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ان لم يكن قبل ذلك (١٤٩) . وفي عام ١١٥٤ استقبل الخليفة الفاطمي أبو المنصور اسماعيل الظاهر ، بوزيره عباس الزيري في بلاط مصر سفيرا بيزيا اسمه رايري بوتاسكي Raineri Bottaschi . يحمل رسائل من رئيس الاساقفة ميلانوس Villanus وقناصل بيزا . ولكنه لم يكن اول سفير بيزي يظهر في هذا البلاط . وأثار وصوله بعض الممضى لاه ، خلافاً لعادة أسلافه قدم على ظهر سفينة حربية ، في حين كان الآخرون يعيشون في سفن تجارية عادية وكان الغرض من

(١٤٥) Archiv. Venet., VII, (1874), p. 886; voy aussi VIII, (1874), p. 134, Ughelli, Italia sacra, VII, 269.

(١٤٦) Romwald, Salern. dans Periz, SS. XIX 424

(١٤٧) في عام ١١٤٨ ، ١١٥٢ - ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، انظر .

Amari, Diplomi arabi, p. 482; Wustenseld Gesch. der Fatimiden Chalifen, 3e part., dans les Abb der Gott. Ges. der Wiss., XXXVII (1881), p. 92 et s., 98.

En 1174, voy Guili, de Tyr XXI 3 , Annal Flo. dans Periz, SS. XIX, 268. Annal Cosm. III, p. 312 , Michaud - Reineaud, Bibliothèque des crois IV, 172 et s.

Michèle Amari .. I diplomi arabi del R. Archivio Florentino (Firenze 1862), documenti degli archivj toscani.

مهمته تسوية بعض الخلافات التي تنامي منها الخلافات القديمة التي تربط الامتين . ففي العام السابق كان تجار بيروت في سبيمة مع بعض رعايا الحليمة ، فقتلوا الرجال منهم وأسروا النساء والأطفال ، واستولوا على ما معهم من بضائع : وأخذ الخليفة بنار رعاياه في شخص التجار البيرونيين اللطيفين في مصر أو المارين بها ، ومن ثم انقضت حركة التجارة . وطالبت الحكومة المصرية بمعاقبة المذنبين قبل أن تصرح بمودة الحركة . وأراد السفير أولا أن يتفاوض بكبرياء ، ولكنه اضطر أخيرا أن يتنازل ، ويقسم بأن يقدم الترضية المطلوبة (١٥٠) ، وبهذا الشرط فقد التزمت الحكومة المصرية ، في حالة تكرار مثل هذا العدوان ألا تتخذ إجراءات ثارية فورية ضد التجار البيرونيين ، وأن تعطى مهلة سنة واحدة لتتبع للسلطات البيزية الوقت الكافي للتعرض عما يقع من أضرار ، وتلديم الترضية المالية . كذلك اضطر يوناني أن يتعهد ألا يقدم بلده أية مساعدة لثمنية سورية أو غيرها في أية حيلة يقومون بها ضد مصر ، واحتفظت الحكومة المصرية بالحق في معاملة كل يبيزى تجده على متن سفينة حربية أو يكون قرصانا على أنه عفو لها ، وصرحت بأن التجار والنجار المسافرين في سفينة مسألة هم وحدهم الذين يستحقون التمتع بحمايتهم . وعلى هذا الشرط يمكن أن يستعيد التجار البيزيون للعمال طنتهم في الاسكندرية ، أو ينتقلوا بفندق ثان في القاهرة ، ولهم مطلق الحرية - بعد سداد الرسوم والضرائب المقررة - أن يبيعوا بضائعهم في جميع أنحاء الاقليم ، أن يحملوها معهم إذا لم يبيعوها من يشرعيا ، ولم يكن لهم امتضاء لهذا الحكم الا بالنسبة الى الحديد والخشب والغاز ، اذ كان خروجها من البلاد ممنوعا ، وعليهم أن يسلموها لوظلي الجمارك المصرية الذين يتمتع عليهم شرائها بسعر السوق . وبعد إبرام هذه المعاهدة ، قام يوناني برحلة أخرى الى سورية حيث كان عليه أن يتفاوض للحصول على بعض الامتيازات لأصالح تجارة بلده (١٥١) ، ومن هناك عاد الى بيزا .

وناكينا لعودة التفاهم الذي اضطر منه قارورة عللي بيلسم فحين حصل عليه من بعض الناس ، وأعاد معه خمسة وعشرين شخصا من مواطنيه لكن من اطلاق سراحهم . وفي سوزنا خطاب حرد أحمد كبار المواطنين المصريين ، وهو غالسا حاكم الاسكندرية ، وسلم الى السفير

M. Langer (op. cit., p. 52 et s.); Hist. Pis ined. 4d. Bonaini (١٥٠)
p. 8, 24 ; Annal. Pis 228; Annal. Jan, 64, 66, 66, 67, 68.

Doc. mils relat. topo., p. 6 ; Ibid, p. 80 , M. Langer, op. cit., (١٥١)
p. 52, not. 4.

نفسه ، أو ربما أرسل اليه عقب عودته . ونقل محور الخطاب النقطة الرئيسية في المعاهدة ، ثم وصف شروب للمعاهدة الطيبة التي يتقاسم البيروني في مصر في كل زمان ، وتمتعهم باحترام حقوقهم وعاداتهم ، وتخصيص الضرائب مرة بعد أخرى على تجارتهم ، فيقول إنه حتى في الوقت الذي حذر فيه هذا الخطاب كان الروم ، والمسلمون يدفعون من الضرائب أكثر مما يدفعه البيروني . ويؤكد الفائدة التي تعود على هؤلاء من المعيشة في مصر في جو من السلام والألفة وممارسة تجارة مريحة (١٥٢) . يذكر أيضاً وثيقة أخرى لها تسمى إلى العصر نفسه : فقد صدر الأمر إلى قاضي الاسكندرية في بضعة سطور ، أن يقدم للبيروني العون والحماية لترميم لمبضعهم ، ولوسائل الأمور بوجه عام (١٥٣) .

وبعد رحيل دايمري بوتاكلي بوقت قليل ، قتل الوزير عباس مولاة الخليفة الظاهر (١٦ من أبريل سنة ١١٥٤ م) ونصب في مكانه علي العرش ابنه (ابن ضفيته) ، أبو القاسم عيسى الثاني بنصر الله . البالغ من العمر خمس سنوات فقط . بعرض تسيير أمور البلاد حسب مشيئته . ولكنه لم يمتنع طويلاً بالانخراط بالسلطة : ففي ٣٠ من مارس من السنة التالية أطاح به طلائع ابن رزيق الأرسى . وتولى الوزير الجديد الحكم حتى عام ١١٦٠ باسم الخليفة الثاني ، وبعتت إليه حكومة يورا بالسفراء ، وسعت إلى اكتساب مودته ورعايته كما فعلت مع سلعه . وقد استقبل السفراء في مصر أحسن استقبال ، ولما عادوا إلى بلدتهم حملوا معهم آتى أنواع المعونات التي اهتمت لهم لاستعمالها في سفلات القدس . واستمتعوا معهم بعض أمراء الحرب الذين أطلق سراحهم تكريماً لهم . كذلك سمعهم الوزير رسائل حكومتهم ، أكثر فيها أن الحرب التي شنها عليه الفرنجة لن تغير شيئاً من مملوكه حيال التجار البيروني . وأنه مسوف يستمر في حسنيتهم ومعاملتهم بروح الصداقة (١٥٤) .

(١٥٢) Amari, Dipl. arab., p. 241-249;
Badrussene, biographie de Baderi (Acta SS, Boll., Jun, III, p. 421 et seq., voy. p. 439, 464).

Amari, p. 290. (١٥٣)

— يقع أماري هذه الوثيقة في ص ٢٦٠ دون أن يذكر أي شيء عن تاريخها

(١٥٤) — هذه الرسائل مضمرة في ٢٠ مارس ١١٥٥ و ٢ أبريل ١١٥٦ (Amari, p. 280-304) وأثبت بها محررها اسمه وأبو الجرات طلائع ولديه بذلك الصالح الذي استعمله عندما تسلم طلائع الحكم (٤ يونيو ١١٥٤) . وفي الرسالة الأولى يذكر اسم مملوكه ، الخليفة الظاهر ، ويذكر أنه أسقط الوزير (عباس) وابنه (نصر) . انظر في ذلك : ١١٥٤

ويبدو أن مملكة بيت المقدس لم تنظر بعين الرضا إلى علاقة المودة بين بيرا ومصر (١٥٥) . ففي عام ١١٥٦ عقدت مباحثة بين بيرا وبلدوين الرابع (١٥٦) ، لوضع حد لسلسلة من الخلافات ، وديماً من الأعمال العدوانية المتتووعة ، غير أن الملك احتفظ لنفسه صراحة بالحق في مصادرة المديد ، وخشب السمر والفار التي يثر عليها في سفن ييزية متجهة إلى مصر . دون أن يكون للحكومة بيزا الحق في التلصق من هذا الاجراء بدعوى أنه انتهاك للسلام . ومع ذلك جاءت لحظة أصبح فيها اهتمام بيرا بكل ما يحدث في مصر فرصة للتقارب بينها وبين مملكة بيت المقدس . ويتجلى علينا أن لشرح ذلك في بضعة كلمات . ذلك أن دولة الفاطميين كانت وقتئذ تسير بخطوات واسعة نحو القضاء ، إذ أصبح الخلفاء مند زمن طوين مجردين من كل سلطة عن طريق وريثهم . إلا أنه لم يستطع أي من هؤلاء الوراء أن يحتفظ بمصبه . ونحن نجد احمدهم ، ويدهي شاور ، أنه على وشك السقوط مطلب محنة نور الدين . اقوى ملوك سورية وبلاد ما بين النهرين المسلمين . وبفضل جيوش نور الدين بزيادة مساعده شيركوه نجح في سحق خصومه . ولكن شاور لم يق بعوده ، بل عمل على التخلص من شيركوه ، ولم يجد وسيلة لذلك أفضل من الاستعانة بحاليف جديد ، ذلك هو عموري Amoury ملك بيت المقدس الذي كان له مصلحة كبيرة في جلب القوات السورية سريعاً من مصر . ذلك لأنه إذا نجح نور الدين في بسط سيادته على البلد ، فإن مملكة بيت المقدس سوف تجد نفسها محصورة ومهددة من جميع الجهات . لذلك استجاب عموري لنداء شاور ، وقام في عام ١١٦٥ بحملة ضد شيركوه وحاصره في مدينة بانيس ، ولكن هذا الحصار ما لبث أن فشل . وفي عام ١١٦٧ كشف نور الدين جهازاً عن مشروقاته ، فأرسل جيشاً جديداً إلى مصر تحت امرة شيركوه . وحب عموري للقتال ، يحاول في هذه المرة البيزيون الذين سعى إلى التحالف معهم بدوع خاص بسبب قوتهم البحرية . وفي هذه الحملة استولى شيركوه على الاسكندرية ، وعهد بمراسمتها إلى ابن أخيه صلاح الدين .

١٥٥ Aboulfeda, l.c. Hist. patr. Alex. p. 880 ;
Bull. de Tyr, XVIII 9 ; Michaud — Reineaud, Bibl. des croisés, IV
102, 104 . Amerl. p. 456 ; Wustenfeld, Fathimidien, 2e part op.
cit., p. 98.

(١٥٥) شروخ أيضا في ذلك العصر سفر مصر في بيرا ، ذكر ذلك توكولاس .
في تينيهار في اسكندرية Tinghehar الذي رآه بين الماء أماته الحج في دولا وبيت
القدس . انظر ١

— Werlousff, Symbolae ad, geogr. medii aevi, p. 31.

Doe, sulle reliq., tom. p. 6 et 8.

(١٥٦)

لما عموري قامه حاصرها بمعاونة الأسطول البيزى ، ولكن المدينة قاومت الى أن تم عقد الصلح : وكان أول شروط المساعدة القصصاء صلاح الدين (١٥٧) . وكان بود البيزىين أن تبقى هذه السوق المشهورة في قبضة عمورى : ذلك لأنه رغم ما كان يديه لهم الخلفاء الفاطميون وورثاؤهم من عطف ومودة ، لم ينسحب عن خاطرهم أن وسعهم يكون أفضل بكثير في ظل سيادة فرنجية .

لقد أن المساعدة أعادت الاسكندرية الى الخليفة الفاطمى . ولما لم يستطع البيزىون أن يثأروا ما كانوا يظنونهم . فانهم اسهموا في حل المشكلة - أى عقد معاينة الصلح - ولم ينس الخليفة هذا الاسهام من جانبهم ، واعتزلوا منه بجميلهم أمر بتخفيض كبير في الضرائب لصالح التجار البيزىين في القاهرة (١٥٨) ، بينما كان عمورى حلفاء قبيحهم امتيازات في عكا (١٥٩) . ومن المحتمل أن يكون سينبالدوس Sinibaldus سفير عمورى قد حصل في شهر يناير ١١٦٨ من البيزىين على وعد بأن يستمروا في التعاون معه ، رغم مشساكتهم الداخلية ، في مقابل منحهم امتيازات جديدة (١٦٠) . وفي شهر أكتوبر تلقى الملك من بيزا ، وهو يتأهب لغزو مصر من جديد مددا من فرق عسكرية وسفن حربية . فأغار على مدن بلبيس وبنيس الغنيتين (٤ نوفمبر) ، واستولى عليهما ، وتركهما فرسة للذهب والنسب . ولكنه اضطر لرفع الحصار عن القاهرة ليرجع لتجدة مملكة بيت المقدس التي كانت مهددة من جانب سورية . (١٦١) في عام ١١٦٩ خس عمورى غارة ، بمساعدة البيزىين غالبا ، مقابلما حدث في الغارات السابقة . ولكنها فشلت بصورة مزرية تحت أموار دمياط (١٦٢) وأعاد الملك الكرة بمرارة شديدة ، وتضليل نفسه سيذا على مصر ، وراح يوزع مسبقا على

-
- Guill. de Tyr. XIX 6, 7, 12-31, Hist regnū hieros, dans (١٥٧)
 Pertz, SS XVIII, 30 et s. ; Marang., Ann. Pis., ibid XIX, 157; Amari, Diglossarab, p. 11 et s. ; Weis, Gesch. d. Chalif, IV 320 et ss., Wilken Gesch. d. Kreuz., III, 2, p. 82 et ss.
 Marang., l.c. (١٥٨)
 Doc. sulla reinz, tase, p. 24, (١٥٩)
 Marang., l.c. (١٦٠)
 Guill. di Tyr. XX 9-11, Marang., p. 203; Wustenfeld, Fatimiden, op. cit., p. 112 et ss. (١٦١)
 Wilken, Gesch. d. Kreuz., III, 2, p. 130 et ss. ; Wustenfeld, (١٦٢)
 op. cit., p. 131 et s.

رماته (١٦٣) المن والأقاليم والغنائم ، وينذل الوعود للبيريين ، بمسحهم
أحياء من القاهرة القديمة ، والقاهرة الجديدة ، والحق في القصاص
القصصى ، وكنايس ، وحمامات ، الخ ، ثم الانصاف من الصرب في
الاسكندرية ، ودمياط ، ونيس . والى أن يتحقق كل ذلك وعد بأن
يصرف لهم إعانة سنوية قدرها ألف دينار ميرطى تؤخذ من إيراداته في
القاهرة القديمة والجديدة (١٦٤) أحلام جميلة لم يتحقق أى منها .

وكانت نتيجة الممرات التي جرت في مصر سقوط الدولة الفاطمية
ولم يستفد عمورى من سقوطها ، إذ آلت السيادة الى صلاح الدين ابن
أبى شيركوه المشهور وحليفته . وكان شيركوه أولا قائدا جيوش نور الدين
ثم الوزير الأكبر لأخر سلاطين الفاطميين وبعث بعد وفاة السلطان في ٦٤
من سبتمبر ١١٧١ في الاستيلاء على العرش . وبالنسبة الى الفترة المحاصرة
لحكم بين بيرا ومصر ، أما معلوماتنا عن سائر الأمم فأنها أقل من ذلك بكثير .
في عام ١١٧٣ ذهب سفير بيزى يسمى الديبراندوس (Hilderprando)
Aldesprandus الى بلاط صلاح الدين لكي يحصل لمواطنيه على تسهيلات
مختلفة في التجارة ، وناسى السلطان سلوكهم ابان الحرب الأخيرة ، لوافق
على عقد معاهدة جديدة (١٦٥) . ضمنت للبيريين اللقبيل بالاسكندرية احتلاله
فندق ، وحمام ، وكنيسة ، وكنائسهم بحرية السادة ، ورحصبت لهم
باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وشجعت استيراد منتجات الغرب الى
مصر ، وبخاصة الحديد والحطب والفسار ، وأعطت البيزيين من كل
البحرالى على ما يستوردونه الى مصر من ذهب وفضة ، ولكنها ألزمتهم بأن
يقدموا للجسارك عند رحيلهم ما يتبقى معهم من نقود . وأخيرا وضع
صلاح الدين حدا لمختلف ضروب العسف التي كان البيزيون يمارسونها
من مطالب الجسارك المزعمة ، وأجبارهم على بيع بضائعهم للحكومة بأقل
من السعر الجارى ، ومنعهم بالثقة من الرحيل .

وبعد الديبراندوس ، توالى ثلاثة سفراء بيزيين ، من ١١٧٦ الى
١١٨٠ ، وكان من مهامهم الرئيسية تخليص أسرى الحرب ، والحصول
بنوع خاص على إجراءات باقمة لمصالح الجالية في الاسكندرية ولأمن
التجارة . وفي حورتنا الاجابات المؤيضة لهذه الطلبات ، والصادرة

Paceli, Cod. dipl., I, 48-50; Shirehlika, Tab. ord. textu., p. 6 (١٦٣)
et s. ; en Egypte ; Abou-Tal, rapporté dans Michaud-Bédard, Bibl.
des crois., IV, 129.

Doc. sulle relax. tosc., p. 15 ; d. d. 15 sept. 1180, (١٦٤)

Amari, p. 297 et ss. (١٦٥)

أما من صلاح الدين نفسه ، أو في غيابيه من أخيه الملك الكامل ، وأبلغ بها السفراء . - ولسوء الحظ كانت هذه الاحاديث مضموعة بغيريات عامة ، فهي لا تنبئنا بأي شيء حديد من وجهة التجارة في ذلك العصر (١٦٦)

وعلى غرار بير ، استمرت جنوا والبندقية تزاو لى تجارتها مع مصر من عهد صلاح الدين ، وعقدتا مع هذا الأمير عن طريق سفرائهما معاهدات فلفتت نصوبها المسيحية . من ذلك أن الفوج سبياستيانو زيانى Sebastiano Ziani عقد - حسب ما قاله أحمد امروغيني (١٦٧) - صلحا متينا مع سيد بايبلون (أى القاهرة) ، وأمير المسموديين Masmoudes (١٦٨) . وليس هناك بالسببية إلى الأول احتمال لبعث ، فهو صلاح الدين ، ولما بالنسبة إلى الثانى ، فلا بد أن الأمير المولى الحاكم وقتئذ ، وهو أبو يعقوب يوسف ، ابن الخافى المغربى الكبير عبد المؤمن . وفى عام ١١٧٧ أرسلت جنوا السفير روبيس دى فولتا Rubens de Volta (١٦٩) . والواقع أنه لا يمكن استخلاص أية نتائج من هذه الوثائق الفردية لصالح النشاط فى العلاقات التجارية . وثمن لنح كثيرا هل قصة أن لصلاح الدين استعان بوساطة جنوى اسمه روجيرونى Ruggeronus لمبادلة كمية من الذهب المصرى ببعض منتجات الغرب (١٧٠) . غير أننا نجد لذلك دلالة أكثر صلبا فى خبر من أخبار غزوات صلاح الدين فى فلسطين : فقد كان من بين الأسرى

(١٦٦) توجد أول هذه الرسائل فى « أمارى » Amari من ٢٦٤ ويصل تاريخها (رجب ٥٧٢ هـ من ٥ ديسمبر ١١٧٦ إلى ٢ يناير ١١٧٧ م) ، ويصل صلاح الدين لنفسه اسم يوسف . كما لا نذكر بهاء الدين ، وأبو القدا ، يبدو أن هذا من الكامل اسمه . والرسالة الثانية مورو فى ١٦ من شهر رمضان ٥٧٤ (١٥ من فبراير ١١٧٩) . ووجهه فى : Pagnini, Della decima, II, 201 et s. : Amari,

لما الرسالة الثالثة (أمارى من ٢٦٧) بتاريخها شمسور شوال عام ٥٧٥ هـ . p. 208 et s. (من ٢٩ فبراير إلى ٢٨ مارس ١١٨٠) . وربما كان هناك رسالة رابعة سابقة لثلاث رسائل الأخرى ، وله فقدت . وفى هذه الرسالة يسمح السلطان البيزى مراكيا كبيرة ومساكن مريحة .

Hut dno Venet, dans les Monum. Germ. hist., SS XIV, 61. (١٦٧)

Pectis, SS. VI, 485; XIX 310 et ss., 429. (١٦٨)

Annal Jan, p. 98. (١٦٩)

(١٧٠) سقط روجيرونى فى أيدي القراصنة البيزى . ومعه خمسة من الذهب . وأرسل صلاح الدين فى هذا الخصوص إلى بيربا سفيرا مكثا تسليم رسالتين ليجهما فى (Amari p. 202 et s)

الذين أخذوا في عسقلان وهي مدن أخرى جنوبى فلسطين خمسمائة أسير من سبيلة فرليجة ، فأرسلهم السلطان الى الاسكندرية (في حريق ١١٨٧) ، وأمر بأن يركبوا من هناك سفنًا غربية تذهب بهم الى أوروبا .

ويعلم بهذه المناسبة أنه في غضون شتاء ١١٨٧ - ١١٨٨ كان في ميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قسّمت من جزوا وبيرا والفينيقية ومدن غربية أخرى (١٧١) . هذا العدد من السفن لا يبدو في ذاته كبيراً ، ولكن إذا علمنا أن الغالبية الكبرى من التجار كانوا براولون أصلهم في مصر في الفصل الثلاثم ، وإلى ربابنة السفن يفضلون قضاء الشتاء في بلادهم من لقضاء حارجها ، فإننا نميل الى التمسّك بأن مدّت السفن وليس سبعة وثلاثين سفينة فقط كانت تنحسح في ميناء الاسكندرية في وصول الربيع والصيف والخريف .

هذه الحقيقة نتيج لنا ايضاً ان نوضح المنى الذى وصلت اليه الزريبة من الترتيب عند سلطات الاسكندرية ، ولم كل ما كانت تبديه من تأكيدات بالود والصداقة . فقد رفض ربابنة السفن تسلم أسرى عسقلان البائسين في سفنهم ، لأن هؤلاء الأسرى لم يكن معهم نقود أو مؤن ، ولكن حاكم الاسكندرية كان يملك وسيلة لضبط عليهم . فقد رفض أن يعطيهم دواقل السفن (عوارض الصواري) وسكانها (ذلثها) حتى يتلقى منهم وعداً بأن يخلّوا مواطنيهم بسفنهم ، ويعاملوهم معاملة لائقة في أثناء الطريق . وهكذا كان حاكم الاسكندرية يجبر كل سفينة قادمة أن تودع عنده تحت حراسته دواقل السفينة والسكان ، وعلى طريقة ناجحة لمنع اصحاب السفن والتجار من مفارقة البلد قبل سداد الضرائب كلها ، ولضمان تنفيذ الاجراءات الثائرة على تجارة امة ثبت ارتكاب احد مواطنيها عملاً ضاراً بأحد الرعايا المصريين . وكان هذه الاجراء سارياً حتى عام ١١٨٨ ، وقد وعد صلاح الدين بانفاذ منذ عام ١١٧٣ بالنسبة الى البيزيين منوع خاص . نرى من ذلك ان التجار الغربيين كانوا يشعرون في عهد السيادة الاملاقية بأنهم اقلية مسجونين في مصر ، وأنهم لم يتمتعوا فيها بالحظوة واجسة من الأمن التام .

Contin. de Guill. de Tyr, p. 101-102 ; cf. l'extrait de l'His- (١٧١)
toire des patriarches d'Alexandrie, dans Michaud — Re-naud, Biblioth.
des crois., IV, 213.

— بعد أسنة ثبت وجود هذه الحركة التجارية لبعض الأفراد البشافة في سلس-
١١٨٨ ، ١١٨٩ في المقرد القردية للدرجة تحت رقم ٨٢ ، ٨٦ في
l'Archiv. Veneto, XX, 54 et s., 57.

وتلجرت الكارثة التي حدثت منذ زمن عهد الدول الصليبية في فلسطين ، وكان ذلك في أعقاب حملة صلاح الدين المظفرة ، والتي كان من نتيجتها استئثار حملات صليبية جديدة • كان المقصود أولا استرداد أقصى ما يمكن استرداده من الأراضي المفقودة ، وكان هذا في ذاته مهمة عسيرة للغاية ، إذ ينبغي في الهجوم مباشرة على مصر عقب الاستيلاء على عكا • ومع ذلك فاقضى الأمير مشروعه هذا مع موريكو دي بيساترالونجا Morino di Piazzalonga فحصل جنوا ، وبذلك ألقى جهده للحصول على معونة الجمهورية في الحملة التي أرمع القيام بها في صيف عام ١١٩٢ (١٧٢) • وبقيت الأمور مؤقتا في نطاق المشروع ، إلا أن ثمة احتمالا جديدة أثبتت أن مصر هي الخطر على الدول الصليبية • وشيئا فشيئا انضمت صحة الفكرة التي تقدم بها ريتشارد حتى قيل بصراحة أنه يجب ضرب مصر في الصميم ، وأن عمله هي الطريقة الوحيدة لتخليص الأراضي المفقودة من هذا التهديد الدائم • والمعروف أن الفكرة التي نجحت عنها الحملة الصليبية الرابعة التي نظمتها الفرمان الفلمنكيون والفرنسيون كانت تستهدف مصر ، وإن المفاوضات التي جرت مع الدوج دانولو حين عرض أن يتحالف معهم كانت تنفي هذا الهدف (١٧٣) •

وفي هذه الأثناء ، على الأمير الكسيوس الذي طرد من القسطنطينية يلتبس معونة صهره فيليب أمير سوابيا Souabe الذي أصر على أن يعين له من خصيه • فالتفكك النوج هذا الإصرار ذريعة لكي يحول الحملة الصليبية عن غايتها • والواقع أنه كان للبيدلية مصلحة سياسية في التوجه الأول من الأهمية في أحداث تغير في نظام الحكم بالقسطنطينية ، وكانت عازمة على إلقاء كثر من الإلال والإهانات التي ألقها بها طائفة القسطنطينية • وبمساعدة جيش كبير ، لا يتنازع للجمهورية أن تجد مثله ، يمكنها أن تمل أراقتها على ضفاف البسفور : وكانت فرصة ذهبية لا يجوز لها أن تتركها تفلت من أيديها ، وأدرك ايزيكو دانولو ذلك • وفي دراسة حديثة للكوت ريان Riant (١٧٤) تحدث عن الرجل الذي جعل للحملة الصليبية هذه الوجهة غير المتوقعة (ثم أنه جعل المستولية في ذلك على امبراطور ألمانيا أكثر مما جعلها على النوج) •

(١٧٢) الطر الرليتي بتاريخ ١١ أكتوبر ١١٩١ في (Lib. Jour., I, 388 et s.)

ولا يمكن - جزئيا من الأقل للبرومات الكلية التي نسبها سادو إلى هذا الأمير •

Rob. Clary, dans *Hépt. Chron. gréco-romanes*, p. 8 ; Geoffroy (١٧٢) de Villahardouin, éd. de Wailly, p. 13.

Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat (Revue des questions historiques, 187 s.) (١٧٤)

لذكر في شأنه كلمة « الحياة » . وقد يكون هذا الاتهام صحيحا لو ثبت أن ذلك الرجل استطاع أن يتكهن بسير الأحداث ، ويفترض أن الصليبيين سوف يتوقفون عند القسطنطينية ، ويجدون أنه يستحيل عليهم العودة إلى مشروعاتهم الأولى . نعم ، قد يكون هناك ما يدعو للمدح عن الحياة لو أن الموج تآثر بعودة السلطان . قبل أن للخروج إرنول *Ernoult* الذي ينتمى إلى العالم المسيحي في سوريا ، ومؤرخين غيره نقلوا منه ، أو كتبوا في نفس الاتجاه العكسي ، تحدثوا عن سلامة مصرية يقال لها ذهبت إلى البنطية حامله هدايا نفيسة في وقت تجمع جيش الصليبيين ، وفقرت البنطية بمزلا عظيمة ، ومكاسب هائلة في الاسكندرية ، بشرط أن يستسلم الموج لفؤده إيفير طريق العملة الصليبية (١٧٥) . ولم تكن سببة الخراج الذي روى هذه القصة من القوة بحيث يمكن الوثوق بصدد أقواله ، وبخاصة جزء الصمت الذي راعاه في هذا الموضوع كل المؤرخين الرئيسيين الذين كتبوا عن الحملة الصليبية الرابعة . ومن جهتي ، اعتقد أن قصته ليست إلا مجسوة من الإشاعات التي كانت رافعة في بيئته يسورية . ولحسن لمرك لنا ما غلب الصليب المسيحي في ذلك البلد من البنطية بعد العملة الدليثة التي اقترعوها باستيلائهم على ممتلكات كانوا في انتظارها بفروغ صبر ، وقد فسرت تصرفات السلطان الملك العادل : فحيثما كانت هذه التصرفات مجرد تبرعات طيبة اتخذت في مقابل خدمة أدت بطريق غير مباشر ودون تدبير مسبق ، رأت بعض النفوس المتحيزة في هذه التصرفات ثمة لحيانة متلق عليها مقنعا . ويندو واضحا أن إرنول لم يفعل أكثر من أن يدون على الورق كل ما قاله الناس عن هذه التدبيرات الخفافة (١٧٦) . وأراد البعض في زمن غير بعيد أن يؤكد هذه القصة بما ورد في بعض الوثائق الخاصة بالعلاقات بين البنطية ومصر ، والتي نشرها لأول مرة السيدان تاغل *Tafel* ، وتوماس *Thomas* (١٧٧) . ولكن لا نجد في هذه الوثائق سوى تعداد للتبذيرات التي حصل عليها من الملك العادل

Ernoult et Bernard le Trésorier, éd. Mus-Latrin, p. 346, 382. (١٧٥)

Conin de Guili de Tyr, p. 281, 385. Chron. gall. inéd. (aut. Baudouin d'Avesnes), dans Taf. et Thom. I, 332; Balduinus Constantinopolitanus, dans la Chron. Flandr. éd. Renet (Rec. des chron. de Flandre, T II), p. 129.

L'étude de M. de Wailly, à l'Académie des Inscriptions, (١٧٦)
Publiée dans la 2e édition de Villehardouin (Paris, 1274 in 4o. p. 430 et ss.)

Taf et Thom. I, 185-189. Mus-Latrin, Trésors de paix et de commerce, Suppl., p. 70 et ss. (١٧٧)

سعيان بندقين : مارينو داندولو ، وبييترو ميشيل ، وليس فيها كلمة واحدة يمكن أن يستخلص منها أن هذه الحملة سبقتها سمارة بحث بها السلطان إلى البندقية (١٧٨) . ثم إنه يجب البدء بتحديد الزمن الذي جرت فيه هذه الحملة ، مهمة داندولو وميشيل ، لأن الوثائق لا تحيل أي بيان بالتاريخ . ورأى المحررون الأوائل في هذه الوثائق ببساطة بالاستعدادات لقيام حملة صليبية كان على البنادقة أن يزودوها بالسفن ، وتبعوا وسلموا ماها هي الحملة التي استمرت من ١٢١٧ إلى ١٢٢١ ، ويقول لهذا الاستنتاج ، حددوا تاريخ الحملة بعام ١٢١٧ (١٧٩) . ويقول الكونت ريان (١٨٠) أن الحملة الصليبية الجارية أعدها وقتئذ يشمل أن تكون الرابعة . وقد أوضحت من قبل (١٨١) أن الفقرة التي تستند إليها هذه التفسيرات لا يمكن أن تنطبق على صليبيين ، لأن السلطان لا يمكن أن يضمن سلامتهم على القايمة ، ولكنها تنطبق على الحجاج الذين تلقاهم سفن البندقية طوال العام على الأراضي المقدسة (١٨٢) . واعتقد السيدان هوف Hopf وست ست Strett (١٨٣) أنهما وحدهما في أول هذه الوثائق نوع خاص بيانات تثبت أنها تنتمي إلى الحرب الصليبية الرابعة : مثال ذلك أنهما يقولان أن داندولو ، تبعاً للطور القائل الذي لعبه في الحملة الصليبية الرابعة هو الشخص الوحيد الذي يطبق عليه بعض النعوت من قبل :

Leo fortis, dux prudens, miles militum, prudens comestabilis,
exercitus Christianorum (أسد شجاع ، قائد حكيم ، جندي باسل ، رفيق عاقل ، مسيحي تلقى) .

غير أن الأسلوب الجزل الذي يميز الرسائل الرسمية للملك الشرق كان شيئاً معروفاً ، ولحسن الحظ ما ينبغي أن نفهم منها . لدى رسالة للسلطان إلى بييترو زياي ، خليفة داندولو ، يرى هذا الأخير متحلياً بالصفات الإيجابية .

— miles militum, custos militia Christianorum.

-
- M. Hopf (art. Griechenland, op. cit., lxxxv, p. 188). (١٧٨)
 Taf. et Thom., II, 184 et s. (١٧٩)
 Op. cit., p. 189 du tirage séparé. (١٨٠)
 Colon. commerce., II, 188, not. 2. (١٨١)
 Taf. et Thom. II, 167; Revue historique, IV (1877), p. 82. (١٨٢)
 Strett, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen (١٨٣)
 Constantinople (Ankern 1877), suppl. C, p. 49.

(جندى باسل ، حامى حى المسيحية ، الحاكم المسيحى)

ويحاطب السطان الدوج جاكوبو تيمونو بهذه العبارات :

— *le lion et le pro, capitaneus militum et capitaneus de lege Christianorum.*

(الأسد القوى ، قائد الجيش ، والقائد المسيحى) (١٨٤)

كل هذه العبارات متشابهة ، ويؤكد السيد خوف أن مساعدة التجارة للمشار إليها قد أبرمت بالقاهرة في ١٣ من مايو ١٢٠٢ ، وأن الأسقف سمع الدين المكلف بالحصول على تصديق على المساعدة سافر في الحال إلى البندقية فوصلها قبل قيام الحملة الصليبية (في أول أكتوبر ١٢٠٢) . فلو ثبتت صحة هذا الدأ لكأنه مسألة التاريخ محلولة . ولأنه الخط فإن حكاية هذه الوقائع ليس إلا مجموعة من الأخطاء . فهذا بالبيان الأخير ، لم يعتمد هذا البيان إلا على تفسير غير صحيح للوثيقة الرابعة : فلم يكن بأثره ثمة سفارة ، بل بالعكس ، كان الأمر مجرد خطاب أرسله السطان إلى قيس الدين *Waldeddin* أمير الإسكندرية (وليس سمع الدين) يأمره بأن يبادر في التفتق للجيش الذي منحوه ، وأن يفرح لهم سقوطهم التي يتعين على خلفاء هذا الموطف أن يراهمها . وعلى ذلك فإن قصة سفارة مصرية مبرومة إلى البندقية هي قصة مختلفة ، حتى بالشكل الذي عرضه السيد خوف . وعلى العكس من ذلك فإن البعثة القينيسية صحيحة : فهي حدث إيجابي ، ولكن ينبغي أن نعرف ما إذا كانت قد حدثت قبل رحيل جيش الصليبيين . ولست أرى شيئاً في الوقائع يشهد بصحة هذا الرأي ويجعلنا نذكر التاريخ الذي يستخلص من مجموع الوثائق الأربع . ثم إن الوثيقة الثانية هي بالأجمال الوحيدة التي لا تحتوي على أي تاريخ : ونقرأ في نهاية الوثيقتين الثالثة والرابعة عبارة ١٩ شعبان ، والتاريخ في الوثيقة الأولى أكثر وضوحاً .

decima nona Saben, mensis Martii

وقد أبان السيد ريان (١٨٥) أنه في عهد الملك العادل (١٢٠٠ - ١٢١٨) حدث ثلاث مرات فقط أن وقع يوم ١٩ من شعبان في شهر مارس ، وكان ذلك في السنوات ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ . فلو أردنا نسبة الوثائق إلى عام ١٢٠٢ مثلما فعل السيدان خوف وريان لوجب

Taf. et Thom., II, 188, 190, 191, 337,

(١٨٤)

L.c., p. 129.

(١٨٥)

مصحح كلمة Martil وجعلها Madji . أما السيد ميتريت Strelt الذي اختار عام ١٢٠٣ فإنه يصغر أن يجري هذا العمل نفسه (١٨٦) . ولكن إذا اكتفينا باتخاذ التاريخ كما هو ، فإن الوثائق المصرية تتفق لا أن مصر ابتذروا داندولو ، رغم النعوت الفضة الطباعة التي أضيفت على الموج ، كما بينا من قبل ، ولكن في عصر بييترو ريامي (١٢٠٥ - ١٢٢٩) . وكان من شأن التفسير الذي حدث في اتجاه الحلة الصليبية ، والثورة التي ابدلت على خلاف البسفور أن حوكت عن إمارات السلطان حطرا دائما . ولا القضي كل شيء ، لم يفت الموج أن يستفيد مما حدث لدى السلطان ، ويتمسك بالحقوق الكبيرة التي اكتسبتها البندقية نظير اعتراف مصر بأنها . وكلب داندولو وميشيل بالذهاب لمطالبة شاييد قري لهذه الحقوق . فهل كانت بعثتهم هذه في عام ١٢٠٦ أو ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ ؟ لا بد أنها كانت في إحدى هذه السنين الثلاث ، حتى لا يؤول النص تأويلا خاطئا . ومن ناحية ، الجمل مع السيد هانوتو M. Hanoutaux (١٨٧) إلى عام ١٢٠٨ : فالواقع أنه في الوثائق التي ندرسها يتبع السلطان الملك المادل لعنه الكتاب .

(rex regum-dominus imperatorum — et amicus miri

Amamoni — Amicus de Mir-momoni)

غير أن هذين اللقبين « ملك الملوك » و « صديق أمير المؤمنين » لم يسبدا أن السلطان إلا في عام ٦٠٤ هـ (١٨٨) الذي يبدأ في ٢٨ من يولية ١٢٠٧ . بحيث يقابل يوم ١٩ من شعبان يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ . ويضم الكونت زيان أنه من المستحيل أن يكون ماريانو داندولو قد عقد معاهدة صلح في مصر يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ ، ذلك لأنه في شهر فبراير من السنة نفسها كان في البندقية حيث وقع بالمضائه كشاهد في عقد حية (١٨٩) . وأما المؤيد ذلك ، بشرط أن يثبت أولا أن ماريانو داندولو كان في الحائلين شخص واحد بذاته ، فقد كانت أسرة داندولو كبيرة بحيث أنه قد يكون هناك شخصان من هذه الأسرة يحملان اسما واحدا ، في وقت واحد .

(١٨٦) Op. cit., p. 32 ; Taf. et Thom., I, 246 et ss.

(١٨٧) (ذكرنا التاريخ كما للتقويم القبطي : ٢٧ سبتمبر - Nov ind. 3, ann. 6907, L.C., p. 98.

(١٨٨) Annal musulm., IV, 224. M. Strelt — op. cit. p. 68

استخدم السيد ميتريت هذه العبارة دون أن يولها اهتماما كافي .

(١٨٩) Revue des questions historiques, Jany, 1878, p. 102 et s.

ولا بد أن السلطان كان راضيا بالمحادثات التي أدتها لدرسته
جمهورية البندقية ، أو بتصريحات سعراتها الذهبية ، لذلك أصدر أوامره
بأن يعامل التجار البندقيّة في مصر كلها باعتبارهم وعائيا أمة صديقة ،
كما منحهم تخفيضا في الضرائب ، ولبندا ثانيا في الاسكندرية ، إذ كان
لهم فيها حلق من قبل (١٩٠) . وبعد قليل أرسل إلى السوج بييترو
رياني رسالة يحدد له فيها آليات عرفانه بحصيلة ، ويهدى عزمه على أن
يخص البنداقية بامتيازات تفوق ما لمبائر الأمم معها . وبالفعل رحب
بكل الطلبات التي لفتها له سفير جديد من قبل السوج بييترو أرياني
Pietro Arpani ، قدم في عام (١٢١٧ ١٩١) .

وسوف ندرس بنوع خاص العلاقات بين البندقية ومصر ، بعد أن
نعود لحظة إلى الموضوع العام . لقد أدى تكرار الحملات الصليبية إلى حالة
من التوتر الدائم في العلاقات بين مصر والعالم المسيحي الغربي ، وكانت
الحكومة المصرية تنظر بعين اللقلق إلى الزيادة المطردة في عدد القرصنة
بالاسكندرية ، مما أثار اهتمام النصف التي ارتكبت في عام ٦١٢ هـ
(١٢١٥ - ١٢١٦ م) . وكان في الاسكندرية ما لا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر
أجنبي . ففي ذات يوم وصل إلى الاسكندرية سفينة على ظهرها سيدان
كبيران من العرب ، وإرتاب السلطان الملك العادل في أنهما يمتزمان
القيام بهجوم عسكري مفاجئ على المدينة ، بالاشتراك مع هؤلاء التجار ،
وهي ثم التي يها في السجن ، ومعهما كل التجار ، وعسائد كل
ما يملكون (١٩٢) .

كان هذا الارتياب في محله ، ولجئ برحاما على ذلك في إحدى وثلاث
الحملة الصليبية التي شنها عامي ١٢١٨ ، ١٢١٩ مسيحيو سوريا والغرب
للاستيلاء على دمياط ، مفتاح نهر النيل . وكان الحصار شاقا ، طويلا
الأمم ، وبين القسامين به كثير من الايطاليين ، من جنسوا وبيزا
والبنديقية (١٩٣) . **والجرا استسلمت المدينة (في ٥ من نوفمبر ١٢١٩) ،**

(١٩٠) تشرقي معامد ١٢٢٨ كتيبة تابعة لملك البنداقية

(Taf. et Thoen., 2, 196)

فدقيق ، ويؤكد هذا صحة تفسيرنا للفترة الممتدة بـ ١٢٠٦ ، ولم القادة المسيحيين حاولوا
يجعل السيد مسيرت أول هذه الولاقي في عام ١٢٠٦ ، ولأول مرة في عام ١٢١٧ . أما السيد
ديان فأن يجعل الاثنين في عام ١٢١٧ (ص ١٢٨) .

Taf. et Thoen., 2, 190-193.

(١٩١)

Amar, Dipl. arab., p. lv, d'après Makrizi

(١٩٢)

(١٩٣) في خصوص تفاصيل حصار دمياط ، انظر

Wilken, Gesch. der Kreuze, VI.

Bibl. des écoles franç. d'Athènes et de Rome, fasc. 19 p. 126.

وفرح أهال هذه المدن ، لا باعتبار ذلك نصراً عسكرياً ، ولكن باعتباره عملاً مديناً للتجارة مع مصر . فالواقع أنه ابتداء من هذه الآونة ، لوحظ في الأرض المقدسة أن التجار الذين اعتادوا القدوم إليها ، قد هجروها إلى دمياط (١٩٤) . وكانت الأريون سفينة بندقية التي دخلت ميناء دمياط في شهر مايو ١٢٢٠ تنتمي إلى كل من الأسطول التجاري والأسطول الحربي . ولسوء حظ العالم المسيحي ، فإنه ثم يندأ طويلاً بنصره هذا . فقد أراد جيش الصليبيين أن يتوغل في داس البلاد . فأرسل حملة لقيت نصيراً مؤلماً ، وكان أول نتيجة لهذه الكارثة سقوط دمياط في يدى السلطان (٨ من سبتمبر ١٢٢١) . وعشتا قاومت حامية المدينة حتى النهاية . والعجيب أن الذين عارضوا بدمية في تنفيذ التسليم كانوا هم بالذات مثل المدن التجارية الإيطالية الثلاث ، وبخاصة البنادقة (١٩٥) .

وهكذا لم ينجح المسيحيون بالمرّة في احتلال دمياط ، ولكن محاولتهم هذه تركت في مصر سخطاً شديداً ، وتعمل مسيحيو مصر عبه هذا السخط كله (١٩٦) ، وعميل التجار المسيحيون يتوغل خاص معاملة أهلها أسوأ من ذي قبل . ومن جهة أخرى ، ورغم أن لجاح الصليبيين لم يكن إلا نجاحاً مؤقتاً ، فقد قيل في الغرب أنه ليس من المستحيل إذن استغلال مدينة مصرية ، وأن هجومها عتياً يمكن أن يجعل الساحل كله تحت سيطرة المسيحيين . تلك هي دون شك البواعث التي حطرت من أجلها حكومة البندقية على زعائها كل عمل تجارى مع مصر في اللحظة التي كان فيها فردريك على وشك القيام بعملية صليبية التي أعد لها المنة منذ بضعة سنوات ، وأن الأتوان لوقت إمداد المدن بمعدات المقاومة . ولم يكن محظوراً قطعاً على كل تاجر أن يحمل إلى مصر اثشياً للبناء ، وحديداً ، وقاراً ، وعوداً أخرى والاعترض لمقوبة النفي . وبمصادرة أمواله ، ولكن إذا تجرأ أحدهم على مخالفة الحظر ، كان لى شخص الحق في أن يلبس عليه ، كما توقع عقوبة المصادرة بحكم القانون على كل

(١٩٤) لم يبق نام عن وقوع دمياط في قبضة للصليبيين حتى أرسل قسوسية ومطاردة للسطح رسالة إلى فيليب أوجست (أول أكتوبر ١٢٢٠) : « نظر :

(١٩٥) Chron. Turon, dans le Recueil des hist de la France, XVIII 202.

Raynald's Annal, eccl. ad. an 1223, n. ٧ (١٩٦)

من يشتري سلطا مستوردة من مصر (١٦٧) . وبالمثل حكومة البندقية في عهد الاجرامات ، وفي غضون هذه السنوات (في حوالي ١٢٢٤) حظرت على أصحاب السفن (ومحجريها) ، وكل قبائل ان يرسلوا أية سفينة الى مصر . وفي عام ١٢٢٧ أيدت هذا الخطر وأدبت بالمرور لشخص قابل سمعة متجهة الى مصر فاستولى عليها وحرقها (١٦٨) ، وحظرت شراء أية بضائع في مصر ، وأمرت بصادرة مواد مستوردة من مصر ، أيضا تم الاستيلاء على تلك المواد ، حتى ولو كان مالكوها قد حصلوا عليها مستعملة من قبل (١٦٩) .

ولم يمتد تنفيذ الحملة الصليبية التي طال التأهب لها الا في عام ١٢٢٨ . وبأدبرت شئون الحملة بكنيسة انزعجت منها مقدما أية فرصة للحصول على نتائج حدية . فبدلا من مهاجمة مصر ، عقد فردريك الثاني اواصر صداقة مع السلطان الحاكم وقتئذ ، وهو الملك الكامل . ولكن مهما كان الحكم على السلوك العام لهذا الأمير (أي فردريك الثاني) في الشرق ، فلا بد من الاعتراف بأن سياسته هذه كانت أكثر صلاحية للتجارة من غزو القواني المصرية ، لأن السياحة المسيحية لم تستطع أبدا البقاء بها لمدة طويلة .

ولسنا نملك لسوء الحظ الا القليل جدا من المعلومات بشأن المفاوضات التي جرت بين فردريك الثاني والملك الكامل . إذ يسود غموض تام كل ما انعقد بينهما من اتفاقيات قبل الحرب الصليبية . وما بخصوص الامتيازات التي حصل عليها الأمير بطور الطريق الميناء في أثناء اقامته بمصر ، فاما نعرف عنها المخطوط الرئيسية . ولكن لم يصلنا نص المعاهدة نفسها . ولا بد ان هذه المعاهدة كانت تحدد على بنود خاصة بالتجارة . وليس في ذلك أدنى شك . فمن جهة كان فردريك مهتما بوجه عام بازدهار تجارة الامبراطورية . ومن جهة أخرى ،

(١٦٧) في شهر مارس ١٢٢٦ أرسل الفوج ببيتر دبانى هذا الخطر الى حاكم كريت في صورة رسوم جديد ، انظر :

Taf et Thom. II, 260 et ss. ; Romaplin, Storia di Venezia, II, 430 et ss.

ولم يصلنا النص الاصل . ولكننا نملك الدليل على كسوة التي طليت بها الأوامر الصادرة ، ذلك انه في شهر يوليو ١٢٢٦ خصصت سفينة لراثة ما يرتكب من ملاحظات لهذه الأوامر في البحر الأدرياتي انظر في ذلك :

Lfb plagiorum, p. 102.

(١٦٨) Lib plagiorum, p. 38, 29, 40, 41, 49, 53, 68, 72; 77; 78, 79, 126, 124, 141 Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium, I, 98 ; III, 394.

(١٦٩) Lib. Plagiorum, p. 87 et ss., 68, 91, 93, 114, 118, 119.

يرى المقيزي (٢٠٠) - وهو مؤرخ في زمته بعض الشيء - أن الامبراطور طالب منه بانه للمفاوضات بالانفصال التام من الضرائب لرواياه في الاسكندرية ودمياط ، ولكن طلبه قوبل بالرفض ، ومن هذا اثبات كاف على أن المسائل التجارية قد نوقشت ، غير انه تنقصنا النتيجة النهائية للمناقش .

ومع ذلك فليس من المستحيل إعادة تشكيل هذا الجزء من المعاهدة ، على الأقل بطريق الجنس ، وكيفية ذلك أنه في عام ١٢٩٠ عمل بعض سفراء الفونس ، ملك أراجون - مستنادة الى اتفاقية انعقدت بين فردريك الثاني والملك الكامل - على عقد معاهدة صلح وصداقة مماثلة ، بين سيدهم وبين السلطان قلاوون الذي كان يتولى الحكم وقتئذ ، وسلم اليهم لهذا الغرض نسخة من الاتفاقية التي كان اصلها مودعا في سجلات الدولة المصرية (٢٠١) ، وفي حوزتنا نص الاتفاقية (٢٠٢) ، والمطلوب معرفة الى أي مدى استنبخ النموذج الأصلي ، فمن عصر الى آخر تغير الوضع ، ومن ثم أجرى بطريقة الحال بعض الحذف من جهة ، والإضافة من جهة أخرى ، وكانت البنود الخاصة بالتجارة هي التي طرأ عليها أقل قدر من التغيير ، نرى على سبيل المثال في معاهدة عام ١٢٩٠ أن ملك أراجون يرخس لرواياه ولسائر الفرنجة أن يصيدوا بحمر خشبيا واسلحة (٢٠٣) ، وصيداً ، ويسمح في العقود التي تحرر في بلاد اسلامية بين أفراد ينتمون الى عرشه وبين تجار مسلمين ، بالاتزام باحكام الشريعة الاسلامية (المادتان ١١ ، ١٣) - ومن المؤكد حسناً

Méhusud — Reinsud, Bibliothèque des croisés, IV, 430. (٢٠٠)

Amari (La guerra del vespro siciliano, 2a ed., Fir. 1878, (٢٠١)
Doo, XXXI, T, II, p. 323 et sq. Bibl. arab. soc. trad. I, I, 348 et sq.)

- هذا الجزء من التاريخ غامض بطي الغم ، ومع ذلك ينبغي أن نلاحظ أنه لم يرد في عهد الملك الكامل توضع اسم الاتفاقية الجديدة - هذا صحيح ، ولكن هذا الأمر

لا يتعلق بمعاهدة صلحاً وجرى دي سيسيس باسم فردريك الثاني ، كما نرى ذلك

- M. Amari, l.c. 429; Huillard — Bréholles, Hist. dipl. Friedr. II, introd. p. cccv et s. et Schirmacher, Friedrich II, III, 197; Winkelmann, Acta imp. ined. soc. XIII, p. 468 461 et s.

- لا يمكن ، كما لو أنه المصور أن يكون دي سيسيس قد أرسل الى مصر صلحه صلح قبل اواخر عام ١٢١١ ، ومن ثم فهو لم يجد الملك الكامل في عرش مصر بل وجد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

Amari, l.c. : sùv. de Sacy, l.c. : Wilken, Gesch. der Kreuzzüge, (٢٠٢)
VII, suppl. p. 17 et sq.

Guyengos, notes à l'éd. de Al-Makkar, I, 323 et s. (٢٠٣)

هو معروف عن طبخة فردريك الثاني ، أن تكون هذه النصوص مقتبسة من مصادره . وليس في المصادرة بين أراجون ومصر ما ينس على شخص أو الغاء الرسوم الجمركية ، بل على العكس كان الاتفاق عليه أن يدفع تجار أراجون الرسوم المقررة بالكامل عند وصولهم وخروجهم ، أو حتى عند مرورهم فقط بمدينتي الاسكندرية وتنجيط وغيرهما من الأماكن الواقعة على حدود البلاد الإسلامية ، وذلك طبقا للتعريفات التي حددتها لجنة إدارة الجمارك (المادة ١٨) .

وكما نعرف ، لقي فردريك الثاني مقاومة شديدة حين أراد أن يحصل لرعاياه على الإعفاء من الرسوم الجمركية عند وصولهم إلى مصر ، ولا يبدو من ثمة أنه حصل على تخفيضات ذات قيمة ، ومع ذلك فالتأثيرات على علاقات المودة التي وثقها حتى وفاته مع الملك الكامل أولا ، ثم مع ابنائه وحفاته كانت مفيدة لرعاياه ، وأثم وجدوا في مصر ترحابا ومعاملة طيبة (٢٠٤) . بل كان الامبراطور نفسه يشتغل بالتجارة ، ويستغلها لصالحه الشخصي . ومن صدقية كان يرسل إلى مصر سفينا تامة له ، رست واحدة منها في الاسكندرية عام ١١٤٢ أو ١١٤٣ وعليها شحنة من الزيت ، والنبيل ، والجبين ، والصيل ، وكمية من سلع أخرى ، وكان اسمها Le demo monde (عالم الدنيا) ، واستقرت دعدة الناس بأبصارها الكبيرة ، وعلاقتها الذي لا يقل عدد الزوار من ثلاثمائة رجل (٢٠٥) . وبلغت المودة بين الملكين - إذا صامتا ما يقوله عنها المؤرخون - شأوا بعيدا حتى أن فردريك اهتم بتجارة السلاطين في الهند ، وأرسل وكلاء إلى تلك المناطق ، عن طريق البر والبحر .

وليس المصير الذي استقبلنا منه هذه المعلومات (٢٠٦) مؤكدا في كل الأحوال ، وبخاصة فيما يتعلق ببلاد نائية . ثم أننا نعلم أن السلاطين لم يكونوا يميلون إلى مساعدة الغربيين على الذهاب إلى الهند ، وعلى ذلك فمن الجائز أن نثير بعض الشك في هذه النقطة ، ولعل ذلك لم يكن إلا من قبيل الإشاعات التي انتشرت بسبب الهلع الذي منحها السلطان

(٢٠٤) Huillard — Bréholles, l.c. introd., p. colv. not. 1, coelix, coelix, coelix; Raynaldi Ann. eccl. s.a. 1244, no 19; Michaux-Bezanet Biblioth. des crois. IV 448; Rahricht, Beitr. zur Gesch. d. Kreuzz., I., 86 et s., 86 et s.

(٢٠٥) Histoire des patriarches d'Alexandrie; Ameri, Bibliotheca arabo-slava p. 826; Dipl. arab., p. xxiii, et Storia del Mosulm, di Sicché III, 836.

(٢٠٦) Méth, Paris, Chron. maj., 6d, Lazard (88, rer. bris, V, 217

للإمبراطور ، ومع ذلك فمن بين الأشياء الغريبة الواردة من الهند ، وجدت أشياء أخرى من اليمن ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وسورية ، ومصر : هنا ما يشهد به القريزي (٢٠٧) .

وقد أثبت فوردريك اثنا عشر نصهاته المشاعر الودية التي غذتها حيال المسلمين ، وصار على نهجه خليفتاه منفردين Manfred وكونرادين Conradin (٢٠٨) . وكان في ذلك دلالة على التهدئة التي شاعت في الغرب . ولم يفت هذا الأمر على ذهن السلاطين ، وكان من أثر ذلك دون شك التغير الحيد الذي طرأ على مواقفهم ، وعلى حسن وفادتهم لتجار الغربيين .

وأطلقت الحداثة التي ألهمت الصليبيين الأوائل آخر ومضة لها في الحملات الصليبية التي شنها لويس التاسع ملك فرنسا . أما حملته الأولى (١٢٤٩) فأنها وجهت ضد مصر ، ولا ثم يكن نفس الملك أسطول ، فإنه استأجر سفنا من جنوا ومرسيليا (٢٠٩) . ولتصمت له دمياط أبراميا ، وارغب المسلمون عند رؤيتهم جيشه القوي ، فتركوا له المدينة دون مقاومة . كان حيلة نجاشا عاجزا ، وما لبث الصليبيون حين توغلوا في داخل البلاد أن انصرفوا على الهلاك ، وسقط الملك نفسه أسيرا ، وكان عليه ، ليسترد حريته أن يسلم دمياط ويذهب إلى سورية (١٢٥٠) . وفي هذه المرة أيضا استنار تسليم دمياط إلى المسلمين غضب البنداقية والجنويين والبيزيين ، حتى قيل أنهم جعلوا يناملون الفرسان الفرنسيين باعتبارهم أعداء لهم (٢١٠) .

وبعد القضاء عشرين سنة . شن القديس لويس حملة صليبية ثانية . وفي هذه المرة التجأ أولا إلى البنداقية ليحصل على سفن . وفي حوزتها الوثيقة التي يعرض فيها الدوج شروطه : فهو يطالب ، في البلد المزمع غزوه ، بالاعتقاء من كل الفرائد لصالح التجارة ، وبأحياء بها كنيسة . وحيام ، وفرن ، واستعمال الموازين والمكاييل البنداقية .

Citation per Amari, Storia del Musulm di Sicilia, III, 689, (٢٠٧)

Wilken, Gesch. der Kreuzz., VII, 480 et s., 626, (٢٠٨)

أيضا ينص بالسلطان المملوكي ، الفخر

Annal. Jan., p. 320, 324, 327.

(٢٠٩)

وفيما ينص على مرسيليا انظر نص نصه الذي نشره شاميلون فيجييه
Chempollon-Figeac في وثائقه :
Coll. des doc. inéd., I, 606-609 . Documents historiques inédits,
Mettib, Paris, Lc., V, 307. (٢١٠)

... الخ (٢١١) غير أنه يبدو أن المبادلة كانوا يحصلون ما يأخذونهم عما قد يأتي به المستقبل ، ولم يوافقوا الفكرة فذهب السلطان عليهم . وفقد أسوانهم في الإسكندرية ، ولم يخطوا ذلك عن سبيلهم ملك فرنسا (٢١٢) . ولعنهم وضعوا عبثا مطالب لا يمكن قبولها . والنتائج إلى المفاوضات لم تسفر عن شيء . وانتقل سفيره القديس لويس إلى جنوا ووجدوا شروطا الفصل (٢١٣) . ومن الواضح أن الملك عقد تسوية مائدة مع مرسيليا (٢١٤) .

ولم يعرف بأنه قد طرأت له فكرة مشيئة بأن يبدأ الحملة من تونس التي مات تحت أسوارها . وعندما كانت الحملة على وشك الانطلاق ، كان في جنوا سفارة من قبل سلطان مصر (٢١٥) ، ومع ذلك وليس ثمة ما ريثب أن تحول الحملة عن وجهتها كان يعارض من الجيوش بقصد إبعاد العاصفة عن رأس السلطان . بل انهم على العكس من ذلك أخذوا الحملة بوحدة عسكرية تزيد على عشرة آلاف رجل ، وهي صانعة هؤلاء ارتفعت أكثر المحسورات استنكارا لتغيير الأجساد العمليات العسكرية (٢١٦) .

كانت الحملة الصليبية الأخيرة هي آخر تهديد وقع على مصر ، وقد جعل كل من هذه الحملات الجاليات التجارية في موقف سوء نوع ما . ولم يكن كل ذلك سوى عواصف وقتية ، لكنها فترات من الهفوة والشك . ومع القرب أساطيل الصليبيين ، كان السلطان يرأب الأجانب مراقبة دقيقة ، بل أنه كان يستولق أحيانا من أشخاصهم . وعندما يزول الخطر يستمتع التجار من جديد بحريتهم في نشاطهم ،

Duchesne, *Histoire Francorum scriptores*, V 435-437 (٢١١)

Brief du pape Clément IV, dans Martène et Durand *Thea*, (٢١٢)
aced., II, 428 et s.

(٢١٣) تحرى ملوك استنكار السلطان عن أهم التماسيل بشأن السفن في البحر ، وقد نشر هذه الفكرة .

— Jal, *Doc. hist. inéd.*, I, 507-508, II, 50 et ss. et .
Belgrano, *Documenti inediti riguardanti le due crociate di S. Lodovico re di Francia*, Genova 1859 ; *Annali Jan.*, p. 364 et ss , Canale, *Nuova storia della repubblica di Genova*, II, 599 et ss.

— *الوصف التاريخي الذي ذكره جال* (١٢٦٨ م ٧٤١) (١٢١٨) :
Les Archéives des mers orientales, 2e serie III, 282.

Jal, I, 50, p. 518, 509-514. (٢١٤)

Annali Jan., p. 364. (٢١٥)

Ibid., p. 287, 288. (٢١٦)

وتدقيق التجارة كمادتها . وفي بعض الأحيان كان بعض المدن التجارية تقطع تجاريتها مع مصر إبان الاستعمارات لصلبة صليبية أو أثناء قيام الحملة ، كما رأينا في مثال البندقية . شرع فن التجارة كانت تستمر فلها دون عوائق ، ولم تكن فترات الانقطاع هذه تمنع أفراد المستوطنات اللرنجية من ملء حوائثهم ، والذين من تصريف بضائهم بمجرد عودة حركة الملاحة الحرة الآمنة .

ونعرف ظروف الحياة المادية للتجارة وفي المستوطنات الغربية بمصر معرفة جيدة ، لا يوجد أفضل من دراسة « براءات » أو أوراق الاعتماد *diplômes* التي يمنحها ميمونو السلاطين وسفرائهم . والبندقية هي المدينة التي بها أكبر مجموعة من هذا النوع من الوثائق . وعلى ذلك قسم الصواب البدء بهذه المدينة لاستعراض « حقوق الأمم التجارية وأملاتها » بمصر في القرن الثالث عشر . وقد ذكرت الامتيازات الرئيسية المنوحة للبندقة على أرض مصر في براءاته السلاطين : الملك للمادل الأول (٢١٧) ، والملك للمادل الثاني (٢١٨) ، والملك الصالح نجم الدين أيوب (٢١٩) ، والملك المنصور المنصور (٢٢٠) . ونعرف من قبل أن البندقة كانوا يملكون في الاسكندرية منذ أوائل القرن للمدني يشرف على شئونهم « ديوان » الحكومة المصرية ، ويستطعمان مسكيا لتجار ، وممزايا للبضائع . وكان لهم أيضا كنيسة مكرسة للمقدس ميشيل *S. Michel* ، وحمام خاص بهم ، وشبه في أحد البندقيين مغير يأخذون منه خبزهم . وكان التبني محرمًا في الاقليم الاسلامي كله ، ولكن كان مصرحًا بشؤله وببعضه في البندقيين .

ثم إن السلطات كانت تبنى كل ضروب الرعاية لراحة التجار في الفنادق من ذلك أن جمهورية البندقية قدمت طلبًا بسيطًا فبادرت السلطة بنقل سوق سمك كان يقام عادة داخل أحد هذين البندقيين إلى

Taf. et Thom., II, 184-189 ; Hammer, *Litt. Gesch. der Araber*, VII, 80 not. ; le document plein dans Amari, p. 327 (et la note de la p. 492).

Diplôme de 1238, dans Taf. et Thom., II, 186 et ss. (٢١٨) et dans Mariti, VI, 327 et ss., IV, 263 et ss.

— لا يـ من تصحيح التاريخين ١٢٤٨ ، ١٢٦٢ . والتاريخ الصحيح هو ١٢٢٨ .

Diplôme de 1244, dans Taf. et Thom., II, 416 et ss. (٢١٩) Roemer, III, 899

Lettres de 1254 et de 1258, dans Taf. et Thom., II, 443 et ss. (٢٢)

جهة أخرى (٢٢١) • ويحدد الموظفون البيداقة ساعات فتح المجال وعلقتها ، ولكنهم كانوا ملتزمين بإسراع العرف ، وإغلاق المجال يوم الجمعة أثناء صلاة المسلمين : وكان الغرض من هذا الإجراء دون شك تجنب الاحتكاك بين مختلف الديانات • وكان لكل فريق منفرده ، ويقدر شئون الديانة كلها فتصل يتبعه ثلاثة من الحكم ، وكل هؤلاء الموظفين معاضون من **الضريبة على الرأس** (الجريبة capitation ٢٢٢) ، ويرخص لهم بمرض وعيائهم أو مطالبتهم شفاة • وكان لكل يفتي الحق - بمقتضى المعاهدات - في رفع شكواه إلى السلطان مباشرة ، أو يكلف بذلك قنصله الذي يقدم في هذا الشأن مذكرة مكتوبة إلى السلطان • وكان القنصل يحتص أيضا بتقضى أموال الرعايا البيداقة الذين يتوفون • ومع ذلك فالمعاهدات لا تملئ إلا شواها قتيلا على كل ما يتمنى باختصاصات التفاصيل الإدارية كذلك ليس هناك أية إشارة إلى المستشارين المحليين بالقبائل • وفي طينا ، تبعا لبعض المعايير ، أنه كان هناك قنصل في مدن شبر الاسكندرية ، ولكن لم تذكر أية مدينة بالاسم •

وله أيدي سفراء الجمهورية ، لصالح الحركة التجارية بسوق خاص مسموعة من الرغبات امتحان لها السلطان بإمرامهم على قدر الإمكان • من ذلك أن قباطة السفن الفينيسية كان مخصصا لهم بمدينتي الشين والتفريق عند وصول السفن ، وزحيلة ، بواسطة رجال تابعين لهم • وكان البيداقة يحق لهم تعيين موظف تجاري يختص بالقرارد المركزي • ومراقبة الصانع طوال الوقت الذي تقضيه في مخازن الجمارك • وألغيت بعض الضرائب الملقوة ، كالرسم المفروض على فحص البضائع وحراستها في مكتب الجمارك (٢٢٣) ، وفيه ، والتي فرضها عمدا موظفو الجمارك أو القراصة الذين يمارسون أعمال السمسرة • وأعطيت اللؤلؤ والأحجار الكريمة والفراء لها أيضا من الضرائب • وكان البيداقة

Zila, Taf. et Thom., II, 484, de Varabe Djaliah : voy. Ham. (٢٢١)
 mer, Landesverwaltung unter dem Chalifat, p. 189 ; Quatremere,
 Mém., II, 1, p. 183.

(٢٢٢) كان الأمر كذلك على الأقل في عهد تلك الدول الأول ، على حد قول •

— Zila, de H. Gernand, dans Paris, SS. XIX, 336.

— واسم Saphadinus للتسويق في هذا الأمير في علم الرواية • وفي غيرها

من تحريف نسخة د سيد الدين •

Taf et Thom II, 186, 188, 389, 394, Amari, Dipl. arab., (٢٢٣)
 p. 468 et p. 470.

cuffum, argum

— هذا الرسالة ذكرها بكلمتين مكتوبتين من العربية

أحراراً في أن يبيعوا بضائعهم لمن يشاءون . كما لا يجوز فرض ضرائب على البضائع غير المبيعة إذا أرادوا العودة بها ، ولا يجوز اجبارهم على بيع أية بضائع . ثم أن يحتفظوا بالبضائع التي يتشجع بعهده البشراء أنها مشحونة . وبالاحتصار ، تدل قرارات الحكومة المصرية كلها على حسن معاملتها للبنادقة .

وبما جرح في أن يكونوا في عداد الأمم ذات الامتياز ، بقي البيزيون على وضعهم القديم . ففي عام ١٢٠٧ ، في عهد السلطان الملك العادل الذي منح البنادقة أقم امتياز وصل أمره إلى علماء ، بعث إليه البيزيون سفيرا يسمى مريوكو دىي تيجرتي *Marzuoco dei Tegerti* بهمة عقد معاهدة جديدة . وكانت طلباتهم تنحصر في القساطر الآتية (٢٢٤) : الإبقاء على ملكية البيزيون لقسطنطين ، وكنيسة القديس نكولا *S. Nicolas* ، وحماماتهم ، وترميم الفندق والكنيسة على حساب السلطان ، وإحق البيزيون في استعمال موازينهم ، وعدم فرض أية ضريبة إضافية على بضائعهم ، والمساواة العامة من الضرائب على الذهب والفضة (٢٢٥) . وقد ووفق على هذه الطلبات ، أو على الأقل أهمها . وحصل ما يطلبنا به : التصريح بالسفر ، *lettre de convoi* القبطي مريوكو عند عودته ، وثمة براءة معاصرة موقعة عليها بأمر الملك العادل تكفل للبيزيون ، ضمن أشياء أخرى إبقاء التفرقة الجسدية بمرحها إلى ذلك اليوم (٢٢٦) .

واستقبل الملك طهه سفيرا بيزيا ثانيا اسمه *Ranneco di Benedetto* . وكانت أوراق اعتماده موقعة من رئيس الأساقفة *Ubaldo Visconti* ولوتيرة واليوردستان أو بالدو فيسكونتي ومؤرخة في ٢٩ من مارس ١٢١٥ (٢٢٧) . ويفترض أن الأمر السلطاني

(٢٢٤) تعليقات موجبة من الأسقف أدبالدو *Ubaldo* ال مريوكو (الذي سجل لقبه الأسقف في ١١٧٥ إلى ١٢٠٨) ، وكذا من اليوردسات جيراردو كورتاليتا *Gerardo Carlevecchia*

انظر : *Amari, p. 280 et s.* ، وكذا : *Amari, p. 488.*

(٢٢٥) في خصوص الذهب والفضة ، انظر فيما بعد براءة عام ١٢١٥ .

(٢٢٦) *Amari, p. 282, 283.*

(٢٢٧) لجه النص اللاتيني والترجمة العربية في *Amari, p. 81 et s. et 284.*

ويذكر السيد تروني *Trenzi* مله السفارة في عام ١٢١٥ .

(المصادر عام ١٢١٥ يعرض علينا نتائج هذه المهمة (٢٢٨) : فالملك المادل
 يهبسدر أسره باطالاق سراج بعض البيزيين الذين اشترعهم من
 كنيستهم (٢٢٩) وحملهم عبدا ، وذلك دون أن يقتضى عنهم فدية ،
 ويكفل للبيزيين حرية الانتقال ، دهايا وايايا وأمر اشخاصهم ،
 واحتفاظهم أموالهم في حالة غرق السفينة ، واملاكهم لمقتهم وكنيستهم
 المخصصة لخدم موتاهم ، وإداء الضعائر والمفحات الدينية ، وحسابهم ،
 وتحدثت الرسوم على البضائع العامة بنسبة ١٦/١ ، وعلى الذهب والفضة
 بنسبة ١٠/١ ، ويعفى منها الخواد العدائية ، والبييد المستورد لاستعمالهم
 الشخصي ، ويرخص لهم تعيين مندوب في الجمر ، وقس وخادم في
 الكنيسة ، ويعفى الثلاثة من الضرائب ، وأخيرا ، إذا خالف موثق
 مصري بنصوص المعاهدات ، يكون لهم الحق في اللجوء إلى حاكم
 الاسكندرية ، أو إلى السلطان نفسه أن اقتضى الأمر ذلك ، ويتضمن
 هذا الأمر السلطاني الامتيازات التي منحها السلاطين للبيزيين وقائمة
 هذه الوثائق قصيرة ، وتنتهي في عام ١٢١٥ ، غير أن قوانين مقاطعة
 بيزا تحيطنا علما بالالزمة اللاحقة ، وتثبت بما لا يقبل الشك أن هذه
 الجمهورية احتفظت بقناصلها ولنادلها في الموانئ المصرية طوال فترة
 الحروب الصليبية وبعضها ، ومن المفيد من وجهة النظر هذه ، بنوع
 خاص أن نصلح « مرسوم مقاطعة بيزا » *Breve Pisani communis*
 لعام ١٢٨٦ (٢٣٠) ، فتمت لفقران من الكتاب الاول تبينان الشروط
 المطلوبة لاختيار قناصل الاسكندرية وديياط ، فعدد مناصبهم ، وبعض
 التنظيمات الخاصة بهم ، نذكر منها على سبيل المثال حظر بيع الديب
 في الفنادق البيزية (٢٣١) ، ومنع التجار الذين لا ينتمون إلى جمهورية

(٢٢٨) نريد ترجمة ايطالية قديمة لهذه المائدة في : *Pagnini*, II, 198-201. وفي : *Amari*, 228-229 تاريخ عام ١٢٢٢ هـ ، (١٢٢٥) غير صحيح بالتأكيد لأن
 المادل توفي عام ١٢١٥ (١٢١٨) ، وقد صحح اسمه أماري هذا التاريخ ووسيط
 به عام ١٢١٢ ، وعمر القناصل نفسه ، ص ٢٨٨ وما بعدها أيضا فراء أخرى سالمة
 تماما ، ولكنها تنسب إلى عصر غير معروف ، ولا يمكن أن تنسب إلى هذا الموضوع سوى
 التواريخ .

(٢٣١) غالب في مناسبة القبض على التجار الفريين بوجه عام ، الأمر الذي ذكرناه
 قبله حسبما ذكره أماري ، ص ١٧ .

(٢٣٠) *Bonani, Statuti Pisani inediti*, I, 55-540.

(٢٣١) *Bonani, op. cit.*, I, 838.

— منذ عهد بيبرس تجمد حظر البييسة عند التصديق بيزيد من الصرامة ، وهذا
 بلا شك هو السبب في الحظر المشار إليه .

بيرا من الادعاء بأنهم من رعائياها حتى يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للبيزيين ، والا وقع عليهم غرامة كبيرة . وفيما ، تنطبقا القوانين البلدية باسم واحد على الاقل من القناصل ، هو براردوكيوس ماسكا Bernarhucius Mascha ، وقد ذكر اسمه بمناسبة اقامته بمنبرا لوطانيه ، دون ذكر لأي تاريخ (٢٢٢) .

وفيما يتعلق بصلوات جنوا بصر ، لم تلغ المصادق ايضا كالمية . كان لجنوا قناصلها في الاسكندرية ، ويبدو أنهم كانوا يعملون مثنى مثنى . وقد انبأنا بذلك فقرة في « التحولات الجسوية » Annales genoises خاصة واقعة حدثت مع ذلك بعيدا عن مصر . لقد رأينا أنه في عام ١٢٠٤ طرد المفسر الجوى اداو دي كوستا Almano de Costa البيزيين من سيراقوسة حيث استقروا بها سادة منذ قليل ، وكان بين أعضاء هذه الحملة قناصل جنويين كانوا قد انهبوا عدة توليهم مناصبهم في الاسكندرية وعادوا الى وطنهم (٢٢٣) .

هذا الأمر يتطلب بعض الايضاح . ذلك أن « اداو » كان قد بازع جزيرة كريت حيث لحق به بعض مواطنيه الذين قسموا من مسوريا والاسكندرية ، وكانوا غالبا قناصل عاكفين من المسقوطيات ، وتصرفوا بصلتهم ممثلين للسلطات الجنوبية ، فاقاموه في المدينة التي غروها ، ومنحوه لقب كونت . وتشير عبارات مؤرخ التحولات الى انه كان هناك روجان من القناصل قنبا من الاسكندرية ، هما لاميرتس لوفاريوس Lambertus Fernarius ، وبلومسترس ليركاريوس Belmustus Ogerius ، ومن جهة أخرى لوجيريوس دي السوليس Lercarius de Insulis وبلومسترس ليركاريوس الصغير . ترى هل كان هؤلاء القناصل الأربعة يشغلون مناصبهم في الاسكندرية في وقت واحد ، ثم عادوا معا الى جنوا ؟

يصعب أن نسلّم بذلك ؛ فهل كان اثنان منهما عاكفين من الاسكندرية فالتقيا تحت أسوار سيراقوسة بالآخرين اللذين قدما ليحلا محلها ؟ قد يبدو هذا أكثر احتمالا ، غير أنه لم يكن من المتبع أن يترك قناصل المستعمرات وظائفهم قبل أن يحصل من يظفهم . ثم أننا لا نجد البتة في تاريخ حملة سيراقوسة أن أسطول اثنان قد انضم

Ibid III, 86 et s.

(٢٢٢)

Annal, Jan., p. 121 et s.

(٢٢٣)

إليه سفينة قادمة من جنوا • ويحاول السيد كاتاليه Canale أن يحل المشكلة (٢٣٤) ، فيترض أن القنصلين الأولين هما اللذان قدما وجعها من الاسكندرية ، وأن الاثنين الآخرين قدما من الاسكندرونة ، ومن ثم يجب التسليم باحتمال وجود قنصلين غربيين في الاسكندرونة ، وهو ما يصبغ التسليم به ، لأن الغربيين كانوا قد تركوا المدينة في هذه الفترة . ولكن حاكم شينا أكثر يقيناً : ذلك هو المعاملة التي تلقتها في عام ١٢٠٣ القنصلان لامبرتو لورناري Lamberto Fornari ولبوستو ليركاري Biemusto Lerari مع أمير الطائفة (٢٣٥) .

وعلى ذلك لم يأت الاتصال الأولان من الاسكندرية ، ولكنهما أتيا من سورية حيث كانا يؤديان وظائفهما خلال السنة السابقة • نلق وبرة فلم من المؤلف أو الفاسخ ظهرت كلمة de Alexandria مرتين في الفقرة ، ومن ثم يجب توسيع كلمة de Syria بعد اسمي القنصلين الأولين ، ويبقى من هنا الجدل أن القنصلين الكباديين من الاسكندرية هما أوجيروسي دي السوليس ، ولبوستوس ليركاريوس الصغير •

بقي لنا ، بخلاف ما سبق ذكره ، بفتح كلمات تتلخصها من هنا وهناك ، أحيانا بمناسبة سفينة ، وأحيانا بمناسبة سفراء يذكر أحد المؤرخين رحيلهم من جنوا إلى الاسكندرية ، دون أن يضيف أي بيان يشفي غليلنا عن خلف الهمّة أو نتيجةها (٢٣٦) • نلق في أواخر القرن

Nuova storia di Genova, II, 330. (٢٣٤)

Canale, l.c., II, 310; cf. Olivieri, Carte e Cronache, p. 89. (٢٣٥)

• يذكر القروبي في عام ١٢٨٥ سفرين من جنوا احضرا معها بحمولين من داسارازيلاء (كتلة لائحة القرب) • وسنة متفرقات (غير من لصيلة الصقريات) • وكذا كيرا ، وقد وصل إلى القاهرة ومعهما بحمولان من رودف الهابسبورغي • في الامبراطور ألفونسك السابق • وكانت مبعوثا بلا شك الإيلاء إلى السلطان بالعام ١٢٨٦ عوالف سفينة إلى امينجي سوريا • انظر :

Kamhach, Une ambassade de Rodolphe de Habsbourg en Egypte
Les Annales, p. 317, 324.

Annales, p. a. a. 1205, 1208, 1231 - 1232, p. 113, 113, 117-131. (٢٣٦)

في أوّل هذه الفترات نلق ، قيل أن عل السليمان أن يظهر من السلطان امينجي الاسرى المتورين ، ولكنه فشل في هذا الجزء من مهمته ، انظر أيضا القروبي :

Makrid, éd. Gasterméro, I, 1, p. 81, not 316, 1, 2, p. 127;
II, 1, p. 81.
(aux années 1283, 1273, 1285), Canale, l.c., II, 327 et s.

الثالث عشر ، ظهر صوبه أكثر وحسبوا يلبثت القباب عن علاقات
 جمهورية جنوا بسلاطين مصر ، وذلك بفضل وثيقة لعام ١٢٩٠ ، هي
 هي معاهدة صلح وتجارة المصنوعة بين الموثقين لومسج حد لمجموعة من
 الأحمال الفارية المتبادلة ، على عام ١٢٨٧ رست في ميناء الاسكندرية
 سفينة تجارية تحمل شحنة ثيابة ، ولاية المؤسسة سبينولينو سبينولا
 وشركاء الجنوبية . Spinolino Spinola ، صاحب السلطان السفينة ،
 ووضع طاقمها وشحناتها في مكان حرير ، ولم يوافق على إخلاء سبيلها إلا
 ظفر قديمة كبيرة . ومن جهة أخرى ، حدث في عام ١٢٨٩ ، تم استولى
 القبطان الجوى بنديتو زكاريا ، بالاتفاق مع قنصل كانا ، ياوليمو دور
 Paolo Doria ، بالقرب من ساحل آسيا الصغرى ، حيال كانديلورو
 Candeloro على سفينة مصرية محملة بالسكر والقطن والكتان ؛ وكان
 هذا اتفاقا لسقوط طرابلس في أيدي السلطان في شهر ابريل
 من السنة نفسها . وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة انزل السلطان
 الحافق جام محضيه على التجار الجنوبيين الذين كان يواجه عدد كبير منهم
 في تلك الآونة في الاسكندرية ، وألقى في السجن كل الذين لم يصل
 الخبر الى مسامعهم فلم يستطيعوا الفرار في الوقت المناسب ، وفي هذه
 الأثناء ، أغار شخص يسمى بيرانجير بانزانو Béranger Panzano (٩)
 على مدينة تينه Tineh ، وبأذرت حكومة جنوا بالتدخل من تصرفات
 زكاريا وبانزانو ، وأعلنت أنهما ليسا سوى قرصانين رفضا الامتناع
 لأمرهما ، وسماح بحربان البحار على تسوليتيما . وبمقت البرنو سبينولا
 Alberto Spinola في مهمة لدى السلطان (في ديسمبر ١٢٨٩) ،
 وأعاد معه ركاب السفينة التي استولى عليها زكاريا وبضائعهم ، أو لمن
 هذه البضائع . وبعد اتسم إجراءات التسليم ، انضم اليمين على أن
 قد تم رد الأشياء كلها ، وأبقى رغبته في معاهدة صلح مع السلطان .
 وتمنح السلطان قلاوون طويلا ، ولكنه كان بحاجة لا يريد أن تفرج منه
 الأرباح التي تجلبها للبلد التجارة مع جنوا ، ومن ثم رفض في
 النهاية (٢٣٧) . والتت المفاوضات بعد معاهدة في ١٣ مايو
 ١٢٩٠ (٢٣٨) ، ولقها باسم جمهورية جنوا البرتوسينولا ، وباسم

Les Annales Jan., p. 317-324.

(٢٣٧)

Silvestre de Sacy (Not. et extr., XI, 41-62) et Amari (Atl. (٢٣٨)
 della Società Ligure, V, 608-614 et suppl.)

— نشر الاثنان النصوص العربية ومنها ترجمتها وتفسيراتها . أما النصوص اللاتينية
 فترجمت لـ :

— Liber Juratum, II, 243-248.

السلطان وإيمه نائب سلطان مصر حسان الدين طوروبطاي Hosenn eddin-Torontal (٢٣٩) ، واشترك فيها بمثابة شهود الفصائل الجورجيان بونيفاتسيو Bonifazio (٩) ، ورافو Raffo وبعض التجار ، وكبار أعضاء الأكليريوس المختارين من بين مسيحيي مصر .
والقسم السفير بأنه عفيص أن يخلف المواطنون الجورجيون مستقبلا أشخاص وأموال رعايا السلطان في كل مكان ، وأن يستعوا عن الاعتداء على أي منهم بسبب ما يرتكبه الغير من أذى . وأعطي السلطان من ناحيته كل الصعائل الكفيلة بتحقيق الرغبات التي أبدتها السفارة في شأن معاملة التجار الجورجيين بمصر ، ووضعهم . وبدراسة المعاهدة فيما يتعلق بالحالية الجورجية بالاسكندرية ، نرى أنها لا تحتوي على ضمان صريح للملكية الممنوحة ، ولكنها تفسر هذا الضمان ، لأنها تبصر على المعاملة من الرسوم على الجبن ، وسائر السلع الغذائية الخاصة بسكان القنصل .
وتضمن المعاهدة للجورجيين ملكية كنيسة لوتردام بشرط ألا يجري بها أية ترميمات حتى ولو انهارت (٢٤٠) . وكالمعتاد وضعت حدود لسلطة القنصل الجورجيين القضائية ، والأمير رئيس الجمرك ، بمعنى أن يرفع الكمي دعواه للقضاء الكمي عليه . ويرخص لكل قنصل جنوي أن يخاطب السلطان مباشرة حين يقدم شكوى باسم أحد مواطنيه ، ويطلب أن يحرمه « قراس » Cassa من لندن الأمير ، أو يحرس من يولده إلى القاهرة لهذا الغرض . وللتجار الجورجيين في الجمرك حق الانتفاع بمخازن مرفؤو الجمرك ، تحت مسئوليتهم . ولما منسوب بفتح الجورجيين مرقيه يسلك سبيل يلق في من جهة مخوض الرسوم التي يدين بها التجار الجورجيين الجمرك . ومن جهة أخرى المثالب المكين بها الجمرك (كثير) ما كان التجار يبيعون مباشرة للإدارة) . فإذا كان أحد الرعايا الجورجيين مدينا للجمرك عند رحيله ، فعلى الجمرك أن يقلل إما كفاية المندوب

== — بعد مفاوضات من عند المعاهدة في :

— Serra, Storia dell' antica Liguria e di :
Genova, IV, 102 et ss., et dans Depping, Etat du commerce entre la Levant et l'Europe, II, 119-128; Canale, Nuova storia di Genova, III, 184-190

— أيضا Depping لا تحدث من مصاديق أبرمت اعدادها مع الصور ، والأخرى مع قنصون ، لأن للصور والقنصون هما شخص واحد .

(٢٣٩) فشل هذا المصوب من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠ ، القريزي ، الجزء الثاني ، (٩) .
ص ٦ ، ١١٠ ، ١١٢ .

(٢٤٠) استخدم في عند القنصل ، بالاعمال مع سلفس دي ساكي Silvestro de Sacy كلمة enco به من di drrueril enale

الجنوى ، وأما كفالة مواطن مسلم مدينى للجوى المسافر . وتفسيق الإدارة
سفاد الثمن فى حالة أى بيع يجرىه جوى مسلم ، إذا تم البيع حسب
القانون وأمام شهود ، بعرفة أحد السماسرة أو التراجمة التابعين
للجمرى . ولا يجوز إجبار أى جنوى على أن يبيع سلعته ، فله دائماً
الحق فى العودة بلا مضاريف بسلعة لم تبيع ، كذلك لا يجوز لأى موظف
أو شخصية كبرى فى البلد أن يجبر أى جنوى على الشراء . وتضمن
المعاهدة مجموعة من المواد المتعلقة بتحديد الرسوم الجمركية التى يختلف
سعرها حسب جدول موضوع تبعا لتصنيف البضائع .

أما الفراء الثقيل والإسجاد الكريمة فانها معفاة ، وأما المشعلات ،
والحرير ، والمنسوجات الخيرية ، والأقمشة المعروفة باسم مستقال
Cendal ، وساميت Samit ، والأقمشة الصوفية المتعددة الألوان ،
وجوخ ريمس Reims ، والخيوط الذهبية ، وخشب البها ، فانها
تدفع ١٠٪ ؛ وكل المواد التى تورن فى الجمرى تخضع لرسم قدره ١٢٪ ؛
وبالنسبة للمعاملات الذهبية والفضية ، والفضة غير المسكوكة ، يزداد
الرسم قليلا على ٤٪ ؛ وبالنسبة إلى السبائك الذهبية ، يزداد الرسم
على ٦٪ (٢٤٦) . ويستطيع كل جنوى معه سبائك ذهبية أو فضية أن
يسكبها لحسابه فى دارسك العملة بالاسكندرية نظير رسم معين
ولا تخضع هذه النقود لأى رسم جمرى إذا صدرت من الاسكندرية إلى
القاهرة لتستعمل هناك فى سداد أى شئ (٢٤٣) . على هذا على أن
الجنويين لم يكونوا منعزلين فى الاسكندرية ، بل كانوا منتشرين داخل
القطر ، ولكن تجذبهم العاصمة بطبيعة الحال أكثر مما تجذبهم سائر
الأماكن . ويتبين من مقدمة المعاهدة أن كل الأقاليم الخاضعة لسيادة
السلطان كانت مفتوحة لهم . وتلصق فقرة أخرى على حالة وفاة جنوى
فى ناحية لا يوجد بها لمصل من وطنه ، أو حتى أى واحد من مواطنيه
ففى هذه الحالة تخضع السلطات المصرية أمواله تحت الحراسة حتى يصد
بشائها قرار من حكومة جنوا .

لم نتحدث إلى الآن إلا عن وضع الثلاث مدن الإيطالية التجار
الرئيسية فى مصر ، ولكنها لم تكن الوحيدة التى تستغل أرضا مشغرة
كأرض مصر . ورغم ما كانت تبغله البندقية من جهود لسد الطرق في

(٢٤٦) كان المبلغ الذى يدفعه ، حسب المادة من ٤ إلى ٦ دنانير بفرنسية باللاه
الى عملة صغرى ، الطر :
Memo, p. 115, 118
et et Thom., II, 489, (٢٤٣)

وجه سائر مدن البحر الأدرياتي ، لأنها لم تستطع منع راجوزا وألكونا من إرسال سفنها إلى مصر ، وثمة معاهدات ثلاث ، بمثابة تقريبا ، أبرمت بين راجوزا والبندقية خلال السنوات ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ . يمكن أن تزودنا بنسخة عن البلاد التي كانت تتردد عليها آتية من راجوزا : فالي جاسي أسماء دوماثيا ، وبلاد البربر ، وثونس ، وسورية . نقرا اسم مصر (٢٤٣) فكانت مبلن أوزا تجلب إلى البندقية منتجات هذه البلاد ، وكان العرض من المعاهدات المباشر إليها تجديد الرسوم إلى يتعين تصديقها عن هذه المنتجات . وقد يواجها البعض بوثائق يتعهد فيها بعض مواطني راجوزا لنوع البندقية بالآ ينهوا إلى مصر (٢٤٤) ، ولكن لا مجال لمخطأ في هذا الشأن ، فهذه الوثائق يرجع تاريخها إلى السنوات التي سبقت حملة لوردريك الثاني الصليبية ، أي إلى عصر كان فيه السفر إلى مصر محظورا على مواطني البندقية أنفسهم . وعلى الشاطئ الإيطالي للبحر الأدرياتي كانت ألكونا وقتئذ في أوج ازدهارها ، وقد رأينا قبلا أن أفراد الطبقة البورجوارية بها كانت لهم علاقات بسورية ، وكان لهم بها منشأة ، كما كانوا يتاجرون مع مصر ، حين وصف بولكوماسي Boncompagni حصار كريتانيان Christian رئيس أساقفة ماينس Mayence (٢٤٥) لمدينة في عام ١١٧٤ . أحصى المؤلفين من المدينة ، وذكر أن عددا كبيرا من البورجواريين كانوا غائبين عنها ، إذ كانوا يزاولون أعمالهم التجارية في الاسكندرية والقسطنطينية ، أو في أماكن أخرى من الإمبراطورية البيزنطية . ومن المرجح أن يكون هناك معاهدات بين ألكونا وسلاطين مصر ، إذ يبدو أن البابا جريجوري العاشر قد أشار إليها في خطاب وجهه إلى السلطان في عام ١٢٣٦ للتوسط في صالح تجار تلك المدينة : هؤلاء التجار له الذي بهم في سجون الاسكندرية وحردوا من كل ما يملكون . ويقول البابا أن للألكونيين الحق في الاعتماد على حماية السلطان (٢٤٦) .

لذا اتكنا من ألكونا ، والجهنا إلى الجنوب ، صادفنا على طول الساحل مجموعة من الموانئ التي كان موقعها ملائما لنوع خاص للتجارة

-
- Taf, et Thom., II, 311, 322, 468; Monum. spec. hist. slav (٢١٧)
 merid I. 48. 56, 94 et s. : l'Archiv. stor. it. App. IX, p. 386.
 Monum. Slav merid., I, 33 ; III, 392, (٢١١)
 Muratori, SS., VI, 930, (٢١٥)
 Raynald, Annal. eccl. a. a. 1281, nu. 86. (٢١٦)

مع مصر ، كان في بارليتتا Barletta ، وتراني Trani ، وباري Bari .
 حسابات من أصحاب السفن ومجهزيها ، لا يكتفون بقل الحجاج
 والصليبيين ، ولكنهم يزاولون أيضا نقل البضائع ويستفيدون من
 الصلات الطيبة التي تربط فردريك الثاني بالسلطان في مضاعفة رحلاتهم
 الى مصر ، وفي هذا العصر تسمى وصية مواطن من تراني كان يعيش
 كما يبدو في برنديزي ، في هذه الوصية ، يتصرف المواطن في مبلغ من
 المال وبضائع عهد بها الى سفينة مبحرة الى الاسكندرية (١٢٢٧) (٢٤٧) .
 والأمتلة لدينا كثيرة من هذا النوع ، لولا ندرة الوثائق الصادرة من
 الأفراد ، ولم يتركه على وفاة كل من فردريك الثاني وما بعد قطع
 الصلات بين جنوب إيطاليا ومصر ، وإذا كان شارل دوق اصور قد عدل
 على التقضي من الأفراد الأتال ، فانه في هذه النقطة كان حكيمًا اذا اقتدى
 بهم ، نسعى الى كسب صلاته سلطان مصر ، ولم يلته أن ينص لصالح
 رعاياه على استمرار المزايا التي كانوا يتمتعون بها في عهد
 فردريك (٢٤٨) .

كانت الظروف المؤدية لبحارة إيطاليا حوائية بالمثل لبحارة
 صليبية (٢٤٩) ، ويبدو أن بحارة مسينا قد استفادوا من هذه الظروف
 بنوع خاص ، وحلوا أمر طبيعي ، نظرا لموقع هذه المدينة على طريق مصر
 المباشر . كان هذا أيضا فرصة طيبة لسكان سالرنو وأمالفي ، إذ كانت
 صلاتهما بمصر قديمة العهد ، وحافظت آمالفي على هذه الصلات بقدر
 ما سمحت لها قواها التي ضعفت كثيرا من قبل (٢٥٠)

لقد أحصينا بالكامل تقريبا كل المدن الإيطالية التي كان لها علاقات
 تجارية مع مصر ، على الأقل تلك التي يوجد بشأنها دلائل ثابتة . أو

Davanzati, Sulla seconda moglie di Manfredi, p. xciv et ss. (٢١٧)

Michaud-Reinard, Bibliothèque des croisades, IV, 462 et s. (٢١٨)
 816; Wilken, Geach der Kreuzz., VII, 430 et s., 628; Del Giudice,
 Cod dipl. anglov., p. 323 et s. not. (Charles de 1269 et 1271); Minieri
 Ricci, Il regno di Carlo I d'Angio negli anni 1271a 1272, p. 13
 15, 78.

Benjamin de Tudèle إشار اليهم بنيساب دي توديل وهم (٢١٩)

يترصدون على سوق الاسكندرية في مصر السفلى الثورمانية .

(٢٥٠) وجد أيضا في عام ١٢٥٩ ملك مبرم بن أمالفي وأحد سكان رابيلو
 Ravello ، وهي ناحية تقع على مرتفع يعرف على مدينة أمالفي ، موصوفه رسالة
 تجارية مضمرة ، الى الاسكندرية أو عكا : انظر :

Camera, Mem. di Amalfi, F. 438.
 Méry de Guindon, I, 329, 838; II, 226 et ss.

احتمالات كبيرة . ولنتنقل الآن الى فرنسا هنا نجد أولا مرسيليا ، معاقباتها مع مصر ترجع الى رميزموش في القدم . وتعرض علينا قوانين بلدية مرسيليا في القرن الثالث عشر تجارتها مع مصر في اوج نشاطها . ويحد بها ذكرا كثيرا ليعصا لعستوردها من الاسكندرية الى مرسيليا بحار وطبيون واجانب . وتبيننا فضلا عن ذلك ان المرسيليين كانوا انفسهم رحالة لهم ، او اقامتهم في الاسكندرية خاصتهم لسلطة قضاة مصر وطعنهم (٢٥١) . وفي عام ١٢٧٢ وقع حادث كاد يوقف لوجاة هذه الحركة التجارية . فقد استولت سفن مرسيلية على سفينة لمسلمين كانت عائدة من القرم وبها سفراء من التتار الى بسلط السلطان بيبرس . واسرت السفراء ، وبقيت بهم مع باقي طاقم السفينة الى عكا . وفي الحال طالبه السلطان باطلاق سراح الاسرى ، والا حظر مرافقة تجارة مرسيليا في امبراطوريته . واثمر التهديد ، فلهذا اطلق سراح السفراء . وفي المرسيليون احرارا يتابعون مشايرهم التجارية في مصر (٢٥٢) .

وكان لوبلييه ايضا مستوطنتها التجارية بالاسكندرية قبل منتصف القرن الثالث عشر . وفي هذه الفترة كان ملوك اراجون سادة مونتبيليه ، ولا بد ان افراد الجالية بالاسكندرية كان يقرون لهؤلاء الملوك بحقوق السيادة اسوة بمراتينهم في فرنسا . ومع ذلك لم تكن الحال دائما على هذا الملوك : فلاسباب ليجنهما طالب افراد الجالية بالتخلص من روابطة الطاعة التي تربطهم بهؤلاء الملوك : حيث ذلك وقت الامة ريمون دوكونش Raymond de Conchis بمصر . على اننا نجد ريمون هذا مكلفا بمهمة في قبرص وطرابلس (٢٥٣) ، عامي ١٢٣٦ ، ١٢٤٣ ، ومن المحتمل ان تكون فترة اقامته في مصر قد سبقت او تلت بقبيل احدى هذه المهام ، وأنه هو الذي اضطر عند عودته بمطالب افراد الجالية . وعلى أية حال ، صرح الملك جيمس الأول Jaime Ier بمرسوم خاص لعام ١٢٦٤ بدوله عن توقيع العقاب على هذا الشرذلة (٢٥٤)

(٢٥١) انظر أيضا العقد المبرم في عام ١٢٦١ بين مدينة مرسيليا والكونت مروج دي
 ليوندياس . Hugues de Empuries

— Papon, Hist. de la Provence, II, preuves, no XLII .

Michaux-Bellaud, Biblioth. des crois., IV, 580 et s. ; (٢٥٢)

Witten, Gesch. d. Kreuz., VII, 603 et s.

Méry et Guindon, I, 410 et s. , Germain, Hist. de la commune de Montpellier, III, 513. (٢٥٣)

Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 253. (٢٥٤)

والتي سببت أن حركة التمرد هذه كانت وقتية . وكان القصاص
الاستعماريون يتولون مهام محاصرتهم بلعسم الملك ، وتميعهم السلطة
الملكية . وفي عام ١٢٦٧ أوفد جيمس الأول إلى الاسكندرية مع سفينة
تجارية انبى من برجوازي مونيبييه برنار دو مولنديس Bernard de
Molendinus (أومولينس) ، ورنار دويلاو Bernard
de Plano مرودين بسلطات مطلقة . ولم يكن رعايا الملك الذين
ركبوا السفينة نفسها حاضرين لسلطة هذين البورجوازيين وقضائهما
اتناء رحلة السفينة ذهابا وعودة لحسب ، ولكن صدر الأمر أيضا لكل
التجار الذين ينتمون بأحسنتهم إلى أقاليم تابعة للأسرة الحاكمة في
أراجون ، الموجودين بالاسكندرية ، أن يخضعوا لسلطتهما الإدارية
والقضائية . ورفض السفوسفي بمبادرة تاجر الفندق ، وكلما بأن عقيما
في المستوطنة لبل هودلها قنصلا أو أكثر ، يقول باسم الملك القضاء
المدني والجنائي (٢٥٥) . ويبدو أن أهالي مونيبييه المتبعين بالاسكندرية
لم يكن لهم تفصيلة وفندق ، على الأقل طالما كان وطنهم الأصلي خاضعا
لتاج أراغون ، ولكنهم كانوا يتقاسمون القنصلية والفندق مع التجار
الذين ينتمون إلى الأقاليم الاسبانية التابعة لهذا التاج ، وكان رؤساء
المستوطنة يتخفون بالقناب في كل من المجلسين اللذين تتكون منهما .

وإذا كانت التجارة مع مصر مباحة بوجه عام لرعايا ملك أراجون ،
فإنه كان محظورا عليهم أن يبيعوا للمسلمين مواد لبناء السفن ، أو سفنا
مبينة . كانت هذه التجارة موضوعا لانداز رسمي وجهه البابا جريجوري
العاشر في عام ١٢٧٢ إلى بورجوازي مونيبييه ، وسبق لنا أن تكلمنا
عنه . وفي السنة السابقة وجه الدارامثال على وجه التقريب إلى
بورجوازي ناربون (٢٥٦) ، ويقل هذا على أن ناربون كانت تقيم هي
أيضا صلات مع مصر في عصر الحروب الصليبية . ويشهد جغرافي عربي
معاصر (٢٥٧) بأنه كان يوجد حركة تجارية بين الجزائر والاسكندرية عن
طريق ناربون . كيفية ذلك أن أكوينابيا l'Aquitaine كانت وقتئذ
خاضعة للإنجليز ، وكانت الجزائر ترسل إلى بوردو عن طريق البحر

Company, Memorias sobre la marina de Barcelona, IV, 8. (٢٥٥)

« توجد بند ذلك ، في صفحة ٧ أمرا بحرق مبلغ إلى هذين الشخصين . »

Port, Histoire du commerce maritime de Narbonne, p. 128. (٢٥٦)

129; Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 206 et 22

Ibn-Batûl (mort en 1274), cité par Aboulféda, Géogr. (٢٥٧)
trad. Reinaud, II, 307.

شحنات من القصدير والنجاس ، وتصفه هذه المواد (في مراكب) نهر
الجارون حتى تولوز ، ومنها تنقل على ظهور العوالب حتى نابويون ، ثم
تجمل على متن سفن « انرجية » تنقل بها إلى الاسكندرية ، وتنتمى
هذه السفن الانرجية طبعاً إلى الأسطول النابويي (٢٥٨) .

وختاماً ، نضيف أن بنيامين دى تودين يذكر من بين التجار الذين
يقول انه رآهم في الاسكندرية تجار أراجون ، والحقيقة أن من أراد أن
يذكرهم مع تجار قطلونيا التي انضمت إلى أراجون منذ عام ١١٣٧ ،
وبخاصة عاصمتها برشلونة . كان هؤلاء التجار القطلونيون يقومون
معظم الوقت بالرحلة إلى الاسكندرية على سفن وطنية ، وليس في ذلك
أدنى شك ومما بعد (١٢٢٧) حظر الملك جيمس الأول شحن البضائع
إلى الاسكندرية أو سورية في سفن أجنبية ما دام هناك سفن في ميناء
برشلونة (٢٥٩) . اثابت إذن أن الأسطول التجاري التابع لبرشلونة
كان يقوم بصورة متتادة بالرحلة إلى مصر (٢٦٠) ويعرفنا بذلك القانون
البحري المعروف باسم Consulado del mar ومن المسلم به أن هذا
القانون قد دون بأكمله في برشلونة ؟ وبهم من فترات متخللة من هذا
القانون أن بحارة هذه الألة التي شرع القانون من أجلها كانوا يملكون
ليس فقط أرمينيا وسورية (عكا) ، ولكن أيضاً الاسكندرية (٢٦١) ،
لأنهم أرادوها .

وكانت هذه التجارة تمثل خطراً ، ذلك لأنها تسهم في تزويده ملوك
مصر بالوسائل الكافية بدعم قواتهم الحربية . وتداركاً لهذا الموقف

(٢٥٨) كان بعض تجار نابويون يذهبون في الاسكندرية مع بعض زبائن في
دورسيليا فركوا في أيدي أحد الجديين (١٢٩١) :

Annal. Jan., p. 841.

Company, I, c., III, 11 et 8.

(٢٥٩)

(٢٦٠) أدهيت رأي في خرس الامارات الصليبية في سورية ، أن هناك ما يدعو
إلى أن ننسب إلى التجارة التي كانت قائمة بين سوريا وبرشلونة وجود كميات هائلة من
المنتجات الفخرف في سوق برشلونة ، أما كاباني (Company I, 43 et 44) فإنه
ينسبها إلى تجارة مصر . وإلى آخر ، من جهة ، أن جزءاً كبيراً من التوابل التي تصل
إلى برشلونة كانت تأتي من هذا الطريق (أي من مصر) .

Consulado del mar, dans Farnhamus, Collection des lois maritimes, II, 80, 801.

- يمل اسم عكا Agou الموجود هناك (ولغزول أنها تبرد. عام ١٢٩١ - على
أن الفصل المذكور قد حذر في مصر الحروب الصليبية .

أسند جيمس الأول في عام ١٢٧٤ مرسوما يحظر تصدير المعادن ، وخشب البناء ، والأسلحة ، والثروات المعدنية إلى مصر (٣٦٢) . وكان هذا الإجراء وقائيا فحسب ، ولم يستهدف البتة عرقلة التجارة مع مصر ، وكانت الحركة التجارية مع هذا البلد قد بلغت من قبل درجة كبيرة من التقدم حتى صارت الإسكندرية من بلدان ما وراء البحار التي توجه إليها برشولة قنصلا ، ويمتص نفوذا ملكي كان هذا القنصل يمينه مجلس المدينة وحكامها ، ويؤلفه إلى الإسكندرية ليشرف شئون الجالية القبطونية بها ، بمساعدة الذين من المستشارين (٣٦٣) .

والم هذا الرخاء التجاري العام بالآراء السياسية عند ملوك أراجون ، فكان لا بد لهم من العمل على تشجيعه . ولما كان هؤلاء الملوك من أقرباء ملوك أسرة هوهنشتاوفن ، ولهم ما لهؤلاء من صفات ، فأنهم اتبعوا سياستهم القوية مع سلاطين مصر ، وكان جيمس الأول قد يادل سلطان مصر آيات المودة (٣٦٤) ، ولغالبا عن طريق مانفريد من أسرة هوهنشتاوفن ، للتوصل بكل الماعذين . ولما مسائل تجارية تحتاج إلى معالجة ، زودت بطرس الثالث ابن جيمس بفرصة يجدد فيها توثيق هذه الروابط (٣٦٥) . على أن الأمير الذي قطع شوطا بعيدا في هذه السياسة كان **الفونس-الثالث ملك أراجون** ! فقد أرسل إلى القاهرة بالاتفاق مع أخيه جاك ملك صقلية سفارة مكلفة بمقابلة **معاهدة تحالف دائم وهجوم مع السلطان قايتو** ، اللصيد منها الحصول على امتدادات بالرجال ، أو على الأقل بمعونات مالية (٣٦٦) . وأبرمت المعاهدة في ٢٥ من أبريل ١٢٩٠ .

Copmany, II, 38 et s.

(٣٦٢)

Chartes de 1288 et 1289, dans Copmany, II, 32-34 ; ibid. (٣٦٣)
II, 368.

Michaud — Belnaud, Bibliothèque des rois, IV, 404, 518. (٣٦٤)
Miles (De vita et rebus gestis Jacobi I, Vniuers. 1882, p. 309 et s.)

— يتصلحت Miles عن اثنين من عروجوازي برشونة ، وهما من كبار الرعاة .
في اتهمنا سلطان للملك .

Copmany, I, 2^e part., p. 48.

(٣٦٥)

— لسوء الحظ ، لم يذكر كايكالي الوثيقة الخاصة بهذه الرعاة .

(٣٦٦) طالب جاك عملا بعد سنتين ، بإعانات مالية ، وسرف يسرد إلى هذه النقطة .

ويختل. ويلكن Wilken (٢٦٧) حين يتحدث عن هذه المعاهدة على أنها معاهدة تجارية لأن للكتابة الأولى فيها بنود ذات أهمية سياسية بحتة ، ومع ذلك فهي تتضمن أيضا بضعة بنود خاصة بالتجارة . من ذلك أنه قد مرّ فيها على أن تظل رسوم الدول والمخروج والمزور المستعملة حتى ذلك الحين مطبقة على التجار الذين يتمتعون بأصنافهم إلى أقاليم تابعة لتاج أراجون ، وذلك في الاستثنائية ودعوات وسائر مدن الحدود المصرية . ويختصص عمليات البيع والشركة إلى تجارى بين هؤلاء التجار والتجار المصريين في الأقاليم المصرية ، تتبع الإجراءات التي تنظمها التشريعة الإسلامية ، وأخيرا تنص المعاهدة على ألا يفرض القونرس شيئا من شأنه أن يمنع رعاياه أو غيرهم من القرنية من تصدير الأسلحة والخشب والمواد المماثلة إلى مصر (٢٦٨) . ولما كان القونرس قد سخر في هذه الأثناء خطته السياسية كل التغيير ، فإن من المستكوك فيه أن يكون قد صلت على هذه الاتفاقية (٢٦٩) .

وبعد ستة شهور ، توفي قاتلون (١٠ نوفمبر ١٢٩٠) وسط الاستعدادات لحصار عكة ، وأنجز ابنه الملك الأشرف مشروعه هلسا . وبهذه الواقعة انتهى عهد الحروب الصليبية . ولم يبق لنا إلا أن نقول بضع كلمات عما فعله السلاطين المماليك لتجارة منذ ثلاثين سنة في حكمهم لمصر . كانت طبيعتهم الحرب ، وتستهلف جهودهم اصعاف الدول الصليبية ، وسحقها أن تمكن . ولما كان من المحتمل أن تخرج جيوش جديدة لنجمة السيادة الإفريقية لقرنية في سوريا ، كان لا بد من تأمين وصاية بلدهم من هجمات القرنية . ولما كانوا قد وافقوا أحيانا على توثيق علاقات ودية مع بعض أمراء الغرب ، فذلك وسيلة لتحويل جزء من العالم المسيحي عن الحركة الصليبية ، ومن ثم الاطاحة

(٢٦٧) Geesh, der Kreuz, VII, 712.

(٢٦٨) توجد هذه المعاهدة في المخطوطة العربية للمسلطان قاتلون ، وكان سلاسله رسميا أول من ترجمها إلى الفرنسية ، ونشرها على عدة
— (Magasin encyclopédique de milin,

وهذه الترجمة الفرنسية هي التي قلنا ونعني في الأندية :
Te année, 1802, II, 146 et ss.)

(Geesh der Kreuz, VII, suppl., 17-28).

— وقد قبل السيد أماني M. Amari مرارا هذه الترجمات بالأمن ، ونعني بأن
عدم بالإيطالية الترجمة الصحيحة :

— La guerra del vespro siciliano, 2^e édit. Firenze,
1878, II, 382 et ss.

Amari, I.c. I, cxlii, 482.

(٢٦٩)

علمه بالوقف السياسي في أوروبا ، ومشروعات اميراتها • ولم تجز الاعتبارات التجارية الا في القرية الثانية •

وإنه الاجراءات الواجب اتخاذها للدفاع عن مصر ضد الصلات
الصليبية ، كان لا بد للمصالح التجارية أن تفوز • من ذلك أنه لكي
يتدارك السلطان بيبرس أخطار غزو يفسد الفريجة عن طريق مصب
النيل ، لماه صيق فرح دمياط وحمله غير صالح لثلاثة السفن الحربية
عديمة الطاقات ، ولم يمه أن يخلق على هذا النحو مفسد البحر في
وجه السفن التجارية الكبيرة • وفي زمن المقريري ، أي في النصف الأول
من القرن الخامس عشر ، كان النهر ولم يزل مسدودا عند هذا الموضع ،
وكانت السفن القادمة من عرض البحر تضطر إلى تفريغ حمولتها في
قوارب • وتأثرت الحركة التجارية في دمياط بظيمة الحال ، وكانت
قد عانت كثيرا بسبب تحويلها عن المدينة في عام ١٢٥٠ • وقبل كان
من السهل دخول المدينة من ناحية البحر ، وبذلك استولى عليها الصليبيون
مرتين ، وجعلوا منها قاعدة لعملياتهم • ولكي يفرع عنهم المسلمون مستقبلا
للقلة الأتراك حله ، حرموها ، وراحوا يشيدون مدينة دمياط جديدة على
ضفاف النيل على بعد فرسحين من المدينة القديمة (٢٧٠) •

ولمعد إلى الحديث عن سلاطين المماليك ، لنقول أنه ينبغي التحرز
من اتهامهم ، واتهام بيبرس بالذات ، وهو أشدهم القسا في الحروب •
بالعصابة المظلمة بالمصالح التجارية • فبيبرس ، هل سبيل المثال ،
كان يحرص على الإعتناء بالتجار الذين يجوبون البحر الأحمر • ولما
نهب أمراء جزر دهلقي Dahlak ، وسواكم Bouakim أموال التجار
إلى الذين عاثوا في أقاليمهم ، أبقى استيائهم عنهم على نفسان مبعوث
خاص (٢٧١) ، وألقى الضرائب على المبيعات ، وكانت عبئا ثقيلا على
سكان الإسكندرية ، وبذلك يفسد المبادلات التجارية (٢٧٢) • وما قلناه
عن بيبرس يجرى بالأولى على قلاوون الذي تابع بالتأكيد بمن يظلة تقدم
الحياة التجارية ، وأبرم مع الجنوئين تلك المعاهدة التجارية البارزة بما
زودها من تفاصيل ، وبما يجعلها من تصميم واضح على تحقيق رغبات
التجار الأغنياء • ويعود أن هذا السلطان تكفل بأن يجلب إلى بلده الأهم

Makrisi, Hist. des sult mam., I, 1, p. 13, 140, Aboulf. dans (٢٧٠)
le recueil des hist. des crois. p. 136, 768; Michoud —
Reynaud, Biblioth. des crois., IV, 481, Annel. Jos., p. 227; Matth.
Paris, Hist. angl., ed. Madden, III, 113, 221. Wilken, Gesch. der Kreuzz.,
V.I, 108; VII, 238 et s. .

Makrisi, l.c. p. 281.

Ibid. p. 281.

(٢٧١)

(٢٧٢)

التجارية العربية ، ولكنه لم يحصل مع ذلك الأهم الشرقية . وفي عام ١٢٨٨ أمر وزيره بأن يحور جوارحه سفير كلف بعض التجار المصريين بتوزيعها في اليوس ، والهند ، والهند الصينية ، وحتى في الصين ليستصلها سكان هذه المناطق الذين يريدون زيارة مصر وسوريا (٢٧٣) . وانما أصبح انه لا يمكن أن يظهر المرء بكيفية أكثر وضوحاً من هذه الكيفية الرسة في اجتذاب تجارة هذه البلاد اللبنانية نحو مصر وسوريا . ولما علم ما إذا كانت هذه المسوة قد حظيت بالنجاح التامول ، ولكن يبدو واضحاً أن امبراطورية سلاطين مصر كانت تمارس على أهالي الشرق جاذبية تسهم فيها اتساعها ، ومواردها الهائلة ، والمجد العسكري الذي يكتل هجمات حركها .

نجد مثالا طيباً لذلك في بعثة أمير سيلان التي وصلت إلى مصر في شهر أبريل عام ١٢٨٣ فقد تلقى هذا الأمير عروضاً للتخالف مع ملك اليمن ، ولكنه فشل أن يتخالف مع قلاوون ، وأن يوافق مع امبراطورته علاقات تجارية ، وس لم يؤخذ لهذا الغرض سفيراً . ولما كان أقصر طريق (من سيلان إلى مصر) يمر على مراكب في اليمن ، فقد جعل أرسته طريقاً يمر بالخليج الفارسي وبنغازي . وإذا أراد أن يعطى السلطان فكرة عظيمة عن قوته ، فليجمل سفيره رسالة عدد فيها بأسلوب رقيق صفته وإبائه ، وحصوله الطبيعية والمصريين ، وكنوزه الكثيرة ، ثم عرض ما تنتجه صناعاته بوفرة من لآلئ ، وحجارة كريمة ، وموسلين (نسج شفاف -) ، وغيره من الأقمشة الرقيقة ، وخشب البام ، والقرط ، وأكد أن المصريين سوف يحلون عنده كل السلع التي يستوردونها من بلاد الهند ، واليمن ، أي الهند ، وأبدى رغبته أخيراً في أن يعين السلطان مندوباً له في عدن ، وهي المصلة الرئيسية الوسطى بين مصر وسيلان .

ولا شك في أن هذا الموقف كان في رأيه حليلاً بأن يشجع حركة التجارة بين البلدين ويحييها في الوقت نفسه (٢٧٤) . هذه الرسالة تؤيد ما سبق أن قلناه وهو أن المصريين كانوا يطلقون بوجه عام منتجات الشرق من طريق الهند سود . ولم تنجح لنا أبداً أن نثبت

Id. II, I, p. 97.

(٢٧٣)

Guilleminot, *Mémoires géogr. et hist. sur l'Égypte*, II, 284-289; Makrizi, I, c. II.

(٢٧٤)

ما اذا كانت المنافسة التي مارسستها الهند في مجال التجارة قد انتظمت . ما نود أن نوضحه هو أنه في عصر الحروب كانت مصر تستقبل على الدوام تجارا قادمين من أعماق الشرق ، وانها كانت ترسل الى هناك دائما تجارا ، ومن ثم لم تكف منتجات الشرق عن التكرس في أسواقها ، وإن تكون موضوعا للمبادلة .

٢ - نمو تجارة الشرق الأدنى

في أعقاب انفتاح قارة آسيا

من أواخر القرن الثالث عشر

إلى أواخر الرابع عشر

(١) المنطقة الأولى

أولا - إمبراطورية الروم في عهد آل باليولوجوس
ومملكات الفرنجة في بلاد الروم حتى معاهدة تورين لعام ١٢٨١

يجدر بنا العودة لحظة إلى التوراء ، إلى العصر الذي طرد فيه الجنويون من صكا ، على أيدي خصومهم • وكان ذلك معنة قاسية مرت بهم : فقد هُزم بيوتهم ، وأسوارهم ، وأبراسهم ، وانقسم الأعداء أموالهم ، ولم يكن في مقدورهم ، حتى أن يظهروا في المدينة دون أن يتعرضوا لضروب الدل والجهول • ونشأت كل محاولات الصلح ، فقد رفضها المنتصرون بقطرسة • وطلح الكيل ، وكان لا بد للجنويين من أن يتهزوا أية فرصة تسليح لهم في أي مكان لكي يثاروا من البنادقة • وعلى ذلك ، حلوا ذات يوم أنه يجري في اليونان الاعتماد لشروع إذا نجح سيكون كارثة على أعدائهم . فقد كان ميخائيل باليولوجوس يتأهب للقياس بحملة لطرد اللاتينيين من إمبراطورية الروم ، ولم يكن الجنويون يجهلون أنهم إذا تحالفوا مع هذا الأمير ، عند اللاتينيين فإنهم سوف يثيرون سخط الغرب كله ، وبخاصة البانيا ، لأن في ذلك قضاء على مشروعه الأخير ، ألا وهو

أحياء العناية الكاثوليكية الرومانية في بلاد الروم (١) . غير أن وجود
الامبراطورية اللاتينية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتفوق البينطيقية في
إيرلندا ، فكان في القضاء على الخوذة نهاية للأخرى . وبالنسبة إلى
الجنوبيين الذين طردوا من قلب سوريا ، كانت فكرة طرد البنادقة من
قلب رومانيا ، فكرة مصرية ، فلم يكن الخوف من الحرمان الذي ترقعه
الكنيسة قويا بصورة تمنعهم من تنفيذ الفكرة . وهكذا ، ففي شهر
يناير عام ١٣٦١ (٢) ، ذهب السفيران جولييلمو فيسكونتي Guglielmo
Vasconte ، وجوان نيريو جوديشي Guarnerio Guidice بأمر من
مايشتري دي فانو Martino di Fano ، بودستان جنوا ، وجولييلمو
بوكانيجرا Guglielmo Bocanegra, Capitano del Popolo
يعرضان على ميخائيل باليولوجوس تحالف الجمهورية معه ضد البندقية .
وفي ١٣ من مارس في العام نفسه ، وقعا معه على معاهدة نيفيوم
Nymphaeum (٣) . وهذه واقعة كبيرة الأهمية نتج عنها بالنظر إلى
نتائجها . فبمقتضى هذه المعاهدة تمهد الجنوبيون للأمبربؤفورة كل
القوات التي يمكن لحكومتهم اعتمادها ، وبخاصة أسطول برجاله ومعداته ،
وتكفل ميخائيل بفتح روابب الجند ، وتولير المؤن ، وتعلم السرعة التي
تسكن بها من الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة عليها ، فقد تم ذلك
بسرعة البرق . وفي الغرب أكد بعض المؤرخين المتأخرين أن الجنوبيين
قد أشتروا في هذه الحرب ، غير أنه لم يحدث شيء من هذا . وفي هذا
الخصوص ، نؤيد الرأي العكسي الذي أبداه المؤرخ الميزنطي نيكفور
جريجوراس Nicephore Gregoras (٤) فالواقع أن أسطولا جنويا أفلح

(١) أعيد التأيا بالصل قراره بالحرمان ، ولم يرفعه إلا في اليوم الذي اعلم فيه
الجنوبيون الإصطفى بالذرائع ، وارتجاج السفن البحرية التي كانوا قد أرسلوها إلى القسطنطينية
لمساعدة ميخائيل باليولوجوس .

انظر في ذلك : Poole, *Analecta Vaticana*, p. 18 et ss. 24, 28.
(٢) من المستحسن الملاحظة على تاريخ لاحق ، لأن مايشتري دي فانو ترك منصبه
اليودستان في أواخر فبراير ١٣٦١ ، انظر :
— Canale, *Nuova storia di Genova*, II, 149, not. 664.

ومن الصعب كذلك الملاحظة على تاريخ سابق ، لأن المعاهدة لم يبرم إلا في ١٣ مارس ١٣٦١ .
(٣) إيدوم ، نسخة في التليم ليدا . غير بعيد من مانتينيا وساردس . وبها
قصر وسائق . وكان الأباطرة البيزنطيون يملكون بها من حين إلى حين ، وبخاصة في الشتاء
والربيع . انظر في ذلك :
— Georg. Acropol., p. 89, 73, 91, 109, 110, 187, Niceph.

Greg., I, 50, 137, 290; Ducas, 83, 104 etc.
والربيع . انظر في ذلك :
I, 97 ; éd. Bonn.

تحت اثره حارتين بوكاليجوا بعد التصديق على المعاهدة مباشرة (٥) . غير ان التوقيع لم يتم في جنوا الا يوم ١٠ من يولييه ، وفي يوم ٢٥ استسلمت القسطنطينية : وعلى ذلك يستحيل ماديا وصول التبريزات الجوية في الوقت المناسب : ولم يكن ثمة خطا من جانبهم ، كما اعتقد ميخائيل باليولوجوس بأنه ملتزم بالوفاء بتعهداته ، ومع ذلك كان تعاونهم الفعال في النجاح المشروع خصوصا عليه بصراحة ، وبهذا الشرط فقط وعندهم الامبراطور بأن يصيب املاكاً جديدة الى ما كانوا يمتلكونه قبلها في القسطنطينية : وكانت هذه الاملاك الجديدة الثابتة في المعاهدة هي كنيسة بوندام التي كانت وقتئذ متنازعة للبداقة ، مع الحوائط المحيطة بها ، وجنائها ، والارض التي تشملها قلعة البداقة التي تقرر هدمها ، ولم ينفذ الشرط بعدا فiere ، ولكن بعد دخول ميخائيل باليولوجوس العاصمة رسميا (١٥ من أغسطس) (٦) ، لم يتبع في تسليم الجنويين قلعة البداقة ، وفي الحال بدأ الجنويون في هدمها وسط صيحات الفرح ، وصدح الأبراق : وارسلوا حجارة منها الى جنوا حيث عرضت على أنها من عالم الحرب (٧) ، وبالكمل ، حدث عند طبع سموات مضت ، بعد تعبير المستوطنة الجنوبية في عكا ، اذ أرسى أعداؤهم الى البنقية اسحارا لبني بها صرح تلداري ، وفي خارج القسطنطينية ، وعد ميخائيل الجنويين بأن يقيموا في ميده سمراه Smyrne (أزمير) ، ونمو الوثيلة بفراء هذه المدينة ، وجودة مينائها ، كما وعد بأن يمارس الجنويون سلطتهم السياسية كاملة على المدينة وملحقاتها وسكانها ، بشرط أن يترفوا بحقوق أملاك الروم بها من الوجهة الدينية ، ولا شك عندما في تنفيذ هذا العهد من المعاهدة ، غير أن سادة أرمير الجند لم يمتنعوا طويلا بما كسبوا ، اذ حدث بعد زمن قليل أن انتشر الاثر الملاحقة كسوة عذمة على كل القسم الغربي من آسيا الصغرى ، ولم تزل معاهدة ليفيوم تكفل للجنويين اشاء مستوطنات صغيرة بها قضاء قصص وملحقات عادية من كنيسة ، ومنبر ، وحمام ، الخ في المدن الآتية :

Annal Jan., p. 243.

(٥)

(٦) ليج قائد العام سيزار الكسوس مليسوس سترابوبولوس (Georg. Acrop., p. 198)

في الاستيلاء على القديسة بادرة مناقلة (لم ٢٥ من يولييه) مستعلا طرفا خاصيا : ان كان ماركو جيرونيوس يومسات البداقة لله أرسل كل السبي لدوبرقة في حلة شبه دالوسيون Daphnusion لم سمحت القسطنطينية من اقوى خاصيتها . انظر ايضا . — Sanudo, dans Hopf, Chron. grée. — tom. 2, 114 et 172.

Annal Jan., p. 243.

(٧)

آسيا *Ana* . في كاريه *Carie* تجاه ساموس *Samos* (٨) وفي غضون العشرين سنة التالية لإبرام المعاهدة ، جرى بين السكان الجنوبيين الجدد بالمدينة ، وبين السكان الروم القدامى بها منافسة بشأن من يجيز سيفا أكثر من الآخر للقيام بأعمال القرصة عند البنادقة ، ولكن لا شك أن الاثنين فعليا المكان للإتراك قبل عام ١٣٠٠ . (٩) أندراخييوم *Adramyttium* : كانت هذه المدينة حتى مستهل القرن التالى في أيدي الجنوبيين ، ونراها في تلك الآونة تملأ من نفسها ضد الأتراك بحامية قوية تحت إمرة سادة فوجيه *Phoee* من أسرة زكاريا ، وسوف نتكلم عنهم بعد قليل (١٠) . وأخيرا (١١) كاساندرى *Cassandria* بالقرب من تسالونيكي . ونخصصت المعاهدة للجنوبيين محطات تجارية بها فاعسل ، في جزر خيوس (١٢) ولسبوس ، وكريت ، ولجربوس ، وكان ميخائيل باليولوجوس وقتئذ يأمل في استعادة المدينتين الأمريتين . ورسم ما ظهر به الجنوبيون من مكاسب هائلة في الإمبراطورية الرومية التي عادت الى سادتها الأصليين ، غائلا لؤكد أن لا شيء آثار البهجة في نفوسهم مثل رؤيتهم خصمهم الأكبر البندقية وقد طردت من أسواق الروم وبنطس *Pont* : وفي هذا الخصوص أرضاهم ميخائيل من وجهتين : فقد وعدهم من جهة ألا يسمح حرية التجارة أيا من أعداء جنوا فيما عدا البيزيين ، وعازاه المخلصين (١٣) ، وألا يسمح ، من جهة أخرى بدخول البحر الأسود لأية سفينة تجارية بخلاف السفن الجنوبية والبيزية ، والسفن المحملة بنقود ومؤن لحساب الإمبراطور . نصيب أخيرا أنه يقتضى المعاهدة ، يستعج الجنوبيون بالإعفاء الكامل من الرسوم البحرية التي كانوا يدفعونها حتى تلك الآونة .

هذى هي النقاط الرئيسية في معاهدة ليفانيوم (١٤) التي يكتل تنفيذها للجنوبيين في الأرخبيل والبسفور ، والبحر الأسود تفوقا يعادل التفوق الذي تمتع به البنادقة طوال ستمين عاما في عهد الإمبراطرة اللاتينية . على أن ميخائيل باليولوجوس لم يكن بآثرة مستفيدا لمطالبهم وحدهم دون غيرهم ، بل انه على العكس من ذلك بذل كل ما في وسعه

Taf. et Thom., III, 71, 161, et s.

(٨)

Pachy., II, 558.

(٩)

(١٠) يفرل : Agost, Giustolanti, Foglietta et Bizaro : باليولوجوس قد ألقى جزيرة خيوس كلها للمدينة جنوا ، وهذا خطأ .

(١١) تذكر صحيفة الصندل أيضا بيزا ضمن الدول الصندلية التي يجب على الاسفل المجرى أن يراعيها .

Idb. Jur., 3, 1350 et ss.

(١٢)

لكسب مودة هؤلاء كل من يقى من الغربيين في القسطنطينية . وكان سلوكه في هذا الصدد تلميذ مصلحته الخاصة بطبيعة الحال ، فقد كان يتوقع من يوم لأخر هجرما ينطلق من أى موقع في الغرب ، وكان من الأساسية ألا تقدم هذه الجاليات ، أو بقلدها الإمبراطورية على التعاون مع أعدائه . لذلك عاله وعهد البنداقية تحت إشراف « البابل » ، والبيريون تحت سلطة قنصلهم ، مثل ما عهد به البجنوريون تحت سلطة « اليهودستات » ، بسج هؤلاء جميعا نفس الحرية في التصرف ، والإحلامات ، وأحياناً جينة (١٣) . ومع ذلك فانه لم يكن يثق بالغربيين ، ورغم الأحاديث الطيبة التي كان يتخفم بها ، فانه أيا من ريبته هذه بما بذله من اهتمام بإجبارهم على السكن متفصلين عن بعضهم بعضاً . ومع ذلك كان لثرياته أكل حدة من ناحية البنداقية والبجنوريين الذين قل عددهم كثيراً عن ذي قبل ، منه سيال الصوريين الذين ألبوا في جموع كبيرة ، فخورين بتفوقهم الجديد ، فكانوا من ثمة على استبعاد لامبارة استغلال هذا التفوق (١٤) .

ومن بين الدول التي انزع منها انحصار ميخائيل بالبولوجوس السيادة على « رومانيا » ، كانت البنداقية أول دولة بدأت انفصال ، على الأقل لافقاد ما تبقى من أملاكها المباشرة وغير المباشرة (١٥) . ولم تكن القوات الرومية والجنوية المشتركة في حالة تسمح لها بمقاومة الأساطيل التي أرسلتها البنداقية إلى الأرخبيل ، وانتهزت في الحركة التي نشبت

(١٣) كمن عبارات باسبيوس Pachymérès I, 148 إلى الثلاث بأن ميخائيل ، حين وافق على ترك البنداقية والبجنوريين بالمدينة ، فانه عين لهم مع ذلك أحياناً جديدة بحيث لم يحدوا جيراناً كما كانوا من قبل . غير أن الظاهر يقل عن أن الأميين احتفظوا بوجه عام بأساليبهم القديمة . انظر :

— Pappé, dans l'Annuaire du Syllagos, VII, 104, 108, 109.

وكان وضع هذه الأحياء يوافق تماماً آراء الإمبراطور ، ذلك لأنها كما رأينا من قبل لم تكن متجاورة تماماً . ولما رأى بوضوح ما إذا كان قد وسع النطاق الذي اتصل بالصلب بينها ، ولا كفاية التي تصرف بها في هذا الشأن ، وربما وضع بعض اليونانيين في تلك الناحية ، بدلاً من الأتاليين الذين لم يكن يوسعهم أن يتأخروا بخصوصيات حتى لهم . وربما كذلك حبلاً القسم من المدينة قد أصابته الحرائق التي دمرت أحياء الفرنجية وقت الاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٢٦١ . كما حدث قبلاً عام ١٢٠٤ . ومن ثم زعمت الحدود :

(Pachym. I, 147 ; Georg. Arrap., 192).

(١٤) حرب القوقاز لبنداقية . وكيان البحار . ولم يبق سوى سفار البحار وبعض المال .

Pachym., I, 162 et n., 167 ; Niceph. Greg., I, 87. (١٥)

قبالة جزيرة ستيتيوتزي Settepozzi الصبية (١٦) . وكان مما يخش منه أن يمدد الإمبراطور فتوحاته إلى كريت وقبرص (١٧) . ومن ثم أوقفت هذه البرمجة عند حده . واذ رأى الإمبراطور أن السفن الحربية الجنوبية إنما تثير القلاقل في إمبراطوريته ، فأسه اعترم في عام ١٢٦٣ أن يبعثها (١٨) .

وكان الإمبراطور غير راغب عن حملاته ، وفي عام ١٢٦٤ أصبح عدم رضائه هذا قطيعة صريحة . واليك كيف تم هذا : فقد بلغه ذات يوم بطريق غير مباشر أن البودستات الجنوبي بالقسطنطينية ، جوليانو جوريتسيو اتفق مع حاكم ملك صقلية ، ودير معه مشروعاً للاستيلاء على القسطنطينية ، وإعادة السيادة اللاتينية بها . ولم ينكر جوريتسيو المزامرة . حقا ، كانت المزامرة من تدبير فرد واحد في أمكانه أن يطمعها دون علم حكومته ، ومع ذلك فإن الإمبراطور ، بايحه من رئيسه السيطرة عليه حيال اللاتينيين ، أمر كل الإيطاليين بالخروج من القسطنطينية ، ونحصر لسكن الجنوبيين مدينة بعيدة بقنا كانيا من العاصمة ، وهي مدينة حرقلة Heraclee (Erekli) الواقعة على بحر مرمرة بين سلمبريا Selymbria ، وروستو Rodosto (١٩) . وحيث أبدت حكومة جدوا جوريتسيو ، وبعثا طائيف سلافيهما تمثيل المساعدة التي تنص لمواطئهم الانتفاع من كبر في القسطنطينية تحت إدارة بودستاتهم . وبعثا طلبوا على الأقل التصريح لهم بالعودة إلى جزيرة Péra (ميناء أثينا) : لقد أصدر الإمبراطور على ما أمر به (٢٠) .

وبينما جعل الإمبراطور الجنوبيين يشعرون بوطأة غضبه ، فإنه من جهة أخرى أجرى مفاوضات مع البندالية من طريق مسير بندقي . وكان بذلك يريد أن يرى ما إذا كان أكثر توفيقاً مع أعدائه القدامى منه مع حلفائه القدامى . واستجاب الدوج دانييل زينو لعروضه في شهر مارس

(١٦) نبد اسم هذه الجزيرة في :

Mart de Canale, p. 486 (voy. soc., p. 282) ;
et par Dandolo, p. 371 à propos de la bataille de Tef et Them., III, 189; Muntaner, trad. Lenz, II, 189; la note de l'Atlante Luxoro, dans les Acta della Soc. Lig., V, 97.

Taf. et Them., III, 67; Mss-Latya, Hish de Chypre, I, 392; (١٧)
II, 69; III, 693 et so.

Annal. Jan., p. 245 et s., M. de Canale, p. 486. (١٨)

Annal. Jan., p. 249 ; Pachym., I, 163. (١٩)

Annal. Jan., l.c. (٢٠)

١٢٦٥ ، عاوهد سلفيريس ، جاكوبو داندولفو ، وجاكوبو موروسيني
 مزدوين بسطات بلطفة بقصد عقد معاهدة ؛ وفي ٨ من يونيو ١٢٦٥
 وعد الامبراطور اول كل شيء ان يسمح مقاطعة البندقيية الحيادة الاسمة
 بجميتي كورون Coron ، ومودون Modon وحريرة كريت ، والتقسم
 من حريرة جبرونوت القدي كانت تحتله ، والا يتعرض للبيات البادقة
 اللذين انقطعوا لانفسهم لمارات في جرد الارحبيين . وثانيا ان يصح تحت
 تصرف البنادقة في التسطططية وتسالوميك وبين اخرى اماكن كالية
 يقيمون فيها مستثات تجارية يديرها موظفون كايون لهم (٢١) . وكان
 المتفق عليه طرد الجنويين من اراضي الامبراطورية ، فلذا صاروا من ثمة
 اعداء ، فان البنادقة يضمون قواتهم الى قوات اليونانيين للتعصدي لهم .
 وهكذا دلت هذه المعاهدة على تطور تام في سياسة الامبراطورية حيال
 البندقية . وكان الامبراطور خليقا بان يتوقع على الاقل رفض الدوج
 التصديق على المعاهدة . ومع ذلك ، وبعد التفكير في كل شيء ، يتي
 لنا مدى الصعوبات التي تعرض الدوج في اتخاذ قرار في هذا الصدد ،
 فلم تزل هناك انقسام حية باقية من الامبراطورية اللاتينية القديمة ،
 وهي اشارة المورو ، ودوقية اثينا ، واقطساعات لجبرونوت ، والكيكلاذ
 الصغيرة ، كما لم يقلد الأمل بعد في الحصول على معاوية العرب بقصد
 تحصيل هذه الاجزاء المبعثرة من جليله ، وكان هذا الأمل يفسر البنادقة
 بمنزلة اكبر بكثير مما وعدهم بها الباليولوجوس . ترى هل كان عليهم
 ان يرجعوا الى الابد سياستهم بسياسة الامبراطور اليوناني الذي قد
 تسقطه من فوق عرشه ذات يوم ثورة جديدة ؟ لم يكن الامر اقل اهمية
 من هذا ، ولم تكن المسألة مجرد معاهدة مؤقتة . هل كان على البنادقة ،
 كما اقترح البعض في المجلس ان يلتزموا الحيضاد ، حتى لو صاجم
 الامبراطور نجريونوت واسير سادتها في الولاء له بعد ان كانوا على النوام
 جلفسه البندقية ؟ حينه الاعتبارات ، وربما ايضا الحاج الدول
 الصديقة (٢٢) هي التي حملت الدوج على رفض معاهدة الصلح المبرومة
 عليه وتفضيل معاهدة قصيرة الائمة . وأدرك الامبراطور ان البنادقة
 تسعى الى كسب الوقت للاتلاف ضده في الوقت المناسب ومن لم

(٢١) لا كان هذا الجزء من المعاهدة لم يقد يقرأ . نالي اعلى تنس في ذكر
 الانبياء لفسار اليها . ونجد نص هذه الوثيقة بالغات اليونانية واللاتينية والآلية في
 -- Les Sitzungsberichte der Wiener Akad., philos. hist. Cl., oct. 1860;
 en grec et en latin dans le Cartulaire vénitien, op. cit., III, 62 et 63,
 publ. par Tafel et Thomé, en grec seulement dans Miklosich et
 Müller, Acta graeca medii aevi, III, 78-84.

Dandolo, p. 678 ; Méert de Canale, p. 888.

أمال إمد المفاوضات ، وفي نهاية ثلاث سنوات ، في عام ١٢٦٨ قبل أن يوقع على معاهدة مؤقتة مدتها خمس سنوات (٢٣) ، تنصم قسما كبيرا من البنود المنصوص عليها في عام ١٢٦٥ ، ولكنها أثل ملامحة للبعدقية من حيث بتدين رئيسي - فأولا التي الامبراطور الالتزام الذي كان قسد قبله بطرد البينوين من القسطنطينية ، ومن الامبراطورية بعامة (٢٤) ، والقتصر في هذه المرة - قضاء على جرثومة الاضطرابات الضارة بالامبراطورية - على تقرير مبدأ الحظر على الامتنع المتنافستين بحسم خلافا لهما في المصايق التي تربط بحر ايجة بالبحر الأسود ، أو في البحر الأسود نفسه . وثانيا ، رفض أن يمنح أماكن يتسنى البنادقة أن يقبوا بها منشآت دائمة ، فقتصر امتيازاته على التصريح لهم باستئجار الأماكن التي تريد لهم مناسبة ، وللقطع بعد اتفاق خاص ، ولم يظهر أي امبراطور يشل هذا البخل في منح الامتيازات ، ولأنه أن هذه البخل قد بدأ قاسما في أعين البنادقة ، وهم الذين كانوا في مدى ستين عاما يشهدون بأسلوب السادة في الامبراطورية .

وفي عام ١٢٦٧ ، خيل اليهم أن الأحوال سوف تعود إلى ما كانوا يتصورون : ذلك أن بولموين ، الامبراطور الذي حلق من عرشه ، وراح يحوب البلاء ، وجد حليفا قويا في شخص ملك نابولي الطروش ، شارل الأول ، أمير أنجو ، وبمقتضى معاهدة فيتربر (٢٥) ، تمهد هذا الأمير بمعاربة اليونانيين ، واستطاع آل باليولوجوس ، وإعادة الامبراطورية اللاتينية ، وتفتتت المعاهدة بهذا خاصا ينص على استرداد البنادقة حقوقهم وأموالهم ، وأدرج هذا البند أيضا في التعليمات التي أصدرها للملك عام ١٢٦٩ إلى السفراء الذين كلفهم بمقابلة حلف مع البندقية (٢٦) . ومع ذلك يبدو أن هذه المفاوضات بقيت قائمة دون أن تصل إلى نتيجة . وفي هذه الأثناء اكتفى الفوج بالمعاهدة المؤجلة في السنة السابقة مع ميخائيل باليولوجوس . ولم يمنع هذا شارل أمير أنجو من أن يتقدم بجيشه ولكنه لم يتجاوز البيلوبونيز حيث أراد أن ينشئ قاعدة قوية لمسيراته في المستقبل ، وكان يظن أن أمامه فسحة من الوقت لتجهيز رحلته الكبرى ضد القسطنطينية . وأصبحت هذه الحيلة

Taf. et Thom., III, 99-100.

(٢٣)

(٢٤) ماد في هذه الآونة فابرى مفاوضات مع جنوا .

Annal. Jan., p. 288.

Ducango, Hist. de Constantinople, Charles, p. 17-31; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio II, I, 80 et ss.

(٢٥)

Del Giudice, l.c., I, 80 et s.

(٢٦)

أجيرا بالفضل نتيجة لماودة بارعة قام بها الإمبراطور . فقد عرف حياة
 أن الإمبراطور أعلن خضوعه للكنيسة الكاثوليكية الرومانية (مجمع ليون
 ١٢٧٤) ، وأن البابا شمله بحصانته . وكان هذا الحدث انقلاباً تاماً في
 الموقف ، ومن هذه الظروف قرر اللوج ، بعد تردد طويل ، أن يقبل
 عروض ميخائيل باليولوجوس - فلم يكن هناك ما هو أفضل منها - وأن
 يباشر مفاوضات جديدة بقصد مه لفترة الهدنة .

وعكلاً استطاع ميخائيل ، بحطة بارعة أن يظهر بانتصار مزهوج .
 ويبدو العاصفة التي تجهمت فوق رأسه . وفي الوقت نفسه ابتسم
 الملك من جديد لقواته العسكرية : فتمت فدرس يدعى ليكاريو *Isario*
 من أسرة فيروبية (نسبة إلى مدينة فيرونا بإيطاليا - المترجم) استقرت
 في جزيرة نجربولت ، دخل في خدمة جيشه ، فأعاد له فتح جزيرة
 نجربولت ، باستثناء العاصفة ، ومجموعة من جرد الأرخبيل الصغيرة
 (١٢٧٦ - ١٢٧٨) . ولقد عدد كبير من أسر البنادقة التي أنشأت
 لها إمارات في الجزر اليونانية ، فقدت سيادتها في غضون هذه الحملة ،
 البعض منها فلقها مؤلفا ، والبعض الآخر فلقها نهائياً . وعادت إلى
 الإمبراطورية اليونانية بصفة نهائية جزيرة المنوس التي كان « الفرانكوق »
 بوللو نايفيا بوزو *Paolo Navigazono* يلتصقها مع آل جرادينيجو
Gradinigo ، وفوسسكارى *Foscarl* ، ولفيه فيليب جيزي
Philippe Ghisi أمير جزر سبوراديس *Sporades* الشمالية أسبها
 إلى القسطنطينية ، كذلك أعاد ليكاريو غزو قسم كبير من جزر الكيكلاذ ،
 إلا أن احتلال اليونان لهذه الجزر لم يتم إلا بضع سنوات (٢٧) . وإذا
 كانت هذه الضمات لم تصب مباشرة إلا عائلات قليلة ، فإنها كانت
 مع ذلك عاملاً مهموماً في إضعاف سلطة البندقية في الأرخبيل : إلا
 كانت هذه الحرائق ، أمياً ملحاً للسفن التجارية اللينيسية من غارات
 القرصنة ، وأحياناً أخرى كان قرصنة هذه الجزر يحفون فيها ملحاً
 أمياً ، ولقلة ارتكاز متنازة ، انتقدوها من ذلك الحين . ومع ذلك بقيت
 البندقية حبيسة سيادها ، واكتفت بأن تنظم الدفاع عن حبيها في نجربولت
 بنقلها محكماً . ولم يسبب لها هذا السلوك الحكيم أي ضرر ، وقد
 تفرط بأنه اكتسبها طروفا أكثر ملازمة لها ، أخاصاً لها ميخائيل -

L'histoire du regno di Romania, de Sando, retrouvée par (٢٧)
 Hopp et publiée par lui ... dans ses Chroniques gréco-romaines, p. 98
 et ss , p. 122-127 ; Pachym., I, 203. Nieph. Grég., I, 98; Hopf, article
 articles Ghisi et Ghisliniani . Gech von Andros, et le egypte, dans
 Griechenland, dans Esch et Gruber, le sect. lxxxv, 304 et ss ; les
 den Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., 1855, avril, p. 446;
 1856, juillet, p. 225-228.

باليولوجوس في عام ١٢٧٧ عندما انتهى الأمر تجديد الماهدة لستيني وفي هذه المرة لم يطالبها الإمبراطور بترك سادة تجريوت تحت رحته، بل مباح لها أن ترودهم ببحوانات شدة نحو . ومع إبقائه كنيسته القاعدية الأساسية التي تقضي بأن يستأجر البنادقة الأماكن اللازمة لمشتاتهم التجارية ، وضح استثناء من ذلك لأهم حديثين ، القسطنطينية وتسالونيك ؛ إذ وعد بتخصيص دار في القسطنطينية لقصائهم ، ودار في تسالونيك لقصصهم ، ثم دار ثانية في القديس لسنشاريهم ، وثالثة لحفظ الأثنياء التابعة لدولة فينيسيا ، وخمسة وعشرين منزلا أو أكثر حسب الحاجة لسكنى التجار البنادقة عند قيوهم فقط لا به أن تستأجر هذه البيوت كلها لحسابه ، وإضاف إلى كل هذه المزايا منح كنيسة سانت ماريا ، ومكان مارك في القسطنطينية ، وكنيسة الأرض القديمة في تسالونيك . وحصل البنادقة أخيرا على التصريح الذي رفض منحه لهم في الماهدات السابقة ، والخاص بمرور قوافل الحبوب القادمة من البحر الأسود عبر الإقليم اليوناني دون أن تدفع عنها رسوم (٢٨) .

وبينما علفت جمهورية البندقية حل هذا النحو مدة بعد أخرى ، ودائما لفترات قصيرة بحيث تتيح لتجارها ألا تسلمح صلتهم تماما بالإمبراطورية اليونانية ، تابع شارل الغير النحر مشروعاته الخاصة بالقزو . ففي عام ١٢٨١ ، وقد وجد أخيرا في مارتن الرابع Martin IV بابا أكثر تلبك لتلميحاته ، فإنه حصل منه على إجازة مطلقة . ومن ثم شرع للحال في العمل ، وبدأ بتسليحات ضخمة (٢٩) . وعقد مع البندقية في ٣ من يولييه ١٢٨١ في اورفيتو Orvieto معاهدة حلفت القيام بالحيلة في شهر أبريل التالي ، عهد لها الذي أعلن جهازا إعادة الإمبراطورية اللاتينية ، ورصد الناج للأمير فيليب ابن بولوين آخر إمبراطور تولى عام ١٢٧٣ ، وصهر شارل نوق أمجو . وكان مقدرا أن تسترد البندقية امتيازاتها القديمة ، وأموالها كلها (٣٠) . ولم يكن الوقت قد أتىح للقوات المتحالفة أن تتجمع ، حين فطحت الثورة المجرورة باسم Vespers siciliennes (صلوات صقلية) في ٣١ من

(٢٨) انظر الأسفل اليوناني لهذه المعاهدة في :

— Miklosich et Müller, Acta et dipl. :

græc., III, 94 et ss., la trad. en latin dans Taf. et Thom., II, 123-149.

Amari, La guerre del vespro siciliano (De éd., 1878), I, 116-118; Archiv. stor. Ital., 4e série, IV, 17, 174 et s.

Taf. et Thom., III, 287 et ss.

مارس ١٢٨٢ . وهي اطلقت للشارع الوطنية ضد الطاغية الأجنبي .
ونارت صقلية بأسرها . واستلمت حكمها بطرس الثالث ملك أراغون .
ولا كان هذا الأمير زعيما لحرب الجيليين فانه سبق قاعدة البنية لمحاربة
شارل دوق أنجو . بالاتفاق ليس فقط مع احواله في الدين والعمليوية
في إيطاليا . ولكن أيضا مع ميخائيل باليولوجوس . وحين مضى الجنوى
الإمبراطور كاسانو *Alafranco Cassano* إلى القسطنطينية حابلا معه
باسم شعب مسينا بأ هذه الثورة (٣١) . ابتهج الإمبراطور من كل قلبه
وكان محقا في ذلك . لأن شارل دوق أنجو كان على أية حال . قد أصبح
٧ حول له ولا قوة لربمن طويل . أما جمهورية البندقية فلم يكن في
عزمها أن تحبس وحدها ضد هذه الحرب . وكانت أيضا مضطرة لتأجيل
آمالها . ووضع سلاحها (٣٢) . وحين توفي ميخائيل باليولوجوس
(في ١١ من ديسمبر ١٢٨٢) . ترك لابنه أندرونيك الثاني
Andronico II الإمبراطورية في ظروف مؤلمة .

ولا يسعنا مع ذلك أن نترك ميخائيل باليولوجوس قبل أن نتحدث
عن علاقته مع الجنويين خلال السنوات الأخيرة من حكمه . ولقد تولفت
في اللحظة التي كان فيها غاضبا عليهم . فطرد ألبانغة الجبوية إلى
هيرقلية . ولم يسم هذه الخصام طويلة . فحينما لحظ أن البنادقة يرفضون
باصرار أن يقاتلوا معه صلبا دائما . رجع إلى مشاعره السابقة . وكان
أول دليل على هذا التحول إيقاعه في عام ١٢٦٧ مفاوضات إلى جنوا .
وردت الجمهورية للتو على حملة المبادرة بأن أوفدت سفيرا . هو
فرانسيسكينو دي كاميللا *Franceschino de Camilla* (٣٣) .
وحين نجح تفاصيل المفاوضات التي عرفت . والتفردات التي تطلعت
ولكن الراجع أنه توجد علاقة مباشرة بينها وبين نقل الجنويين من هيرقلية
إلى غلطة *Galata* (٣٤) . حسنا رواء *Pachymeres* (٣٥)
يقول هذا الكاتب أن ميخائيل وجد أنه من الأفضل . لصالح أبي الإبو
أن يكون من الجنويين في غلطة . قبالة القسطنطينية . وهذه التقييمية
يكون في استطاعته بالتأكيد عراقتهم عن كلب . وتكبح ما يقع منهم من

Amari, l.c., p. 186.

(٣٦)

Hopf, art. Griechischland, op. cit., LXXXV, 329.

(٣٧)

Annal Jan., p. 262.

(٣٨)

(٣٩) السيد باسباني *Paspati* سجل هذه الواقعة في عام ١٢٦٨ .

Pachym. I, 162.

(٤٠)

البحراف في الوقت المتأخر (٣٦) . وزيادة في الحقيقة ، عدم برج غلطة الذي كان لهم بمثابة نقطة ارتكاز في حالة اندلاع ثورة ، وبشتم حارج الاسوار في مجسوة من المتسازل المصطلة على طول القرن الذهبي (٣٧) . ولما لجد في هذه الاجراءات تلك الرية التي اوسى بها الى الامبراطور ذلك العدد الكبير من الجنود الموجود هناك وخطرتهم . واذا كانت ريبته من ناحية البساطة والبريرين اقل ، فبذلك فقط بسبب عندهم الاقل ، ومن ثم تركهم داخل المدينة ، ولكنه حرص على عزلهم . كما قسم بناء حصننا يتصرف على السوق من جهة الشمال ، ويمكن أن يكون نقطة ارتكاز لهم . ورغم هذا الفرق ، فإن وضع الجنود كان أكثر ملائمة من عدة وجوه . أولا ، اتاح لهم سكنهم في ضاحية أن يتوسوا بسهولة أكثر مما لو كانوا داخل المدينة ، وخاصة وأن ميخائيل باليولوجوس قد جعل داخل الاسوار كسل الروم اليونانيين الذين كانوا يقيمون خارجها (٣٨) . ومن جهة أخرى ، لم تكن المسافة بين غلطة والمدينة سوى عتبة خفيفة ، لأن عبور القرن الذهبي لا يستغرق الا بضع دقائق (٣٩) . كما أن الضاحية كانت على الأقل صالحة للمدينة من حيث ملامتها لرسو السفن ، إذ كان في مقلود السفن الكبيرة الفاطس أن ترسو هذه الفرسيف (٤٠) . وعلى ذلك لم يكن لدى الجنود من البواعت الا ما يحصلهم على الرضا عن المعاملة القديدة التي عوملوا بها ؛ وبمقاديرهم متفاهم في مرقليا الى ضاحية غلطة ، كان لهم أن يعتبروا أن الوعود التي تضمنتها معاهدة نيبليوم قد تحققت ، على الأقل بصورة تقريبية .

وأسمهم ايفاد سفارات جنوبية جديدة في عامي ١٢٧٥ ، ١٢٨٠ (٤١) في تعزيز العلاقات الطيبة بين الجمهورية والامبراطور ميخائيل . ونحن

(٣٦) كان عدم بركات مختلفة لكثيرا يفرهم يعرفون لفصل يوم القديم في داخل افسسطينية . أولا كان من المتوقع دائما حدوث ملاقات بين الجنود واليونانيين . وفي الجنوب والشمال وكان من الأفضل أن يجري ذلك بعيدا بقدر المستطاع من المدينة ، وثانيا ، كانت الاسوار الجديدة التي اكتملت حده كان يتوقع أن يواجهها شارل دابور الذي قسما كبيرا من التي الجنود القديم .

(Pampall, op. cit., VII, 107, p. 208 et s.)

Nicéph., Grég. II, 841.

(٣٧)

Pschym. I, 168.

(٣٨)

Pegol., p. 14. Brochart, Advis directif (Coll. de chron. belges .
Nemur, Hainaut, Luxembourg, IV), p. 272.

(٣٩)

Clavijo, p. 70; Brochart l.c. p. 281; Bertrand de la
Broquière, p. 358; Procop., De edifio., I, 8.

(٤٠)

Annales Jan., p. 296.

(٤١)

لا نعرف من هذه العلاقات إلا ما نثبتها به معاهدة كلفوضت الجمهورية في
 بقعها (٤٤) ، ومع ذلك عريبا هي لا تميّزنا علما إلا بنصف ما فيها ،
 لاسا لا نجد فيها إلا بيانا بالشروط التي وضعتها الامبراطور وقبلها
 السفير ، ولا شيء يتعلق بمطالب الجمهورية ، وتداولات الامبراطور ، واما
 نرى فيها إشارة الى بودستات هيته الجمهورية ليدبر شئون مواطنيها في
 في رومانيا (أي في اقليم الامبراطورية الرومانية) ، ولكن ليس ثمة
 معلومات تشير الى الأماكن التي يسكنها هؤلاء المستوطنون ، وتسمى
 لئسبالل لاني تمالجها المعاهدة الى مجال قانون اللئسبوب (أي القانون
 الدول) أكثر مما تنتمي الى مجال القانون التجاري ، وبالنسبة الى وجهة
 النظر الأخيرة ، لانتبى الاقترين في احدها يحتفظ الامبراطور لسمه
 بائق في أن يحظر على الجنوبيين تصدير الذهب والفضة والحبوب الرومية
 المصدر ، أو السلع الغذائية بوجه عام ، وعلى أية حال لا يجوز تصدير
 السلع الغذائية الا الى مواطنيهم (أي اليونانيين) لا الى أعداء
 الامبراطورية ، أما الفقرة الثانية فانها تلج على ضروب الاحتيال التي
 يقرنها بعض الجنوبيين على عزالة الامبراطورية ، بأن يقرروا ببضائع يملكها
 اجانب على أنها بضائعهم هم حتى تنضج لتلغيش البضائر ، أو بأن
 يقدفوا صفقات خفية بقلعه التهرب من سداد رسوم الانتاج .

وفي عام ١٢٧٥ ، أي في السنة التي حررت فيها هذه المعاهدة ،
 تنازل ميخائيل باليولوجوس لجنوى على مانويل ذكاري *Manuele*
Zaccaria (٤٥) كان ينتج عنده بحفوة كبيرة عن مدينة فوكايا (٤٦)
Phocae ، ويسمىها الايطاليون فوجيا *Foggia* ، وفوليا *Foggia, Folia*
 أو حتى فوجيا *Folia* (٤٨) ، وتقع عند مدخل خليج سميرن ، على الضفة

Seuil, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, doc. no. VIII, (٤٧)
 p. 254-258.

Sauzet, dans Hopf, p. 148 ; Pachym, I, 420; Hopf, art. Gela- (٤٧)
 tinent, dans Reuch et Gruber, sect. 1, vol. LXXIII, 210.

في المذكره انه ان يكون بدينو فريكا في ملكية فوكايا في حيا انبه حاليين ،
 ولكنه كان يريده للنظر .

Anne Comnène, éd. Bonn, I, 361. Phocia dans Taf. et (٤٨)
 Thom., I, 118; Im-Belouta (II, 214) en fait Foudjah, Hamilton (Voyage

يحدث حاملون من هذه الناحية وسميها *Foggia*
 en Asie — Ministère I — *Foggia*

l'Atlante Lazzaro, Atti della soc. lig. V, 83 ; Mommsen (trad. (٤٩)
 Lang, II, 170-172).

الشمالية منه يحوز الجبال التي تحتوى على طبقات من الشبب الذي بدأ
اليونانيون استعماله من قبل ، وكان بمثابة منجم ذهب لسعيد الحظ
الذي يمتلكه . وجمع مانويل زكاريا من تجارة الشبب ثروة هائلة (٤٦) .
ويبدو أنه لم يكن هناك إلا لسوع واحد من الشبب ينافس شبب فوكيا
صانعة جديدة ، ذلك هو شبب البلاد التي تطل على البحر الأسود . كان
الشبب ذو الجودة الأولى - كما يقول بيحولوني Pagolotti - ويأتي من
سيرازونت Corazonte (٤٧) . لذلك اردى زكاريا بكل المشاعر الوطنية
واستغل ما له من حظوة لدى الامبراطور في صالعه الشخصي ، وحصل
منه على أمر يمنع ما عداه من الجيوبين من استيراد الشبب من منطقة
البحر الأسود . ولم يفرغ الجنوبيون في غلظة على الاحتجاج على هذا القرار
خوفا من زوال حظوتهم لدى الامبراطور . وحسب أن اطلق من مدينة
جنوا سلسلة نقل كبيرة ، مرت أمام قصر الامبراطور في القسطنطينية
دون أن تؤدي له النجبة المتعانة (٤٨) ، ودخلت البحر الأسود ، واستولت
على سفينة يونانية تحمل شحنة كبيرة من الشبب . ولم يكن من طبيعة
ميخائيل باليولوجوس أن يتسامح في مثل هذا النوع من الاحتجاج ،
ومن ثم اطلق في انقلاب سفينة القرصان هذه أسعولا تمكن من القبض
عليها ، وذلك ضباطها بعد أن ذاقوا ألسن أسواق التعذيب (٤٩) .
ويصعب التسليم بأن الامبراطور ألفي بنفسه الحظر الذي اثار الكثير من
السخف في جنوا ، بعد أن أبهى هزما قويا في حلا الصيد - والحيلة
أن هذا الحظر لم يدم زمنا طويلا . ففي معاهدة عام ١٣٠٤ المتقدمة بين
الأمبراطور أندرونيك الثاني وجنوا نجس الشبب ضمن المواد التي يصرح
الجنوبيين باستيرادها بحرية دون أن يدفعوا رسوما عنها ، من البلاد
التي تشرف على البحر الأسود ، المستقلة عن الامبراطورية البيزنطية (٥٠) .
وفي مناسبة أخرى ، ثمرف الجنوبيون في غلظة على صلاية ميخائيل
فلقد قتل جنوى يونانيا ، ومن ثم حاصر الامبراطور مبارلهم بمسكره ، ولم
يقلل العدو عنهم إلا بعد أن قدموا له اعتذارهم ودفعوا غرامة كبيرة (٥١) .

(٤٦) Hopf, art Giustiniani dans Eruch et Gruber, sect. 1, vol. LXVIII, 318.

(٤٧) Chisente . Pegol., p. 389.

(٤٨) Codin, Caropai, p. 78, éd. Bonn.

(٤٩) Pachym., I, 420-425, Nicéph. Grég., I, 134 et ss.

(٥٠) Lib. Jur., II, 443.

(٥١) Pachym., I, 425 et s., Nicéph. Grég. II, 184.

وكان ميخائيل مضطرا بسبب المصاعب الخارجية للحجاسة على علاقات حسن الجوار معهم . من ذلك أن القسطنطينية كانت لمدة سبعين عرسا لهجوم يشهه شارل دوق أنجو ، ولكي يسرع الامبراطور من دعوى مستوطني غلطة (٥٣) الرغبة في مشاركة هذا الأمير في وقت ما ، بدل جهده لثبيت لهم عقده عليهم ، ويكسب مودتهم (٥٤) . وكان في الواقع يعرف أنه لا يخشى من جانب هؤلاء المستوطنين شيئا طالما حددوا موقفهم السياسي طبقا لحوقف وطعنهم الأصل . وكان ملك نابولي قد أصدر جوا وسائر الدول بأن يشتركوا معه في الهجوم على الامبراطورية البيزنطية ، ولكن حكومة جنوا لم تقنع برفض اذاره ، بل بادرت بتشديد الامبراطور من الخط الذي يتعمده (٥٤) . ومن جهة أخرى كان هناك عدد من الجوين المقيمين بالامبراطورية اليونانية . منهم بنديتو زكاريا Benedetto Zacaria أخو مانويل ، مخصصا لسياسة وطهم الأصل . فعلموا على تكوين حلف بين الباليولوجوس وبين بعض الدول الغربية بصفة القيام بعمل مشترك ضد شارل دوق أنجو . وبوساطة جان دي بروتيديا Jean de Procyon من أمالي نابولي ، وهو لاجئ في بسلط بطرس الأراجوس Pierre d'Aragon أخرى بنديتو مفاوضات عقد معاهدة يتعهد فيها ميخائيل بالباليولوجوس بتقديم معونات مالية للملك أراجون إذا سب لمحاربة شارل دوق أنجو (٥٥) . ولكن بنديتو هذا في عام ١٢٨٢ بأداء مهمة في بلاط أراجون وقشتالة باسم الامبراطور اليوناني ، قصد توثيق الاتحاد السياسي بين المولتين بعقد زواج بين ابن ميخائيل وابنة بطرس (٥٦) . ومع أن المعونات لم تدفع بكرة ، ولم يتم الزواج ، فإن ذلك لم يكن من خطا ارتكبه زكاريا ، إذ أسهم على كل حال اسهاما قويا في فشل الهجوم الذي أعده شارل دوق أنجو . هذا الاهتمام الفعال الذي أبداه بعض الجنويين ذوي الشخصيات البارزة بشئون الامبراطور ، والمؤلف المؤدي الذي اتخذته الجالية الجنوبية كلها قد أسهم في أواخر حكم الباليولوجوس الأول في مزيج من التغارب بين الجوين واليونانيين .

(٥٣) في هذا العصر كان الجنويون قد استقروا في غلطة (١٢٦٩) .

(٥٤) Pachym., I, 386.

(٥٥) Anon., Jan., p. 388.

(٥٦) Piel, Luc., dans *Édusat* ss. XI, 1186 et s. et après lui Saudo, (٥٥) *Historia del regno di Romania*, dans Hept., Chren., Gréco-rom., p. 133 et s.

(٥٦) خطاب من بطرس آل ميخائيل .

Saint-Priest, *Hist. de la Conquête de Naples* : par Charles d'Anjou, IV, 213 ; Arnaut, *la guerra del vespro siciliano*, 8 éd., 289 et s.; p. 386.

وللخلاص في بضعة منطوق نتائج حكم هذا الامبراطور بالنسبة الى
 لامع التجديدية العربية . ويبدو له الجنويون بأفضل كبيرة . من ذلك ان
 لقضاء على تفوق البادية ثقافتا عسكيا ، والقضاء الرسوم الجسدية المرفقة
 انحاءا للتجارة لهصة كبيرة في المياه البيزنطية والبحر الأسود . ولا يسم
 الروم ان يتكروا ان الجنويين بملء أن كانوا ربما طويلا أقل كفاءة من
 البادية في فنون الملاحة ، وهي الثروة والأبهة ، فانهم يروا من ذلك
 الحين مافسبهم في هذين المجالين (٥٧) . ومن جهة أخرى وجه ميخائيل صرة
 شديدة الى رعاة تجارة البادية في الشرق الأدنى . ولما لم يكن البادية
 يريدون أن يتخلوا عن مشروعاتهم الخاص بأحياء الامبراطورية اللاتينية ،
 فانهم كانوا يراعون دائما حيال الأمير الذي يعتبرونه مفتعيا للعرض حوقا
 مشطفا على أقل تقدير ان لم يكن عدائيا فان لامبراطور لم يكن في وسعه
 الا أن يبدى من لاحتهم اوليا كبيرا . وكما رأى واجهه أن يتناول لهم
 عن شيء ، فكل ذلك دائما بيد شخصية (٥٨) .

ومع ذلك لا يجوز أن نلبي أن ميخائيل لم يستطع أن يجمع تحت
 سلطته الا حردا من امبراطورية الكومنينوس والانياسوس القديسة .
 والمرفوف أن الصرب والبلفار قد انتزعوا قسما من الأقاليم الشمالية ،
 أما القسم الباقي فقد اقتسمه مع الأمراء الروم من آل انجيلوس الذين
 حافظوا على استقلالهم في ثيسالية وابروس Epire . وكانت اتيكا
 Attique وبيوتيا Béotia في أيدي دولات من أصل برجندي .
 وفي جزيرة يوبية Bubée كان يحكم أمراء من سلالة بياردية . وأخيرا
 فإذا كانت لغزوات الفارس ليكاريو قد اكتسبت أرضا في هذه الجزيرة .
 فان بجاجة هذا كان وقتيا . ففي عام ١٢٧٨ كانت لغزاة المورة Moree
 في أيدي آل فيلهاردوين Villehardouin . وحين أسر ميخائيل
 باليولوجوس الأمير جيوم (وليم . غليوم) الثاني ، لم يحصل على فدية
 أكثر من ثلاثة أمكية محصية . وبعد وفاة جيوم ، استولى شارل دوق

Pachym., I 419 et s.

(٥٧)

(٥٨) انظر في مقدمة بين الصرب والبيادية في حالات بلاد ميخائيل وطمح كل
 ترويح . ديمتري يستقبل الامبراطور في حفل رسمي لأول مرة بودستات جنويا . يؤدي
 البودستات ركعتي . لم يسمح له بالتقرب يد الامبراطور وقدمه ، في حق لا يؤدي البابي
 البندقى سوى ركة واحدة ولا يقبل يد الامبراطور أو قدمه . وفي القابات العادية يخط
 كل من لاتبى قبضة الا ان البودستات الجنوي يؤدي فضلا عن ذلك ركعتي . وبعد وصول
 سفيرة جنوية يسمح بحفلاتها بان يتجروا الاسرلة بالصحبات وهذا ما لا يسمح به
 للبادية . انظر :

— Codinus Carogal, De offic. palat. Cptot, éd. Bonn,
 p. 75 et s.

أثخروا على الامارة . وفي الأرخييل كان ميخائيل يمتلك الحرر المجاورة لتركيا وآسيا الصغرى ، بينما بقيت الجزر المجاورة لليونان الأصوية تحت سلطة الأسر القيسية التي استولت عليها خلال الحملة الصليبية الرابعة . وأخيرا ، احتفظت جمهورية فينيسيا (البندقية) بجزيرتي مودون وكورون ، وجزيرة كريت بالإضافة الى مستعمراتها في سبروت .

وبالاحمال ، اذا كان من الثابت أنه من الأمتي التجاريين الكبيرين في إيطاليا ، كانت جنوا تتمتع بأكثر قسار من النفوذ في البلاد التي يحكمها ميخائيل باليولوجوس ، وذلك اصرارا بمصالح البندقية ، فان المائدة التي كان يمارس بمجالها هذا التفوق كانت قاصرة عن متونيا ، وتركيا ، والشاطئ الغربي من آسيا الصغرى ، مع الجزر التابعة لها . وفي مقابل ذلك كانت هذه المائدة تضم للسلطنتيين ، المدينة العالمية ، وامتد الكبر الى البحر الأسود ، وكنبالوليك بأسواقها الواسعة ، وجزرا مثل شيوس وروفس .

أما في اليونان نفسها ، وفي الجزر اليونانية ، فالوضع كان على العكس من ذلك : لها ظلت البندقية ، وهي قوية بأعمالها المباشرة وغير المباشرة ، مسيطرة على محطات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى الملاحة التجارية ، والحرب البحرية . هنا كان حكمها في سبروت يتصرفون ببراعة شديدة ، فما لبثت أن هازمت شريا من الحماية على الجزيرة بأسرها (٥٩) ، هنا ، منذ عام ١٢٦٢ كان حليفها جيورجوس الثاني ، أمير المورة ، وعملت بالاتفاق معه على منع لغزيات امبراطورية الروم ، على الاقل في المطال الذي تسمح به علاقتهما للسيادة مع ميخائيل باليولوجوس (٦٠) .

نرى من ذلك انه كانت هناك عظمتان متميزتان ، المنطقة الرومية في شمال الأرخييل وشرقيه ، والمنطقة الإفريقية غربا وجنوبا ، وبني المنطقتين لم تكن ثمر دقيقة في سلام حقيقي طالما كان ميخائيل باليولوجوس حيا يوزق . وليس علينا أن نهتم هنا بالتواريخ الحربية التي كانت القارة مسرحا لها ، وقد سبق أن تحدثنا عن الحملة البحرية الكبرى التي قام بها ليكاريو . غير أنه في الفترات بين هذه الحروب الكبيرة ، استمرت حالة حرب صغيرة سببت للتجارة سورا لم يسبق له مثيل ، وذلك بتشجيعها أعمال القراصنة بصورة هائلة في المياه الرومية .

Högl, art. Griechenland, op. cit., LXXXV, 907

(٥٩)

Ibid, p. 284-290,

(٦٠)

وقد اكتشف حديثاً مصدر قيم لقصة هذه الحرب الصغيرة . ذلك هو المحاضر الرسمي للجنة شكلها عام ١٢٧٨ ثلاثة قصصاة اللوج كونستازيني Giac. Contarini للتحقيق في أعمال الذهب والذهب والمنازل التي عانى منها الرعايا البادقة من جانب الروم وحلفائهم في غضون السنوات العشر السابقة . ولعلنا نصادف مثل هذه الأعمال في تواريخ أكثر قنصاً . ولا بد أن شكوى الضحايا التي تنقلها اللجنة ، ويؤيدها شهيد أو موظفون كونيت مجلسا ليضمه بعض السفراء تحت أنظار الإمبراطور تأييدا لمطالبية بتعويضات . هذه المحاضر لها أهمية كبرى (٦١) . فإلى جانب فقرات تتحدث عن أعمال العنف التي ارتكبتها بعض موظفي الجيسارك ، أو دالات السيفت التي بدت على بعض تجار المنح أو العجوب ، فالحق لا تعرض إلا سلسلية من قصص القسطنطينية . ولا شك أن هؤلاء القراصنة كانوا مغرورين إلى ممارسه مهنتهم هذه على الأقل بكمالية قومية ، إلى جانب ولعهم بالذهب والذهب . ومن ثم راحوا يطاردون سفن البنادقة ، وينهبون ركابها ، ويسببون أحيانا معاملتهم ، ويجردونهم من كل ما معهم ، فلا يتركون لهم سوى ما عليهم من قمصان . كان أشهر سفينة ذاهبة من جبروت إلى شاطئ تسالية ، أو من ادروس إلى جبروت تعرض للوقوع في أيدي هؤلاء القراصنة ، فتترك لهم كل حمولتها . حتى ولو كانت من الجبس أو الفاسوليا أو السمك . وكانت الرحلات الأطول من هذه تعرض البحار بالطبع لمخاطر أشد . ونقرأ (في المحاضر المشار إليها) أسماء سفن تجارية كبيرة ، مثل بومبيرا Boudina ، وروبيلا Zonella . أصرت على الإبحار أثناء عودتها من سوريا وبها شحنة من القطن (٦٢) . ومن أسماء القراصنة ، نقرأ عددا كبيرا يدل على أنهم من أصل عربي . ومن السهل أن نفهم السبب في هذا إذا فكرنا في العناصر الغربية التي اختلطت بالمستعمرة اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، وبمدها أيضا ، وفي عدد الفريين الذين غنموا في البحرية الإمبراطورية بصفتهم أمراء بحر (إمبرالات) أو قباطية . نذكر كمثال واحد لذلك الجنوي أندريا جافور Andrea Gafforo الذي قرأ اسمه مرة بصفتة قرصانا عاديا ، ثم بصفتة قائد أسطول إمبراطوري يضم ثمانى عشرة سفينة

Taf. et Thom., III, 189-201.

(٦١)

Samuël, *Isola del regno di Romania*, p. 132 , Taf et Thom., II, 337, 351.

(٦٢)

حربية (٦٢) . وفي كل مرة يضاف محور المضطرب واحد من هذه
 الأسماء التي تكشف عن أصل غربي أو تصحبها إشارة إلى جسميتها
 البيزية أو الجنوبية أو غيرها ، لا يفرق أن يشيخ أن الشخص المسي
 يصل في خدمة الإمبراطور ، أو أنه يقطن رودس أو تسالونيك أو
 آيا ، الخ ، أو أن سفينة القراصنة التي يقودها جهزت في ميناء يونانية .
 هذه اللغة في البيانات قد روعيت طبعا لاثبات الحق في إلغاء المستولية
 على الإمبراطور عن الأضرار التي سببها القراصنة . ولم يكن الذي من
 أصل يوناني ناقل عددا من الغربيين . ولم يكن موظف الإمبراطورية
 يحملون من حياتهم ، بل أن منهم من كان يعمل أكثر من ذلك ، فيجبرون
 بأنفسهم لسفن لأغراض القراصنة . مثال ذلك حكام تاسوس Thasos
 واسكوبلوس Skopelos ، وسيريجر Oërigo ، وبخاصة حاكم رودس .
 ويدهي كريفيكليتيس Kriviklotes ، وكان يحفظ وقسا طريلا
 بالأسرى المندقة الذين يقومون في قسطنطينية ، فيوسمهم ضربا ، ويرغمهم
 على أداء أشغال شاقة ، كالمجبرمين . وبعد الجور المذكورة بعاليه ، كانت
 الماوى التي يفضيها القراصنة هي جرد ساموثراس Samothrace
 وكريا Zia ، وساموس Samos ، ومواي مالودريا Malvoisia
 (مونسايذا ، باليونانية - المترجم) ، وتسالونيك على الساحل الأوروبي ،
 وميناء آيا على الساحل الآسيوي للأرجيل . ومن تسالونيك كان يوحنا
 مسيرازون Jean Senserazou ينطلق مع طاقمه من القراصنة ، كانت
 آيا تاري بحارة يوحنا دي لو كافو Jean de lo Cayo المولود في تاسوس
 Namflo . والذي صار فيما بعد ملك هذه الجزيرة (٦٤) . واسما
 رئيس القراصنة هذين هما اللذان يترددان كثيرا ، ولكننا نستطيع أن
 نذكر قرابة تسعين اسما آخر ، ويتبع اسم كل قرصان منهم قائمة طويلة
 أو قصيرة بالأوصاف الشريرة التي اقترنوا شبه المندقة . وبخلاف هؤلاء
 القراصنة الذين يخرجون من مواالي اليونان وجزرها ، توجد مجموعة
 من القراصنة الجنوبيين الذين يحملون حول ليربولت ، فلا يتركون
 المستوطنة القبطية في سلام أو خوف . وقد لخصت مغامراتهم في
 مذكرة حررت بأمر من الولاية (من ١٢٧٣ إلى ١٢٧٥) (٦٥) .

Hopf, Urkunden und Zitate zur Geschichte von Andros. (٦٢)
 (Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., XXI, 1896), p. 246.
 et s.

Secondo dans Hopf, Chron. gréco-Romanes, p. 133 ; Hopf, (٦٤)
 Venezi - byzant., Archéol., dans les Sitzungsberichte der Wiener
 Akad., Phil. hist. Cl., XXXII (1899), p. 500.

Hopf Græchenland, op. cit., LXXXV 810, not 78.

(٦٥)

وربما تمتد للجنوبيين والروم أيضا أن يضعوا قائمة مقابلة بالمرءة القراصنة البنادقة أو حلفاء البنادقة . وكان سادة نجيرونات ، حلفاء البنادقة و « البابل » القيسي نفسه (٦٦) يشنون غارات معاشية على سواحل الأمبراطورية البيزنطية . وتكلمت إحدى هذه الغارات ضد مدينة «نيا» بنجاح باهر ، وأسفرت عن شنائم عظيمة من أسحار كريمة ولآل وأضياء ذهبية وفضية ، وعدد كبير من الأسرى . كذلك كانت الحروب الصغيرة في الأرخبيل ، التي يمتلكها سادة من امر فينيقية تسهم بقراصنتها الأشرار الذين يسامرون بفساداتهم حتى أرمينيا وقبرص وكيتشاك (Soitia) Kiptohak (٦٧) .

هذه الحرب الصغيرة التي يشنها الطرفان دون هوادة ، دمرت البلد ومسكاته ماديا ومعنويا . وزاد الطغيان بلة ثلة من القراصنة المحترفين ، تداثروا من كل الأنحاء ، واستغلوا الفوضى الشاملة ، فراحوا يقتلون ويذهبون بلا تمييز كل ما تصل إليه أيديهم . ومع أنهم كانوا يجنون ثمارا لا يورون إليها ، وخاصة في نجيرونات ، ولويبيا Nauplio فقد كان لهم حصوم يطاردونهم بعزم وحمة . وفي هذه المهمة أدى الأحوال الماويل وينديتو زكاريا من لوكاية نشاطا عظيما ، ذلك لأنه كان من صالحي تجارتهم في القسب تطهير البحار من اللصوص الذين يعيشون فيها فسادا (٦٨) .

وفي وسعنا أن نتصور الحسائر الجسيمة التي كانت تسببها هذه الولايات لتجارة بوحه عام ، وللمسقطونية والبحر الأسود بوجه خاص ، وكذا لتجارة مصر وأرمينيا وسوريا وقبرص بطريق غير مباشرة . ولم يكن هذا على ما يبدو سوى بداية حرب عامة تشهد فيها البنادقة وهي تحارب إلى جانب شارل دوق أنجو ، وجنوا تحارب إلى جانب ميخائيل باليولوجوس . وكانت الثورة المسماة في صقلية Vespri Sicilinnas وموت ميخائيل نديرا بولوع الكارثة . وفي عهد اندرونيك الثاني مرت فترة تهدئة من الطرفين . فمن جهة ، لم يكن هذا الأمير ذا نغمة قتالية بللثة ، ومن جهة أخرى ، بقيت الأمم التجارية هادئة في العشر السنوات الأولى من حكمه ، رغم التقلبات في المعاملة بينها في بلاد الروم - وهو السبب الأول في نشوب الحرب بينها . وفي هذا الصدد أتبع الامبراطور

Archiv venet., XX, 81.

(٦٦)

Savudo, dans Hœy, Chron. Gréco-romane, p. 126, 127, 146 et s.

(٦٧)

Ibid., p. 127, 146 et s.

(٦٨)

الجديد الطريق الذي احتلته أبوه ، فقد احتسب الجيوبى بكل أنواع المزايا مثلما فعل أبوه ، ومن ثم احتفظ هؤلاء ، بفضل هذا الوضع المتميز بتلوقهم في البسفور . وللأسف تموزنا الوثائق المتعلقة بهذه الفترة الأولى من حكم اندرونيك ، ومن ثم فليس في وسعنا أن نعرف بدلائل ثابتة الامتيازات الجديدة التي منحها لهذه الأمة . وليس من شك في أن السفارة التي أودعتها جئوا عام ١٢٨٤ قد لقيت ترحيبا طيبا ، لأنها أتت معها ماركيزة من آل مولفيرا لتتصير روجة للإمبراطور الصغير (٦٩) . ونعرف أيضا سفارة نيكولو دي بالاترو Nicolò di Palazzo في عام ١٢٩١ (٧٠) . غير أن نتائج هاتين السفارتين لم تتضح للأجيال التالية . وبعد مفاوضات طويلة استهلها في السعدنطينية أنجيلو مارنشينلو Angelo Marcello ، وماركو زينو Marco Zeno وواصلها في البندقية رئيس اساقفة لسيوس ، وتيسطين فوسكامالوس Constantino Foscamalus ثم أخيرا في عام ١٢٨٥ التوقيع على معاهدة الصلح بين اندرونيك والبندقية . أما بنود المعاهدة فليست سوى نسخة من بنود معثال عام ١٢٧٧ ، غير أن ميثاقا المحددة بعشر سنوات تتميز بصورة مفيدة عن الهدنات القصيرة الأمد التي وافق عليها ميخائيل باليولوجوس . وهذه المناسبة وافق اندرونيك على أن يدفع تعويضا قدره ٢٤٠٠٠ هيدريه عن الاضرار التي سببها قرصنة الروم وحلفائهم في عهد ميخائيل للبيادقة (٧١) . ولكن لم يكن في وسعه أن يتحمل المسئولية عن أعمال القرصنة التي ترتكب في المستقبل ليدعم في المياه اليونانية . والواقع أنه بأعماله ، ترك البحرية الرومية تطفئ حتى أصبح رعاياه عرضة لهجمات القرصنة ، بلا دفاع ، واضطر أن يأمر سكان السواحل بالانسحاب إلى الداخل حتى لا يتعرضوا لنسب وانتهب (٧٢) . ويتضح من ذلك أن الأجانب لم يكن في وسعهم إلا الاعتماد على أنفسهم .

ولم تمض عشر سنين على ارتقاء اندرونيك العرش حتى سقطت عكا في أيدي سلطان مصر ، وسقط معها كل ما بقى من الدول الصليبية في سوريا . هذه الكارثة مدت في الجنوب طريق تجارة الشرق الأدنى ، فوجدتها على الأقل من كل أماكن في هذه الناحية . وكانت ضربة شديدة

Annal Jan., p. 311.

(٦٩)

Censale, Nuova storia della repubblica di Genova, III, 302.

(٧٠)

Taf. et Them., III, 323, et m., 339 et ss.

(٧١)

Pachym., II, 308.

(٧٢)

على البنادقة ، خاصة وأن تفوق الجنويين في الشمال أقام العراقيين في طريق القسطنطينية والبحر الأسود ، وترتب على ذلك تلجؤ جديد في المتمد والكراهية بين البنادقة والجنويين (٧٣) ، وأصبحت أرض الأميراطورية الرومية من جديد مسرحاً لأعمال القتل والنهب ، وشهد عام ١٢٩٤ بداية حرب طويلة بين القوتين ، وكانت البدايات في مصالح الجنويين ، إذ أوقعوا بأعدائهم هزيمة ساحقة ، في معركة Lazazzo ، واستولوا عنوة على كاديا بجزيرة كريت ، ودمروا أسطولاً تجارياً في ميناء مودون (٧٤) ، ولكن بعد هذه الانتصارات الأولى ، تملّ عنهم الحظ ، وانقلب لصالح البنادقة : فقد التقى أمير البحرية البندقية روجيرو موروسيني Ruggiero Morosini استلب مالابروكا Malabaroca بأسطول صغير للعدو ، فطارده في السعور حتى الحقيق المعروف باسم هيرون Hieron (٧٥) ، لم عاد إلى الخلطة ، ودمر كل ما صادفه في طريقه (١٢٩٦) ، ولم تكن ضاحية لمنطقة قد اكتمل بناؤها ، ولم تكن لها أسوار (٧٦) ، وكان سكانها من الروم والجنوبيين قد لجأوا إلى القسطنطينية بأسرهم وكل ما استطاعوا حمله ، وانتظروا هناك العدو ، على استئعداد لتساوئته ، ولأهبط سكان القسطنطينية اليونانيون للقتال ، وأغلغوا أبوابهم ، وأقاموا حراسة متينة ، واعتقل المدونيك البنادقة المقيمين بالمدينة ليمنعهم من التواطؤ مع مواطنيهم (٧٧) . واعتبر أعداء الجنويين بمثابة أعدائه ، أما البنادقة فقد أصبح من حقه أن يتمتع من أعدائه ، خاصة وأنهم قد حالوا حكماً من أهم أحكام المساعدة ، ذلك الذي يحظر عليهم وهي الجنويين أن يسوروا حلفائهم داخل المضائق المؤدية إلى القسطنطينية (٧٨) . وبدأ موروسيني بأشغال الثيران في البيوت المهجورة بمنطقة (٧٩) ، ثم وجه قواته إلى القسطنطينية .

Ibid, II, 332 et s.

(٧٣)

Dandolo, p. 404 et s.

(٧٤)

C'est la Légende de Dandolo, p. 408.

(٧٥)

Jeor de Vorrag, dans Murat., SS. IX, 86 , Minoph. Grég., I, 134.

(٧٦)

(٧٧) ارتكب سكان القسطنطينية من اليونانيي في هذه لئامية سرقات من السكان

البنادقة ببلدت أيتينا ٧٠٠ هيرير ويدين ذلك غسي بنود مساعدة الصالح في ١ أكتوبر ١٣٠٢ - ٧ مارس ١٣٠٣ .

Tot, et Thoen., II, 96, 141, 229, 346, Pachtym., II, 229.

(٧٨)

(٧٩) هذا الحريق أجبر الجنويين في يبرو اللاجئين إلى القسطنطينية ، أن يخلعوا

أنفسهم بها ، ولجأوا إلى حي البلاكيرس Blaquernes القري : Paspali, p. 213. Atti della soc., X, 488.

ولكنه واجه هناك مقاومة عنيفة . فراكى من الصواب أن يتقهرق . وفي طريقه استولى بغنة على فوكاية التي كانت وقتئذ تابعة لبتديجو زكاريا الشروف . ألقى ماسويل المتوفى عام ١٢٨٨ ، واستولى على المراحل وسائر الأدوات المستعملة في صنع السب (٨٠) . وبعد رحيل موروسيني ، وضع أندرونيك تحت الحراسة أموال البنادقة المقيمين بالقسطنطينية فسانا تسع مئة مئيل ٨٠٠٠٠ هريز الذي طالب به تعويضا للبيوت التي أحرقت في غلطة (٨١) . أما الجنويون فاجم أخطوا بثأرهم من المستوطنين البنادقة في القسطنطينية ، وانتهروا فرصة نزاع حرب بينهم وبين هؤلاء البنادقة لاحتضوا عليهم . وانتهروا منهم بالقوة يرجوا احتوا به ، وألقوا من فوق السطح « بايلهم » (السيد بيسو M. Bernbo) . وقتلوا عددا كبيرا من أعيانهم (٨٢) . وسبوا سواد الشعب من المدينة .

ولكن الإقامة في القسطنطينية لم تعد في نظرهم مأمونة ، وفضلوا العودة إلى البندقية . وخطر لاندرونيك أنه متهم بالتحريض على هذا التمرد ، ومن ثم يعمد بولفه بفرح المسألة في البندقية . ومع ذلك فالواقع أن هذا العنوان قد تم في عاصمته ، وتحت أنظاره دون أن يلقى أي عقاب . ومن ثم كان للجمهوريّة الحق في أن تنفي على الإمبراطور تمة هذه الأحداث . ولما كانت معاهدة عام ١٢٨٥ قد انتهت مدتها ، فانها رفضت تجديدًا قبل أن يرد الإمبراطور الأموال التي وضعها تحت الحراسة (٨٣) . وبالأجبال ، ماذا كانت النتيجة التي حصل عليها البنادقة بهجومهم على المستوطنات الجنوية ؟ (٨٤) لقد أكلوا بخصومهم في التو واللحظة ضربات هائلة ، ولكنهم لم ينجحوا في طردهم نهائيا من أي موقع من المواقع التي يحتلوها . أكثر من ذلك أن ما تركوه من خرائب أعيد بناؤه تحت أنظارهم ، وبخاصة قلعة التي أعيد بناؤها في

(٨٠) Jacq. de Vorag., l.c.; Dandolo, p. 408.

(٨١) يلاحظ بلشيدريس Pachymérès حتى أن الإمبراطور ، خصمه هذا ، كان يراعى أحكام المعاهدات التي تنص على الحق في صوبيه ، فسيبها على حساب القديس .

(٨٢) يذكر الأرميني حيدر Héthoum ص ٩٦ :
— Rec. des hist. desrois. des arménien, I 480.

— أما مكمل جاك دي فوراجين في يذكر ص ٧٠ على الأقل :
— Contân., de Jacq. de Voragine (Act della Soc. lig. X 480).

(٨٣) Pachymérès, II, 287-244 . Nicéph. Grég. (287 et s.); Jacques de Voragine et ses continuateurs ; et charte d'Andronic publiée par Martin, VI, 305 et ss.

(٨٤) يصف حاكم موروسيني قلعة ، استولى سوزانزو حرة السلاح على تلك وملكها (١٢٩٦) وسرق لرى (ذلك ليها بعد .

ومن نصير على مساحات أوسع من ذي قبل ، فحدث وكابها استملت من كارتها دائما قويا . أما بخصوصهم فإن الأعمال الثأرية المنظمة التي اوتكبتها الجنويون دمرت مستوطنهم في القسطنطينية ، كما تكبدوا حرية بحرية قبالة جزيرة كورولا Caracola في البحر الأدرياتي (٧ من سبتمبر ١٢٦٨) (٨٥) . ولجيرا ، وعصسل وساطة ماثيوفيسكونتي Matteo Visconte ، سيد ميلانو ، عقدت الجمهوريات الصلح من جديد عام ١٢٩٩ ، وتنازل كل منهما عن التعويضات التي قد يكون له حق فيها . ولم يكن للإمبراطور أي ذكر في المعاهدة . كذلك قرر في المعاهدة احتمال استقالة الحرب بينه وبين البندقية ، ذلك لأن الجنويين احتفظوا لأفليسهم ، ببقية المساعدات القديمة ، بالحق في الاستيلاء بالدفاع من كل موانع يهاجمه البنادقة في بلاد الروم ، دون أن يعتبر هذا التعاون من جانبهم بمثابة انتهاك السلم (٨٦) . فالواقع أن البنادقة لم يكونوا في هذا الحين قد تفاوضوا مع الإندونيك ، وتثبتت البنادقة بالمطالبة باستعادة الضمانات التي استولى عليها الإمبراطور ، أو على الأقل التماس التعويض الذي يطالب به . وقدوموا طلبهم في عام ١٢٩٩ ، ولكن الإمبراطور لم يرحب بها ، ولم يرد عليها إلا بمرات جديدة ضد المستوطنين البنادقة في القسطنطينية (٨٧) . ولم يكن في الامكان إيهام هذا الوضع إلا باستخدام القوة . ففي عام ١٣٠١ ظهر أسطول بندقية بقيادة بيليتو جوستينياني Belfetto Giustiniani ، وجورديو موروسيني Guidino Morosini أمام القسطنطينية ، وغرب كل شيء تحت أنظار سكان القصر الإمبراطوري ، وقبض على سكان جرر ، الأمراء ، المسلمين ، وعذبيهم ، وحدث كل ذلك دون أن يجرؤ على الظهور الأسطول البيرومي الذي أصبح عاجزا بصورة مخجلة (٨٨) . وتنازل الإمبراطور أخيرا ، وأعاد الضمانات التي كان قد استولى عليها (٨٩) . وفي ٤ من أكتوبر ١٣٠٢ وقع سفارته في البندقية على معاهدة الصلح . وفي ٧ من مارس

(٨٥) بصرى هذا التاريخ ، آخر القائمة التي جرت في ١

M. Yule, M. Polo, I, p. lxxv et s.

Lib. jur., II, 844 et ss. ; voy. aussi Mavagere dans Murel., (٨٦) ss. XXIII, 1811, Taf. et Thom., III, 391 et s.

Pachym., II, 286 et s. ; Dand p. 408. (٨٧)

Pachym., II, 322 et ss. , Nicéph. Grég., I, 208-210 ; Dand., (٨٨) i.e. , Commemorazioni della repubblica di Venezia registi, I, 20 (n° 79) et 24 (n° 102).

Pachym., II, 328. (٨٩)

١٣٠٣ صدق الإمبراطور على المعاهدة (٩٠) : فلم يتخل فكل من المطالبة بتعويضات عن التخريب والدمار الذي ألحقه دوجيرو موروسيني في إقليم الإمبراطورية ، ولكنه وعد أيضاً بدفع مبالغ كبيرة تمويضا عن الأضرار التي سببها للبندقة رعايا الإمبراطورية .

وفي غضون الحرب ، احتل البندقة عدداً من الجزر اليونانية (٩١) ، واحتفظوا بجزر نريا Zila (سيا Cya) ، وسريفس Sérifos (سارفوس Sarphus) ، وسانتورون (سانتا إيرينا Saneta Erima) وأمورجوس Amorgos بمبادرة أخرى ، اعترف اندرونيك بشرعية مبادأة الأمر الفينيسية التي اقتطع لها منذ عام ١٢٩٦ امراة بهذه الجزر ، وهي أسر ميكيل Michiel ، وجوستماني ، وجيري Ghisi وباروتزي Barozzi (٩٢) . وهناك على العكس من ذلك جرد مثل كوس Cos (Lango) التي غزاها حديث بيليتو جوستماني (٩٣) . ولم تكن أبداً تامة للتسليم ، عادت إلى الإمبراطور . ومن بين المسائل التي تهم التجارة ، تشير إلى المظهر الذي فرض على التجار البندقة بيع الملح أو السمكة (صمغ) في داخل الإمبراطورية . وفي هذا الخصوص أبدى الإمبراطور صلابته ، حتى عاد السلام إلى نصابه .

ولكن ،أمور لم تتغير كثيراً بالنسبة إلى البندقة ، ولم تكن أعمالهم في الإمبراطورية في حالة ترضيهم ، لذلك لم يكلوا عن تدبير المسائل والمؤامرات ضد آل باليولوجوس . وفي عام ١٣٠١ تزوج شارل كونت فالوا ، أخو فيليب (الجبل) ملك فرنسا حفيده الإمبراطور السابق بولودين الثاني ، وأدهى إليه الكنسيب بهذا السبب حلقاً في تاج السلطانية . وفي اليوم الذي أراد فيه أن يسعى لنيل هذه الحقوق ، وجه جمهورية فينيسيا مستعدة لمحاكمته (٩٤) . وفي عام ١٣٠٦ ذهب

(٩٠) Taf, et Thom., IV, 12 et ss, 18 et ss ; Le premier livre de Méti v. Arch. Venet., XVIII, 314; XX 208.

(٩١) Navigato, p. 1009.

(٩٢) Hopf, art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, p. 303 et s. ; Zussae zur Gesch. von Andros, Op. cit., p. 325 et ss, Venetio-byzant., Analekten, Op. cit., p. 287, 454.

(٩٣) Hopf, Giustiniani, op. cit.,

— لاحظ ملك الفينيس التي شغل البندقة على جزيرة كوس Cos في عامي ١٢٩٢ و ١٢٩٣ (هاتولو ، ص ١٠٣) . وعلى رافة ذات دولة كبيرة .

(٩٤) ثم يكن في حاجة إلى تشجيع البابا كليمنت الخامس :

سميله تيبو دي سيبيوي Thibaut de Cépoy الى الهندية مزودا بسلطات مطلقة ، ووضع مع الحكومة برنامج حملة مشتركة تنطلق في ربيع عام ١٣٠٧ (٩٥) . وفي انتظار الحملة قام عميلان من الهندية ، فيليبو مارشيانو Filippo Marchiano ، وماتيو بالو Matteo Halbo بالاندخاض لعقد اتفاق سرى بين شارل وبعض أعيان امبراطورية الروم (٩٦) . وقام استولون بندقى بمصاحبة تيبو دي سيبيوي الى بلاد الروم ، وكان مكلفا بان يهده هناك الطرق ، بصفتة الوكيل العام لشارل وزوجته (٩٧) . ويتلوع حاص ان يضم الى قضية المطالب بالعرش جماعة الجند المرتزقة القاطنة (٩٨) . ودعيت هذه الجهود سدى : فقد راح شارل دوق أنجو يزجل رحيله ستة شهور ثم ستة أخرى الى أن تخلص نهائيا عن المهروج . وفي هذه الاثناء ، ميل صبر اللوح ، وهو ينتظر يوما بعد يوم بله الصلوات ، وكان قد استعفى في عام ١٣٠٨ التجار البنادقة الموجودين في الامبراطورية ، وكانت أعمالهم كلها قد أصابها التشلل . ولكن لداهاته كلها ذهبت ادراج الرياح (٩٩) وأخيرا تبين ان الجمهورية قد تسلمت ، وخرست مصالح تجارتها للضياع (١٠٠) ، وتعرضت هي للبخطر ، كل ذلك نظير لا شيء . وكان الاصرار الذي تابعت به جلستها بإعادة الامبراطورية الثلاثينية الى العرش ، اصرارا عجيبا لا يصدق له المثل . وفي عام ١٣٢٠ أجرت مفاوضات لهذا الغرض مع شارل ، صهر الأمير فيليب دوق كارانتو (١٠١) .

^{٩٥} (Commens. regest., I, 88 ; Taf. et Thom., IV, 88; d.d. 18 Janv., 1806)

— فضل في ذلك ، كان البابا بنوا الثاني عظم قد وجه له مذاهبا لكل الطرفين :

— Doc. sulle raisa, tom., p. 112 et s.

— d.d. Paris, 28 juill. 1806 ; Taf. et Thom., IV, 48 et ss. (٩٥)

Ducange, Hist. de Cpel., p. 226 et Chartes, p. 10-33; Buchon, (٩٦)

Recherches et matériaux. I, 49-50; Miklosich et Müller Acta germanica,

(٩٧) تجد هذا القيد مذكورا باسمه في ملحوظة على رأس الموضوع :

M. Polo de Facchier, p. 2.

Munzinger, trad. Lenz, II, 174 et ss.; Kunzmann, Studien (٩٨)

über Marino Sanudo d. alt. Obh der 2e Cl. der Bayer. Akad., XII 3, p. 773

Taf. et IV, 89 et s., 78-79; Commens. regest., I, p. 88, (٩٩)

no. 881, p. 173 et s., nos 18-19; Mas-Latrie, Coll. des doc. inéd., Mélanges, histor., 2e série, III, 63 et ss. documents extraits des Commemoriaux, ou dans les Commens., Reg., I, 173 et s., nos 18-26, 28; p. 222 et s. nos 262, 264.

Sanudo dans Kunzmann, Op. cit., et dans Hopf, Chron. (١٠٠)

gréco-roman p. 173 ; Romaniae Storica di Venezia III, 9 et s.

Taf. et Thom., IV, 179 et s.; Coll. des doc. inéd. I, c. (١٠١)

p. 72 et s.; Hopf art. Griechenland, Op. cit., LXXXV, 379, 405.

على أنه في مستهل القرن الرابع عشر ، تعرضت إمبراطورية الروم
لخطر الفتح ككثيراً من المؤامرات التي تنحاز في الغرب ذلك هو الغزو
التركي الذي كان يتقدم في آسيا الصغرى بقوة لا تقاوم ، ولما يش
أندرونيك من أن يتغلب على هذا العدو بقواته وحدها ، استغاث في عام
١٣٠٣ بإسكندر المرتزقة روبر دى فلور Roger de Flor وفرقه التي
اشتهرت باسم « السرية القاطونية » ، هذه الواقعة ليست غريبة بالمرة
على تاريخ مستوطنات التجار ، فالواقع أن الجنويين رأوا باستياء
شديد وصول هؤلاء المرتزقة ، وأدركوا ، كما يقول رامون مونتانر
Ramon Muntaner (١٠٢) أنه : « إذا بقيت هذه القوات في البلد ،
عائهم - أي الجنويين - سوف يفقدون الوضع القوي المشرف الذي كانوا
يتمتعون به حتى ذلك الحين ، لأن الإمبراطور لم يكن يجرؤ على فعل أي
شيء دون موافقتهم » ، وإذا كان اللطالونيون يتمتعون في الإمبراطورية
بصور المنكئين ، فإنه من الطبيعي أن تفقد أمتهم ، الأمة الأثيرة لدى
الإمبراطور ، وكان في هذا منافسة تنهيا في انضمار التجارى . الم
يسمحهم أندرونيك من قبل (في عام ١٢٩٠) حرية التجارة (١٠٣) ؟
وكان لا بد أن تفضي هذه الحالة النفسية إلى الحرب ؛ وهذا
ما حدث بالفعل ، ولكن الجنويين خسروا هذه الحرب ، إذ راح صديقيهم
ثلاثة آلاف قتيل وجريح جنوى ، وكان لا بد من بذل جهود ضخمة لا ينف
المرتزقة الذين شرعوا في نهب غلطة (١٠٤) . ولم يكن مناص من اللجوء
إلى وسيلة أخرى : فاعتباراً من تلك اللحظة ، اهتم مستوطنو غلطة
بإطوار كل ما يمكن أن يثير رغبة الإمبراطور من فرقة المرتزقة ، وكانوا
قد علموا باستعدادات شارل دو فالوا ، وكان هذا الأمير قد حصل في
عام ١٣٠٢ من غرديك الثاني ملك صقلية على وعد بالمساعدة في الحملة
التي اعتمد القيام بها (١٠٥) . وكانت عصبة روبر دى فلور في خدمة
ملك صقلية ، ولم تتحرك إلا حين قسمت إلى القسطنطينية في عام ١٣٠٢ .
ولم يقت الجنويون أن يصوروها على أنها طليعة متحركة ، مكيفة بتهيئة
الساحة لجيش غاز . والثابت أن هذه الفكرة صحيحة إلى حد كبير ،
ولكن أندرونيك رفض الاستماع إلى تلميحاتهم هذه (١٠٦) ، ويرى فيها

Trad. Luss, II, 108,

(١٠٢)

Voy. plus loin.

(١٠٣)

(١٠٤) انظر فيما بعد

Muntaner, Op. cit., 107 et s. , Pachym., II, 598 et s.

(١٠٥)

Ducange, Hist. de Cpl., Chartes, p. 48.

(١٠٦)

Buchon, Recherches et matériaux, etc., I, p. 48-50.

مجرد وشايات (١٠٧) . ومع ذلك فإن عجرة روجر ووفاعته ، هو ورفاقه تجاوزت كل الحدود حتى أحدثت انقلاباً في نفسه . كان هؤلاء المغامرون يعتبرون رومانيا بلداً مفروا ، وزودتهم وفاة روجر دي فلور (١٣٠٥) مقتولا بإيمار من الأمير ميخائيل ابن الامبراطور وشريكه في الوصاية على العرش بدرية للثورة ، ومن حاميهم في جاليبولي أودوا مندوبين يحملان للامبراطور تحدياً أصولياً . وثمة واقعة تثبت بكنية واضحة استنماعه هذه البندقية لبيزنطة : ذلك ان مندوبي القطلوبيين قرأوا رسالتهم على الجالية الفيسيسية في القسطنطينية وسندوها نسخة منها (١٠٨) . وبقي الجنويون مخلصين لمهاجم السلوكي ، وكانت مصيبتهم محتلفة بمصالح الامبراطور ، وكان اقصاء « السرية » (القتلوية) أو سحقها بالنسبة اليهم مسألة حياة أو موت . وهما كانت الخلافات والمنازعات التي تنشأ في تلك الآونة بين البيزنطيين وبين « البيروت Perotes » ؟ (١٠٩) فانها لم تكن ذات اثر في هذا الخصوص . فقد شن ايرال جنوي الحرب على القطلوبيين في بحر مرمره ، وأمر قائمهم بيرنجر دي النسا Berenger de Entenza وأمرال آخر حاجهم في مقر دارهم بجاليبولي ، تعاونه فرق يونانية ، ولكنه لقي مقاومة عنيفة واضطر أن يتقهقر (١١٠) .

ومع ذلك ، لبالنسبة الى أمة تجارية مثل الأمة الجنوية التي كانت سفنها التي لا حصر لها تواصل حركة مستمرة ذهاباً وإياباً بين الغرب والبحر الأسود ، كان من المؤلم أن تجد نفسها في موقف عدائي مع قرلة حربية متمركزة بكنية تتحكم بها على مضيق المردنيل . لذلك انتهى الأمر بحويي غطة أن يصرخوا للامبراطور بمزعمهم على عقد معاهدة صلح . رأى ثمن مع القطلوبيين ، وفسلوا كما قالوا ، دون أن يشغلوا بأنهم بأن الامبراطور قد يستاء من تصرفهم هذا (١١١) . ومن جهة أخرى صعدت سفن القاطلة مع القطلوبيين ، وازداد هذا التطور في العلاقات (١١٢) كما يتبين في المعاهدة المبرمة عام ١٣١٠ بين البندقية وامبراطور الروم ، إذ ادرج فيها البند الآتي ، حسب الرغبة التي أبدتها أندرونيك ، وموافقة

Pachym, II, 489 et s.

(١٠٧)

Muntaner, trad. Langs, II, 132.

(١٠٨)

Pachym, II, 534-539.

(١٠٩)

Pachym, II, 583-587, 597 et ss. , Muntaner, 138 et s, 180-182.

(١١١)

Pachym, II, 624 et s.

(١١٢)

Taf. et Thom., IV, 88.

(١١٣)

الانطاكية : « يحظر على كل مواطن فينيقي - والا تعرض لمعقوبة شديدة - أن يتجرع مع السرية المشار إليها طائفا كانت تحتل بالقوة أي موقع في الامبراطورية » (١١٣) - والمعروف أنه أعقب ذلك جلاء القبطاليين طوعا عن جاليليو بعد أن أهلكوا ونهبوا البلدان المحيطة بهم ، واستقروا أجيرا عام ١٣١١ في أنيكا وبيوتيسا ، وطردوا منهما دوقات بيت لاروش La Roche وهكذا تخلص اليونانيون من جيرة مرعبة وجاء دور بنادقة جبروت : ذلك أن شهوة الفزد عبد مؤلف المغامرين (أي القبطاليين) أصبحت لدى البنادقة في جبروت ماثرا للقلق المستور . وامتدت غاراتهم إلى داخل الجزيرة ، وفي عام ١٣١٧ استولوا على عاصمة الجزيرة ، بصفة عارضة ، ولكن احتلالهم قلعة كارسستوس Karystos كان أطول أمدا (لم يخرجوا منها الا في عام ١٣٦٥) (١١٤) .

ولم يكن هذا كل شيء ، فلم يمانعوا بقطع الطرق البرية ، بل راحوا يهاجمون القرصنة ، واتحدوا مع أتراك آسيا الصغرى في تهريب جرد الأرحيل حتى جزيرة كريت (١١٥) . وثمة المديد من أمراء الفرجة الذين كانت مصالحهم في هذه الظروف هي مصالح البنادقة نفسها ، عرضوا على البنادقة أن يكرلوا معها رابطة للقضاء على السيطرة القبطالونية في دوقية أثينا (١١٦) ، إلا أن والانطاكية لم تلبث أن اعترفت بأن كل ما فعلوه لم يكن سوى مفاوضات ، ومن ثم احترزت من مهاجمة القميم السرية القبطالونية ، ولكنها قامت بمطاردة القراصنة بسبلها البحرية (١١٧) ، ولجأت إلى الطريق الدبلوماسي للحصول على تعويض عن الأضرار التي سببتها لتجارها ، فخطبت في هذا الشأن قائلة السرية الأمير ألفونسو فادريك Alfonso Fadrique (١١٨) وأبيه فرديك الثاني ملك صقلية الذي أمان استقبال مندوبيها (١١٩) . وأخيرا ، في ٩ من

Hefel, Lib. 8 : extraits publiés dans l'Archiv, venet., XVIII, (١١٣) 828.

Hefel, Ueberblick über die Schicksale von Karystos, dans (١١٤) les Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl. octobre 1888, p. 570 et ss. ; art. Griechenland, Op. Cit., LXXXV, 410 et ss.

Hefel, art. Griechenland, Op. cit., LXXXV, 418-428 et s., 461, (١١٥) Dépêches de créte, dans Taf. et Thom., IV, 107-110.

Coll. des doc. inéd., Mélanges hist., III, (1883), p. 82 et ss., (١١٦) 24 et ss., 48 et s. Archiv, venet., XVII, 186 (4e paragr.).

Coenen, Bag., I, 124, no 110. (١١٧)

Ibid et p. 193, no. 108. (١١٨)

Taf. et Thom., IV, 110-117 ; Coll. d. doc. inéd., I, s., (١١٩) p. 36 et ss., 41 et ss. ; Testa, De vita et rebus gestis Frederici II, Sicili. reg., p. 247-270.

يوية ١٣١٩ أخذ الصبح ، وقعت معاهدة لسنة شهيد بين الفونسو فادريك والسرية القطلونية من جهة ، وبين فرانيسكو داندولو ، اليايل الفينيسي من تجريوت ، والسادة الاقطاعيين بالجزيرة من جهة أخرى . وتمهد القطلونيون بزرع أسلحة سفنهم القراعية ، ولا سألوا سلماً غيرها ، ولا سألوا القراعية بكنية مباشرة أو غير مباشرة . ومع ذلك صرح لهم بالاحتفاظ بالسفن الراسية في ميناء ليفادوسترو Livahostro بشرط ألا تكون مجهزة للقتال (١٢٠) ، ويقع هذا الميناء في عمق خليج كورنتوس ، ومن هناك لم يكن من استطاعتهم أن يهدوا جزر الأرخبيل ، أو يهدوا أيديهم إلى الأتراك . وتحدثت المعاهدة في ١١ من مايو ١٣٢١ ، وفي ٥ من أبريل ١٣٢١ (وربما أيضا في مرات أخرى) عبارات متباعدة تقريبا ، فقط أضيف إليها بأنه يتعلق بالأتراك : فقط حظر على القطلونيين أن يعلقوا معهم معاهدات جديدة ، وأن يساعدوهم في مشروعاتهم ضد تجريوت أو الجزر الصغيرة التي يمتلكها أمراء من أصل بدلي ، من آل سانغوتو Sanuto ، وآل جيبيزي Gyphizi (١٢١) . ويبدو أن « السرية » تأثرت بجديدة متراصة على تنفيذ هذه المعاهدة ذات الأهمية الكبيرة لأمن التجارة في الأرخبيل ، ولهذا الأمر ما يبرره . فأولا ، لم تكن « السرية » سوى « جمهورية من قطاع الطرق » ، ولكنها اتخذت بالتدريج سمات الدولة القلونية ، ومن ثم تسمى للبندلية أن تتفاهم معها ، وأن تعيش معها في وحدة وثاق .

كذلك أتاح القطلونيون للبندلية ، بطريق غير مباشر فرصة إضافة إقليم جديد على الأقاليم التي تملكها من قبل في اليونان . وفي عام ١٣١٩ غزوا للمرة الثانية تساليا ، وضموا جزءا منها . وللتخلص منهم وضع سكان ميناء فتليون Phelion الواقع على مقربة من زيتون Zelon عند مدخل خليج فولوس Volo (١٢٢) (في بحر إيجه - المشرقي) ، وضموا أنفسهم في حماية البندلية (١٢٣) . والحق أندرونيك (١٢٤) لمجزء من الاحتفاظ بهذه المدينة ، والأمير الفونسو

Max-Laure, dans la Coll. des doc. inéd., I.c., p. 44 et ss. ; (١٢٠)
Taf. et Thom; IV, 129 et ss. ; M. Thomas, Op. Cit., p. 338.

Coll. des doc. inéd., I.c., p. 49 et ss. ; Taf et Thom., IV, (١٢١)
214 et ss.

Leake, Travels in northern Greece, II, 341 ; Uxeno p., 224 (١٢٢)

Taf et Thom., IV, 218. (١٢٣)

Sanut, Eglat, 3. publ. à la suite des Secrét. Ed. crus, p. 293. (١٢٤)

فادريك زعيم السرية (١٢٥) على أن يضع الجمهورية يدها على هذا الميناء . وكان هذا التمكك يحقق أمنيتها لأنه يزودها بمساحة بحرية جديدة على القدرة في مواجهة جبهة تجريرت ، ولما مضى كانت سفنها التجارية ترسو كثيرا عند دلتون ، ولكن في عهد ميخائيل باليولوجوس أصبح هذا الميناء وكرا للقراصنة (١٢٦) . وابتداء من الاحتلال أصبح هناك « حوري » ينظم تابع لبايل لجريرت (١٢٧) .

أهملت الاسطرابات التي أحدثتها حملة القطارين في اليونان فترة من الهدوء ، ومنتزه هذه الفرصة للتحول في بعض التلميحات الخاصة بوضع مختلف الأمم التجارية القريبة في اليونان وأمالها في مستهل القرن الرابع عشر ، وما طرأ عليها خلال هذا القرن ، وتنظيم مستوطناتها . ويحسن البنية في هذا الخصوص باليونان ومستوطنهم في غلطة ، ذلك لأنهم هم الذين كانوا في هذه الحقبة يديرون الدور الأول في البسفور . كانت غلطة في البداية تتكون من بضعة منازل معرضة دون دفاع لكل ضروب الهامة ، وجرها موروسيني في عام ١٢٩٦ ، وجرها نصف سكانها بعض الوقت في أعقاب الحريق الذي أشعلته (١٢٨) . ثم بدأت تظهر من أطلالها ، فصارت مدينة حقيقية على الضفة المقابلة للقرن الذهبي . وفي شهر مارس ١٣٠٣ ، بدأ على طيب الجنوين ، ملهم أندرونيك امتيازات لأراضي جديدة تضاف إلى أراضيهم السابقة . وصار الكل يشكل من ذلك الحين مجموعة متماسكة يطوقها سور وشندق ، وترك فيها وراء الخندق منطقة حرداء متجددة عرضها ستون « أونا » (١٢٩) .

وشكل المدينة الجديدة يشبه تقريبا شبه المنحرف ، وقاعدته الكبرى (طولها ٣٣٩ خطوة) من ناحية البحر بعرض الدتو المستدير في نهاية القرن الذهبي وأول البسفور . ويبدأ هذا الخط من نقطة واقعة في القرن الذهبي على بعد حوالي خمس وعشرين خطوة من الخوض المسى « الخوض القديم » (Vetus tarsana) ، وهو لا شك نفس الشكل الانسيابي الموضح على خريطة السلطانية لكونر Kauffer (التي نشرها السيد هانر

Hopl. art. Grisehousand op. cit., LXXXV, 442. (١٢٥)

Taf. et Thorn, III, 107, 214, 216, 223. (١٢٦)

Milet, dans l'Arch. Venet., XVIII, 322 ; XX 84 et ss. (١٢٧)

(١٢٨) جاك دي فوراجين Jacques de Voragine كبير اساقفة جوا يذكر هذه

الواقعة في مناسبة كنيسية القديس ميخائيل في بيررا التي تبعد تماما في تلك الأونة .

(١٢٩) الأول قياس طول القديس يساوي حوالي ١٦٨٨ مترا - لترجم .

(Hammer) (١٣٠) ، وهو خليج صغير أقيم عليه إل Pérotas فيما بعد ترسانتهم البحرية (١٣١) : وتنتهي من ناحية البسفور عند النقطة التي يوجد فيها حاليا باب « كاراكوي Karakoul (١٣٢) ، على بعد ستين خطوة من برج خلطة . هذا البرج الذي يتردد اسمه كثيرا في تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ، وفي الوقائع البيزنطية لا بد أنه كان يقع خارج النجوى من الجهة الغربية (١٣٣) ، ويرتفع على الشاطئ قبالة « لسان الإسراى » المتداخل في البحر ، فإذا عدت سلسلة بين حاتين المتعطين ، أمكن خلق متصل القرن الذهبي ، وإذا عدت سلسلة أخرى بين برج خلطة وبرج لياندر Léandre في جزيرة دومانليس Damallia أمكن منح السفن التي تعبر البسفور من الاقتراب من القسطنطينية .

أما قاعدة شبه المنحرف الصغرى ، وطولها ٢١٧ خطوة ، فإنها تسير موازية للقاعدة الكبرى بأرتفاع قليل فوق الشاطئ ، وتجتاز بستان كرم ، وتمر أمام عدة كنائس منزلة . وأما الجانبان فإنها أقصر بكثير . فالجانب الخارجي ، وطوله خمس وسبعون خطوة فقط ، فإنه يرتفع مكونا خطا متكسرا ، وأما الجانب الآخر ، ويبدأ من الحوض القديم ، فطوله تسعون خطوة . وعلى ذلك فإن الطول الذي تفصله المدينة عن الشاطئ يبلغ في حقه بنسبة أربعة إلى واحد (١٣٤) .

وكان المحذور على كل جنوى ، حسب الأصول أن يسكن خارج الحفود التي أوضحنا خطوطها ، وهي حدود بيديها بوضوح الخندق والمنحدر ، غير أنه حدث بعد ذلك أن اشترى عدد من الجنويين أماكن للبناء ، وشيدوا عليها لأنفسهم مساكن خارج حفيهم . ولما ترتب على ذلك إثارة بعض المتعصب ، اشتكى الأمبراطور من هذا الانتهاك ، والتزمت الجمهورية

(١٣٠) لامية Kalafatyeri ، يقبها أسيد باسياني Paspali (ص ٢٢٠) *rebus targana* هذه الناحية لا أثر لها في أية خريطة أمكنى الحصار عليها .

Barbaro, Giomo, dell'assedio di Cpoli p. 27 et s. (novembre ١٣١١ di Pera).

Paspali, 7, 88, p. 179 et s., 183,

(١٣٣)

(١٣٣) لا يجوز الخلط بين هذا البرج وبين البرج النحسى الذي لم يزل قائما حتى وقتنا الحاضر ، ويقوم على مرتفع خلطة ، وهو مشهور بالنظر الذي يجلب الأنظار إل ذروه ، وقد شيده الأسطاسيوس ديكوروس Austasios Dikoros ، وأعاد الجنويون بناءه قبل استيلاء الإفراف على القسطنطينية بوقت قليل .

Saali, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 288 et s. ; (١٣٢) dans le Lib. Jur. II, II, 485 et ss., et dans les Atti della Soc. Lig., XIII, 108 et s.

بالاعتراف بخطأ رعاياها (١٣٥) . لدى قانون صدر بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ خصيصا لمدينة غلطة مادة تحظر على كل جنوى أن ييسى خارج الحي دون ترخيص من الأمبراطور .

لما بخصوص المنازل السابق بناؤها ، فلا بد من صدور قرار خاص بالاتفاق بين الامبراطور ومستشارى اليودستات الستة (١٣٦) . وعلى العكس من ذلك . ترك ايدرونيك للجنويين مطلق الحرية داخل الأرض المملوكة لهم ، فيما عدا تشييد قلعة ، وحلما يشبه أنه كان يشعر بالخطر الذى يهدد التسبب بخلية من مجاورة المدينة الجديدة (١٣٧) . ويبدو الجنويون بالعمل بهمة ونشاط ، ومرتعا ما اكتفى حيهم الجديد بصروح ضخمة ، عامة وخاصة . وفى غضون شتاء ١٣٠٤/١٣٠٥ ، وتحت تهديد غزو يشنه القاطلون ، أسرعوا باتمام وسائل الدفاع ، فعملوا للتحقيق عملا كافيا لايصال ماء البحر اليه (١٣٨) . وفى عام ١٣١٥ اندلع فى المدينة حريق أزال مملعها تماما . وفى السنة الثانية أعاد اليودستات مونتانو دى ماريني Montano dei Marini بناء قصر البلدية ، وفور عامة أخرى ، كما شيد فى عهد سور المدينة من المناخل (١٣٩) .

والى جانب البناء المادى للمدينة ، كان لا بد من تأسيس المستوطنة على قواعد متينة ، ومن أجل هذا ألفت إدارة مدنية ، وإدارة قضائية ، وظلست الشئون العامة . نجد برحاما على ذلك فى مجموعة من الوثائق التفرعية التى وقعت فى أيدينا . والمجموعة المرفوعة باسم *Magnum volumen Peyre* ليست الا ملخصا للقانون العربى الجنوى الذى فرضه بأكمله على المستوطنة ، مع أمر صادر لوظفئ المستوطنة بتطبيقه ، وهو عبارة عن مجموعة قوانين جنائية ومدنية وتجارية ، وأجراءات جنائية (١٤٠) ، ويتكون من « تعليمات رسمية » *breve* موجهة الى المحاكم القضاية ، ولوائح ولعنها رؤساء الشعب، *Capitani del popolo* (١٤١) .

(١٣٥) مناقشات بين ايدرونيك وجنوا فى ٢٢ مارس ١٣٠٨ :

Atti, I, c., p. 113, 114.

Santi, II, 294 ; *Atti*, loc. p. 118.

(١٣٦)

(١٣٧) امتداد ملحق بالامبراطور فى شهر مارس ١٣٠٤ :

Santi, II, 211 et s. ; *Lib. jur.*, II, 441 et s. ; *Atti*, I, c., p. 109.

Pachym., II, 486.

(١٣٨)

Jaacq. de Verag., *Chron. cons.*, *Atti della Soc. L'g.*, X, 500 ; *XIII*, 531.

(١٣٩)

M. Paredanus . *Coll. des lois marit.*, VI, 582 et ss.

(١٤٠)

Statut della colonia genovese di Pera editi da Vinc. Promis, (١٤١) dans les *Miscell. di storia italiana*, XI (1876), 512 et ss.

وبعض التراسيم ، وكلها مؤرخة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١٤٢) .
 يضاف إلى هذه المجموعة من جهة مجموعة من القرارات في موضوعات
 متنوعة ، أصدرها في ٢٠ من ديسمبر ١٣٠٠ جافينو تارتارو Gavino
 Tartaro ممثل الجالية البصوية في الأبراطورية البيرنطية والبلاد
 المطلة على البحر الأسود للمستوطنات التابعة له ، وذلك حسب العرف
 الذي يتبعه سبائر البودستات ، ومن جهة أخرى القوانين التنظيمية
 الأساسية التي تسري على كل المستوطنات والتي شرعت بجنوا في ١٦ من
 مارس ١٣٠٤ . كل هذه النواحي والقرارات التي ألحق بها مشروع من رئيس
 إساقفة جنوا ، ومرسوم خاص بمسائل القانون الجنائي ، أصدره في ١٨
 من يولية ١٣٠٤ روسو دوريا Rosso Doria بودستات بيلا Pera
 أصبحت بصفة الإدارة التابعة لدورجا هذا في المجلد السادس والأخير لهذه
 المجموعة القانونية (١٤٣) .

وفي حوزتنا أيضا قانون بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ (١٤٤) صادر
 من الحكومة البصوية Consilium Gubernatorum ، ويسرى بنوع
 خاص على بودستات بيلا والمستوطنين مرؤوسيه ، ويستحاول اعتمادا على
 هذا القانون ، وعلى بضع وثائق أخرى أن نوضح صورة للحياة الناضجة
 في مستوطنة فابطة .

البودستات يتسلم امر تعيينه في جنوة ، ولا تنحصر سلطته في
 دائرة بيلا الفبيقة بل تمتد لتشمل كل المواطنين الجنوبيين المقيمين في
 الاقليم اليوناني بصفة دائمة أو مؤقتة . أما القناصل الجنوبيون وسائر
 الوكلاء الموزعين في الأبراطورية فانهم مرؤوسون له . وكان الأمر كذلك
 في القرن الرابع عشر بالنسبة إلى القناصل الموزعين على طول البحر الأسود
 (فيما هذا قنصل كالة وحده) ، وفي آسيا الصغرى التركية حتى سيفاس
 Sivas (١٤٥) . ولهذا السبب نرى لقب Poteatz (vicarius) januensie

(١٤٢) أحدث تاريخ هو عام ١٢٩٠ .

(١٤٣) مرسوم ١٢ مايو ١٣١٦ بخصوص السالرين آل كاك (ص ٣٦١) يبدو أنه
 أصيغ ليلا بعد : وهو نسخة طبق الأصل من بداية مرسوم ١٣١٦ في مارس ١٣١٦ .
 (OH, Gaz., p. 277 et s.) :

Basil, IL 222-230 . Atti della Soc. Lóg., XIX, 118-128. (١٤٤)

Statuti di Pera, I, c. p. 781 et s. (١٤٥)

لاحظ أن Savasio ليست هي Sebastopol . أما ١٣١٦ فيها لم تصبح
 إلا ليلا بعد العاصمة الإدارية لكل منطقة البحر الأسود .

vicariud pro communis anno : أو ذات مرة : in imperio Romania
 • (١٤٦) in toto imperio Romania et mari majori.

وكان يستطلع إلى حد ما بمنصب الوزير القيم لوقتئذ لدى
 الامبراطورية ، الأمر الذي لم يكن يمنع حكومته من أن يمثلها سفراء
 مؤقتون في الأحوال الخطيرة • وبعد تعيين البودستات ينقسم اليمين بين
 لدى الامبراطور • ولما كان ممثلا للدولة القوية الأكثر رعاية ، فإنه كان
 يظهر كثيرا في البلاط ، ويحضر بانتظام مع مستشاريه عائلة الامبراطور
 أيام الاحاد ، والاعياد الدينية ، والاحتفالات وحسب قواعد ترتيب الأممية ،
 يتخذ مكانه في هذه المناسبات بعد الاميرال الأعظم (١٤٧) • ولم تكن
 شخصية موثقة له هذه الأممية بسهولة في نظر الامبراطور • والواقع
 أن مبالغة في التحير لمواظبه ، أو قلة شمله يمكن أن يؤدي أي مبالغة
 إلى عدم مراعاة الالتزامات التي تعهد بها اجنوبيون حيال الامبراطور • وفي
 كثير من الأحوال ، حين لا يتيسر للبودستات الوقت الكافي ليطلب تعليمات
 من جنوا • فإن عليه أن يتخذ قرارا من تلقاء نفسه • وفي وسعه أن يؤدي
 للامبراطور خدمات جليلة ، مسترشدا بروح المصالحة ، كما قد يسبب
 الكثير من الأذى إذا كان فظا ، غشوقا في الطبع • لذلك وضع ميخائيل
 بازيولوجوس في معاهدة عام ١٢٧٥ شرطا يلزم بأن الشخص الذي يكلف
 بهذه الوظيفة يجب عليه أن يمدى اهتماما بمصالح الامبراطور بقدر اهتمامه
 بمصالح العائلة الجسوية (١٤٨) • وفي بعض الأحيان يرفض الامبراطور
 أن يصدق على تعيين مرشح لهذا المنصب بسبب خلاف شخصي معه (١٤٩) •
 ويجمع البودستات بين يدية أعلى سلطة إدارية وقضائية • وكان له
 في ممارسة وظائفه أن يطبق قواعد القانون المدني والجنائي الساري في
 جنوا ، واللوائح الصادرة للمستوطنة في وطنه الأصل (١٥٠) ، والمعاهدات
 القائمة بين جنوا وبيزنطة • ويساعده في إدارة المستوطنة : مجلس كبير •

Off. Gen., p. 383-379 ; Lib. Jur., II, 440 ; Sauli, II 340 ; Annal. (١٤٦)
 Jan. p. 376 ; Atti della Soc. XCVI, 101, 102, 126, 128 etc., 936, 948, Statut
 di Pera I, c. p. 766, 763 ; Commem. Reg. II, 84, no. 638.

Codin Carapalut, p. 85 et ss., 63, 76-78, Cf. Cantacuz., I, 61, (١١٧)
 Pechym., II, 329.

Sauli, II, 308.

(١٢٨)

(١٤٦) في عام ١٢٠٨ عين برنابو سبيولا الثاني مرة لمنصب بودستات في • وكان
 قد شغل هذا المنصب قبلا في عام ١٢٠٠ ، ورفض الدوريتك التصديق على تعيينه لوجود
 خلافات بينه وبين أحد الشخص • ومع ذلك تمسك برؤساء Capitani جنوا بتعيينه • انظر :
 Atti, I, c. p. 103, 113, 118.

Capitula communis Peyre : Atti, I, c., p. 177.

(١٥٠)

و « مجلس صغير » ، يتشكل أولها من أربعة وعشرين عضوا (١٥١) ،
 وثانيهما من ستة أعضاء يختار نصفهم من النبلاء والنصف الآخر من عامة
 الشعب (١٥٢) . ولم يكن هذا النظام الديمقراطي قديما في أصله ، فقد
 أنشئه ثمة ليول البودستات القوية للنظام الأرستقراطي . وبالطبع كان
 للتغيرات المدنية التي طرأت على دستور الوطن الأمس ردود فعل في
 المستوطنة . فمسلم عام ١٢٧٠ نجده في جنوا من يطلق عليه لقب
 Abbate del popolo وهو موظف له اختصاصات مماثلة لاختصاصات
 قضاة الشعب tribun في روما ، وتنبع سلطته تطورات سلطة الحزب
 الديمقراطي (١٥٣) . واندخلت هذه الوظيفة أيضا في بيرة عام ١٣٠٦ ، كما
 ينبغي أن الكاتب اليوناني باشيبيروس الذي تكشف لنا أخباره عن علم
 صحيح بهذه الأنسباء (١٥٤) ، وبقيت هذه الوظيفة حتى أواسط القرن
 الخامس عشر (١٥٥) . وكان البودستات يمارس مهام وظيفته القضائية
 بنفسه أو بواسطة نائب عنه Vicarius curiae potestatis في دار المدينة .
 وكان كل الجنويين في بيرة والقسطنطينية ، حتى من صار منهم أباء
 الطاميين للإمبراطور (١٥٦) خاضعين للقضاء هذه المحكمة . ولا يجوز
 استدعاء أي جنوي أمام المحاكم اليونانية إلا في حالات : أما بصلته متوما
 بأحداث أصابت لأحد رعايا الإمبراطور ، إذا رفض البودستات محاكمته ،
 وإنما كمدح ضد أحد رعايا الإمبراطور في قضية مدنية . وفي هذه الحالة
 يطلق شكوى الجنويين موظفان روميان ، ولكن في استعانة البودستات
 دائما استئناف الحكم إلى الإمبراطور ، إذا تبين له أنه مشوب بالتعصب ،
 أو لا يستند إلى أساس صحيح بسبب ضعف معرفة اللغة الإيطالية (١٥٧) .
 وأتبع البودستات النظام نفسه ، وهذه هي حكمين (mediatores)
 بالفصل في القضايا التي يكون فيها المدعي يوناني الجنسبة والمدعى عليه
 جنوي الجنسية . غير أن الإمبراطور أندرونيك احتج على هذا الانتهاك ،
 ويأمر من الحكومة الجنوية ، عاد البودستات إلى العرف القديم الذي يقضي

Statut de 1317; Sauli, II, 228; Atti, I, c. p. 118 et s. (١٥١)

Ibid et Lib. jur., II, 441; Not et extr., XI, 65 et s. 70. (١٥٢)

Censale, III, 181 et s. (١٥٣)

Pachym., II, 634. (١٥٤)

« Abbas Peyres » (1808), Atti, I, c. p. 118 et s.; Lib. jur., II, 441;
 Commem. reg., II, 94 no 534. « Abbate di Pera (1427) » : Oliveri,
 Carte e cronache manoscritte, p. 122. (١٥٥)

Lib. jur., I, 1251; II 443; Atti, I, c. p. 108. (١٥٦)

Sauli, II, 205 et s., 227 et s.; Atti della soc. Lig. XIX, 121. (١٥٧)

بأن يصدر هو الأحكام بنفسه (١٥٨) •

ولما كانت التجارة تلعب الدور الأول في حياة المستوطنين الجنوبيين ، كان مبني الشئون الادارية والقضائية التابعة للبلديات متعلقة بالتجارة ، لذلك كان يتبعه ليحاوونه في هذه المهمة مكتب تحاري (officium mercancia) (١٥٩) • وكان عنده مهام كثيرة : فكان لا بد أولا أن يحترم مواعيد الجمارك اليونانيون الاعلاء المطلق المكفول كتابة لمصالح الجنوبيين (١٦٠) ، عند كل من التصدير والاستيراد ، وكذا عند البيع والشراء (١٦١) ، ومن جهة أخرى كان لا بد أن يراعى الجزيون القيود التي فرضها الإمبراطرة بخصوص بعض المواد تبعا للمتطلبات سياساتهم التجارية • مثال ذلك كان تصدير الذهب والفضة محظورا الا بترخيص صريح من الإمبراطور (١٦٢) ، وكان ممنوعا على الجنوبيين الاتجار في الملح والصنع (المستكة) في كل أنحاء الإمبراطورية (١٦٣) • وفي عام ١٢٧٥ كان تصدير القمح ولم يزل مصرحا به بشرط الا يصدر الى أعداء الإمبراطورية ، ولكن في عام ١٣٠٤ أصبح منع تصديره عاما (١٦٤) • ولعلنا نجد هذه القيود سبيلة من وجهة نظر الاقتصاد السياسي ، وعلى أية حال فانها تضاعف التجار الإيطاليين كثيرا • ولكن لا يمكن من الناحية القانونية الاعتراض على أن يتخذ الإمبراطرة اجراءاتهم الكلية بمنع القمح والاحتيايل ، فقد اعتمد الأجانب ذلك • مثال ذلك أن بعض الموظفين الجنوبيين في المستوطنات كانوا يملكون التجار الأجانب شهادات بالجنسية الجنوبية لتتيح لهم التهرب من الجمارك الرومية • وأخضع الإمبراطور بطبيعة الحال اقرارات الجنسية لرقابة صارمة • ولم يكن بوضع الحكومة الجنوبية أن تفعل شيئا اذا هذا سوى أن تصدر تعليماتها لموظفيها بأن يمتنعوا عن

Att, I, p. 112, 114.

(١٥٨)

Off. Gen., p. 320-321, 387, 344, 351 et 419.

(١٥٩)

Att, I, c. p. 107.

(١٦٠)

(١٦١) ومع ذلك لم تكن الحكومة الجنوبية تسمى أي اعتراض في الحالة التي تطلب فيها الجمارك اليونانية من التجار جنوى دفع رسوم لأنه حصل على مرور مديني أو منسوب أو سالكين بالأقليم البيزنطي لتصديرها الى الاسكندرية ، فقد كانت هذه الاموال التجارية مسجلة بحافظة لمراسيمها • انظر ١

Att, I, c., p. 111.

Ldb fur. I, 1365 et s. , Att, XIII 109.

(١٦٢)

Att, XIII 107.

(١٦٣)

• لم يكن مصرحا للسلطات الجنوبية الا بالمرور بملح البحر الاسود • انرجع السابق • ١٢٠

Sauv, II, 207; Att XIII, 109.

(١٦٤)

مثل هذه الممارسات (١٦٥) . وثمة حالة أكثر تواترا ، تشمل في أن يقر التجار الجنويون بأن الضائع الأجنبية تخصهم بالملكية ، أو أنها واردة بعامة من جنوا ، حتى تمر مغلقة من الرسوم ، وتقتضى تعليمات يودستات بيرا بمراقبة من يشتت ضيائهم عند يدفع غرامة تتساوى ضعف المبلغ المحرّب من الجمارك (١٦٦) . وتلقى أصحاب السفن التجارية ووكلائها الأمر بأن يسلموا مندوبي الإمبراطورية أقرارا صحيحا بكل البضائع غير الجنوبية الموجودة في سفنهم . وفي كل مرة تجري عمليات بيع أو شراء بين تجار جنوين وتجار غير جنوين ، يجب على مندوبي مكتب بيرا العام لسوازين أن يقدم عنها القرار المكتفى للجمارك اليونانية (١٦٧) .

ومن الوجهة الدينية كان الجنويون يتمتعون في غلطة بحرية مطلقة ، فكان لهم الحق في بناء كنائس خاصة بهم ، يقيم بها قساوستهم القديس تيمّا للشمائل الرومانية . ولم يستثن الإمبراطور من ذلك سوى ثلاث كنائس يونانية في الأرض التي ملحقها إياهم أثناء توسيع المدينة . وكان المفروض أن تبقى هذه الكنائس مخصصة للخدمة اليونانية تحت سيطرة بطاركة القسطنطينية (١٦٨) . وكانت مدينة غلطة تتبع دائرة أشخاص كبير أساقفة جنوا ، وكانت كاتدرائيتها التي خدمت في عام ١٢٩٦ ، ثم أعيد بناؤها للفقور مكرسة للقديس ميخائيل S. Michel شليح بيرا (١٦٩) . كذلك كان رئيس الكاتدرائية يؤدي وظيفة النائب العام لكبير أساقفة جنوا (١٧٠) وكانت غلطة تضم العديد من البحيرة الخاصة برجاء يتمتعون إلى طوائف دينية غريبة (١٧١) . وقد نال بعض رجال الدين التابعين لهذه النور شهرة عظيمة لدى الروم لعلمهم ، وتسليمهم

Ath., XIII, 111, 119 et s., 116 et s. (١٦٥)

Lib. jur., I, 1838; Sauli, 206, 238 et s.; Ath. XIII, 111 et s. (١٦٦)
114, 118 et ss.

Ath., XIII, 106, 119, et s. (١٦٧)

Lib. jur., II, 442, Ath., 108; cf. Paspati, p. 271. (١٦٨)

Stella, p. 1118; Ath. della Soc. lig., XIII, 153, 166, 187-174, etc. 948, 951, 972. (١٦٩)

Lib. jur., II 439, 446 ; Belgrano, Illustrazione del registro arciepiscopale, Ath., II, 374 et ss. (١٧٠)

Pachym., II, 416; Lib-jur., II, 497; Ath. della Soc. lig. XIII (١٧١)
183 ; Coll. des doc. inéd., Mém. hist., III, 282; Ath. della Soc.
lig. XIII, 934 et ss. ; Ibid., p. 933, 948, 970.

في الفلسفة البيزنطية القديمة ، (فلسفة أرسطو) ، وكلف للعديد منهم
 بمهمات . أما للمستوطنة ، أو حتى للإمبراطور ، وبخاصة حين جرت
 معارضات بين روما وبيزنطة بقصد اتحاد الكنيستين (١٧٢) . ويبدو أن
 كنائس الأديرة الرئيسية هي كنيسة القديس بطرس ، وكنيسة القديس
 فرانسوا (حاليا Jean Drouot - بالتركية : الجامع الجديد -) (١٧٣) ،
 ويحكى الرحالة كلافيجو Clavijo أن بها ذخائر نسيئة ، وأنه شاهده بها
 مقابر حية (١٧٤) . وأخيرا ، كان من بين سكان بيلا عند من المسيحيين
 الشرقيين التابعين للكنيسة الأرمنية (١٧٥) .

وبخلاف شظية ، وعنه ميخائيل باليولوجوس الجنويين أن ينسجم
 محفلات تجارية أخرى ، ولما كانت مصادر صاعته من هذه الناحية ، لما
 نجدهم مدى ما تحلقه من هذه الوعود . وعلى أية حال فإن أندرونيك أوفى
 بنفسه بأحد هذه الوعود . ففي عام ١٣٠٤ ولفق من جديده لمصالح
 جمهورية جنوا على التنازل لها عن حق في مدينة مسيرن ، به دار عامة .
 وحمام ، وفرن ، وكنيسة ، الخ (١٧٦) . ويحكى أن نذكر ما سبق أن
 قلناه بشأن تقدم الأتراك بأسيا الصغرى ، قلنا ميخائيل ، لتذكرك مدى
 ما كان لهذه الحيازة من طابع وقتي . ويكتفي أن نذكر جزيرة كارياطوس
 Karpathos (Sarpanto) التي منحها الإمبراطور أندرونيك الثاني الطاعية
 للجنود اندرياموريسكو Andrea Moresco مكافأة له على خدماته الجليلة
 وهو قرصان ثم أميدال . على أن موريسكو لم يتمتع طويلا بهذه الاعطائية ،
 فقد طرده من الجزيرة اندريا كورندرو Andrea Camaro في مستهل القرن
 الرابع عشر ، ولما أراد أخوه لودوفيكو Lodovico أن يستردّها ، كفر
 عن محاولته هذه بأن أمضى زمنا طويلا في سجون كريت (١٧٧) . وكانت
 أسرة نكاريا أسعد حظا ، إذ بقيت عدة أجيال مالكة للوفاة (١٧٨) ومناجم
 النصب الثمينة فيها ، وبلغت درجة كبيرة من الثراء . وفي الوسخ أن تكون
 فكرة من إيرادات هذه المناجم ، والسرعة التي نهضت بها لوفاية عام
 ١٢٩٦ من الخراب الذي حل بها ، وذلك بفضل روجيرو موروسيني ،

Cantacuz., II, 302 et ss. ; III, 62, (١٧٢)

Paspati, dans la Revue du Syllagos de Constantinople, (١٧٢)
 VII 116 , Hammer Constantinople, II, 111,

Clavijo, p. 71 et s. (١٧٣)

Ath della Soc. Lig., XIII, 206 et s. (١٧٤)

Att., XIII, 106. (١٧٦)

Hesp., Vennio-byzantinische Analecten, Op. cit., p. 479 et ss. (١٧٧)
 480 , cf. Commem., reg., I, 309, 225 et s.; Archiv Venn., XX, 294,

Fénel, polit. Cpol., éd. Bonn., p. 28. (١٧٨)

حيث نعلم أنه في عام ١٢٩٨ باع بنديغو زكاريا ٦٥٠ قنطاراً من الشب بسعر ١٥٠٠٠٠٠ جنيه (١٧٩٠). على أنه كان هناك في الموضوع نقطة سوداء. تلك هي الأفلاك الذين كانوا يتقدمون دون هوانة ، وبعت آسيا الصغرى أنها قضى عليها بأن تكون غسحتهم . وكان لابد من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوثيق غاراتهم . ويحكي المؤرخ دوкас الذي كتب بعد مائة وثمانين عاماً من الأحداث التي نرويها ، وأجرى مع ذلك بصعته مالكا لمزل في فوكاية الجديدة أبعثا كثيرة في تاريخ هذه المدينة ، يحكي أن المشروع الأول انصر على بناء قلعة صغيرة تكفي لايواء مالك المناجم وعماله الخمسين . ولكن ما أن بدأت أعمال البناء حتى أقبل يونانيو مقاطعة مينومينوس Minomeneos ، ومايزيا Magdalo ، ونيفيسوم Nymphaeum الذين نواشهم الأفلاك ، وتجمعوا حول اللاتينيين ، ووضعا قواتهم تحت تصرفهم . ومن ثم تمت بصورة غير متوقعة ، وبدلاً من القلعة البسيطة ، نشأت بلدة واسعة تكفي لسكنى اليونانيين واللاتينيين تحت حماية القلعة (١٨٠) .

ويبدو أن هذا التغيير في الأوضاع الأولية قد طرأ في عام ١٣٠٠ لأن مونتار Muntanor (الطالوني الذي اشترك عام ١٣٠٧ في حملة ضد فوليا Puylla (Foglia) يقول أنه كان يوجد قلعة ومدينة بها أكثر من ٣٠٠ ساكن يوناني يستغلون في تحضير الشب (١٨١) . وفي رأيه أن مؤسس المدينة الجديدة جيورياس من أسرة كاتانيو Cattaneo أندريا ، وجاكيو . والواقع أن بنديغو زكاريا انتدب قبل وفاته بنفس سبن ابن أخيه (أو ابن أخته ؟ - المترجم) تديزير Tedislo ، ومايزيا فوكاية ، وبعد وفاته (١٣٠٧) عهد ابنه ووريثه باليولوجوس (المسعى أيضا بنديغو الثاني) بسلطانه في فوكاية إلى مثل جديده . اندريولو كاتانيو Andreolo Cattaneo . وتولى باليولوجوس عام ١٣١٤ ، وبموته انقضت سلالة بنديغو زكاريا . عندئذ انتقلت فوكاية إلى بيت جنوى آخر ، بيت آل كاتانيو ديلا فوليا Cattaneo della Volta من أقرابه آل زكاريا : وكان المالك الأول ، هو الممثل السابق لآل زكاريا ، اندريولو (١٣١٤ - ١٣٣١) الذي نقل الملكية إلى ابنه دومينيكو Domenico (١٣٣١ - ١٣٣٦) . وبالعودة إلى حكاية دوкас ، يتبين

Hopf, art. Giustiniani, dans Hirsch et Gruber, 1e ser., (١٧٩) LXVIII, 320.

Duc, p. 163, (١٨٠)

Trod, LXXX, II, 172, (١٨١)

لنا أنها مطابقة للتاريخ الحقيقي من حيث أن ثمة أندونيا (اندريولو)
تولى إدارة مستوطنة فوكاية سبعة طويفة ، ولكن ليس في القصة أية إشارة
الى جاكوبو . وبخصوص توسيع فوكاية والتحصينات التي أجريت بها ،
مما ذكره هذا المؤرخ ، إذا كانت قد تمت في عهد اندريولو ، فإنها لا يمكن
أن تكون قد تمت الا في السنة الأولى (١٣٠٦) ، لأن موتشار وجد المدينة
قد تفتت في عام ١٣٠٧ . وعلى أية حال فإن سبب تركز السكان
المسيحيين في هذا الموقع كان بالتأكيد تقدم الأتراك المستمر . على أن
فوكاية لم تكن مهددة من جهة البر فقط ، فالقراصصة الأتراك كانوا
يجوبون البحار على الدوام . وسواء أصبح الأتراك سادة على جزر الأرخبيل،
أو سيطروا فقط على الجمر المجاورة لآسيا الصغرى ، مثل خيوس ، فإن
فوكاية وجنت نفسها منقطعة عن العالم الغربي ، وأصبح من المستحيل أن
ترسل منها سلع مضمونة بالنسب ، ولم يعد في مقوم التجار الذين اعتادوا
القدوم إليها لشراء النسب أن يصلوا إليها دون أن يتعرضوا لأكبر المخاطر .
والح بندقو زكاريا بعدة على الأباطور أن يتخذ الاجراءات الكفيلة بحماية
فوكاية ، اللهم الا اذا فضل أن يترك له القيام بهذه المهمة . ولا تأخر
الرد ، يادر بندقو بنفسه ، دون انتظار ، وبدأ بوضع يده على جزيرة
خيوس (١٣٠٤) . ولما لم يكن في مقدور اندرونيك أن يطرده عنها ،
عهد اليه بحكمها لعشر سنوات ، دون أن يدفع جزية عنها واقترح بندقو
أن يستخدم إيرادات الجزيرة في أعمال الدفاع (١٨٢) . وبعد انطلقت
الجزيرة الى ورثته وخلفائهم ، ومع كل تغيير ، كان كل حاكم جديد يطلب
من الأباطور أن يقلده منصبه . واستمر علم الأباطور يرفرف دوما
على أسوار العاصمة . ولكنهم كانوا في الواقع يتصرفون تصرف الأمراء
المستقلين . وتميز أحدهم ، مارتيو زكاريا (١٣١٤ - ١٣٢٩) ، بنوع
خاص في كفاحه ضد الأتراك ، تميز بشجاعته ولجأه ، واكتسب لنفسه
مركزا كبيرا بالحماية التي أحاط بها المسافرين الغربيين ، حتى أن فيليب
المطالب الثلاثيني بعرض القسطنطينية منحه لقب « ملك آسيا الصغرى
وطانيها » ، كما منحه البابا يوحنا الثاني والعشرين ، بالمخالفة للحظر
المعام المرفوض على الاتجار مع مصر ، تصريحاً بتصدير المسكة الى
الاسكتندرية اعتراضا بالخدمات التي أداها للمسيحيين ، وكذا لما وجبه من
أموال كثيرة (١٨٣) . وهكذا فإن خيوس التي لم يكن مصرح لها بمقتضى

Pachyo, II, 258 ; Cantacus, I, 270.

(١٨١)

Jord, Catal., p. 68 , Guill. Adon : De modo extirpandi Sara- (١٨٢)
cinos (encore inédit ; cf. Giorn. linguist., 1878, p. 274) ; Minieri Riccio,
Saggio di cod. dipl. Napol., Suppl., 2e part. (1882) ; p. 75 et s. ; Archiv

معاملة نيفيومي بأن تتلقى أكثر من محلة جنوية واحدة ، صارت كلها تحت سلطة الجويين ، واستقلت أسرة ركاريا مناجم النصب في فوكاية ، والمستكة في خيوس ، واحتكرت تجارة جنوا بيع هذين المحصولين ، وهنا نشأ وأندم محاصيل هذه المناطق .

ولنتقل الآن إلى البنادقة . ففي القسطنطينية ، مركز الحياة التجارية ، بقي البنادقة في الدور الثاني الذي جعلتهم فيه الأحداث . ولم يعد رئيس الجالية يحصل القرب السامي ، اليهوديتمت ، فهذه الصفات أصبحت من ذلك الحين قاصرة على رئيس الجالية الجنوية . وفي عهد أسرة باليولوجوس لم يكن للبنداقية في القسطنطينية سوى « بابل » واحد (١٨٤) . وكان الفرق في القرب يجعل البابل في مرتبة أدنى من مرتبة اليهوديتمت . ففي البلاط مثلاً لم يكن البابل من الشخصيات التي تدعى إلى مأددة الإمبراطور في الأعياد الدينية الكبيرة (١٨٥) ، ومنهم اليهوديتمت ، ولكنه كان مثل اليهوديتمت يذهب كل يوم أحد ليقدم للإمبراطور فروش الاحترام (١٨٦) ، ويحضر أعياد البلاط ، ولكن لا يشغل ثمة المراتب الأولى . وكان أهم واجباته تبشيل مصالح وطنه ومواطنيه المنتشرين في جميع أنحاء الإمبراطورية . ولم تكن ثمة وسيلة لا يستخدمها الروم ، لشعورهم البدائي حيال البنادقة ، كعقوبة المعاهدات ، والتحليل عليها ، وكانوا يمتدنون على البنادقة وعلى حقوقهم وأموالهم ، بحيث ينشغل وقت البابل في مطالبات بالتعويض واحتياجات . وكان من اختصاصه الفصل في اعتراضات البنادقة على الروم ، والمساومات بين البنادقة ، والشكاوى التي يرفعها أشخاص من أمم لاطينية أخرى ضد أعضاء الجالية القبطية (١٨٧) . ولهذا الغرض كان يعقد ثلاث جلسات في الأسبوع ، أما في محكمته ، أو في المستودع ، أو تحت دوائ كنيسة سانت ماريا . وكانت العقوبات التي يوقعها في أغلب الأحيان غرامات ، تضاعف إليها

« De l'or, let. I, 272 M, Hec. : Guelfiniani genoi, dans Bruch et Gruber, Op. cit. ; Wolff (Göten, August, VII, VIII, IX, 1881-83) , Promis, La mecca di Belo durante il dominio dei Genovesi (Mem. dell' Accad. di Torino 2a serie XXXIII 1886).

« Actorem qui vocatur Bajulus » Taf. et Thom., III, 83, « Be- (184) Julius seu rector, » Ibid. 87 et s. Cf. aussi, Ibid., p. 129, 227; Niehoff, Brég. I, 87.

Codex Europ. 88 et ss., 74-76.

(185)

Conisus, I, 81.

(186)

(187) أحكام القضاء موجودة في :

Le Capitulaire bajuli Constantinopolitani,
Filiasi (Memorie dei Veneti primi e secondi, VI, 2, p. 191 et s.)

لتعليق الخزانة العامة للجالية حصيلة مختلف الضرائب والإجراءات ، بحيث إن الخزانة كانت بصامة مملوءة بدرجة كافية لصرف مرتبات موظفي المستوطنة وسائر النفقات العامة . وكانت هذه الخزانة تتلقى أيضا للودائع النقدية ، والضمانات ، وكان البايبل مدير الخزانة ، والمطلوب منه أن يقدم عنها حسابات دقيقة . ويلحق بالبايبل أئتمان من المستشارين (consilarii) ، مهتهم ضمان سلامة تصرفاته الإدارية ، وإجراء وقاية مستمرة . وكان مرصدا لهم ، خارج وظيفتهم الاشتغال بالأسئلة التجارية، وهو أمر محظور على البايبل ، لذلك فكتيرا ما كانوا يستغلون هذا الترخيص للاعتذار عن حضور الجلسات والاشتراك في الأعمال الرسمية . وفي حالة حدوث خلاف بين هذه الشخصيات الثلاثة ، يتولى مجلس الاثني عشر (consilium majus) الفصل بالاستئناف في المسائل المتنازع عليها ، ويتخبط هذا المجلس كل عام من بين أعضاء الجالية (١٨٨) .

وفيما يخص بسسكن البنادقة بالسفولطينية ، كان المبدأ الذي وضعته معاهدة عام ١٢٧٧ وأيدته معاهدة عام ١٢٨٥ (١٨٩) ساري المفعول : فكان الإمبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا في حالة جيدة للبايبل ، ومنزلا آخر لمستشاريه ، وثالثا لتخزين الأشياء التابعة للجالية ، بالإضافة إلى خمسة وعشرين مسكنا أو أكثر حسب الحاجة (١٩٠) للتجار . هذه المفعول فكان الإمبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا في حالة جيدة للبايبل ، على ضفة القرن الذهبي ، بين باب

La Porta (Paramos

Belik Bazar-Kapoussal)

(حاليا باب سوق السمك -

وبين باب la Porta Drusgaril وهو حاليا وفي الفسالب باب رندون Zindan - Kapoussal أي في موقع الحي البندقي القديم ، والراجع أن هذه المنازل لم تكن تشكل مجموعة مندمجة كما كانت في الأزمنة القديمة ، والنايت أن البنادقة لم يجد لديهم مكان مطلق يستطيعون بدخله أن يضموا أشخاصهم وأموالهم في مأمن من اللصوصية والخراب (١٩١) . وكان لهم الحق من هذه الناحية أن ينظروا بعين الحسد إلى وضع ضيقة على الضفة الأخرى .

(١٨٨) المصادر التي استقيت منها هذه المعلومات هي أساسا :

Les rapports rédigés par le baile Marco Minotto, en 1317 (?) et 1320, et la Commission d'Andrés Cradenigo, 1374, Taf et Thom, IV, 108 et ss., 104 et ss ; G. Diehl, dans les Mélanges d'archéologie et d'hist publ. par l'école française de Rome, 3e année, mars 1893, p. 123-131

Taf, et Thom., III, 139, 226 et s. ; Commemor., regest., I, 248. (١٨٩)

Diehl, Œ. p. 96, 103. (١٩٠)

Diehl, et Thom., IV, 187. (١٩١)

وكانت كنيستا القديسة مريم St. Maria والقديس مرقس S. Marc اللتان تتبعانهم منذ نشأة المستوطنة وأعادتهما إليهم المباحثات (١٩٢) مصدورتهم بين السكان ورعايتهما موكولة إلى الإمبراطور . ولم يكن المستوطنون ملزمين بشغل السكان التي يخصصها لهم الإمبراطور بالمجان ، أو أن يتعزلوا داخل حي واحد ، فكانت لهم الحرية في استئجار منازل على نفقتهم في أماكن أخرى بالمدينة . وكانت هذه هي القاعدة أيضا في تسالونيكا ، فقط ، وبالنظر إلى أن هذه المدينة أصغر حجما ، فإن عدد المساكن التي يخصصها الإمبراطور للتجار البنادقة قد هبط من خمسة وعشرين إلى خمسة عشر مسكنا على الأقل . ونعرف أن الأباطرة من آل باليولوجوس كانوا مقترعين في هباتهم للبنادقة ، لذلك فلا داعي حتى نعلم أن البيوت التي يخصصونها لسكانهم كانت صغيرة فلا يستطيع الذين تخصص لهم هذه البيوت أن يسكنوها ، ويضمحلون أن يهاجروها من الباطن إلى تجار السبك أو غيرهم من صغار التجار (١٩٣) . وكانت عاملان المدينتان هما الوحيدتان اللتان كان للتجار البنادقة الحق في أن يحصلوا فيها على مساكن بالمجان ، ولكن كان في وسعهم أن يملكون في أية جهة أخرى على نفقتهم . نجد مثالا لذلك في مدينة إندرس Oudon عند مصب نهر ماريتا Mariza ، وفي جزر أخرى من الإمبراطورية (١٩٤) .

ولسوء الحظ ، فإنه بالرغم من الضمانات التي توفرها المباحثات لكل من البنادقة والمجنون ، كان أمن الأشخاص والأموال غير مكفول كما ينبغي . ويبدو أن الأحمالي اليونانيين كانوا يحصلون دائما في صدورهم ذكرى القصة للزمن الذي كانوا يقاسون فيه من اضطهاد اللاتين لهم ، وكانوا يملكون المحاولات المتكررة التي كان البنادقة يقومون بها لاستعادة السيطرة اللاتينية على القسطنطينية . لذلك لم يكن يمر يوم دون أن يمتدحى على أحد البنادقة أو يسلب ماله ، فإذا رفع شكواه إلى المحاكم وجد القضاة أو بعض الحاضرين الذين لا شأن لهم بقضيته يصرخون في وجهه ، فلا يستطيع حتى أن يسمع صوته . وكانت المباحثات تمنح للبنادقة الحق في أن يملأوا مجموعها من خزانة الدولة عما يصيب أملاكهم من تلف طحل اثرهايا اليونانيين (١٩٥) ، ولكنهم حين يذهبون إلى القسطنطينية للتعاطية

Taf. et Thom., III, 140, 127, IV, 180.

(١٩٢)

(١٩٣) شكوى حرمها ماركو سلسي Marco Celai فصل تسالونيكا : ربيع Taf. et Thom., IV, 134 ; les Commens regest., I, 230, no 181.

Taf. et Thom., IV., 184, 189.

(١٩٤)

(١٩٥) سامعة ١٣٠٣ في .

Traité de 1305. Taf. et Thom., IV, 16 et ss.

بذلك ، يحاولون لتطبيقه على أموال من تسبب في الاضرار بأموالهم ، وهذا لا يملك شيئا في الغالب ، ومن ثم يضطرون للسفر ثانية إلى القسطنطينية ليحصلوا على عودهم ، وهناك يلقون تباطؤا وتسويفا ، وأخيرا ، بعد أن يكونوا قد حلوا في الانتظار ، يقبلون تخفيضا في ديورهم ، وعند السداد يقطع موظف الخزانة أيضا جزءا من الدين . كانت حرية التجارة ، والاعفاء من الضرائب بالنسبة إليهم مجرد كلمات تقال ، يعترض تحقيقها كل أنواع العوائق . وكانت السلع الوحيدة التي يحظر عليهم فيها في اقليم الامبراطورية حسب المعاهدات هي الملح والمنسكة (١٩٦) ، وكان يوسمهم تصدير الفصح بشرط ألا يكون ثمة غلة ، والا يزيد السعر على عدد معين (١٩٧) ، ولكنهم كانوا يستوردون الفصح أيضا من أقاليم البحر الأسود ، وبلفاريا بنوع خاص . ولقد عالجت المعاهدات هذه الحالة ، فقد نص فيها على أن هذا الفصح يسكن أن يمر بمناطق الحرية القديم الامبراطورية (١٩٨) . على أن الموظفين الروم كانوا يسرون هذا البند على أنه يصرح للبندقة فقط بنقل الفصح عبر اقليم الامبراطورية ، لا يبيع في أسواقها ، ويغرض على كل يوناني يشتري هذا الفصح صرية قدرها ستة دراريط على كل « موديوس » modius (مكيال فصح يساوي ربع بوشل - المترجم) لذلك كان اليونانيون يفضلون طبعا شراء الفصح من جهات أخرى . وأصر البندقة على أن تطبيق هذا الاجراء الظالم مخالف للمعاهدات ، لأن فصح البحر الأسود لم يكن ضمن السلع المستثناة من القاعدة العامة التي تنص على حرية البيع والشراء . ثم أن الفصح لم يكن السلعة الوحيدة التي يجيز الموظفون اليونانيون لائفسهم ، دون أي حق واضح إما حظر بيعها للبندقة أو اقتضاء صرية من المشتري . وثمة حق آخر كان متروكا به للبندقة دون أية قيود : ذلك أن يمارسوا أية حرفة . ولكن شتان بين الحق والواقع ! لالا اضطروا إلى مسوق القسطنطينية مروجيا صنعوها بأنفسهم ، صودرت هذه السروج عند الأبواب . وكان اليهود الذين يزاولون حرفة السراجية في حماية البندقة يستفيدون بنوع خاص لمعاملات جائرة ، فكانت جلودها تحرق وتلقى في الماء . وكان في مقدورهم ، من الوجهة الرسمية أن يزاولوا حرفة القراء ، على أن هذه الحرفة كانت في الواقع مظلومة عليهم . . . ولم يكن مسموحا لصياد بندقي

Thé. et Thom., IV, 27.

(١٩٦)

— كانت جزيرة جوس ، وهي البلد للتبعية للمنسكة تنص في تلك الفترة أيضا للامبراطور البيزنطي ، الذي ألتزم استكثارا لبيع هذه المنسكة .

Thé. et Thom., III, 96, 144, 332 et s., 349; IV, 82 et ss.

(١٩٧)

Loc. cit. III, 144, 332-349.

(١٩٨)

أن يكون له مقبلة في صفوف السكك ، ولجوار ينفق أن يكون له وضم
أو منقطة في السلخانة الصومية ، والأمر كذلك بالنسبة إلى كل بائع
بالقطاعي . وكانت الحكومة تبذل كل ما في وسعها لإقامة حاجز بين
الأجناس اليونانية والبيدنتية فكان كل شعار يوناني يستغل في خدمة
البنادقة ، وكل عامل يوناني يستغل مع بنادقة ، وكل منتج زروعي يستعمل
في ثقلاته يسمون بندقية يفرض عليه ضريبة أو يتعرض لمختلف ضروب
الاضاعة وسوء المعاملة . أما منازل الأمم الإيطالية ، ليس فقط الجنويون ،
ولكن أيضا البيريون والأونكيون لما هم كانوا يلقون معاملة طيبة تكبر
حفيظة البنادقة . وفي البلاط ، كانت شئون الجنويين تغطي دون عائق ،
أما شئون البنادقة فانها لا تتحقق . وكان هي وسع الجنويين والأونكيين
أن يدبروا حانات على أرضه أنواني خارج الأسوار ، أما البنادقة فلم
يكن مبرحاً لهم بذلك . وذات يوم اندلع حريق دمر مجموعة من البيوت
المجاورة لكنيسة القديس بطرس التابعة للمبشرين ، ورخص لكل المكونين
بأن يبنوا بناء بيوتهم ، وكان البنادقة هم وحدهم الذين رفضوا الترخيص
لهم بذلك (١٩٩) .

وهكذا ، وفي حين كان البنادقة في القليم الإمبراطورية مرضعين لنية
الإيذاء من جانب الإمبراطور وموظفيه ، وكراهية الشعب ، وضروب الاذلال
والاضاعة ، كانوا في المناطق اليونانية الواقعة تحت سيطرة الفرنجية
يستمعون على العكس من ذلك بمكانة معتزة ، كانت مستعمرة لجيرونت
التي يحكمها بايل بمعاونة اثنين من مستشاريه (٢٠٠) مركز بقوذهم .
كانت حسب تعبير بأرع ورد في خطاب حوره ثاجر ينفق بمثابة « حنة
عين » الجمهورية ، وبهذا اليمنى (٢٠١) . وفي البداية كانت المقاربات
التي تملكها البندقية ملكية مباشرة منصورة داخل الحدود التي وصفناها
قبلاً ، أي أنها كلها ، بساً فيها دار البلدية ، وكنيسة القديس
مركس (٢٠٢) ، التي لا تزيد على نطاق حي فسيح في عاصمة الجزيرة .
ومع ذلك ، ففي أيدي هؤلاء « البايالات » ، وهم من رجال الدولة الأكفأ ،
دوى المقول الراجعة ، الذين لا لقولهم مصالحي الجمهورية ، أصبح هذا

(١٩٩) Taf. et Thom., IV, 124-129; Ibid., IV, 129-164; Ibid. IV, 187-191.

Saudo, dans Murat., SS XXII 797; Hopf, art. Griechischland, (٢٠٠)
Op. Cit., LXXXV, 307, 371.

Hopf, dans les Sitzungsberichte der Berl. Akad., phil. hist. (٢٠١)
Cl., 3 février 1892, p. 81, 89.

(٢٠٢) كان هذا الذي يورد مصدرنا ، استغرق بناءه من ١٢٠٥ إلى ١٢٠٨ .
Hopf art. Griechischland, Op. cit., LXXXV, 376.

وفي أعوام ١٢٢٨ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤٢ أجرى ترقية التصحيحات . في ١٢٨

الركن الصغير من المدينة قاعدة لمشروعات ضخمة ، فأولا طمعت سلطة سائر السكان ، ملك باقي الجزيرة ، بتفريعات طرقات على الأشخاص ، وتقسيمات ، ومنازعات داخلية ، واد تركوا وشأنهم ، حتى تغل عليهم أمراء شبه جزيرة القوقاز الذين لم تكن تربطهم بهم إلا علاقة تبعية اسمية تقريباً (٢٠٣) ، لم يلبثوا أن لهموا في كفاهم المتواصل ضد الروم والإتراك والفلطانيون أنهم لا يستطيعون أن يجدوا عوناً قوياً إلا في جمهورية البندقية التي لم تدخل أبداً عن مستعمراتها في نجيرونت ، وكانت تزودها دوماً بأسطول يحميها إذا تعرضت لأي خطر ، وعلى ذلك كان هؤلاء السكان يشعرون أكثر فأكثر بأنهم في حماية البندقية ، ويعتبرون أنفسهم سعداء إذا تضمنهم المعاهدات التي توقعها مع غيرها من الدول . ومن جهة أخرى عرفت الجمهورية كيف تحصل على مقابل لخدماتها ، فبعد أن طردت الفلطانيون في عام ١٣١٧ ، وضعت حاميات في قلاع المدن ، فلم تترك هؤلاء السكان إلا بقية الجهات (٢٠٤) .

وعلى هذا النحو بنيت الجمهورية شيئاً فشيئاً غاية مطامعها ، أي السيادة السياسية في الجزيرة ، وكانت تلك هذه السيادة منذ زمن بعيد في مجال التجارة ؛ ليستفي معاهدة أبردت في عام ١٢٦٢ ، كان على كل البضائع التي تصل إلى الجزيرة عن طريق البحر ، مهما كانت نقطة تفرعها أن تدفع ضريبة جمركية (٢٠٥) مقدارها ٢٪ ، كما يقول بيجولوتي Pegolotti (٢٠٦) ، على أن الشيء الذي كان يؤخذ غالباً لتفوقها ، هو أن نجيرونت هي المحطة التي يتردد عليها الغالبية من أسطولها التجاري ، فكانت السفن ترسو عندها عند مرورها ، ثم توصل منها إما إلى القسطنطينية أو تانسا tansa ، أو طربزون ، الشيخ ، أو إلى البندقية (٢٠٧) ، وإما إلى سواحل الأرخبيل الأوروبية أو الآسيوية .

Hopl, Op. cit., p. 419.

(٢٠٣)

Hopl, Op. cit., p. 418, 426, 439.

(٢٠٤)

Taf. et Thom., III, 47, 53.

(٢٠٥)

(٢٠٦) في عام ١٣٤٨ ، اشكك سكان الجزيرة

Pegol, p. 108; Hopf, Op. cit., p. 432.

من إطلاق الرسوم الجمركية .

(٢٠٧) وفقاً للأسطول القديمة ، كان على السفن البحرية التابعة إلى القسطنطينية

والبحر الأسود أن ترسو عند نجيرونت

(Arch. Venet., XVIII, 326, 327 ... Milati)

ومع ذلك ، وعلى الأقل في حدود لاجة ، جعل كانت الرحلة تقطع أن تكون سريعة . كانت السفن تمر أحياناً بالبيكيد ، على مرأى من سيريفو Sérifho انتر

Bathan Doc. inéd. relat. à l'hist. de la Grèce au moyen-âge, tère série, t. 67, 114, 134, 194.

وكان وضع دوقات جزيرة لكسوس Naxos مماثلاً تماماً لوضع منكاه
تجربونت uerolem . كان هؤلاء الأمراء الصغار يجمعون تحت سيطرتهم
المباشرة وغير المباشرة العديد من جزر الكيكلاذ ، وكانوا يحفرون من أسرة
سانودي Sanudi الفينيسية ، وادعوا زعماً طويلاً عنهم خضوعهم لوطنهم
الأصل ، ومن لم اطلقوا على أنفسهم القاب الأتباع الانقطاعيين للامبراطور
اللاتيني (٢٠٨) ، وأعلن اماره شبه جزيرة المورة (٢٠٩) . وفيما بعد
حين تعرضوا أكثر من غيرهم لفسادات القراصنة ، اضطروا للالتجاء الى
البندقية التي جلبت اليهم من تجربونت معدات حربية . ومن ذلك الحين
انضموا إلى البندقية هي القوة الوحيدة القادرة على حمايتهم ، فراحوا
يستولون كل جهدهم لتوثيق صلتهم بها (٢١٠) ، وفي هذا كانوا
يقفون (٢١١) اثر العهد الكبير من أمراء البحر الصغار ، من مثالة الأسر
الفينيسية ، الذين كانوا في الكثير من الأحيان يمضون قسماً من السنة
في البندقية ، ولما كانت اماراتهم لا تزدهم الا بشغل قليلة لا تكفيهم ،
فاجه يطلبون وظائف بالبندقية ، فكانوا ثمة أمراء بحر (أميرالات) ،
وسفراء ، وحكاماً في خدمة الجمهورية (٢١٢) . وكانت الجمهورية شديدة
الحرص على ألا يفقد هؤلاء الأمراء زيجات لا تتوافق مع مصالحها ، إذ
كان لا بد من منع انتقال هذه الجسور الى أيدي أجنبية ، بسوية بنوع
خاص (٢١٣) . لذلك فاتها كانت تنظر في صحتها كل القضايا الخاصة
بالمطالبة باستحقاق الملكية والميراث . وكان كل ما من شأنه أن يسهم في
تسمية سلطة الجمهورية ، وفتح محطات وموانئ جديدة في المياه اليونانية ،
يمزج في الوقت نفسه بمصالح تجارتها في الشرق الأدنى ، فضلاً عن أن
منتجات هذه البحر ، هي قطنها ، كانت بمثابة اضافة الحركة التجارية .

وفي حين كان بايل تجربونت يساهم رقابة شديدة على القسم
الشمالي من الجزر اليونانية ، كانت مصالح الجمهورية في القسم الجنوبي
مها يرمهاها فوق كريت . وكانت جزيرة كريت ، وهي أكبر هذه البحر ،
وتلق في الوقت نفسه في أقصى الجنوب منها بمثابة الحصن المنيع لهذه
الجزر . ولما كانت في أيدي البندقية ، فانها كانت أداة ثمينة للسيادة

Hopf, Zur Geschichte von Andros, Op. Cit., p. 242-245. (٢٠٨)

Hopf, art. Griechenland op. cit., p. 410. (٢٠٩)

Hopf, op. cit., p. 462. (٢١٠)

Hopf, op. cit., p. 278. (٢١١)

Hopf, Gesch. von Andros, p. 37 et s. 44. (٢١٢)

Ibid., p. 56-57. (٢١٣)

على هذه المنطقة كلها ، كما كانت بسوق خاص محطة وسطى ذات قيمة لا تقدر لتجارة سوديا . وقته سبق لها الحديث في هذا الخصوص كما عمدنا المنتجات التي كانت تزود بها التجارة ، ولا يبقى علينا إلا أن نتناول تاريخ الجزيرة منذ أن صارت مستعمرة فينيقية .

لقد أراد ميخائيل باليولوجوس ، عامل القسطنطينية أن يستعيد الحرية ، فبعت إليها بالجيوش . واد أصبح المستعمرون البنادقة هدفا لهجوم هذه الجيوش ، واعتداءات الأهالي اليونانيين ، فقد وجدوا أنفسهم في وقت ما في موقف حرج للغاية (١٢٦٤) (٢١٤) . ومع ذلك فقد أحبطوا هجمات أعدائهم حتى أن الأكراد لعقد الصلح معهم . وبسبب هذه المعاهدات أعوام ١٢٦٥ ، ١٢٦٨ ، ١٢٧٧ تعهد ميخائيل بسحب قواته ، والا بنار البنادقة ملكية الجزيرة (٢١٥) . وفي الواقع لم يأت بعد ذلك أي تهديد للجزيرة من ناحية القسطنطينية . ومع ذلك بدأ عهد المشاكل الداخلية . وفي تلكم الأثناء من قبل التذكرة عن الخلافات الداخلية التي نشأت من واقعة ثارية فردية اثار في عام ١٢٦٩ ثورة عدد من الأسرى القينيسية ضد اللوق اندريا تريزو Andrea Zeno (٢١٦) (١٢٦٥ - ١٢٦٩) . إلا أن عناصر المقاومة الرئيسية كانت في أسر الأرشونترات (الحكام اليونانيين) archontes grecs وهي أسر شديدة البأس بما تمتدته من القاميين . ويطوذاها على سكان الأرياف . كان زعماء الثورة الأولى هم افراد أسر كورتازي Cortazzi الذين أعلنوا عزمهم على طرد الأجانب ، وكادوا يصيبون هدفهم مرتين ، المرة الأولى في عام ١٢٧٤ حين فاجأوا اللوق مارينو تريزو Marino zeno في شعبة (من بين جيلين) ، واستشهد في ساحة القتال (هزة الأسر النبيلة القينيسية ، والمرة الثانية في عام ١٢٧٧ ، إذ ضيقوا الحنق على اللوق بيبثرو تريزو Pliotre zeno في كالدبا العاصمة التي ضربوا الحصار عليها ، غير أن وصول مارينو جراد ينجو Marino Gradengo أسرهم على رفع الحصار ، وما لبثوا أن استسلموا بعد الهزيمة ، وبعد أن استمرت ثورتهم ست سنوات

Taf. et Thom. III, 84; Laur de Monacia, Chronicon de rebus venetis, p. 168?

Taf. et Thom. III, 85, 80, 86, 137. (٢١٥)

(Ibid., 323, 344). - جده ابنه اللوقليك هذا الزعماء في عام ١٢٨٥ .

Laur, de Monacia, p. 168-180. (٢١٦)

- منج السيد حرف Hopf ، الترتيب التاريخي للأحداث التي ذكرها هذا المؤلف .
وحدد بالفيصل عهد حكم تريزو ، وكذلك تاريخ تحرير القنابل التي أرسله تريزو إلى
المدج (أول أبريل ١٢٦٩) بشأن هذه الثورة . انظر :
Taf. et Thom., III, 102 et ss.

تقريباً (٢١٧) . وبعد بضع سنين ، قاد الكسيس كالرجيس Glaxia Kalergia ثورة جديدة ، وواصل النضال ست عشرة سنة (١٢٨٢ - ١٢٩٩) (٢١٨) ، وانتهى الأمر بخصومه بمقتضى معاهدة في صالحه كفلت له توسيع أملاكه إلى مدى كبير ، وحصوله على إيرادات كبيرة من أملاك الكنائس والأديرة (٢١٩) . ومن ذلك الحين ، انحصر الولاء للبيادقة ، واقتدى بهم في ذلك حلفاؤه . وبامتناعهم عن الاشتراك في العصيان فشلت محاولات كثيرة للقيام بثورات تعاقبت من عام ١٣١٩ إلى ١٣٣٣ . ومع ذلك ففي عام ١٣٤١ اندلعت ثورة عامة جديدة ، وفي وقت ما لم يبق للبيادقة من أملاك سوى العاصمة وبضعة قصور منعزلة (٢٢٠) . ومع ذلك فقد قلب البيادقة على خصومهم في النهاية ، ومع أن وطنهم الأصل لم يرفض ترويعهم بالمعزونات ، إلا أن القتل الأكبر في نجاحهم يرجع إلى النبلاء ملاك الاقطاعيات وغيرهم من أدوا بحسن واجباتهم العسكرية . وفي الواقع أن لتصور حياتهم خلال هذه الفترة : فاحيانا كان من المستحيل عليهم فلاحه الأرض ، وأحياناً دحر الثوار المحاصرين في القلوع . ولحسن الحظ كانت حصوية القرية العظيمة عوناً كبيراً لهم . وسرعان ما سببت المفارقات . ولا يمت أن التجارة قد عانت من آثار هذه الحروب الأهلية على إنتاج الجزيرة . ومع ذلك واصلت التجارة الكبرى مع سورية وعصر نشاطها المتناذر : ذلك إلى مدينة كالديا ، العاصمة والبيضاء الرئيسية للسفن الضخمة لم تسقط أبداً في أيدي الثوار . وكان هناك أيضاً ميناء آخر إلى أهمية هو مدينة كاليا Cadya . ففي عام ١٢٩٣ أحرق الجنويون هذه المدينة وأحاطوها رمادا . وفي عام ١٣٠٩ استولى عليها قراصنة ييزيون (٢٢١) ، إلا أنه باستثناء هذين الحدين ، بقيت المدينة طول الوقت مفتوحة للسفن التجارية . وهناك ، كما في كاديّا ، بنى البيادقة حصيلاً حاجزاً كبيراً لتيسير دخول السفن في الميناء (٢٢٢) .

(٢١٧) Laur, de Monasia, p. 160 et s.; Hopf, Op. cit., p. 314.

(٢١٨) Laur de Monasia, p. 161 et s.; Hopf Op. cit., p. 460 .

(٢١٩) Taf, et Thom., XII, 376 et ss.

(٢٢٠) Laur de Monasia, p. 164-171; Hopf, Op. cit., p. 460-463.

(٢٢١) Hopf, Op. cit., p. 466.

(٢٢٢) مجلة عروش: في مهمة جزرية كريت ، بقلم الدكتور أندريا دانولو في عام ١٩٢٠ ، ص ١٢٢.

Thömas, Abb. der Bayer. Akad. Cl. L. vol. XIV, sec. I, p. 208-212, (Ordonnances des années 1312 et 1317); l'Archiv Venet, XVII, 59 et ss.

• وعلى اليابسة ، هي شبه جزيرة المورة ، علم أن البسفالية لم تكن تمليك سوى ركن من الأرض ، ولكن على هذا الركن قامت مدينتان عظيمتا القيمة لامة تهتم بتجارة الشرق ، وكانت السلطنة الاقطاعية (الفيسيسية) قد أحاطتهما بتحصينات قوية ، والقامت بهما حماية دائمة • وتعتبر كورون اهم المدينتين . تاوى الى مينائها السفن الحربية وسفن الحربية (٢٢٣) ، وتحصل على دخول أكثر مما تحصل عليها مودون Modon حيث كانت الإيرادات في الكثير من الأحيان أقل من المصروفات (٢٢٤) • ومن الناحية الإدارية ، تشكل المستعمرتان مستعمرة واحدة تحت سلطة كاستيلان Castellan (حكام) ، كانوا في البداية ثلاثة ثم صاروا فيما بعد اثنين ، يتبادلان العمل في المدينتين بالتناوب ، في فترات محددة • ولم يكن لدى هؤلاء الحكام ما يشغلهم من شئون البلد بقدر ما يشغلهم من أمور تجرى في البحار ، من سفن تنقل الحجاج ، وسفن تجارية ، وأساطيل حربية فينيسية وغيرها تلبى كثيرا تلتبس ماوى لها في موانئها ، وكثيرا ما كان يطلب منهم المشورة أو المساعدة حين يكون ثمة خطر داهم من أساطيل معادية أو قراصنة (٢٢٥) • وكثيرا أيضا ما كان يهدد انهم في ظروف حرجة بحراسة بضائع واردة من مختلف أنحاء الشرق الأدنى (٢٢٦) . ثم استرداد هذه البضائع فيما بعد •

والآن ، ولقد عرفنا مواقف الأمتين التجاريتين الايطاليتين الرئيسيتين في بلاد الروم في عهد ميخائيل باليولوجوس وأندرونيك الثاني . فقد حان الوقت لنقول القليل الذي نعرفه عن « المستعمرة البيبرية في القسطنطينية » في الفترة نفسها • فعندما داخل ميخائيل باليولوجوس القسطنطينية وجد بها تجارا بيزين قلائد ، ووافق على أن يتحركهم مقيمين بالمدينة مع قنصلهم (٢٢٧) • ويبدو أن حيهم كان هو حيهم القديم ، إذ نجد أن كنيسة القديس بطرس الذي كانوا يملكونه من قبل في القرن الثاني عشر كانت تابعة لهم أيضا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٢٢٨) •

(٢٢٣) في عام ١٢٨١ تلقى « كاستيلان » كورون أمرا ببناء ترسالة • • وذكر هذا الأمر بين ١٣١٢ و ١٣١٧ (Archlv. Venet., XXX, 218) ١٣١٧ • ولقد نكح كذلك مجرعة من مراسيم أخرى خاصة بكورون ومودون •

(٢٢٤) Betha, l.c. III, 876.

(٢٢٥) Hopf, art. Griechenland, Op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440.

(٢٢٦) Betha, l.c. III, 399 et s., 358 et s., 367, 441 et s.

(٢٢٧) Pechym., I, 142 et s., 148.

(٢٢٨) « In contrata S. Petri Pisanorum » : Top. et Thom., 148.

وكان القنصل البيزى مرصدا له ، بصفته ممثلا لدولته يشرف بتقديم آيات الولاء للإمبراطور في الأعياد الرسمية (٢٢٩) ، ولكنه في غير هذا لم يكن يؤدي إلا دورا متواضعا للغاية . ولم يحدث سوى مرة واحدة أن سجل في الحوليات البيزنطية حكمة مرموقة أداها قنصل بيزى للإمبراطور أندرونك ، فتمه وحيان فرنسيسكان كانوا قد اشتمروا قطعة أرض في القسطنطينية ، وشيدوا عليها ديرا فخما وكنيسة ، وتم كل هذا بموافقة الإمبراطور . غير أن إقامة وحيان من الرومان الكاثوليك في قلب العاصمة أثار حقد البيطريوك اليوناني وخطب السكان ، حتى قرعهم أندرونك على أبعاضهم ، ولو بالقوة إذا لم يكف الاقناع لحصلهم على الرحيل . وكان لتسلي القنصل البيزى الذي كان يلقن بجوار هذا المكان قائمة كبيرة ، إذ حصل من كهنة كنيسة القديس بطرس على تعهد بإحراصة الأواني المقدسة الخاصة بالدير (٢٣٠) . ومع أنه اكتسب بهذا التصرف اعتراف الإمبراطور له بالجيد ، فإنه اجتذب إليه حقد البودستات الجنوى في غلطة ، الذي سرخه عليه الفرنسيون ، فحاولوا اغتياله (٢٣١) .

كيف يتسنى لنا أن نلخص أن البيزيين ، بعد أن أدوا في حوال عام ١٢٠٠ دورا بالغ الأهمية في سوريا والقسطنطينية ، بدأت حالهم في عاصمة الإمبراطورية لتدجج أنه لم يعد لهم شأن يذكر في البلاد الجديدة التي تفتحت للتجارة في هذه الفترة ؟ كان السبب في ذلك المناقشة الطويلة الأمد التي قامت بينه الجنويين والبيزيين : فعلى مدى سنين طويلة اشتركت الجمهوريتان في حروب ، بدأت بقصد امتلاك جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، ولكن السبب الرئيس لهذه الحروب كان الحصول على النفوذ البحري في القسم الغربي من البحر المتوسط . وانتهى الصراع في عام ١٢٨٤ في معركة ميلوريا Maloria البحرية ، وكان الأسطول الجنوى تحت إمرة اوبرتو دوريا Oberto Doris ، وترك البيزيون في المؤكدة ثلاثا وثلاثين من سفنهم الحربية سقطت في أيدي العدو ، وحرق سبع سفن أخرى ، وأسر المنتصر عشرة آلاف رجل من بينهم صبغة النبلاء البيزيين . وإذا اضطرروا في عام ١٢٨٨ أن يقاتلوا معاهدة مثله لهم ، فاتهم لم يقبلوها إلا على مضض ، وواصلوا مع ذلك معارك ثانوية صغيرة .

Codinus Cypriol, p. 87 .

(٢٢٩)

(٢٣٠) يضيف المترجم مع ذلك في هذه الفترة ، خطأ ، أن كنيسة القديس بطرس كانت كنيسة يرمانية ، خطأ أنه كان يجعل أنها مملوكة للبيزيين . غير أن هذا الظرف الذي كان فيه لدى القنصل البيزى ، يحكم منصبه أرائه يطبقها لمناقشة هذه الكنيسة ، كان حليفا بأن يوجهه إل الصواب .

Pachym., II, 636-639.

(٢٣١)

وعقاباً لهم على ذلك ، دمر كورادو دوريا Corrado Doria في ١٠ من
سبتمبر ١٢٩٠ الميناء التجاري المسمى « الميناء البيزي » (بين مصب
نهر كالامريون Calambrone وحسن ليفورن Lefourne
القديم) (٢٣٢) ، وأقام مبدأ عهد مصب نهر أرنو arno ، وكان هذا
ضربة قاضية على قوة بيزا البحرية والتجارية ، لم تنهض منه أبداً وكان
موضعها مسيراً لأن تسكانيا كانت في تلك الآونة مزقة الأوصال
بالمناخنة التي اجتاحت بين الجويلفين والجيليين ، وبلفت ذروتها آنذا ،
وكانت بيزا على رأس حزب الجيليين ، وفي حاجة إلى كل قواها لمواجهة
الانشغال ضد قوات الجولفين التي تفوق قواها .

ولا بد أن هذه الأحداث قد أثرت على نشاط البيزيين التجاري ،
وامتد رد فعل هذا التأثير إلى مدينة القسطنطينية ، إلا أنه بدأ يظهر هناك
بورجوازيون من فلورنسا ، المدينة الجويلفية ، وريفة بيزا مستقبلاً .
وقد ذكرها بيجولوتي Pegolotti على حدة ضمن الأمم التجارية التي لها
ممثلون في القسطنطينية ، في فترة لم تكن تملك بعد ميناء أو سفينة
حربية (٢٣٣) .

ومن مدن إيطاليا الوسطى كان لانكونا Ancone في القسطنطينية
مستعمرة تجارية متميزة ، يتولى إدارتها قنصل يعينه الوطن الأم لسنوات
ثلاث ، يساعد قنصل للتجار (٢٣٤) . وكانت مرتبة هذا القنصل في
الاحتفالات الرسمية لبلاط بيرنطة تل مباشرة مرتبة قنصل بيزا ، تبعاً
للأهمية النسبية للأمة التي يمثلها القنصل (٢٣٥) . وفي غير ذلك تبعث
الكونا سفارات خاصة حين يراد الحصول على تعويضات عن انتهاكات
أو تركبت أو ريادة في الاعفادات (٢٣٦) . وفي مناسبة أطلق هذه السفارات
التي الإمبراطور انجوينيك الثاني أحكام مرسوم سابق ، لم يبق له أثر

Atlante Luzzoro, p. 68.

(٢٣٢)

Pegol. p. 36.

(٢٣٣)

في عام ١٢١٨ كان ليك البرني Alberti القنصلي فرع في القسطنطينية ، انظر :
Perrons, Hist. de Florence, III, 258 et s.

Makuseev, Monumenta hist. Slav. mérid, I, 2, p. 161,
et so. Commem. reg., II, 69, lign. 2.

(٢٣٤)

Codin, Curpal., p. 87

(٢٣٥)

Makuseev, Lc.

(٢٣٦)

الآن ، وحده الرسوم (٢٣٧) المفروضة على التجار الأتوريين بنسبة موحدة قيسها ٢/١ عند دخول السلع وحرجها ، بسا في ذلك رسوم الورق والسبسة . وفي هذه المناسبة أيضا مع كل تحايل على القانون ، إذ كان بعض التجار الأتوريين يدخلون بضائعهم خلسة تهربا من دفع الرسوم ، وذلك بأن يشيروها إلى مصدر فينيسى أو جنوى .

وأخيرا ، كان جنوب إيطاليا مثلا في القسطنطينية بدون منطقة بوليا (أبوليا) *la Pouille* ، وبخاصة مدينتى بارى *Bari* ، وترانى *Trani* ، ثم بيجار من أمالى وصقلية (٢٣٨) .

وكان تجار راجورة *Ragusa* يقيمون دائما علاقات مع بيزنطة ، وجددوا امتيازاتهم القديمة ، أولا عن طريق ميخائيل باليولوجوس ، ثم في عام ١٣٢٢ عن طريق أندرونيك الثاني (٢٣٩) . وكانوا يمارسون تجارتهم برا وبحرا بفضل امتيازات حصنوا عليها من أمراء البوسنة والصرب والبلغار (٢٤٠) الذين صرحوا لهم بأن يجتاروا ببضائعهم شبه جزيرة هيوس *Hios* كلها .

كانت هذه الأمم كلها معروفة لزمن طويل في بلاد الروم . ولكن في الفترة التى نتحدث عنها تجد منها أمة جديدة ، أمة القطلالونيين *Catalans* ، ومن بين الذين وصلوا أخيرا من هذه الأمة ، برز بنوع خاص من أواخر القرن العاشر تجار برشلونة ، برزوا بروح المغامرة . ويبدو أن وحدة المصالح التى جمعت فى تجاه عدوانى واحد ضد أمراء أسرة اسجو التى حكمت مملكة نابولى ، وأسرة باليولوجوس ، وملوك أراجون كان لها تأثير كبير فى تنمية التجارة فى هذه الدول . واستقبلت القسطنطينية بحفاوة قباطنة السفن القطلالونية ، وذلك حتى اتحد ملوك أراجون مع ثوار صقلية فهزموا جيوش نابولى ، وشملوها كثيرا حتى بلدوا بكل ما كان فى نفوس سكان الإمبراطورية البيزنطية من مخاوف الفوز . ومن جهة أخرى شكلت وملبحة صلاة النساء «ثروة صقلية على الملك شارل الأول - دبح فيها الفرنسيون يوم الاثنين من عيد الفصح - المخرج»

Juli, 1806, publ. en grec par Miklosich et Müller, ١٢٢٧
Acta graeca, III, xvi-xix en latin par Maksouev, ١,٢٠٠ p. 186-188.

D'Avino, Cenni storici sulle chiese Napoli, p. 878; Petronio, ١٢٢٨
Storia di Bari. II, app., p. 897; Pegol., p. 24; Camera Mem. di Amalfi.
I, 540 et ss.

Luccari, Histretto degli annali di Rausa, p. 40; Appenditli, ١٢٢١
Notizie sulle antichità del Ragusae I, 297; Engel, Gesch. d. Freistaats
Ragusa, p. 118.

Miklosich, Monument. Serbica, panien.

(٢٤١)

قاعدة الوحدة بين الأراجونيين والقطالونيين من جهة ، وبين الصقليين من جهة أخرى ، وكانت الأملاك يحكمهما أمراء من أسرة واحدة - وفي ميناء مسينا ، كانت السفن القطلونية تتمصرف كأنها هي وطنها الأصلي ، كما تمتعت التجارة القطلونية ثمة بامتيازات غير عادية (٢٤١) . ولا مسي إلى مضيق مسينا كان من أهم الممرات التي يجتازها تدليبة السفن المتجهة إلى الشرق ، ويعتقد أن التجار القطلونيين كانوا بطبيعة الحال يستعملون هذا الطريق . وعلى ذلك انتهى بهم الأمر إلى التمسك مستعمرة في القسطنطينية ، ومن العسير تحديد تاريخ انشائها . والثابت أنه في حوالى عام ١٢٩٠ حتى تفصل قطلوى يدعى دالماتسيو سور Dalmacio Surer بمقابلة الأمبراطور الروماني الثاني ، وعرض عليه مشروعا وحبسه سكان أراجون ، وقطلونيا ، ومايوركا Majorque ، وبخاصة بورجوازيو المدن الساحلية ، برشلونة ، وفالسية ، وترتوسا (طرطوشة) Tortosa من أجل ترددهم على الامبراطورية اليونانية وعاصمتها ، ورفضهم في الحصول أولا على حرية اللبثول فيها بوجه عام ، ثم تخفيض الرسوم الجمركية بنوع خاص . ورخص لهم الأمبراطور بحرية التنقل في أراضيه ، وحدد نسبة ٢٥٪ للرسوم التي يتعين عليهم دفعها عند دخولهم وخروجهم ، وكفل لهم فوق ذلك أمس بضائعهم ، وبخاصة في حالة الفرق . وقد حظت الوثيقة التي ذكرت فيها هذه الامتيازات ، وفي حوزتنا النص الأصلي لها باللغة اليونانية (٢٤٢) والترجمة باللاتينية (٢٤٣) ، ومن المأسف أنه لم يذكر بها اسم الأمبراطور ، أو السنة .

في أنه لما كان ملك أراجون قد ذكر بها على أنه ملك صقلية أيضا ، فالواقع أنه لا يمكن أن ينتمى إلى عصر خلافة المصير الذي احدث فيه التاجان ، أي الفترة بين سنتي ١٢٨٢ ، ١٢٩٥ . ومن العسير أن نفهم كيف توصل السيد كامداني M. Capmany إلى تحديد سنة ١٢٩٠ تاريخا

(٢٤١) لشهد لوثائق رسمية (دبلومات) ملوك صقلية : جاك (١٨ ر ٢٢ فبراير ١٢٨٦ ، ١٧ يولية ١٢٨٨) ، ولودويك الثاني (٣ أبريل ١٢٩٦) بخاصة بالوضع للبلاد لكثالونيين . في حين أن لاجريين قد سيرا حتى ذلك الحين الدور الأول في سوق صقلية . ولم تكن هذه الخطوة قاصرة على تيجار برشلونة وقطلونيا بوجه عام ، ولكنها كانت تهدف لفصل كل جرد البليدار ، وكل بلدان جنوب فرنسا التابعة لتاج أراجون كراتية روسيون مع بيريديان ، ولاسيرداني ، ومدينتي نابول وكونتيبييه

Fundels delle gabelle di messina, ed. Sella, dans les *Miscell. di storia ital.*, X, 120 et ss., et l'introduction de P. Veyra p., 38-39; *ibid.*, p. 131-142.

(٢٤٢) Capmany, *Mém. hist. sobre la marina, commercio y artes de* (٢٤٢) *Barcelona*, II, 467 et s., Zecharia, *Das grieco-romanus*, III 97 et s. (٢٤٣) Capmany, *l.c.* p. 387 et s.

لهذه الفترة ، ولا يمكن قول هذا التاريخ إلا على أساس أنه تقريبي .
 ولما تفحصنا مدينة في عهد الوثيقة نعلم على أن علاقات القضاة القضاة
 التجارية مع الإمبراطورية كانت وقتئذ في بدايتها ، وفي هذه الحالة يتعين
 الافتراض بأن د . سونو كان سفيراً مكلفاً بمهمتين : بتأسيس للمستعمرة
 القضاة في الإمبراطورية وادارتها في فترة معينة . ولكن منذ عام
 ١٢٦٨ حصلت السلطات البلدية بـرشلونة من الملك على ترخيص بتعيين
 قضاة في البلاد التي لبعض مدنها علاقات معها ، وذكرت اسم
 « رومانيا » ، *Romanie* (أي الإمبراطورية البيزنطية) بوضوح خاص في
 هذا الترخيص (٢٤٤) . ويصعب التسليم بأن هذا الترخيص بقي حياً
 على ورق بالنسبة إلى عاصمة « رومانيا » ، وأنه لم يمتح بها قصص إلا
 في عام ١٢٩٠ . نظيف أيضاً أبا نجد آثاراً أكيدة لكل على وجود تجارة
 بحرية بين قضاة وبيزنطة منذ عهد ميخائيل باليولوجوس .

والواقع أن هذا الإمبراطور قد استغل ذات يوم وجود سفينة تجارية
 قضاة كبيرة في الميناء ليطارد بها لرسماً حراً (٢٤٥) . واستمرت
 هذه الحركة التجارية في عهد أندرونيك الثاني . ففي عام ١٣٠٢ على
 مسجيد الخال ، عندما كان بعض تجار بـرشلونة يتأهبون للإبحار إلى
 الإمبراطورية ، سلمتهم سلطات المدينة خطابات توصية لبودوستات
 الجنوي (٢٤٦) . ولعلنا نتساءل . ثم لم توجه هذه الخطابات إلى القنصل
 القضاة ؟ لنا أن نفترض ، مع السيد كامباني أن سبب القنصل
 القضاة كان شاعراً في ذلك الحين ، أو ربما أن الوظيفة لم تبدأ بعد
 بصفة دائمة . ويبدو أن وصول فرقة الجنود المرتزقة الذين طلبهم
 روجر دي فلور Roger de Flor في سنة ١٣٠٢ كان الفرض منه القضاء
 ونجح متسير للأمة القضاة في بلاد بيزنطة ، وبخاصة لأن اعتراف
 الإمبراطور بالقضات الجديدة التي أدتها له هذه الفرقة ضد الأكراد قد
 اعتدت آثاره لتفصل كل القضاة الموجودين في الإمبراطورية .

والحقيقة أن الجنويين حاولوا من أن يطعن عليهم القضاة في
 مجال الامتيازات التي يمنحها الإمبراطور ، ومن ثم اتخذوا ازمام للحال

Capmany, l.c. p. 34, no XIV.

(٢٤٤)

Fachyn., I, 424 et s. ; la Chronique de Giov. Villani (éd., ٢٤١٠)
 Dragon. I, 419).

— من التاريخ أن تكون السفن الجنوية قد أتت وحدها من رومانيا ، وأن السفن
 القضاة والقضاة أتت من صقلية .

Capmany, II, 373 et s.

(٢٤٦)

موقفا عدائيا . ولكن موت روجر دى قنور الذى اغتيل فى عام ١٣٠٥ بإيعاز من الأمير ميخائيل قلب وجه الأمور . وقد رأينا أن « الفترة » (أو السرية) أرسنت تهديدا إلى الإمبراطور من جاليبولي الغير المندمها مقامها لها . وردا على هذا التهديد قتل الإمبراطور قائمهم وكل القضاة القضاة والأتراكونيين الموجودين في القسطنطينية . إلا أنه ليس من الثابت أن يكون هذا الاجراء الفاسق قد أصاب التجار العاديين . ومع ذلك بطما استمرت الحرب بين « السرية » والإمبراطورية . أى لسنوات عديدة . كان من العسير على مستعمرة تجارية أن تبقى في القسطنطينية دون أن تعرض لانظار جسام . ولا شك أن المستعمرين قد هاجروا . وربما إلى حصن السرية في جاليبولي حيث وحسوا بها مزيتين : أولا الفئام الهائلة التي ترد إليها فتملأ تجارتها بصادرة لا تنفد . ثم أهم أسسها في الدفاع على الموقع (٢٤٧) . وبعد ذلك . حين غادرت السرية جاليبولي واستقرت في دولية ألبانيا (١٣١١) . لم يكن ثمة شك في أن تلك الإمارة عادت مقصدا لنفس التجارة القبطانية (٢٤٨) لأنها كانت على ثقة من أن تلقى بها ترحيبا . غير أن القسطنطينية كان لها أهمية أخرى في الوجهة التجارية . لذلك كان التجار القبطانيون يهربون عن رغبتهم الخائفة في توقيع علاقاتهم السابقة منها . ويبدو أن الخائفة المرفوعة لم يظل انتفاضا . ذلك لأنهم حصلوا قبل عام ١٣٢٠ على خفض الرسوم على الاستيراد والتصدير بنسبة ٢٥٪ إلى ٢٠٪ . والواقع أن سلطات برشلونة أشادت في وثيقة مؤرخة بسنة ١٣٢٠ هذه إلى امتياز إمبراطوري يكفل لمواطنيها هذا السعر . ولكنها اشكت من طلب سداد هذه الرسوم مرتين أو ثلاث مرات . وتقول أن التجار القبطانيون . حين لا يتسنى لهم تصريح بضائعهم في أول ميناء يرفعون فيه بضائعهم فيبلغونها إلى الأسواق أخرى . كان يقتضى منهم الرسم لنفسه في كل مرة . ولكي تحصل سلطات برشلونة على محور هذا التمسك . فإنها طلبت إلى الملك جيمس الثاني James II أن يؤيد طلبها لدى الإمبراطور .

وفي هذه الأونة كان البيت التجاري ج . كاربونيل G. Carbonell

(٢٤٧) *Antiquaire, trad. Lenz, 15 106 et s., 129 et s., 133, 144, 153.*

« حين موثاق ليجار لثانويين على رأس فرقة من النساء للسلطات للمناع من ليجار ضد الجنود . والكيف أن هؤلاء الناس لم يفرجوا من سرية للفرقة »

(٢٤٨) *les Commem. reg., II, p. 18, no 96, p. 22, no 130, p. 28 et s., no 165, p. 30, nos 171, 173, p. 138 et s., no 130, p. 325, no 369, p. 380 s., no 383.*

— في هذه الأونة نجد تجارا في برشلونة أو ماجوركا يرفعون برسلات تجارية إلى ألبانيا وطبقة أو معتكرين في بغداد قائمة من دولية ألبانيا .

et C^{te} يتسحن مسيحية مبعرة الى القسطنطينية ، فتكلفت بعمل الرسالة الى الملك (٢٤٩) . ويعتقد السيد كاباسي ان الوثيقة الثانية- أصدرها اندرونيك الثاني لصالح القطلانيين ، على اثر هذا المسمى . وفي حورتها هذه الوثيقة . وليسوء الحظ فانها هي والوثيقة الأولى لا يحمل أي منهما تاريخا (٢٥٠) ؛ ويجعلها السيد كاباسي حسب رايه في عام ١٣٢٠ (٢٥١) . ويندو لأول وحلة أن كل شيء يبرر هذا الرأي ؛ فالواقع أن الوثيقة هي الرد على خطاب الملك جيبس الذي أحضره المدعو كاريونين وثلاثة تجار قطلانيين . ولكنا اذا قمنا بالنظر في الخطاب ، اكتشفنا أن الحرف الأول من اسم كاريونيل في خطاب سبطات برشلونة هو حرف G (Guillermo ?) في حين أن اسم كاريونيل في المرسوم الامبراطوري مدون بحروف كاملة Berangerin ، فضلا عن ذلك . فان المرسوم يحدد الرسم الواجب سنده نسبة ٢/١ ، يعقب ذلك حظر مطالبة القطلانيين برسم يريد على هذه النسبة الا أن هذه الجملة مصوغة بعبارة عامة للغاية فلا يمكن أن نرى فيها استجابة لطلبات سلطات برشلونة . في رأيي إذن أن المرسوم الذي جعل السيد كاباسي تاريخه عام ١٣٢٠ هو أول اختيار حلفى فيه اندرونيك الرسوم الجسدية من ٣٣ الى ٢٢ ، وهذا هو الرد على عريضة أكثر قديما ، عززها الملك وأحضرها برنجر كاريونيل وشركاؤه .

أما بخصوص النتائج التي تم الحصول عليها بخطاب آخر من جيبس بتاريخ ١٣٢٠ وحمله جويرمو كاريونيل وشركاؤه ، بالقراس إلى الملك كتبه بالفضل ، وهذا أمر محتمل للغاية . فان رأيي هو أنها لا تملك من الوسائل ما يساعدنا على معرفتها . وعلى أية حال (٢٥٢) . فلا شك أن بحرية برشلونة التجارية التي كانت وقتئذ في فجر رخاها قد استغنت على نطاق واسع الترخيص الذي منحت اياه بالانجار مع الامبراطورية اليونانية ، وأنها شغلت بجزء مكانها الى جانب البحرية-

Capmany, II, 84 et s.

(٢٤٩)

Capmany, II, 469-471 , Zerbacina, l.c. p. 889 et ss., Miklasch et Müller, l.c. III, 98-100.

(٢٥٠)

Mem. I, 78.

(٢٥١)

La Carta al Rey Andronico II Paleologo, publiée dans la *Revista de ciencias historicas de S. Sopeno y mique*, no 1, Avril 1888.

(٢٥٢)

الجنوية والليمبسية (٢٥٣) . وسوف يرى أن ظهورها في المياه اليونانية لم يلبث أن أعقبه ظهور أسطولها الحربي المكلف بحماية مصلح آل أراجون .

وأخيرا ، فلي تعداد الأمم التجارية المُنشئة في مدينة القسطنطينية ، والذي دونه بيچولوتي ، يجد اسم « البروفانسيي » Provençaux (٢٥٤) . غير أنه يجب تفسير هذا الاسم بمصاه الواسع الذي أعطاه العصر الوسيط . من ذلك أن هذا الاسم يذكرنا أولا بمكان مرسيليا ، المدينة الأولى في مقاطعة بروفانس Provence بالمعنى الصحيح ، ولكن أيضا ، وربما أكثر من ذلك مدينتي مونتيلييه ، وباربون . وثمة ثلاث وقائع من أعمال القرصنة ، أدت إلى مطالبات ودعاء ، تعرفنا بها كانت عليه التجارة بين مدن جنوب فرنسا والقسطنطينية ، ولعلينا فكرة عن المواد التي كانت موضوعا للتجارة بين البلدين . فلي عام ١٣٣٤ أصبح تجار من نابليون ومونتيلييه وبيزير Béziers على متن سفينة نابوية ، ومعهم شحنة من القصب والشمع والجلود والقمح ، وفي الطريق ولحقوا في أيدي قراصنة أسبان (٢٥٥) .

وفي عامي ١٣٥٣ ، ١٣٥٥ كان ثمة تاجر فرنسي كبير يسمى ريمون سيرايليه (Serailier) Raymond Serailier له محل تجاري في مونتيلييه ، ويضفي من حين إلى حين بعض الوقت في نابليون (٢٥٦) : أصبح مراا بتدبيرات جنسية بفعل قراصنة من البنادقة يجوبون المياه اليونانية .

وكانت جنوا والبندقية وقتلت في حرب ، كما سارى فيما بعد ، وكان هؤلاء القراصنة يطاردون بنوع خاص السفن الجنوية ، ولم يستهم ذلك من تقويض أية سفينة يصادفونها ترفع علما محايدا ، بهوى الاستيلاء

(٢٥٣) جرى في القسطنطينية عام ١٢٢٥ مفاوضات دعوية بين البنادقة والغالويين ، ساعد في تهذيب الأسلاف بيرديسي Hierocynus اسلف كتاب Coll. des doc. inéd. Mélanges hist. II (1880), p. 98.
Pagol., p. 34. (٢٥٤)

وكرر أيضا في ساعد عام ١٣٣٢ بين البندقية الثالث والسفينة . انظر Miklos et Müller, Acta graeca, IX, 168.
Geymair Hist. du commerce de Montpellier, I, 300 et ss. (٢٥٥)
Port, Essai sur l'hist. du comm.

لبيد مثالا مقابها (جوال ١٢٥٠) في :
marit. de Narbonne, p. 117.

(٢٥٦) نجد تفاصيل في هذا الشخص في
François Michel, hist. du commerce et de la navigation de Bordeaux, II, 189 ; Geymair, Hist. du commerce de Montpellier, II, 218 not.

من أنها لا تحصل بضائع جنوبية ، فإذا أعجبهم ما فيها من شخصيات صرحوا : بأنها غنية مشروعة لهم ، مهما كان مصدرها . واليكم مثالا لذلك .
 في عام ١٣٥٣ التقى أسطول فينيسي تحت امرة لوردزو لتسليو Lorenzo Celso ذات يوم بسفينة تجارية رومسية عائدة من رومانيا وموجهة الى ميناء ليديا ، فاستولى عليها واقتادها الى كانديا . وكان لريسون سيراليه في هذه السفينة بضائع قيمتها ألف ريال ذهبي ، لم يستطع أن يستردها (٢٥٧) - مثال آخر - في ١٨ من فبراير ١٣٥٥ ، التقى ثلاثة قراصنة من البنادلة في مضيق اللوردليل يركب من مسينا ذاهب من رودس الى القسطنطينية ، فاستولوا عليه ، واذلوا في أنه يحصل بضائع جنوبية ، وكان بين الركاب شخص يسمى يوحنا تاسكر Jean Tascher وكيل ريون سيراليه ومن القرباء ، كان قد شح على هذا المركب بضائع يبلغ ثمنها حوالي ٦٠٠٠ ريال ذهبي ، وصائد للقراصنة ، الفينيسيون للحال ، ليس فقط بضائع تاسكر مع غيرها من البضائع ، ولكن أيضا ما كان يحصله من ثلوه (٢٥٨) .

وتبيننا قائمة البضائع التي يحصلها تاسكر الى سوق القسطنطينية أو بيرا بدوع المواد التي كانت تصدر من جنوب فرنسا الى امبراطورية الروم : نجد فيها قمشة صوفية من فرنسا والفلاندر ، ونسيج كتاني من ريس Reims ، وشملت صوفية . وعلى قدر علنا كانت ناربون هي المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا التي حظيت بامتيازات من الأباطرة البيزانتيين ، أول هذه الامتيازات منحه اياها أنطونيوس الثاني . ولما يختص بالرشوم البحرية ، لم تكن الامتيازات التي تتضمنها ذات أهمية ، لأن رسوم الفحول والخروج حددت فيها بنسبة ٤ ٪ ، فضل عن أن الامبراطور أضاف اليها في صالغ حرانته تبقيها على الداريين بالا يحاولوا تهريب بضائع أجنبية حاصلة لرسم أهل ، مع بضائعهم ، ورحس لجالتهم بأن يكون دار عامة وقنصل ينتخبه أفراد الجالية ليدر شئوليسا ، وله حق الفصل في كل الممارعات التي تلج بي رعيته ، ولكي لا يجوز له أن يخلص في القضايا الهامة .

Commém. reg., II, 278 no 6, suppl. A : *ibid.*, p. 283, no 92; *ibid.*, p. 284, no 238.

Coll. des doc. inéd., Mâcon, hist., III, 151-154; Commém. (٢٥٨) reg., II, 277, no 6, suppl. , no 7, suppl. A , *ibid.*, p. 283, no 92, suppl. *ibid.*, p. 307, no 183, suppl. , Coll. des doc. inéd., Le., p. 154 et m. 161, 147 ; Commém. reg., II, p. 275-277, nos 3-7, 8 ; p. 288, no 100; p. 287, no 108 et a. ; p. 300, no 121; Commém. reg., *ibid.*, p. 283, no 92; p. 288, no 114; *ibid.*, p. 284, no 238, p. 282, no 38 et a. , p. 307, no 183; Commém. reg., III, p. 11, no 61, p. 78, no 470; p. 91, no 563, p. 102, no 654, p. 135, p. 138, no 28, p. 180, no 279 , p. 284, no. 8 ; p. 320, no 208.

ولا يريد الامبراطور أن يجعل التجار النابوليين محمولين عن الأضرار التي يوقمها قراصنة من بني أمتهم في الامبراطورية ، ويحظى هؤلاء من ذلك الضمانات المعتادة لسلامة الأموال في حالة غرق السفن . ولم يكن من المتصور على ما يبدو صدور هذا المرسوم (٢٥٩) لإنشاء المستعمرة رسمياً ، لأن الامبراطور يتحدث عن فصل تم تعيينه من قبل . وبقيت المستعمرة بعد وفاة أندرونيك الثاني ، إذ نرى فيما بعد فصلاً للنابوليين يطلب من الامبراطور يوحنا الخامس ، ابن أندرونيك تجديد هذا المرسوم ، ويتم له ذلك (٢٦٠) .

يمكن إذن القول بحق أن مجموعة من الأمم التجارية كانت تتردد على أسواق القسطنطينية وضاحتها بيرا (محطة) . وتوسعت الشروط المفروضة على كل من هذه الأمم . وكالمعاد كانت الأمم الكبرى تنظم برعاية أكبر مما تحظى به الصغرى . كان البنادقة والجنويون يتمتعون بالأعطاف التام من الرسوم الجمركية (٢٦١) . أما البيزيون فكانوا يدفعون في القسطنطينية وبيرا ٢٪ من قيمة البضائع ، عند الاستيراد وعند التصدير . وكان الفلورنسيون ، والبورغنديون ، والأتراكيون ، والصفليون وسائر الأجانب يدفعون لرسوم نفس ، أي ٢٪ ، فقط كان يقتضى من هؤلاء سداد ضريبتين عند الوصول . وكان رسم التصدير يحسب بسهولة . فهناك أمران :

أما أن التجار الأجانب يبيعون بضائعهم ثم يشترون بالمبلغ الذي يحصلون عليه بضائع أخرى للتصدير ، أو يجلبون مع بضائعهم المستوردة ذهباً وفضة من أجل مشتريات جديدة ؛ لهذه المبالغ تخضع أيضاً

Ducange, Familiae byzantinae, p. 227 et s., éd. Paris, in fol. (٢٥٩).

le Musée des archives départementales (Paris 1876), (٢٦٠)

Texts, p. 222 et s.,

Miklosich et Mülller, Acta et dipl. graeca, III, 120 et s.

Tables, no XLIV, Ducange Famil. byz. p. 222 et s.; Geacharic Jos, grecoromanum III, 712 et s.

(٢٦١) المسألة هنا بطبيعة الحال ، لا تتمثل بضرائب تفرضها في المستعمرات حكومات الإمبراطور الأممية . كانت جمهورية جنوا تحصل لحسب عبي هذه الضرائب . وكان على سكان بيرا . وكذا التجار وقبائله السفى الجنويين الذين يبيعون بها البضائع أن يدفعوا الضريبة لتدريس حياتها أو حصولهم . أما بخصوص أعمال بيرا ، فإن الضريبة كانت تحد من عام ال عدم بمرقة البضائع . هل أساس قيمة أملاكهم التجارية والمقنونة . وكانت تقرر لتجار بالنسبة ال قيمة بضائعهم مهما كان نوعها . وسواء كانت سلعاً مستوردة أو للتصدير ، أو مارة بالأقليم ، وعلى وافية السفن أن يدفعوا الضريبة لسلطة مستوطنة أو لأهلهم . حتى ولو رسوا فقط بضائعهم . انظر في ذلك

Atti della Soc., Lig., XXII, 2, 85 et s.

للضرائب ، ومن ثم تكون عرضة لتفتيش موظفي الجمارك . وبعد سداد هذه الضريبة المزدوجة ، والحصول من موظفي الجمارك على إيصال بالسداد ، لا يبقى من التجار أى تكليف آخر ، إلا إذا اشترى بخصيصة يبيعونها فى سوق أخرى من أسواق الامبراطورية ، وفى هذه الحالة يلتزمون ثانية بسداد رسم ال ٢٪ ، والأمور كذلك إذا انصرفوا طلبا لبطائع فى البلاد الخاضعة على البحر الأسود لاجتماعها بالتالى الى الامبراطورية (٢٦٢) ويضيف بيجولوتى الذى لذين له هذه المعلومات أنه حين يقسم تاجر حديد لموظفي الجمارك ، من وكلاء تجاريين وتراصة ، فإن هؤلاء يتصرفون بأدب جم ، ويقدمون الرسوم على البطائع المستوردة منخفضة . وعند بيجولوتى يوجه عام معلومات غزيرة وصحيحة ، ويمكن الاعتماد على ما يقوله من تنوع الرسوم المفروضة ، ومع ذلك يتبين من الامتياز التى منحه القيرونيك الثالث أنه بالنسبة الى التاربيين الذين يعتبرون فى عداد البروفانسيين ، كان الرسم ٤٪ عند الدخول والخروج ، وبالنسبة الى أهم أخرى ، كان الرسم أعلى من ذلك . وقد رأينا فى الواقع أن الامبراطور مصر على أن يصنع التاربيين من احوال بطائع خاضعة لرسوم أعلى مع بضائعهم تهربا من دفع هذه الرسوم .

وكان فى أسواق القسطنطينية وبرا العديد من المصروفات التى يتحصنها البائع والمشتري مباشرة ، كرسوم الوزن والكيل (وكان الجنويون فى برا مصافين من هذين الرسمين حين يستعملون موازينهم ومكاييلهم) ، ورسوم غريبة التوابل (سحقها ودقها) وبخاصة بالنسبة الى الأنواع التى تختلف عنها تصايات . وأجور السمسرة ($\frac{1}{4}$ ٪) والحصانين والحزاسين ، الخ .

كانت برا هى السوق الرئيسية : وكانت الصفقات فى القسطنطينية أقل بكثير منها فى برا ، إلا أنه لم يكن هناك فرق بين السوقين من حيث السلع المفروضة للبيع . ومن المستحيل عرض قائمة كاملة ، أو حتى تقريبية بهذه السلع . ويصفى بيجولوتى (٢٦٣) فكرة من تنوعها الثلاثة ، ومع ذلك نقصد من ذلك ليس وضع قائمة بها ولكن فقط ذكر ما يباع منها بالربط أو الصاع أو اللقطة . الخ والمصروفات التى تتحملها حتى تصل الى يد المشتري . بذكر أول كل شيء التوابل ، ووجود التصبغة ، واللبائات المطرية من الهند وفارس ، المستوردة عن طريق طبرزون ، أو تانا . فبالنسبة الى هذه المواد لم يكن لسوق القسطنطينية ، أو

بالأحرى سوق بيرا مافس مبنى سوق الإسكندرية على أكثر تقدير .
وكذا سوق فاماغوستا Pamaugoste . ولم يوجد في أي مكان آخر
مثل هذه التشكيلة من النخب ، وكان هذا أمرا طبيعيا لأن الجزء الأكبر منه
كان يرد من آسيا الصغرى التي كانت تنتج أيضا الفلفل (ثمر البلوط ،
وهو دواء قابض مجلب ، ربما اتخذ منه خمر أو صمغ - المترجم) .
وكان فراء الشمال وجلوده تصل عن طريق تانا Tana ، وكاما Caffa
وكانت القسطنطينية هي المستودع الكبير لقمح القرم ، وبلغساريا ،
وتراليا ، وكانت صناعة السجج الغربية تتروء عندها بالمواد الأولية ،
من حبر فارس ، والعسوف ، ووبر ماعز آسيا الصغرى ، وكان
الإسكندرية أو اليونان ، وتصدر إليها أيضا منتجاتها . من جوخ القلاندر
وفرنسا وسكاليا ، ومنسوجات شمبانيا ، والخبوط الذهبية والفضية
من لوكا Luques وجوا . والنسجة بخاري من اندريجان (أرمينيا)
والبصرى . وكانت البدة ايطالية تنافس بها البدة اليونان وكانديا ،
وصابون البندقية ، والكوتا ، وبوليا ، وقبرص ، ورومس ، وتين ،
اسبانيا ، وجور نابول ، وزيت زيتون ايطاليا تتنافس فيها بقمح اليونان
وتاتاريا Tataria (ص) ، ولودانوم (عفار.مزوج بروح الخيون -
المترجم) قبرص ، وصمغ (مستكة) خيوس ، وبسبب ضخامة حركة
منتجات الشرق والغرب في هذا المكان ، رأى بيجولوتي من الضروري أن
يقع للتجار قائمة مقارنة بالموارد والمكايل والنفود المستعملة في بيرا
والقسطنطينية . وفي سائر الأماكن التي تنسى له أن يحصل على معلومات
عنها ، ولم يقع بالمقارنة بين هذين السوقين والجهات الرئيسية بايطاليا
وجنوب فرنسا . ولكنه قد أبحاثه إلى اشيائية وفادس ، وحتى إلى بورج
Burge ولندن .

ولذلك عن حيلة الاستفراد الطويل ، ونمود ال سرد الوقائع
التاريخية ، ولبدأها في عهد أندرونيك الثاني ، ونمر على الأحداث في
عشر السنوات الأخيرة من حكمه . وعلمنا أول كل شيء أن تشير إلى نزاع
خطير قام بين المستوطنات الجبوية في الشرق الأدنى وبين وطنها الأصل .
على جنوا ، وبعد خلافات داخلية طويلة بين الجواليين والجبليين انتهت
بالتصاري الأولين واخضاع المدينة لحكم زعيم الحزب في ايطاليا ، روبرت
ملك نابول (١٢١٨) وبقيت المستوطنات في الشرق الأدنى ونية للحزب
الجبلي ، كما بقي الإمبراطور أندرونيك أيضا محتازا لهذا الحزب ، وهو
امر مدهوم ، فلم يكن له أية مصلحة في تشجيع نمو سلطة ملك نابول
الذي أصبح أخوه فيليب دوتارمت Philippe de Tarente بزواجه من

كارين دو فالوا Catherine de Valois (١٣١٣) (١٣٦٤) وريثه
 لخطبة بلدوين الثاني Baudouin II بمرش الامبراطورية . لذلك وراء يقدم
 اعانات مالية كبيرة ، من جهة الجيوش الذين طردوا لمناصرتهم قضسية
 الجليليين ، ومن جهة أخرى لفرديك الثاني ملك صقلية (١٣٦٥) عدو دوبرت
 المباشر . ولم يكن في وسع الحزب الجويلي للسيطر على جونا ان يتساعده
 في تنظيم هذه المعارضة الجيلية في الشرق ، خاصة وان عدد الجليليين
 المبرزين من المدينة أصبح يشكل خطرا عليه .

وعلى ذلك قر عزم الحزب على القيام باستعراض من شأنه اوهاب
 الامبراطور والرعايا الجيوش المقيمين باليونان وعلى شواطئ البحر
 الاسود . ففي عام ١٣٧٤ أبحر أسطول جوي جويلي متجها الى الشرق
 تحت امرة كارلو جريمالدي Carlo Grimaldi ، وحيل وصل قبالة
 بيرا ، وجد المستوطنين مستعدين لاستقباله ، واذا لم يجرؤ كارلو جريمالدي
 على مهاجمتهم ، فإنه اكتفى بأخذ بعض الاسرى ، ثم توغل في البحر
 الاسود ، وأوقع خسائر شديدة بالمستوطنين في تانا وبسكي Pece
 (ميناء جنوبي تانا على نهر بي - سو . Bei-sou) . ولكنه حين أراد
 الرجوع ، وجد مدخل الميناء مغلقا . فقد كان لهم انتفازه عند مضيق
 هيرون Hérone . أسطول أكبر عددا من أسطوله ، جهزه جويو بيرا . ولما
 لم يستطع المرور اليه الى سينوب Sinope بأمل أن يجد بها عددا :
 ووعده أمير المنطقة ، السلاز شلي Obazi Tchélébi بأعطائه كل
 ما يطلبه . على أن هذا الوعد لم يكن سوى حيلة ، إذ تمكن الأمير من
 الاستيلاء فعدا على قسم كبير من بحارة الأسطول ، ومعظم القادة ، وقطع
 رؤوس بعضهم ، وألقى الآخرين في السجن ، واستولى على كل السفن
 تقريبا ، وهرب بقية السفن ، ولجأت في القسطنطينية بين طرادات بيرا
 والعودة الى جنوا (١٣٦٦) . وما كادت مستوطنة شلطة تهبط بالآ من هذه
 الناحية ، حتى اضطرت الى الفرار عن تلسها ضد هجوم شبه المندقة .
 ويحدث في صد الهجوم دون خسائر كبيرة . وكان ذلك في عام ١٣٦٨ ،
 وكان الحصان يمشان في سلام منذ زمن بعيد . ولكن الهتدية اذا انار
 حفيظتها أعمال القرصنة المديدة التي كان يقوم بها البحارة الحويون ،
 لقد قر عزما على أن تأخذ بثأرها ، ونقلت حملة كبيرة غفلت بقيادتها
 الى جوستينيانو جوستينيانو Gustiniano Giustiniani
 وقسم الأميرال البندقى أسطوله قسمين ، ونجح في إمراد القسم الأول

(١٦٤) Buchon, Recherches et matériaux, I, p. 82 et 83.
 (١٦٥) Texta, Vite Friedrich II, p. 383.
 (١٦٦) Contin de Jacq de Voragine, l.c., p. 505 et 5, Stella dans
 Murat., Bd, XVII 1851 et 5 Giustiniani, Annali di Genova, p. 322.

تحت أسوار غلطة ، واحتس هذا القسم ضيق حيرون وأمر عددا كبيرا من السفن الحوية . وكمن جوستيني مع القسم الثاني من أسطوله قبالة برج لبادد (بالقرب من اسكوتاري) (٢٦٧) ، وأعلن أنه لن يتحرك من هناك حتى يحصل من الجالية الجبوية على وعد يدفع بمواضع حربي قدره ١٨٠٠٠ دينار ذهبي ، يستد في ثلاث سنين . ولم يفل مقامه هناك أكثر من اسبوعين أو ثلاثة ، وعنده استجاب أطلق سراح السفن التجارية الجبوية (واليونانية) التي كان قد أسرها . وابتهج أهالي القسطنطينية حين تبين لهم أن شخصيات القمح والسكك الملح التي أتت بها هذه السفن من سواحل بحر أروف ومصب كوبان والدن بقيت سليمة . وكانت الدعشة كبيرة وسارة حين تبين أيضا أن عاصمة الامبراطورية أصبحت مضطرة للحصول على رادها أن تذهب في طلبها إلى تلك البلاد البعيدة ، وذلك عند أن فتك بالسهول الحصبة في تراقيا ومقدونيا مرة بعد أخرى الفرقة القوطانية ، وإترك آسيا الصغرى (٢٦٨) .

وبعد بضعة شهور ، استقل أندرونيك الثاني المعجور من عرشه ، أسقطه حفيد أندرونيك الثالث الصغير (مايو ١٩٢٨) . ويبدو أن هذا الانقلاب حدث حماء جديدة في الامبراطورية . كان الامبراطور الجديد ذا طبيعة معارضة ، وعمل يتوخى على رفع البحيرة من مستوى الانحطاط التي وصلت اليه بسبب أهوال سلفه ، ولم يستغرق هذا العمل إلا وقتا قليلا . وكان من أوائل أعماله استرداد جزيرة خيوس التي كانت أسرة ركاريا الجبوية قد استولت عليها تمسلا . وقد رأينا قبلا الظروف التي دم فيها ذلك .

وكان سكان الجزيرة اليونانيون قد أرهقتهم الضرائب التي فرضها عليهم هؤلاء السادة الجدد ، وكانوا فضلا عن ذلك يكرهونهم بسبب أصلهم اللاتيني . ومن ثم التمسوا من الامبراطور أن يخلصهم من رقة الأجاسي . وفي عام ١٣٢٩ جهز أندرونيك أسطولا لم يشهد أحد مثله من دمن بعيد . يساعده سكان الجزيرة اليونانيون ، فأجبر دون مشقة الأمير الحاكم وقتئذ ، مارتينو زكاريا على التسليم وإلقائه أسيرا إلى القسطنطينية . أما بنديتو زكاريا أخو مارتينو فقد حان أخواه لأفراس شخصية ، ومن ثم طرد من

Nicéphore Grégoire dit edans la Corne d'or (٢٦٧)

Dandolo, p. 412 ; Baruta, Vite del ducado, p. 388; Contin de Jacq. de Voragine, p. 507 et s. , Nicéph. Grég., I, 418 et s.

Nicolas Baruta, duc de Naxos (٢٦٧)

لود لوفرا ساتور ، دوق ناكسوس الأسطول اليوناني بتيز من أربع سفن (Nicolph. Grég. I, 438) :

الجزيرة ، وحاول بعد ذلك استرداد الجزيرة لحسابه الخاص ، ولكنه فشل
ومات كندا في عام ١٢٣٠ (٢٧١) .

واذ استتب سلطان أندرونيك من حيوس ، فكر من بسط سلطانه
أيضا على مدينة فوكاية . وادّعى أن هذه المدينة قد انتقلت في عام ١٣١٤
من يدي باليولوجوس زكاريا الذي توفي بلا عقب الى يدي أندريولو كاتانيا
Andrèolo Cattaneo . وكان الأخير على قيسه الحياة حين أقبل
أندرونيك وضرب الحصار أمام المدينة ، ولكنه كان حينئذ غائبا ، وعهد
بحراسة المدينة الى عمه أريجو تارتارو Arrigo Tartaro . ولم يبد
أريجو أية محاولة ، ولو شكلية للدفاع عن المدينة ، بل سلم للامبراطور
فوكاية الجديدة كلها ، مدينة وقصرا ، وأسلم يمين الولاء بين يديه ،
وعنه الجامعة الجنوبية كلها .

دخل أندرونيك القصر ، وعقد بلاطه يومئذ ، وعينها وطه على هذا
البحر سيادته . أقام أريجو حاكما على المدينة لمدة غير محدودة ، يصفه
مستك لا أندريولو العائب (٢٧١) . وهكذا احتفظت أسرة كاتانيو بملكيتها
لفوكاية ، بلطش ما أبدته من خضوع مناسب . ومات أندريولو بعد هذا
بقليل (١٣٣١) ، وولى ابنه وخليفته دومنيكو Domenico أنه ليس أكثر
من حاكم ، فلم يلبث أن تصرف في فوكاية باختياره سييدا وعاملا ، ولم
يقم بذلك ، بل أسوى بقوة السلاح على جزيرة من أجمل حرد
الامبراطورية . كان ذلك في مناسبة العمليات التي أجراها باييزا من
البدالية الكثير من القوى المتحالفة ضد أترك آسيا الصغرى ، وكان
للمصود أولا وضع سواحل الأرخبيل وجسوره في مئذ من لمارات
فراصنتهم ، ثم اذا أمكن إيمانهم من الساحل ودفعهم داخل الأراغى (٢٧٢) .

ودعم بدايات مؤلفه ، ثم يثبت الحلفاء أن عدوا عن المافى في حلالهم
هذه . غير أن فرسان رودس ، ودون ناكسوس Naxos ، وسيده فوكاية ،
وقد ثار غضبهم بعد أن ألقوا أموالا طاعت هذه ، قر عزيمهم على تعويض
خسارتهم بالاستيلاء على لريوس Lesbos . رغم أن هذه الجزيرة كانت

(٢٧٠) Contareux, t. 371-383. 390 et s. ; Nicéph., Grég., t. 438 et s. ;
Contin, de Jacq de Vorag, p. 810.

« أخبار بعض المسافرين الى اسر عاركيو »

Landolf von Suthen, p. 23 et s.
« Jord. Catalani, p. 88 et Brochart, dans son Advis directif (en tête
de l'oeuvre de Pillot), p. 281

Contareux, t. 383-390. (٢٧١)

(٢٧٢) بعد مزيد من التماس في العمل الخاص بآسيا الصغرى .

تابعة للأمبراطورية ، وأن أندرونيك كان من أعضاء الحجب - ونجحوا في ذلك ، إلا أن فرسان رودس ودوق ناكسوس اضطروا بعه قليل إلى التخل عن غنيمتهم - أما سيد فوكاية فإنه استنضم الحجة حيناً ، وأخيراً ، واستطاع بذلك أن يضمن لنفسه ملكية الجزيرة ، ملكية مطلقة . ثم بادر بتوطيد مقامه فيها . ولم يترك فوكاية سوى جامعة (٢٧٣) .

كان غزو لزيوس على أيدي أسد ، مواطني الجنوبيين في منطقة أمرا يسر هؤلاء بلا شك ، كان نوعاً من التعويض عن فقدانهم جزيرة جيوس . وكان في أسدويهم الذي عبروا به عن فرحتهم إهانة وتهديداً للأمبراطور . والحقيقة أنهم كانوا ياقين عليه ، أولاً لأنه اغتزع جيوس من آل زكاريا ، وإحسان آل كاتانيو من فوكاية . ثم أنه تخلى عن السيادة البحرية للعادية التي كان يتمتع بها سلفه حيال البندقية (٢٧٤) . فالواقع كان أول تظلم لهم أن أندرونيك ، في الوقت الذي تأهب فيه لمضغ جده عن العرش كان قد لجأ إلى أمير البحر البندقي جستينيان ليحصل منه على نجدة ولفي هذا أن يقدمها إليه (٢٧٥) . والتظلم الثاني . أنه انضم إلى المنصب للشكك ضد الإثراك وهذا الحلف هو في الأصل من ابتكار البندقية . وأنه في المؤتمرات التي انعقدت في رودس عام ١٢٢٢ ، جعل مثلًا له السفير البندقي بييترو داكانيالي Pietro da Canale (٢٧٦) . ثالث تظلم : أنه في شهر نوفمبر من السنة نفسها ، صادق على المعاهدات القديمة المعقدة بين الأمبراطورية والبندقية ، وأبقى استعداده لتلقي مجموعة من طلبات التعويض المقدمة إما من حكومة البندقية أو من بعض البنادقة (٢٧٧) .

وفي هذه الأحوال ارتأى الجنوبيين أنهم غير ملتزمين بمساعدة المعاهدات الخاصة بهم مراعاة دقيقة ، ومن ثم عملوا على تقوية التحصينات القديمة

Nicéph. Grég., I, 535 et s. , Contaque.

(٢٧٢)

(٢٧١) كان التعديك الثاني قد أظهر مشاعر سلبية حيال البنادقة : فبعضى جامعة قلدها في شهر أكتوبر ١٢٢١ مع لادج جيوفاني سوزانزو . مسبب شكوك من أكر شكاريهم ، وذلك بأن رخص بيع قبح بنطس زعفران بوجه عام في كل أنحاء الامبراطورية ، فيما عدا في سواحل الجنوب بالقسطنطينية : ويوجد النص اليوناني لهذه المعاهدة في Miklos et Muller, Acta graeca, III, 199 et ss.

والنص اللاتيني في .

Taf. et Thom., IV, 306

Nicéph. Grég. I, 417.

(٢٧٥)

(٢٧٦) له سلطات مطلقة ، في ٢٦ أغسطس ١٢٢٢ .

Taf. et Thom., IV, 327.

Texte grec dans Miklosch et Muller, Acta graeca, III, 106-111; (٢٧٧)
texte latin dans Taf. et Thom., IV, 330 et ss.

في غلطة ، ثم وجدوا أنها غير كافية فحشروا خسارح حيهم على المرتفع
الشرف على غلطة حصونا كالفلاع كمنسوا بها أسلحة مختلفة
أنواعها (٢٧٨) . وما أن بلغ الإمبراطور نبأ ما جرى في لزيوس حتى
أصدر أمره بعمل الترتيبات اللازمة لاستعادة الجزيرة من فروها ، إلا أنه
أراد ألا يرسل قبل أن يطمئن أهالي يريا درسا قاسيا ، فبدأ بإشغال
النيران على القلاع التي شيدوها على المرتفع ، ذلك لأنه لم يكن من الجائز
لهم أن يسوها بالخلافة التامة لاعتبار عام ١٣٠٤ ، وكان يوده أن يضى
إلى أكثر من ذلك ، ولكنه توقف لعدم ما أمده السكان من عريضة قوية ،
اد كمنوا جلب أسوارهم وهم محصون تماما من ناحية القسطنطينية ،
وأمنوا هدفهم لخصار حسب الأصول للرعية .

وفي المستطاع أن ترى في هذه الظروف ما كانت عليه التجارة بين
العاصمة وشاحيتها ، وأهمية هذه التجارة في الولاء بالسلطة . ولما كان
سكان غلطة يقدرون من للقسطنطينية بالأشياء الضرورية لحيشتهم ،
لذلك وجدوا أنفسهم بعد بضعة أيام مهددين بالمجاعة ، فاضا عن أن
جباة من صغار التجار الذين يتمشسون من التجارة وجسوا أنفسهم
محررين من وسائل معيشتهم . هذه الحال حدثت قادة الحركة على
التكبير ، ولما انقضى أسبوع في صياح وشحيج ، اعترم القادة على الادعاء
للإمبراطور . وهكذا صار في وسع أندرونيك أن يرسل وهو مطمئن من
أحبيتهم ، فابخر مع أسطول كبير لكي يلاهب ديميتريو كانايو (٢٧٩) .
وبدأ بالاستيلاء على خمس سفن تابعة للمتمردين على طول سواحل لزيوس ،
وبعد أن أنزل في الجزيرة عددا من الفرق العسكرية التي كلتها محاصرة
ميتلين Mitylene عاصمة الجزيرة الجديدة ، اتجه إلى فوكاية مدعاه
الرئيسي . وفي هذه الناحية وجد تابعا ذا فائدة عظيمة له في شخص
صاروخان Sarou-Khan (٢٨٠) سلطان مانيريا Magnésie كبت علاقة
هذا السلطان بمستعمرة فوكاية غريبة في نوعها . إذ كانت المستعمرة
تدفع له كل سنة ، على شكل هدية (٢٨١) مبلغا من المال حددته معاهدات
قديمة . الأمر الذي لم يسمح قيام منازعات دائمة بينها وبينه . وكانت
في هذه الأكلة بالذات تحتجز أبا للسلطان ، ورجالان أغرى . وكان

Nicéph. Grég., T. 337.

(٢٧٨)

Nicéph. Grég., I, 428; Cantacuz., I, 478 et s.

(٢٧٩)

(٢٨٠) بخصوص هذا السلطان والإمبراطورية ، انظر فيما بعد : آسيا الصغرى .

Bou-Belouie, II, 314; Ducas, p. 163 et s.

(٢٨١)

— يحدد هذا الأخير رقم الجزيرة . وتبعا للتواريخ التي يذكرها ، بدأ كل ذكرها
دفع انهيرة في أواخر القرن الثالث عشر .

السلطان قد احتجب مرارا شجاعة حامية فوكاية (٢٨٢) ومناة قلمتها .
 فلم يحرز على مهاجمتها . ومع ذلك سارع بقبول دعوة الامبراطور ،
 وقامت قواتهما المشتركة بحصار المدينة : وقام الموقع أكثر من سنة
 شهور ، وأصبح المحاصرون مهددين بالمجاعة ، ولم يتفوها ، ولبشرة أيام
 فقط إلا بالقاء السكان اليونانيين خارج الأسوار . وأخيرا قرعهم على
 التناوض (١٢٣٦) . وأطلق الحاكم الجنوى سراج الأسرى الاتراك ،
 وتمهد بالحصول من كاتايو على قرار بالجملاء عن جزيرة لزبوس .
 واعتزم كاتايو بالفعل ترك الجزيرة ، أو بالأحرى العاصمة ، فهي كفى
 ما تبقى له ، إلا أنه لا يبدو أن المعاهدة أثرت فيها اعتزم فعله . ذلك أن
 ما حصله على اسعاد قراره هذا هو تخلي جنوده عنه بعد رشوتهم بالذهب
 البيزنطي (٢٨٢) . وعلى ذلك عاد ال فوكاية التي وافق الامبراطور على
 ترك حق استغلالها له ، لا حق ملكيتها . ومع الكماش مستلكاته على هذا
 النحو ، لم يستمتع بها زمنا طويلا . فبعد أربع سنوات (١٢٤٠) ،
 كان ذات يوم يصطاد ، فثار السكان الروم وقتلوا جنود الحامية اللاتينية
 الصغيرة ، وأعلموا أنهم لن يشرطوا بسبيهم الا الامبراطور . وجاء
 حاكم رومي Megadoca أرسله الامبراطور ، وتسلم باسمه مقالبه
 الحكم (٢٨٤) .

ولدينا من المعلومات ما يكفي لنفهم ما كان لهذه الأحداث من أثر
 في هياج النفوس في سلطة . ففي عام ١٢٣٧ حين تجرأ أورجان ، الأمير
 «عثماني الأكبر» الذي كان مسيحيا منذ زمن بعيد على الضلة المسيحية
 لهلسيوننس Hellespont (الدردنيل) لعبير الخشيق عند نلقطين بقصد
 ضرب الحصار أمام القسطنطينية نفسها ، كان قد أدخل في اعتباره تدمير
 أحبال سلطة (٢٨٥) . فهل كان قد افق مسبقا مع سكان سلطة ؟ وعلى
 كان على حق في اعتياده بصورة ايجابية على معاونتهم له ، أو على مجرد
 حيادهم ؟ لا يمكننا أن نجيب على ذلك ، ثم ان الأمر لا أهمية له ، لأنه
 هزم وارتد قبل أن يصل الى أسوار العاصمة . غير أن هذه الواقعة مبدئة

(٢٨٢) على عهد اندرونيو كاتايو كانت الحامية تتكون من ٥٢ فارس ، و ٤٠ جندي
 من الفلقة Catal p. 88.
 (٢٨٢) ما تقدم مقلبي في :

Nicéph. Grég., I, 529-535, et à Cantacuz., I, 477-486 :

ولا بد من القول بان بين المكاين لروما كبيرة .

Nicéph. Grég., I, 555, Hœp., art. Glutiniand, p. 312, 318. (٢٨٤)

Nicéph. Grég., I, 589. (٢٨٥)

للفاية إذ توضح لنا مدى تراخي الحلف المتعقد بين بيرسطة وجنوا يستعصى
معاهدة بيسنيوم في عهد الإيولوجوس الثالث .

وتوفي أندرويك الثالث في عام ١٣٤٦ تاركاً الإمبراطورية ليوحنا
الخامس ، وهو طفل في التاسعة من عمره ، بوصاية أمه الإمبراطورة آن
Anne (من سافوا) ، وبعد وقت قليل رفع « الخادم الأكبر » يوحنا
كانتا كوزين Jean Cantacuzène علم الثورة ، وبعد سبعة طويلة من
الصراع نجح في استلام الأناج بانديا انتظاراً لبثوغ يوحنا الخامس من
البثوغ (١٣٤٧) . هذه الحرب الأهلية الطويلة شملت التجارة والصناعة
في البلد ، وأهملت الشعب ، وأضعفت الإمبراطورية ، وأتاحت لأعدائها
فرصة التوسع على حسابها . عندئذ مد استيفان دوشان Etienne Douchan
ملك الصرب سيطرته على الأرخبيل ، واتخذ لنفسه لقب إمبراطور
القسطنطينية . وما كان مسيطراً على حوض ستريمون Strymon
(ستروما Struma حالياً) ، فإنه حتى يتم له غزو تراقيا وعاصمة
الإمبراطورية ، لم يكن ينقصه - وهذا ما يملأ له على الأمل - سوى التحالف
مع قوة بحرية . ومن أجل ذلك اتصل مرتين بالبندية (في ١٣٤٦ ،
١٣٥٠) ليحصل على معاونتها ، وفي المرة الثانية عرض عليها تمناً
لتعاونها السيادة الكاملة على بيرا أو إبيروس ، ولكنه تلقى في الموضع رد
الجمهورية بأنها لا يمكن أن تتنكر لمعاهداتها ، وأنها تفضل أن تقوم بدور
أوسيلة (٢٨٦) .

وعلى الصوم كانت علاقات البندية في هذه الفترة بأبطرة الدولة
البيزنطية ذات طبيعة ودية . وعندما تسلمت الإمبراطورة آن مقاليد
الوصاية على العرش ، تلقت تهاني سفير بندي جنود معها المعاهدات القديمة
سبع سنوات (٢٨٧) . وعندما تولى يوحنا كانتا كوزين العرش
الإمبراطوري الت عليه للجمهورية (٢٨٨) وطلبت منه مدداً جديداً
لامتيازاتها القديمة (٢٨٩) والحقيقة أن هذا البناء لم يكن إلا وسيلة لمعرفته

Monum. hist. Slav. merid., II, 184, 178, 192 et s., 328 et s. ; (٢٨٦)
III, 119, 178, 177, 183.

Texte grec dans Schklosch et Müller, Acta II, 111-114a delo (٢٨٧)
et dans 1342 ; texte latin dans Taf et Thom, IV, 287 et ss. Veyen aussi
Hopl., nr! Griechenland, Op. Cit., p. 448 et s.

وفي هذا الترحع الأخير حديث في قرع سملت أد بنديتية كرسى عنه جواهر الأناج .

(٢٨٨) كلف هذه المهمة (١١ يولية ١٣٤٧) سفراء جنوا القابلة لخصان بندي

Khan Djanibek دكر جنوا في مراكهم بالقسطنطينية Taf, et Thom., IV, 310.

(٢٨٩) برسطة (كاريا كوتارين ، ٩ من سبتمبر ١٣٤٩

Miklos et Müller, l.c.,
p. 114-120, Taf. et Thom. IV, 341 et s.

الى النظر في طلبات تعويض ومطالب موعة . مثال ذلك أن التجار الهنادقة كانوا يصيدون قنبا من آسيا الصغرى عن طريق قوكاية ، وكان موظفو الجمارك ليوغانيون يجبروهم على دفع الرسوم ، ومن ثم ادعت الجمهورية أنها ترى في هذا التصرف انتهاكا لما لها من اعطيات جمركية . وكان بيع اللبيد في المحلات محظورا على الهنادقة ولكنه مسموح لليوغانيون وحدهم ، وهذا مخالف للمعاملة . وفي عام ١٣٤٤ كتبت حكومة الهندية « البلاغات » بالاسم في العام هذه الاجراءات . وفي عام ١٣٤٥ اوسنت الى الامبراطور خطابا بهذا المعنى (٢٩٠) .

اما الجيرون فانهم لم يغفلوا الفرصة التي افاحتها لهم الانفطرابات الداخلية في الامبراطورية ، وكانوا يقولون ان استعادة ملكيتهم لجزيرة جيروس التي كان بها حاكم يوناني منذ عام ١٣٢٩ ، على أن مارتينو زكاريا حاكم الجزيرة السابق كان أكثر الناس حساسة لاستعادة الجزيرة ، وكان في تلك الآونة أسيرا في القسطنطينية ، ثم أطلق سراحه ووضعته النول المتحالفة ضد الاتحاد على رأس الجيش الذي غزا فيها بعد تحت لمرته مدينة سميرن . وخطر له أن يستنز هذه الفرصة ويستعيد جزيرة جيروس ، إلا أن البابا حظر على القسطنطينيين تنفيذ هذا المشروع ، لأنه يأت من الهدف الرئيسي للحملة . وكان لا بد من المغفل عن المشروع (٢٩١) ، ولم يعد في الامكان طرح المسألة على بساط البحث بعد الاستيلاء على سميرن . وقد قتل بها زكاريا في عام ١٣٤٥ . ومع ذلك ، فبعد مضي سنتين على وفاته عادت الجزيرة من جديد الى أيدي الجيرون . وهذا ما حدث : ففي عام ١٣٤٥ اندلعت ثورة بين سكان سواحل ليغوريا Liguria ، ولاحد هذه الثورة كان لا بد من استخدام أسطول ، إلا أن خزانة الدولة كانت حائرة ، واستجابة لنداء الدولة تكفل عدد من الوطنيين الأثرياء بتجهيز أسطول بشرط أن تضمن لهم الدولة مبالغ ما أدوا من نفقات ، واقاموا على رأس الأسطول رجلا باسكا من رجال الشعب يدعى سيمون فينوري Simon Vignori . وبعد أن تشتت المتمردين دون أن يبدوا أية مقاومة ، أريد الاستغناء من التسليحات المجرة ، ومن ثم أرسل الأسطول الى البحر الأسود حيث كانت الباليات الحنوية في حاجة الى حماية . وغادر الأسطول حنوا في ربيع عام ١٣٤٦ ووصل في ٨ من يونيو الى نجيرون ، المحطة الوسطى . ووجد بها اسطولا آخر يتأهب للانطلاق ، في حملة يقودها هينري الثاني Humbert II

Tafel et Thomas, IV, 278 et s., 287.

(٢٩٠)

Raynold, *Annal eccl.* ad an 1346, no. 2.

(٢٩١)

ولي عهد فيينا لانقاد سبيرو الذي أطلق عليها الأتراك . وكان ولي العهد
 عند وصوله إلى جريوت قد عقد على الأرجح معاومات مع آل (أو أ)
 الوصية على عرش الإمبراطورية بقصد الحصول منها على التنازل له على
 جزيرة خيوس لمدة ثلاث سنوات ، وهي المدة المحددة للحملة التي يتولى
 قيادتها (٢٩٢) . وكان لا بد أن تكون هذه الجزيرة قاعدة لعملياته الثلاثه
 في آسيا الصغرى . ويبدو أن الإمبراطورة ، بعد أن رحبت أولا بهذا الطلب
 غيرت رأيها . ومن ثم تاهب ولي العهد لاستغلال الجزيرة بالقوة وذلك في
 الوقت الذي دخل فيه فينوزي ميناء جريوت بأسطولها الذي يضم تسعا
 وعشرين سفينة . وعرض عليه صبرته كما عرض على رفاقه قبائضه السفى
 حباله صغمة للحصول على معاوماتهم ، أو على الأقل حياضهم . ولم يكن في
 ذلك حذو . ولم يكن ثمة جنوى لا يذكر أن حرية خيوس كانت منذ
 يضع سنوات حطت تابعة لأمر من مواطيه ، ولا يلقى في نفسه الرغبة
 إلى استعادة هذه الجزيرة إلى أملاك جنوا ، ولا يريد تقديم مساعدته لكيلا
 تلحق الجزيرة في أيدي أجنبية . ورأى فينوزي ورفاقه بحق في مشروع ولي
 العهد عملية دبرها المندقة خفية ، وهم حلفاؤه الرئيسيون في هذه
 الحملة (٢٩٣) . وكان المعروف أن المندقة لو استقرروا مرة في الجزيرة
 بعد احتلال ولي العهد إياها ، فليس يكون من السهل إخراجهم منها ، وأن
 في سيطرة المندقة على خيوس تهديدا خطيرا لعلاقات جنوا بالقسطنطينية
 والبحر الأسود . لذلك رفض الأميرال ورفاقه هذه العروض ، وبادروا
 بالعمل . ولما وصلوا إلى خيوس اكتفوا أولا بعرض مساعدتهم للأعمال لصد
 هجوم صبرته والمندقة اللوشيك الوقوع . ولم يطلبوا منهم مقابل ذلك
 سوى رفع العلم الجنوى ، واستقبال فرقتهم . وإذا تلقوا من الأعمال رفضا
 قاطعا لمروضهم ، فأنهم لحاقوا إلى المنفى (١٦ من يونيو ١٣٤٦) واستولوا
 في أربعة أيام على الجزيرة كلها . فيما عدا قلعة العاصمة التي ما لبثت
 أن استسلمت بدورها بعد حصار استغرق ثلاثة شهور (١٢ من
 سبتمبر) (٢٩٤) . أما صبرته ولي العهد ، فإن هذه الحملة انتهت نهاية

(Valbenale) Mémoires pour servir l'histoire du Dauphiné. (٢٩٢)
 Paris 1711, in fol. p. 277, 280, M. Poigny, la Bibl. de l'école des chartes,
 série série I, 274-280 . Sieis (Mémoires. XVII, 1685 et 2, 1683 et les
 Eriole Pistoloni, Prato 1635 p. 483 et 2 , Taf et Thom. IV 298 300;
 U. Chevallier, Chron. de doc. hist sur le Dauphiné (Lyon 1874) p. 95
 et 96 ; Archives de l'Or, lat, I, 587 et 2.

Taf, et Thom, IV, 298, 300 . Continem. reg. , II, 149, no 173. (٢٩٣)

Lib. jur., II, 568-572 (et dans C. Pagano Della (٢٩٤)
 Impres. e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 271-286) et
 la Chronique de Giorgio Sella, l.c., p. 1088-1089.

غير مشرفة له ، فلم يعدل فقط عن الفرد الذي كان يحكم به ، ولكنه فقد في الحملة أيضا حيلة ، وجواهره ، ومعداته ، ولتسيان تهيئة أخرى انزعجها القراصنة الجويون (٢٩٥) . وكان نجاح حملة فيلوري وزفاقه حقيقيا بأن دحر اليهم بفكرة استعادة « مدينتي فوكاية » اللتين احتجنا لزمان طويل مع حيوس تحت سيادة أسرة واحدة من أمراء جويين ، وكان عليهم أيضا أن يثأروا من سكان هاتين المدينتين الذين لم يكتفوا عن مباحثتهم أثناء حصار قلعة حيوس . وسقطت المدينتان ككتاهما في أيديهم في شهر واحد ، فوكاية القصية في ١٨ من سبتمبر ، والجديدة في ٢٠ منه (٢٩٦) . وأراد فيلوري أن يمشي إلى أبعد من ذلك ، وبعد غزواته حتى لربوس وتينديوس Ténédos ، غير أن التقسيم الأكبر من دجائه رفضوا الخلق منه ، ومن ثم اضطر إلى العودة إلى حيوس (٢٩٧) .

ولكي يحصل الفداء سكان حيوس وفوكاية على قبول نظام حكم جديد بحلولهم للعدو من رعايا الامبراطورية اليونانية إلى مواطنين جويين ، فإنهم أبدوا لهم كراما كبيرا ، فاحتضنوا بقدر المستطاع الملكيات الفردية ، وأعطوا الأثراء كل الضمانات المرغوبة ليتمتعوا بحريتهم المدنية والدينية (٢٩٨) ، كما بدلوا الجهد لتفكيك جامعات كاثلية لمدرسة الجزيرة ومدن القارة . وبعد أن أجزوا على هذا للتصحر كل متطلبات الحالة الراحلة ، عادوا إلى وطنهم . وكان لا بد من تسوية حساباتهم مع « القومون » : كان هذا موضوعا لمفاوضات طويلة انتهت بتسوية حاسمة وقعت في ٢٦ من فبراير ١٣٤٧ (٢٩٩) . ولم يكن القومون كما رأينا من قبل قد قدم أي مبلغ لتجهيز الأسطول بالجنود والمعدات ، ولكنه تعهد بتحويل أعضاء الحملة عن كل ما يصيبهم من خسائر ، ويطعموا لمجهزي السفن كل ما ادوه من ثلقات وذلك بمبالغ تستقطع من إيرادات الدولة . وبعد تسوية الحسابات كلها ، بلغت ثلقات الحملة ٢٠٣٠٠٠ جنيه ، غير أن الجزارة لم تزل حاوية . ولتمويض قادة الحملة ، نخلت لهم الحكومة عن ملكية الجزيرة وفوكاية ، ملكية كاملة ، وتلقى كل دبان مسلمة ليا يكتل له نسبة في الإيرادات العامة . وهكذا وجد غداة حيوس وفوكاية أنفسهم

Biblioth. de l'école des chartes, I, c., p. 284-287, (٢٩٤)

Stella, I, c., p. 1068 et s.; Lib. Jur., II, 660; Pagnon, I, c., (٢٩٦)
p. 266-270.

Stella, p. 1988, (٢٩٧)

(٢٩٨) الفتر مستعدة ١٢ سبتمبر بشأن حيوس ، ومعاملة ٢٠ سبتمبر بشأن فوكاية في :
— Pagnon, p. 261-270.

Lib. Jur., II, 568-573, p. 1498 et ss.; Pagnon, p. 271-285, (٢٩٩)

أعضاء في شركة مساهمة . هل غرار الكثير من مبادئ الشركات المساهمة في ذلك العصر ، باسم مأثري *Macon* أو مأهوس *Mahons* (٣٠٠) ، وأطلق على المساهمين اسم « مأهون » *Mahons* . واحتفظ الكومون لنفسه بانطق في استرداد الأسماء شيئا فشيئا بالشراء بحيث يعدوا مالكا لها في مهلة معينة بعد تعويض المأهون بالكامل . إلا أنه بسبب العديد من الحروب التي اشتركت فيها الجبهورية ، والنفقات التي استلزمها ، بقي هذا التفظ حبرا على ورق (٣٠١) . ولم تخرج « ملكية الانتفاع » *dominium utile* بخيوس وفوكاية من أيدي الشركة . إلا أنه طرا على تنظيمها ، وعدد المساهمين ، وأسمائهم ، وعدد الأسهم وقيمتها بمرور الزمن تغيرت كثيرة . لبعد أن كانت الأسهم في البداية مركزة في أسر وبداية السفن التي غزت جيوس وفوكاية ، انتقلت بالبيع من أسرة إلى أخرى (٣٠٢) . وعلى الرغم من هذا انضمت ، بقيت المصالح المشتركة قائمة . وفي عام ١٣٦٢ انعقدت معاهدة جديدة بين الكومون وبين « المأهون » (٣٠٣) ، ورأى هؤلاء أنه من الأفضل أن يعملوا على الخلافة الملائكة التي تربطهم بعضهم ببعض . ومن أجل هذا تخلى كل واحد منهم عن لقب الأسرة الذي يحميه ، واستبدل به لقب جوستينيانى (٣٠٤) . ولا شك أن الأصل في اختيار هذا اللقب يرجع إلى قصر جوستينيانى الذي كان ملكا مشتركا للشركة في جنوا (٣٠٥) . واعتبارا من تلك اللحظة بدأ أن المأهون يشكلون طائفة كبيرة .

وهل المكسب من الصادة المتبعة لدى المأهون القديم الذين كانوا

(٣٠٠) يجد تفسيرات مرفقة لهذا الاسم عند الكتاب الآتي بإقليم ١
Serra Steria, dell'antica Liguria e di Genova, IV, 103 (ed. Capolago),
Paganò, Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 133,
Canale Nuova storia di Genova, V, 277, Alivieri Carte e cronache
manoscritte, p. 68 ; Hopf, op. Giustiniani, p. 327, Promis, La zecca
di Belo, p. 336; Amari, L'op. arab. p. XXXV, Amari, Storia dei Musulmani
in Sicilia, III, 386, not 4, cf. Dozy et Englemann, Glossaire des mots
espagnols et portugais dérivés de l'arabe, 2e éd. (1868), p. 179 et s.
 — في لغة العربية ، كلمة يشبه مطلقا أصل كلمة *Macon* وربما أكثر ملازمة
 لطبيعة الشركة لتضار إليها من أية كلمة أخرى . تلك هي كلمة « مونة » وأما
Amari من الذي افترج هذا الأصل لاسم الشركة .

L'ib. jur. II, 792 et ss. 790 et ss. ; Hopf, Giustiniani, p. 318, (٣٠١)

L'ib. jur. II, 714 et ss., 682 et ss., 790 et ss., 1016 et ss., et
dans l'étude si complète de M. Hopf sur les Giustiniani, p. 317-320. (٣٠٢)

L'ib. jur. II, 714 et ss. (٣٠٣)

Agost Giustiniani od, an, 1363, fol. 127 n ; Hopf. Op. CH., (٣٠٤)

Hopf, Op. ch., p. 327. (٣٠٥)

يقتطعون غالباً في جنوا ، ويعهدون الى منترمين بتحصيل دخولهم ، غسان
 الجورستينيين كالأولاء كلهم تقريباً يقيمون في خيوس ، تحارا ، ومصريين ،
 وأصحاب دخول يتقدمون في الشئون المالية والإدارية الوظائف التي
 تخصصهم . وعيناً عندا استشارات قليلة . كانت كل الوظائف في خيوس
 وموكاية يشغلها أفراد من الماهون . ومن قبل ، في زمن المعاهدة الأولى
 المبرمة مع سيمون فينوري وشركائه ، لم يشترط قومون جبوا الا ثلاثة
 تحفظات ، السيادة على محصول الممتلكات الجديدة ، والقضاء المدني
 والجنائي ، وحق الملكية المباشرة لمدينة خيوس وقدمتها ، ومدينتي فوكاية
 وقلاصهما .

وتبعاً لهذا التنظيم لم يكن يتجه من حيث العيين سوى عدد محدود
 من المواطنين : أولاً ، بودستات لجزيرة خيوس ، ثانياً بودستات لمدينتي
 فوكاية ، ثالثاً ، ثلاثة حكام (كاستلاني Castellani) لإللاع خيوس
 ومدينتي فوكاية . وكانت الشخصيات التي تدعى تشغل هذه المناصب
 تنتخب حسب نظام تحدده المعاهدات ، ويعينه في اختيارها بالنصيب
 الأكبر الى الماهون بحيث كان من المستحيل الوصول الى هذه المناصب
 دون موافقتهم . فضلاً عن ذلك كان بودستات خيوس ، في كل الشئون
 التي لم تكن ذات طابع قانونية بحثة ملزماً بأن يأخذ رأى هيئة من
 المستشارين يختارهم الماهون فيما بينهم . وهكذا كانت سلطة الحكومة
 المركزية دائماً محدودة جداً ، وفي مقابل ذلك لم تكن رعاية المستعمرة
 تكلفها شيئاً على وجه التقريب ، فكانت طائفة الماهون هي التي تتلق على
 شئون الإدارة ، والشرطة ، والقوات البرية والبحرية ، والتمهينات ،
 والنواني ، الخ ، بل كانت تتولى أيضاً تدريب فلولطين الذين ينتخبهم
 القومون .

ومن المفيد أن نعرف الموارد التي كانت طائفة الماهون تستعملها
 لتغطية كل هذه المصروفات وتستهلك في الوقت نفسه نفقات الغزو ، ومن
 أجل ذلك ينبغي لنا أن نذكر ما قلناه قبلاً عن خصوبة الحرية ، وبالأخص
 ثرائها الكبير في مراعي « المستكة » ، ونتاج مناجم الشب في فوكاية .
 وفي المتوسط كان بيع المستكة لا يصل سنوياً الا الى ٤٣٠ قنطاراً ، إذ
 كان من المنهج الاقتصاد في استخدام المزارع خشية استهلاكها السكر .
 ولا أن القنطار كان يساوي من ٤٠ الى ٤٥ جنيه ، بحيث تنحدر هذه المادة
 وحدها ايضاً قدره من ١٧ ألف الى ١٩ ألف جنيه . كذلك كانت الضرائب
 تأتي بحقل كبير ، وكانت على الأخص تنقل كاهل السكان اليونانيين ،
 ولكنها كانت أحب عبثاً على الغربيين . وتأتي بعدها الرسوم على التورادات
 والمصادرات .

وفي عصر جوستينيانى كان بالجزيرة عدة موانئ تتردد عليها سفن كثيرة : أولها ميناء حيوس ، ثم الموانئ الأقل أهمية ميناء بورتو - فيو Perto-Fino (دلفيو ، دلفيوم القديم) ، وبعدها ليثي Lithi (لاويوس القديم Lidos) (٢٠٦) كانت هذه الموانئ تخرج والغربيين والشرقيين ، من كل الأجناس ، يحد البطنى إليها بحثا عن مستحبات الجزيرة الثمينة ، وكانت الجزيرة للبطنى الآخر مرسى فى الطريق من مصر أو سوريا أو الغرب الى القسطنطينية والبحر الأسود ، أو بالعكس . وثمة ترتيب خاص ، جعل لتيسير رحله حيوس ، يأمر السلطان الجنوية انى تقوم بالرحلة الى الشرق الاذنى أن تقف يوما عند حيوس . وكان الجنويون يتمتعون بامتياز بالمخافة من الرسوم .

ولكن بالنسبة الى تصدير الحاصلات الطبيعية ، كالسلكة مثلا ، كانوا يدفعون نفس الرسوم المفروضة عليهم فى عهد الحكومة البيزنطية - وكان الأمر كذلك فى فوكاية (٣٠٧) أما صاغر الأمم فكانت تدفع رسوما مرتفعة ، ويبدو أن أقل رسم كان خمسة « هيرير » من كل قطار (٣٠٨) - وعندما وليتقان ثينانا بكيكية مناسبة عن المبلغ الاجتالى الذى كانت هذه المصادر المختلفة من الإيراد تدفعه فى خزائن الماهون ، وفى وثيقة فرنسية نشرت حديثا ، يقدّر هذا المبلغ بسبعين ألف فلورين ، وفى فوليتا Foglietta بستين ألف و جنوفاين دورو و genovini d'oro (لقد جنوى قديم - المترجم) ، وكانت قيمة جنوفاين دورو تساوى قيمة اللاتورين (٣٠٩) . ويذكر « كاندا كوزين » رقما أعلى قليلا فى أواخر عهد آل كاناليدو (١٣٣٩) ، فيستحدث عن مبلغ ١٢٠٠٠ هيرير ذهبي (٣١٠) . ولما كان الهيرير الذهبي يساوى فى ذلك العصر لكلى الفلورين (٣١١) ، فإن هذا المبلغ يعطى دخلًا سنويًا قدره ٨٠٠٠٠ فلورين . فإذا جعلنا للدينار الذهبي ٥٥٥ فى ذلك العصر قيمة ١٢ فرنك ، نرى من هذه المصادر الثلاثة أن المبلغ الاجتالى يصل الى ٧٢٠٠٠٠ حتى ٩٦٠٠٠٠ فرنك .

(٢٠٦) Hopf, Op. cit., p. 335, et Fustel de Coulanges dans les Archives des missions scientifiques, V, 303, 308 et s.

Lit., par. II, 538, 592.

Hopf, Op. cit., p. 331.

Bibl. de l'école des chartes, 1e série, I, 335; Hopf, p. 333.

Cantaguz, I, 371.

Desimoni, dans la Giorn. ligust., 1874, p. 158, not.

وعاشت المستعمرة التي أنشأها فيبوري (٣١٢) أكثر من مائتي سنة . ولما كانت خاصة بسيادة جنوا ، كان يحكمها ويدير شئونها ويستعملها هيئة مكونة من أسر جنوبية ، ويستند نفوذ هذه الهيئة فيشمل بالإضافة إلى خيوس ومدينتي فوكاية جزرا أخرى أقل أهمية : ساموس وليكاريا Nikaria ، وسينتأ نانايا Santa Panagia . ومن الوجهة التجارية ، كان هذا الوضع كسبا لا يكثر ينس . كانت خيوس تشكل أول حلقة في سلسلة طوعية من المستعمرات ، ربما تعتبر بيرا مركزا لها ، وفي طرفيها كاليا وقالا من جهة ، وطربرون وطوديس Thuri من جهة أخرى . وأدى امتلاك خيوس إلى تعزيز أمن المواصلات بين جنوا والمستعمراتها الجديدة . ولم يكن مناس من هذا ، على الأقل لموانئ تفوق السدائية في الأرخبيل . ولكن ، حتى في غير هذه الامتيازات الخاصة بالسياسة العليا ، فإن تجارة جنوا وجدت غذاءا وغيرا في منتجات خيوس وفوكاية . وإذا لم يكن لهذه الأخيرة إلا ما بها من شيب ، فإن هذا المصنوع يلقى وحده لامعلاها قيمة كبيرة ، ويمكن أن للقرن به ٦ كمادة للترانزيت لبيع آسيا الصغرى .

أما بخصوص جزيرة خيوس ، فإن مواصلات التربة ومنتجات الصناعة متوفرة بها ، لذلك في مدينتها رائج المنتج للسكة ، ويستخلص من البحوث التي أجراها م . هوف M. Hoff أن « النامون » كانت تصدر كل سنة إلى الغرب في المتوسط ١٢٠ قنطارا ، و ١١٤ قنطارا إلى أرمينيا وقبرص ودودس وبموريا ومصر (٣١٣) . و ٢٠٠ قنطار إلى امبراطورية الروم وآسيا الصغرى التركية . ولما كانت هذه المادة لا توجد إلا في خيوس ، فإن المسافرين في المصنوع الوسيط ينسبون بعمامة ، بعد أن يتحدثوا عنها ، أن يذكرها سائر منتجات الجزيرة . ومع ذلك يذكر كلافيو Clavijo بساتين الكروم (٣١٤) . ويكمل م . هوف معلوماتنا في هذا الخصوص بمعلومات استقفاها من وثائق مختلفة ، فيقول : « تنتج الجزيرة كميات كبيرة للتصدير من أبله متعازة ، وزيت ، ولبن ، وفواكه أخرى من فواكه الجنوب ، وكان تحرير خيوس يحظى بتقدير كبير ، وكانت

M. Hoff, dans l'art, Glushtinski, dans Erach et Gruber (1ère section, LXVIII, 800-841)

(٣١٣) من مصر بيلوني Pilioti كان مستقر للسكة يباع ببالغ ١٠٠ دراهم ducate

في سوق الاسكندرية ، Pilioti, p. 875.

Clavijo, p. 48.

(٣١٤)

محاجر بيلديون Pelinau نتج رجاها ، وكان يصدر الى جهات بعيدة
مخار لا يقل قيمته عن مخار لومس Lemnos (٣١٥) .

ولا بد ان الامبراطورية الرومية كانت وقتئذ في حالة من الضعف
يرتق لها ، حتى تترك الغربيين ينتزعون منها بسهولة هذه الجزيرة العظيمة
الحصص والانتاج . لقد عرفت العرب الاهلية البلد . وكانت الامبراطورية
آلة مجردة من كل شيء . من المال اللزوم لتجهيز أسطول ، والرجال
القادرين على قيادته ، فلم تكن في حالة تسمح لها بالتصدي بالقوة لمشروع
فنيوزي . حقا ، لقد أفلحت بضغ سفن بقيادة الايطالي فانثيولاني
Paciola في معارلة لعمون الجزيرة . ولكنها وصلت متأخرة كثيرا .
وانتقما لفشله ، هاجم بصح سفن تجارية صوية مسالمة وقتل عددا من
بحارتها . وأثار هذا العمل الخلق بقرصان حفيظة الجبريين في غلطة .
واعترضوا فانثيولاني خارجا على القانون ، فلم يمه يجرؤ على الخروج الا
في حراسة مسلحة . وكاد الجنويون يوقعون العاصمة في محاجة بايقالهم
ارساليات القبح الذي كانوا هم للموردين الوحشين له (٣١٦) . ولكي
تضع الامبراطورة حدا لهذه الحال ، اضطرت أن تعية اليهم ما أخذ بهم ،
وتعطيهم ثوب ذلك تعريضا (٣١٧) .

وفي خصوص الأحراب التي جرت الامبراطورية ، كان سلوك
المستعمرين الجنوبيين في غلطة حافلا بالمشاكلات ، فكانوا تارة يساللون
حزبا ، وتارة حربا آخر (٣١٨) . ولما كانت الحرب الأهلية مفرقة
بتجاركتهم ، فانه يبدو أنهم ارتاحوا لاقتصار كائنا كوزين الذي أنهى هذه
الحرب في عام ١٣٣٧ . بعد أن استمرت خمس سنوات ، وأعاد الأمن
الى لصابه في الامبراطورية . وكان من الوسائل التي استخدمها الوصي
الجديد على العرش لاصلاح مالية الدولة ، وسيلة لا ترخيصهم . تتمثل في
حذف الرسوم التي يحصلها جبرك القسطنطينية من للتجنات الأجنبية ،
وكان يستهدف بذلك حصل الأمم التجارية على العودة الى طريق
القسطنطينية . فسرور الزمن لست تجارة غلطة نسوا كثيرا على حساب
تجارة العاصمة . فبلغت إيرادات جبركها ٢٠٠ ٠٠٠ هيبير ، في حين

Ard, Giustiniani Op. cit., p. 818.

(٣١٥)

Rémarque de Nicéph. Grég., II, 766.

(٣١٦)

Nicéph. Grég., II, 766 et s. ; Cantacuz., II, 562 et s.

(٣١٧)

Cantacuz., II, 602-622, 607 et s., Nicéph. Grég., II, 734 et s.,
775 et s.

(٣١٨)

لم تنجاور في جسر القسطنطينية ٣٠٠٠٠ هيربر (٣١٩) ، وكان العرض من حض الرسوم في جسر القسطنطينية ثلث حده النسبة في وقت قصير . وثمة امر آخر استاء له الجنويون في غلطة : ذلك ان كانتا كوزين احك في اصلاح البحرية اليونانية وتجديدها : ذلك لانه كلنا قل ما في حوزة اليونانيين من وسائل النقل ، امدادات سيطرة البحرية الجنوية على سبيل التجارة ، وكلنا قل ما لدى اليونانيين من سفن حربية تستطيع تشييدها ، قل ما تخشاه حيرس ووكاية من باحيتها . واعتم سكان غلطة بهذا الامر اهتماما كبيرا حتى اجم تاهوا للنضال بقوة لكي يحافظوا على تفوقهم التجاري والبحري . غير ان النضال لم يكن كل شيء ، فلم يكن في مقصورهم أن يعتمدوا على نجاحهم في ذلك طالما لم يكونوا مسيطرين على المرتفعات الواقعة جنوب غلطة وتشرق عليها . وحاولوا أولا أن يندفعوا بالمطبخ ، فقدموا لكافا كوزين التماسا عرضوا فيه أن حيه لم يمد يده سكانه . الا أن الوصي لم يكن بالمره مستمعا للتدخل عن وضع يعرف جدا قبيحة . ولما فصلت هذه الوسيلة ، انتهزوا فرصة بلاد كاتاكوزين في ديديموتشوس *Didymotechos* نرضه في صيف عام ١٤٤٨ ، وهنأوا العثمانيين .

ولم يكن في وسع اليونانيين الا قبول التحدى على مضض ، وكان بين الجنويين عدد منهم يودون حفظ السلام لصالح اشدالهم ، واجتهدوا حتى آخر لحظة أن يندركوا انقطاع الصلات ، وذلك بإيجاد سفارة الى القسطنطينية ، الا أنهم صمموا على مطالبة اليونانيين بالكف عن الاجراءات التي اتخذوها لتجديده اسطولهم . وفي حين انتظر سكان القسطنطينية بقلق حلف أبوابهم المغلقة ما تسفر عنه الأحداث ، اضل الجنويون النيران في بيوت اليونانيين القائمة على ضفة القرن الذهبي من ناحية غلطة ، والسفن التجارية الراسية في المرفأ ، والحوادث الواقعة خارج أسوار العاصمة ، وحرقوا في أحواض المرفأ السفن الجارية بناؤها في ترمينها ، ولم ينتج منها سوى ثلاث سفن كبيرة ، ورضع سفن صغيرة أمكن إمرارها في صبح الظلام في موانئ مصب هوبرها عند الموضع الذي تصب فيه المياه المملحة في القرن الذهبي (٣٢٠) .

وبعد هذه الغارة ، عمل الجنويون على مد حيهم الى داخل الأراضي حتى لمة التل . ولكي يضمنوا سلامة الأرض التي ضموها ، بادروا سنة

Nicéph., Grég., II, 868.

(٣١٩)

Hammer, Constantinople und der Bosporus, II, 20.

(٣٢٠)

وكانت أعمال الترميم تجري في الزاوية القصوى من القرن الذهبي .

سور مرتفع ، وكانوا منذ وقت بعيد قد بدأوا في حذوه يكتمسون المواد والمعدات اللازمة ، وحيثما لم يكن السور كافياً ، أصابوا إليه مبان وحظائر . وتوتجها لهذه التحصينات أقاموا برجاً على ذروة التل ، وتتابعت هذه الأعمال ليل نهار ، وتنافس في أدائها بحماسة وطنية النساء والرجال ، الذباب وعامة الشعب . وفي هذه الأثناء شغلوا سكان العاصمة بفارات موجهة تارة إلى الأبواب ، وتارة إلى السفن التي بقيت سليمة ، وعلى هذا النحو لم يكن لدى الجنود اليونانيين القليل العدد من الوقت ما يتيح لهم أن يهرقلوا الأعمال الجارية في حي الجنويين ، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أن يهرقلوا بيوت الجنويين الواقعة خارج أسوار خلعة . وكان الجنويون يأملون في قيام أسطولهم بدور شديد الفعالية ، ينتج وصول أي سفينة إلى المدينة (القسطنطينية) . وكانوا يعتمدون بهذه الوسيلة على كسب نصر سريع على خصومهم ، ولكنهم اصطدموا بفأرة صلبة غير متوقعة . فقد استخدم سكان القسطنطينية كل مواردهم لإكمال وسائل دفاعهم ، بحيث لم يبق للجنويين وسيلة للتغلب على أعدائهم سوى الهجوم المباشر . ومن ثم جمعوا عدداً كبيراً من السفن والجنود ، من بينهم فرقة لانسيا مواطنوهم في خيوس ، وهاجوا القسم من المدينة الذي يشرف على القرن الذهبي (غريف ١٣٤٨) .

ودافع اليونانيون عن أسوارهم وأبوابهم ببأس شديد ، حتى اضطر الجنويون ، رغم ضراوة قتالهم أن يتقهقروا متحملين خسائر كبيرة . وعندئذ قرعهم على طلب الصلح ، ولكن دون جدوى . ولسوء حظهم فإن الامبراطور لم يكن يرغب من مرضه حتى عاد في هذه الأثناء إلى عاصمته . واكسب عودته المتألمين شجاعة جديدة ، واضطر الامبراطور معه مالا ، وتميزات وسفناً لتحل محل السفن التي دمرت . ومن جهة أخرى ، قامت السفن الجنوية المصطفة على طول شاطئه سلطة لتأمين الضاحية كثيراً من الغدائب التي أطلقت عليها من القسطنطينية ، حتى اضطرت إلى الانسحاب تاركة السور في هذه الناحية مكشوفة بلا حماية .

وزاد الجنويون عقد صلح من جديد ، وطلبوا وساطة قريسان روتس ، ولكنهم لم يقبلوا الجلاء عن الأرض التي استولوا عليها أو دفع تعويضات عن كل ما حرمه . وصرعان ما انقضت المفاوضات وعادت السفينة التي أتت ببنديوي القريسان تحبل بحفا ئيمة ، ونساء وأطفالاً أرسلهم سكان خلعة إلى روتس لابعادهم عن الاضطراب ، إذ كانوا يتوقعون وقوع أسوأ الكوارث . وفي الشتاء أتم كالتاكوزين تسليحاته . وفي الربيع أصبح مستعداً ، ليس فقط لاطلاق سفن جديدة لتصدي للسفن

الجنوية ، ولكن أيضا لمحاصرة قلعتهم الجديدة بفرق عسكرية فتيحة . ولم يشعر الجنويون في أنفسهم القدرة الكافية على القتال على الساحتين البرية والبحرية . وفكروا تفكيراً جديداً في التعامل عن القتال في البحر ليتركزوا جهودهم كلها للدفاع عن القلعة .

شعر أن قائد بحريتهم يُدرك بنظرة خاطفة الناحية الضعيفة في الأسطول اليوناني : ذلك أنه لم يكن بوسعهم التحرك بكتسامة ، إذ كان الجنديون في السفن غير مدربين على تسييرها . وعلى ذلك إصرار على استمرار الصراع بحراً . ومساعدته حاصلة شديدة فأنزل بالأسطول اليوناني حزيمة منكرة ، حب على أكرها الفزع في نفوس أهالي القسطنطينية والجنود الذين كانوا يحاصرون قلعة غلطة ، وغروا من ثمة حاربين في فوضى شديدة .

وفي اللحظة التي أخذت فيها الأمور اتجاهاً ملائماً لأهالي غلطة ، وصل من جنوا سفارة مولدة في الوقت الذي كان الناس فيه لم يزالوا متأثرين بالهزائم السابق ذكرها . ولم يكن الوطن الأم (جنوا) قد وافق على سلوك المستعمرين ، لذلك لم يرسل لهم إمدادات أو سفراء لتسوية النزاع . وكانت السفارة التي أشرنا إلى وصولها مكلفة بمطالبة المستعمرين برد الأرض التي احتلوها بغير حق ، وأن يدفعوا تعويضاً عن الخسائر التي تسببوا في وقوعها ، ومبلغاً كبيراً بصفة لرامة . ولكن بعد كل الذي حدث ، لم يكن في المستطاع إجبار أهالي بيرا ، وهم في نشوة النصر على طلب الصلح بهذه الشروط . ولم يكن كائناً كوزين في حالة تسمح له برفض هذه الشروط . ولم يسمع إلا أن يترك للجنويين الأرض موضوع النزاع (٣٣٦) .

ولتحقيق حلم من الأحلام التي دأبت عقول الجنويين ، كان لا بد أن تبقى البحرية اليونانية في حالة من الضعف والخطسوع . ولكن كائنا كوزين لم يكن يسمح لهم بالاستمتاع بتحقيق هذا الحلم . ففي الوقت الذي كان يصل فيه دون هوادة على تعويض خسائره ، لم يفرح من ياله مفروغ عادة شمس شيوس وفوكاية إلى الإمبراطورية .

وبدا بأن أوفد إلى جنوا سفارة مكلفة برفض مطالبه ضد احتلال الجزيرة احتلالاً غير مفروغ . وكان رد النواج هو الرد للتوقع ، إذ قال ان القومون لا علاقة له بهذا الأمر ، فشيوس قد احتلتها شركة خاصة ،

أما هو ، أرى العوج ، فلم يكن في تلك الآونة في حالة تسمح له بلمس هذه الشركة على إعادة ما استولت عليه ، الخ . ولم يقبل كافاكوزيس هذا الدفع بعدم سماع الدعوى ، كما أن حظه في تلك القضية كان واضحاً لدرجة لا تسمح بالاعتراض عليه بأية حجة . وعلى ذلك وافقت حكومة جنوا على أن توقع معاهدة نص فيها على أن ترد الشركة في الحال جريئة حيوس إلى الأميراطور ، على أن يبقى لها حيازة خاصة الجزيرة حتى عام ١٣٧٥ ، بشرط الاعتراف بسيادة الأميراطورية ، ودفع صرصة سنوية قدرها ١٢٠٠٠ هيربر ذهبي (٣٢٢) .

والواضح أن هذه المعاهدة لم تكن جديفة من جانب جنوا ، إذ كان من المؤكد أن فينوري أو رفاقه لم يكونوا على استعداد لتبنيها . لذلك لجأ اليونانيون في وسائل أشد فعالية . عقد عمل الأرغنت (الوالي) archants الخيوس زيپوس Zypou الذي ولاه فينوري حكومة فوكاية القديمة ، عمل غداً على إلغزخ خيوس لحساب الأميراطور ، بالتواكل معه بلا شك ، ولكن محاولته فشلت (٣٢٣) . وهكذا لم تنجح الدبلوماسية ولا القوة ، وبقيت الشركة مالكة خيوس ، ويبيع الروم لقط في طردها مؤلفاً في مدينة فوكاية (١٣٤٨) . وجد حكاما يونانيين في اسكانها حتى عام ١٣٥١ ، وفي الثانية حتى عام ١٣٥٨ (٣٢٤) . وأخيراً اضطر الأميراطور يوحنّا أن يوقع معاهدتي ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ اعترف بهما بسيادة الساحون على جزيرة خيوس في مقاسيل جزية سنوية قدرها ٥٠٠ هيربر (٣٢٥) .

ومع انسحاب الجنويين في انهاء البحرية العسكرية والتجارية للإمبراطورية الرومية على حالها من العجز المطلق ، كانوا يحدون أيضاً وقتاً يكتفى لمرقعة نمو قوة البندقية في الشرق الأدنى . وكانت جمهورية البندقية تعمل سنين طويلة على تركيز نشاطها الكتل في توسيع أملاكها من الأرض اليابسة في إيطاليا (٣٢٦) ، ولكنها في الآونة التي وصلنا إليها بدأت من جديد تحول أنظارها صوب الشرق الأدنى . ولديها البرهان على ذلك فيما يشكته من جهود لمحاربة الأتراك السلاجقة . ولكنها كانت في

Cantacuz III, 82.	(٣٢٢)
Cantacuz, III, 80-88.	(٣٢٣)
Hopf, Op. cit., p. 318 .	(٣٢٤)
Sperone, Real grandezza di Genova, p. 206 et s.	(٣٢٥)
Franc, Dandolo ١٣٢٩ - ١٣٢٦ في عهد العوج داندولو	(٣٢٦)
Romanig III, 108 et ss.	

ذلك أكثر نشاطا في البحر الأسود ، وأصبحت المدن التجارية الساحلية هناك مسرحا للنزعة شديدة بين الخصمين ، وكانت علاقاتهما من قبل متوترة حين سبق الجنويون البنادقة فنجسوا في الاستيلاء على جيوس ، ولم يكن من شأن ذلك أن يخفف من سطوة البنادقة فلتزايد حدة .

وكانت الحرب على وشك أن تبتلع وقتئذ لو لم يتعرض دوج جنوا جيوفاني دي مورتا Giovanni di Murta على قطع العلاقات : وساعده في ذلك الطاعون الرهيب الذي انتشر عام ١٣٤٨ ففسل حركة جيوش الأمتين (٣٣٧) . ولكن في عام ١٣٥٠ كان لجنوا دوج آخر ، جيوفاني دي فالنتي Giovanni di Valente . فما كاد ينظم عقائده الحكم حتى تناول من جديد المشروع الأكبر لدى أمته ، بطرد خصمه نهائيا من البحر الأسود (٣٣٨) ، وأسر يفسح سفن فيليسية في ميناء كالا (٣٣٩) . وأصبحت الحرب من ثمة لا عداس منها .

وأولاه الأبرار ماركو روتريني Marco Ruzeni من البندقية ومعه خمس وثلاثون سفينة حربية ، ففاجأ في ميناء الكاستري Acastri (سبتمبر ١٣٥٠) أسطولاً من أربع عشرة سفينة تجارية جنوية قاصدة إلى بيرا وكالا (٣٤٠) ، واستطاعت أربع سفن منها فقط النجاة ، والتبأت إلى جيوس . ولم يحك روتريني بمثل هذا الجحاح في منطقة ، إذ كان المستعمرون في انتظاره باستعدادات انتزعت من لبسه الرغبة في مهاجمتهم ، ومن ثم عدل عن ذلك وواصل عملياته في البحر الأسود .

وفي هذه الأثناء قام سادة جيوس (لينوزي وشركاه) بتسليح أسطول انضم إليه التسلسل الأربع التي نجت من كارثة الكاستري ، وأرسلها تهجم الأملاك الفيليبسية في جزيرة بوبية Bubié ولم تكن مدينة نجربولت ، الهدف الرئيسي لهذه الحملة تتوقع أي شيء ، ومن ثم دخل جنده جيوس بقوة السلاح في الحى البندقي ، وقام مواطنوهم ، أسرى الكاستري الذين تركهم روتريني في حراسة سكان المدينة ، قاموا

Romanin III, 166 et s., 168, Stella, p. 1090; Commem. reg., (٢٢٧)
II, 168, no 266, Ibid. p. 175 no 303, p. 186 no 334, p. 193 no 384, p. 198
no 402, p. 198 no 403, p. 217 no 30, p. 218 nos 34, 35

Dandolo, p. 420; cf. Nicéph. Grég., II, 877, (٢٢٨)

Romanin, III, 168, (٢٢٩)

Bubié (٢٣٠) Nicéph. Grég. يسمونه الذي كان وقتئذ يسميه في بوبية

في الناحية التي فوجئ فيها الأسطول النجوى ، فيجب بالتحديد ميناء واما بين
Aulis, و Oropus, ومن ثم فهو على الساحل الشرقي لبوبية : (III, 48 et s.)

بمعبد البيوت والسفن المربوطة في الميناء وحرقها ، وعاذوا بها محملين بالضالمة ، ومعهم العديد من الأسرى ومقاتليهم نجروا إلى غلغولها على أبواب خيوس تذكارا للتصحر (٣٣١) .

ولم تكن هذه الوقائع سوى مقدمة لأحداث أهم : فقد تأهب البنادقة لشن الحرب على نطاق أوسع (٣٣٢) . ولما كانوا على وعي بضعفهم ، ادعوا إلى قوة جنوا وقتلتهم تقوى قوتهم ، فقد راحوا يبحثون عن حلفاء لهم . كانوا يعرفون أن بطرس الرابع Piero IV ملك أراجون كان حاكما على صومهم بسبب المساندة التي كان يحظى بها أتباعه الذين تمردوا عليه في جزيرة سردينيا ، وكذا في قورن جنوا ، ومن لم جسوا لبضه ليعرفوا ما إذا كان على استعداد لتحالف معهم ضد الجنوبيين ، فوجنوه مستعما لذلك .

وتعالت سفيران جنويان أولفا لتأبنته وتكثفه من عزمه ، ولكنهما لم يوفقا إلى ذلك . وفي ١٦ من يناير ١٣٥١ وقع مع البنادقة معاهدة سدي عليها الدوج في ١٢ من يوليو ، والتزم فيها بإشغال الجنوين بمسارات متناحرة على سواحل إيطاليا وجزرها بكيفية تجبرهم على توزيع قواهم . ومن ثم يكفل للبنادقة على هذا النحو حرية العمل في الشرق الأدنى (٣٣٣) .

وفي الوقت نفسه كان البنادقة على علم بما عند يوحنا كانت كورن من شكاو عديدة ضد الجنوين ، ومن ثم قاموا بمحاولات لدى هذا الماهر لجذبه إلى حلفهم . غير أنه لما كان في ذاك الميعاد منهمك في حرب ضد الصرب ، فإن مساعيهم الأولى لم تكن بالنجاح المرجو (٣٣٤) .

Dandolo, p. 420 ; Sanuto, Vite del Doge, p. 821 et s., Stella, (٣٣١)
p. 1491 ; Gineston, fol. 138 ; Fogli, p. 448 ; Nicéph., Grég., II, 878, III, 48 et s., Thom. Viaro (voy. ausst. Marín, VI, 94 et s. ; ; Romanin, III, 188 et s.)

«Ad confusionem, destructionem et exterminium finale
Jherusalem» (٣٣٢)

— على المباشرة الثابتة بالجامعة الثيرة مع بطرس الرابع الأراجوني

Curita, Annales de la corona de Aragon (éd. de 1810), II, (٣٣٣)
241 et s. ; marín, VI 88-91 ; Romanin, III, 169 ; Memorial historico español, II (Madrid 1881), p. 374 et s. ; les Commem., reg., II p. 187 no 388, p. 191 no 381, p. 192 no 385 et s., p. 193 no 387, 389 et s., p. 194 no 392, 395 p. 195 no 398.

Sanctus, III, 118.

(٣٣٤)

لأنهم كانوا من قبل قد ضعفوا ، ومن ثم خشوا أن يستغلوا في حرب جديدة ما بقي لهم من قوة ، ثم وافقوا بعد ذلك على الانضمام ، ولكن جاءت موافقتهم متأخرة كثيراً (٣٣٥) .

ثم إن البنداقية كانت على ثقة من تحالف الأراجونيين معها ، وهؤلاء بحارة أكلاء ، وجنود مدربين ، ومن ثم شعرت بأنها قوية بدرجة تسمح لها ببسط الاتصال الحربية . وفي خلال صيف عام ١٣٥٦ وصل ذات ليلة أسطول فيسبي قوامه خمس وعشرون سفينة حربية بقيادة نيكولو بيزاني Niccolo Pisani أمام غلطة (٣٣٦) .

ولما كانت أبواب المدينة تبقى عادة مفتوحة ، فقد دخلها البنداقية بسهولة ، واستيطنت السكان فرعين على صحبات الإنذار ، وناضلوا نضالاً شديداً حتى استطاعوا القاهم خارج الأسوار . وبخلاف هذه الغارة اكتفى الأسطول الفينيسي بالتجول في البحار . ومع ذلك فقبل أن يعتمد من القسطنطينية ترك فيها السفير جيوفاني دولفينو الذي أجرى من جهته المحاولات التي بذلت لأول مرة مع كاتالو كوزين (٣٣٧) . واد أبعدى الإمبراطور مرة أخرى رغبته في أن يبقى على الحياد ، فقد عقد البنداقية عزمهم على القيام بعمل أكثر فعالية ، فاستمعوا بإيلهم في القسطنطينية وأركبوه إحدى سفنهم . وعندما سمى البنداقية ، بهذه الحركة التهديدية إلى حبل الإمبراطور على التفكير في النتائج الخطيرة التي سوف تعود عليه من جراء موقفه المحايد ، جعل سكان غلطة ، من المستحيل عليه بوقاوتهم أن يتخلل هذا الموقف . فقد نظروا إليه بحق على أنه في السر صديق البنداقية ، وذات يوم أرادوا أن يشتوا له أنهم لا يخافون منه ، فاطلقوا بأحدى آلاتهم الحربية حجراً كبيراً على القسطنطينية ، وكرروا هذا العمل في اليوم التالي .

وإزاء هذا التحدي لم يعد في وسع كاتالو كوزين إلا أن يضم قبضته صراحة إلى قضية البنداقية (٣٣٨) . وكان أسطولاً محدوداً بالنتي عشرة سفينة حربية ، ووعده البنداقية أن يسلعوا له ثلثي النفقات ، مشطاً فملوا

Matt, Villani (ed, Dragomanaj) I, 148; cf. Sauli, I (٣٣٥)
328 et seq.; xoxf, spt, Griechenthal, Op. cit., p. 447.

Dandolo, p. 421 ; M. Sauli (I, 330 et seq.). (٣٣٦)

Contacus, III, 186. (٣٣٧)

Contacus, III, 185-191 (Nicéph. Grég., II, 480), Nicéph. Grég. (II, 1081). (٣٣٨)

مع ملك أراجون ، وغلبوا عن ذلك أبعدوا له رغبتهم في أن يمينوا له الجواهر التي كان قد رغبها في البندقية منذ بعض الوقت .

وأخيرا تم الاتفاق على أنه إذا تم الاستيلاء على حى غلطة فإن الحى سوف يسفر ، وأن تماد حيوس ولوكاية إلى الإمبراطور (٣٣٩) . وبمه انتهاء هذه الترتيبات بدلت القوات اليونانية والبيزنطية الحملة معا ، فعاد قسم من القوات السفن الجوية بنجاح جعل من الحملة عملية مشتركة ، في حين بدأ القسم الثاني حصار غلطة برا وبحرا ، حصارا منظما . وكانت عمليات الحصار تجري بصورة جيدة ، والتخذت كل التدابير اللازمة للهجوم حين تسلم أمير البحر البندقي اضطرا باقترب أسطول جنوى كبير ، كما تلقى في الوقت نفسه تعديدا بأنه إذا أصر على البقاء أمام غلطة فإن سفنه سوف تكون عرضة لأن تطوق وتمرق . لذلك فقد ترك كل شيء هناك ، وأسرع بالانسحاب صوب الأرخبيل ، بينما واصل كانتاكوزين الحصار إلى حين وصوله لشمار آخر (٣٤٠) .

والواقع أن حجم الأسطول الجنوى كان لا يستهان به ، إذ يضم سبعين سفينة حربية ، يعمل بها بحارة من الصفوة يقودهم أمير البحر المشهور باجايانو دوريا Paganio Doria (٣٤١) . وحين وصل هذا الأسطول ، كان الأسطول البندقي قد أصبح له الوقت لأن يحتس خلف تحصينات لجربوت . ولم يتردد دوريا في ضرب الحصار على الموقع واستمر الحصار شهرين (من ٢٥ أغسطس إلى ٢٠ أكتوبر ١٣٥١ (٣٤٢) حتى اضطره اقتراب أسطول فينيسي جديد تحت إمرة بانكراز يوجوستينياني Panrazio Giustiniani وأسطول أراجوني تحت إمرة بونثشي دي سالتابو Ponce de Santa Pau إلى الابتعاد (٣٤٤) ، فاطلق رحيله حربية

Martin, VI, 91-93 ; Romanin, III, 166 et s.; Taf et. (٣٣٩)

Thoen, *ibid.*; *Antonom. rag.*, II, 196, no 403.

Cantacuz., III, 198-200; Nicoloph. Grég., III, 68 et s., (٣٤٠)

Stalla, p. 1091 ; Giustin., p. 123 ; Fogl., p. 448, Le contin. de Dandolo donne le chiffre de 68 galères, p. 421, (٣٤٢)

Dand., I, c. ; Fogl., I, c. (٣٤٣)

- ومارك Nicoloph. Grég., III, 68-61) أن ناحية أودريس *orion* شمال الجزيرة حاصرها الجنويون ودافع عنها جزائري Pisanى بمساعدة ٢٠٠ فارس من دولية أفيلا .

(٣٤٤) هذا هو السكان الاسمائي لهذا الاسم ، حسب سورينا Curia وكابيانى Copmany

Dand., I, c. ; Curia, p. 244 et s. (٣٤٤)

- أخذ أيضا من البندقية ، وهو في طريقه ناحية لوبون Phalton في خارج غرقوس. (Sennet, p. 624)

الحركة ليبرياني ، فاستطاع أن يتصل بالتميزات التي وصلت في الوقت المناسب ، وتقرر أن يتولى القيادة العليا (٣٤٥) . ولكن الشتاء يقترب . ولم يكن لدى أمير البحر في هذا الوقت من عمل عاجل سوى وصع أسطولهم في مأمن من الأحوال الجوية السيئة في هذا الفصل في موالي الأرخبيل (٣٤٦) . وتاجت الموقعة الحاسمة إلى عام ١٣٥٢ ، وكان لا بد أن تجرى في مجاورات القسطنطينية .

وكلما اقتربت اللحظة الحاسمة استنصر الجنود الانتظار الناجمة عن عزلتهم وقاسوا عدة محاولات لانتزاع كاناكوريين من الحلف الثلاثي ، ولكن دائما دون جدوى : ويبدو أنهم كانوا يريدون القضاء على كل محاولة للتقارب : ألم يقوموا في اللحظة التي كانوا يتفاوضون فيها لهذا الغرض بأجلال مدينتي هيرقليسا Hieraclea وسوزوبوليس Sotopolis في بحر مرمرة (٣٤٧) ؟

ويبدو القول تبريرا لصالحهم هذا ، في خصوص هيرقليا أن ما دفعهم إلى ذلك هو موقف السكان العدائي لهم . وكانوا أطيح حالا من ناحية الأتراك ، فقد علقوا مساعدة تحالف مع خضر بك Khodr bek - عامل الطولوcho Altuncho (٣٤٨) ، كذلك أوفد دوريا في مهمة لدى أورخان Orkhan أمير التمسانيين اثنين من بيرا . فيليبو ديوميسي Philippo Delmado وبنوفاتسيو صول Bonifazio Sauls وكان التلمي هذا الأمير يقف حتى الساحل الآسيوي للبلوسفور . وبدأ المندوبان باكتساب مودته بفعالية ، ووجه بنفع جزية ، وانتهى بحمله على توقيع معاهدة أصولية لم يصلها نصها الأصل (٣٤٩) . وفي ذلك الوقت، كانتاكوريين أن الجنود لم يتحالفوا مع أورخان إلا بعد الموقعة الكبرى التي سوف تكتمل عنها بعد قليل ، وعندئذ فقط ، وهم يتوقعون هجوما جديدا على بيرا - هجوم لم يحدث في الواقع - التمسوا منه مددا وحفوا عليه .

١
أما ليففور جيغوراس Nicéphore Grécoras فإنه على العكس

Dandolo, L.c. : Cantacuz., III, 219. (٣٤٥)

Mett, Villard, I 188 : Nicéph. Grég., III, 51, 78. (٣٤٦)

Nicéph. Grég., III, 76-83; Cantacuz., III, 209-218. (٣٤٧)

Traité inédit, signalé par Hopf, ort Griechenland, Op. Cit., (٣٤٨) p. 447.

Cantacuzène (III, 228 et s.) et Nicéph. Grég. (III, 84), L.c. (٣٤٩)
Jur., II, 608, Not et extr., XI, 89; Atli della Soc. Ig., XLII, 125 et ss.

من ذلك يجعل توقيع المعاهدة قبل الموقعة الكبرى ، ولا بد أنه محق في ذلك . ويبدو واضحاً أن أورشان اشترك ذلك اليوم في المعركة مع فرقة اتخذت موقعها على الساحل الجنوبي من البسفور ، ذلك لأن ثمة وثيقة جنوبية بتاريخ لاحق تثنى على الدور الذي أداه في تلك المناسبة (٢٥٠) . وانتظر الامبراطور بفارغ صبر وصول الاسطولين القيسسي والقطاوني . وهذا أمر طبيعي .

وأخيراً في ١٥ من فبراير ١٣٥٢ شوهد الاسطولان متجهين بكل مرةة من جزر الإمبراء Heptades Princes إلى القسطنطينية . وتجنب باجائينو دورياً الصدام بأن انسحب إلى الخلف : فعلى الرغم من أنه تبقى من مستعمرة غلطة تمريرات جددت تحت امرته ٦٥ سفينة ، إلا أن أسطوله لم يزل أقل عدداً من أساطيل خصومه التي يبلغها ربح ثلاثة ، وتقدم منطلقة في طريقها بحرية .

واتصلت هذه الأساطيل بالأسطول الرومي قبالة ترسانة هيتاسكالون Heptaskalon ، وهي مصيف بحر المرمرة المسمي حالياً كاترجا - ليماني Katerga-Lumani (أي ميناء السفن الحربية) (٢٥١) . وفي الحال ، أي في اليوم ذاته لعبت للمركة ، وتلقى الجنود بناءً ذي يده ، تحت ربح معاكسة ، وبضغط شديد من الأعداء ، وصارت غلطة من ثمة مكشوفة بسبب حركة الانسحاب هذه (٢٥٢) . ومع ذلك لأنهم حينها وصلوا بأزاء سالي - بازار Sali-Bazar وهي الجزء من الساحل المحصور بين تور - هابيسه Top Hand وبشبيك - تاش Bechik-Tach (٢٥٣) قرروا مراجعة العدو ، ومن ثم صارت للمركة عامة ، اشترك فيها ما لا يقل عن ١٣٠ إلى ١٤٠ سفينة حربية ، تتقاتل في مجموعات في اللقاء الضيقة التي تشكل البسفور . وجرى القتال بضراوة ، واستمر في جنح الظلام ، وفقد القطاونيون اثنتي عشرة سفينة ، كما فقدت بيرا أكثر من نصف جنودها . وأخيراً كانت المركة من نوع المارك الكارججة التي يدعى كل طرف في نهايتها أنه هو المنتصر ، وينسحب منهوك القوى غير راغب في مواصلة القتال . وبعد القضاء بقصة أيام عاد أمير البحر القيسسي في طريق

Att. l.c. p. 127, 129.

(٢٥٠)

Hantmer, Constantinople und der Bosphorus, I, 123 et s.

(٢٥١)

Stella, p. 1062

(٢٥٢)

M. Paspali ... p. 277.

(٢٥٣)

الغرب . يتبعه عن كتب الأراجونيون حاملين جثمان قائلهم الياسل مونشي
تي سالتاير الذي مات متأثرا بجراحه (٣٥٤) .

اما الروم فقد تركوا بجبهة ساحة القتال في أشد الاوقات ضروا ،
وبذلك لم يقدروا أية سفينة من سفنهم - ومع ذلك لم يكن في عزم
الامبراطور يمد رحيل حلفائه ، وسلامة قواته أن يتحصل عبه القتال ،
فلم يكن رافيا فيه ، خاصة وأن الاتراك الذين دعاهم الجنيون لمساعدتهم ،
خاضعوا من شاراتهم وصاروا مصدر الزعاج شديد ، وبدأوا بالاشتراك مع
حلفائهم يتأهبون لحصار القسطنطينية (٣٥٥) .

وعلى ذلك عقد الصلح مع باجانيو فوراً . وفي التسوية التي تمت
بينهما ، وعده الامبراطور من جهة بمنح السفن الفينيسية والقطالونية من
الرسو والتزود بالمؤن على طول اقليسه (النهم الا لائزال صغير أو بابل) ،
ومن جهة أخرى أن يحظر على السفن اليونانية أن تزود الحوامى الفينيسية
والقطالونية ، ولا يسمح مستقبلا للرعايا اليونانيين أن يخدموا على سفن
تنتمي الى أعداء جنوا ، أو أن يشتركوا في مظاهرات تقوم بين جنويين من
جهة وقطالونيين وبنادقة من جهة أخرى .

وفيما يختص بالتجارة ، يتعهد الامبراطور ولومون جنوا بأن يمنحا
الاعفاء من الرسوم الجمركية عن السلع التي يشتريها رعايا أي منهما من
رعايا الآخر . وإذا باع رعايا يونانيون نبيذا في غلطة فليمنحهم أن يدفعوا
الرسوم لموظفي الانتاج في الجهة ، مثلهم مثل الجنويين ، وألمكس
بالمكس . وتم التصديق صراحة على التنازل بالجمان عن غلطة ، وتعيين
حدودها بخندق السور ، وتذكر الوثيقة ثلاث نطق يسريها حد الجنود :
رأس غلطة *caput Gallata* ، و برج ترافيروس *Traveris* ، والقلعة
التي تحمل اسم الصليب المقدس *Ste Croix* . ولا شك أن هذه التسمية
تطلق على القلعة المشيدة على المرتفع ، وهي سبب النزاع الرئيسي ، بحيث
أن مجرد ذكرها يشكل بذاته مواءمة غير مباشرة على نتائجها . ولم يتخذ

(٣٥٤) قبل أن يموت ، حرد تقريرا نسب فيه النصر الى جنوه ، وتاريخ القبرص ، مارس

١٣٥٢ .

- وصف السيد سورينا *Carlita* سمات هذه الفرقة في طريق عازير معللة
من نفس النوع وكذا من طريق :

Le Chronique de D. Pedro IV, Cantacuzene, III, 218-219;

Nicéph. Grégoris, III, 99-104 et M. Villani, I, 184-187 (éd. Dragomani);
Loenzo de Monarda, p. 214.

Cantacuz., III, 235 et a.; Nicéph. Grég., III, 91 et a., 98, 144, (٢٥٥)

et a. ; M. Villani, I, 200.

وقتلت أي قرار بشأن خيوس وفوكايتة ، ومن ثم بقي المجال مفتوحا بشأنها
للنشاط الدبلوماسي (٣٥٦) .

وما أن حقق باجائينس دوريا مهمته على هذا الفوج حتى ابتعد بقوره
عن الشرق الأدنى . ومع ذلك فالعرب لم تنته ، وكل ما حبالك أن
كانت كورين لم يمد يدهم فيها اسمها فعلا . وظهر بيراني مرة أخرى
في حلال السنة نفسها أمام أسوار خلطة مع أسطول مكون من سفن
فينيسية ولعاليوية ، ولكن المدينة كانت متاحة للبضاع ، ومن ثم عاد
من حيث أتي (٣٥٧) .

وفي السنة التالية جرت الاستعدادات للتسلح على قدم وساق في
أراخون وجنوا والبندقية . إلا أن الحركة الكبرى لم تقع هذه المرة في
الشرق الأدنى ، وأما وقعت بالقرب من سواحل سردينيا ، بإزاء ميناء الجيرو
Alghero . وانتهت بالنسبة إلى الجنووين بهزيمة منكرة . وزادت فتحة
هذه الكارثة باستمرار الانقسامات الداخلية ، وانهاك القوى والشجاعة .
وفي هذا السياق ، ومع غاس الجنووين من الحفاظ على أمن وطنهم ، أبدوا
خضوعهم ليوحنا فيسكوني Joan Vilecomi ملك ميلانو . كان هذا
الأمير فريحا وقويا ، وعمل على إعادة تنظيم البحرية .

وفي عام ١٣٥٤ كان أسطول جنوي على أعباء الإبحار مرة ثانية ،
وأصبح في مقدور دوريا أن يتجول بسلاية رالما بفار علم جوا ، فتوغل
هذا الأسطول الجسور في البحر الإديري ، حتى وصل إلى القرب من
البندقية ، واستولى عنوة على مدينة بارنزو Parenzo وأسرها ، وأنهى
حملة يعمل بكتول بارغ (٤ نوفمبر) ، إذ ليما في ميناء زونكيو
Zonchio (فالاري Navarin القديمة) أسطولا فينيسيا في مثل
قوة أسطول ، فاستولى بعد مقاومة ضعيفة على الخمس والعشرين سفينة
التي تشكل منها ذلك الأسطول ، وعاد إلى جنوا بكل بشارتها أسرى .
ويزيد منهم على خمسة آلاف رجل (٣٥٨) .

هذه الضربة التي تلقاها البنادقة على يدى علو كانوا يعتبرونه نصف
ميت آثار مضاعفهم . كانوا في العام الماضي قد رفضوا باحتقار عروضاً

(٣٥٦) تاريخ وثيقة الأسلح ٦ مايو ١٣٥٢ ، ولويد الفريفا في :

Sautil, II, 216 et ss. et dans le J. b. Jur., II, 601 et ss.

(٣٥٧) Sautil, p. 636 , Nevag., p. 1086; Nicoléph. Grég., III, 171 et s.

Math. Villani, I, 313-335 ; Stella, p. 1093; Fogl, p.

452; Dand., v. 424; Sautil, p. 629 et s.

للمصلح من قبل يوحنا فيسكونتي ، ولكم في هذه المرة ، حين عرض وركته وحلفائه في السلطة الأخوة الثلاثة مايكو ، وبرنايو ، وجاليانزو فيسكونتي استندوا المناوشات كانوا أقل خطورة عن ذي قبل ، وقبلوا أن يوقعوا ابولا عدة (في ١٥ من يناير ١٣٥٥) ، ثم معاهدة صلح (في أول يونيو) (٣٥٩) .

وإذا تأملنا في الأحداث الجسيمة التي جرت في هذه الحرب ، نلت لنا السواد المنصوص عليها في هذه المعاهدة قليلة الأهمية . وأهم نقطة في المعاهدة هي التزام الإمتين بالآ نرسلا على مدى ثلاث سنوات أية سفينة تجارية إل د نانا ، . ولم تعرض المساعدة لمسألة حقوق الإيطاليين ومستلكاتهم في رومانيا (بلاد الروم) فيما عدا نقطة تتعلق بدوق ناكسوس Naxos : إذ تمهد الجنويون برد كل ما كانوا قد أخذوه من أثشاء الحرب (٣٦٠) . غير أن مجرد عقد المصلح كان فيه الكفاية لممارسة تأثير عظيم الأهمية على علاقات الإيطاليين بالشرق الأدنى ، وأصبح في وسع التجارة ولقد تخلصت من العوائق التي كانت خالفاً تعرقل نموها بسبب الحروب التي وضعت الآن أوزارها أن تخطى بتقديم جديد .

وفي هذه الأثناء كانت ثورة جديدة على أهمية الاندلاع في القسطنطينية ، واتضح أكثر فأكثر مشروعات كالتاكوزين ، وعمره على الاستيلاء على الإمبراطورية لصالحه وصالح أسرته ، وطرده آل باليونجوس منها ، واعتم بإبلا يوحنا الخامس باليونجوس الإمبراطور الشرعي بعيداً عن مقر الحكم . ولكن كلما اقترب هذا الأمير من سس البيلوغ ، صار يتحمل بفروغ حبر الألم لديه ، وبدأ في وقت مبكر يبحث عن حلفاء يمكنه الاعتماد على مساعدتهم في اليوم الذي يرى في نفسه القوة الكافية ليطالب بحقوقه ، ويعود إلى حازه وبساتينه ، ويطرد الكنتصب . ويبدو أنه اتجه أولاً إلى البنادقة . فحينما قام أمير البحر نيكولو بيزاني بعملته الثانية في الشرق الأدنى ضد الجنويين ، فإوضه يوحنا على أن يأخذ منه قرشاً قدره ٢٠ ٠٠٠ دوكا (لقد ذهبى قعيم في البندقية - المترجم) وأعطى الدوج كرمي جزيرة تينيدوس Ténédos مع حق السيادة والانتفاع بالكامل (٣٦١) ، ولقد تزود بهذا التبليغ فإنه أراد أن يلجأ إلى القسطنطينية ويظهر بها بأمل أن يحصل بها ثورة لصالحه ، ولكنه فشل .

Esaut p. 680 et s.

(٣٥٩)

Lfb. Jux, II, 417 et ss.

(٣٦٠)

Tar et Thom. Inéd., à la date du 16 oct. "VI Ind (1352)
in burgo Enib; les Compenn. rég., T. 2, p. 214 no 5 Cantacuz. III, 308

(٣٦١)

أما جنود غلطة الذين يغفوا تماطعهم ، فاجب أعطوه ملجأ عندهم ،
هو ونصيره البطريك كاليست Callisto ، وزودوها بالوسائل الكثيلة
بوصولها سالين الى جزيرة تيديوس (٣٦٢) . وهناك انظر يوحنا طروفا
أفضل . وحلت اللطلة المرفوعة في عام ١٣٥٤ : ذلك أن ثمة جنوى من
أسرة غنية محترمة ، يدعى فرانيسكو جاتيلوزيو Francesco Gastiluzio
غادر جبوا وبمه سفينتان مملئتا للثروة في الشرق الأدنى ، فقدم الى
تيديوس ليسر عندها . ولم يكن يجهل ما فعله مواطنوه في غلطة من
اجل يوحنا باتيلوجيوس ، وكان يعلم أنه من أول يوم لاقائه في الجزيرة ،
لم يكف جنود غلطة من الاتصال به ، والعمل سرا في مسييل
مصلحته (٣٦٣) .

ولاخلاصه ، اتفق مع الإمبراطور الشاب على القيام بهجوم مفاجئ
على القسطنطينية . وبفضل خدعة قلدها جاتيلوزيو ، نجح يوحنا في
التسلل داخل العاصمة وتثبيت أقدامه بها : فأخذ كاتاكوزين على غرة ،
وأجبره على الاعتراف بحقوقه ، والتخلص من القسام السلطة معه ،
وبذلك بقي يوحنا وحده إمبراطورا . واعتارفا منه بالخدمات التي أداها
له جاتيلوزيو وزوجه أخته الأميرة ماري ، وأعطاه جزيرة ليسبوس بصفة
بائنة (٣٦٤) ، وكانت هذه هي الإصل في اعادة هاشت قرنا كاملا من
الزمان .

ولقد حكم ليسبوس على التوالي خمسة أمراء من آل جاتيلوزيو ، من
عام ١٣٥٥ الى ١٤٦٢ ، وكان حكمهم خيرا عظيما على الجزيرة ، إذ كفل
لها اذارتهم الحكيمه رخاء غير عادي (٣٦٥) . ولا مجال هنا لسرد تاريخهم ،
لكننا لا نستطيع أن نهمل الإشارة الى حدث أسهم بقدر كبير في انهاء
مسلطة الجنويين وللوذهم في الإمبراطورية ، وكسدا في رفع شأن أسرة

Cantac., II, 288, 278; Nicéph. Grég. III., 228 et s. 287. (٣٦٢)

— في رسالة موجهة من البابا ألبينيس باتيلويرير من القسطنطينية الى حكومة يادرو
البابا مسألة الجنويين قضية يوحنا (١٣٥٤) .

Mon. hist. Slav. merid., III, 286.

Nicéph. Grég. III., 228. (٣٦٣)

Ducas, p. 40-44, 46 ; Nicéph. Grég., III, 228 ; Leon. (٣٦٤)

Chalcoz., p. 220; hist. Villani, I, 248 et s.; Giustino., p. 126; Fogli., I, c.

(٣٦٥) حسب شهادة الكاتب اليوناني Chalcoz من ٢٦ .

خرجت من أعضائهم ، فوجلت نفسها فجاءت في صفوف الأمراء المسيحيين
 الروم ، وأصبحت من أئمتي أسرهم وأرقها مكانة (٣٦٦) .
 كان أفراد آل جاتيلوزي حلفاء أسر الأباطرة في القسطنطينية
 وطرويون ، ويقيمون بين هؤلاء صلات عظيمة من المودة ، يتمتعون بصفود
 كبير على الأباطرة اليونانيين ، الأمر الذي لم يمنعهم من استغلال السلطات
 الامبراطورية المتفككة لاسمه مستكاثهم على حساب الأمراء البنادقة في
 الأرخبيل (٣٦٧) . ولم يكن فونانسكو ، أول هؤلاء الأمراء يملك غير
 لسيوس ، ولكنه استاجر لنفسه ولذريته من بعده فوكاية القديسة التي
 يملكها ماعون خيوس (٣٦٨) . وضم أخوه ليكولو Niccolo إلى أملاكه
 قبل عام ١٣٨٤ (٣٦٩) مدينة أيبوس Aënos الإهله بالسكان على
 ساحل تركيا ، وتم هذا الضم للفرع ناجح من آل جاتيلوزي ، في حين
 استمر الفرع الأكبر من الأسرة يحكم لسيوس . وكانت مدينة أيبوس
 بموقعها بجوار نهر ماريتزا الصالح للملاحة مركزا للحركة التجارية بين
 الأرخبيل وتركيا ، ومحطة هامة لآخره بالسبك ، كما كانت تحصل
 على أفراد كبير من ملاقاتها ، فكانت هي التي تزود تركيا وقلونيا كلها
 بالملح (٣٧١) .

وفي الفترة التي أشعل فيها الإمبراطور يوحنا التترة التي وقعت
 على العرش ، استولى العثمانيون على قصر تزييميه Thympé على شاطئ.

Ducas, trad. it (éd. de Bonn.) , M. Friedländer, M. Pinder, (٣٦٦)
 (Bellar sur les églises Musulmanes, I, Bari, 1861, p. 29 et ss.), une monographie récente de M. Schlumberger, Numismatique de l'Orient latin,
 p. 432 et s. ; Documenti riguardanti alcuni dinasti dell'Arcipelago, dans
 la Giorn. lig, I, 81 et ss. 217 et ss., II, 38 et ss., 292 et ss., III, 212 et ss.

(٣٦٧) أسر فونانسكو جاتيلوزي بكمية أخرى مصالح الجمهورية البندقية . بأن
 شك لقدوا على بعد ثوركا docata البندقية . وقد كتب إليه هرج جونا خطبا
 بهذا الخصوص (8 août 1287; Commem. rag., II, 266, no 282) كتبه بالبحر أن
 يكف عن هذا السر ، ومن الحصل ألا يكون هذا الإنداء قد أسفر عن نتيجة مشرة . حتى
 لم يزل فونانسكو ، وعلى أية حال فإن ابنه ليكولو Niccolo وحيد جديرا
 لاما من جديد يسك ثور من هذا النوع . انظر

— Schlumberger, l.c. p. 436, 439, 441;

Gradenigo, Della moneta veneta-imperiale, (Udine 1868), p. 23.

Woff, art Glustinslan, p. 319.

(٣٦٨)

La Giorn. ligust, I, 96 et s.

(٣٦٩)

Leon Chalco, p. 626.

(٣٧٠)

Critobul., éd. Muller, p. 112 et s.

(٣٧١)

— هذه تركيا أوجت إلى الجلالة في فترة سابقة بكرة احتلال أيبوس :
 Taf. et Thom., III, 79, 81.

الدردنيل ، والاضطر من ذلك أنهم استولوا على مدينة كالبيوبس (جاليبولي) ، ومنها انتشروا ليس فقط على خيرموبير تراقيا (la Chersonnise de Thracie) (الآن شبه جزيرة جاليبولي - القترجم) كلها ولكن أيضا على الساحل الشمالي لبحر مرمرة حتى رودستو Rodosto وفي الوقت نفسه تقدموا في الجانب الآخر على طول نهر ماريتزا ، واستولوا على اندريونيل Andrinopla (حاليا ادرنة - القترجم) - وفيليبوبولي Philippopoli ، واحتلوا أخيرا شريطا عريضا من الاقليم بين نهر ماريتزا والبحر الأسود . كل هذا كان شواحا على المهد الجديد ، فقد تلمست الملك الامبراطور حتى صارت دائرة شقيقة حول عاصمته .

وليس لمة شيء في فتوحات البحار ، أو في غزوات العرب يمكن أن يقارن بالنتائج التي حصل عليها المشرقيون المظفرون بوثباتهم السريعة . وترتبط هذه الأحداث بالسنتين الأخيرة من عهد السلطان أورخان Orkhan (المتوفى عام ١٣٥٩) والسنتين الأولى من عهد مراد الأول . وكانت الأمم التجارية تنزع في الامبراطورية بالمتغيرات كبيرة ، فلم يكن لها وسعها أن تشهد انهيار الامبراطورية دون ميالة . فمن جهة ، حاول تجارها أن يتوغلوا في داخل تراقيا ومقدونيا فاصطدموا على الفور بسيادة البلد الجند الذين لا يسمح تمصيههم الشديدة بأن يحصل هؤلاء التجار منهم على امتيازات ملائمة لتجارهم .

ومن جهة أخرى ، كان أمن التجارة معرضة للخطر على طريق من أكثر لطرق البحرية رواجاً ، وذلك عند أن مسيطر الأتراك على شفتي الدردنيل ، ومن ثم فرضوا سيادتهم على جاليبولي ، ملتجأ البسفور وريغس ، وكان هذا خطيقا بأن يثير قلقا شديدا في البندقية وجنوا ومع ذلك فإن الامبراطور هو الذي تأثر من هذه الأحداث أكثر من غيره ، وبصورة مباشرة ، فأرسل الجندي ميشيل مالاسبينا Michele Malaspina إلى بلاط روما يلتبس عون البابا (١٣٦٥) (٣٧٢) .

وكان لوربان الخامس يراوده منذ زمن بعيد فكرة استعادة حركة في الغرب لصالح الامبراطور اليوناني ، واستجاب للنداء أمير وحيد فقط ، ملك صقلي ، هو البارون المرفور « الكونت الأنطون » أميرية السادس ، أمير ساغزو Comte vert. Amédée VI de Savoie (٣٧٣) . إذ صمم على

Raymond, ed. no. 188, n. 22.

(٣٧٢)

Dalla Spedizione in Oriente di Arnaldo VI, conte di Savoia ; Cibrario, Storia della monarchia di Savoia, III, 192-204.

(٣٧٣)

وتجندت قريته الامبراطور يوحنا الذي كان على وشك الانهزام أمام الممدد الكبير من أعدائه ، فإنه قام على رأس جيش مجبر تبجيزا جيدا (٢٧٤) .
 وفي شهر أغسطس ١٣٦٦ كان سمينا إذ استطاع أن يمتزج جاليجولي
 من الأتراك ، ولكن عند وصوله الى القسطنطينية علم أن الامبراطور وقع
 في أسر ملك البلغار ، ومن ثم انطلق للفور ، ومنه عدد من سفينتين
 زودته بهما مستعمرة بريا (٣٧٥) ، في حملة في البحر الأسود . وشن
 هجمات مفاجئة على مدن ساحلية محصنة حملت ملك البلغار على اطلاق
 صراح الامبراطور .

عندئذ عاد اميدي الى مشروعه الأول فاستولى على موقعين تركيين
 صغيرين (مايو ١٣٦٧) . ولسوء الحظ القريت نهاية تكلوب جنوده
 المثرثرة ، وكانت موارده المالية قد نفذت ، فاضطر أن يغفل راجعا الى
 وطنه . وبالاجمال لم تات هذه الحملة الصليبية بأية نتيجة مستديمة .
 وعند رحيل الكونت وضع جاليجولي بين يدي يوحنا باليولوجوس ولكن
 ما فائدة هذه الفزوة اذا كان الامبراطور الضعيف قد قدر له أن يتقدمها
 ثانية في مدة قصيرة ؟ وضاعف البابا جريجوري الحادي عشر ، خليفة
 اوريان الخامس من مساعيه لدى الأمراء اللاتين واليونانيين في الشرق
 الأدنى لينظروا حلفا كبيرا ضد الأتراك ، ولكن جهوده انقضت كلها .

كان لابد من جيوش قوية ، وحملات كثيرة لايقاف تقدم العثمانيين ،
 ولم تكن جنوا والبندقية ، اللغزان البحرين في حالة تسمح لهما بتبعية
 مثل هذه الجيوش . وكانت البندقية في تلك الآونة بنوع خاص مضطرة
 الى حشد كل قواها في كريت التي كانت تعاني منذ عام ١٣٦٣ من ثورة
 عارمة ، وكان الباعث على هذه الثورة المسلحة فرس خريبة جديدة .
 ولم يترك سكان الجزيرة اليونانيون ، وهم غالبا متابعون للقيام بثورة ،
 لم يتركوا هذه الفرصة تمر ، وفي هذه المرة اشترك معهم في ثورتهم عدد
 كبير من المستعمرين البنادقة تحت قيادة زعماء طموحين ينتمون الى الجنس

(٢٧٤) يزعم Datta (ص ٥٩) أن الكونت لم يكن عنده سوى سفن حربية
 استطاعها من مجرى سفن بنادقة ، وجويي ، ورساليين ، غير أن رومانو يشكك بان
 (Romanin, III, 332) الجسورية زودته بسفنتين حربيين ، وبمبلغ من المال .

Datta p. 192.

(٢٧٥)

Raynaud, ad an. 1372, no 29 ; Buchon, Nouv. recherches.

II, 1, p. 218 et ss, Högsk. art. Griechenland, Op. cit., LXXXVI, p. 38, 39.

الأسر (ثيودور فينييه ، وماركو جيرونيو ، إلخ) • وكانت المستعمرة على وشك الانفصال عن الوطن الأم (٢٧٦) •

وتمكنت البندقية أخيرا من القضاء على الثورة ، ولكن ذلك اقتضاها عدة سنوات من الصراع والجهد الشاق (١٣٦٤ - ١٣٦٦) (٢٧٧) • ولحق هذه الظروف لم يكن في مقدورها أن تفكر في الأثر • ولم يكن إيمانها فضلا عن ذلك سوى بديليين : أما أن تعين جيوشا ترسلها لتجسفت الامبراطور اليوناني العاصر عن الدفاع عن نفسه بنفسه ، أو أن تصمم ما تبقى من الامبراطورية ، وتعتمد على مواردها الخاصة دون أية مساعدة تأتيها من الخارج لتدافع بأي ثمن عن القسطنطينية ضد أعدائها الجدد (٢٧٨) • ولم يتأسب أي من الأمرين مع سياستها ، وكل ما كان تريده هو أن تحافظ على علاقات طيبة مع الامبراطور بحيث تستعاض عنه أقصى ما تستطيع من مزايا • وبخلاف هذا كانت تترقب ما تسفر عنه الأحداث •

ولم تكن العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والامبراطور مسارة بالنسبة الى الأخير ، ذلك لأن مبعوثي الجمهورية كانوا مرة بعد أخرى يذكرونه حينما يتعريض لم يذنبه ، وأحيانا يدين لم يسده (٢٧٩) • وكان هناك دائما مشاكل جديدة بين حكومات المستعمرات (الباللات) المتنافسة وبين الحكومة اليونانية • وغضب الامبراطور من هذه الأحوال • فكلف في عام ١٣٦٢ سفيرة في البندقية أندونيوك اينرتي (اينوتي ؟) Andronico Inerti (Ined ?) أن يطلب نسخة من المصادقات الجديدة حتى يتمكن المحقق من مدى صحة ادعاءات هؤلاء الحكام • وكان من بينه

(٢٧٦) دير يعطي القلاء مقرها يهرون بمختلفة الجزيرة لجمهورية جنوا ، ولكن الجمهورية رفضت مساعدة هذا المرد ، وكان من خلاص لدير جيرونيو اندرو أن سأل متى كان الجنويين أن يتصاموا مع أجزاء الجزيرة الخاصة للمستعمرين : (Commem. reg., III, 23, no 108).

(٢٧٧) دون رومانو قصة هذه الثورة فيما لأولى المصادر • Romano, III, 217-225.

(٢٧٨) في ١٦ أبريل ١٣٥٥ اقترح مارينو غالير ، بايل القسطنطينية (Marino Falier) يمين هذا الرأي الأسير • الف ؟
— Kopf, art Græchenland, Op. cit., LXXXV, 448.

(٢٧٩) حينما كانت البندقية تولد سفراء تطلب مد لكثرة مصادمة ، كانت الطليبات ثلاثة التي تبدو أنها ليست سوى الجزء القليل من مجموع • كانت على العكس من ذلك • في الكتب من الأسبان ، الموضوع الرئيسي • انظر على سبيل المثال : تعليقات زكريا كوتارياني : Zaccaria Cordarini (8 sept 1840, publ. en grec dans Miklosch et Muller, Acta graeca, III, 214 et en latin dans Taf. et Thom., IV, 341 347 etc.) ، Giovanni Gradonigo (8 oct. 1387, publ. en grec. dans Mikl. et Muller, l.c., III, 121 et en., extraite en italien dans les Commem. reg., II, 249; no 268).

انقطاع المتعلقة بشكاواهم رسم الانتاج المخروض على الرعايا اليونانيين، بشأن عمليات البيع والشراء التي يجريها مع بنادقة * وفي التعليقات التي سلمها الامبراطور لايوتى ، يسل الامبراطور أن هذه المطالبة لا سند لها ، لأن اليونانيين رعاياء هو ، ومن حق أن يلتفتي منهم ما يشاء ، وأن هذه الضريبة تسرى على كل العمليات ، سواء جرت مع بنادقة أو غيرهم من الأجانب * ثم إن عنده الكثير من الشكاوى ، وهن أكثرها ظهورا أن بعض الرعايا اليونانيين يقبلون دون سبب معقول أعضاء في الجالية (الفيسية) ، وأن أفرادا من غير البنادقة يمارسون التهريب بادعاء أنهم بنادقة * وهاتان مخالفتان لشران بصالج الخزانة الامبراطورية * ويشير الامبراطور الى مخالفة ثالثة : ذلك أن عددا كبيرا من البنادقة يمتلكون منازل أو عقارات أخرى في القسطنطينية أو في جهات أخرى من الامبراطورية ، أما لأنهم اشتروا هذه العقارات ، أو لأنهم استلموها على شكل بائدة زواجهم من يونانيات ، أو لأنهم ورثوها من القارب يونانيين *

هذه العقارات كانت حتى تلك الأونة تدفع الضريبة العقارية ، ولكنها عندما انتقلت الى أيدي بنادقة ولقدت عن الملع * وكان الامبراطور يتكر حق البنادقة في شراء أملاك عقارية في الأقاليم اليونانية ، ويطلبهم بسداد الضريبة على هذه العقارات ، هو التخل من ملكيتهم لها * وردت السلطات اللينسية بأن شراء المنازل أو الأراضي أو الحدائق حق فرائطها يلتفتي للمعادن ، وأنها مراعاة للحالة الحاضرة للامبراطورية توصي مواطينها بالكف عن المشتريات من هذا النوع حتى ينتهي أجل المعاهدة ، إن في غضون خمس سنوات * وعلى الامبراطور ألا يفرض أية ضريبة على العقارات التي يملكها حاليا بنادقة *

وفي عام ١٣٦٢ قدم الى البندقية سفيران يونانيان تيوفيلاكس ديموكريس Théophylacto Dermokaiter ، وقسطنطين كانالاريسولو Constantin Cavalloropoulos (٣٨٠) من ودين بسلطات مطلقة ، ورقعا في ١٣ من مايو ١٣٦٣ (٣٨١) معاهدة جديدة تزيد المعاهدات السابقة وتضيف اليها كالمعادن تصوصا جديدة * وفي مناقشة المواد أصرت سلطات البندقية على مبدئها * وكان هناك أيضا عتبة ، ذلك هو العدد الكبير من الحانات الليلية التي يديرها بنادقة ، ويبيعون فيها كميات كبيرة من الخمر التي تلغيت من الرسوم والضرائب : وهنا كان الضرر يصيب كلا من الجالية الامبراطورية وزراعة الكروم في الامبراطورية * وفي هذه

Miklosich et Müller, Acta graeca, III, 129 et s.

(٣٨٠)

Martin, VI, 132-136; Romania, III, 216 et s.

(٣٨١)

« النقلة والحق الموج على تحقيق رغبة أبديها الامبراطور ، بأن ينقص عدد الحانات الليلية القينسية في القسطنطينية الى خمس عشرة حانة في فترة الخمس السنوات القادمة ، كما وعد بأن يصدر تعليمات متباعدة الى البليات بالا يملوا مستقبلا ان شخصيا ما يندقي في حين انه لا يستحق حسنة الصلة (٣٨٢) » .

واذا كان يبدو في العاصمة العديد من فرص النزاع بين الخزانة التي تطالب بحقوقها ، والبنادقة الذين يطالبون بحقوقهم في الاعانات ، فانه لم يكن من البادر في ضاحية بيرأ حثوث مثل هذه المنازعات بين أهم «تمانصة» ، تحركها مصالح متعارضة ، وثملا بلومها مشاعر عدائية . كانت بيرأ القنصا جنويا ، ومع ذلك كان على البنادقة ان يذهبوا اليها لالها سوق أكثر أهمية من سوق القسطنطينية ، ويرسو عندها العدد الأكبر من السفن التي تؤدي خدماتها في البحر الأسود .

وكان يصل الى البندقية من القسطنطينية مجموعات من الشكاوى بخصوص المعاملات السيئة التي يتفاحها منذ سنين بعض البنادقة من البودستات الجنوبيس ، بالمخالفة للعادات المتبعة في كل زمان ، ومن ثم أرسلت السلطة الحاكمة في البندقية الى جنرا في عام ١٣٦٠ مذكرا شخصا يدعى داميانو اسديرا Damiano Andrea وكلفا بعرض هذه الشكاوى (٣٨٣) . واليكم بعض الأمثلة : كان بودستات بيرأ قد احتجز مدة أطول مما ينبغي مبلغا فينيسية عنده عودتها من تانا ، وجعل يفتش حولتها بكيفية تقيم النظم ، وكان لشخص من أهالي كاتنديا بضاعة مخزونة في بيرأ ، فامتنع عمل لوزها موازين فينيسية ، فهدده البودستات وسعه من هذا العمل ، بل وحطم هذه الموازين . ومع ذلك فان هذا الشخص لم يفعل شيئا مخالفا للعرف العام الذي يتبعه البنادقة حتى ذلك الحين . وكان السماسرة السنادقة يمارسون دواجا مهنتهم في بيرأ دون أن يصادفوا أية عوائق ، ولكنهم طردوا من هناك .

واذا كان لبندقي لهدية في بيرأ ، فان المصروفات التي يتلقاها على الشهود وتطهير المستندات أكثر بكثير مما يتحصله الجنويون أمام محاكم

Taf. et Thom., inéd. ; le Commem. reg., II, 381 et s., no 303, (٣٨٢)

— وثيقة بنود مبررة في الشئ نفسه ، موجودة في موانع مختلفة من الجامعة البرية في أوله فبراير ١٣٧٠ بين جمهورية فينيسيا ، والامبراطور البيزانتي الذي كان وثيقة يمر بروما : Taf. et Thom., inéd.

(٣٨٣) تعليمات بلا تاريخ (أواخر ١٣٥٩) .

Commem. reg. II, 30 et s., no. 169

وجنيس الذي الكمال بفضل السيد توماس Thomas

القسطنطينية • وإذا كسب بندقي قلبية شبه جنوى ، وحكم على خصمه بالدفع ، فإنه ، أي اللدعي يحكم عليه مع ذلك بالمصروفات ، رغم ثبوت حقه والقرار به ، وكثيرا ما كانت المصروفات تزيد على المبلغ موضوع النزاع • وإذا قام بندقي بأعمال مقلقة للراحة ، أو تشاجر في شوارع ييرا ، يلقي به البودستات في السجن ، ويحقق موضوعه بنفسه بدلا من إحالته إلى قضااته المختصين بالقسطنطينية •

ولما كان بودستات ييرا لا يتلقون كما ينبغي لهم شكائى بإيالات القسطنطينية ، ويريدون سلوكهم هذا بأهم يتبعون ما لديهم من تعليمات ، فإن المسألة كان لا بد من النظر فيها وتسويتها بين حكومتى المستعمرتين • ووجد دوج جنوا يتحقق المسألة وأوصى سلطات ييرا بأن تحسن في المستقبل معاملة الجناداة (٣٨٤) • وبالاتفاق مع دوج البندقية ، أولد إلى ييرا ، وكالما ، وثالثا في مستهل عام ١٣٦١ تعليمات تميل إلى التوفيق والمصالحة ، جدها في عامى ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ (٣٨٥) • ولما مع ذلك أن نعرض أن هذه التعليمات ظلت حبرا على ورق ، ذلك لأنه حدث في عام ١٣٦٤ أن انتهز الموج لورنزو تشلسي Lorenzo Gelsi فرصة إيفاد سفارة إلى جنوا بشأن موضوعات أخرى ، فجده شكايوه بشأن ضروب الظلم والعنف والمصنف التي يعانى منها الجناداة من جانب بودستات ييرا (٣٨٦) •

وهكذا أصبح قطع العلاقات وشيكا : إذ كان لابد أن تؤدي المناقشة بين البندقية وجنوا إلى منازعات سفارة • وإذا كان في الإمكان فصل الأحداث المتزامنة ، وقصر الكلام على الأحداث التي كان الفرق مسرحا لها ، فإنه يمكن هنا أن نسمي الحرب التي سوت لتصبح تاريخيا « حرب تيديوس » Tédéos • وتيديوس ، من جزر الأرخيبيل القليلة التي بقيت تحت سلطة الأباطرة البيزنطيين ، أو عادت إلى سلطتهم ، واكتسبت بفضل موقعها عند مدخل مضيق إبيدوس Abydos أهمية كبيرة للام التجارية التي لها علاقات بالقسطنطينية والبحر الأسود •

وإذا أصبح العثمانيون مسيطرين على خليج المضيق ، كان في

(٣٨٤) Commem., reg., III, 808, nos 175, 177.

(٣٨٥) Ibid., II, p. 369, nos 175, 177; III, p. 7, nos 16, 17; p. 17, no 79.

(٣٨٦) *Une-Latrin, Hist. de Chypre*, III, 768 et s.

— روا على ذلك على الموج من جنوا لأحداث سلمية للغاية : Commem., reg., III, p. 37 et s, no, 104.

وسمهم منع هذه الأمم من المرور بالمضيق . وكانت تينيدوس ، بالنسبة إلى أسطول حربي مكلف بفتح البحر بقوة ، قاعدة مناسبة للعمليات ، وبمائها قريباً تآوى إليه السفن التجارية المتجهة إلى أعالي البحار هرباً من مطاردة الأتراك . كما كانت موقفاً ممتازاً لمراقبة الحصون القائمة على السواحل وسامياتها ، ومعرفة مشروعات الأتراك .

ومنذ زمن بعيد كانت البندقية تتربص سنوح الفرصة لكي تستولي عليها . وقد رأينا من قبل أنه في عام ١٣٥٢ أعطى الإمبراطور يوحنا الخامس الجزيرة رهناً مقابل قرض (٣٨٧) . وفي عام ١٣٦٦ ، حين قام الكونت أميديو دي ساغوي بحملته ضد الأتراك ، مر بالبندقية ، وطلب المساعدة التي قدمتها له الجمهورية . عرض أن يتنازل لها عن جاليبول التي أزمع على شروها ، ولكن جاليبول كانت موقعا يصيب الدفاع عنه . ومن ثم رفضت الجمهورية باستئناف هذا العرض ، وصرحت له بأنها تفضل تينيدوس (٣٨٨) .

ومع ذلك لم يكن في وسع الكونت أن ينزع هذه الجزيرة بقوة السلاح من الإمبراطور ، ابن عمه ، والذي قام بحملته هذه مدعياً عن إمبراطوريته . غير أن الإمبراطور كان بسيد الموقف في الجزيرة . وفي عام ١٣٦٩ - ١٣٧ قام بنفسه برحلة إلى الغرب ليطلب معونات ، ومر في طريقه بالبندقية ، ولم تنكز الجمهورية هذه الفرصة ثمردت أن تجدها عليها ، وقررت أن تعيد إليه نظير مؤانسته الجواهر التي كان قد سلمها لها بنتيجة رهن (٣٨٩) .

وفي عام ١٣٧٥ قصت سفارة تطالب بتحويل ، وقام أسطول إلى القسطنطينية ليمازس بوجوده أمامها بسلطاناً على إدارة الإمبراطور . وفي هذه المرة عرض الهدنة ، بالإضافة إلى إعادة الرهن الذي كان في حياضها . إن تعاطيه مبلغ ٣٠٠٠ دوكا ، وتعهدهت برفع العلم اليوناني فوق الجزيرة إلى جانب العلم الفينيسي . ولا تتعرض لرجال الدين اليونانيين (٣٩٠) .

كانت هذه الشروط طيبة تفري الإمبراطور ، فوافق عليها

(٣٨٧) المرفقة رقم ٢ لتقل يده الوثيقة . لا أن التاريخ المذكور بها ، وهو عام ١٣٥٥ غير صحيح .

Romania, III, 333, (٣٨٨)

Romania, III, 333, (٣٨٩)

Cassido, p. 227, cité par Cicognas Istorical, venez, VI, 96, (٣٩٠)

Romania, III, 338, ٣٩١

خبراً (٣٩١) . وغير أن كل هذا قد تم دون أي اعتبار للجويين : وكان هؤلاء على علم تام بكل ما يدبر ، ولم يكن في عزمهم بأية حال أن يتركوا لتأسيهم محطة في مثل هذه الأهمية للتجارة مع الشرق الأدنى ، وبدلاً من أن يسلموها بما تم الاتفاق عليه ، صمموا على أن يأخذوا الجزيرة لأنفسهم ، ولم يخشوا أن يؤدي عملهم هذا إلى اندلاع ثورة .

وكان أندرونيك ، الابن الأكبر للامبراطور قد حاول مرة أن يسقط أباه من العرش ، وعقاباً له عن هذه المحاولة حكم عليه بسجل عينية ، ولكن الحكم لم ينفذ منه سوى نصفه . وفي أثناء رحلة الامبراطور يوحنا إلى الغرب ، استغله بعض داليه من البنادقة ، وإذا لم يكن أندرونيك مشفقاً على والده في محنته هذه ، فإنه وقفى أن يسبب دية ، وعهد بذلك إلى أخيه الأسير مانويل Manuel (٣٩٢) . وعندما عاد يوحنا ، التي بالندرونك في السجن تكليفاً له من جريته هذه ، وهي مانويل خلية له . وتسلل الجنود في ثانياً هذه العلاقات المائتية ، والتفوا مع أندرونك ، وزودوه بالوسائل الكفيلة بهروبه من سجنه ، ولقد يوحنا صديق البنادقة تاجه وحرته (١٣٧٥) . وزج في السجن البابلي بيتر جريساني Pietro Grismani والتجار البنادقة الموجودون وقتئذ في القسطنطينية ، وكهبت أموالهم (٣٩٣) .

أما الجنود فانهم أخذوا نظير ما كانوا قد أدوه للمقتصب جريرة تيديوس وقتلتها ، وأرضاً قبالة حيهم في بيرا (٣٩٤) . وحتى هذا الحين تم كل شيء بنجاح ، غير أنهم حين أرادوا وضع يدهم على الجزيرة ، اصطدموا بمقاومة لا مسجبل إلى التغلب عليها من جانب الحاكم السكان الذين ظلوا كنههم على ولائهم للامبراطور الشرعي ، لدرجة أنهم ، وهم يعلمون رغبة الامبراطور في التنازل عنها للبنادقة ، وبعد صدمهم محاولة الجنود ،

La Vita Cardii Zeni (Münst., XIX, 218); Romanin, (٣٩١)
III, 298-361.

(٣٩٢) سلطونا في عرض هذه الأحداث يختلف قليلاً عن الأسلوب الذي يوجه عام ، ولكنه مبني على البحث الذي أجراه السيد بيرجييه ذو لبارك ؟

— M. Berger de Xivray, dans son Mém. sur la vie et les ouvrages de Mancel Paléologue (Mém. de l'Acad. des inscr., XIX, 3), p. 30-38.

(٣٩٣) وضع أيضاً تمت العرصة في بيرا بناء على طلب (اندرونك) بضائع ومبالغ نفس بعض بنادقة القسطنطينية :

Cassini, Guerra di Chiosggin, p. 226.

Voy le document du 23 août 1378 dans le Lib (٣٩٤)
for. II, 819-821.

هذا ليس إلا تصديداً لوثيقة كاتال أول لم تصل إلينا .

سلموا جزيرتهم لأمير البحر الفينيسي مازكو جومستيانى الذى كان يتجول.
 آنذ فى الأرجيل * ولم يضح البساقفة لحظة واحدة ، واشتغلوا فى
 تحصين تينيدوس ، وأولسوا اليها البائل فيبييه ant, Venier
 (يناير ١٣٧٧) (٣٩٥) .

واجترأ صفيح جنوى يدعى دلميانو كاتانيو Damiano Cattaneo
 على الذهاب إلى البندقية مطالباً بتينيدوس باسم الإمبراطور أندرونيك ،
 وقد أجيب ببساطة برفض مناقشة هذه المسألة حتى اليوم الذى يعود
 فيه الإمبراطور يوحنا إلى عرشه . ووصلت الأمور على هذا النحو إلى درجة
 لم يعد معها مجال لحل سلمى .

حدث وقتئذ ما من شأنه قطع العلاقات ، وذلك لوقوع نزاع شديد
 الخطورة فى قبرص بين الأمتين للتناقصين . وبدأت الحرب جهارا ، حرب
 مليئة بكوارد فادحة تواتت بسرعة لم يشاهد مثلاً فى أية جهة أخرى .
 وكان المظ لأولاً فى صالح البنادقة ، وحصد بايثلهم فيبييه بقوة فى تينيدوس
 محبوساً شبه الجسورين (نوفمبر ١٣٧٧) (٣٩٦) ، وقال أمير بحرهم
 فيتورى بيزالى Vettore Pisani انتصارات باهرة فى البحر التيراني ،
 والبحر الأدرىاتى (١٣٧٨) : فقد استولى أحد أساطيلهم فى الشرق الأدنى
 على لوكاية القديمة ، وأحرق طرومى خيوس ، وميتيلين Mitylène
 (١٣٧٩) (٣٩٧) .

ولكن فى خلال هذه السنة ١٣٧٩ ، تعظم الأسطر الفينيسى تقريباً
 هذه بولا Pola ، وظهر ألبانيون المنتصرون بقوات ساحقة على مرأى من
 البندقية ، واستولوا على كيوجيا Chioggia جنوبى بحيرات شاطئييه ،
 من هناك مدوا يدهم بالمحمولة إلى فرانسوا دي كارارا François de Carrara
 والملك لويس ، ملك هنغاريا ، حليفهم . وصل هؤلاء بالاتساق مع
 البجنوين ، فاستولوا على أراضي الجمهورية الحليفة . وحوصرت البندقية
 من جميع الجهات ، وضارت معزومة من أسطول يحميها ، وبنت على وشك
 السقوط . ومع ذلك لمعه مردد لحظة من الوهن ، تشجع البورجوالزيون
 لجأة ، وتاهبوا بحرم وقوة للدفاع ، وبفضل اخلاصهم ، وكفاءة قادتهم ،
 البندقية ، واستولوا على كيوجيا Carlo Zeno جنوبى بحيرات شاطئييه
 مصلاً بشائم استولى عليها من سفن جنوية . لم تلبث الحرب أن انعدمت

Stalla, p. 1106; Romanin, III, 288. (٣٩٥)

Samio, p. 480; Vita di C. Zeno, p. 217. (٣٩٦)

Lettre du doge Andrea Contarini à la commune de Pérouse (4 (٣٩٧)
 janv. 1380), dans l'Archiv. stor., Ital., XVI, 3 part, p. 554 et 2.

وجهة أخرى : لقد أصبح الجنويون الذين كانوا يحاصرون كيوجيا ، أصبحوا يمددهم محاصرين ، وحلت بهم المجاعة ، ومن ثم قرع عزيم على الاستسلام ، واضطر الأسطول الجنوي أن يتقهقر ، ووجد الجندادة أنفسهم وهم ينتقلون من نصر إلى نصر ، قادرين على تهديد جنوا (١٣٨٠) . ومع ذلك لم تقع موقعة كبيرة (٣٩٨) .

وتكلفت الحرب ضياع الكثير من الأرواح والأموال ، ونجم عنها الكثير من التخريب والتدمير عند كل الأمم التي تهتم بتجارة الشرق الأدنى . ومن ثم عرض البابا أوربان السادس ، وأميديه السادس كونت سالوى (وهو الذى التقينا به بلقب الكونت الأخضر) ومباطتهما (٣٩٩) . وكانت للنحلة ملامحة ، إذ كان المتحاربون وقد أصبحوا منهوكة القوى ، لا يعاينون إلا وقت الصراع . ومع ذلك فإن المفاوضات الأولى التى بدأت فى تشياديللا Cittadella فى صيف عام ١٣٨٠ ، واستؤنفت فى فبراير وأبريل ١٣٨١ لم تنته إلى شيء (٤٠٠) . ولكن الكونت أميديه تم إياس بهذا الفشل (٤٠١) ، بل استغنى من جديد مندوبى الدول المعنية لاجتماع فى قصره بتورينو Turin ، وانعقد المؤتمر الأول فى ١٩ من مايو ١٣٨١ (٤٠٢) . وبمعه أن تسمى الأمير للطردين الوقت اللازم لعرض مقترحاتهم ، واعتراضاتهم عليها (٤٠٣) . أصدر حكمه (٤٠٤) : ودون

Les chroniques des Trévise et de Padoue ; Stella, (٢٩٨)
p. 1166 et ss.; Daniele da Chinazzo, dans sa Cronaca della guerra di Chiara (Murali 88, XV 898-904) ; et conte L.A. Casati; La guerra di Chioggia e la pace di Torino, Fir, 1886.

Casati, l.c. p. 134 et ss., Cibrario, Storia della monarchia di Savoia, III, 256 et ss., 260 et ss.

Casati, l.c. p. 134-166; Dan. da Chinazzo, l.c. p. 779, (٤٠٠)
la chronique de l'écrivain padouan Galeazzo Gattaro (Murali, ss. XVII, 466) .

Monum. Hung. hist., Acta octre, 282 et s., 286, 288 et ss.

(٤٠١) التى جمهورية فلورنسا على الكونت أميديه لا يكف من وساطته ، وأعلمته انها سوف يستعاض أن توفى حله الحرب المتروكة حتى تسطيع سلفها أن تضر حساب البحر من جديد ، ولها فى ذلك خطاب بتاريخ 2 يوليوز ١٣٨١ (Giornale degli archivi toscani, VII 179 et s.)

وخطاب آخر موجه ملك مغلاريا بتاريخ 1 ديسمبر ١٣٨٠ بهذا المعنى ١

Monum. Hung., l.c., p. 416 et ss.

Casati, p. 175 et s. ; voy aussi les lettres publ. par Mf. (٤٠٢)

Cibrario, l.c., p. 287 et s. 289 et s.

Casati, p. 187-228, (٤٠٣)

Théd., p. 228 et ss. (٤٠٤)

هذا الحكم دون تغيير يذكر في البروتوكول الذي وقعه الطرفان في ٨ من أغسطس .

والقسم الذي يمسنا الآن في هذه الوثيقة الضخمة (٤٠٥) هو الذي يتضمن شروط الصلح بين جنوا والبندقية ، وفقط فيما يختص بالأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية . أما الشروط الخاصة بقرصى وتاما فقد خصص لها موضع في فصل آخر . ولما كان امتلاك تينيدوس هو نقطة البداية لهذه الحرب ، فلا بد أن مصير هذه الجزيرة كان من الموضوعات الأكثر أهمية التي توفقت في المؤتمر : فقد طالب الجنويون البندقية بإعادتها إلى جنوا ، وهى فى رأيهم المالكة الشرعية للجزيرة ، ورد البنادقة بأنهم لم يستخدموا العنف فى الاستيلاء عليها ، بل أن السكان أنفسهم هم الذين توسلوا إليهم أن ياتخذوها . وبعبارة ذلك كان لابد أن تلغ الجزيرة فى أيدي الأتراك ، وألهم قراروا الا يفرجوها منها . .

ووجد الكونت أميديه وسيلة للتغلب على الصعوبة ، فقرر ألا يسحب فوضوع الرافع لطرف أو لآخر ، وأدرج الحكم فى معاهدة الصلح بالصيغة الآتية . تسلم البندقية الجزيرة إلى المندوب المفوض لهذا الغرض من قبل الكونت ، ويتم هذا التسليم فى ظرف شهرين ونصف شهر (وعدت هذه المهلة بعد ذلك خمسة عشر يوما) ، ويتولى الكونت حدم الحصون وكل السكان فى الجزيرة بحيث تصبح غير قابلة للترميم ، ويجرى هذا العمل على حساب جنوا . وعلى الجمهورية (البندقية) أن تودع ، ضامنا لحسن قيامها بتسليم الجزيرة للكونت فى المهلة المتفق عليها جواهر قيمتها ١٥٠.٠٠٠ دينار ذهبى . لدى دولة محابدة ، وعلى الدولة المودع لديها الضمان أن تعيده إلى البندقية بعد إخلاء الجزيرة ، وعلى حالة عدم تنفيذ الاتفاقية تسلمه لجنوا .

وعندما قدم المندوب المفوض نفسه فى جزيرة تينيدوس بمصاحبة مندوب من البندقية ، رفض البابل جيوفانى مواتزو Giovanni Muzazzo بفطرسه أن يسلمه الجزيرة (٤٠٦) . وأول ما يتبادر أن الذهن فى هذا الخصوص هو أن البابل لم يتصرف على هذا النحو من تلقائه ، وأنه أتبع تعليمات سرية من قبل حكومته . ولم يأت المندوب الجنوي الذى قدم مع المندوب المفوض أن يصر جهارا عن شكوكه فى هذا الأمر ، وقفل راجعا

Verd, Storia della Marca Trivigiana e Verona, XV app., (٤٠٥)
p. 71-112, dans le Lbl Jar, II, 829-906 et dans les Monum. spect. hist.
merid., IV, 119-149.

Commen. rog., II, 160, nos 120, 121.

(٤٠٦)

حون أن يعمل شبيثا (مارس ١٧٨٢) • وأولفت السلطة الفينيسية سفراء إلى حكومة جنوا وإلى الكونت أميديه وكلفتهم بإبلاغها أنه ليس في مزعها بالمرّة أن تلعب على وجهين ، وأنها سوف تجبر المحاكم للتفطرس على الامتثال للأوامر (٤٠٧) • وثمة خاصية غريبة في هذه القضية كلها : ذلك أن مانتاليوني باربو Pantaleone Barbo المندوب الفينيسي الذي حمل لواتزو الأمر بتسليم الجزيرة ، وإزيكو دامولو Enrico Dandolo ريان السفينة التي سافر عليها اتفهما في البندقية بعد انقضاء بعض الوقت وأديها إذ ثبت اتفهما شجما • وواتزو سرا على المقاومة (٤٠٨) •

لهن أعطتهما السلطات الفينيسية تعليمات سرية محررة بمعنى يخالف المعنى المقصود بهمتهما الأصلية ، ثم سلطتهما بالتالي إلى يد عدالة حتى تستبعد من نفسها الشكوك التي ذاعت جهارا ؟ أو أن التمسين ، وقد استنادا من التمازلات التي نصبت عليها معاهدة توريس ، اعتزما التصرف على لقيض ما كنفسا يتفعلده ، حتى يحافظا بقدر المستطاع على تسمية تينيدوس للجمهورية ؟ هل يمكن معرفة الحقيقة ؟

أما بخصوص وواتزو ، فاليكم المعنى الذي يتفهمه دلاده : فهو أولا كان مستعدا للامتثال لما أمر به ، غير أن الناحية تدرت ورفضت إخلاء القلعة قبل أن يتسلم التجد مرتباتهم ، ولم يكن معه ما يكفى لدفع تلك المرتبات ، ثم أن سكان الجزيرة ، من يونانيين وبنادقة قرروا أول الأمر ، على كره منهم ، أن يساجروا ، ولكن وصل رسسوك من قبل فرانسيسكو جاتيلوزيو Francesco Gastiluzio سيده لسيوس ، إثار مشاعر الناس بقوله أن الجزيرة سوف تصبح آخر الأمر تابعة لجنوا •

ومع أن البنادقة القادمين مع المندوب المقوض من قبل كونت شافوي ومعهم مندوب السلطة الفينيسية أصروا على ضرورة تنفيذ الأوامر ، فانهم أكدوا مع ذلك تلك الإلحاعة : إما هو (أي وواتزو) فإنه أراد رغم ذلك أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه ، إلا أن السكان والحاوية وبعارة السفن كازروا وحسبوا على الاحتفاظ بتينيدوس للجمهورية مهما كنفسهم ذلك ، وهم الذين اختاروه رئيسا لهم ، وهو قد قبل هذا الاختيار ، ولم يكن في ظه

Andr Gottaro, I.c., p. 482 et s. ; Commem. rég., III, 188, nos (٤٠٧) 126, 121.

Samud, Vite de Duchi, p. 788; Cicogno Inscriz, venez., VI 97 (٤٠٨) et s.

— في ١٧ من مارس ١٧٨٢ أعلن أنه لا يجوز أن يسهل باربو أية وظيلة تحت طهر سيوات ، وفي حوالي هذا التاريخ على دامولو من كانديا لثة خمس سنوات ، والقيت طوبة باربو في عام ١٧٨٥ بالنظر إلى ما أتت من سمات •

بالمرة أن مصلوكة في هذه الظروف يسكن أن يجعله في عداد
 القمريين (٤٠٩) . ومع ذلك تصرف السلطة البندقية معه بحرم شديد ،
 وأولدت إليه كازلو نزيو ، فقام بمحاولة ثانية لحمله على الرجوع عن
 عناده ، والامتناع لما أمر به ، ولكنه وجدته ثابتا لا يتزعزع ، وعنه اسكان
 الذين صمموا على الا يتركوا ديارهم . ولم يبق ما يمكن عمله سوى خنقه
 الحصار على الجزيرة ، والاعلان عن مكافأة ضخمة لمن يسلم الحاكم العاصي .
 حيا أو ميتا (٤١٠) . ولتنفيذ الحصار كان من الضروري استخدام اسطول
 وازال قوات ، واقلع الاسطول من البندقية في ١٤ من أغسطس ١٣٨٢
 تحت امرة فانينو جورجى Fantino Giorgi . وبعد حصار طال أمده .
 استسلم موانزو في ١٨ من ابريل ١٣٨٣ (٤١١) .

وفي انتظار هذه النتيجة ، وجه كومون فلورنسا المودع لديه المبلغ
 المحدد كضمان لتنفيذ المعاهدة في موقف شديد الحرج . ولا لم يتم تسليم
 تيديوس في المهلة المخصوص عليها ، طالبت جنوا بالضمان (٤١٢) ، ولا
 رفض الكومون تسليمها الضمان ، وضعت تحت الحراسة كل ما وصلت
 اليه من البشة صولية وأجوانج ، ومائتي البضائع التي يمتلكها رعايا
 فلورنسيون (٤١٣) . وأولدت فلورنسا الى جنوا مندوبين ليقدموا لها
 تفسيرات ، فوصلوا اليها في ١٤ من سبتمبر ١٣٨٢ (٤١٤) ، وصرخوا
 بأن حكومتهم لا تستطيع أن تسلم الضمان لأنها لم تستلمه بالمثل .
 وأكدت بأن استجرتة لدى تيراب القديس ماركس (٤١٥) S. Marco
 وأضافوا مع ذلك أنها توافق على أن تدفع الكرامة بشرط اعطائها هذه
 قدرها ثمانية عشر شهرا . وبعد سماع هذه التفسيرات أبرمت معاهدة بين
 الكومونين (جنوا و فلورنسا) (٤١٦) .

Lettre du doge; Commem. reg., III, 156 et s., no 132, nos 131,
 133, 134. (٤٠٩)

Andr. Gattaro, p. 669 et s.; Lettre du doge A. Contarini (٤١٠)
 à la Commune de Florence, du 1 mai 1383; Doc. sulle relat. tosc., p. 127.

Andr. Gattaro, l.c.; Hopf, art. Griechenland, op.
 cit., LXXXVI, 39. (٤١١)

30 mai 1382, Glorn degli archivi toscani, VII, 134; Commem.
 reg., III, p. 160, nos 132-140; p. 161, no. 145. (٤١٢)

2 août 1382; Casati, p. 330 et ss. (٤١٣)
 Casati, p. 330. (٤١٤)

Casati, p. 344, confirmé par le Glorn, degli archivi tosc., (٤١٥)
 VII, 131 et s. (Documenta du 22 et du 28 août 1381) et pas les docu-
 ments des Archiv.
 stor. ital. XIII, (1847), p. 110 et ss.; Commem. rég. III, p. 150,
 nos 98, 99. (٤١٦)

Du 24 nov. 1382 au 21 Janv. 1383 (radif. 7 févr.); Casati,
 p. 334 et s., 336 et ss.

ويعد أن استسلم موالزو ، وعلقت جمهورية البندقية جمهورية جنوا بأن تتم في غضون ستة شهور عدم كل المياني الموجودة في تيديوس (١٢ من أغسطس ١٣٨٣) ، وغلقت هذه العبدية بالفعل تحت أنظار مغلوب جنوى ، حذر به ذلك محصرا مؤرخا (٤١٧) « من خلفة ميتاء الجزيرة حيث يوجد المخزن حتى هذا اليوم » . ووضح هذا التنازل نهاية لمطالبة جنوا بالضمان الذي قصته البندقية (٤١٨) التي كان لابد لها من أن تفسح بأمنية داعيتها ربما طويلا ، ولم تجد النفوس القوطية عراة كاليا في فكرة أن موضوع أمانيتهم قد افلت أيضا وعن الأكل من أيدي خصومهم . وكان سكان الجزيرة الذين أجبروا على الهجرة في حالة يرثى لها ، ووجدوا ملجأ لهم في كريت (٤١٩) ، ونجربونت ، والقسطنطينية ، وأماكن أخرى ، وعوضتهم الجمهورية طبقا للالتفاقية ، باعتبارهم منازل إلى مقاربت أخرى أو أموالا .

وفي عام ١٣٩٧ ، وبسببة متطلبات الدفاع عن العالم المسيحي ضد الأتراك ، وضع الدوج ببيثرو ايمو Piero Emo مقروعا لإعادة بناء تحصينات تيديوس ، وقام بإجراءات تستهدف الحصول على موافقة حاكم جنوا (٤٢٠) على أن المشروع لم يتحقق بالمره ، أما لأن جنوا بقيت ثابتة الإرادة ، وأما لظهور غلبات أخرى . وفي القرن الخامس عشر ، زار كلايفو Clavijo وبرندولوني Buondelmonti جزيرة تيديوس لوجداهما جرداء مهجورة ، وعزا الاكثان هذه الحال صراحة إلى معاهدة تورينو (٤٢١) .

لم تكن الامبراطورية البيزنطية مسئلة في المؤتمرات التي سبقت إبرام معاهدة الصلح في تورينو . ومع ذلك كان وضعها الداخلي بين موضوعات المناقشة ، وأدى إلى مشارطات بين جنوا والبندقية . وأرادت البندقية أن تدرج الامبراطور يوحنا في معاهدة الصلح ، وطالبت بأن

Doc. sulle relaz. tosc., p. 123 et ss. (٤١٧)

Décharge donnée à Florence, ibid., p. 123 et ss. (٤١٨)

(٤١٩) أولئك الذين لجأوا إلى كريت ، ضموا إليها على سفينة خاصة بهم . وسكن بعضهم في كنديا التي الجبل عليها في هذا القرن اسم كنديا Tenedos
Lettre du duc. Des. Tron. du 29 mai 1394; Commen. reg., III, 170
s., no 186.

Romanin, III, 302; Hopf, art. Griechenland, dans Erch et (٤٢٠)

Gruber LXXXVI 63; Sathas, Doc. inéd. série, I, II et s.

— في عام ١٤٠٥ رفضت المطالبة لبيديوس طلبا أبدا كبيرا لفرسان القديس يوحنا ببناء قلعة في تيديوس نهاية المسيحية .

Clavijo, p. 43-57; Buondelmonti, Lib. insul. archipel., 66, (٤٢١)
Sinper, p. 116.

يستعيد كل حقوقه التي كانت له قبل أن يفتصب أندرونيك العرش ، وإن تعترف جنوا له بهذه الحقوق . أما جنوا فانها كانت تعتبر هذا الأمير دافيا صديق اليناذقة وعدوها هي ، وطلبت من اليناذقة أن يتركه لوأرده الخاصة ، ويستنموا عن توثيق أية علاقة تجارية مباشرة مع القسطنطينية . وحتى تتم تسوية مسألة توارث العرش ، دعتهم إلى أن ترسو سفنهم في بيرا ، ووعدتهم بخصوص الرسوم الجمركية ، ورسوم الانتاج بأن يلقوا نفس المعاملة التي يلقاها رعاياها هي (٤٢٢) .

وبينما كان القوم يتناقشون على هذا النحو ، جرت شائعة بين أعضاء المؤتمر بأن الامبراطور يوحنا عقد صلحا مع مستعمرة غلطة (٤٢٣) بعد أن ظل زعنا طويلا في نراع منها ، وأصابه ضرر كبير من جراء ذلك (٤٢٤) . وكان الخبر صحيحا : فقد تم أخيرا الصلح بين أندرونيك ووالده المسن ، في شهر مايو ١٢٨١ على أن يرثي يوحنا العرش ويحتفظ بالنتاج حتى وفاته ، وينقل الناج بعده إلى أندرونيك ، لا إلى مانويل الذي سبق تعيينه خليفة لعرش الامبراطورية (٤٢٥) .

وكانت النتيجة الطبيعية للصلح بين الأب وابنه تآكرا بين الامبراطور الشيخ وبين سكان غلطة ، حللاء ابنه . وفي وقت التوقيع على معاهدة تورينو ، لم يكن قد تبين بعد ما اذا كانت شائعة هذا الصلح صحيحة أم غير صحيحة ، وفي هذا الشأن يمكن التكهن بأمرين : فلما أن أميديه قد رفض مطالب جنوا بأن يتعهد اليناذقة ألا ترسو سفنهم عند القسطنطينية ، والباحث على ذلك أنه اذا هم أقاموا علاقات ودية مع تلك المدينة فانهم لن يساندوا أية مؤامرات تنسج ضد جنوا . ولما أنه أبدى رغبته في أن تعقد جنوا في أقرب وقت مستطاع الصلح مع الامبراطور يوحنا ، بشرط أن يملو عن ابنه أندرونيك ويعترف به خليفة له . وهكذا ففي تورينو ، سويت على الورق مشاكل القسطنطينية بكيفية ترضى تماما مع ما جرى بالفعل (٤٢٦) . فقط ، حينما وقعت جنوا (الثالثة) الصلح مع الامبراطور يوحنا في ٢ من نوفمبر ١٢٨٢ تلبيةا لتقصص معاهدة تورينو ، كانت حريصة على أن تستمر ألا يعمل شيئا من شأنه أن يؤدي

Casati, p. 189 et s. 191, 209.

Stalla, p. 1113, ad. an. 1279.

Casati, p. 191.

Les Sitzungsberichte der Wiener Acad. phil. hist. Cl., 1881, (١٢٦٠)

VII, p. 249 et s. (M. J. Müller) ; Ducas, p. 46 et s. ; Ducas, p. 48 et s. Voy. les commentaires de M. Müller, p. 320 et 33.

Casati, p. 222 et s. 223.

الى القطيعة مع أندرونيك ، ولتمهت بأن كسائمه ضد أعدائه كلهم ، بما فيهم ابنه جليبيد عند الضرورة ، ما عدا ضد مراد الأول ، الأمير العثماني الكبير الذي حرصت الجمهورية على أن تبقى معه في ملطام (٤٢٧) .

وفي الإمكان أن نرى قلة اهتمام الجنوبيين بهذه المعاهدة ، وذلك في مذكرة صغيرة كتبها الإمبراطور بيده أسفل النسخة الأصلية من المعاهدة ، يمدح على عدة مستويات ، واعتنى بتأكيد بياناته يذكر بعض الأمثلة . ولابد أن هذه المذكرة قد كتبت قبل وفاته بوقت قصير ، أي قبل عام ١٣٩١ . وتسجل معاهدة صلح تورينو لهيئة الحرب الكبرى التي استشارتها للثالثية بين جنوا والبندقية في الاقليم اليوناني ، ونعتبره أيضا بمثابة ختام لحصر من العصور .

لا ينبغي علينا بعد هذا إلا أن نوجه اهتمامنا الى جزيرة لم يكن تاريخها الى الآن في نطاق بحثنا هذا ، لأنه لم يكن مرتبطا بالروم ولا باللاتين ، ولأن موقعها متحول بنوع ما تلصق بها جزيرة رودس Rhodes كانت هذه الجزيرة ملكا للفرسان القديس يوحنا ، وهي هيئة عسكرية في أصلها . ومع ذلك لم تكن الجزيرة بعيدة عن تيار الحركة التجارية بحيث يمكن أن يغشاه عنها تاريخ التجارة ، على الأقل خلال الفترة التي لدرسها . وكان عدد كبير من السفن التجارية يرسو عندها ، ذهابا وإيابا في رحلاتها الى آسيا الصغرى ، وسورية ، وهر ، وجبرص كما ذكرنا من قبل . إلا أن عددا معيناً من التجار كانوا على صلة مباشرة بالجزيرة : نذكر منهم أولا وقبل كل شيء أصحاب المصارف ، إذ كانت حركة مستمرة من الأموال بين مركز الهيئة ومؤسساتها المنتشرة في أوروبا كلها ، من جهة ، وبين بابل روما من جهة أخرى .

وكتبت ما كان يحدث أن المبالغ المرسلة من المؤسسات الى الرئيس الأعلى ، للهيئة ، بالاضافة الى إيرادات الجزيرة لا تكفي لتغطية النفقات التي تتطلبها الحملات المرسلة ضد الأتراك : عندئذ تجد الهيئة نفسها ملزمة للتوجه الى القوى المالية ، مثال ذلك . كانت الهيئة في عام ١٣٢٠ مدينة لشركة باردو وبيروزي Bardì et Peruzzi بمبلغ مسمّى قدره ٥٧٥٠٠ دينار ذهبي (٤٢٨) ، وكان هذا الأمر كافيا لأن يكون للشركة المذكورة مندوبون في رودس . وكان الأمر كذلك بالنسبة الى بيت

Soult Della colonia di Gela, II, 260 et ss., Atti della Soc., (١٢٧)
L'g., XIII, 138 et ss.

Rosio, Storia dell' ordine Gerusalemitano, II, 297 ; p. 32. (١٢٨)

التسايبول التجاري Acciaiuoli ، وهي شركة فلورنسية (٤٢٩) .
وفي عام ١٢٣٥ ، وجيء على رغبة ، الرئيس الأعلى ، أفاضت هاتان الشركتان
في رودس بيتا تجاريا بصفات مشتركة (٤٣٠) . والى جانب هذه
«البيوت التجارية الإيطالية» ، كان بالجزيرة صيرافة من هوندينييه ولاريون
يسمون أساسا كوسطاء للهيئة في إرسال الأموال من فرنسا
وإبرص (٤٣١) . وكانت التجارة نفسها تجد هناك حلقا خصيصا تستقبله :
ذلك أن السفن المارة كثيرا ما تترك بالجزيرة بعضا من شحنتها المستوردة
من الشرق ، وكانت آسيا الصغرى (٤٣٢) ترسل إليها ، لقرىها عددا من
المنتجات . ومن جهة أخرى كانت فلورنسا تجد بها سوقا لتصريف
أجواشها التي تصددها عن طريق البندقية ، إذ لم يكن لديها مسكن
تستخفها لهذا الغرض (٤٣٣) . وكان حكام الجزيرة على خبرة كبيرة
بصالحهم ، فلم يسعوا إلى اجتذاب التجار الأجانب وتوطيئهم الجزيرة :
منهم روجر دي بان Roger des Pins ، منح في عام ١٢٥٦ امتياز
«ليوردجوازي ناريون وتجارها» (٤٣٤) ، وبعث في هذا الامتياز كان عليهم
أن يقيموا في عاصمة الجزيرة مستودعا كبيرا به مقصورة ودار للمصلحة .
وكان للفصل الذي ينتخبونه الحق في النظر في كل القضايا المتعلقة
بالتجارة والثلاحة ، والحكم بقرارات تصل إلى مبلغ خمسين دينار بيزنطي ،
وفصل في القضايا التي يكون فيها المدعي عليه مواطنا ناريونيا . وفي
هذه الحالة يكون للمدعي عليه الحق في استئناف الحكم في الفترة التجارية .
وكانت السلع الاستهلاكية كالنبيذ ، والقمح ، والزيت ، واللحوم المملحة
يصرح بفصلها من الرسوم ، ولكن هذا الإعفاء لا يسرى على استيراد
الصابون (٤٣٥) والعبيد . وكان للكاريونيين الحرية في تصدير منتجات
الجزيرة (٤٣٦) ، أما المواد الغذائية لأن كميتها كانت محدودة بقل

Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 281, 282 — 284; Buchon, Nouvelles recherches sur la principauté française de Morée, II, 1, p. 46 et s. (٤٣٠)

Peruzzi, *ib.*, p. 308, 337 et s. (٤٣١)

Ménestrier, Documents sur le commerce maritime du midi de la France, Bibl. de l'école des chartes, 2e série, III, 206 et s. (Doc. des années 1281, 1288 1289). (٤٣٢)

Altokugo, Amio, Palatché, Satala. Pegol., p. 94. (٤٣٣)

Benedetto Del, dans (Pagnoli) Della decima di Fiorentini, II, 246; Rospalis, Storia di Venezia, IV, 94. (٤٣٤)

Peri, Essai sur l'état du commerce maritime de Narbonne, p. 118-121. (٤٣٥)

Pegol., p. 93 et s. (٤٣٦)

(٤٣٧) يذكر بعض من بين هذه المنتجات الأساسية التالية (ص ٩٤) :

استهلاكهم الشخصي ، ولا تخضع لأية ضريبة ، إلا في حالة واحدة ، عندما يتحمل سكان الجزيرة نفقات صيانة المواني وترميمها ، ففي هذه الحالة يتمن على البارونيين أن يتحملوا نصيبهم في هذه النفقات . وأخيرا كانوا ملزمين بالمساهمة في الدفاع عن المدينة ضد أعدائها الخارجيين .

ولما أن تصور أن التجارة بين يهودس وباريون في مثل هذه الظروف الملائمة قد صحت سوا كبيرا : ومع ذلك فلقدنا نملك كتابات تثبت ذلك ، كما لا يعرف عدد المدن التجارية الممتدة في يهودس يتجار خرجوا من قلب هذه المدن (١٤٣٧) . غير أن الثابت أن الحركة التجارية كانت نشيطة بها للغاية ، فقد بحث بيچولولي Pagolotti (١٣٨) طويلا في موضوع الموازين والمكاييل والنفود المستعملة في تلك السوق ، ودارن بينها وبين نظيراتها في كالديا ، وفاماجوستا وبوليا ، وناپولي ، ولورنسا .

(١٣٧) لدينا ما يثبت وجود فاصل فينيسين في يودس في سنتي ١٣٧١ ، ١٤١٩ :

— *Costa, reg., III, p. 117, no 788, Savuto, Diari, II, 698.*

Pagol., p. 82-83, 80.

(١٣٨)

ثانيا - بلغاريا

أقام البلغار لأنفسهم منذ عام ١١٨٦ إمبراطورية جديدة حربية الدانوب السفلى على حساب الإمبراطوريتين الرومية واللاتينية . وطامنا بقى التحالف المخطط بين القيصرية البلغار وبين أباطرة نيقية بهدف طرد لفرجة القسطنطينية ، منذ كانت البندقية حليقة العريضة وسيدهم بطبيعة الحال في الحرب مع بلغاريا . ويعطينا الهجوم المفاجيء الذى قام به فى عام ١٢٥٦ على مدينة ميزميريا Mesembria البلغارية أصطولم فينيسى تحت لمره جاكوبو دورو (١) Jacopo Doro لمحة عن هذا الوضع ، ويثبت أن ذلك العصر كان على الأقل مواليا لإقامة علاقات تجارية بين الإمتين . أما من ناحية الجنودين ، فإن تفوق البنادقة في القسطنطينية أنعدهم عن علم

(١) نيقية Niccon (تأليف عيسى سمحة للاثي، ميلا جنوب حصن الفراء الواقعة على خليج بيسلور القسطنطينية) من أهم بلاد البلبانيين التى أسدها السلطان أورخان من الروم . واعتدت إليها غزوات السلاجقة وانقلوها مدة قصيرة من الزمان كعاصمة لهم حتى دعوا على أعقابهم في السنة القسطنطينية الأولى ، فخرجوا إلى حقبة الأناضول الرستى .

لأنطونيا قونية دار حكومتهم سنة ١٢٧٧ هـ (راجع)
Dandolo, p. 386.

النواحي ، وقدما كان اسطولهم التجارى أو الحربى يظهر فى البوسنور ،
ونادرا ما كان يظهر فى بيشس Pont (البحر الأسود) .

وعكسا ففي غضون القرن الثالث عشر ، وكانت التجارة الايطالية
الكبرى تهمل بلغاريا ، بلقى للرجال مفتوحا أمام مشروعات الراجوريين
Ragussans ، وكان لهؤلاء مزية الوطن الأصلى ، وهى مزية كلفت لهم
مساهمة طيبة فى هذا البلد ، ومساهم القيصير يوحنا آسن الثانى
Jean Asen II (١٢١٨ - ١٢٤١) هؤلا الضيوف المحبوبون الأترياء ،
منحها إياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٢) .
هيموس Hémus قد استولى أمراء وأهالى صلاف (حشالبة) ، كان
الراجوريون ، وقد أصبحوا نصف صقالبة يمالئون كسواطين حتى فى
داخل البلد ، وتجل هذا التعاطف معهم فى مجموعة من الامتيازات التى
منحها إياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٣) .

هذا الوضع الملام بصورة غير عادية ولحق عنهم العراقل التى كانت
بدون ذلك - تقوم على الطريق البرى بين راجوزة والبحر الأسود ، ولذلك
لكثيرا ما كانوا يفضلون استخدام هذا الطريق بدلا من السفر من طريق
البيسلور ، رغم أنهم كانوا يملكون فى القسطنطينية منشأة هى لهم إلى
حد ما بمثابة محطة .

وفى أواخر القرن ، سقطت الإمبراطورية اللاتينية ، كما انهارت
الإمبراطورية البلغارية من المهد الذى بلغته فى عهد الملوك الأسينيين
Asenides . ومن ذلك الحين تسنى للدول التجارية الايطالية أن توفق
علاقاتها مع بلغاريا ، ويبدو أن الجيوش هم الذين انشأوا الخطوات الأولى
فى هذا السبيل ، لهم الذين سيطروا بدورهم على البحر الأسود ، وكانت
سلطنتهم البحرية والتجارية تزور سواحله كلها . واقتدى بهم البنادقة ،
وكانت القسطنطينية قاعدة لعملياتهم .، وكانوا يصلون إلى بلغاريا أيضا
بطريق البحر . ويمكن أن تذكر بعض الأمثلة لتجار بنادقة يستولون بلغاريا
عن طريق دالماتيا Dalmatia متبعين الطريق البرى عبر الاقطار السلالية
حتى البحر الأسود ، غير أن هذا كان طريقا استثنائيا . .

حقبة أن ميلوتين اوروش الثانى Milutin Ouzich II ملك صربيا

Miklosich, Monum. Serb, p. 2 et 3.

(٢) .

— فى عام ١٢٥٣ جد يوحنا ابن ميخائيل آسن هذه الامتيازات فى مناسبة قد صلاف

سياس مع راجوزة (Ib p. 28 et 29)

M. Miklosich, dans ses Monumens Serbica spectanda his-
toriam Serbicae, Bonnae, Ragusae (Vienn. 1858).

(٣)

(المتوصى عام ١٣٢٦) دعا البنادقة لأن يملأوا بيئته في طريقهم إلى البحر الأسود (٤) ، ولكن ربما كان في فكره ، أو على أية حال في فكر خلفائه ستيفن أوروش الثالث Etienne Ouch III ، وستيفن دوشاش الذين جددوا هذا العرض في عامي ١٣٣٠ و ١٣٤٠ (٥) أن العرض من هذه الدعوة لم يكن توثيق العلاقات بين البنادقة وبلغاريا ، ولكن توثيقها مع القسطنطينية أو الإمبراطورية اليونانية بوجه عام . والواقع أن أوروش الثالث رفض رفضاً قاطعاً أن يضمن حمايته للسفارين الذين يقصدون بلغاريا : وينبغي القول بأنه كان وقتئذ في حرب مع ملك هذا البلد (٦) .

فصلاً عن ذلك - وهذا هي النقطة الهامة في الموضوع - فإن الموقف الحذر ، والمراوغات ، والإجابات الغامضة من قبل البندقية (٧) ، كل ذلك يدل بوضوح على أن البنادقة كانوا يملأون تمام المعرفة عادات شعوب هذه الأصقاع ، فلا يمكنهم من ثمة أن يطمئنوا إلى الأمن في هذا الطريق ، ولكنهم يشعرون بسنتي الأمان وهم في سلبهم . ثم إن مادة التصدير الكبرى في بلغاريا ، المحصول الأكثر وفرة ، وهو القمح ، كان نقله يبرأ سهلاً بكثير من نقله برا ، بسبب طول الرحلات ، وسوء حالة الطرق بنوع خاص . وكانت فارنا ، وميزيريا ، وانكياوس ، وسوروبوليس (Varna, Mesembria, Anchialos, Sozopolis) ومانيا أخرى هي في الوقت نفسه أموال عامة للقمح (٨) ، ولكنها موجودة في إقليم قبصر بلغاريا . نعم ، لقد أعاد اليونانيون في فترة ما غزو هذه الأراضي كلها ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها (٩) . وكانت القسطنطينية تستورد من هناك جزءاً من تروينها في الحبوب ، وكان الإيطاليون هم الذين نقلوا هذه الحبوب (١٠) . وبالأجمال فإن أعمال التجار البنادقة والجنوبيين في هذه الناحية كانت قاصرة على شراء القليل من القمح وبيعه في القسطنطينية :

(١) Same livre perdu des Miel (ann. 1317-1330), dans l'Archiv. Venet., XVII, 264, XXII, 77.

(٢) Monument Slav merid., I, 227; II, 75 et s.; Monument Hongrois, Acta extera, I, 283, 294 et s.

(٣) Jireček, Gesch. der Bulgaren, p. 228.

(٤) Monument Slav, merid., I 162 (bis), 167 (bis), II, 77.

(٥) Pegol., p. 35 , Uzzano, p. 38; Taf. et Thom., III, 170, 218-246.

(٦) Jireček, Op. Cit., 272, 280, 289, 290, 298, 300, 325.

(٧) Taf. et Thom., IV, 160.

وبالرجوع خلفا مع التاريخ ، نجد أن أقدم دلالة لملكها لوجود هذه التجارة هي انتفاع أصايبها في عهد القيصر تيودور سلفيتسلاف (١٢٩٥ - ١٣٢٢) Théodore Svetoslav . وفي حوالى عام ١٣١٤ ، سلب بعض رعايا القيصر تجارا جنوبيين ، وسعت جمهورية جنوا مرتين لدى القيصر للحصول على تعويض ، وأخفقت في المراتين . عندئذ قطعت الحكومة الجوية كل علاقة معه ، وأرسلت إلى رعاياها القبيين ببلفاريا أمرا بمعاودة البلد . وأمهلتهم لذلك أربعين يوما . وحظرت عليهم أن يدخلوها بعد ذلك ومعهم بضائع أو بدون بضائع ، ولا حكمت عليهم بغرامة كبيرة ، وضمنت لهم الإعفاء من العقوبة عن أي أذى يوقعوه بالقيصر ورعاياه (٢٢ مارس ١٣١٦) .

وفي هذه الآونة فزا سلفيتسلاف ميضميريا وانكيالوسوس ، وسوزوبوليس ، واستعادها من اليونانيين (١١) ، وعلى ذلك أصبحت هذه المدن بطبيعة الحال موجودة في داخل الإقليم الذي فرض عليه المظر . ذلك فالامر الغريب أنه يوجد في المرسوم الصادر بمرسئ هذا المظر لفرة خاصة بمدينة سوزوبوليس Sozopolis ؟ ولما كانت هذه المدينة سوقا منفصلة من أسواق التجارة البحرية الجوية ، فلاحظك أنه رؤى من الضروري النص عليها بنوع خاص في المرسوم (١٢) . ونولي سلفيتسلاف عام ١٣٢٢ ، ولا نعرف ما إذا كان هذا الخلط قد تمت تسوية في أثناء حياته . ولستين طويلا ، كانت المصادر صامتة صمتا مطلقا بشأن العلاقات بين جنوا وبلفاريا .

وعلى العكس ، ابتداء من هذه الآونة ، انقل البنادلة إلى المرتبة الأولى . ففي عام ١٣٥٢ سري السدوج اندريا داندولو مارينو فاليريو Marino Faliero في مهمة لدى يوحنا الكسندر آسن Jean Alexandre Asen قيصر البلفار (١٣٣١ - ١٣٦٥) ليتمتد معه معاهدة تجارية جديدة . أقول معاهدة جديدة لأنه من الواضح أن هذه البعثة لا يمكن أن تكون أول مسعى بذل لربط علاقات تجارية مع بلفاريا ، إذ كان في قازنا من قبل قنصل بندقى يدعى دازكو ليوناردو Marco Leonardo وهو الذي كلف بمهمة أن يحبل إلى البندقية كفى المعاهدة وسما خطاب من

Jirecek, Op. Cit., p. 388.

(١١)

(١٢) في عام ١٢١٧ حظرت السلطات البحرية على مواطنيها أن يصدروا من قازنسا و كيبالوس asablales حريا لصدورها إلى القسطنطينية مما تسببت حائلان أندرياس بونيفس ضد الإمبراطور البيزنطي :

Atti della Soc. Lig. XII, 120.

القيصر مرفق به مذكرة بشأن قيمة العود البلغارية . ومن قبل أيضا ،
 في عام ١٣٤٣ ، كان هناك عدد من البنادقة يقيمون في بلغاريا ، ذكر من
 بينهم شخص يدعى اورساتو دي بونديسيا Orseto di Bonisegna
 ونحن نعرفهم لأنهم كانوا ضحية السرقات (١٣) . ولكن معاهدة ٤ أكتوبر
 ١٣٥٢ تضمنت امتيازات جديدة ، أقسم القيصر البيزنطي على تنفيذها .
 واشتملت المعاهدة أولا على ضمانات عادية للأموال التجاري البنادقة في حالة
 غرق السفن أو الوفاة ، ثم التأكيد بعدم مسئولية أي منهم عن اساءات
 أو ديون واحد من مواطنيه ، وعدم مصادرة ما في منزل بندقى دون أن
 يكون ذلك تنفيذا لحكم . وأخيرا تمنح المعاهدة للجمهورية الحق في بناء
 كنائس ، ومستودعات أينما تريد ، حتى في داخل البلد . وكانت الرسوم
 الجمركية محددة بنسبة ٢/٣ ، كما حددت من جديد رسوم السورن
 والحمل (١٤) .

وبقيت مسألة القدي الذي بلغه نحو هذه العلاقات معهولة : ومعاهدة
 عام ١٣٥٢ هي الترخيص الوحيد على وجود هذه العلاقات . وبعد وفاة
 الكسندر انحلت الأحوال في بلغاريا ، وسارت بغطى سرية نحو الانهيار
 التام . كان هذا الأمر هو آخر من استطاع أن يحصل بنهار لقب قيصر
 البلغار ، ووصفه الموائق اللاتينية (١٥) ، والكتاب ألفريون (١٦) بمسيرة
 "Imperator de Zagora" (١٧) . وبعد انقسمت بلغاريا الى ثلاث
 أمارات مستقلة ، لمنطقة السواحل (١٨) آلت الى الطاغية دوبرودزا

Museum, Slav, merid., II, 306, les Museum, Hung., I, II, 37 et 38. (١٣)

Ibid., III, 246-248; Marra, IV, 174 et ss.; M. Piliati (Mém. stor., 64-Vars., VI, 2, p. 338). (١٤)

Off. Gaz., I, 6, Mém. Slav, merid., I, 6. (١٥)

Benulo Secr. fid., ar. p. 72, id. Istoria del regno di Romania, (١٦)
 dans Hopf, Chron. grec.-rom., p. 142; id. Epist. 6, dans Kunstmann,
 p. 201; Laur, de Monac., p. 146 et s.

(١٧) لم يأت هذا الاسم من أن القيصرية البيلار كان مقرهم القدي مدينة زاجوريا
 Zagora كما يفترض السيد كوستاك M. Kunstmann (الرجع السابق من ٧١٣)
 لأنهم كانوا يقيمون عادة في تيرنوف Tervovo ، ولكن لأن تراء امبراطوريهم كانت
 مسمى monastère القديمة التي كان يطلق عليها أيضا في ذلك العصر اسم زاجوردج
 Zagorje (أي البند وردة الجبل) ، انظر Jirecek, Op. cit., p. 376.

(١٨) كانت عاصمتها كاليافرا Kallifakra (على رأس كاليافرا في شمال شرقي
 خلوا) .

— انظر في les Beillets de le ancle I, R de Géographie de vieune.
 (Marville-sous vol XI, p. 480) يتر بشأن Makovic
 كاليافرا ومدينة كارول Carol العائلية .

(دوبروتز) Dobrotiza (Dobrotitsa) (١٩) وكان يملك في عهد القيصر الكسندر قسرين حصيين في ضواحي ميغمريا ، ويستمع بروج المأمرة ، وأدت بين ملوك البلاد المجاورة لالليم بطرس خورا لا يملكو من الأهمية ، ومن ذلك أنه تدخل في شئون طرزيون ، وشن الحرب على الجيوش في القرم ، مرة أولى في عام ١٣٧٥ (٢٠) ، ومرة ثانية ، وبسبب أشد في عام ١٣٨٤ ؛ وفي هذه الظروف تصرف يوحى من جيوفاني مونتزو ، حاكم تينوس المشهور ، الذي رفض أولا ، استنادا إلى سلطته ، ورغم أحكام معاهدة توريس وأوامر حكومته أن يسلم الجزيرة للجنوبين . ثم اضطر أن يرضخ للقوة ، ولجأ إليه (أى إلى دوبروتز) (٢١) .

واستمرت الأعمال الحربية طوال حياة دوبروتز . وتذكر من بين أعماله أنه ألقي في السجون كل الجنوبين الذين استطاع أن يقبض عليهم في إقليمه . وبعد وفاته ، أورد ابنه إيفانكو (Ivanco (Juranco) (٢٢) أمارته ، وما كان في صدره من حقد . ومع ذلك تم أخيرا تسوية المشاكل في عام ١٣٨٧ . فقد العقد في بيتا بقصر البوتستات جيوفاني دي ليتزانو مؤتمرا ضم مندوبين من إيفانكو ، حيا كوسيتا Costa وجوليانى Tolpami من جهة ، والبوتستات ومندوبين من جيوا ، حيا جينيتي جي جريماندى Gentile de Grimaldi ، وجيانولي ديل بوسكو Glauco dal Bosco من جهة أخرى ، واستطاعوا بالاستماعة بترجم أن يتفقوا على تحرير معاهدة ، اليكم ملخصا لها : يتباحث الطرفان بتناسى الماضي ، ويتمهد إيفانكو بنوع حاصر بأطلاق سراح الجنوبين الذين قبض عليهم بأمره . ورد أموالهم إليهم . وبالسمة إلى المستقبل ، يكلل للجنوبين الرعاية والمعاملة الطيبة ، وحماية أرواحهم وأموالهم . وأصبح في وضع الجمهورية الجنوبية من تلك الآونة أن تعين فاصل دون أن يعترض الأكرام .

(١٩) Leco. Chalco, p. 326, Jiracek, Op. cit., p. 12, 329.

(٢٠) لقد في سياقات مستمرة كان لهذه السنة ، كانت لتسليح مليا بجوزة لحارته ٩.

Canale, Della Crimea, II, 99 et ss.

(٢١) Hög, Griechischland dans Bruch et Gruber, LXXXV, 29.

(٢٢) هذا الأمير البشاري غير معروف كثيرا . إلا كان عهد حكمه قصيرا للغاية . ويبدو أن أملاكه في داخل الأرمن لم تفصل إلى ميلستري Milstri . وكان خليفة ميرزا Mirza هو الذي ضم هذه المنطقة إلى الإمارة . (Jiracek, Op. cit., p. 324, 349 et s.) وليس هناك أي اتصال بين إيفانكو هذا والحاكم (Bon) يانكو (Janoska) الذي أثقل التضامن التركية أنه سلم مدينة صوفيا إلى الأتراك (١٣٨٢) وكانت هذه لهذه لواقعة بعيدا في المستقبل ، يرد في إمارة الأمير سيمسان الثالث Elman III.

على اقلعتهم . وسوف يكون هؤلاء المتواصل على ثلثة من أن يجدوا عمده
عونا في ميلازستهم وطائفهم القضائية . وعلى الأمير أن يسمح الجنوبيين
قطعة أرض ملائمة يشيدون عليها كنيسة ومستودعا ، ويستقروا بها فهم
أمن وسلام ، ويرخص لهم بأن يبيعوا في الاقليم البلغاري ويصدروا منه
كل انواع السلع ، حتى السلع الاستهلاكية (الا في حالة المجاعة التي
يتمتع فيها خروج المواد الغذائية) . وحددت رسوم الفخول والخروج بـ ١٠
منخفض قدره ١/٢ من القيمة ، وصرح باغفاء السفن والمواد الذهبية
والفضية ، واللآلئ ، والمجوهرات اقلها ثلثا من الرسوم والضرائب (٢٣) .
ولم يتمتع الجنوبيون طويلا بالرأيا التي كفلتها لهم المعاهدة ، فبعد انقضاء
بضع سنين اتم الأتراك دفع بلغاريا (١٣٩٣ - ١٣٩٨) ، ولم تلبث
الأثار الأخيرة للمنشآت الجنوبية أن اختلعت عن الأقاليم الواقعة جنوب
مصاب الدانوب .

ويجب ، قبل أن نترك هذه المسئلة أن نلقي نظرة سريعة على الدواع
النشأت لمصاب نهر الدانوب ، ولو أن هذا يؤدي بنا إلى ما يبعد حدود
الأراضي البلغارية ، كان هناك ميناء يتردد عليه الجنويون والبنادقة ، وهو
من المستودعات المدينة لميناء منطقة بعض ذلك هو ليكوسستوموم
Lycostomum الذي يسميه الايطاليون بمسامة ليكوسستومو
Lycostomo (٢٤) . وفي مجموعة من السكوى التي قدمتها في عام
١٣٦٠ حكومة البندقية الى حكومة جنوا ، ترى أن الأولى كتهم تجار الجنوب
الجنوبيين بأنهم يمنعون رعاياهم البنادقة من اجراء مشتريات في هذه السوق
الا اذا قبلوهم شركاء لهم : فإذا قبلوا ذلك ، فإن الجنوبيين يخدعونهم بأن
يجروا من جانبهم مشتريات في البس ، بحيث لا يجد البنادقة شيئا
يشترونه ، ويضطرون غالبا للمودة وسلفهم نصف فارغة (٢٥) . وكانت
ليكوسستومو مدينة محصنة ، ويبدو أن الجنوبيين استولوا عليها في تلك
الآونة : وكان تحصل منهم يتولى ثمة مهمة الحاكم في عام ١٣٣٢ (٢٦) .

(٢٣) نشر Silvestre de Sacy هذه النسخة مع وثائق أخرى في « وثائق جديدة »
لر ، (les Not. et extr., XI, I, p. 65-71) ، راجع مسيرت لها في
les Mém. de l'Acad. des Inscr., VII (1824), p. 282 et se, Voy. Atti
della Soc. Lit. XIII, 143 et se, 183.

Lelewel, Portulan, p. 12, Thoma, Periplus des Pontus Euxi-
ma, p. 288 , Atl. Luxero, p. 123, 346.

Taf et Thom, inéd., (٢٤)

Lird du Cartolario della masseria di Caffa, dans Dagmont,
Atl. Lux p. 123. (٢٥)

وبيجانپ ليكومتوهو يرد ذكر سوق كبيرة للجبوب ، تلك هي سوق
 مونكاسترو Moncastro (حاليا اكيرمان Akkerman) ، وفي عام
 ١٤٣١ كانت هذه الناحية تتبع القويود voivod (موظف كبير في بلاد
 البلقان وبولونيا - المترحم) الكسندر ، أمير فالاشيا الصغرى la petite
 Valachie ، ومولداليا Moldavie . وفي عام ١٤٤١ وجد الرحالة
 البلجيكي سيير دو لانوي Guillebert de Lannoy - هناك جنوين
 مقيمين إقامة دائمة (٢٧) وفي عام ١٤٤٥ ، سمع شن فاليريان دي فانرن
 Vaerem de Wavrin قائد أسطول صغير لدوق برجنديا حروبا على
 الأتراك عند الدانوب السفلى ، كانت مدينة مونكاسترو وقامتها في أيدي
 الجنوين ، وكان في الميناء سفن يملكها أهالي طريزون وأرمين (٢٨) .

Oeuvres de Lannoy : 6d. Polvin, p. 80.

(٢٧)

Jehan de Wavrin, Anciennes chroniques de l'Angleterre,
 6d. Dufour, II, 80.

(٢٨)

ثالثا - آسيا الصغرى التركية

ذكرنا قبلا ما كان عليه وضع يودسجات البادية في اللسطنطينية في عهد الامبراطورية اللاتينية . ورائنا انهم استغلوا التفوذ الذي منحهم اياه هذه الامبراطورية في تسيير دخول مواطنهم في اقصى نواحي آسيا الصغرى ، عن طريق معاهدات أبرموها مع اباطرة بيلقية وسلاطينه ايكوليوم (حاليا قونية) ، عندئذ دس الفرييون البلاد بطريقين في آن واحد . فدس الايطاليون عن طريق ارمينيا الصغرى وممرات جبال طوروس ، وفاسروا للمرة مرة بعبورها وتجاوزها ، في حين نظم البروفانسيون حركة تجارية بين الساحل الجنوبي لسلطنة قونية وجزيرة قبرص وفي غضون القرن الثالث عشر ، حدث بلا انقطاع تغير مزدوج في وضع هذا القطر . وكلفت موقعة اربلجان Bezlagdan (١٢٤٤) امبراطورية السلطنة استقلالها ، واصبحت مجرد تابعة لحالات المغول ، ولم يبق لها وجود خاص ، واكملت المازعات من أجل ارتقاء العرش والانقسامات انهيارها ، وتجزأت فصارت عشر امارات يحكمها سادة من اصل تركماني ، وكان القومع هو الغاية التي تعمل من أجلها كل امارة ، خاصة اذا كانت صغيرة .

ولم يكن في الشرق ما يسكن للحصول عليه ، فالامبراطورية المغولية

الكبرى كانت سدا ميعا يتصدى لكل محاولة من هذا القبيل . وكان هناك من ناحية الغرب فرص متاحة للغزو ، ولم يجد للإمبراطورية نقيضة وجود بحكم الواقع منذ عودة ميخائيل باليولوجوس الى القسطنطينية ، نظر القديم للأباطرة . وكانت تلك فترة قاسية مرت بها الأقاليم اليونانية على السواحل الغربية لآسيا الصغرى ، وفاضلت بغوة في سبيل البقاء تحت حكم أمراء ذوي بأس وعزم ، وعندما وصل هؤلاء الأمراء مسلات مجرد مقاطعة ، وإذا حولت الشئون السياسية صوب الغرب كل اهتمام الأباطرة من أسرة باليولوجوس ، فقد أهملت كثيرا مصالح هذه المقاطعة ، لذلك لم تزد سوى مقاومة ضعيفة لغارات الأمراء التركمان . وكان مجرى هو صيريس (ميندر Meandro) عند ملتقى سبين يفصل بين اليونانيين والسلاجقة ، وجنوبي النهر كان الأقليم يتبع سلطان ايكونيوم (قونية) . وبعد الحلال هذه الإمبراطورية انتقل الى سادة منشا Mentché الذين يبدو أن مقرهم كان في ميلازا Mélaza (بالتركية milâs ميلاس ، وباللغوية ميليسوس Melissos) وهي كارية القديمة على السواحل الايحية - المراجع) عاصمة كاريا Caria (١) القديمة . وفي عهد الأباطرة من آل باليولوجوس انتهك الأمراء التركمان هذا الحد وغيره من الحدود . ولا يخالفهم قام الإمبراطور أندرونيك الأسبق بترميم حصون « ترال » Tralles ، وكانت تلك محاولة غير مجدية (٢) ، إذ ما لبث أن استولى عليها ودمرها مساليوكيس Salpouk (٣) سيد منتشا ، وعلى انقلابها قامت مدينة آيدن Aidin (٤) التركية التي أصبحت مركز إمارة تركمانية جديدة أعطتها اسمها ؛ وكانت هذه الإمارة منتشا تضم تقريبا اقليم ايونيا Ionia القديم - وفي القسطنطينية اشرق العمل لحظ في الاحتفاظ بالأقليم اليوناني في آسيا الصغرى ، وذلك حين أوفد أندرونيك الى هناك قائده المرتزقة الشهير روجر الغنودي مع فرقته القلاونية الباشنة .

Saints, *histoire de la Romania*, dans *Hopef. Chron.*, gréco-rom., (١)
p. 146 a., 167 ; Pachym., I, 472 ; Ducas, p. 13 ; *Tom Batceata*, II, 378-
380 ; Chahabeddin, p. 320 et a., 370 ; Defrémery, dans les *Nouv. annal*
des voyages, 1361, I, 13, 14.

Pachym., I, 468-474 ; *Minéph. Grég.*, I, 148.⁷ (٢)

(٣) لم يعمل اليه اسم سادة منتشة لغروي لدى الجرجاني، الا في هذه النسخة
اليونانية .

Vivien de Saint-Martin, *Asie-mineure*, II, 514 Roman Mun-
tauer, trad. Lenz, II, 119 et a. (nomme cette ville Atia). (٤)

وكانت مدينة فيلادلفيا Philadelphia الهامة تسقط أمام الهجمات المتوالية التي شنها أحد أمراء التركمان العشرة ، على شـ Alicher سيد كريميان Kermian . وذلك دوجر المصادر عن المدينة ، وهزم أتراك آيدين (١٣٠٣) (٥) . ولسوء الحظ استمدى دوجر ، وهو في أوج انتصاراته ، وأصبح القطر الواقع شمالي نهر مياندرو ، بعد أن هجره المندافعون عنه ، نهبا للأتراك (٦) . وبعد وقت قليل أعاد الأتراك غزو واحتلال الإقليم الواقع بين هذا النهر ونهر كويستروس Koyatros . وبعد هذا النهر أيضا بقليل .

وكان آيدين مؤسس الأسرة التي تحمل هذا الاسم (٧) قد جعل مقامه في مدينة آيدين على مسافة قريبة من نهر مياندرو . وفي عام ١٣٢٣ حين زار الرحالة ابن بطوطة (٨) آسيا الصغرى ، وجد أنه متعدد لفظا على يركي Berki (٩) وهي مدينة كائنة وراء نهر كايستروس ، بين ثيرا Thyra ، وساردوس Sardis . وكان يحدها ثلاثة أبناء (١٠) انقسم معهم في حياته نسباً من أمارته ، وتلقى أحدهم خضر - بيك Khidr-Beg مدينة اميس (الميس) Ephèse (١١) ، وآخر عمر بيك Omar-Beg تلقى سميرنا (الزمير) (١٢) : وكان هذا التقسيم قد تم قبل عام ١٣٢٣ . وفي وقت الوصية ، أبدى محمد رغبته في أن يسرى مفعولها بعد وفاته ، وطوال حياة ولديه .

وفي حين وسعت أسرة دياوش Diadosh سليلة آيدين أبنائها على حساب الامبراطورية اليونانية حتى خليج سميرنا ، راحت أسرة

(٥) Pachym II, 421 et ss. , Nicéph. Grég., I, 331 et ss.; Montaner, Op. cit., II, 116 et ss.

(٦) Doc p. 13; Conisus, I, 388, 481.

(٧) M. Karabacek dans la Wiener numismatische Zeitscher, II, (1870), p. 530 et ss.; IX (1877), p. 207 et ss.

(٨) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٩٨ . ويعلق عنه ألبا شهاب الدين (Not. et extr., XIII, 389, 389)

(٩) حلب بزرجه Birgh

— Pachym, II, 436; Miklosich et Müller, Acta graeca, I, 328,

383, 461, 497, II, 104; voyez Hadji-Khalifa, dans voyage de Saint Marlia, Asie-minore, II, 496.

(١٠) يعلق ابن بطوطة وكاناكوزين في خصوص عدد أبناء محمد هذا واسماهم ما لا يدع ميالا للشك في ذلك .

(١١) ابن بطوطة : الجزء الثاني ، ٣٠٩ .

(١٢) المرجع السابق ، ٣١٠ . Doc, p. 27.

تركمانية أخرى تتقدم صوب الشمال وتستقر بشباب على ضفاف نهر هيرموس Hermon ، واستولى صاروخان Sarou-Khan مؤسسها على ماينريا Magnésia (١٣١٣) وجعلها مقرا له (١٤) : واسطفا من هناك استولى على طول السواحل ، وعلى ضفتي الهيرموس على اقليم يقابل تقريبا اقليم ليديا اليونانية ، وانتقلت املاكه الى سلساته ، ومن هناك حتى هلسبوننس (الدردليل حاليًا) شكل القطر اعادة من الامارات المعمر ، تحكمها أسرة كارازي Karazi ، وهذا هو الاسم الذي يطلق عليها عادة ، ولكن مؤسسها كان اسمه « كالام » Kalam ، وكان كارازي خليفة ، وكان وريث كارازي ابنه دمير — خان Demir-Khan (١٤) ، ومقر هذه الأسرة « بالي — كيرسي » Ball-Kersi (شرقي آنداميتي Adramytil) غير أن فرعا أصغر يتنسل في شخص أياكشي Iakchi أخى دمير شان (في زمن ابن بطوطة ، وشهاب الدين ، وكاتاكوزين) اتخذ مقرا في بيرجامه Bergamah ، أو بيرجام Pergame (١٥) .

وأخيرا ، وأصل الأمراء العثمانيون لتوحاتهم الى شمال شرقي آسيا الصغرى ، ومن ١٣٦٦ الى ١٣٣٠ استولوا بالثوالي على مدن بروسة (بالتركية بروصة — المترجم) Brouse ، وليكوميديا Nicomédie (حاليا إزميت — المترجم) ، وبيلية Nicée ، وعلى ما تبقى من اقليم بيشنيا Bithynie اليوناني . ويحافظ من الحركة التي دفعت جيوشهم صوب أوروبا ، هبوا الى املاكهم مستقلات جيرانهم من أسرة كارازي .

وهكذا انتشر الاسلام في بضع سنين من نهر عياندر الى البحر الأسود ، واستقر بها . وفي ختام « مجموعة أخبار رومانيا » يقول سباتودو Sanudo (١٣٣١) ، ان فيلادلفيا كانت في ذلك الحين المدينة الرومية الوحيدة في كل القسم الغربي من آسيا الصغرى (١٦) . ومع اتساع العالم الاسلامي ، لم يحدث قطب الكمالي كبير في الامبراطورية الرومية ،

Nicéph. Grég., I, 214; Duc., p. 13; Chehabeddin, p. 329, 323; (١٢)
Ibn. Batouta, II, 313 et s.

كان لانيه أيضا اماره في سيليم . شرقي مسجون . انظر في ذلك :

— Chehabeddin, p. 327 et Deffrémery, Nouv. annal. des voyag., 1851, II, p. 19.

Nicéph. Grég., I, 214; Duc., p. 14; Chehabeddin, p. 329, 323; (١٤)
Ibn-Batouta, II, 317.

Ibn-Batouta, II, 316; Canisius, II, 70; Chehabeddin, p. 326, (١٥)

Hopf, l.c., p. 140. (١٦)

— لم تلحق المدينة الا بعد (من سيده . جلي يندى يازيد Bajazet

وأما كان في هذا التوسع أيضا خطر شديد على الإمارات القرصية في الأرخيبيل ، وأنيكا antique ، والمورة • ولابد أن الأتراك ، وقد أصبحوا مسيطرين على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، داسوا يعملون على إخضاع الجزر المجاورة • وفي حوالي عام ١٣٠٠ الترع سادة منتشبه من اليونانيين جزيرة رودس كلها تقريبا • وفي عام ١٣٠٩ حين أرادته هيئة فرسان القديس يوحنا النوطى بالجزيرة كان لزاما عليها لمزورها وأنتزاعها من من الترك واليونانيين ، وكان عملها هذا جريسا ، ودليلا على المساندة التركية (١٧) •

وفي رودس كانت هيئة فرسان القديس يوحنا (الاستياريه) بمثابة معقل للمسيحية (١٨) : لقد شملت الهيئة بحمايتها جزر الأرخيبيل الجنوبية ، وجعلتها في مأمن من مغروعات الأتراك ، وكلفت بها لديها من قوات مسلحة الملاحه ، وهيأت ماوى للسفن التي تنقل حجاج الأرض المقدسه ، وكذا السفن التجارية المدينة (١٩) التي تصدر لسور تلك الدواسى حتى تصل الى أرمنيا الصغرى ، وجزيرة قبرص ، وءوريا ، ومصر • ومع ذلك كانت السواحل التي يملكها الأتراك طويلة جدا ، في حين أن سفن الهيئة وقواتها قليلة • ولما كان أمراء آسيا الصغرى المشرة ياربون القرصه على نطاق واسع ، كان من المستحيل على الهيئة أن تصيدى في كل المواقع بمقارنة لماله •

• واخيرا أن هذه المنطقة كانت دائما مأوى لعديد كبير من القرصنة .
كما كان ميناء آنيكا ania الواقع بجوار مدينة كوش - اداى Kouch-Adani (Scala nova) جنوبى مدينة النسس القديمة (٢٠) ، في عهد المسيحية البيزنطية مأوى حقيقيا للقرصنة من الروم والفرنجة (٢١) •

(١٧) Hopf, art. Griechenschiff, dans Bruch et Gruber, LXXXIV, 393 et s.; mon-Latria, Hist. de Chypre, III, 403 et s.; la Chron. Astense, publ. dans les Misc di storia ital.

(١٨) Bosio, Istoria della sacra religione di S. Giovanni Gieroco-Limiano, 2e part. p. 18.

(١٩) Clavijo, p. 40.

(٢٠) حتى مدينة آنيكا • ania اليونانية وقد مرها أيلداليزون الرب باسم القديس أو أنيسى - المراجع •

Taf. et Thom., III, 71, 141 et s., not. Uzk., p. 282; Lelewel, Géogr. du Moyen-Age, portulan, p. 18.

(٢١) Decisions pontificas, dans Taf. et Thom., III, 179, 180, 184 et s., 194, 207, 220, 228, 248, 267, 281 et s., 244.

وبعد الغزو التركي ، أطلق سادة البلاد الجند أساطيل حربية مرودة بما يلزم من العتاد للأغارة على حرد الأرحييل الكثيرة والصغيرة وتخريبها . ولم يكن ثمة ما يحول بين هذه الأساطيل وبين استيلائها على السفن التجارية التي يوقمها حظها السوء في طريقها ؛ وبلغ من جرأة هذه الأساطيل أن تطوف بسواحل الإمبراطورية البيزنطية ، والمردة ، وبيوتية *Bestio* ، وخليج كورنثوس ، واضطر بايل تجرونات أن يدفع لهم جزية (٢٢) . وكان الأشخاص من آل آيدن ، ضطربيك في النمس ، وعمر بيك في سميرنا (٢٣) يقومان بتجهيز حشداً النوع من الإمبراطيل . ولابد من القول بأن الشركة المظالونية المقيمة في أتيكا كانت - ويا للعار - أول من شجعهما في هذا السبيل ، واستعرت مهنها فيه (٢٤) .

وكانت كل القوى الفرنجية التي تأسست أرض اليونان : جمهورية البندقية ، وإمراء جزر الأرحييل ، وصنادة شبه جزيرة الخورة ، تعاني كثيراً من هذه الآلة ، حتى أنها تضمنت اللحظة التي يتسنى فيها طرد الأتراك من سواحل آسيا الصغرى ، ودفعهم إلى داخلها . وحتى خطط ملك فرنسا فيليب السادس لمشروع حملة صليبية ، والتفصل في حلها الشأن بالدوج فرانسيسكو دانلورل ، أوصاه هذا بالا ينسى أنه لابد ، قبل القيام بالحملة ، البدء بشن الحرب على الأتراك ، لأنه سوف يحتاج من أجل تموين حيوشه ، أن يكفل حرية مواصلاته ، ومصلاته بمستودعات الحبوب الكبرى على سواحل البحر الأسود . وإن هذه المواصلات سوف تكون مهددة طالما لم يضع حداً لجرأة هذا الشعب من القراصنة ، تلك الجرأة التي تشبه يوماً بعد يوم (٢٥) .

وفي هذه الآونة وضعت الأمم الأكثر اهتماماً بهذا الموضوع قواعد

Giovanni Villani, III, 187 (éd. Dragomann) et Sanudo (Hofst. (٢٢) dans Kunstmann, Studien über Sanudo d. Aelt., p. 718; Hopf, Glacienland, dans Busch et Gruber, LXXXV, 378, 422, 423 et s., 449, 456, 481, 482 et s.; Hopf, Gesch., V Andros, p. 62 et s.; Commens, reg., I, 193 no 107 p. 193 no 128, Chehabeddin, p. 354, 366 et ss.

Ibn-Batouta, II, 311, (٢٣) Commens., I, p. 181 no 160, p. 194, No 110, p. 195 no 118, p. 198 no 122.

(٢٤) رسالة من تلك في ١٨ نوفمبر ١٣٢١ (Coll. des doc. inéd., Médian, hist., III, p. 97.

(٢٥) راي السفارة البندقية ، دون بناء على طلبه في ١١ مارس ١٣٣٧ (ibid., p. 68 et ss.)

توجد ما بين الزيفان أيضاً في : Taf et Them., IV, 219-222 .

« اتحاد » (٢٦) يتولى الاتفاق على أسطول يتجول في الأرشيبيل . وكان أعضاء هذا الاتحاد الأتراك هم دوج البندقية ، ملهم الحركة ، والأمبراطور أندرونيك ، والرئيس الأكبر للفرسان الاستيطارية ، وأعضا اليهم بعد عام ملك فرنسا (٢٧) . وأعقب هذا التشكيل الأول للاتحاد في عام ١٣٣٤ مجموعة قائمة على المبادئ نفسها ، دخل فيها ملكا قبرص ولابوني ، وتولى إليها يوحنا الثاني والمشررون التوجيه العام (٢٨) . وفي تلك السنة لم يكن هناك مجال للتفكير في القسام بهجوم في بلاد العدو ، إذ لم يكن التسليح كافيا غير أن « الشيفاليرة » يوحنا دي سيويوي Jean de Cépoy قائد أسطول صغير مشترك مكون من سفن جهازها كل من البابا وفرنسا شن حربا على الأتراك ، والفريق لهم عددا كبيرا من السفن . ومن جهة أخرى تشبه أخبار دلفينو Delfino ببسالة قائد الأسطول البندقي بييترو تريزو لأنه كفل للعالم المسيحي في هذه الأثناء أمنا لم يكن معروفا منذ زمن بعيد (٢٩) .

من الطبيعي أن تستلبد البحرية التجارية من هذه التهدة . ولسوء حظ توفي البابا يوحنا الثاني عشر ، وحل محله كبير معمل المساط الذي كان يبذل في تنظيم النظم ضد الأتراك . وانتهم الأتراك هذه الفرصة وعادوا إلى رحلاتهم وأعمالهم التخريبية على سواحل الأرشيبيل ، ولم يصد هناك من يتصدى لهم .

وأخيرا ، في ربيع عام ١٣٤٤ وجه البابا كليمنت السادس نداء إلى ملك قبرص ، والرئيس الأكبر للفرسان الاستيطارية ، ثم إلى جمهورية البندقية . وفي هذه الآونة نظم الصفاء أسطولا من عشرين سفينة حربية لمدة ثلاث سنوات ، على أن تبقى بتشكيلها هذا حتى في فصل الشتاء (٣٠) ، وعهد بالقيادة العامة إلى مارفينو زكاريا ، قاهر الأتراك . وبعد أن ظهر زكاريا البحر من القراصنة الذين كانوا يعيشون فيه فسادا ، اختار مسير

(٢٦) Rhodus (6 sept 1332 : Taf. et Thom., IV, 338 et ss.; v. les Rubriques des livres perdus des Mss.; Archiv. Venet., XVII, 271, XVIII, 88, 338, XX, 82

(٢٧) nov. 1333, Coll. des doc. inéd., Méd. hist., III, 101 et s., Taf. et Thom., IV, 340.

(٢٨) 6 mars 1334 : Coll. des doc. inéd., l.c., p. 104 et ss.; Taf. et Thom., IV, 344 et ss.

(٢٩) Raynald, Annal. eccl. ad an. 334 no 18; G. Villani, Cron., éd., Dragomacini, III, 335; Cron. Delph. cit., dans Taf. et Thom., IV, 347.

(٣٠) Comptes, reg., reg., II, p. 347 no 17, p. 118 no 23; Paoli, Cod. dipl., Coll'ord. Geros., II, 86 et s., Taf. et Thom., IV, 263-266, 269-273.

مقر الأمير عمر حندا لهجومه (٣١) . وفي ٢٨ من أكتوبر ١٣٤٤ أغار على الموقع سجاح تام (٣٢) واشتعلت النيران في ترسانة عمر واسطوله . وعادت سيرينا إلى أملاك المسيحيين ، وبقيت معهم خمس سنين عاما . وفي عام ١٣٤٨ قام عمر بمحاولة لاستعادتها ، ولكنه دفع حياته ثمنا لهذه المحاولة (٣٣) .

وإذا عرفنا أهمية سيرينا (أمير) التجارية في الوقت الحاضر ، سنستوف بمسائل عما إذا لم تكن هذه الفترة الطويلة ، من عام ١٣٤٤ إلى عام ١٤٠٢ قد أكسبتها ، بسبب السيادة الفريجية عليها ، راحة كبيرة . ولكننا إذا أعاد النظر ، نجد أن هذا لم يكن أمرا مستطاعا ، ولم يطل أمه الرحلة بالنصر . ذلك أن صعوبة الاحتفاظ بالفتح الجديد ما لبثت أن أحدثت منذ السنوات الأولى في نفوس الأمم المتحالفة إزعاجا شديدا حتى أنها فكرت بجديا في هدم المدينة حتى توفر على نفسها هذا الضعف (٣٤) . ولم يكن ثمة من يرضى تضايق أمواله فيها . واضطر البابا مرارا أن يبذل جهودا جبارة ليحصل من الأمم المتحالفة على أموال وسفر . وإذا لم يبدأ أدواج البندقية حماسة كافية ، واضطر البابوات مرارا وتكرارا إلى تقديم الالتماسات لحملهم على انقضاء (٣٥) بالتراعات لتجدد دائما في معاهدات الاتحاد (٣٦) ، فأنما يدل ذلك على الفائدة الزهيدة التي تنوعمها التجارة من الاحتفاظ بمدينة سيرينا .

وتدلنا دراسة المصادر على أن من أسباب التفكك الهائلة التي تنكلمها حيازة هذا الموقع من انعدام إيراداته الخاصة المعقولة شبه تام (٣٧) . وثمة حجة أخرى تؤيد رأينا هذا . ذلك أن سيرينا لم يكن لها كسوف في ذلك المعنى أية أهمية (٣٨) . وحتى بالنسبة إلى منتجات وسط آسيا الصغرى ، كان من المستحيل وصول هذه المنتجات إلى المدينة

(٣١) كان يسكن في القلعة ، انظر ا ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٣١٠ .

Villani, l.c., IV, 68-70, Taf et Thom., IV, 358; Nicéph. Grég., (٣٢)

II, 480; Bosio, Istoria della rellig. di S. Giovanni, 2a part., p. 42.

Nicéph. Grég., II, 484 et s. (٣٣)

Bosio, II, 50; Rayn., a.a., 1348, no. 27. (٣٤)

Commenem. reg., II, p. 181. (٣٥)

No. 102, p. 184 no 303, p. 281 no 225.

Taf et Thom., IV, 360; Commenem. reg., II, p. 185 no/ (٣٦)

364, 366, p. 187 no 308, p. 217 no 21, p. 218 no. 23, p. 245 no. 193, p. 264 no. 241.

Bosio, II, 57. (٣٧)

Treaté de Nymphoeum 1261, J.B., Jur., I, 1352. (٣٨)

بصورة منتظمة ، لأن الأتراك لم يهبطوا عن التجول حولها (٣٩) . والشئ
 العجيب ، أنه في حين أن سميريا ، البلد المسيحي ، لم توقع في أن تشغل
 مكانه بين الأسواق التي تتعامل معها تجارة الشرق الأدنى ، كان هناك
 مدينتان تركيتان واقعتان في نفس المنطقة ، تشتهران بهذه المزية : ميناء
 الطولوسو altofuogo (٤٠) ، وميناء بالاتي Polatia . ولم تكن
 مدينة الطولوسو التي كانت في القرون الوسطى تابعة لإيطاليا سوى مدينة
 جنس القديمة (٤١) .

ولكن ما أصل اسم الطولوسو هنا ؟ كان روم بيرطة يطلقون كثيرًا
 على الجنس اسم أشهر شخص من سكانها تحافظ على مقبرته (٤٢) ، (٤٣) ،
 أو أيضًا لأن القديس يوحنا S. Jean كان من بين الخواريين عالمًا لاهوتيًا
 ممتازًا (٤٤) . وتحول الاسم اللاتيني في اللغة التركية إلى آيا صولوك
 Ayasoluk وهي الإيطالية إلى الطولوسو Altofuogo (٤٥) .

وبرى عند بحثنا عن أصل اسم الطولوسو أنه ينبغي الاحتراز من
 أن ننسب إلى المقطع الطو Alto معنى كلمة elev6 (المرتفع) ، ومقطع
 fuogo معنى كلمة lieu (مكان) ، فلي العصور الوسطى كان الناس
 يجهلون هذه المعاني ، ويستخدمون الترجمة التي تبدو طبيعية للغاية ،
 أي ، المكان المرتفع ، وتبدو كذلك صحيحة لأن مدينة الجنس في
 العصور الوسطى لم تكن في موقعها القديم ، في سهل كايستروس
 Kayetros وإنما كانت فوق جبل (٤٦) .

والواقع أن الأتراك شيدوا المدينة الجديدة على صخرة تشرف على قرية
 آيا صولوك الحالية ، وذلك تيسيرًا للدفاع عنها ، واحتلت المدينة حتى

Bosio, II, 67, 71 78, 80 90, 98 et s., 101, 108 et s. (٣٩)

Ducas, p. 122, et ss. (٤٠)

Ludolphi de Sochem, De finere terras sanctos liber, éd.
 Dercks, p. 28. (٤١)

L'Orient, Relation rhénane de la fin du XIV^e s., éd. publiée dans Orient
 sud Occident, de Benfey, I, 686, Barmen Münster, éd. Lanz, p. 87

Cf. Procop., De edif., p. 310; Theophanes, Chronogr., I, 738. (٤٢)

Wibaldt Epist. éd. Jaffé, Biblioth. rer german., I, 163;
 Oull, de Tyr XVI, 28. (٤٣)

Taf. et Thom., I, 118 , Ludolph., l.c. ; Bernho., l.c. (٤٤)

Sanuto dans Hopt, p. 148. Dans Taf. et Thom., III, 193 (٤٥)

Ludolph., p. 28. (٤٦)

كنيسة القديس يوحنا القديمة . وهي موضع خورس الكنيسة كان يشار أيضا إلى قبر الرسول ، ولكن ، باقى الكنيسة تحول إلى سوق كان الأتراك يبيعون فيه الفلفل ، والكتان ، والقمح ، الخ (٤٧) . كانت انفسر القديمة التي صارت هجورة ، بعيدة بمسافة ما عن البحر ، وكان لابد من بناء ميناء صناعي لها ، أما المدينة الجديدة فكانت أكثر بعدا . نذكر مع ذلك أنه كان يوجد على الساحل مدينة أخرى تسمى أيضا الطولوجو ، اشتهرت في مستهل القرن الرابع عشر ، ويسكنها ايطاليون (٤٨) كانوا ليواحيث سياسية منفصلين عن وطنهم الأصل . وعلى اناج لودولف Ludolph على هؤلاء الايطاليين أنهم شاركوا في مصالهم الأتراك ضد المسيحيين ، وكانت القرصنة في الغالب حرفتهم الرئيسية . ولم يقل لودولف انه التجارة كانت هناك مزدهرة ، ولا يذكر بيجولوتي معاصرة في مذكراته أى شيء عن مدينة الطولوجو الثانية هذه . وكانت الصلقات التجارية قبل منتصف القرن الرابع عشر تتعلق في المدينة التركية القائمة على سفرة أيا صولوك .

ويقول بيجولوتي ان الفجار الغربيين كانوا مضطرين إلى نقل بضائعهم من امتهلة إلى الساحل ، وبالعكس . ولم تكن الطولوجو سوقا من الدرجة الأولى ، ومع ذلك كان لها بعض الأهمية بحيث يرى بيجولوتي من المفيد أن يورد التجارة الإيطالية ببعض المعلومات عن الكيفية التي تتم بها الأعمال التجارية ، ويصف التوازين والتكايل المستعملة فيها ، ويضع جدولاً مقارناً لهذه الموازين والتكايل بالنسبة لتطبيقاتها في جنوا ، وبيزا ، وفلورنسا ، والقسطنطينية ، وقبرص ، وروندس ، ويذكر أصل وصفية وطول الأقمشة الصوفية التي يمكن بيعها هناك بربح كبير . والواقع أن التجار الغربيين كانوا يصلون إلى هناك ومعهم أقمشة صوفية من نابليون ، وبريسيان Perpignan ، وتولوز ، وكذا ألوان فضية وتبيذ ، وصابون ، ويعودون منها ومعهم شب من كوتاهية Kontahie ، عاصمة

Relation ritana, dans Beaufay, op. cit., p. 537; Arundell, (٤٧)
Discoveries in Asia minor, II, 382 et ss. ; Cdo de'Erigo, dans Les
Moum, Germ., 88, XXXVI, 71.

Ludolph, p. 88.

(٤٨)

— لاحظ أن لودولف يظهر أن البجولوتي والبيروجي جميعهم التسمية الماشية
و التسميات ديون (ص ٤٧) ولاذكر أيضا أن لهذه الفجار لآيا Asla كان وكرا
لقرصنة البجولوتي والبيروجي .

إمارة كرميان Kermian (٤٩) ، وقبح (٥٠) ، وشح ، وأرد ، وقطب
غير متناول . وكان رسم الخروج بمائة ٤٪ ، وبالنسبة إلى القمح ٢٪ .
ولم يكن هناك رسم للمحور إلا على الحبوب والصابون (٥١) .

والثابت أن هذه التجارة كانت تعاني من انقطاعات كثيرة بسبب
عارات القراص : وكان عامل الطولوجو ينظم هذه الغارات ، كما ينظمها
أخوه عامل سميرنا . وغير أن الحرب التي شنتها اتحاد الدول المسيحية
على الأمراء التركمان ، وهي الحرب التي رويناها قبلًا ، تسببت في
انقطاع أطول من غيره . وأخيرًا ، وبعد سقوط سميرنا ، وهزائم قادش
وقعت له في البحر ، وفقد أخيه عمر الذي مات وسلاحه في يده ،
وجد أمير الطولوجو نفسه مجبرًا على عقد الصلح مع سلطان البايبا ،
والرئيس الأكبر لهيئة القرمانيين الاستتارية . فبعث إلى البسانا بصفته
رئيس « الاتحاد المقدس » بوفد مهمته الالتئاس منه بقبول بنود المصاهدة
كما هي ، أو بعد تصحيحها ، وتهدد بحسب السلطان التركية كلها ، حتى
سلن أخيه ، ونزع عتادها ، بل وتدميرها إذا صمم البايبا على ذلك .
ولم يلتزم بعدم السماح بمسارسة القرصنة وتشجيعها لحسب ، ولكنه
كفل أيضًا سلامة أرواح التجار المسيحيين وأموالهم على الأراضي
التركية ، وكذا الأتراك الذين يسافرون إلى بلد مسيحي على سفن
مسيحية . وعليه فضلًا عن ذلك أن يتنازل للدول المتحدة من نصيب
إيرادات جمرات الطولوجو ويقرها من موانئ إمارته ، ويوافق على إقامة
قناصل لقبرص وروفس والسيدقية والسماح لهم بقول اللغسساء بين
مواطنيهم (٥٢) .

وبعد أن تردد البايبا قليلًا ، صعد على المصاهدة (٥٣) ومن نتائج
هذه المصاهدة العامة قنصلية فيبسيقية في الطولوجو ، ويؤيد العديد من

Pegol, p. 270.

(٥٩)

(٥٠) في عام ١٢٥٥ سعى لكران في انكرا إلى شراء هذه السلع في الطولوجو
وبالاتباع مع أن الطرف لم يكن مناسيا . ومن ثم علما صغر الدين :

Corum, reg., II, 221, no 83.

— Pegol, p. 40-42, 78 et s. 94.

(٥١)

M. de Béas-Lairie dans el Coll. des doc. inéd. mál. hist., III, 112 et s.; Tuz. et Thom. IV, 212 et ss.

(٥٢)

Tuf. et Thom., IV 345 et s., 349 et s., Coll. des doc. inéd.,
I.e., p. 110 et s. Tuf. et Thom., IV, 218.

(٥٣)

المصادر هذه الواقعة (٥٤) وانتهت حدودا أيضا بالصالح مع أمير الطولوجو في عام ١٣٥٩ ، وعقدت معه معاهدة (٥٥) في مناسبة الحرب التي خشيها في المياه اليونانية ضد البنادقة والقطالوبيين . وكان المعاهد على الاتفاق الودي مع الإمارات التركية في آسيا الصغرى ضروريا لاحتواء البندقية ، لصالح مستمراتها وإمارات جرر الأرخبيل التي تلتزم أن تدببها بحمايتها ، لذلك جددت البندقية مرارا معاهداتها مع أمراء الطولوجو (٥٦) ، وابتداء من النحلة التي تم فيها عقد الصلح ، بذلت كل عنايتها لتجنب ما من شأنه أن يؤدي إلى براع (٥٧) . أما سادة الطولوجو فانهم لم يهتموا كثيرا بمراعاة المعاهدات ، وواصلوا بلوغ من الصفاقة حرفتهم ، حرفة القرصنة (٥٨) ، بل واحوا أيضا يسكون نفودا على لبط الدوكات (نقد ذهبي قديم في البندقية - المترجم) ، ولم يمنع هذا تجارة القرب من أن تمارس هناك نشاطها ، بل يندر أنها سفت هناك درجة مامن الأذهار .

فالواقع أنه نطالع في مؤلف مسبق لنا مرارا الإشارة إليه « أخبار رينان » Relation Rhénane عن الشرق ، والذي كتب في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ؛ أنه كان في تلك الآونة بين سكان مدينة الطولوجو البندقية التي بنيت على الساحل عدد كبير من التجار المسيحيين الأثرياء ، وأن هذه المدينة يتردد عليها تجار من جميع البلاد ، وتصل إليها بضائع من قلب آسيا الوسطى (٥٩) وتطيف

(٥٤) Commen. reg., II, 311 no 85; J. Beunbo, Églis, ad Andr., Anselmum, 1638, Op. cit., p. 690.

(٥٥) M. Hopf, (Griechenland dans Bruch et Gruber, LXXV, 447).

— على الرغم من المعاهدة على الأسطول القسطنطيني البندقي الصفاء عام ١٣٥٩ - ١٣٥٧ في الطولوجو وبلايا .

— Malleo Villard, 66, Dragomanni I, 158.

(٥٦) في أول أكتوبر ١٣٧٠ أبلغ حاكم كريت ومجلسها النراج أنه في شهر سبتمبر ،

أكرم جيولاني حردو معاهدة مع سيد الطولوجو .

— Taf et Thoen., Inéd.; Commen. reg., III, p. 308 no 308.

(٥٧) M. Latrie, Hist. de Chypre, III, 763 et s., VIIA S.

(٥٨) Petri Thomasi dans les Acta SS., Boll., 29 Janv., p. 1613; dans Nathan. Bibl., grec, mod., gré., II, 139.

— عند طلب ذلك لويس ماك حناريا إلى البندقية أن تزود بسفن لحاربة الاتراك (١٣٦٦) ؛ أبلغ أن جمهورية مريضة بمعاهدة مع سادة الطولوجو وبلايا .

— Monum. Hung. hist., Acta extera, II, no, 465.

Hopf, Op. cit., p. 448, 456. (٥٩)

Bentley, Orient und Occident, I, 637. (٥٩)

« الأحبار » أنه يوجد مجرى مائي كبير يصل من طريقه الحرير ،
والمنسوجات الحريرية ومواد أخرى . وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة
أن هذا هو نهر كايستروس ، لأن الطولوح كانت واقعة على مصب هذا
النهر ، ولكن بمعان النظر نرى أن « الأحبار » تصب هذا « المجرى
المائي الكبير » ، فانه عريض كنهر الراين ، وطويل جدا (٦٠) . وعلى هذا
لا يمكن أن يظن هذا الوصف إلا على نهر ميالدر (حاليا مندريس) .
ويؤيدى بما هذا إلى نطاق آخر ، من الوجهتين الجغرافية والتجارية .
«المنتجات التي ترد عن طريق نهر ميالدر (٦١) لم تكن شائنها سوق
«الطولوح» بل سوق بالاتيا Palatia

كانت مدينة بالاتيا (بالتركية بلات Balni) التي جعلها في
الكثير من خرائط المصور الوسيط (٦٢) قائمة على أطال مدينة مينتوس
Mintus القديمة ، بالقرب من مصب نهر ميالدر ، على ضفته
اليسرى (٦٣) . وقد وجد في هذه السوق منتجات آسيا الصغرى
الطبيعية ، مثل الزعفران ، والسسم ، والعسل ، والشمع ، والفضة ؛
وعشب دمشق ، وشب كوتاهية ، ومواد مصنعة مثل الماروكان الأحمر ،
والسجاجيد . ويباع هناك أيضا العبيد من الجنس ، ويصدر الكمح
إلى رودس ، وقبرص . أما السلع الأخرى فيشتريها جنويون من خيروس
ويستوردونها إلى مصر ، ويستوردون في مقابلتها إلى بالاتيا جوجا ،
وسابوفا ، وكنديرا ، ورصاصا ، الخ (٦٤) .

وكانت بالاتيا تابعة للإقليم سادة « منتشيه » ، وبعد سقوط
سلطنة إيكوبوم (قونية) ، احتلص هؤلاء الأمراء الصغار لأنفسهم

(٦٠) مما يحتاج للإثبات النص الذي كتبه لودويك لودن مؤلف الذي يصف القلاع
لصبة بشارت كما تكون مسألة ، ص ٢٥ .

(٦١) يذكر شهاب الدين سلف من كرميان جهنم مجرى نهر ميالدر حاملة منتجات من
إبضائع (ص ٢٤) .

Atlante Lusora, dans *Atti della Soc. Lig.*, V, 112, Intemel, (٦٢)
Furulan, p. 13.

Vivien de Saint-Martin, *Asie-mineure*, III, 519; *Mus-Latrin*, (٦٣)
Commerce d'Éphèse et de Milet au Moyen-Âge, dans la Bibl. de l'École
des chartes, 8e série, V, 219; *Buondelmonti*, Lib. insul. archipel., 46.
Slaner, p. 104, 108, 204, 209.

Fénel, p. 80, 94, 370; *Flotil*, p. 371, 378; le traité de 1403, (٦٤)
Bibl. de l'École des Chartes, I.c., p. 219

— كان جهاز راجوزا يمدون التجارة غالبا مع بالاتيا :

— Loccati *Ristretto degli annali de Basso*, p. 36.

في جنوب غربي آسيا الصغرى اقلية يتسارب في سمته اقليم كاريا القديم ، وليس هنا مجال لسرد تاريخ هذه الامارة قبل العصر الذي ندرس ، وحسبنا ان نذكر انها اصبحت بتصويب كبير في حملات القراصنة التي كانت كارثة على الجزر اليونانية (٦٥) .

ولكى تؤمن جمهورية البندقية املاتها من غارات هؤلاء القراصنة ، وتفتح في الوقت نفسه لتجارها مجالا تستطيع ولوجه في بحر ، وتجد فيه الكثير من الريح ، لم تجد الفشل من ان تولق علاقاتها مع سادة بالاتيا عن طريق دوقها في كريت ، مارينو موروسيني ، وانتهت هذه المساعي الى معاهدة لا تعرف عنها سوى امر واحد (٦٦) ذلك ان البنادقة حصنوا على اعتبار بكسية لنفديس يقول St. Nicolas والقصة في داخل بالاتيا ، او في خارجها ، ولعله من الصواب ان يرجع الى زمن عقد هذه المعاهدة اثناء قنصلية فينيسية في بالاتيا ، ثبت وجودها في عام ١٣٥٥ (٦٧) ، ولا يمكن ان يكون تاريخ عقد المعاهدة سابقا لهذا التاريخ .

وبتصريح قائمة المحكمات البنادقة في كريت ، لذلك التي وضمها السيد^١ هوف M. Hoff (٦٨) ، نرى ان مارينو موروسيني قد شغل منصبه مرتين ، الاولى من ١٣٢٩ الى ١٣٣١ ، والثانية من ١٣٥٢ الى ١٣٥٥ ، ولابد لنا ان نعلم ، تمسقا مع ما حدث لاطولوج ، انه في غضون الفترة الثانية ابرم موروسيني المعاهدة المشار اليها ؛ ذلك لانه في عام ١٣٥٠ قام امير بالاتيا بتجهيز معدات حربية ضد سميرنا مما اثار قلقا شديدا في نفس الدوج أندريا داندولو (٦٩) .

ولم يكن للبنادقة مطلب سوى مراعاة هذه المعاهدة باخلاص ، وابتدوا املهم في ان يمتنع امضاؤهم وحلفائهم عن مهاجمة بالاتيا (٧٠) .

(٦٥) كان امراء كرميان (وفاصلها كولامية) اللقيبي في داخل آسيا الصغرى يرسلون مع ذلك اباطين من القراصنة عن طريق لهر ميانهر نائب جزر الارخبيل ، وكان امراء منطية يحرقون من اعراض طريقهم . انظر ، شهاب الدين ، ص ٢٥٤ .

Mas-Latrie, p. 229, (٦٦)

Comtém, reg., II, p. 231 no 38, (٦٧)

Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXV, 469; LXXXVI, 174. (٦٨)

Lettre de Dandolo à la Commune de Pérouse Archiv. des Ital, XVI, 2e part., p. 296. (٦٩)

Mas-Latrie, Hist. de Chypre, III, 753 et s., mon. Hung. Hist., Acta, extra, III, no 488. (٧٠)

وسوف نرى في الفترة اللاحقة التطورات التي حدثت للعلاقات بينه
السفينة وهذا البناء . ولكن ينبغي لنا ، قبل أن يعتمد عن إشارات
آسيا الصغرى المشراب قول بصريح كلمات عن التأثير الذي مارسه
انتجارة على نظام النقد . لقد تكلمنا من قبل عن تقود سكيت في الطولوجو
على نمط دوكلات الهندية ، واحتجاج الجمهورية في هذا الشأن ، ولكن
هذا ليس كل شيء . فلي نصوص القرن الرابع عشر ، حرج من مصانع
ماجنسيا Magnesia على جبل سيبولوس (٧١) . ونيلوجوس
Théologos (المسيس) (٧٢) ، وبالانيسا (٧٣) نقود عليها كتابات
لاتينية مقوشة ، تستنسخ بدقة نمط اذ Giglati (٧٤) التي سكتها
في نابولي أمراء آل أنجو ، ويستنتج من هذا أن سادة صاروجان
Serou-Khan (ليديا) . وآيد (ايونيا) ، ويستثنى (كارييا) سكود
نقودا خاصة لتسهيل معاملات رعاياهم مع الايطاليين .

ولنتقل الآن الى الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . وفي حوزتنا
بخصوص القسم الكائن بين برييا Prefpia (٧٥) ، وحليج الاسكندرونة
دليل ممتاز : ذلك هو ساندو Sando السابق : فهو لا يغطي فقط
لأية بسطحات الساحل ، ولكن ، رغبة منه في خدمة ملاحى بلدته ،
يعتد لغة التي تستعملها للملاحة من جهة الى أخرى ، والاتجاه المتبع ،
وطبيعة أماكن الرسو ، وصخور البحر ، وأغواره . ومما أن أسمى
الأتراك سادة هذا القسم من الساحل ، لم يمد الأجانب يلقون به
معاملات بمثالية ، وكثيرا ما يضيف ساندو مذكرة ينيه فيها الى أنه
يمكن في ميناء أو آخر الاطمنان الى الأهالي ، أو الاحتراز منهم .

وتدل كمية المعلومات التي جمعها هذا الكاتب ودقتها ، وهي
معلومات لا يمكن أن تكون قد وصلت اليه الا عن طريق ربابطة السفن .

Pindar et Friedländer, Beiträge zur asien. Münzkunde, (٧١) ,
p. 52 et 53.

M. Karabacek, dans la Wiener numismatische Zeitschr., (٧٢)
(٢٥ année, 1877), p. 225 et ss.

Karabacek, Op. cit., 2e année (1877), p. 205 et ss. (٧٣)

M. Bachmberger (Numism. de l'Or. lat. p. 478 et ss. (٧٤)

Sando, p. 90 (٧٥)

كما نرى في ساندو ، كان هذا البناء الذي يتبع منه الخشب لمر ، وإنما عند جميع

نهر صيف ، وهذا وصف يمكن أن ينطبق اما على قناة تصريف بحيرة

Koudehlan Doleman-Tchaf أو على

تدل على أن المخاطر المحيطة لم تكن عقبة كاثية لإبعاد الغربيين عن الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى - والواضح أن من هذه المعلومات، لا يمكن قبوله إلا بتحفظ شديد ، مثال ذلك أن مدينة *produsalius Portus* (في الجنوب الغربي من سلفكيه *Séléfkéh*) كان في عام ١٣٠٠ ملغى عدد كبير من السفن البرولانسية أو أن *Portus janucalis* (في القسم الغربي من خليج سافاليا *Safalia*) (٧٦) كان محطاً يتكرر عليها الكثير من السفن الجديّة . والثابت أنه في تلك الآونة لم يكن هناك الاسمان يسترجعان سوى ذكرى ماضية ، والأمر كذلك ولاشك بالنسبة إلى المراتى الألمانية والأتورية التي تضمنها بعض غرائط المصور الوسطى المتأخرة على الساحل شمالي جزيرة رودس ولبالنها (٧٧) .

- ثمر أن المصادر المعاصرة تزودنا مثلاً بالرهان على أن أهالي مجربوت كانوا يحضرون القمح والسيد وبلغ أخرى من ماكري *Makri* على الخليج الذي يحمل هذا الاسم (٧٨) - والثابت أنه في عام ١٢٨٩ عبرت سفينة جيوية البحر من الاسكندرية إلى كانديلور *Candeloro* وعليها شحنة من السكر ، والكثبان ، والفلفل (٧٩) ، وأنه في عام ١٢٣٢ حدثت سفينة إبي بطوطة من لاوديكيّا (بسوريا) إلى ألجا *Alja* (٨٠) وتتيح لنا هذه الحقائق أن نستنتج وجود حركة تجارية نشطة يدها البحريون من مصر وسوريا من جهة ، وبها الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى من جهة أخرى . والجدير بالذكر أيضاً ، في كل من الحالات التي ذكرناها أن ميناء الوصول هو نفسه ، ذلك لأن الميناء الذي سماه الأتراك وقتئذ « ألجا » كما يسمونه كذلك في الوقت الحاضر ، كان

(٧٦) *Sanut*, p. 89; *Uex*, p. 334; sur les cartes du Moyen-Âge (Atlante *Luxoro*, p. 113, 136; *Lelewel*, l.c., p. 18 ; *Muecohen, Karian*, éditées par M. Thomas dans les *Abh. der Musischen, Akad.*, d. I, vol. X, sect. 1, p. 203 et s.); *Ritter, KHMansen*, II, 769.

Lelewel, Portulan, p. 15 ; *Atlante Luxoro*, p. 113; *Nicolo da Rete, Viaggio a Gerusalemme*, p. 114; *Lamoy, éd. Potvin*, p. 175 . *Uex*, p. 233., indique un *Capo di Maifetans*.

Taf. et Thom., III, 196, 208, 212. (٧٨)

Annal. Jén., p. 334. (٧٩)

Ibn-Batouta, II, 284. (٨٠)

الغربيون في العصور الوسطى يسمونه « كانديلور » (٨١) ، وهي مدينة تركية تجارية ، يتردد عليها تجار من القاهرة والاسكندرية وسوريا ، وكان المصريون يترددون منها بالخشب (٨٢) .

ويطبعة الحال كان العرب من جزيرة قبرص يتيح مجالاً لملاقات كثيرة ، لذلك لم يفت بحولوتي أن يصنع ، خيمة لتجسار قالة مقارنة للقود ، واللوارين ، والمكاين في كانديلور وفاماجوستة (٨٣) . ومع ذلك تفوقت سائاليا على كانديلور ، إذ كانت أكثر الأسواق التركية على الساحل الجنوبي رواجاً . وكانت *Kyzikos* الميناء المسيحي هو وجهه الذي يجع في منافستها بفضل موقعه عند مطلق طرق الهند ووسط آسيا . وكانت سائاليا مدينة متسعة ، متينة البنيان ، محاطة بحدائق راحرة بأشجار الفاكهة ، وقائمة في مؤخرة خليج فسيح ، ويشغل أهلها الكثيرون ثلاثة عناصر رئيسية متميزة : العرب المسلمين ، والروم ، واليهود ، ويقسم كل عنصر في حي خاص تهيئ به أسوار ، وفي صاحبة مينا *Mina* (٨٤) تجار مسيحيون ، من أصل عربي (٨٥) ، لأهم يذكرون على حدة إلى جانب اليونانيين ، ويضطرون إلى غلق أبوابهم عندما يمس الليل ، وولت صلاة الجمعة عند المسلمين . وكانت الإيوانات والمناجر الجميلة المنسقة قائمة في حي الأتراك (٨٦) .

وكانت أنشط حركة تجارية هي تلك التي تجري مع مصر ، وذلك لاستيراد مدينة أولها وحدة الدين ، ثم التماثل السياسي ، وإذا كان الأمراء التركمان مضطرين النضال دون هوانة ، أولاً ضد

Senut, p. 89; Uss., p. 284; Au. Luxoro, p. 114; München, (٨١)
Karten, Op. cit., Lelawel, l.c., p. 16; Laon, Chalcoe., p. 244, 277; Lelawel, l.c., et Mas-Latrie dans la Bibliothèque de l'École des chartes, 2e série 818.

(٨٢) أي بطرقة ، الجزء الثاني ، ٢٠٧ ، أير النما (Géogr., II, 2, p. 138)
شهاب الدين ص ٢١١ ، ٢٧٣ .

Pegol., p. 79 ; Amisen de Jérus, II 349.

Edrisi, (II, 124) le nomme Minā imuta

(٨٥) مع ذلك يذكر Ghislis ص ٢٢٦ أيضاً من سكان سائاليا مسيحيين يهتمون بالكنيسة الأرمنية .

(٨٦) أي بطرقة ، الجزء الثاني ٢٥٨ - ٢٦٠ ، كذلك :

-- Ludolf von Surben, p. 38 ; Benfey, Orient und Occident, I, 636;
M. Villani, éd. Dragomanal, II, 388; Aboult, Géogr., II, 2, p. 138, 139.

المفلول ، تم هيك المتنافسين الذين وصلوا تقدمهم بجراء ، فانهم شعروا
 بالحاجة الى الاستناد الى حليف قوى ، مثل مصر : ونصيح هذه
 الملاحظة بسوع خاص ، كما تقول المصادر على أمراء سبائاليا والايجا (٨٧)
 ومن جهة سلاطين مصر ، فانهم كانوا مرتاحين لتزايد نفوذهم في آسيا
 الصغرى ، وحصولهم فيها على كل التسهيلات لاستيراد الأشياء الضرورية
 لبناء قوتهم العسكرية واحتفاظ عليها ، والواقع ان ميثاق سبائاليا
 وكارديلور كانا يصدرا من الهم عبيدا من المسيحيين واتراكا يجلدون بهم
 حينئذهم ، وخشبها ، وقطرانها لبناء سفنهم .

كان سائوتو اذن على حق في رأيه حين كتب يقول انه لا بد لقطع
 الخوف عن سلطان مصر من معاملة أتراك آسيا الصغرى على أنهم أعداء (٨٨)
 ونسوة الخط لم يكن لدى العالم المسيحي قوة يستطيع بها مع تحاربه من
 تهريب المواد الحربية من آسيا الصغرى الى مصر ، ولم يكن في مقدوره
 بالاصغرى منع الأتراك من مزاولة هذه التجارة ، كانت هذه التجارة
 تكفل لسبائاليا وكارديلور رغدا ناميا ، وكائنا ، في مقابل ما تصدراؤه
 الى مصر من سلع ، تستوردان منها ثوابل ، وكثبان ، ومسكر ، الخ (٨٩)
 وقد يؤدي هذا بنا الى خلط علينا ان نحترز منه ، فعندما نجد مذكورا
 بيع المواد المعمولة الى سوق سبائاليا للفلل والتيلة ، فان هذا لا يعني بالضرورة
 انه كان يوجد بين هذا المكان وبين الهند حركة تجارية برية ، كما كان
 الحال بالنسبة الى لاجازو ، فلم تكن سبائاليا من حيث المنتجات الدارجية
 تتلقى مباشرة سوى منتجات آسيا الصغرى ، كالشعير ، والفصص ،
 وصنع الكثيراء ، والشب الذي يرد من كوتاجية ويستغرق خمسة عشر
 يوما ليصل الى غاية (٩٠) .

ومن جهة اخرى كانت اجواج شالون Châlons ، وغاربون ،
 وبريليان ، ولبارديا تنبع بسهولة في هذه السوق ، فقط يصعب ان
 تكون ألوانها زاهية ، وتكون نصف مجزورة ، فلم يكن في سبائاليا من
 يحن الصوف ، ترى من ذلك ان تجارة الغرب كان لها مجال تمارس فيه .
 وهناك ما يدعو الى الافتراض بان الجنوبيين والسادقة كانوا بمثابة غنيمو
 أهم دور في هذه السوق ، كما في غيرها من الأسواق ، وفي عصر

(٨٧) شباب الدين ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٣٣٧ ، وصلة عامة ص ٣٧٥ وما يسمي .

(٨٨) Samut., p. 28 et 2.

(٨٩) Ibid. p. 29.

(٩٠) Pegol., p. 42, 376, 378.

بيجولوتي ، حصلت شركة باردى Bardì الفلورنسية على امتياز
بلا تدفع سوى ٢٪ كرسوم للدخول في ميناء سالتاليا ، ولاتدفع شيئا
عنه الخروج ، في حين أن التجار القبارصة (٩١) كانوا يدفعون لخبوطهم
الذهبية ، وشملاتهم ٢٪ عند الدخول والخروج ، وبخلاف الرسوم
الجمركية ، كان المعتاد أداء رسوم السمسة بنسبة ١/٢ (٩٢) .

وعلى قدر علمنا لم تكن هذه الرسوم الجمركية مبالغ فيها ، ومع
ذلك كان التجار المسيحيون يجهنون أنفسهم كثيرا عرضة لخسائقات في
سوق سالتاليا هذه ، لأن حاكم البلد كان السيد تكيه Teflek وهو أمير
توكي وبدا وضهمهم في وقت ما يشير بالتحس ، وذلك في عام ١٣٦١ . وفي
أحدى حملات بطرس الأول ملك قبرص ضد المسلمين ، استولى على هذه
المدينة . ولسوء الحظ لم يتم الاحتلال القبرص هذا سوى اثني عشر عاما!
كما أن الهجمات المتواترة التي جعل يشنها الماهل القديم في تلك الفترة
لم تترك السكان المسيحيين لحظة واحدة من الهدوء والسكينة ، وأصبح
من المستحيل القيام بأية رحلة لأغراض تجارية في داخل المدينة .

وفي السنة نفسها التي تم فيها فتح سالتاليا ، حطى ملك قبرص
بنصر آخر ، إذ استولى على مدينة جوريجوس (كوريكوس) Gortagos
(Corycos) في أرمينيا . ذلك أن سكان المدينة كانوا يخشون
الهيمنة أمام هجمات أمير كرمان Caraman الثلوي ، ويرون منهم غير
قادر على أن يرسل لهم نجفات ، وأنهم أصبحوا يعتمدون على قواهم
الخاصة ، ومن ثم دب في نفوسهم اليأس من الخلاص ، فالتقوا بأنفسهم
في أيدي بطرس الأول القديس . وكانت كل فتوحات هذا الأمير في
البر تعود سريعا إلى أيدي المسلمين ، وكان الاستيلاء على هذه المدينة
استثناء من ذلك ، إذ بقيت مستعمرة قبرصية حتى عام ١٤٤٨ ،
وازدهرت التجارة فيها سريعا ، خاصة وأن الأمم التجارية المستقرة في
قبرص لم تهمل أبدا مالا كما كهذا مفتوحا على آسيا الصغرى ، وأن أمراء
كرمان بقوا طوال هذه المدة تقريبا على وثاق مع قبرص . وفي حوالي
١٣٧٥ ، كما يقول المؤرخ سترامالدي Strumaldi سجل جسر له

(٩١) كان تاجر هذه الأمة يزورون بكثرة سالتاليا ، انظر في ذلك :

«*Les Asie de Jérus.*, II, 300.

Pagel, p. ١2 et 2.

(٩٢)

جوريجوس دحلا قومه ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ دوكا ، مما يدل على وجود حركة تجارية كثيفة (٩٢) .

لقد استمرعها سواحل آسيا الصغرى كلها ، من البسفور الى صقلية ، من وجهة علاقاتها مع تجارة الغرب ، منذ أن خضعت لسلطة الترك . وليس ثمة فائدة من أن نفعل الشيء نفسه مع وسط هذا القطر (آسيا الصغرى) ، إذ لا توجد كتبة واحدة تحمل على الافتراض بأن التجار المسيحيين قد جاءوا به ، أو أقاموا به منشآت (٩٤) . ولكن التجار المصريين والسوريين كانوا وحدهم الذين خاطروا بالتجوال فيه ، وتزلوا كثيرا في مينائي صاناليا والأجا (٩٥) ومن هناك يصلون الى موانئ الشمال ، الى سيوب Sinope وسمسون Samsoun ومنها يبحرون الى سوداك Soudak ، وكافا ، وكيركس ، ويزورون دولة خانات القتر (٩٦) . وعلى السواحل الشمالية بين بيبنديا القديمة التي احتلها العثمانيون ، وإمبراطورية طربزون ، كانت إمارة كاستيموني Kastemouni التركمانية تشكل القلبي محصورا شامعا ، يجدر بنا أن نرث عنه قليلا . كانت المدن الساحلية المتراصة على طول هذا الساحل ، وبخاصة ساماسترو Samastro (أما ستريس القديمة Amastris ، والآل اما سيرا Amastris) ، وسينوب ، وسيميسو Simiso (اميسوس Amisus القديمة ، واثيوم سامسون Samsoun) معرولة جيدا لدى ربابنة السفن التجارية الغربية على أنها مواقع لرسو على طريق طربزون ، وكافا ، جرتانا ، واحداها ، سينوب كانت مشهورة بالها وكر القراصنة ، ولبدأ بها ، ففي عهد آخر سلاطين ايكونيوم ، تلقى وزيرهم القوي النفوذ حمص الدين سيدمان المعروف أكثر بلقب يرفانييه Pervanli (توفي عام ١٢٧٨) ، تلقى مدينة سينوب بمشابة إقطاعية له

(٩٢) Etude de Léon-Labrie (2 et 3 articles) : Des relations politiques et commerciales de l'Asie - Mineure avec l'île de Chypre Bâti de l'école des chartes Paris, I et II ; l'île de Chypre, Paris 1870, p. 203et s.

(٩٤) ومع ذلك فإن الجنري دومنيكو حرديا قد تجول في جميع أنحاء البلد ، ولا زود شهاب الدين بملزمات من آسيا الصغرى أكثر وأقل من الملزمات التي زود بها سوح آخر من صيرخ آسيا الصغرى ، انظر : Chehab, p. 347 et s., 348.

(٩٥) شهاب الدين ، ص ٣٧٦ . ابن بطوطة . الجزء الثاني ، ٢٥٧ .

(٩٦) شهاب الدين ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ . ابن بطوطة . الجزء الثاني ٣٥٤ .
وكما في سينوب سليمة يونانية الزلحة في كيركس .

وأزواجه (٢٩٧) - ولم تنزل المدينة ملكا له ولدوا به في العصر الذي كتب فيه أبو الفدا كتابه الجغرافى ، أى فى حوالى عام ١٣٢٠ .

١ وضع عقيد بيرغاييه فى نزاع مع الغربيين ، غالبا بسبب أعمال القرصنة التى يزاولها . فى عام ١٢٩٩ فاجأه وأمره فى قصره بحدارة سفينتي نيجاريتي (ربما جيوتيتي) ، ونقلوه أسسيرا الى أوروبا ، ولم يسترد حريته الا فى مقابل غدية كبيرة (٩٨) . وثمة سليل آخر كيرغاييه ، معاصر لأبى الفدا ، اشتهر بأنه قرصان لا يرجى صلاحه (٩٩) ، ولعله هو نفس الشخص الذى تشابه باسم غارى شلبي Obazi-Tshelbi وهو غواص بارع ، اغرق سفن يونانية ، بشق فتحات فى قاعها ، تدخل منها المياه (١٠٠) ، أو باسم رلى Zalabi ، أو شلبي (١٠١) . هاجم مرة بعد أخرى فى عامى ١٣١٣ ، ١٣١٤ بدرجات متفاوتة من النجاح سلبا جنوبيا بالغرب من كالا (١٠٢) .

وعندما شئ أول هذه الغارات كان سلبا لأمبراطور طرينون ، الأمر الذى لم يمنع أتراك مسينوب أن ينفروا على هذه المدينة بعد بضع سنين (فى عام ١٣١٩) ويحرقوها كلها تقريباً (١٠٣) . ولا شك أن غازي شلبي هذا هو الذى استضاف فى عام ١٣٢٤ بعض الجغويين المجلبيين ، ثم نصب لهم نادرا وخيالة ذلك الكمين الذى سبق أن تكلمنا عنه فى وقته (١٠٣) . وبعد وفاة هذا الرجل الشرير ، انتقلت مسينوب فى حوالى عام ١٣٣٠ الى سليمان أمير كامتمولى ، وبقيت فى أسرته حتى النهاية . واستمرت القرصنة فى عهد هذه الأسرة كما كانت فى الماضى .

(٩٧) Defrénery, étude sur Ibn-Batouta, dans les Nouv. annu. des voyage (1861, II, 87; D'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 306, D'Ohsson, l.c. (٩٨) .

(٩٩) أبو الفدا Géogr. II, 3, p. 146. (١٠٠) ابن بطوطه ، الجزء الثانى ٣٥٠ . أيضا النسبة عام Hammer (Gusch, des oam Ratcha, I, 47, 88) .

(١٠١) يقول أن غازي شلبي هذا هو داتير سلاله سلباي ايكوليدم (١٠٢) سلطان عام ١٣١٣ بين جارا وأطرينون ، inéd. et Contin. de Jacq. de Voegelin (Atti X) p. 303.

Chronique de Penarcton, publ. par M. Pellissier, p. 18, 48. (١٠٣) Le Contin. de Jacq. de Voegelin, p. 306; Stalla p. 1061 et a. et Ghes-Vinod, p. 128. (١٠٤) ابن بطوطه ، الجزء الثانى ، ٣٢٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ . كتاب الدين ، ص ٣٤٠ .

وفي عام ١٣٤٠ أمر أسطول يضم اثنتي عشرة سفينة حربية من سيونب
(١٠٥) الكثير من السفن الجنوبية والفييسية وغيرها ، وفي الأسطول
بالمرصاد مستعدا لمهاجمة قافلة أخرى ينتظر نومها في نانا ، حين وصل
الأميرال البحري سيونب دي كوارتو Simon de Quarto إلى البحر
الأسود ومعه سبع سفن كبيرة محملة بالبضائع .

وهذا أن دس ميناء كافا حتى أرسل إلى البر حمولة السفن وجهوها
بتمعات حربية ، وأكمل أسطولها يضم عشرين سفينة أقل حجما ، جهزها
في كافا ، وإذا تاهب على هذا البحر ، فإنه مضى للاتقاء للسفن التركية ،
فأغرق عشر سفن منها ، واستولى على ما فيها من غنائم ، وقتل كل
بحارتها ، هذا مثال يثبت أن السلاخلة لم يكونوا في البحر الأسود ،
وفي الأرخييل جيرانا مناصيين لتجارة العرب ، ورغم كل شيء ، كانت
سيونب تتمتع بميزة أنها في الشمال ، مثل الطولوجو في الغرب ، سوفا
لتجارة الغرب ، كما كانت وكرا للقراصنة ، ذلك لأن ميناءها كان مائلا ،
وموقعها قد أحسن اختياره ليكون مأوى للسفن التجارية المتجهة إلى
طربزون ، ثم أن وفرة السمك على طول السواحل ، والثروات المنجمية
في القسواسي كانت تشكل شحنة متاحة لي يطلبها ، وعلى خريطة لورديناد
Laurentiana لعام ١٣٥١ نرى فوق سيونب علما جنوبيا (١٠٦) ، الأمر
الذي يثبت بالتأكيد أنه كان يوجد في تلك الأونة قنصلية لتلك الأمة ،
مع أن أول وثيقة تشهد بوجودها ترجع إلى عام ١٤٤٩ .

وكان لدينادقة أيضا في سيونب مستعمرة تجارية يدير شئونها
قنصل ، يساعدته مستشاران ، ومجلس مكون من اثني عشر عضوا : وفي
حوزتها محضر جلسة من جلسات هذا المجلس ، انعقدت في كنيسة القديسة
ماري في سيونب (١٠٧) ، وكان موضوع الجلسة يتعلق بهدية تقدم لسيده
المدينة ، وكان للفروفي أن يحصل الهدية شخص يصح حواريينو دي

« ويطلق شباب الذين من الخلق الذي اشتهر على سيونب إبراهيم آج كاسترو
أي سليمان اسم « الداري شلي » ، ولعل هذا خلط في الاسماء ، وفي هذا الخصوص
نصوح فرند كبير لدى المستشرقين

Mella, dans Hurat, XVII, 1070, (١٠٤)

« تطلق المصادر التركية كثيرا على السادة (لحكام) لسيونب لقب « شلي »
Techétiel (سيده) ، وحلما ما سبق إن رأيتاه في نسويمي امراء الطولوجو »

Atti della Soc. Lig., V, 138, (١٠٦)

Philad. Memoria storiche de Veneti primi o secondi, VI, 2, et
Marin, IV, 90 et s.

سكاربانغو Guglielmo de Scarpano قد هي مهمة لدى الأمير . ولا لم يكن
 لسيونوب أمير الا هي العصر التركي ، وكانت قيمة الهدية مقدرة بالمونكات
 التركية . فان هذه الوثيقة التي لا تحمل لسوء الحظ تاريخا لا يمكن أن
 تنسب الى عصر السيادة اليونانية التي تخلصت منها سيونوب مسند عام
 ١٢١٤ (١٠٨) ، ولابد أنها كانت في عصر السيادة التركمانية . ولابد ان
 المستعمرة القينيسية في سيونوب عاشت فيها ربما طويلا ، وهذا على الأقل
 ما قد يستخلص من قراءة الوثيقة انشار اليها . فكلمة consolid وسبقها
 رقم ٩٩ (١٠٩) ، وفي ذلك يقول ماران Marin ان هذا الرقم الذي دونه
 القنصل جريجورينو Greignuolo الذي كان يشغل منصبه وقتها رقم يدل على
 الترتيب في سلسلة رؤساء المستعمرة في سيونوب . غير أننا لا نجد هذا
 النظام الرقمي في أية وثيقة حررها القنصل . ونفترض ان هذه العلامة
 ليست الا ايعارا اصطلاحيا اعتبرها السيد فيليبساس رقم ٩٩ . وليس
 الغرض من هذه الملاحظة التشكيك في طول حياة هذه المستعمرة .

والى الشرق من سيونوب ، يصادف الملاح هناك آخر له علاقات بسيطة
 للغاية مع القرم ، ولا شك أيضا مع طربزون وأميسوس القديمة (١١٠)
 التي سماها العربون في ذات العصر سيميسو Simiso وبامعان النظر
 في هذا الاسم نجد أنه بالأجمال ينطبق على هديتين متجاورتين ، مدينة
 سيمسون التركية Samson التي كانت فيما مضى تابعة لأمير كامستيمولي
 التركماني ، ثم أصبحت تابعة لسلطين آل عثمان (١١١) ، ومدينة
 سيميسو المسيحية .

وفي العصر الذي قام فيه أمراء يولانيون طردهم اللاتينيون من
 القسطنطينية بتأسيس امبراطوريتي طربزون ولبقية الجديدين ، كان في
 مدينة أميسوس المسيحية حاكم يتمتع ازاء الامبراطوريتين باستقلال شبه
 تام (١١٢) . ترى في أي عصر ومائة وسيلة استطاع المنويون أن يصيروا

Falkenmayer, Geschichte von Trapezunt, p. 94 et s. (١٠٨)

M. Fuhsel, (١٠٩)

(١١٠) كانت السفن العربية القينيسية القديمة الى طربزون ترسو أيضا عند سيميسو .
 كليا ، انظر في

Miot lib. ٧ (1322-1324), dans l'Archiv. Venet., XVIII, 329

Hammer, Gesch. dans des oman, Reichs. I, 327, 374. (١١١)

Falkenmayer, Gesch. von Trapezunt, p. 35-67 (١١٢)

سادة اللبديّة ؟ وهل حلّوا مباشرة محل الروم أو الترك ؟ هذى نقاط يغشاها ظلام لا قنوة لنا على تبديده . على أنه فى وسعنا أن نشبث بما فى أيدينا من مستندات وجود كنفصيلة فى سيميسو اعتبارا من عام ١٣١٧ (١١٣) ، غير أن اشاء هذه الكنفصيلة يرجع غالبا إلى تاريخ سابق .

وهل خريطة لورنتيانا لعام ١٣٥١ ، يحدو مواقع هذه اللبديّة أيضا علم جوى ، والبيان هنا له ما يبرره أكثر مما فى حالة مدينة سينوب ، فالواقع أن القنصل فى سينوب كان فى أرض أجنبية ، فى حين أن منصب القنصل فى سيميسو فى أرض جنوبية .

وسوف نمود إلى هذه النقطة فى الفترة التالية . وتكلم فيها أيضا عن مستعمرة جنوبية أخرى ، هى مستعمرة سامسترو Samastro

ونحن إذا تنبها الساحل الشمالى لآسيا الصغرى متجهين ناحية الشرق ، نصل إلى إمبراطورية طريزون المسيحية . إلا أن تاريخ هذا البلد يستحق أن نقره له فصلا خاصا ، مثله مثل تاريخ مملكة أرمينيا المسيحية . وكان فى وسط آسيا الصغرى أيضا ، بين إمبراطورية طريزون وأرمينيا منطقة تركية ، ولكنها ليست ذات أهمية فى دراسة الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اللهم إلا لأن الطريق التجارى الكبير الممتد من آسيا الصغرى إلى فارس يجتازها ، وهناك على مشارف آسيا الصغرى توجد سيلباس Silva التجارية ، وسوف نتكلم عنها فى فصل آخر .

الجزء الثاني الفترة الثانية

٢ - نمو تجارة الشرق الأدنى

على اثر انفتاح القارة الآسيوية

(من أواخر القرن الثالث عشر الى

أواخر القرن الرابع عشر) *

(ب) تيار التجارة القديم من الشرق

الى البحر المتوسط عن طريق الجنوب *

أولا - قبرص

في الفترة السابقة ، كانت سورية ، وهي تحت سيطرة الفرنجة ، مركزاً من أهم المراكز التجارية . وفي غضون الفترة التي تلتها الآن ، بدأت جزيرة قبرص ، وأرمينيا الصغرى وهما بمثابة حارستين لمراكز العالم المسيحي الأرمينية (١) تزدانان مع الرخاء التجاري الذي كانت تتمتع به الدول التي أسسها الصليبيون . كانت أرمينيا الصغرى تتمتع - كبعضها - بموقعها في القارة بدرجة كبيرة تتمثل في تلقي البضائع الواردة من داخل آسيا عند ملتقى طرق القوافل ، في حين كان من الضروري عبور البحر ، ولو أنه مسافة قصيرة للوصول إلى قبرص ، وتحمل كل المتاعب الناجمة عن نقل البضائع على متن السفن وارتفاع نفقات النقل ، غير أن وضع أرمينيا الصغرى كان من ناحية أخرى وضعاً شاذاً وكانت الطرق الواقعة في أقصى الشمال ، بين كل الطرق التجارية المتجهة صوب البحر المتوسط هي وحدها التي تنتهي عندها .

(١) يصفه فلوبير فيقول:

(Mons Latrie, Hist. de Chypre, II, 367) Philippe de Mézières.

قبرص بقلعة = البلد القوي الضروري للعالم المسيحي الكاثوليكي .

أما قبرص ، فعل العكس من ذلك كانت بمثابة مركز تقوم حوله كل هذه الطرق ، وحسبنا انشاؤنا لذلك أن نرسم على الخريطة اتجاهات الرحلات بخطوط تمتد من الجزيرة الى موانئ الجزرات *Malta* و *الاندلسية* ، وطرابلس وبيروت ، والاسكندرية وثمة عيب آخر في موقع لرحلتنا العسرى . ذلك انها كانت شديدة التعرض لعارات جيوش سلطان مصر ، والتمصار الذي تسببه ، في حين كانت قبرص ، لاحتاطتها بالبحر من كل الجهات في حمي من هجماتها ، لأن قوة مصر كانت غالبا في جيوشها البرية أكثر منها في جيوشها البحرية . وأخيرا كانت قليكيد *Cilicia* معروفة بمانئها الغفار بالصحة ، في حين كان مناخ صقلية أكثر ملاءمة لها .

وسوف نتحدث طويلا في الفصل التالي عن القرويات (*البرابوت*) البابوية التي صدرت بعد سقوط عكا مباشرة ، تعطر كل تفعل تجارى مع المسلمين . وكان لهذه الأنواع من التحريم بالشهوة الرها في عالم التجارة : فاعتقد بعضهم أنهم مرمون بايمانهم أن يبتعدوا عن السواحل التي شمسها التحريم ، وحتى المعض الأخر العقوبات الصارمة التي تتهددهم ، وحرص آخرون على تجنب الوقوع في أسر المسلمين الخريبة الكلفة بمطاردة « المسيحيين الفجار » . أما ملوك قبرص فانهم تحسبوا لتنفيذ الحظر ، حياصة لا تخلي ما تنطسه من أغراض نفعية . فالواقع أنه إذا كانت التجارة مع مصر وسورية قد أصبحت عرضة للتوقف أو مخطوفة بالصمصاء ، فقد اضطر التجار المسيحيون للبحث عن سوق أخرى ، ومن لم كانت قبرص « آخر بلد مسيحي » متاح لهم بطبيعة الحال ، حسب تعبير لودولف دو سوتزين *Ludolphe de Sotheim*

وتبين للكثير من البيوت التجارية التي كانت فيما مضى تملك فروعا ناجحة في عكا ، وبيروت ، وطرابلس أن قبرص سوف تترك القسم الأكبر من التجارة بين الشرق والغرب ، ومن ثم اتخلوها مقرا لهم (٧) - وحتى اضطر سكان مدن سورية الساحلية الى الفرار ، لجأوا الى قبرص مؤقتا ، وارتاح بها منهم فعدلوا عن العودة الى أوطانهم ، وروينا أكثر من بليون ألفي يصرى عن ضياع قصر له في سورية . ويطلب من الحكام من أسرة لوزينيان *Lusignan* اتفاقية جديدة ، أو وظيفة في البلاط .

ومعها ما أدركت حكومات الأمم التجارية الغربية ازدياد أهمية جزيرة قبرص ، فبادرت بما باشاء مستعمرات بها ، والمخالبية بمزايا لواطئها ، واما زيادة الامتيازات التي حصلت عليها فيما مضى من ملوك

الجزيرة . أما عكا فأنها سقطت في ١٨ من مايو عام ١٢٩١ . وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها حصل التجار القطلانيون من الملك هنري الثاني من أمرة لوريبيار على امتياز يكفل لهم رسميا مخصصا قدره ٢/٢ على الاستيراد والتصدير ، يخص بمقدار النصف لتجار النارين بالجزيرة (٣) . وفي الشهر نفسه حصل البيريون على الامتياز نفسه ، بالإضافة الى الحق في انشاء كتليات ، وغير ذلك في كل ما يطلب لهم من أنحاء الجزيرة (٤) ، ولعل هذا تعزيز للامتيازات القديمة التي منحها ايالهم جي دولوربيان ، وعلى أية حال فلهذا مجموعة من الوثائق الخاصة لسنوات ١٢٩٣ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣١٠ ، ١٣٢٠ تكشف لنا البيريون المقيمين بجهات مختلفة من الجزيرة وهم يزاولون مهمة أعمالا تجارية . ويبدو أن ليماسسول Limisso كانت في المهود الأولى مقرهم المفضل ، يتكون بها دارا عامة *domus, logia Pisani communis* يمكن القول عنها ، دون خوف من الخطأ أنها كانت كتلية (٥) ، بينما لا نجسد في حوالى عام ١٣٠٠ في لاما جوستا إلا القليل من البيريون المتحرلين ، وليس بها أى موقف استثماري (٦) .

وبخصوص جمهورية جنوا ، فإن سقوط الدول الصليبية في سورية كان مقزما مع أحداث ضارة ، فقامت مصاعب خطيرة بينها وبين الملك هنري الثاني ، وشيئا فشيئا ، في عهد (الثاني) ايسلان Tòlla ازداد تراخي الحلف المبرم خلال الفترة السابقة . فهل لحتاج الى دليل يثبت ذلك ؟ كان بديتو زكاريا Benadetto Zaccaria مزودا من قبل الجمهورية بتوسع السلطات التي تخوله الدفاع عن مصالحها في المشرق الأدنى حيث كان يقيم بصفة دائمة ، ومن ثم هلك في ٢١ من سبتمبر ١٢٨٨ معاهدة مع الملك ، ولكن حكومته تواصلت من تصرفه هذا إذ بدا لها أن المعاهدة تفرض على الجمهورية التزامات ثقيلة ، وبذل الملك جهودا غير مجددة لحمل الجمهورية على التصديق على المعاهدة ، ولكنه أدرك أنه سيضطرم برفض تام ، ومن ثم قرر إلغاء المعاهدة من ناحيته (٧) من أيار ١٢٩٤ (٧) ، وهذا هو ما كان في وسعه أن يفعله .

(٣) Capmany, Memos, II, 66 et s.

(٤) Dec. sulle relax. loc., p. 109 et s.

(٥) Ibid., p. 109-111.

(٦) Archiv. de l'Or. lat. II, 2, p. 10, 80, 38 et s., 62 74, 2, 6, 103.

(٧) Annal. Jan., p. 328; Lib. for., II, 275 et s.

وامتدبر النزاع حتى عام ١٢٩٨ ، وأخيرا نجح سفيران جنوياً ،
 لامبرانكو ماسينيولا Lanfranco Spinola وابيجيديدو دي كوارتو
 Egidio di Quarto في حمل الطرفين على الموافقة على تسوية تحسّد
 بوجدها بدقة المراسم القنصلية للجمهورية ، بحيث تزيل المسببات
 الخلاف (٨) .

وبعد سقوط عكا ، اهتم البنادقة اهتماما شديدا بالتجارة مع قبرص ،
 وفي عام ١٢٩٢ ، استنصروا قرب اندلاع حرب مع جنسوا ، فبادروا
 بأرسال قافلة من خمس عشرة سفينة كبيرة مسلحة إلى قبرص وأرمينيا
 الصغرى لتحمل تجارا وبضائع (٩) . وشيبت الممالك فعلا بعد قليل ،
 وتركزت بلوغ رئيسي في هذه القلاع (معركة « الجوزات » البحرية عام
 ١٢٩٤) .

وزاد الطين بلة ظهور القراصنة الجنوبيين في مياه قبرص (١٠) ،
 وكانوا يفتشون مهاجمة السفن الفينيسية (١١) ، فان تجارة البنادقة مع
 قبرص عانت كثيرا من الأزمات خلال السنوات الأخيرة من القرن الثالث
 عشر . وفي الجزيرة نفسها ، حاق بالبنادقة في عام ١٣٠٦ ضرر كبير ،
 على اثر رفع ريس الملح إلى ضعف ما كان عليه في السنة السابقة (١٢) .
 ومع ذلك اهتمت الجمهورية اهتماما كبيرا بالمحافظة على علاقاتها القديمة بولم
 المملكة . وفي عام ١٣٠٢ قرر مجلس القنيوخ إيفاد سفير إلى الملك هنري
 الثاني . وفي حوزتنا نصي التعليلات التي دولت له (١٣) .

تجدد في هذه التعليلات المطالب الآتية . أولا ، أن يفي البنادقة من
 ذلك الشيء من الضريبة المقررة عند وصولهم ، وعند رحيلهم ، وعند إقامتهم
 بالبلد . ثانيا ، يمكنهم أن يحصلوا بالمجان ، أو بمقابل هذه الرسوم على
 كنائس ، وأحياء ، ومستودع lobbia ومسوق Platea في مدين
 نيقوسيا ، وليماسول ، ولعاماجوستا ، وإذا استدعاهم ليشول أمام القضاء
 بعض مواطنيهم ، أو بعض الأجانب ، فلا يجوز إحالتهم إلى محاكم خلال
 محاكمهم الخاصة . وأخيرا ، فإن أموال البنادقة الذين يتوفون أو يفرقون

Pagnon, Delle imprese e del dominio del Genovese nella (٨)
 Creta, p. 24 ; Canale, Nuova storia di Genova, III, 230.

Annal. Jan., p. 383. (٩)

Anna, de Jérus, II, 363, 368. (١٠)

M. de Més Latrie, dans les Nouvelles preuves de l'hist. de (١١)
 chypre, Bibliothèque de l'Ecole des chartes XXXIV, 1873, p. 60 et seq.,
 Romania, 400 et s.

Mes Latrie, Hist. de Chypre, II, 99 et s. (١٢)

Ibid., Nouvelles preuves, I, c. p. 34 et ss. (١٣)

يبقى في حوزة ملاكها الشرعيين . وفي مقابل ذلك تأذن حكومة البندقية لسفيرها أن يقدّم صلات صدقة قوية مع الملك ، وعليه فضلا عن ذلك أن يصرح بأن البنادقة للقيمين بالملكمة على استعداد لأن يسهموا بأشخاصهم في الدفاع عن أماكن إقامتهم ضد أي عدو ينهب عليها ، بشرط ألا تمنعهم هذه الخسرة من السفر .

ولم تتم الموافقة على هذه الاقتراحات دون مشقة لأنه كان لا مئاض من إيفاد بعثات متعددة من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر (١٤) - ولم يتم التمس على حدود المعاهدة إلا في عام ١٣٠٦ ، وكان هنري الثاني وقتئذ ضحية دسائس أخيه أموري Amory الذي استغل السفير البندقي فيتالي ميشيل Vitali Michel ، بصفته وصيا على العرش ، ووافق على إلغاء الضرائب على التجارة الفداء تماما . وبخصوص الكنائس ، والمستودعات ، ودور الإدارة (١٥) ، والأراضي الفضاء التي طلبتها الجمهورية في المدن الثلاث المذكورة بحاليه ، فإنه اشترط أن تشتريها الجمهورية ، وأذن للبنادقة الذين يريدون الإقامة بها أن يشتروا منازل فقط ، لا قصورا حصينة ووافق التوصل على الفترات الخاصة بالقضاء ، وبأموال البنادقة المتوفين والفرقي ، ولكنه احتفظ لمحاكمة بالاختصاص في المناوئ الجنائية ، ووافق على بعض مطالب الإدارة المالية لثروات المتوفين ، وقبل عروض الخدمات المقدمة باسم الجمهورية بكل حفايرها طبقا لتعليمات عام ١٣٠٢ ، ووضح فوق ذلك شرطا اضافيا يقضي بأن يقسم كل بايل اليمين عند استلامه الوظيفة ألا يعطى أجريا شهادة الجنسية الفينيسية ليستمتع بالازاياء المخصصة لمواطنيه (أي البنادقة) ، وأن يقسم المستوردون البنادقة اليمين وهم يقدمون للجبرك اقرارا بصفاتهم أمام موظفي الملك بأنه ليس فيها شيء يخص رعايا غير بنادقة (١٦) . وعندما استعاد الملك هنري الثاني سلطته ، قسمت البندقية اليه هذه المعاهدة ليصدق عليها ، وليس ثمة ما يدعو للشك في أنه لم يصدق عليها . وكان على المنوب الخوفه بمهمة تقديم المعاهدة ليصدق عليها الملك أن يبقى في قبرص بصفة بايل (١٧) إلا نجحت مهمته . ثم إن هذا المنصب كان موجودا من قبل .

Publiques des Missi, dans l'Archiv. Venet., XVII, 134; XVIII, 313. (١٤)

Voyez le decret du sénat de 1338 . Bibl de l'Ecole des chartes, 1874, p. 99. (١٥)

Max Lauro, Hist de Chypre, II, 102-108. (١٦)

Arch. Venet., XVIII, 317. (١٧)

وهكذا فالتأخرات أنه قبل انقضاء عشر سنوات على سقوط عكا ، كانت المراكز التجارية للأرملة الكبرى في ذلك العصر ، البندقية ، وجنوا ، وبيزا ، وبرشلونة قد نجحت في نقل مستعمراتها السودرية الى جزيرة قبرص ، كما ان جالياتها التي كانت تملك من قبل بالجزيرة متاجر ، وسعت هذه المتاجر وضاعفت أعدادها (١٨) ، غير أن هذا البيان لا يكفي ، ولابد من بذل جهد كبير لرسم صورة واقعية للحياة التجارية في قبرص في وضع السنين هذه ، ولا يتيسر ذلك الا بعد نشر العقود الجنوبية المسجلة في لاماچوستا بالكامل ، وهو المسجل الذي تولاه السيد ديزموني M. Desimoni . ولما لم نعثر الا ببداية هذا النشر الذي يضم قرابة ٢٢٠ وثيقة من ٢٦ ديسمبر ١٢٩٩ الى ٢٧ من أغسطس ١٣٠٠ (١٩) . وانا لندهش اذا نرى منذ السنين الأولى لهذه الرخاء في قبرص جمعا خفيفا من التجار ، والصيارف ، وأصحاب السفن الغربية يعملون بهمة ونشاط . وكان الجديرون يديارهم ومجالسهم وموظفيهم الاستعماريين يحتلون بطبيعة الحال المرتبة الأولى في الجزيرة ، كما ان البنادقة مع بايهم وفي مجالسهم ، والأتراك مع قناصلهم ، والبييرين ، والفنورسنيين ، وأهالي مسينا ، ووكلاء البيت التجاري الكبير ، سكوتس ، Scotti (٢٠) كانوا يظهرون فيها بظهور لا يقل ، ويمثل فرنسا بالجزيرة أهالي من تاربون (ولهم فيها قنصل) ، ومونبيليه ، ويمثل اسبانيا تجار من برشلونة ، وساراجوسا (سرسطة) Saragossa ، وتاراجونة Tarragone ، وسوف نتكلم بنوع خاص عن معظم هذه الأمم ، ولا نريد هنا الا لحة من تشكيل هيئة التجار في قبرص في عام ١٣٠٠ .

بما كانت معالم الحياة التجارية مركزة في لاماچوستا (٢١) ، كان مقر البلاط ، والنبلاء ، والحكومة في نيقوسيا ، داخل الجزيرة ، وكان موقع

Arch. de l'Or. lat., II, 2, p. 88, 89, 13-15.

(١٨)

(١٩) عقود مبرمة في لاماچوستا أمام حرق العقود الجنوبية لا يمتدح على صاحبها فليدع (الجزء الأول) في ١

— Archiv de l'Or. lat. II 3, 1882, p. 1-130.

Ibid, p. 86.

(٢٠)

يتكفى هذه المبرم في ٢٦ من يولية ١٣٠١ في لاماچوستا بين هذا البيت وطبيعة بيروت أخرى في مدينة نفسها من جهة ، وبين صاحب (أو مظهر) سفينة تنحدر من جهة أخرى . يلقب هذا الأخير بنفسه بـ"صالح" لنفس تلك البسوت . وذلك في الجزرات وينقلها مباشرة الى مرسولها حاج حوت . ولشأنه القصار بها من القل والسكر وسفر اليهم والقرفة ، والماح ، والفانجيل ، والبخر ، والبقلة ، والصوف .

Ludolph, p. 22 ; Pegol., p. 24

(٢١)

فاما جوستا على الساحل الشرقي يحسن لها مرة كبيرة على ليميسو القائمة على الساحل الجنوبي . ولأنها قريبة كثيرا من موانئ سوريا كلها ، وقبالتها ميناء الجورات في أرمينيا الصغرى ، كانت مركزا تتجه اليه كل منتجات الشرق . وفي العصر الذي عاش فيه بيلوتي Piloti (حوالي عام ١٤٤٠) كان أرمي محصور فاما جوستا مجرد ذكرى . ومع ذلك اليكم الصورة التي يرسمها عنها ، اد يقول : « كانت كل القوافل المحملة بالتوابل تصل الى بيروت وطرابلس السورية حيث يشحنها الأتالي على متن سفنهم لتتقلها الى فاما جوستا ، وتحمل هذه السفن أيضا اللطخ وسائر منتجات سوريا . وفي فاما جوستا تتلاقى أهم المرفأ كلها ، وتمارس أعمالها التجارية » (٢٢).

وفي تاريخه الذي يمتد الى عام ١٤٣٢ ، يذكر ليونتيوس ماشي Leonlios Machalres القبرصي أنه في عهد بطرس الأول كان يرد من سورية بضائع الى فاما جوستا . وكان البنسادة والبيزيون والجنويون والفورسييون والقطاليون يأتون ثمة طلب لهذه البضائع لأن البابا حظر عليهم المضي الى أيمن منها ، فكان ذلك كسبا ، لاغتراء القنارصة » (٢٣) . ويعرض علينا بيجولوتي Pegolotti (٢٤) الذي أقام في جزيرة قبرص لفترة من الأول من ١٣٢٤ الى ١٣٢٧ ، والثانية عام ١٣٣٥ بصلته وكبلا لبيت باردى ، قائلة طويلة للسلع الموجودة بالسوق . فم ينف عنها شيء من منتجات الشرق النفيسة التي يطلبها الأوروبيون في المحصور الوسطى .

وفي هذا العصر وجد السائح الألماني لودولف دو سولزيم Ludolphe de Sotheim في فاما جوستا كميات هائلة من التوابل ، ويؤكد أنها كانت هناك شائعة شيوع الخبر في ألمانيا ، وكان في قباه تاجر من تجار السلع الغذائية في المستعمرات كميات من حشيش الصبر أكثر مما يمكن حمله على خمس مركبات ، وأثر ألا يتحدث عما رآه من أحجار كريمة ، ودياج ملهيب ، وأشياء أخرى ثمينة من هذا النوع ، لأن مواطنيه ليس يصدقوه . وفي رأيه أن تجار هذه المدينة يتمتعون بثره فاحش ، وأنهم أغنى من تجار أية مدينة أخرى . غير أن الرفاهية والراحة كانا متناهيين مع ما بها من ثروة . وكانت هناك منافسة كبيرة بين التجار

Belkénberg, Monuments pour servir à l'histoire des provinces de Namur, de Hainaut et de Luxembourg, IV, 366. (٢٢)

Chronique de Chypre, texte grec, éd. Müller et Balas (Paris 1882), p. 48 et s. (٢٣)

Pratica della mercatura, p. 48 et s. (٢٤)

والساحريين من كل البلاد في لاما جوستا ، وهي جزيرة قبرص بوجه عام ، يمكن دائما معرفة كل ما يجري تحت الشمس (٢٥) .

ولم يكن يجلب هذه المجموع الكبيرة من التجار إلى قبرص ، وبخاصة لاما جوستا السلع النفيسة المستوردة من قلب آسيا فحسب ، ولكن أيضا منتجات الجزيرة نفسها . ومن هذه المنتجات ، يشغل السكر والملح المرتبة الأولى . وكان قصب السكر متوفرا للغاية في صواحي ليميسو ، وبافو Baffo ، وتجرى صناعة السكر بوجه عام وسط المزارع نفسها ، ومن كبار ملاك المقارات ، زارعي السكر ، والقائمون بتكريره أسرة كورنارو Cornaro . وكان الملك في حقوله ، وفرسان القديس يوحنا في أراضيهم الشاسعة في كولوسي Colossi يصنعون السكر الذي يشتري البنادقة مطنه ، وينتشر من البندقية إلى الغرب كله (٢٦) .

أما الملح فكان يستخلص على ضفاف البحيرتين الواقعتين بالغرب من ليماسول ولازينا Larnaca (ملاحات) (٢٧) ، فيستغل فيهما ماء البحر ، ويترسب الملح لمة بعد تبخر المياه في حرارة الصيف . وكانت هذه الملاحات الطبيعية في العصور الوسطى (٢٨) أكبر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، ويحتكر الملك انتاجها وبيعه (٢٩) . ويبدو أن البنادقة أيضا هم الذين يشترون أكبر الكميات من الملح (٣٠) . والحقبة أن الملح كان في كل زمان من السلع الرئيسية في تجارتهم (٣١) .

ولا يجوز ، في مجال الحديث عن منتجات قبرص الطبيعية أن ننسى.

(٢٥) Ludolph, p. 28-29

(٢٦) يزيد من التفاصيل انظر مادة « السكر » بالعين الخاص بالسلع التجارية .

(٢٧) نبد في هذا الخصوص دروسا في قسم الرسالة .

— Steph. v. Gumpensberg, p. 244 et s., Ghislain, p. 260 et s., Georg. Gemmicensis, p. 614, Pietro Casola, p. 84, 87, Hans Stöcker (Schaffh. 1839), p. 22-24, Rahricht et Meisner, Deutsche Pflanzfahrten, p. 222, 223 et s., Conrad, Vier rheinische Pflanzfahrten, p. 243.

MM, Unger et Kotschay, Die Insel Cypro, p. 8 et ss., (٢٨)

Mss Latris, II, 100; III, 237, not. 1, 554 et ss., 860 et ss.; Pegol., 87; (٢٩)

Monumenta spectantia historiam Sclavorum meridionalium, I, 142, Mss-Latris, II, 100. (٣٠)

Maria, V, 42-43. (٣١)

عبيدها المتأثر (٣٢) ، أو القطن ذا الجودة المتوسطة من قطن سوريا وقطن جنوب إيطاليا ، وصنيفة ، ومالطة ، أو « السنة » التي تقل كثيرا في جودتها عن ليلة بغداد ، أو « لادن » (صمغ رائحي يستخدم في صمغ العطور - المترجم) ، أو المسطل (٣٣) ، أو الخروب (٣٤) .

فإذا انتقلنا من إحصاءات الطبيعة إلى المنتجات المصنعة ، صادفنا غالبا مسوجات تدل أسماءها العربية (٣٥) على أن مصادرها الأصلية واردة من قارة آسيا . وفي عاماجوستا وبيقوسيا (٣٦) ، تصنع من مواد مختلفة « الشمعات » القبرصية المشهورة (٣٧) المطلوبة في مصر وسوريا (٣٨) ، وآسيا الصغرى (٣٩) ، وتباع بأثمان مرتفعة في الغرب (٤٠) . وفي عام ١٣٩٨ أوفد لويس الثاني دوق بوربون دليلا له إلى قبرص ، ولكنه لم يبتاع له « شمعات » رقيقة ، حمراء وبضياء . ونجد في الكثير من الدفائن التجارية ، وقوائم الجرد المحررة في الغرب إشارة إلى عدد من قطع الشمعات . ونجد كثيرا إلى جانب هذا البيان إشارة إلى جزيرة قبرص باعتبارها المصدر الأصلي .

وكانت صناعة الخيوط الذهبية ، والأشعة الحريرية المختلطة ،

أو المطرزة ، أو الموشاة ، بشرائط متناسبة مع جزيرة قبرص حتى أن

(٣٢) في المصدر الرئيسي كان عبيد قبرص يعتبر ملك الأبلهة . ويذكر على مراد الإبراء ، وكان كل الحاج الذين يزورون قبرص يتبعون بدمج هذا الباب : Pagol., p. 87.

— Schultz Hespeles Leben, I, 398 et ss; Ludolph de Southeim, p. 84, Baldmann, p. 341, Wilber, v. Oldemb. p. 139; Innocentius III, dans Tobler, après Théodoricus, p. 129, 130.

Pagol., p. 84; Paul, p. 141 b-142 a; Mas-Latrie, III, 598. (٣٣)

Pagol., p. 67; Paul, I, 6; Casola, p. 48, 49, Mas-Latrie, II, 489; III, 300 et s. (٣٤)

Voir le chapitre de Pagolotti sur Chypre, p. 68. (٣٥)

Mas-Latrie, Hist de Chypre, III, 244, 497, 528, 775, 777. (٣٦)

Ghiatse, p. 234; Acad. de Jérusalem, II, 381, 388. (٣٧)

(٣٨) بالنسبة إلى الإسكندرية والقاهرة وبيروت دمشق القبر : Philo, p. 388, 378. (٣٩)

Pagol, p. 48.

Mas-Latrie, II, 448-451 ; Bibl de l'Ecole des chartes, série VI, vol. I, p. 348, et s; Paul, p. 388, 142, a; Chabrol, p. LXXIX a. (٤٠)

الخيوط الذهبية كان يطلق عليها « ذهب قبرص » (٤١) ، كما عرفت المسوجات الحريرية هناك باسم « جوخ قبرص الذهبي » (٤٢) . ومن قبل ، في عام ١٣٠٠ كانت كمية القديس بطرس بروما تملك زخارف تسمى « مشعولات قبرصية » de opere Cyprensi (٤٣) . وسوف نتحدث في فصل خاص عن مسوجات حريرية وقطنية وكتانية أخرى منتشرة في سوق قبرص ، ولم يكن عند الغرب ما يقدمه عرضاً عن هذه الأقمشة العاصرة سوى أجواخ الغلابر وفرنسا ، ولسارديا ، النج ، ولى بالفل ، حسبما هو مسجل في الدفاتر التجارية الخاصة ببعض تجار الغرب أن هذا الجوخ هو السلعة الرئيسية الواردة من هذه البلاد (٤٤) . سقا ان مصانع الحرير التي أقيمت في إيطاليا طبقاً لنموذج مصانع قبرص القديمة قلتماً سريعاً ، إلا أن منتجاتها كانت توجه إلى الغرب فقط . ومع ذلك كانت قبرص تتلقى ألبنة من اليونان وإيطاليا ، وخردوات وأدوات حديدية ونحاسية من ميلانو (٤٥) .

ولى فاماوساً مستودعات كبيرة تديرها بيوت تجارية شرقية (٤٦) . وتم المبادلات التجارية بواسطة سماسرة . ولاعتبار صفة تجارية أنها بائة ، لا يكفي دفع المربون ، بل لابد أيضاً من أن تسجل في دفاتر موظفي الجمر . ولم تكن هناك ضرائب على المبيعات والمشتريات ، أما الرسم الجمركي العادي المفرض عند الدخول والخروج فكان ٤٪ . وهو السعر المفروض على كل التجار التابعين للأمم التي لا تنتم إلى أي امتياز . ولكن في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، كانت الامتان التجاريان ، البندقية وجنوا تتمتعان بالإعفاء الكامل (من الرسوم والضرائب) ، وكان البينزيون والآنكوبيون والبرونسيون والنريوليون والغالاليون قد حصلوا على تخفيض ضرائبي بمقدار النصف . وأما الشركتان الفلورنسيان الكرنتان باردى Bardì ، وبيروغزي

Francisque Michel, l.c., T. 265, 307, II, 187. (٤١)

Ibid., l. 306 et ss., II, 174, 188, note 2, 488. (٤٢)

Archiv. della soc. rom. di storia patria, VI (1883), p. 11 et s. (٤٣)

Pegolotti, p. 65, 74; Chiarini, p. LXXX s; Paul, p. 362 s., Max-Latrie, III, 774 et ss. (٤٤)

Pegol., p. 67; Chiarini, l.c.; Paul, l.c. (٤٥)

(٤٦) كان الاسرة Lechas البسفروريون ، مثل يريجون من عهد التجارة امريلا
ملا ، وفي الاسواق يريجون كيات من حلب المصب ، والياقوت ، والياقوت ، والياقوت
التي تسمى «ملا» بها ملازم .

Peruzzi لانهاا تمتعتان بنفس الخطوة (٤٧) . وبالحاج من وكيل شركة باردي ، يالدوتشي بيجولوتي ، امتد أثر هذا الامتياز فشم كل الفلورنسيين (١٣٢٤) (٤٨) ، ولم يكن هؤلاء حتى هذا التاريخ قد تخلصوا من دفع الضرائب كلها ، الا بان يدعوا ، غشسا وخداعا انهم يبيزون ، غير ان البيريئي كانوا يماقبلهم على ذلك بشدة .

وسد ان مسحوا لتفويض الرسوم ، كان يكفي اى تاجر ان يقدم لتجبرك شهادة تثبت جنسيته الفلورنسية ، موقعا عليها من وكيل بيت باردي في فلماجوستا ليحصل من موطنى التجبرك على اى يدفع الرسم بسعر ٢٪ . وفيما عدا هذا الاستثناء كانت القواعد العامة المطبقة على الأمم غير المعفاة من الضرائب هي ما ياتي . البضائع الملقاة على الأرض والباقية لحساب التاجر يسكن ثقلها دون دفع رسم عند الخروج ، والبضائع التي تفسخ فقط من سفينة الى أخرى في ميناء فلماجوستا . وتقل من ثمة الى جهة أخرى دون ان توضع على الأرض تدفع رسم مرور بنسبة ١٪ (٤٩) .

وهذاا احيرا رسم « عام » لجزيرة قبرص ، يسمى la Missa ، وهو « ضريبة » ، الغرض منها تمويل تلك قبرص من النفقات التي يضطر الى صرفها لتطهير البحار المجاورة من القراصنة الذين يرتادونها ؛ هذه الضريبة التي تلقد بالنسبة الى الصفحة ، تحصل من السفن القادمة من آسيا الصغرى التركية ، ورووس ، وأرمينيا ، وسورية ، ومصر . وكانت في الواقع تخص ريان السفينة ، ولكن الربان يدفعها الى أجرة السفينة بحيث يتحملها التاجر في النهاية . أما البنادق والجنيون فكانوا معالين من هذه الضريبة ، اسوة بغيرها من الضرائب .

وكند استقينا المعلومات السابقة من بيجولوتي الذي تلق به كل الثقة لانه كان بصغفه وكيلا لبيت تجارى كبير في وضح أكثر ما يكون ملائمة لمعرفة كل التفاصيل التي تهم تجارة قبرص معرفة دقيقة . ويذكر

(٤٧) Les Archéve de l'Or, lat. II, 3, p. 60; Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 201, 270, 321 (aux années 1338, 1339, 1340).

Mon-Laurie II, 147, 148, 164; Bibl de l'Ecole des chartes 1874, p. 59.

(٤٨) لم يبلغ هذا الامتياز هذه المرة الا لستين . لم أجد نسخة في عام ١٣٢٥ لسنة

واحدة ، وفي عام ١٣٢٦ لنفس سنوات ، وأخيرا في عام ١٣٢٧ الى الأبد .

(٤٩) توجد هذه الكلمة في ثيل في الامتياز المخرج لصالح بيراف في عام ١٣٢٦ .

التي

— Doc. sulle relaz. toce, p. 108.

بيجولوني من البلاد والمدن التي لها علاقات تجارية بالجزيرة الى جانب
 ييزا وهي دولة انحطت وقتئذ قوامها ، يذكر أمة ظهرت حديثا ، ولها
 طائفة فتيحة تلك هي بلورنسا ، وفي حورتنا رسالة كتبها حكومة
 بلورنسا بعد وفاة هوج الرابع Hugues IV من أسرة لوزيان الذي
 أقام في عهده بيجولاني في جزيرة قبرص ، وهي موجهة لخليفته
 بطرس الأول (١٣٦٠) ، وتمتدح الكرم الذي أبداه الملك المتوفي حيال
 مواطنيه ، وتوصي الملك الحال بتأجير ذهب الى قبرص للحصول على
 الدين (١٣٦٥) (٥٠) ، ومن ذي الأهم التي تتمتع بامتيازات الأندلسيون.
 فكانت سفنهم تقوم برحلات كثيرة الى قبرص ، ويبدو أن عددا ايطالية
 أخرى كانت تستفيد من هذه الظروف فتصدر بضائع الى الجزيرة
 وتستورد بضائع منها (٥١) .

والتجارة الفرنسية كان يملأها تجار من عدة مدن ، وبخاصة ناربون
 ومونبيليه (٥٢) ، فاستورد هذه المدن من قبرص منسوجات صوفية
 وكثائية وغيرها ، وزنجبيل والفلفل ومسكرا . وفي عام ١٣٣٤ كانت
 سفينة عائمة من فلماجوستا الى « ايج - مورت » Aigue-Mortes
 وعلى ظهرها تجار فرنسيون ، و ١٠٧ أكياس فلفل ، فوقعت أسيرة في
 أيدي قراصنة قطلونيين (٥٣) . وفي عام ١٣٥٠ كانت سفينة أخرى
 استأجرها تاجر من ناربون تنقل شحنة من الفلفل والزنجبيل ،
 وتلبه بلفاد من فلماجوستا الى فرنسا ، فذهبها قراصنة صقليون (٥٤) .
 ومن كسبيالات وخطابات توصية مخطوطة الى يرمنا هذا تعرف أسماء تجار
 من جنوب فرنسا مقيمين في قبرص ، تذكر منهم بيت مسرياليه الكبير

Doc, mille relax, loc. p. 118, 123.

(٥٠)

— في القرد الوثيقة بلاماجوستا ، والمذكورة أيضا ، تجد عددا كبيرا من الأسماء
 البلورنسية

— P. 8, 24, 37, 38, 39, 40, 43, 44, et 2. 85 et 2. 86, 108.

(٥١) يذكر بيجول (Pagol, p. 184 et 8) أسماء النقل في السفن الأندلسية في
 للسنة ، وترد على هذه الخربة بقائمة بسلح الصدير والتوريد . ولقد أسماء الأندلسية
 في القرد وثيقة القمار إليها في البهاق السابق :

34 et 2. 46, 48, 49, 77, 80 et 2. 87, 106 et 2. 111.

(٥٢) تجد أسماء بروجازيين من مابين اندلس في القرد الوثيقة بلاماجوستا :
 — 1. 2. 33, 44, 63, 92, 94-96, 105 et 2. 106.

Mos-Latrie, III, 723.

(٥٣)

Ordonnances des Rois de France, IV, 428.

(٥٤)

Scraller من لاريون (٥٥) . وجالية تيجار مونتبيليه هي الوحيدة التي تعرف بالتفصيل تنظيمها وامتيازاتها . وقد رآل الامتياز الذي منحه ايما الملك هوج الرابع (١٣٢٤ - ١٣٥٩) ، ولحس الحظ أمكن الحصول على مضمونها من تحذير وجهه قنصل مونتبيليه الى خليفة بطرس الأول . وكتوافق البند المتعلق بالرسوم الجمركية التي تحصل عن البضائع عند دخولها قبرص وعند خروجها منها ، وكذا البضائع غير المبيية أو المواد تصديرها دون انزالها برا ، تتوافق تماما مع بيانات بيحولتي حتى اننا لا نرى فيها سوى نسخة من القواعد المكتبة منذ زمن بعيد في هذا الموضوع .

ولما يخص القناصل ، كانت العادة المكتبة في بلدية مونتبيليه أن تحقق بسفها التجارية قناصل حتى يكون الركاب لابد من دواها للقناصل، عند سفرهم وعند عودتهم . وعندما يصل القناصل الى المكان المقصود يؤدون به ولاية المديرين والقضاة طوال فترة إقامة من معهم من الركاب، وكذا بالنسبة الى مواطنيهم الموجودين في هذا البلد المقصود آتية . وعند عودتهم يعلنون واحدا أو اثنين أو أكثر من أعضاء الجالية ليؤدوا نيابة عنهم هذه الوظائف الى حين وصول قنصل آخر . وقد أذن الملك هوج لجالية مونتبيليه بأن تتبع هذا النظام أو بعبارة أصبح تحتلف به في قبرص ، ونجح هؤلاء القناصل اختصاص القضاة المدني والجنائي حيال مواطنيهم ، ويؤدون وظائفهم في أروقتهم (دار القنصلية loggia) في فلماجوستا ، وفي مدن أخرى ، يتبعهم في تنفيذ أحكامهم اثنان الى أربعة من الملباط (٥٦) bastonniers ou sergans .

ولمة خطابات توصية تعرفنا أسماء هؤلاء القناصل الذين أولدتهم بلدية مونتبيليه الى قبرص خلال أعوام ١٣٤٥ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٦ ، ١٣٨١ (٥٧) . ولانن أنما سيطئون اذا قلنا ان لقب regentes mercatorum Montispepulaní (٥٨) الذي منح باجزة قبرصية في عام ١٣٥٢ لأرولودس رينودي Arnouldus Reynaudi وريونودس سولانتي

Mas-Latrie, Documents sur le commerce maritime de midi de la France, dans la Bibliothèque de l'Ecole des chartes, série II, vol. III, p. 227. , Germain, Etat de la commune de Montpellier, II, 561 et ss. Mas-Latrie, Nouv. preuves de l'histoire de Chypre, I, c., p. 85, Germain, Etat de la commune de Montpellier, II, 508 et ss. (٥٦)

Mas-Latrie Etat de Chypre, II, 508 et ss., note; Germain, (٥٧)

Germain, I, c., p. 541. (٥٨)

Raymondus Sclacis قد حصص لائبي من هؤلاء النواب الذين يعيهم القنصل عند رحيلهم ، وثبة اجارة قنصلية أخرى في عام ١٣٥٨ تبيننا أن الأخير كان أحد بوزجوازي مونيبييه ، وتاجرًا للسلع الغذائية في قبرص (٥٩) . وكانت الأمور بين تجار مونيبييه وموظفي قبرص لا تجري في سرحد أن تحدث بعض المتاعب من حين إلى حين ، من ذلك أنه حدث في عهد هوج الرابع أن نظم التجار من طريقة ورو الأكسيه (٦٠) . وفي عهد بطرس الأول (١٣٥٩ - ١٣٦٩) طولب هؤلاء التجار بأن يؤديوا ضعف ما كان عليهم أن يؤديه من الرسوم الجمركية انتهاكا للحقوق المفتوحة لهم كتابة . وفي غضون رحلة بطرس الأول إلى الغرب ، توقف بعض الوقت في مونيبييه (٢٩ مارس إلى ٣١ مايو ١٣٦٣) (٦١) . وانتهم قنصل المدينة هذه الفرصة لتقديموا له شكوى بهذا الخصوص (٦٢) . وللحال كتب بطرس إلى أخيه يوحنا دو لوزينيان القائم بشئون الحكم نيابة عنه في غياحه وأن يمنع هذه المغاللة (٦٣) . وعندما عاد إلى نيقوسيا أعطى أمالي مونيبييه أمرا (دبلوما) جديدا أكد فيه من جديد امتيازاتهم في كل من الشؤون الجمركية والقضائية (٦٤) .

ونعلم من قبل أن القبطالونيبي (٦٥) كانت لهم نفس المزايا التي يتمتع بها تجار مونيبييه بالنسبة إلى الجسارك ، والفصلية ، وترجع امتيازاتهم إلى عام ١٢٩١ ، ولم يحصلوا على امتيازات أخرى من ذلك

Biblioth de l'Ecole des chartes, série II, vol. p. 207. (٥٩)

Germain, l.c., p. 642. (٦٠)

Mss. Latins, Hist. de Chypre, II, 340. (٦١)

Germain, l.c., p. 308 et ss. (٦٢)

Lettre écrite d'Avignon le 21 avril, dans Germain, l.c., p. 644. (٦٣)

Germain. Histoire du comté de Montpellier, II, 261. (٦٤)

— جمل جبرسان تاريخ هذا الميولم ١١ يناير ١٣٦٥ — ومع ذلك يبدو أن عهدا التاريخ مشكوك في صحته ، لأن « بير » لم يمد إلى قبرص قبل عهد أكثرين (Mss. Latins, l.c., II, 341)

عدها ينبغي أن نقرأ التاريخ ١٣٦٦ أو ١٣٦٧ .

(٦٥) نجد أسماء هؤلاء القادة في المقرد قائمة بلامبورسا

— l.c., p. 60, 82 89, 97, 101, 111, 114.

الحج (٦٦) • على أنه في حورتا جوارات مرور وخطابات توصية سلمتها سلطات برشلونة لبعض التجار والبحارة (٦٧) ، وبعض القرارات الصادرة بتعيين قناصل في فاماچوستا ليفرلوا بها على مصالح القطلونيين في قبرص وأرمينيا الصغرى (٦٨) • هذه الوثائق تثبت أن التجارة بين برشلونة ومملكة قبرص كانت مستمرة كما أنها دون انقطاع أو صعوبات • ولم يكن التجار • القطلونيون يتوقفون دائما عنده فاماچوستا ، فكلتيا ماكانوا ينامرون بمواصلة الإبحار حتى دمشق ، ولما في ذلك مثل جرى في عام ١٣٣٨ (٦٩) عادا انتقدا من الأمم الأقل مراعاة إلى الأمم التي تتمتع بالاعفاء التام من الرسوم ، أي الجمهوريتين التجاريتين الكبيرتين تبين لنا أول كل شيء أنه كان يوجه به جمهورية جنوا ومينوك قبرص سلسلة من المنازعات التي قد تمتع على الطر بأن جنوا كانت تفكر منذ زمن مبكر أن تقيم بالقوة مستوطنة لها في قبرص .

فالواقع أنه في أعقاب بعض أعمال القرصنة التي اقترافها جنويون عند سواحل الجزيرة تجددت المذعنات القديمة بشدة حتى أمر الملك (١٣٠٥) تاجر هذه الأمة أن يبتعدوا عن الشاطئ وينقلوا سكنهم إلى نيقوسيا ، مهيذا بالقاء كل ماله من امتيازات إذا لم يكتفوا عن هذه الممارات (٧٠) • ورأى سالفيجو بيسساليو Salviago Passagno المؤلف عام ١٣٠٦ بمهمة من قبل الجمهورية لدى الملك أن كل طلباته قد رفضت ، فأمر مواطنيه أن يغادروا الجزيرة ، قائلا لهم بصراحة أنه لم يعد ثمة مجال لمعاملة الجزيرة إلا على أنها عدوة لهم ، ولابد من شن حرب ضدها • أما الملك فإنه منع خروج أي جنوي من مملكته ، ووضع أموالهم تحت المراقبة ، وحظر على رعاياه أن يشتروا أو يحتفظوا بأشياء تخصهم ، وفي اللحظة التي بدا فيها أنه لا مفر من لشبوب الحرب ، أطاح أموري

(٦٦) سجن امينك جيبس الثاني ملك ارايون بتخليهم حملة صليبية ، معه بغيره وسيرت في سفارة إلى جايفانو ، خان تمار فارس ، وكذا إلى مينوك قبرص وأرمينيا الصغرى نائب محافظهم منه (١٢٩٣) • وفي هذه المناسبة طلب من ملك قبرص أن يسمح للتجار القطلونيين فعلا وسيا ، ويغلب الضرائب التي يصيبها على لبضائع الباكية تساهم والتي يصاد تصديرها (Havvotale, I, c. p. 177) • سرت رد جري الثاني ، وأمر كذلك بالنسبة إلى مهمة للسفراء الأرايونيين في عام ١٣١٦ •

Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 734 et s.; Capmany, II, 111 (٦٧)

Capmany, II, app. p. 46 (٦٨)

Mas Latrie, II, 734. (٦٩)

Ases. de Jérus., II, 383-388 (٧٠)

Amsbury أحماد هنري من العرش (٧١) ، ومع ذلك لم يتم السلام طويلا إذ انبثقت خلافات جديدة بسبب وقوع مشاجرات بين بعض الجنويين وبعض يورجوازي فأياجوسينا ، سالت فيها الدماء .

وطالبت الجمهورية بترغية ، ولكن أمور الذي حرت الأحداث في عهد وصاينته (١٣٠٦ - ١٣١٠) ، وعمرى الثاني حين استرد عرشه ، رفض كل منهما بدوره طلب الجمهورية بحجة أن الأثارة صدرت من جانب الجنويين ، وادعت حنا أنها قد أميت بهذا التصرف ، فأمرت رعاياها أن يخرجوا من الجزيرة ، وأذمت لكل منهم أن يعامل القديسة معاملة الأعداء ، ويوقع بهم كل أدى مستطاع ، دون أن يتأله أى عقاب ، وأدى ذلك إلى استيلاء طائفة من الجنويين على « باغو » (باغوس) .
Bello (Poppon) وأذمت جنوا عدتها مرارا لإرسال حيلات إلى قبرص ، ولكن كانت كل حملة تنوقف قبل رحيلها ، أحيانا نتيجة لمساعي أثينا الذي لم يدر وسعا للوساطة (٧٢) ، وأحيانا بسبب الخلافات الداخلية في الجمهورية نفسها . وأخيرا توفي الملك هنري الثاني ، ملك قبرص ، وخلفه هوج الرابع ، وأمكن عقد الصلح عام ١٣٢٩ (٧٣) . وكان للماروس الجنوى هو نيكوليتوسكى دى كاردينالى Niccolino Fieschi dei Cardinali الذي سبق له أن أدى في عام ١٣٢٢ مهمة في بلاط نيقوسيا مع بييترو جريللو Pietro Orillo (٧٤)

وجرت المفاوضات أساسا في مسائل خاصة بالتعويضات . ومع ذلك فالمعاملة إذ أعادت إلى الجنويين كل الحقوق والممتلكات التي كانت تتمتع بها في عام ١٢٢٣ ، وأكدت لها من جديد ، تفاضت عن كل المصاعب التي ظهرت عند تفسير المعاهدة القديمة (٧٥) . ولم يمنع هذا الجمهورية من الانحياز على الملك إسقاطا تتعلق بأمور حديثة العهد بدرجة ما ، حتى أنه أن دفع لها مبالغ كبيرة ، ولم تبه حاسبا في منع أعمال القرصنة التي يقوم بها رعاياها كل يوم اغرارا بمصالح القارصة . وفي عام ١٣٣٨

Amsbury, dans *Mon Latria*, III, 881 et s. (٧١)

Poppon, dans *Mon Latria*, no 10, 1317, no 25, 1319 no 10, 1320 no 47, 1322 no 13, 1328 no 88. (٧٢)

M. Pagano (p. 25), *Canale*, *Nuova storia di Genova*, III, 231, note 2. (٧٣)

Raynald, s.a. 1320, no 47. (٧٤)

Litt. Jur., II, 483 et ss.; *Mon Latria*, II, 150 et ss. (٧٥)

عقد سوريويو سميولا Sorleone Spinola سفيرا جنوا معاينة جديدة (٧٦) ، ولم تأت هذه المعاينة بتغيير محسوس في الموقف .

وفي مرة أخرى كان الملك هو الذي أولفد سفرهم الى جنوا حيث استقبلوا ببطاوة ، ولكن حين طال أمد المفاوضات ، صرفوا باستنلوب شيء لائق . واذا داحت جنوا تبوء أسلحتها ضد قبرص ، عرض البابا كليمنت السادس وساطته مرة أخرى ، ونجح بمشقة في ارساء قواعد الصلح (١٣٤٤) ، وتلاحقت المفاوضات أمام الكرسي الرسولي (الفاتيكان) : وأصر الجنويون بنوع خاص على ثلاث نقاط صرحوا بأنه لا مفاوضة معها : أولا حق الجنويين في أن يكون لهم سجنون في جزيرة قبرص (٧٧) ، ثم حرية الدخول في أي وقت في موانئ الجزيرة دون أن يلتزموا بطلب تصريح بالدخول من الموظفين الملكيين ، وأخيرا حرية صنع الخبز في فرن المستوطنة الجنوبية للجنويين القريباء على المستوطنة .

ولم يقبل المفاوضون الفلبارصية هذه المطالب إلا على مضض ، ولقد لفترة مؤقتة قدرها ثلاث سنوات ، ولم يستمروا بذلك إلا على الحاج البابا الذي ضغط عليهم حتى يمتوا في المسألة ، ولأن الطرف الآخر أبدى تساهلا في نقاط أخرى (مثل فرض صربية على حقوق البيع التي ترم بين جنويين وأجانب) ، وأخيرا لأن الطرف الآخر قبل أن يخضع الزعامة الجنويون العاملون في خدمة الملك أو التابعون له تبعية الطاغية لتطوائه المباشر ، وهذا ما طلبه الملك (٧٨) ، ولسنا نعرف ما إذا كان الصلح قد تم على أساس هذه القواعد ، فهذا أمر مشكوك فيه ، ولا توجد وثائق من عهد جورج الرابع يمكن الرجوع إليها لاثبات الغش على علاقات هذا الأمير بجمهورية جنوا .

وفي رحمة طويلة قام بها خليفته بطرس الأول في أنحاء أوروبا ، أقام عدة أسابيح في جنوا (مثلا أواخر شهر يناير حتى منتصف

Mag Laire, II, 106 et ss.

(٧٦)

(٧٧) تذكروا . تأكيدها غير صحيح أن ثمة مساعدات ماهرة كانت لأصغر لقب في أن يكون له سجنون خاصة بها . وهذا اعتباط لم يكن ملوك قبرص يمنحونه في طيب خاطر . بل كانوا يملكون في الواقع المستوطنات ، البينزيج والينافلة . في حالة ما إذا حكم على أحد من مواطنيهم بالسجن في محاكمهم ، أن يملك العقوبة في سجون البلد التي كانت دائما تحت تصرفهم

Doc. Sulle rela. tosc, p. 106; Mag Laire II, 106.

M. de Mag Laire - la Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1078, (٧٨)
p. 106 et ss.,

شهر مارس ١٣٦٢ (٧٩) ١٠ أشهر العوج هذه العرصة قطب
تأكيد الاختيار الأساسي للمسوح عام ١٢٣٢ (٥ مارس) (٨٠) وبمسا
كان بطرس يواصل رحلته ، ظهر في قبرص مراع كاد يهدد السلام من
جديد (١٣٦٣ - ١٣٦٤) ذلك أن أمير البحر القبرصي يوحنا دي صور
Jean de Sour قطع الأذن اليمنى لبحارين فزا من الخدمة ،
وتبع أن هذين البحارين جنويان ، وترتب على ذلك حدوث مشاجرات
دائية بين البحارة الجنوبيين والقبارصة ، واعتزم اليهودستات الجنوبي
جوجلييلمو إيرميريو Gugli Ermarlo أن يثار للمحاربة موطنيه ،
لقبض على بحار بيرى يخدم في الأسطول الملكي ، واشترك في
الغضب (٨١) ، فلما قطع لسانه ٠ ولما علم أمير البحر يوحنا الصوري
بتفليد هذا الأمر ، توجه إلى روافد الجنوبيين بصحبة يوحنا دي سوامسون
Jean de Soissons قاضي فلما جوسنا لتأليب اليهودستات على
اصداره هذا الحكم المجهي ٠ وفي هذه الأثناء تجمع الجنوبيون حول
زعيمهم ، فغضب أمير البحر وأمرهم بالانسحاب ، والامتناع عن المراك
والا تعرضوا لمقوبة الأعداء ٠

وكان غضب إيرميريو ، وأصدر أمره إلى كل الجنوبيين بمغادرة
الجزيرة في شهر أكتوبر ، وبأدر هو بالذهاب إلى جنوا وتقديم شكوى
إليها ٠ ورغم هذا الموقف التهديدي ، صرح ضابط الملك بأن كل جنوي
يرغب في البقاء يمكنه أن يبقى دون أن يثأله أي أذى (٨٢) ٠ ولم يكن
ثمة شيء يفيضا إلى الملك مثل الذي حدث ، وبخاصة في تلك الآونة التي
كان على البندقية أيضا أن تقضي فيها على ثورة نشبت في كانيا ، ومن لم
كان يخشى أن تؤجل مشروعاته الخاصة بالقيام بحملة صليبية ٠ أما جنوا
فأما اهتمت بالأمر ، وأرادت شن الحرب ، واستقبلت ببرود شديد
الشخصيات التي أوفدها بطرس لتسوية الأمور تسوية سلمية ، وكان
هؤلاء هم بيتروس تومي Petrus Thomae بطريك القسطنطينية ،
وميترو دي بايولو Pietro di Bagnolo من ريجيو Reggio
طبيب الملك الخاص (٨٣) ٠

Mss. Latine, II, 240.

(٧٩)

Lib. Jur., II, 720 et ss., Mss. Latine, II, 248 et s.

(٨٠)

(٨١) نجد أيضا أسماء إيرميريو ذكرت في نسخة مشاجرات جرت عام ١٣٣١ في
فلما جوسنا بين جنويين وقبارصة ،

— Contin. de Jacq. de Voragine, Atti della Soc. Lig., X, 610.

P, 76 de la nouvelle édition de Machiavelli.

(٨٢)

Acta SS., 29 Janv. II, 1012.

(٨٣)

ومع ذلك وقبل أن يعاد بطرس السدقية ليقوم بحملته الصليبية ، اجتهد حينئذ بله أن السلام قد استتب : وقد تم الوصول إلى هذه النتيجة الطيبة أولا بفضل خصاصة بيثروس تومي ، ثم بفضل تدخل البسديقية ديونوماسيا (٨٤) . والحاج اليانثا أوربان الخامس ، وطرص الجيوپيون شرطاً لمواظمتهم (على الصلح) يند مع ذلك أنهم لم يتسكوا بتفيلهم فيما بعد ، ويقضى هذا الشرط بنهي قاضي فاعاجوستا يوحنا دي سواسيون ، وأمبر البحر يوحنا دي صور إذ أنهم مواعها بأهنا للمحرصان على المعاملة السيئة التي لقيها مواطنوهم في قبرص وتحدد المعاهدة بدقة مناسبات الأفراد الذين يستحقون الاعفاءات والاستثناءات والخصومات الممنوحة للجنويين بوجه عام ، وتشمل ليس فقط كل سكان « اترافيرا » من مواكو إلى الطرف الجنوبي لطليج سبيزيا Spezzia ، ولكن أيضا كل الأفراد ، أيضا كانوا يقيمون ، الذين يعيشون تابعين للسلطات الجبوية ، أو يخضعون للتكاليف المفروضة على مواطني الجمهورية ، بالإضافة إلى ذرية هؤلاء الأفراد ، سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين ، وكذا خدمهم ، وأرقائهم ، وعتقائهم ، إذا كانوا في خدمة أسيادهم ، وترك الحالات المشكوك فيها لتقدير البودستات ومستشاريه . فإذا حدث في حالة ما أن رفض الملك أو نوابه حكمهم ، كان لهم أن يلجأوا إلى دوج جنوا ، ومجلسه ، وأعضاء المجلس البلدي ليجزوا تطبيقا محايدا ، والمواطنون الجنوبيون الذين يشعرون مالا (أرضيا) يجعل ملكيتهم له أتباعا القطاعيين الملك قبرص ، يتقون مع ذلك خاضعين لقضاء بودستات جنوا ، ويظل الملك حرا في أن يسحب منهم اما ملكيتهم المال ، أو التمتع الكامل أو الحرري بالأرض القطاعية ، وفي حالة الجرائم التي يرتكبها مواطنون جنويون في خدمة الملك ، اما بصفة بحارة أو بأية صفة أخرى ، تملك السلطات القبرصية الحق في اعتقالهم ، وعليها أن تسلم المذنب إلى البودستات ليحاكمه وينفذ فيه الحكم .

فإذا قامت منازعات جديدة ، فانه لا يجوز للملك أو لبعلاؤه أن يقبضوا على مواطنين جنويين أو يحجزوا بضائعهم أو سفنهم بأية حجة . ويصرح الملك للجنويين بأن يكون لهم صجون خاصة للمجرمين التابعين لأنهم . وعلى الملك أن ينفي الأوامر المضارة بالبحارة ، والتي تلزم ربانة السفن قبل دخولهم أي ميناء أن يحصلوا على تصريح من موظفي الميناء بالدخول ، ولم تنفذ هذه القاعدة الا في الحالة التي تنقدم فيها ثلاث سفن كبيرة بخلاف السفن التجارية . ومع ذلك يحتفظ موظفو الملك بالحق في

التحقق من شخصية المسافرين عند وصولهم ، ويجب أيضاً إخطارهم مقدماً برحيل السفن الجسوية حتى يتوفر لهم الوقت الكافي للتأكد من أن جميع الأشخاص الموجودين على ظهر السفينة مطعون من الالتزام بالحصول على إذن خاص من الملك بالرحيل (٨٥) .

وهكذا ففي ختام الفترة التي ندرسها ، كان الجييون قد دلوا كل مايرغبون . لقد كادوا يهاجرون هجرة جماعية مرتين ، في أكتوبر ١٣٦٤ ، ثم في فبراير ١٣٦٥ (٨٦) ، ولمحس حظهم استطاعوا في كل مرة أن يتجنبوا هذه النهاية . وكفلت المعاهدة الجديدة لجاليتم ظروفًا مريحة ملائمة كل الملائمة . وحررت الظروف للميشية لهذه الجالية في عدة مراحل : ففي البداية ، بعد سقوط عكا بقليل أولدت جمهورية جنوا « پوتستات » potestas et viscontes ، هو ماتيو (كاريا) (١٢٩٢) Matteo Zaccaria . ولابد أن هذا القلب الرفيع قد أثار في أعين الغرب الأهمية التي حظيت بها حديثاً مملكة القبرص (٨٧) (أي قبرص) ، صارت القبط الذي نال هذا القلب رئيس الجنويين كلهم في قبرص . ولجده في عام ١٣٠٠ تنظيمًا آخر ، لجنة الدان يحملان لقب rectores ianuensium in Cypro (وهما شيهان بالفصلين العموميين في سوريا في أواخر عصر الدول اللاتينية) ، وإلى جانب هاتين الشخصيتين ، أو بالأحرى تحتها حاكم rector يذكر أحياناً بقلب قنصل ، ملحق بنوع خاص بجالية لمانجوستا (٨٨) .

غير أن هذا النظام لم يدم طويلاً ، وحل محله نظام آخر نهائي . فبمنذ عام ١٣٢٩ (٨٩) وحتى النهاية ، دون اللطاع كان في قبرص يودستات ، وهو رئيس الجنويين كلهم في الجزيرة ، يعاونه ستة مستشارين (٩٠) ، ويساعده ضباط sergeants يصل عددهم إلى عشرة

(٨٥) انظر وثيقة الصبح المؤرخة ١٨ أبريل ١٣٦٥ في :

— Le Lib. jur., II, 152 et seq. Mss. latine, II, 284 et seq.

— ويذكر مافير ثلاث الرئيسية في

Machairas, Chronique, op. cit., p. 80-85 :

Machairas, p. 77,

(٨٦)

Lib. jur., II, 276.

(٨٧)

Archiv. de l'Or lat., II, 3, p. 11, 20, 24, 25 et s.

(٨٨)

Mss. Latine II, 152, Anales de Jérusalem, II, 388, Machairas, p. 82-73 et seq. etc.

(٨٩)

Off. Gaz., p. 342.

(٩٠)

حسب المعاهدة التي لخصها (٩١) ، وقرء فاماجوستا ، وتعليه المعاهدة الحق في منزل ينس على نفقة الدولة ، ويتصل برواق خارجي من طريق بوابة ، ويدير شئون كل الجنويين الموجودين في الجزيرة من تجار وغيرهم ، ويتدافع عن مصالحهم أمام موطنى المملكة ، وهو القاضي الذي يتولى الفصل في القضايا المدنية والجنائية كالسرقة والقتل والخيانة التي يكونون طرفاً فيها (٩٢) . ويشم الى هذه الوظائف العامة الإدارة المباشرة لأكبر جالية (في الجزيرة) * وفي المدن الأخرى حيث توجد جاليات أصغر عدداً ، يوجد قضاة أو مدبرون recteurs يؤدون وظائفهم بموجب اقتضاب من اليوستات *

ويبدو أن المصادقة قد لعبوا في قبرص في تلك الآونة دوراً أقل شأناً من دور الجنويين فيها ، الأمر الذي لم يمنهم مع ذلك من أن تكون منازعات كثيرة بينهم وبين ملوك الهند * وقد فتحت معاهدة عام ١٣٠٦ - الموقعة كثيراً لهم - فتحت للتجارة بين البندقية وقبرص عهداً من الرخاء السريع (٩٣) . ومع ذلك فبعد بداية حكم هوج الرابع (١٣٢٤ - ١٣٥٩) ، انشق خلاف وقتئذ : ذلك أن بيترزينو Pietro Zeno الذي كلف بأن يحمل الى الأمير نهائي الجمهورية بمناسبة ارتقاء العرش طلب في هذه المناسبة زيادة كبيرة في الحقوق الممنوحة لأمنه في القديس قبرص دون أن يقدم شيئاً في مقابل ذلك ، ومن ثم صاغ الملك اجابته بعبارة غامضة تسوية (٩٤) ولم يقبل مجلس شيوخ البندقية هذه الاجابة ، وحضر حل اتباعه الذهاب الى قبرص ، وأمر الموجودين منهم في الجزيرة بمصادرتها على الفور (٩٥) *

ولكن هوج لم يفرغ من مثل هذا التصرف القليل الاحصية . فالواقع أن المعاهدة التي أنهت الخلاف في عام ١٣٢٨ (٩٦) بهت مفاوضات قصيرة

Mss Latrin, II, 389.

(٩١)

(٩٢) لم يند لتسكية من كرز . حتى ان لوظفم المتكبي لم يند لهم من عمل سوى تليل الامكام التي يصدروها اليوستات الى القضاة العامة لتقليد مصر . وهي القضايا العامة بغيره *

Actes du Sénat publiés par M. de Mss Latrin, II, 133 et s.; l'Archiv Venet., XVIII, 313-319.

(٩٤)

Mss Latrin, II, 187 et ss.

Ibid., II, 180 ; Archiv. Venet., XVIII, 318 (extr. du livre IX des Mss.)

(٩٥)

Mss Latrin, II, 142 et s.; Archiv. Venet., XVIII, 339 et s.

(٩٦)

ليست إلا نسخة من معاهدة ١٣٠٦ مع تغييرات وإضافات لا أهمية لها .
ولم يكتسب البنادقة سوى مشاة جديدة في بالو (باغوس) (٩٧) ،
وتسنى للتجارة مع ذلك أن تستعيد سيرتها الأولى ، وواصلت نشاطها
بلا انقطاع (٩٨) فيما عدا واقعتين . ففي عام ١٣٤٩ اضطربت المشاعر
في وقت ما لوقوع فتنة لم يعرف لها سبب ، اغارت فيها عصاة مسلحة
من أمالي صقلية وقبرص رواق البنادقة في غاماجوستا (٩٩) . وفي
عام ١٣٥٠ اندلعت الحرب البحرية الكبيرة بين البندقية وجنوا ، وفي هذه
الحرب نجحت البندقية ذات مرة في أن ترسل إلى غاماجوستا قافلة من
تسع سفن تجارية مكلفة بأن تحصر منها تجارا وبصائع . عل أن مثل هذا
العمل كن عرشة لمخاطر كبيرة فلم يتسن تكراره . ولم يستتب لمن
الملاحاة بالتكامل إلا بصلح عام ١٣٥٥ (١٠٠) .

وعندما حلف بطرس الأول (١٣٥٩ - ١٣٦٩) هوج ، حملت إليه
البندقية تهانيا بمناسبة توليه الحكم ، حصلها إليه جيوفاني دانولو
Giov Dandolo وبياتاليوني باربو Pantaleone Barbo (١٣٦٠) ،
وأبدي الملك الجديد امتنعاداً أكبر من امتنعاد أبيه لتحقيق
رغبات الجمهورية ، فلم يكتب بتجديده معاهدة ١٣٢٨ ، بل منع البنادقة
امتيازاً يلقى بأن الذين يذاتون لارتكابهم جرائم قتل يجب مستقبل
الا يقدموا إلى محاكم البلد . بل يحالوا إلى قضاء الملك الذي يباشره
بنفسه ، وأصدر إلى صلاله أمراً بذلك أمراً شديداً بأن يعاملوا المعاملة
الواجبة للرعايا البنادقة كل شخص يطالب بهذه المعاملة بشرط أن
يقدم شاهدين يضمنان جنسيته ، وأن ينجزوا أوراق السفن الفينيسية
المسافرة بمجرد أن تلتق هذه السفن لوائح أمن الميناء (١٠١) . وأبدي
من جهته أنه في أن تتخذ الجمهورية اجراءاتها لمح دخول أي شخص
بصورة مخالفة للقوانين مما يسبب اضطراباً في المملكة ، ومنع أي

(٩٧) L. B-Pol, Tef. et Thomas, Der Doge Andr. Dandolo, p. 126.

(٩٨) Mes Latrie dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 90
et sa : Monum. spect. hist. Slav merid., II, 214.

- في ذلك العصر لم تكن القرائن التي تفكر كل منها من ثانی سفی دراسة حریة
(أفرادیس) والمرسله الی قبرص بالمثل .

(٩٩) Mes Latrie, dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 102
et s.

(١٠٠) Saurio, Ville del dogi, dans Minut., SS, XXII, p. 625, 640.

(١٠١) Sine Latrie, II, 229-232.

تهرب من الضرائب والرسوم • وفي عام ١٣٦١ ، أودع سيطرة الى البندقية
تحتل عدة عسكري في هذا الخصوص :

ولم يسع حكومة البندقية أن ترفض اعطاء ضمانات عن الموضوعات
التي ذكرها ، ووعدت بأنها سوف تبذل في المستقبل مزيدا من الثقة
والعناية في اعطاء شهادات الجنسية الفينيسية ، وأن ربابية صفها
لن يسمحوا بركوب دعايا قبارصة ، سواء كانوا جنودا مرتقة أو عبيدا
ليس منهم جوازات سفر ، وأن تجارها لن يشتركوا في الفس والاحتيال
بأن يصرحو ، بأن ثمة بضائع هي مملوكة لهم في حين أنها تخص أفرادا
خاصين للرسوم الجمركية • وبعد تسوية هذه المسائل طُلب السفراء
البندقيين في مقابل ذلك اعفاء مواطنيهم من الرسوم الجمركية في
البندقية كما يعنى البنداقية منها في قبرص ، ولكن مجلس الشيوخ رفض
هذا الطلب رفضا باتا بدعوى أن دولا أخرى مسرور لطلب
بهذا الاعفاء (١٠٢) •

ولم تصل المزاي الممنوحة للبنداقية بالمرّة الى مدى الامتيازات التي
منحها بطرس الأول للجنويين عام ١٣٦٥ : من ذلك مثلا أنه لم يكن
مخصصا لـ « بايلائهم » بالفصل في جرائم القتل • ومع ذلك كان وضعهم
حاما لانهم يمثلون أمة من الأمن الأكثر رعاية : فوظائفهم ووظائف
مستشاريهم الاثنى عشر (١٠٣) (الكلفين بالتدريس رسميا في كل أنحاء
الجزيرة التي يوجد بها بندقة ، ووظائف عملائهم القانونيين في بيلوسيا ،
وليميسو ، وبانو لم تكن وظائف بلا سلطة ، لأن مواطنيهم يستفيدون من
المزية التي يتيحها لهم الاعفاء من الضرائب ليزاولوا مع الحرية تجارة
تسبيطة • وكان هناك من جهة أخرى عدد من الأمور النبيلة ، نذكر منها
فقط أسرة كورتارو Cornaro اشترت في قبرص مستلزمات أقامت
فيها إقامة دائمة •

والثابت أن قبرص كانت في عهد رحلتها ملتقى السفن التجارية
والتجار الذين ينتمون الى كثير من الأمم العربية الأخرى ، ولكن ليس هناك
في ذلك أساليب مكتوبة ، وبخاصة في شأن أولئك الذين لم يكونوا ينتمون
بامتيازات وامتيازات خاصة • ولدى القوائم المتعارفة للنفوذ والموازين
والكاييل التي رأى ييجولوني ضرورة وضعها لمعد كبير من البلاد من
جهة ، وللماجوسستا من جهة أخرى ، إذ كان تحويل هذه القيم ضرورة

Ibid, II, 233-236,

(١٠٢)

Ibid, IV, 328, 232, 368.

(١٠٣)

يومية للتجارة ، لافند سوى أسماء بارليتا Barletta ، و نابولي ،
 و نيم Nîmes ، و موسلييه .

و يصيف بيجولوتي الى قائمته يابا بمصاريف النقل من هذه المدن
 الى قرص ، وبالعكس (١٠٤) ، وهذا يرهان أكيد على وجود نشاط كبير
 في المبادلات التجارية . و فيما يختص بنابولي ، نجد أيضا في متناسبة
 الأحداث النعوية التي عكرت صفو أعياد التتويج في فاما جوستا عام ١٢٧٢ ،
 أن مشيراس Meschiras يتحدث عن الأدم التي كان لها مشمشات دائمة
 في هذه المدينة فيذكر أهالي نابولي الى جانب القطلانيي و البرودسيين ،
 و الفلورنسيين .

ثانيا - مصر وسورية

أثار سقوط عكا بمساعر العالم المسيحي الغربي كله . و كما يتوقع
 اثره ، أعقب لحظة الذهول الأولى مجموعة من الاتهامات التي وجهت أساسا
 الى البلدان التجارية لأنها كانت تقيم حتى آخر لحظة علاقات تجارية مع
 مصر ، و بذلك أسهمت في زيادة «وارد العدو» . غير أن بلاط روما لم يشأ
 ان يترك ثورات القنصل هذه تتبخر في هبات لا جدوى منها ، اذ أرادت
 استئثار العالم المسيحي من جديد و تنظيم صلات صليبية جديدة .

ولا بد من التسليم بأن حملة جديدة على فلسطين أصبحت من ذلك
 الحين عملية شديدة الصعوبة لأن الفرنجة لم يعودوا يملكون لمة فيراطا من
 الأرض ، و ان جيشا غازيا سوف يجد نفسه معزولا ، لا يملك في القارة
 نقطة واحدة يرتكز عليها ، سوى أرمينيا ، وهي بلد غير صحي ، بعيد
 كثيرا عن ساحة القتال . و كان البابوات يعرفون ذلك ، و يعرفون أيضا
 فتور شعوب و أمراء ذلك العصر ، مما يشكل علة كؤود في سبيل تعبئة
 الجيوش الكبيرة التي يتطلبها مثل هذا المشروع . و من ثم أرادوا ، دون
 أن يفتنوا رؤية هذا الهدف ، أن يراعوا كل ضروب الحذر و التأنى في
 اعداد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية . و لم تموزم الاكراه ، سواء
 التي طلبوها أو التي لم يطلبوها : و نصح الرجال الذين كانوا أعرف
 من غيرهم بشؤون الشرق بالعمل قبل كل شيء على إضعاف العدو
 باستنزاف مصادر قوته و رخائه .

وللحصول على هذه النتيجة ، كانت هناك المراسيم الكنسية القديمة التي تحظر بيع أي شيء إلى المسلمين ، مما يمكن تحويله إلى أداة حربية . فإذا أمكن تنفيذ هذه المراسيم ، ومراعاتها كان ذلك كسبا كبيرا . فلذلك أنه لا كان المصريون قليل المعرفة بعلوم القتال ، لا يفهمون على العمل اعيا ، الحرب ، ضد عيا السلاطين جيوشهم باستغلال العميد الذين يشتريهم العملاء أو التجار المسلمون والمسيحيون من بلاد الشام ، وبخاصة من شغال البحر الأسود ، ويتربون في مصر على الفنون العسكرية (١٠٥) . فلو أمكن بحريم هذه التجارة بسده ، ومنحها بقارات بحرية ، لوقع السلاطين في شيق شديد ، واضطروا لتعبئة جيوشهم من مصر أقل كفاءة . وعندها تنفك ثانية هامة : ذلك أن مصر لا تنتج حديدا أو خشبا ، فكيف يتسنى للسلاطين أن يسلحوا جيوشهم ويبنوا سفنهم العربية إذا توقف ورود هذه المواد ؟

وليس هذا كل شيء : فهذا البلد (أي مصر) يقطع في كل الاتجاهات قنوات وترع ، وتجرى غالبية الحركة التجارية فيه بواسطة المراكب : ويدفن البلد بالبحر الأكبر من خصوبته لهذه القنوات المنظمة بدناية : هذه المراكب ، وهذه القنوات مصنوعة من خشب ، وهذا الخشب لا بد من استخراجه (١٠٦) . وعلى ذلك كان يكفى تطبيق الحظر الذي أصدرته الكنيسة ضد توريد الحديد وخشب البلد والأسلحة لسلاد المسلمين لأعمال القوة العسكرية في مصر ، والرخاء المادي للسكان . وحتى إذا أريد تطبيق القانون بالقوى مداه ، فلا بد أن يشمل الحظر المواد الغذائية (١٠٧) التي كانت مصر تأخذ معظمها من الخارج رغم حصوة قريتها .

وكان أولئك الذين اعتمدوا شن حرب جليقية ضد المسلمين يرون دافع الأمور إلى مدى أبعد من هذا ، فكانوا يرون ضرورتهم المسيحيين كلهم من أن يحولوا إلى المسلمين أو يحضروا من عندهم فوائده من أي

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 130, et s., 274; Saugot, Rev. (١٠٥) fidel, revue, p. 27; Haytham Hist. orient, cap. 90, 94, Péliss, p. 331 et s.; Lanson, éd. Potvin, p. 118; Todor, p. 39.

— استوف أن سلاطين مصر وتوابعهم يحرصون على صروف جزاء الحديد ، أي للحديد .

Mas Latrie, Op. cit., p. 129 et s. (١٠٦)

— انظر في هذا المرجع ملاحظات السراء الذين أرسلهم جيري الثاني ملك قبرص إلى البابا كايمنت الخامس ، في مصر جميع لبناء وملاحظات سافوتو ، في ٢٥٠ وما بعدها .

Casimiro, Mémor, II, 38 et s. (١٠٧)

نوع ، وبإختصار قطع كل علاقة تجارية معهم . وكان في عزم أولئك الذين فكروا في هذه الخطة الكبيرة أن يقتصر تطبيق هذه الإجراءات أول الأمر على رعايا سلطان مصر . غير أنه لما كان أثراك آسيا الصغرى من جهة ، وعرب البربر (١٠٨) وأسبانيا من جهة أخرى يمدسون التجارة مع مصر ، كان لا بد منطقياً من وضع حدود للعلاقات بين هذه الشعوب ، بمعنى الامتناع عن شراء بعض منتجاتهم إذا ثبت ، أو ثار الشك فقط في أن هذه المنتجات وردت مباشرة من مصر ، أو من الهند عن طريق مصر ، وبمعنى ألا تقل التجارة القديمة كما كانت ، مع فارق واحد ، هو خلق وسطاء آخرين . وبالطبع لا يجوز التمساحل مستقبلاً في وجود بضائع مصرية المصدر في مخازن جزر البحر المتوسط أو اليونان (١٠٩) .

كل هذا أعد بناء على حسابات بالغة الدقة . فالواقع أن مصر في ذلك الأول كانت تستمد جزءاً كبيراً من ثروتها من تجارتها مع الغرب ، وحاجة من حاصل المبادلات التي تتم بوسطائها بين آسيا وأوروبا . فكان توقف هذه التجارة حقيقياً بأن يقضى على أحد مصادر الثروة العامة . فضلاً عن ذلك ، كانت البضائع التي تمر على إقليم السلطان تدفع رسوم دخول وخروج مرتفعة جداً حتى إن المبالغ التي تدفعها ثلاث أو أربع سفن تساوي كمية سفينة كاملة ملها (١١٠) ، وكانت المراكب التي تنقل البضائع على القنوات والقرع تخضع لرسم يبلغ ثلاثة دنانير ذهبية ونصف دينار من كل مركب (١١١) ، ومن ثم كان توقف التجارة يحدث فراغات كبيرة في خزائن الدولة .

هذه هي الفكرة التي كانت توجه نيقولا الرابع حين نشر في العام الذي سلطت فيه عكا مرسوماً يحرم توزيع الأسلحة والخيول والحديد والخشب والواد الغذائية وغيرها للبلاد كلها الخاضعة لحكم السلطان . والا وقع على المخالفين أولاً عقوبة الحرمان ، ولأولاً الإعلان بأنهم ملعونون

(١٠٨) في النص الذي كان فيه رايون موندور Roman Montaner في خدمة لفرديناند ملك صقلية حاكم لجزيرة حرية الواقعة بالقرب من اسباجل الأندلسي بين تونس وعمر يلس (١٢٠٨ ~ ١٢١٢) . كان في تلك الجزيرة مستودع للبضائع المصرية . ولابد أن الصقليين والفاطميين كانوا ينتفون بهذا المستودع . انظر : Zurita, Anales de Aragon, Saragossa 1416, II, fol. 19.

Sauzet, p. 28 et s. (١٠٩)

Sauzet, p. 23, 25 , Ibid, p. 24 , Mias Latrie, Op. cit., p. 121, Baluze, Vices paparum Avinionensium, II 189. (١١٠)

Sauzet, p. 28. (١١١)

الى الأبد ، ومحدود من حقوقهم المدنية والوطنية ، ومن أدينتهم لأن يوسعوا أو يرقوا (١١٢) . ويجسد البابا هذا الحظر في مرسوم يابوي موجه الى سنوا ، حيث أعلن صراحة أن تحريم زيارة البلاد الإسلامية هو في معناه تحريم مطلق ، الغرض منه احصاف موارد السلطان بخرمانه من الأموال التي يحصل عليها من التجارة (١١٣) ، وفي سنوا ، اعتبر هذا المرسوم قاسما جدا *sententia durissima* (١١٤) . وفيما بعد أُلغى بقولاً الرابع الى عشر مستويات مدة الحظر فيما يختص بالمواد الغذائية ، إلا أن هذا لم يؤد الى أية نتيجة . وفي عام ١٢٩٩ مد بونيفاس الثامن Bonifacio VIII الى عشر سنوات الحظر الخاص بتصدير المواد الاستهلاكية الى مصر (١١٥) ، وصلت المهلة بعد ذلك الى مالا نهاية . ومن جهة أخرى ، وباستثناء الببند والزيت والقمح ، ألغى فان عبادة *alia quocumque mercimonia* شملت بموميتها مجموعة من المواد الأخرى التي كان يبيعها للمسلمين يعود بارتاج للتجار الغربيين . وأبقى على هذا الحظر بالقى مداه العام بونيفاس الثامن (١١٦) (١٢٩٤-١٣٠٣) . وبنا الحادى عشر Bonif. XI (١١٧) (١٣٠٣ - ١٣٠٦) .

ومع ذلك ففى هذه الأثناء أعاد الأول منهما فى عام ١٢٩٥ قوانين مجامع دينية لدية تنطبق فقط على توريد الأدوات الحربية (١١٨) . كما صرح الثانى شفاهة بأن فى إمكان البندقة أن يصعدوا الى مصر كل المواد التى لم تذكر بنوع خاص فى قراره البابوي (١١٩) . كالجسوخ

Raynald, *Annal. eccl.*, s. s. 1291, no 27, (١١٢)

Raynald, *Op. Cit.*, no. 26, (١١٣)

Annal. Jan. p. 261, (١١٤)

Bullarium romanum, éd. Taurin, IV, 162-163, (١١٥)

Bref de l'an 1297 aux évêques de Barcelone et de Tortosa, (١١٦) communiqué par Navarrete, dans les *Memorias de la R. Academia de historia*, V, Madr. 1817, p. 179, et Bulle du 16 Avril 1298, dans le *Bullarium romanum*, éd. Taurin i.c.

Bulle de 1294 (Tad. et Thom., IV, 20 et s.) communiquée (١١٧) aux Vénitiens avec avis de s'y conformer, le 5 avril de la même année (Ibid. IV, 18 et s.)

Mss. Latine, Hist. de Chypre, II, 92, (١١٨)

Commém. I, p. 20, no 166 . Registres de Bevoil XI, éd. (١١٩) Grandjean, p. 84 et s., 87, 249.

والتياب وعلى ذلك فما الذي حدث ؟ أما أن التعصبات التي وُردت في القرارات البابوية كان من طبيعتها أن تفسر بأن الحظر لا ينطبق إلا على المواد المصنفة على أنها من مواد التهريب الحربي ، وأما أن القرارات البابوية لم تنشر بدرجة كافية (١٢٠) . كذلك كان هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أن التجارة مع مصر مقبولة طالما لا تتناول سوى مواد غير ضارة بلا شك . ومع ثم لأن البابا كليمنت الخامس Clement V حين راجع هذه المدة للقيام بحملة صليبية جديدة ، بدأ في خريف عام ١٣٠٨ بنشر العديد من القرارات البابوية التي يتضح منها بصورة لا تقبل الشك أن البضائع كلها دون استثناء تقع في نطاق التحريم ، وأنذر المخالفين بمصادرة أموالهم ، وفقد حريتهم ، وتسليمهم كرتيق لمن يقبض عليهم ، ووصيهم بالصغار وما يقترب على ذلك من نتائج ، بالإضافة إلى الحكم عليهم بالحرمان الكنسي الذي لا يمكنهم التحلل منه إلا بالتنازل لمصالح الحملة الصليبية مما حصدوا عليه من مكاسب من تجارتهم غير المشروعة ، وبشرط أن يحصلوا بذلك على إذن خاص من البابا (١٢١) .

ويبدو أن هذه الأعمال تمت تنفيذاً للمصالح التي أمدها وطورها البندقي مارينو سبانتو الكبير Marino Sanuto l'ancien الملقب بتورسبينلو Torsello في الكتاب الأول من مؤلفه *Secreta fidelium crucis* : ويكفي في الواقع أن نذكر أنه إذا كان المؤلف الذي يشكل هذا الكتاب جزءاً منه لم يتم إلا في عام ١٣١٣ ، فإن الكتاب نفسه قد تم وضعه قبل ذلك بزمان طويل : إذ سرد بين شهر مارس ١٣٠٦ وشهر يناير ١٣٠٧ ، ووجهه مؤلفه في صورة مذكورة أن البابا كليمنت الخامس (١٢٢) ، وكان تأثره إذن واضحاً كل الوضوح .

ولما استفسر البابا في هذه الآونة الرئيس الأكبر لرهبان المعبد مولاى Moay ، ، سرد هذا مذكورة موجزة تنتهي بأنه يجب أن يلغى على الأمل العجارية أن تولف تجارة تعود بالربح على

(١٢٠) Sanuto, p. 31 ; Voyez aussi le manuscrit de Sanuto d'Encrem, publié par M. Kuntmann dans ses Etudes sur Marino Sanuto l'ancien.

(١٢١) Encyclopédie du 12 oct. 1808, dans Taf et Thom., IV, 74 et s., brefs épiscopaux dans les Commém. reg., t. p. 69, no 381, et dans Reynolds, Annal. eccl., a. 1808, no 38.

Kuntmann, Op. cit., p. 708 et s.

(١٢٢)

المسيحيين (١٢٣) • وقد عرض ريمون لول Raymond Lulle
في كتابه بعنوان De fine الذي كتبه في مونبلييه عام ١٢٠٦ أفكارا
مماثلة على رأيه أنه يكفي أن يمتنع المسيحيون ست سنوات فقط عن
شراء توابل من المصريين ، والا يورثوا بعامّة الاسكندرية أو سورية ،
وذلك لا يقطع الحراب بالسُلطان وأميراطوريته حتى تغدو الحملة الصليبية
«شروها خاليا من الصعوبات» (١٢٤) •

ولابد أنهما أن البابا كان على علم بتاريخ الشرق الذي كتبه في
أستس عام ١٢٠٧ الأمير هينتون Hayton (Hothoun) وليس دير كهنة
يوالبيه Premonite de Poliers (١٢٥) . فهو أيضا يوصي -
كأعداد فعال للصليبية - بالتخلّأ إجراءات تستهدف إيقاف
التصدير إلى مصر ، من شأنها بالضرورة حرمان هذا البلد من المددات
الحربية وكمية من أشياء أخرى ، ومع ذلك لا يسأل في منطقتي إلى حد
تحرير التجارة بحرياً تماماً (١٢٦) • ويعدّ بضع سنين ، وعنده عرض
موضوع الحملة الصليبية على مجمع ليينا الديني (من أكتوبر ١٢١١ إلى
مايو ١٢١٢) ، طلب كليمنت الخامس رأى هنري الثاني ملك قبرص في
الحملة والاستعدادات اللازمة لها - وتوضح المذكرة التي قدمها إلى
المجمع سفراء الملك ، بأزمة ملحة بها كيف أن « المسيحيين الأكرين »
أسهموا في إنشاء مقاومة سلطان مصر بإمداده ليس فقط بالمددات الحربية،
ولكن أيضا بسواد أخرى ، وانتهت بتحريم كل تجارة مع هذا البلد (١٢٧) •

لكن كيف يتسنى الوصول إلى هذه النتيجة ؟ لقد رأى كل الصان
أن تهديدات البابا على قدر شدتها لم تكن كافية • وقال الأشخاص الذين
استمعوا في هذا الشأن بضرورة تجهيز حشر مسلح حربية تجول
باستمرار في البحر المتوسط ، وخاصة بين آسيا الصغرى ومصر ،
وتهاجم في عرض البحر ، وتطارد عند الضرورة إلى الموانئ السفن

Behre, Vita papar, Avinion, II, 180. (١٢٢)

M. Kontmann, Op. cit., p. 788 et s. (١٢٤)

R. Lulle (Hist. du commerce, II, 192) فإن ر. لول (١٢٠٦) أفكارا والمقرحات نفسها • ومع ذلك
يكون قد قدم كتابا يبيّن الرابع في عام ١٢٨٨ أفكارا والمقرحات نفسها • ومع ذلك
فإن الصليب التسليم بأنهم «الهكرا» في وضع خطة لحرب صليبية عامة قبل سقوط مكاء •

Histoire littéraire de la France, LXXV, 481. (١٢٥)

Historia orient., cap. 86. (١٢٦)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 118 et ss.; Mas Latrie, (١٢٧)
p. 128 et s.

التجارية المسيحية أو المسلمة التي تطبق متبسة بجريمة الاتجار مع هذه البلاد . ولما كان من المتوقع الاستيلاء على شالم كبيرة ، فيجب لاستشارة حماية البحارة ، مع عدم صرف مرتبات كبيرة لهم أن تترك لهم الضائم كلها . ويجب ألا يتولى تدوين هذا الأسطول إحدى الجمهوريات الكبيرة أو إحدى الممالك التي تدارس نوعا من التجارة ، كما لا يجوز أن يكون قائمها من رعايا واحدة من هذه الجمهوريات أو الممالك ، إذ يخشى ألا يهجم إلا الأجانب ، ويترك مواطنيه يهرون بسلام فيستفيد هؤلاء فائدة مضاعفة : كما لا يجوز أن يتولى هذه الوظيفة أي شخص يخشى أمرا من جانب الأمم التجارية (١٢٨) .

كل هذا قد فهمه نيقولا الرابع ، قبل كليمت الخاس ، وقبل وفاته بقليل أصدر أمرا إلى فرسان القديس يوحنا ، وفرسان الهيكل بأن يجهزوا سفريين سفينة في مياه قبرص ، لحماية هذه المملكة ، ومملكة أرمينيا ، ومعاربة المسلمين والقبض على كل سفينة تحاول الوصول إلى بند خاضع لسلطان . وبعد وفاته (١٢٩٢) عكف الكرادلة على تحقيق رغبته ، وكلفوا مانويل زكاريا بتشكيل أسطول يتولى قيادته ، وأن يزود الأسطول بالثمنى سفرة سفينة ، ويزوده مواطنيه الجنوى تديزيو جوريا Tedizio Doria بشمالي سفن . وفي البداية خلق بوندسات جتوا بعض المصائب ، وعند هذين النبيلين بفرامة لأنهما قبلتا أن يؤديا خدمة في الخارج دون تصريح منه . ومع ذلك حصل الكرادلة على طموح هذين الجنويين لما بدلاه من إلحاح وتهديد ، وبإل الإنسان . إذا بالالتحاق بفحمة الكنيسة لسعة واحدة (١٢٩٩) ، وارتحلا هل رأس . سفريين سفينة انضم إليها في قبرص خمس سفرة سفينة أخرى ، وخمها الملك تحت تصرفهما : وبهذه القوات مضيا يستعرضانها أمام كانديلوو Candelloro والإسكندرية ، دون أن يحصلا على نتيجة فعالة (١٣٠) .

وبعد هذه المحاولة الأولى ، جرت محاولة ثانية على ما يبدو في عام ١٢٩٣ يست سفن فينيسية مجهزة على نفقة فرسان الهيكل لحماية قبرص (١٣١) . وبعد قليل الغيث هبسة فرسان الهيكل ، ووددت .

Samrt., p. 27-31; Mas Latrie, II, 118 et sq.; Baluze, Op. cit., (١٢٨)
p. 179 et sq.; Reim, Louis, cité par M. Kuntzmann, Op. cit., p. 722.

Annai, Jan., p. 342, (١٢٩)

"Annai, p. 332, " (١٣٠)

Annai, Jan., p. 382, (١٣١)

وسمايتها هيئة فرسان القديس يوحنا . وفي عام ١٣٠٨ عهد إليها اليانبا
 كليمنت الخامس صراحة بمراقبة القسم الشرقي من البحر المتوسط ،
 وضبط المسيحيين الذين يتجرون مع مصر ، وكفل لها إعانات مالية
 خاصة لهذه الغاية (١٣٢) . وتولت هيئة فرسان القديس يوحنا مقرها
 الرئيسي من قبرص إلى دوحس (١٣١٠) ، ولم يهمل مع ذلك المهمة التي
 عهدت إليها (١٣٢) ، ومن ثم نشأ كما سنرى نزاع شديد بينها وبين
 جنوا ، ومن جهة أخرى طارد ملوك قبرص بسفنتهم السفن القرية التي
 تصادفها على طريق مصر ، في الذهاب والأريه . وألبس سفراء ذلك
 هنري الثاني في مجمع فيينا الذي (١٣٤) بأن السعى الحربية القبرصية
 أصرت على هذا البحر عددا كبيرا من السفن التجارية ، وضربوا مثلا لذلك
 سفينة جنوية أسرمت أثمرا ييئسا كانت مبحرة من آسيا الصغرى إلى
 مصر وعليها شحنة من خشب البناء (١٣٥) ، وأضافوا أنه لم يجرؤ
 السلان على الخروج من قبرص أو من الموانئ المجاورة في هذا الاتجاه
 خشية الوقوع في أسر سفن الملك الحربية التي كانت تؤدي مهمة كفلها
 بها اليانبا نفسه . يبدو إذن أن سافوتو لم يكن على صواب قائم حين كتب
 أن ملك قبرص قام بمهمة جولات بحرية في مسلكه الحربية دون أن
 يتعرض له أحد (١٣٦) وتابع هوج الرابع سياسة سلفه ، ولما استعكت
 جمهورية جنوا من الانسداد التي لحقت ببعض زحايها ، يرد ذلك بأنه
 لم يعمل سوى « كلفه أوامر كنيسة روما » .

وأخيرا (١٣٧) ، يبدو أن بعض البلاطه مارسوا أيضا عمليات

Reynald, a. s. 1208, no. 34; Paoli, II, p. 19, 21. (١٣٢)

Mss Latine, Hist. de Chypre, III, 623; Aboukédès (Annal. Muséum, éd. Bédair, V, 211. (١٣٣)

Mss Latine, II, 181 et ss. (١٣٤)

(١٣٥) نجد مثلا آخر من هذا النوع في رواية لفرع كاتاني : Capmany, II 274 et s. :

في شهر يوليو عام ١٢٠٠ ، قبضت أربع سفن حربية قبرصية على سفينة من ماجورا
 مملوكة بالها خاصة إلى مصر ، في حين أنها كانت قادمة كاتانيا . انظر أيضا
 Capmany, II, 274 et s. :

(١٣٦) ص ٣١ ، ملحوظة حاشية : يبدو غالباً أن هؤلاء السفراء كانوا يشيرون إلى
 الكتاب البابوي الذي حرم اليانبا بوليفاس الثامن إلى ذلك في عام ١٢٩٩ . انظر :

Reynald, a. s. 1299, n. 38.

Mss Latine, II, 186. (١٣٧)

— ترجم هذه الوثيقة إلى عام ١٢٢٩ . ولكن في عام ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ استلم ذلك من
 اليانبا يوحنا الثاني والمقررين أوامر جديدة للتصرف :

Reynald, a. s. 1222, no. 12, 1224 no 43.

المطاردة هذه باسم الكنيسة : فهل كانوا يستجيبون دائما ليوامته
دينية ، أو يسمعون فقط للحصول على مكاسب مادية ؟ مثال ذلك أنه

في عام ١٢٠٣ جال شخص يدعى ماريو بولجارو *Marino Bulgaro*
وهو في الغالب جنوي النشأة ، في مياه جزيرة كريت ، ومطارد كل
السفن المتجهة الى الاسكندرية (١٢٨) كانت هناك إذن لحظة حرجية
بالنسبة الى أهم الغرب التجارية : فالطريق الجنوبي ، ذلك الذي يقر
صانوكو بأن أوروبا تتدفق منه الجزء الأكبر من ثوابل الهند ، كان يميل
أنه أصبح غير صالح بالمرة ، وكانت الكنيسة التي طالبت بتحريم
استخدامه في التجارة قوية (١٢٩) ، فما هو الموقف الذي اتخذته
الأمم التجارية وراء مراسيم البابوات ؟ هل أدخلت على تقريرها دون
مناقشة أحكاما تحظر على التجار زيارة البلاد الخاضعة لسلطان ؟ هل
قبلت من طيب خاطر الاجراءات التي أمر بها الكرسي الرسولي (الماتيكان)
وتستهدف إلغاء التجارة ؟ هل هي مجموعة من الأسئلة التي سنبحاول أن
نجد اجابة لها .

ولتبدأ بإسبانيا التي ارتلى فيها جيمس الثاني *Jayme II* .
عرش أراجون في فترة صالوط هناك تقريبا ، ولما حكمت عليه الكنيسة
بالحرمان ، وأحاط به الأعداء من كل الأنحاء ، لم يفرود عام ١٢٩٢ في
تجديده معاهدة التحالف التي كان قد أبرمها منذ هذه سنوات مع سلطان
مصر ، مثلما فعل من قبل أخوه وسلفه الفرنسي الثالث : وفي المعاهدة
الجديدة ، لم تمس الشؤون الخاصة بالعلاقات التجارية (١٣٠) .
وفيما بعد ، حتى نال طمو البابا بونيفاس الثامن ، تمهد بالفداء بالالزام
الذي يفرضه عليه نفيه : « حارس العلم ، وكاتب ، وأميرال عام الكنيسة
الرومانية » بالمسئل على إعادة فتح الأرض المقدسة (١٤١) . وفي
عام ١٣٠٢ ، أصدر ، من أجل الحرب ، وشرف خدمة الكنيسة ابروالية
المقدسة قرارا يحرم بصفة عامة على رعاياه كل تجارة مع البلاد الخاضعة
للسلطان (١٤٢) ؟ وكان ذلك تنفيذا لبوصد الذي أعطاه . ولم يكن هذا
القرار - حسبما يتبين من عباراته نفسها - لم يكن استثناءا للبرابيسم

Taf. et Them. inéd. ; les commémorati. p. 40, no. 170. (١٢٨)

*Mos Lafrin : Archiv. des missions scient. II, 3746-Makrizi, (١٢٩)
dans de Sacy, Chrestom-arab. II, 48 ; Wolf, Gesch. der Chalf. IV,
220, 226.*

Camphny, IV, 17-18. (١٣٠)

Raynald, a.n. (207, nos 18 et 19. (١٤١)

Navarrete, dans les Manuscrits, 1.c., p. 160, et s. (١٤٢)

السابقة التي يطل معلولها بسبب ضعف المقويات التي توقع على القديسين ، فلم يكن الأمر إذن سوى مراسيم صارت من قبل شبه ترويد مصر بالعتاد الحرى .

ويمكن القول بأن هذا الحظر الجديد لم يكن في خاطر الملك أكثر جدية من سوابقه ، ويمكن تأييد هذا الرأي أن نستعرض مع فابريوس Wapponus نوعين من الرقائع ، هتاك أولا « دبلوم » (مرسوم) لهذا الملك ، في عام ١٣١٥ يتضمن قائمة بالسفن المسجلة عند مدخل ميناء برشلونة ومخرجه (١٤٣) ، ونظرا على رأس القائمة أسماء السفن المبحرة إلى مصر : وينبغي تفسير عبارة ultra mar على هذا النحو ، على الأكل بما للغة المتعولة في ذلك الحين ، وعلى ذلك كثبت التجارة مع مصر بموجب وثائق رسمية ، ودون جدال . ويمكن الرد على ذلك بأن عبارة ultra mar ذات معنى مطاوع : ففي عصر الحروب الصليبية كانت هذه العبارة تنطبق بوجه عام على الرحلات إلى ميسورية ، طالما كانت رحلات إفرنجية ، كما استخدمت كثيرا في جهات أخرى بمعنى أوسع ، فتفصل عندئذ مصر وميسورية وأرمينيا الصغرى وقبرص . وعلى ذلك ، ففي الحالة التي لدرسها لا تكون هذه العبارة دالة على الدواخل الملكي . وثانيا ، لما كان جيسس قد أولفه الكثير من السفارات إلى السلطان ليحتفظ بصداقته ، فالراجح أن المصالح التجارية قد عولجت أكثر من مرة ، على الأكل معالجة ثانوية ، فير أن عناصر الإطساح في شأن هذه البقطة الثانية لا وجود لها بالمرّة .

فالمطابان اللذان عهد بهما الملك إلى سلالته في عامي ١٣١٤ ، ١٣٢٢ والموجهان إلى السلطان الناصر محمد لا يحسويان إلا على عبارات للجمامة ، ولا يتبين منهما الغرض الحقيقي من مهمة أولوفد (١٤٤) ، إنما الكفارات الخاصة بالمهمة فإنها لا تتحدث إلا عن تسليم بعض المسيحيين الأسرى لدى المسلمين ، أو عن تدخل لصالح الكتائس المسيحية الكائنة في القليم السلطان (١٤٥) . ولكن ما هي ذي واقعة ثابتة : ففي كل مرة يسافر فيها سفراء ملك أراجون (وأغلبهم من أهالي برشلونة) إلى مصر ، كان يجهز لهم سفينة إلى برشلونة ، ولما كان الملك يهتم برضاء حسنة المدينة ، فلما ترك مثل هذه الفرصة تمر دون أن يعطى بعض التجار - مقابل عوض - إذنا بأن ينتهزوا هذه الفرصة فيرسلوا إلى مصر ، أو

Capmany, II, 78 et ss.

(١٤٣)

Ibid, IV, 64 et s., 73 et ss.

(١٤٤)

Navarrete, p. 182 et ss; Capmany, IV, 80.

(١٤٥)

يحضروا منها كمية من البضائع ، فيما عدا المواد الموسوعة في كل الأزمان
بطبيعة الحال ، وكان أحيانا يطلب ترخيصا خاصا من البابا (١٤٦) .

وفي أواخر عهدته تخلى عن كل فكرة لحرب صليبية ، لذلك فسخ
مراعاته لقواعد الخطر التجاري ، كان يبدى مزيدا من التسامح مع المذنبين .
من ذلك أنه في السنة السابقة لنهاية حكمه ، أوقف سير المحاكمة التي
بدأت ضد يورجوازي من يروشونة اتهم بقتل بضائع من قبرص إلى مصر ،
واكتفى بالحكم عليه بفرامة قدرها ٢٥٠٠ صول * sol: (١٤٧) .
ويذكر البعض أمثلة أخرى لقرارات « بعلم وجود وجه لاقامة كالدعوى
الصومية » أصدرها خلفاء جييس ، الفونس الرابع ، وبطرس الرابع لصالح
تجار اتهموا بأنهم ذهبوا إلى سوريا (إلى بيروت أو دمشق) عن طريق
قبرص لأعمال تجارية (١٤٨) .

وأخيرا ، في عام ١٣٣٨ ، وبالحاج من بلدية يروشونة ، اتخذ بطرس
الرابع خطوة حاسمة ، إذ أمر بإيقاف كل المحاكمات التي بدأت ضد الذين
تأجروا مع البلاد الخاضعة للسلطان ، والإمتناع مستقبلا عن محاكمة
أفعالهم (١٤٩) . والحقيقة أن هذا القرار لم يوقف سوى الإجراءات في
المحاكم المدنية ، فلم يكن من سلطة الملوك رفع الأحكام الكنسية بالتوبيخ
والحرمان ، وكان لهم على أكثر تقدير أن يتوسطوا لصالح دعييتهم الذين
صدر ضدهم قرار بالحرمان (١٥٠) . وسنعود لعود إلى هذه المسألة
فيما بعد ، ويكفي حاليا أن نقاب موقف ملوك أراجون في عهد الظروف .

Documents des années 1305, 1317, 1321 dans Nivarteta, Op. (١٤٦)
cit. p. 182-185.

* ذات مرة ، وكان البحر المتوسط يرمقه القراصنة ، رأى جييس الداعي من القسوة
أن يصحب سفله سليمان حريشان جلفا . بأن من البابا ، في غصة العجالة .
Capmany, IV, 79 et s.

١٤ في عام ١٣٣٧ ، اندردا فرصة مرور سفارة فرنسية ذائعة إلى مصر عن طريق
يروشونة .

— Nivarteta, p. 18 et s .

(١٤٧) وثيقة بتاريخ أول أغسطس ١٣٣٦ في ١

(١٤٨) وثيقة بتاريخ ١٣٣٥ في ١

Mss Lettre, Hist de Chypre, III, 720 et ss.

— Mss Lettre III, 782; de 1338, Ibid, 734.

Capmany, II, 107-109; Ibid IV, 86 et s. (١٤٩)

(١٥٠) مثلما فعل . عن سبيل المثال الفونس الرابع في عام ١٣٣١ ١

Capmany, IV, 86.

ومن الملائم في شرح هذا الوضع أن نبيّن أن أكبر مدينة تجارية في
 صقلتهم كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال يتيح لها أن تسمح الناس
 كلتهم عند الأزمات . فإذا هي لم تبه رأياً يصراحة ضد حظر التجارة ،
 فاتها لم تتوان في السعي لإلغاء هذا الحظر ، وفي هذه الأثناء لم تستدع
 بالمرّة جالييتها في الإسكندرية ، وتركت قصصيتها في تلك المدينة . وبعد
 انقضاء عشرة أعوام على سقوط عكا ، نجد فيها بالعلم قنصلاً للقنصلين ،
 تخاطبه بلدية برشولة ، هو وأميير الجمرق فتوصيهما بهودجوازي له مطلب
 قديم يريد تحقيقه في الجمرق (١٥١) . ويمكن الاعتراض بأن المثال الذي
 ذكرناه يسبق بسنة قرار جيمس بالحظر العام على ممارسة التجارة .

ولكن لا نجد أثراً لإلغاء الفصلية ، حتى في تواريخ لاسقة ، بل على
 العكس نجد في عام ١٣٢٢ راهباً فرنسيسكانياً أيرلندياً ، هو سيمون
 سيمونس Simon Simons ذاهباً للبحث في بيت المقدس ، فيمر
 بالإسكندرية ويوجد بها إلى جانب الفنادق الجنوبية ، والفينيسية ،
 والمرسلية ، الخ فندقاً قطائولياً ، ويتأصل لهذه الجنسيات المختلفة .
 وكان هذا الراهب مسافراً مع تجار غربيين ، ورأى تجاراً آخرين يعلنون
 الفنادق ، وجعل يلاحظ أسلوب معيشتهم (١٥٢) . وبخلاف هؤلاء السكان
 القسيسين بصفة دائمة ، كان الفندق القطائولي يستقبل من وقت لآخر تجاراً
 من برشولة ، لم يكن في وسعهم دائماً الحصول على إذن من البابا
 أو الملك ، ولكنهم يداخرون بمخالفة الحظر ، معتمدين على حيلهم في اللزوم
 دون أن يلحظهم أحد ، أو على حصولهم على أرباح ضخمة يستطيعون منها
 دفع الغرامة إذا ضبطوا . وكانت بلدية برشولة أقل صرامة من الملك
 في مثل هذا النوع من مخالفة التوالج .

ومنه أن نلّ البايوات مقامهم إل فينيون Avignon أصبحت المدن
 التجارية في جنوبي فرنسا تحت أيديهم تقريباً . فهل ترون معرفة
 ما كانوا يفعلونه بقرارات الكنيسة بحظر التجارة مع مصر ؟ اليكم بعض
 الأمثلة : سيمون سيمونس الذي ذكرناه منذ حينها ، أتاه من ١٤ إلى
 ٢٢ من أكتوبر ١٣٢٢ في فندق المرسلين بالإسكندرية (١٥٣) . وفي
 غضون رحلته في عام ١٣٢٣ علم أنه بالخارج من بوردجوازي من مونبيلييه

Capmany, II, 372 et s.; Appendice, p. 86.

(١٥١)

Itineraria Synodus Simonis et Willelmi de Worcester ed.
 Nasmith, Cantuar, 1778, p. 19-22.

(١٥٢)

Ibid., p. 21.

(١٥٣)

يعني جويوم بونمان Guillaume Boncamain ابن السلطان الناصر محمد الذي كان منه قليل قد اعتنق المسيحية إلى ما يقرب من ، أدن بإعادة فتح كنيسة مساننا حاريا دو لا كاب Santa Maria de la Cave بمصر القديمة (١٥٤) . والثابت من بعض الوثائق أن بونمان هذا لم يكن من مواليد موليبييه ، وإنما هو من فيجياك Figeac ، ورغم أنه ينتمي إلى طبقة التجار ، فإنه قبل أن يتولى من ١٢٢٧ إلى ١٢٢٩ باسم « شيسارل الجميل » Charles le Bel ملك فرنسا مهمة تتعلق بالدفاع عن مصالح المسيحيين بمصر . وقد طلب تصريحاً بذلك من البابا يوحنا الثاني والعشرين ، ولكنه لم يركب السفينة وحده ، بل كان في رفقة تجار من قطالونيا وجنوب فرنسا ، انتهروا فرقة سقراطهم ، فحملوا معهم سلماً لبيعها في مصر (١٥٥) .

ولقد رأينا من قبل ، في الفقرة السابقة تجاراً من جنوب فرنسا ، وبخاصة بورجوازيين من مرسيليا يمارسون التجارة مع مصر . وكان أيضاً من أهالي جنوب فرنسا أولئك الذين كشفوا سر الاجتماعات المشبوهة التي انعقدت في ليون بين « فيليب الجميل » Philippe le Bel والبابا كليمنت الخامس لهذه القيام بحملة صليبية ، فطردوا السلطان ، وبأدروا بتزويدهم بأدوات حربية ، وعبيد ، الأمر الذي كان مبرراً لإصدار مرسوم ٢٨ أغسطس - ١٣١٢ الذي جدد به الملك الحظر ، واستنكر هذه الأعمال التي لا تليق باسم المسيحي (١٥٦) .

ولابد أن الموقف الذي اتخذته الجمهوريات التجارية الإيطالية كان له تأثير قوي على هذه الأزمة ، وهذا شيء واضح ، فلننظر أولاً في موقف جنوا . فبالتأثيرات الأعمال التي سببها سقوط عكا (في ١٨ من مايو ١٢٩١) ، وربما أيضاً تحت ضغط النداء الذي وجهه البابا إلى الجنوئين مباشرة (في ١٢ من أغسطس) يستعظم فيه على حمل السلاح لتخليص الأرض المقدسة ، وقطع كل علاقة تجارية مع مصر (١٥٧) ، اضطرت جمهورية جنوا أن تقرر بوجه عام تحريم التجارة مع ولايات السلطان . والواقع

Ibid., p. 58

(١٥١)

Nauwreut, L., p. 186 et s.; Let., dans la Bibliothèque de l'École des chartes, 4 série T.V. (1886), p. 503 et s. et 2, XCXVI (1895), p. 528 et s.

Ordonnances des rois de France, I, 178; ordonnance de St Louis (1254), Ibid. XI, 381.

(١٥٦)

Raymond, s.a. 1291, noy 28-29.

(١٥٧)

أنه في خلال هذه السنة حكمت السلطات الجنسوية بالترامة على شركة ليركاري Lercari التي أرسلت بضائع من جنوا الى الاسكندرية في سفينة مسلحة ، وذلك لمخالفتها الرسوم الذي أصدرته الهندية ، وعصيان أوامر البابا (١٥٨) .

وبعد وقت قليل ، استولى تيديريو دوريًا ، وهو نفس الشخص الذي دخل فيما بعد مع مائويل زكاريا في خمسة العائيكات ، استولى ، ربما بأرادته الشخصية على سفينة بيزية كانت عائدة من الاسكندرية بشحنة ثمينة وتجار من بيزا ونابليون ومرسيليا وغيرها ، وأعلى القضاة الجنويون أن السفينة ثمينة لمن استولى عليها ، باعتبار أن القوانين الكنسية ترخص لأي انسان أن يقيض على أي شخص منلبسًا بحريمة الاتجار مع مصر ، ويحتفظ به عبدا له ، كما يحتفظ ببضاعته ملكا له . ومع ذلك ففي هذه المرة أبدت رغبة في العفو عن هؤلاء التجار ، فأطلق سراحهم ومسم جزء من بضائعهم (١٥٩) . يبدو إذن أنه في البداية تبنت جنوا بالكامل آراء الكرسي الرسولي ، ومن ثم نرى أكثر البابوات حساسة في ذلك العصر ، هو كليمنت الخامس يهتله دون قيد أو شرط (١٦٠) ، تقول مع ذلك أنه لا يوجد بين قوانين جنوا التي بقيت مطبوعة الى يومنا هذا قانون يحرم بصفة عامة التجارة مع مصر ، في مستهل القرن الرابع عشر .

وقد رأينا من قبل القانون الوطني الذي تكون بالتدريج في غضون القرنين السابقين ، وطبق في مستعمرة غلطة (١٦١) . هذا القانون لا يحتوي بالمرّة على أي نص يحمل على الافتراض بأن الخطر القديم يتصديق مصداق حرية الى مصر قد امتد فيما بعد ليشمل سائر المواد التجارية ، بل نجد فيه على العكس من ذلك ، ودون أي تغيير ، نص مرسوم لعام ١٢٩٠ يلزم الأسلحة وحدها باعتبارها بضاعة محرمة (١٦٢) .

نستخلص من ذلك أنه اذا كان لدى جنوا الرغبة في قطع علاقاتها بالكامل مع مصر ، فانها لم تثبت طويلا على هذه الرغبة . ففي عام ١٣٠٤

Annal Jan, p. 238.

(١٥٨)

Annal Jan, 341.

(١٥٩)

Penil, Cod. dip. dell'ordine gesoesino., II, 88.

(١٦٠)

Statuti della colonia Genovese di Pera, editi da Vinc, Promis (١٦١)
dans les Miscellanea di storia italiana, XI, 1876, p. 513 et sq.

Ibid, p. 739 no CC, Canale Nuova storia della repubblica di (١٦٢)
Genova, III, 172.

الذي نسق فيه أكبر جزء من القوانين التي شكلت مجموعة قوانين Péra وبالتأكيد في عام ١٣١٦ ، تاريخ آخر القوانين المنقحة بهذه المجموعة ، عادت الحال إلى ما كانت عليه قبلا ، وبقيت الأدوات الحربية هي وحدها المجرمة . نجد التحفظ نفسه في الـ *Devetum Alexandria* بتاريخ ١٩ من مارس ١٣١٦ ، وهو قانون يطبق بنوع خاص في غبطة وكاللا *Caffa* كما نجده في الرسوم الثالث بتاريخ ٣٠ من ديسمبر ١٣١٧ ، والمحور بنوع خاص لجنوا والريفيرا ، وأجيرا في *Devetum Ispenias et Barbaria* بتاريخ ١٨ من مارس ١٣٤٠ ، والجريمة الوحيدة المقصودة والتي تستحق العقوبات المنصوص عليها في كل هذه القوانين هي توريد الحديد ، وخشب البنية ، والأسلحة ، والعبيد من الجنسين للمسلمين في الشرق أو الغرب (١٦٣) . فهل كانت هذه العقوبات تطبق دائما بدقة ؟ انه لسؤال هام . فلو طبقت كذلك لما وجد البابا يوحنا الثاني والعشرون حبيبا كافية لتعزيز شكاويه ضد الجزويين الذين يتهمهم بمراة بمساعدة الكفار ، (بقصد المسلمين) بتريخهم بالعبيد والعتاد الحربي ، والعيش مع السلطان في جر من الورد والصفاء (١٦٤) .

وعلى كل حال ففي جوا لم تكن القوى الكفيلة من قبل البابا بالقيام بجولات في البحر المتوسط لمطاردة المسيحيين الفجار تعتبر بمثابة قوافل متعاقبة ، وإنما بمثابة أهداء . من ذلك أنه في شتاء عام ١٣١١ إلى ١٣١٢ أمر فرسان هيئة القديس يوحنا سفينة جنوية عائدة من الاسكندرية تحمل خمسة من التوابل ومواد أخرى ، وللفور أبصر سفير جنوي ، هو أنطونيو مينيولا لمطالبة بتسليم السفينة ، إلا أن الفرسان رفضوا تسليمها دون إذن من البابا ، ومع ذلك وعدوا بأن يطلقوا قرارا من الفاتيكان في أقرب وقت عن طريق ممثلهم . واستشاط سبينولا غضبا ، وذهب إلى آسيا الصغرى مع رفاقه الجنوبيين ، وقابل السيد منتيشيه *Mentschie* التركماني (١٦٥) ، وطلب منه القبض على تجار يودس وغيرهم من دعاة هيئة القديس يوحنا الموجودين في إقليمه والقائهم في السجن ، ويبدو

Les Mouvements hist patr., Léves municipales, p. 271-277 , (١٦٦)

Raynald, a.a, 1217, no 36 ; Guili Adoe Demodo exilipandi (١٦٧)
Berecenas,

Madachias, le Mandachia de Samso (Hépt. chroniques (١٦٨)
greco-romanes 145 (167) ; Ducas p. 13, 66, 106, Laon Chalcoz, p. 65 et a.
163, 244 ; Samso Lt., p. 167.

**أنه قد عرض عليه إعانة مالية قدرها ٥٠ ٠٠٠ دينار ذهبي أن هو كذا
جزيرة رودس وفرد الفرسان منها ***

ولم يكتف سيبيلولا ورفاقه بذلك ، فقد التفتوا في عرض البحر بعدد
من الفرسان فأسروهم ، وقرروا ألا يخلوا سبيلهم إلا في مقابل فدية •
وكان شريفا أن يصدر هذا التصرف من سفير ، ولكنه يعلم أنه يستند على
حكومته ، آية ذلك أنه بعد أن انتظر الأشخاص المنولدون من قبل انهينة
ليطالبوا الجمهورية أن تعترف بسطوتها ، أكثر من شهر دون أن يقابلوا
أحدا من المسئولين ، اضطروا إلى العودة كما جاءوا ، ولجأوا إلى البابا الذي
أرسل إلى جنوا تعينا شديدا ، وألزمها بإطلاق سراح فرسان رودس
بلا فدية ، ومعاقبة المواطنين الجنوبيين الذين ارتكبوا هذا العدوان الأليم
ضد هيئة الفرسان ، وأن يتنحوا عن التحالف مع الأتراك (١٦٦) •
ولسنا نعلم ما تم في هذا الأمر •

واستولى ملك قبرص أيضا على سفن جنوية فاجأها على طريق مصر ،
عند ذهابها أو عند عودتها ، وتصرفت جنوا معه مقلدا لتصرفت مع فرسان
رودس • وفي عام ١٣٢٩ ، وبناء على اقتراح الملك عرض النزاع على تحكم
البابا يوحنا الثاني والعشرين ، وأصدر البابا حكمه في عام ١٣٣١ ، فحكم
من جهة على الملك بأن يدفع للجنوبيين تعريضا قدره ١٠٠ ٠٠٠ ديسينار
ببزيطي ، وحكم من جهة أخرى على الجنوبيين بأن يتنحوا تعريضا عن الطليقات
المضادة التي قدمها الملك في حدود هذا المبلغ (١٦٧) •

وربما تسائل عما إذا كانت المستوطنة الجنوبية في الاسكندرية
حازلت موجودة في هذه الفترة المرحلة : والإجابة على ذلك سهلة ، لما نعرفه
عن موقف الوطن الأم : فإن كانت قد زالت ، فإن ذلك لم يكن ليحدث
إلا في السنوات الأولى التي أعقبت سقوطها ، وهذا غير محتمل ، وعلى
كل حال فهناك وثيقة جنوبية بتاريخ ٤ أكتوبر عام ١٣٠٤ (١٦٨) تثبت
أنه كان يوجد في هذه الفترة قنصل جنوي يقيم في الاسكندرية ، اسمه
جيزولفو دى جيزولفى Obisolfio dei Ghisolfi • كذلك رأى سيبون

Le bref du pape Clément V, du 26 nov 1312, dans Paoli, Cod., (١٦٦)
dip., II, 31-32; Mas Latrie, Hist de Chypre II, 31-33; Sarrasin, Secs.
Hist. cruc., p. 31.

Mas Latrie, Op. cit., II, 166 et s., 172; Raynald, s.a, 1331, (١٦٧)
no 30.

Taf. et Thom., IV, 31.

(١٦٨)

ميميونيس في عام ١٣٢٢ في الاسكندرية قنصلية جنوبية وقنصلها جنوبية منتظمين كما كان الحال من قبل .

أما فيما يخص بيزا ، فإن اللوائح التنظيمية لهذه المدينة تزودنا بمعلومات مزدوجة . فمن جهة ، تجسد لوائح ادارة التجارة البحرية لعام ١٣٠٥ ، ١٣٢٢ الأوامر القديمة ضد توريد الأدوات الحربية لمصر (١٦٩) ، بينما تتحدث هذه اللوائح من جهة أخرى بوجود قنصلية بيزية في الاسكندرية عام ١٣٠٥ ، مما يعني بالتالي وجود حالة بيزية بها . فضلا عن أنه قد طُبق في هذه الآونة المرسوم القديم الذي كان يقضي بالزام الانفصال بأن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا ايرادات لفرن ابحالية البيزية . وذلك للانفاق منها على شحنة تكريما للقديسة ماري (١٧٠) .

ولستقل الآن الى جمهورية فينيسيا . فليس في الامكان القول بالقطاع علاقتها بمصر حتى الوقت ، في الفترة التي أعقبت مباشرة سقوط عكا . حقا أن المصادر صامتة في هذا الشأن ، ولكن من الثابت أنه كان لديها بواصت للفتن من السلطتين : فقد وقعت في الأمر في غزة سفينة تجارية فينيسية (كانت غالبا قد هربت من عكا وبها شحنة ذات قيمة كبيرة تتكون من معادن نفيسة مسكوكة ، أو في شكل سبائك) أرسلت السفينة الى القاهرة حيث احتفظ بها كغنيمة (١٧١) .

كذلك كان في سجون القاهرة منذ عدة سنوات مواطنون بنادقة سقطوا في أيدي المصريين اما وقت الاستيلاء على عكا ، أو في ظروف أخرى (١٧٢) . ومع ذلك فإن كان هناك فتور في العلاقات فإن ذلك لم يدم وقتا طويلا . ففي عام ١٣٠٢ ، بعد انقضاء أحد عشر عاما فقط على سقوط عكا حضر سفير بندقلي من جديد في بلاط مصر ليطلب بالأساليب المتأداة تجديد الامتيازات القسطنطينية ، وكان يدعى جويو دي كانتال Guido de Canal (١٧٣) ، وسامه الملك الناصر محمد الذي ارتقى العرش آنذاك للمرة الثانية دبلوماسيا (اجازة) يؤكد الامتيازات التي منحها

Benut Ined. Pic., éd. Bousniel, III, 426, 678.

(١٦٩)

Ibid., III 395.

(١٧٠)

Mas Latrie Traité de paix et de commerce, Suppl., p. 88 et 89.

(١٧١)

Commun., I, 115 et s., Taf. et Thom., IV, 88, Commun., I, 102.

(١٧٢)

Archiv. Vernet, XVII, 134, XIX, 110.

(١٧٣)

تلاوون (١٧٤) ، ووافق أيضا ، بناء على اقتراح رئاسة الجمهورية
 Seignorio بإقامة فرانكيسكو دي كانالي Francesco de Canale
 قنصلا للتبغية بالإسكندرية ، كما تبارك عن صف إيرادات الجمارك
 عن البضائع التي تنتمي لرعايا بنادقة في حدود المبلغ المستول عليه في
 غزة (١٧٥) .

والواقعة جديرة بالاهتمام لأن حكومته كانت تبدو تبديرا شديدا
 حتى انه لم يكن في وسعه أن يستعنى عن إيرادات الجمارك . وكان من
 بين أنواع المستوردة التي تخصص في احضارها التبغ ، تلك المواد
 المطلوبة أكثر من غيرها ، وكان يبيعها للمسلمين محظورا على مسيحي
 الغرب .

وقررت الاجارة كذلك اعانة لتوريد هذه المواد ، وذلك بالترخيص
 بخروج البضائع المشتراة بجمهورية بيع هذه المواد دون دفع أية
 رسوم (١٧٦) ، ويبدو أن هذه الفقرة لم تثر أي اعتراض من قبل السفير
 الهندي ، وربما لم تنح له فرصة للاعتراض . فضلا عن ذلك ، كانت
 الجمهورية تراعى بدقة تطبيق أحكام المخطر . ووجد جويديو دي كانالي الذي
 عين دولا كريت بعد ستة من انتهاء مهمته في مصر ، وجد نفسه مضورا
 لتطبيق التاميم التي صدرت حديثا بحظر تصدير الرقيق خارج دائرة
 حكومته : لثمة عدد من الرقيق ابتيعوا في القسطنطينية لارسالهم الى
 مصر ، وجيء بهم الى كريت في سفينة جنوية ، فاحتجزهم ، واعترض على
 ارسالهم الى مصر . وكان هذا التصرف من قبل السلطة يتسبب في ثغوب
 حرب ، فقد طالب أمير الاسكندرية بتسليمه الرقيق ، فرفض طلبه ، ومن
 ثم اعتقل القنصل اللينيسي ، فعين بايجرايو فينير . Pasquale Vener
 بدلا من فرانكيسكو دي كانالي ، ولكنه رفض أن يدفع له المرتب كما جرى

(١٧٤) لقد انتهز الذي سمع تلاوون ، وليس عددا من سوري هراخ . بعض سوريا ،
 صيف تكلم عنه فيل يند .

(١٧٥) - انظر تاريخ الولايات الاربعة التي حرمها جويديو دي كانالي في نهاية
 سلاوة بعد ٦ و ٢٢ من ثلث الكسك عام ٧٠١ م . أي بين ٢ و ١٨ من أغسطس عام
 ١٢٠٢ م ، ونظر في :

— Max Laïché, *Traditions*, append. p. 82-83, et dans *Taf.* et *Thom* IV, 8-32
 — Max Laïché, p. 88; *Taf.* et *Thom*, p. 10; *Amari, Dipl. prob.*, p. 484,
 no. 32.

Max Laïché, *Op. c.*, p. 82, no. 2; *Taf.* et *Thom*, IV, 8. (١٧٦)

العرف (١٧٧) . وفي عام ١٣٠٤ أوفد سفير يملك اسمه حيواني مورازنو Giovanni Serrano إلى مصر ليحاول في الغالب تسوية هذه المشكلة ، والمعتقد أنه حقق هذه الغاية (١٧٨) .

وهكذا يتبين من دراسة الوثائق التي استقينها منها المعلومات السابق ذكرها أنه تماقبت على الاسكتندرية من ١٣٠٢ إلى ١٣٠٤ قنصلان بندقيان . وثمة واقعة أخرى تؤكد وجود هذه القنصلية ، ذلك أنه في حوال هذه الفترة ، وعلى الأصح بين عامي ١٣٠٣ ، ١٣٠٧ نوكش في مجلس الشيوخ الفينيسي مشروع لائحة خاصة بالقنصل الذي يعين في هذا المنصب ، ولسمو الحظ لم تحصل على نص هذه اللائحة (١٧٩) . فإذا كان هناك قنصل ، فذلك لأنه توجد جمالية من التجار من واجبه أن يدافع عن مصالحها . كما نلاحظ في تلك الأونة وجود عدد المبحرين بالقنصل بندراجيزو لينير (أو مستشاريه) يملفوا سبعة من مواطنيه في الاسكتندرية omnes mercatores Alexandrie (١٨٠) .

وكانت التجارة البحرية وقتئذ في أوج نشاطها : فثمة سفن حربية وتجارية ، مسلحة أو غير مسلحة تبحر إلى الاسكتندرية ، ودمياط ، ونيس ، وتعود منها ليس فقط بمنتجات مصر ، كالكتان ، والبلح ، والصبر ، وأوراق السنا (١٨١) ، ولكن أيضا بمنتجات من الشرق الأقصى ، كالقنبل ، والزنجبيل ، وشجر البقم ، والقرقة ، والبطور كانت هسلو التجارة تعتبر مشروعة طالما أنها تتناول أشياء غير مخزومة . وصلحت في تلك الأونة بدمان السفن التي تعمل على خط مصر لوائح جديدة تحدد مواعيد الإقلاع ، والشحنات ، ومدة الإقامة ، الخ (١٨٢) .

ولم يثبت البنادقة أن حاولوا أيضا تثبيت أقدامهم في سوريا . وكانت غالبية الأماكن التي ازدهرت فيها تجارتهم فيما مضى قد أصبحت

Taf. et Thom., IV, 23 et ss. ; Commens. reg., I, 40 et ss. (١٧٧)
no 170, 183 et s., 187, 218 et s. 221: Rubriche del Migh, dans l'Arch.
Venet., XVIII, 59; XIX 111 et s., XX 298 et s.

Taf. Thom., IV, 31 et s.; Commens. reg., I, p. 47, no 218; (١٧٨)
Arch. Vénét., XIX, 111.

Arch. Venet., XIX, 111, XX, 294. (١٧٩)

Taf. et Thom., IV, 22. (١٨٠)

(١٨١) أوراق جنس من الشجر تستعمل لعلاج الاسهال (الترميم) .

Arch. Venet., XVIII, 218 ; XIX, 108 et s., 111 et s. (١٨٢)

اطلالا مهجورة • ومع ذلك لم يكن المصريون قد اتوا فتح القسم الشمالي من البلد ، واداً بالبنادقة يطلبون امتيازات لرعاياهم الذين يريدون الذهاب الى هناك • ومنحهم السلطان ثلاثون الامتيازات التي طلبوها (١٢٨٨) واعلن انه يتولى حماية اشخاصهم واموالهم ، ولم يطلب منهم في مقابل ذلك سوى دفع الضرائب والرسوم العادية (١٨٤٢) •

وفيما بعد ، حين لم يعد للدول الصليبية وجود ، ولقت البندقيّة علاقاتها بالامير الذي يتبعه القسم الأكبر من فلسطين • ولم تعد عكا مركز الثقل السياسي للبلد ، بل صار هذا المركز هو صيدا ، وهو موقع حصين في جبال الجليل لغير بعيد عن طبرية ، اختاره السلطان بيبرس بعد الغزو مباشرة ليحصل منه معقلا من معقل الاسلام (١٨٤١) • وكان الأمير الذي يعينه السلطان في هذا الموقع يحكم من هناك باسمهم شواطئ عكا وصود وصيدا وجزء من سورية حتى دمشق (١٨٤٥) •

وفي عام ١٢٠٤ دار النان من البنادقة فرانسيسكو فيرمافوس Francisus Firmicus ، وقسطنطينوس Constantinus أمير صيدا من قبل النروج الذي كتبها برسالة شفعية للأمير • ونحن لا نعرف اسم هذه الأمير ، ولكننا نعرف فقط لقبه Baylus et admiralus castelli de Safet : et omnis contracto Accon : وبعد أن تلقى الأمير تعليمات السلطان بالمرسمة ، كتب هذه باللغة العربية في خطاب يوجه الى النروج • وفي هذا الخطاب نقرأ أن رعايا النروج يمكنهم الحضور الى ممتلكاته ، في أمن تام لاشخاصهم واموالهم ، وأنه اذا أراد البنادقة أن يزوروا قبر السيد المسيح ، فانه يزودهم بعمرس يرافقهم ، يذهبون ويعودون معه في امان والا كان منهم من يريد الاستقرار في اقلية فانه يكلل له الحماية والمعاملة الكريمة (١٨٦٦) •

ثم ان البنادقة لم ينتظروا اتمام هذه الترتيبات فارسلوا سفنا الى سورية • ففي عام ١٢٠٠ ولقت سفينة منها عند عودتها في اسر يسطى

(١٨٨٢) هذا هو البندقي الذي فتح القاهرة في ٢٩ من شوال ٦٨٧ هـ • (٢٦)
نوفمبر ١٢٨٨ م • لغيره أراد مرة السيد ماس لافري :

— Mes Latris, Trésor, suppl., p. 81 et ss.

Well, Gesch. d. Chail., IV, 85, 88-89.

(١٨٤٢)

Burchard, de Monte-Sion. éd. Laur., p. 34, Ricoldo de Monte (١٨٨٢)

Croca, ibid., p. 106; Frescobaldi, p. 182; Jacques de Ydrone, dans Rapprochement et Mémoires, Deutsch-Pilgrims, p. 62; Aboulz, Géogr., II, 2, p. 22, Chemseddin Dmichid, p. 288 et ss.

Taf. et Thom., IV, 39 et ss; Archiv, de l'Or., lat., I, 408-408.

(١٨٦٦)

«الفراسنة (١٨٧)» وفي محاضر جلسات مجلس الشيوخ في ذلك الحين ، دون ما يأتي Galcos Syriac الى جانب Galcos Alexandriac وكانت الكينيسية تزور مواسم اليلد وتبكت بها كما كانت تعسل في الماء ؛ وشاهد هناك أيضا من فردية ، بعضها غير مصلح ، وكان مجلس الشيوخ يسمح للنسب الحربية المتجهة الى قبرص بالمرور في طريقها على سوريا (١٨٨) .

كل التصرفات التي ذكرناها آتت تحت عزم الحكومة الكينيسية على الاحتفاظ للتجارة الوطنية بأسواق مصر وسورية ومع ذلك ، حين عامي ١٢١٣ ، ١٢١٧ ظهر مرسوم لمجلس الشيوخ يحظر على مواطني البندلية ان يذهبوا بانفسهم أو ان يصدروا بضائع الى ممتلكات السلطان الواقعة بين دمياط وپورتيللا Portella . ولم يبق لسوء الحظ النص الكامل لهذا المرسوم ، وكان موجودا في الكتاب الرابع من ال Mistl الذي لا يوجد منه سوى قائمة بالموضوعات ، وقد ذكر بايجاز في أربعة مواضع مختلفة من هذه القائمة (١٨٩) ، ويختلف شكل التنويهات من موضع الى آخر ، ويتجمع المواضع الأربعة ، يمكننا إعادة تشكيل عنوان المرسوم كما يلي :

«Non eatur nec mittatur aliquid ad terras Soldani scilicet a Domistata usque ad Portellam Armenios per ripariam sub penali prohibitionis»

ولنتريث برهة عند هذا النص ، ونحاول تحليله . نرى أولا أن أهم الأسواق التي يتردد عليها التجار الغربيون في امبراطورية السلاطين ، وهي الإسكندرية بقيت خارج نطاق الحظر ، والأمر كذلك بالنسبة الى دمياط . لأن عبارة «a Domistata usque ad Portellam Armenios» تفسر بمعنى أن البلقانيين المذكورين ليستوا ضمن الأقاليم المحظورة دخوله . فالواقع لا يمكن أن يقرأ على ذهن الجمهور أن تفرض الحظر على الأبواب القبلية ، وهي مقر مكتب جمرك أرمنى واقع خارج سيادة السلطان .

وعلى ذلك اذا كان في فكر واضع المرسوم أن جمرك الأبواب القبلية ليست ضمن المنطقة المحظورة ، فإن دمياط لم تكن كذلك ضمن هذه المنطقة . ومن ثم فالبيانان اللذان كان الغربيون يستولون عن طريقهما

Comm. I, p. 13 no 44.

(١٨٧)

Archiv, Venet, XVII, 280; XVIII, 818-817; XIX, 103 et s.

(١٨٨)

Ibid, XVIII, 82, 817; XIX, 108, 112.

(١٨٩)

في أهم ممتلكات السلطان ، بقيا كما كانا من قبل معترحي البنادقة .
ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتا نهر النيل ومعنى ذلك
أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوي من أملاك السلطان ،
ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتا نهر النيل ؟ ومعنى ذلك
أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوي من أملاك السلطان ،
ولم يكن الغرض منه على ما يبدو واصحا الحاق الضرر بالكفار (يقصد
المسلمين) بقدر ما كان يتفيا وضع التجار البنادقة وبضائعهم بعيدا عن
الأساطير التي قد يتعرضون لها في سوريا ، لأن هذا البلد كان آنذاك مسرحا
لحروب داعية متواترة بين المصريين والمماليك (١٩٠) .

ولم يكن التفاهم الودي بين البندقية ومصر في تلك الآونة بالذات
يمكر صفوة شيء ، حتى ان أمير الاسكندرية أطلسق سراج كل المسجونين
البنادقة الذين كانوا تحت سلطته ، وذلك بناء على طلب الدوج جيوفاني
سورناترو ، وكفل للتجار البنادقة احسن حماية ، وارسل هدايا الى
الدوج (١٩١) .

وفي روما ، اعتبر هذا الاتفاق الودي بين البنادقة والمسلمين أمرا
يقضي الى أقصى درجة . وسمى الدوج لدى البابا ليحصل منه على تصريح
للبنادقة بأن يصعدوا الى مصر دحبا وفضة وقصديرا ونحاسا وأصبوا
وزعفرانا ومواد أوروبية أخرى وتميزوا لطلبه ذكر التصريحات الشفوية
التي أعطاهما سوا الحادي عشر (١٩٢) والتي ذكرناها من قبل ، بل انه
أذن لسفرائه بأن يقدموا في نظير الترحيحي المطلوب مبلغا كبيرا يحصل
الى ٥٠٠٠ دينار اذا لزم الأمر ، كل ذلك دون حدود (١٩٣) . فبدلا
من أن تستسلم الإدارة البابوية ، أصرت أكثر من ذي قبل أن ينفذ بقسوة
القانون في البندقية الحكم الذي يصدره البابا ضد كل شخص يزاول أي
نوع من التجارة مع المسلمين .

ونعلم أنه تبعا لأوامر كليمنت الخامس ، يوقع على المغالطين أشده
المقوبات الكنسية ، وكان محظورا على من ينتقلون الاعتراف أن يستحوهم
الفرانج ، الا اذا وافقوا على أن ينفذوا لحزاة الكنيسة أو يتخذوا الإجراءات

Wall, *Gesch. d. Chalf.*, IV, 300 et ss. (١٩٠)

Littera domini Hermodini d.d. 13 Raboe 717 (1317) dans *Taf.* (١٩١)
et Thom, IV, 103.

Commenz, I, p. 183 et s., nos 84, 85; Archiv, Venet, XIX, 112 (١٩٢)
Archiv, Venet, XXIV, 310.

الاقتصادية (المختصة بالصحية) الكفيلة بأن يدفع ورثتهم خسارة الكنيسة
صالح تساوى المبالغ التي استثمروها في تجارتهم مع المسلمين ، ولما كان
البداقة ضمن الذين يزاولون هذه التجارة بنشاط كبير ، كانت الغرامات
التي يطلبها منهم الكرسي الرسولي تصل إلى أرقام هائلة ، فتساوى أحيانا
مجموع الأموال التي يتركها المتوفي ، وبالطبع كان الوردة ومنفذو الوصية
يجدون هذا الأمر قاسيا للغاية ، ولا يدعون له بسهولة .

وللتغلب على مقاومتهم أوفد البابا يوحنا الثاني والعشرون إلى البندقية
أديمار تارجا Adhémar Targa كبير كهنة سانت الفريث Sio Affrique
(أسقفية فاير Dioc. de Vabres) الذي أصبح من ذلك الحين عميد تول
Tulle ، والراعي النوميبيسكي فولكو Folco من سيسترون Sisteron
(de Sisterico) (١٣٢٢) ، وكانت مهمتهما أولا تحصيل
المبالغ المودعة أو المبرورة بوصايا لتسلم إلى الكنيسة ، ولكنها لم تدفع
حتى ذلك الحين ، وثانيا للحكم بحرمات كل البنادقة المعروفين جهارا بسزاولة
التجارة مع المسلمين : ويجب عليهما قبل أن يمنحاهم الغفران أن يستوثقا
من صحة توثيقهم وأهم دفعوا الغرامات المحكوم بها عليهم (١٦٣) ، وبالتفعل
أصدر تارجا قرارات الحرمان ضد عدد كبير من النبلاء البنادقة ، وضد
نواب كنيسة القديس مرقس الذين يتدخلون عادة من يتولون منفذهم
لوصاياهم ، هذا الفصل من قبل محكمة كنسية أجنبية في البندقية يست
لرياسة الجمهورية تمسلا لا يستعمل ، ومن ثم دعت إلى الاجتماع لجنة مكونة
من رجال الدين والقانون ، وأعلنت اللجنة أن تارجا قد تجاوز سلطاته ،
وأنه من المناسب وقف تنفيذ العقوبات التي حكم بها .

وحررت المقاطعة وعلى رأسها النوج وعدد كبير من الأربد احتجاجا
قدم إلى البابا الذي كلف بالتطبيق الميريك Almeric (Almeri) (١٩٤)
أستف رافينا Rovenna ، ويسلو أن الحكومة الفينيسية كانت تريد أن
تضع حدا يقضي بإبادة ترويد المسلمين ببضائع لا تساعد على إساءة قوتهم
الحرية ، إلا أن يوحنا الثاني والعشرين أعلن أن هذا الاقتراح مفسد.

(١٩٢) Ibid, p. 230, no 361 ; p. 267 et s., no 406; p. 280, no 413;
p. 289, no 369.

(١٩٤) Ibid, p. 230, no 361 p. 257 et s., 110 406; p. 280, no 413.
Taf. et Thém IV, 190 et s. : Archiv Venez. XXIV, 313 , Opere, T.
III, Helmet 1793, Cecchetti, La repubblica p. 45 et s., Bartolommeo
Veneda et la corte di Roma nei rapporti della religione, I (Venez, 1874),
p. 286 et s.

(١٣٢٦) (١٩٥٠) ، ورجع بدوره القوي المبدأ العكسي . ووضحت البندالية
لنضبط الترتيب على وجود مندوبين من الكرسي الرسولي ، وأصدر مجلس
البريجادي Pregadi والكوارانتا Quaranta بالاتفاق فيما بينهم في
١٨ من يناير ١٢٢٢ مرسوماً يقضي بوجه عام بحظر التجارة مع مصر ، ومع
كل البلاد الخاصة للسلطان ، ولم يرفع هذا الحظر ربما طويلاً . ففي عام
١٣٥٠ ، ١٣٧٤ أعيد فرضه بعامات أنشده صرامة على موظفي
المستعمرات (١٩٦) .

وربما يفسر هذا السبب في أنه في غضون تسع سنوات على الأقل ،
ابتداءً من نشر هذا المرسوم لم يمرض على مجلس الشيوخ اللوائح الخاصة
بالتجارة مع مصر (١٩٧) ، وكذلك السبب - وهذا شيء عجيب - في أنه
في شهر فبراير ١٣٤٥ تبين لسلطان مصر أنه منذ ثلاث وعشرين سنة
لم ير أحد في امبراطوريته سفينة تجارية فينيقية (١٩٨) . ولقد امتد إلى
لزمٍ طويل الشك في إمكانية حدوث توقف طويل بهذا القدر في العلاقات
التجارية بين البندنية ومصر ، وتذكرت أنه في عام ١٣٢٧ طلب الموج
جيوغالي سوزانزو من يوحنا الثاني والعشرين الإذن بإرسال ثلاثين سفينة
كبيكة وعشر سفن نقل لأحضر بضائع من مصر ، وأن يرسل إليها كذلك
في كل من الخمس السنوات التالية ثلاث سفن تجارية تنقل من جزيرة
كريث (١٩٩) .

غير أن هذا المثال إنما يثبت شيئاً واحداً ، ذلك أنه إذا كانت الجمهورية
قد خضعت للقوة فقبلت أن تصدر تشريعات بالخطر ، فإنها لم تباي
مع ذلك من أن توجه لنبايا من حين إلى حين طلبات بترخيصات استثنائية .
أما معرفة ما إذا كانت قد حصلت هذه المرة على ما تريد ، فهذا أمر آخر ،

(١٩٥) Commem., I, p. 272, no 488; Cilla, Storia dello studio di Padova, I, ed. et as : commo, I, p. 280 no 361, p. 287 et a., no 404; Archiv, Venet., XVII, 127 et a., XIX, 112; XXIV, 212-215.

(١٩٦) Instruction pour un conseiller nommé pour l'Is de Crète, (1380), publ. par M. Thomas Abh. d. bayr. Akad., Cl. I, XIV, sect. I, p. 215. Commission d'Andree Gradenigo, balle de Constantinople (1374), publ. par M. Diehl, dans les Mélanges d'archéol. et d'hist. de l'Ecole française de Rome, 3e Ann., 1882, p. 120.

(١٩٧) تبين علم الرواية من مطالعة مخطوطات كتيب القسوسة :
— Archiv, Venet., XIX, 112.

Taf. et Thom IV, 281. (١٩٨)

Ibid., 203 et a.; v. Archiv, Venet., XIX, 112. (١٩٩)

يو لاجد في أية جهة ما يثبت أن البابا منحها الترخيص . ينبغي ادد التسليم بأن السلطان قال الحقيقة الواقعة .

وعنها بدت هذه الواقعة لأول وهمة غير صحيحة ، فاما ملاحظ أنها ليست كذلك إذا تفكرنا في أمرين : أولا أن في إمكان البنادقة أن يوصوا إلى حد ما عما يقصدونه من ناحية مصر ، بمضاغفة رحلاتهم إلى الجزرات وطبرون وتانا ، لأن هذه الامور بقيت مفتوحة لسفنها ، ثانيا ، أن التوقع المؤقت للحركة التجارية مع مصر لم يتضمن كتيحة مباشرة قطع كل علاقة بهذا البلد . فقد رأى سيمون سيديويس في الاسكندرية في شستاء عامي ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ حالة تجارية فينسية ، وقدمانية فينسية (٢٠٠) ، وهكذا ظلت هذه الحالة موجودة ، ولو في ظروف أكثر صعوبة . ولا شك أن أعضاءها احتملوا بملاقات غير مباشرة مع الوطن الأم ، وكان يكفي لذلك تحويل البضائع عن طريق قبرص ، أو كالديا ، أو أرمينيا الصغرى .

ومع ذلك فقد جاء وقت أصبح فيه الالتزام بالامتناع في رسال السفن الفينيسية إلى مصر ثقيلا الوطأة على البنادقة . كان ذلك في عام ١٣٤٣ ، فقد حدث شقاق بينهم وبين سيد تانا لم يلبث أن التخلط طابع العنف ، وسوف نعود إلى الكلام عنه فيما بعد ، ونتج عن ذلك أن أصبح الطريق الشمالي الذي تسلكه تجارة الشرق غير صالح للاستخدام لمدة طويلة ، وفي الوقت نفسه وقعت أحداث سياسية قلبت أحوال فارس ، وانعدم الأمن على الطريق الأوسط الذي يجتازها . ولم تبق وسيلة أخرى سوى إعادة فتح الطريق الجنوبي الذي يمر بمصر . وبعد قليل من كارثة تانا أوفد الدوج مارينو غالبيرو ، وأندريا كورنارو في سفارة لدى البابا كليمنت السادس للدفاع عن قضية البنادقة الذين كانت التجارة عماد حياتهم ، وكان من شأن هذه الأحداث أن تؤدي بهم إلى لخراب .

وفي ٢٧ من أبريل ١٣٤٤ صرح البابا لفترة خمس سنوات برسالة ست سفن كبيرة ، وست سفن تقل إلى الاسكندرية وسائر الأنداح التابعة لمسلمين مصر بشرط ألا تحمل سوى بضائع مسووح بها . وفي سبيل الحصول على هذا الترخيص لم تتورع الجمهورية عن توزيع هبات سخية على حاشية البابا . وما أن استلمت الترخيص حتى قام وفد جديد إلى القاهرة (١٣٤٤) ، وكان السفير نيكولو زينو Niccolò zeno مكلفا

بالتفاوض مع السلطان الملك الصالح اسماعيل (١٣٤٢ - ١٣٤٥) م.
 شأن منح مواطنته امتياز جديد .

وأبدى السلطان تسامحا ، ورحب بجموعة من الرغبات التي
 قدمها السفير باسم بعض التجار البنادقة (فبراير ١٣٤٥) . وفي
 الخطاب المرفق بالامتياز ، طلب منهم العودة بكلطمشان الى الاسكندرية
 ودمياط . وما كان بيكولو تزينو يرحل ، حتى حلفه سفير آخر ، هو
 انجيلو سيربي Angelo Serbi . وعند عودة هذا السفير الى البندقية
 أحضر معه خطابا من اسماعيل بتاريخ ٦ أغسطس ١٣٤٥ يوجه به
 السلطان وعده بأن يحسن وفادة التجار البنادقة ، وبأنه للجمهورية بأن
 تقيم قنصل لها ، ليس فقط في الاسكندرية ، ولكن أينما تشاء (٢٠١) .
 وعندما تم تسوية الأمور كلها من جانب كل من البابا والسلطان ،
 أرسلت البندقية بعثة أولى من سفينتين كبيرتين لكل منهما حمولة كبيرة
 غير عادية (١٣٤٥) . وأقلمت البعثة وحل رأسها سورانزو سوزانزو
 Soranzo Sotanzo (Superamitus Superantio) الى الاسكندرية وحل ظهر
 السفينة فحصل جديد للجالية الفينيسية بهذه المدينة (٢٠٢) ، سلمه
 مجلس الشيوخ تعليمات اضافية بوضع حد لتصرفات سيئة شاعت في
 الجالية ، وتذليل بعض الصعوبات الآتية من الخارج . وفي هذه المناسبة
 وضح للمجلس قواعد جديدة لصالح السفين التي تبحر الى
 الاسكندرية (٢٠٣) .

وقد يبدو أنه من تلك الآونة عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبلا :
 ولكن ذلك لم يكن الا في الظاهر . فمن حيث الجهد لم يرفع الخطر على
 التجارة ، وبماستثناء بعض الحالات التي منح فيها البابا بعض التراخيص ،
 باذن خاص ، أقيمت محكمة الفينيون بشدة على الخطر . وفي الاصل كان
 لهذا الموقف ما يبرره : فقد كان يجري بهمة اعداد حملة لغزو الأرض
 المقدسة ، وكان من الضروري اخضاع العدو بقطع موارد قوته ، وأسباب
 صيفته . غير أن الباباوات ، باحذرهم على الاتفاق على الخطر في حين كان
 الأمل في حرب صليبية جديدة يتشاكل شيئا فشيئا ، ومع أن أحد أبطال
 الخطر الشديدي التحمس له ، وهو مارينو سائوتو الكبير أبدى للنصح

Taf. et Thom., IV, 306 et s.

(٢٠١)

Dandolo, Le., Leur du Monac., l.c., Sanuto, l.c.

(٢٠٢)

Taf. et Thom., IV 306 et s., Biblioth. de l'Ecole des
 chartes, XXXV (1874), p. 101.

(٢٠٣)

منذ زمن بعيد (١٣٢٦) بالكف عنه (٢٠٤) ، تحالفوا (أى الباباوات) أو استخفوا بالمفريات التي حدثت في الموقف بمرور الزمن ، ولم يصح الأمر من حينهم سوى عماد وأمانة يستحقون عليهما اللوم ، العرض منها بسماطة اجبار الأمم التجارية على السعي لاكتساب الحظوة لديهم ببدل الهبات شرائهم أو لحاشيتهم .

وقد أعطيا لينا سبقا مثلا لذلك ، وهاكم مثلا آخر : ذلك هو اتصال المخالصة الذي حرره أمي حرانة البابا بمبلغ ٩٠٠٠ دينار ذهبي دفعه في عام ١٣٦١ الدوج جيوفاني دلفينو Giov. Delfino تعبيرا عن شكره من أجل ترخيص منحه البابا (٢٠٥) . ويبدو أن حرانة البابوية كانت وقتئذ في سبيل الحاجة الى هذا المبلغ . غير أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد : فالتراخيص أصبحت سلعة حقيقية تتداولها الأيدي . من ذلك أن رخصة منحها في البداية البابا اينوسنت السادس للشخص يدعى جيراردو دي روستيفيللو دي ديه ، تنازل عنها هذا لبعض الجنوبيين ، وأخيرا دفع أحد سكرتيري دوج البندقيسة عن نصفها بمبلغ ألف « دركا » (٢٠٦) . وفي هذه الحالة كان الأمر يتعلق بسفينتي شحن . ولكن في مرة أخرى بلغ الثمن المطلوب للحصول على رخصة بازسال ثلاثين سفينة كبيرة وعشر سفن شحن الى مصر ١٢٠٠٠ دينار ذهبي ، علمه الرخصة منحها البابا كليمست السادس لقريه جيروم روجير التسلت Guillaume Roger III كونت بوفور Beaufort ولويسكونت تودين Taureau (٢٠٧) . وهو من أمسي ملاك جنوب فرنسا ، ولالينور دو كومانج (دو كونفيس) Aimer de Comminges (de Comenac) زوجته . ولكن البابا كان يعلم تمام العلم أن أملاك الكونت بعيدة عن البحر ، وأنه لا يستطيع أن يستخدم الرخصة بنفسه . وعلى ذلك كان لابد للرخصة من البداية أن تنتقل الى أيدي أخرى ، ثم أن البابا أذن للكونت بذلك صراحة على الرخصة ، وذهب الكونت الرخصة للشخص يدعى مستيفانوس دي

Epist., à la suite des sac. fidel. cruc., p. 207.

(٢٠٤)

Commun. reg., II, p. 351, nos 244, 245, 246, p. 319, no 323; p. 329 no 241

(٢٠٥)

Commun., p. 323, nos 256, 266.

(٢٠٦)

Anselme, Hist. générale de la maison royale de France. 3e éd., VI, 317

(٢٠٧)

باتونو نظير خدمات أدائها هذا اليه ، وباعها ستيغافوس هذا لنجوج
البندقية (٢٠٨) .

وبالإضافة الى الأعباء المالية التي تفرضها هذه الأمور على الأمم
التجارية ، كان هناك إجراء مفيض : ذلك أن البايوات كانوا يقرنون بكل
رخصة شرطاً يقضي بأنه قبل انقلاع السفينة التي منح الترخيص من
أجلها ، كان على صاحب الامتياز أن يؤكد بقسم يؤديه أمام أسقفه عدم
وجود أية أدوات حربية ضمن الشحنة ، وعلى الأسقف أن يستوثق بنفسه
من صحت القسم (٢٠٩) . وهكذا لم يكن يكفي البابا أن البندقية قد
أدرجت في تشريعها حظر نقل الأدوات الحربية الى بلاد المسلمين ، بل
فرض أيضاً رقابة صارمة على السلطات الكنسية .

وفي عام ١٢٥٩ ارتكبت في البندقية مخالفة لهذا التحريم ، ولتحال
سحب البابا اينوسنت السادس كل التراخيص التي منحها من قبل لصر
وسوريا ، هو أو أحد أسلافه . وبالإجمال كان البايوات يعتبرون تراخيصهم
قابلة للسحب في أي وقت ، وكثيرا ما كانوا يلغون حظرا كليسا على
التجارة ، أحيانا بمناسبة ارتكاب مخالفة ، كالتى ذكرناها ، وأحيانا عند
تصوب معاركة بالإسلمة بين المسلمين والمسيحيين (٢١٠) .

وقد نثير دغلي اذا ذكرنا في الرخص التي حصل عليها البنادقة ،
وبخاصة في فترة معينة (من عام ١٣٦٤ تقريبا) حيث نتابع صدورها
بانتظام تقريبا من عام الى عام ، وأحيانا كانوا يحصلون على عدة رخص
في عام واحد . وكانت هذه الرخص كثيرا ما تشمل عددا كبيرا من
السفن . ويبدل البنادقة قصارى جهدهم ليستفيدوا منها بالكامل ، وكانوا
من جهة أخرى يمتنعون بإخلاص في ألا يتجاوزوا العدد المرحس لهم من
السفن ، أو المهل المحددة (٢١١) .

وإذا كان البنادقة قد استطاعوا يبدل المال ، وطيب القال لتفليل
الصعوبات التي نجمت عن الحظر الذي استنته الكنيسة على التجارة :

réfées publiées par M. Thomas dans l'Archiv. Vaut. XVII, (٢٠٨)
89-123, d'après les commémorati V, Mas Latris, Hist. de Chypre, III,
compléments, p. 749 et s., et dans les Doc. inéd. Mélang. hist. III,
186-188.

Taf. et Thom., IV, 278-307, Commem. reg. II, p. 320, no
241; III, p. 42, no 227; p. 70, no 452. (٢٠٩)

Commem. reg., II, p. 305, no 183, III, p. 48, no 274. (٢١٠)

Commem. reg., II, p. 337, nos 116, 117. (٢١١)

فانهم لم يكونوا أقل براعة في المحافظة على علاقاتهم الطيبة بسادة مصر ،
يشهد ذلك المعاهدات التي أبرمها معهم إيرمولو قنير Ermoalo Venier
عام ١٣٥٥ ، ونيكولو كوناريس Niccolo Contarino عام ١٣٦١ .

للمعاهدة الأولى (٢١٢) وهي نسخة مطابقة تماما لمعاهدة عام ١٣٤٤
مرفق بها خطاب يعلن فيه قاضي القاهرة الأمير الاسكندرية وقاضيه عودة
البنادقة ، ويوصيهما بالترحيب بهم (٢١٣) . ولا تختلف المعاهدة الثانية
عن الأولى الا في بعض التغييرات والاصحاحات القليلة الاسمية : فالسلطان
الملك المنصور ، او بالأحرى الأمير ينما Ylbogha (٢١٤) الذي كان
يحكم باسمه يرخص للتفصل البيدلي بالاسكندرية أن يعول بقوا الى
بضائع في حدود ٢٠٠٠ بيزانت (يقدا من ١٠٠٠ وهو الحد المسموح به
من قبل) دون أن يدفع رسما عن ذلك ، ويوافق على اسلاء بعض الحانات
اليلية التي تزعم البنادقة لوجودها بجوار فنادقهم (٢١٥) .

وفي حين عمل البنادقة في أواسط القرن الرابع عشر على تعزيز
وصعهم في مصر بابرار تلك معاهدات تجارية جديدة مع هذا البلد
(١٣٤٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١) فضل الجنويون أن يبحثوا عن أسواق جديدة
على الطرق الشمالية التي تمر بمدينة كالا ، وثالثا عن طريق سورية
وفارس . ومع احتفاظهم بمشقاتهم في الاسكندرية ، كما يشهد بذلك
سيمون سيمبريس ، أميلوا معاهداتهم مع السلاطين حتى سقطت بعض
العدة دون أن يحاولوا تجديدها . ومع ذلك كانوا يطلبون دائما الى البابا .
في وقت لأخر الترخيص لهم بعمل رحلات الى بلاد خاضعة للسلطان .
لغى عام ١٣٣٦ ، كان الحزب الجويلفي السائد وقتئذ في جنوا في اراع
مع كل من امبراطور الروم اندرونيك الثاني ، والمستعمرات الجنوية في
البسفور والبحر الأسود . ومن ثم أصبحت المياه الرومية وبنطس مفتحة
في وجه البحرية الجسوية ، ولم تجد الحكومة (الجنوية) وسيلة سوى أن
تفتح لها طريقا عبر بمسلك المسلمين ، فحلجته الى البابا يوحنا الثاني
والعبرين . والراعي البابا الأئمة الحادة التي تعاليمها الجمهورية فانه

٢١٢) Mas Latrie, 'Traité suppl., p. 88 et ss. ; Marin, VI, 127-141 .

٢١٣) Mas Latrie, 'Traité suppl., p. 92; Mas Latrie, dans les Archiv,
des mss. scient., II, 878 .

٢١٤) Weil Op. cit., IV, 506 et ss.

٢١٥) Marin, VI, 141 et s.; Mas Latrie, Traité, p. 88, de Bacy,
Abdallatif. Relation de l'Egypte, p. 324 note 88 et suppl., p. ٤7 et s.;
Chrestom., arab., I, 160 et s.; Quatremère, Makrizi, I, 2, p. 6, not.

سمح للبحرية الجوية أن تتوقف عند الساحل الشمالي لسورية
(Laodicea ora) وتصل من هناك في علاقات تجارية مع فارس
والهند . ومنح هذا الترخيص لمدة سنتين (٢١٦) .

ومع أن الأمر لم يكن متعلقاً إلا باجتياز الأقاليم التي تشكل في
الضمال حداً لدول السلطان وأن الهدف المقصود هو فارس إذ كان الضمال
الكبير حد تزار الفواطم الشمالية لبطرس في أوجه في ذلك الوقت .
أي في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر اتجه اهتمام الهويين
فجأة نحو مصر . وحتى يعوضهم كليمت السساس عن الفترات التي
تضمنوها في سبيل الدفاع عن كافي ضد التتار (١٣٤٦) (٢١٧) منحهم
ترخيصاً بالاتجار مع هذا البلد . والراجح أنهم استفادوا على قدر استطاع
من هذا الترخيص .

وفي عام ١٣٣٨ رخص ملوك أراجون بإعادة علاقات برشلونه مع
مصر . واعتباراً من تلك الآونة استعادت الحركة التجارية بين البلدين على
ما يبدو نشاطاً جديداً . ولم يبدأ بال تجار برشلونه حتى استطاعوا أن
يحصلوا في خصوص الرسوم الجمركية على بندس المعاملة التي يتمتع بها
الجنويزون والبادقة . وفي حوالي عام ١٣٥٠ أصبحوا في حقل الرسوم
بالنسبة إليهم وإلى اللطالونيين من ١٥٪ إلى ١٠٪ ، وهو سعر مخصص
للأم الأكثر مراعاة . وتكلفت السفارة الموفدة إلى السلطان في هذه
النسبة ٨٠٠ بيزانتي ذهبي . ولتغطية هذا الاتفاق فرضت ضريبة اضافية
قدرها ١٪ على كل البضائع المرسدة من برشلونه إلى مصر وبالعكس (٢١٨) .
تدلح للتفاصيل : وثبت وجود هذه الضريبة الاضافية ، وجود الفندق .
وفي وثائق رسمية (٢١٩) .

نتيح لنا النسخة الموجزة التي قمنا بها أولاً عن العلاقات بين الأمم
التجارية الرئيسية وبين مصر أن نصدر الآن حكماً اجمالياً على نتائج المظهر
الذي فرضه البايوت . ولا ننكر أنه في الفترة التي أيمى فيها على هذا
المظهر بشدة من جهة ، وروعي من جهة أخرى . كتب عدد من التجار عن
زيارة الاسكندرية ، واعتنوا بالبحث عن أسواق أخرى لتجارهم . ولكن
حتى في هذه الفترة كان هناك عدد لا بأس به من التجار استمروا في

Reynald, a. a. 1326, no 23.

(٢١٦)

Conale, Storia del Genovesi, (1ère ed.), IV, 346.

(٢١٧)

Ceprenay, Mem., IV, 107 et s.

(٢١٨)

Ibid II, app., p. 66 : brevet de 1338.

(٢١٩)

التردد مرادى على البلد المنوع ديارته ، يجدهم اليه الأرباح الضخمة التي تكفلها التجارة مع مصر ، وأيضا بسبب الصعوبات التي تحيط بهذه التجارة ، ولم يبالوا بالتهديدات الكنسية الرهيبة (٢٢٠) .

وبالتأكيد اسهم الضغط الذي مارسه الباباوات لفترة زمنية معينة في تحويل السياسة التجارية التي تنتهجها الأمم المهتمة بهذه التجارة الى بلاد أخرى ، غيرت اعتمادا أكبر بالطرق الجديدة المقترحة عبر المناطق التي يحتلها التنار ، وكلفت عن ارسال أساطيلها الى مصر . ولكن حتى في أشد لحظات هذه الفترة ، لم تفلت الاسكندرية بالكامل الأهمية التي لوحتها . من الوجهة التجارية العامة ، ففي هذه الفترة رأى بيجولوتس الذي كان يقيم وقتئذ في قبرص من الضروري أن يضع قائمة مقارنة بالنقود والموازين والمكاييل المستعملة في الاسكندرية من جهة ، وفي عشرة أماكن تجارية في إيطاليا ، وبروغاس ، وأسواق شامباني Champagne من جهة أخرى (٢٢١) . ونحن نرى في كتابه كميات التوابل المكتملة في سوق الاسكندرية ، نقول أنها حقيقة بالآ تكون كذلك لو لم يكن تصريفها الى الغرب مكفولا .

وكان رعايا الأمم التجارية يجندون هناك في كل العصور نواة من مواطنيهم مستقرين في مصر ، وفنابل وفنادق تابعة للإيطاليين . ذلك لأنه حتى في الزمن الذي كان فيه الحظر القل ما يكون عيبا على التجارة ، لم تفلح السلطات البلدية في البنطية وجنوا وبرايسلونا وبرايسليا علاقاتها البتة مع مصر لدرجة إلغاء التصلياتها ، أو إغلق كناداتها ، أو استغناء تجارتها .

وتقدم الأنبياء الغربية برحمتها على وجود تجار من الفرنجة في الاسكندرية ، إذ تحكى نزاعا قام في عام ٧٧٧ م (١٣٣٧/١٣٤٦ م) بين هؤلاء التجار وبين الأهالي المسلمين بالديانة : بسبب التفريز السلطاني للمسيحيين ، ولكن من الراجح أن التمهيب والفترة لعبا دورا من ناحية المسلمين (٢٢٢) . وليس بعد ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ؟

(٢٢٠) من بين ما ذكر في هذا المصنف ثلاثة تيارات من رابوزة ، لكن عليهم في عام ١٢٠٤ متلبس بخرقة الأجر مع مصر . وقد صلبت عليهم بقوا العادي عند بقرق . ان ينقلوا عن جزء من أرباحهم هناك ، وير للموسيكال في بلدهم .
 --- Töschner, Monum hist Slav merid Illustr., I, 121.

Pagol., p. 66 et ss.

(٢٢١)

Relations de Neuvelri et de Shahrizi (de Sety, Chrétostomachie (٢٢٢) arabe, II, 48) reproduites par M. Weil (Gesch. d. Chréti., 880 et s.). Ibn-Batouta (voyages, I, 45 et s.)

حيث ضاعف البابوات التفرغين ، لقبيل الفرييون من جديد الى الاسكندرية
لجى حموع كبيرة ، وعانت بالتدريج حركة السفن التجارية من هذا البناء
مشيقة كما كانت من قبل ، او يجوز لما على الأقل أن يعتقد ذلك ، مع أنه
لا توجد احصائيات في هذا الخصوص .

وبما كانت الاتصال تستعيد سيرتها الأولى حتى انقطعت فجأة من
جديد بسبب وقوع حادث لا يمكن أن نصفه بأحسن من أنه خاتمة في
خواتم الحروب الصليبية . ذلك أن بطرس الأول ملك قبرص المحب للقتال
يجعل من نفسه ، بمؤازرة البابا أوربان الخامس المرحس الأول لشوب
حرب مسيحية ضد المسلمين ، ومن أجل هذا جال في معظم البلاد الأوروبية
من ١٣٦٢ الى ١٣٦٥ ، وحاول بشخصه وبرسائله أو عن طريق مندوبيه
أن يضم الى مشروعاته كل ملوك الغرب . ومن مثل هذا المشروع كانت
الثورة البحرية لحبوة والبندقية حليفا له قيسه ، ومن ثم لم يدر رسما
في أن يزور هاتين المدينتين . الا أنه لم يجد بهما صدقاً كافياً لبعده .
وكانت المصالح التجارية كافية لأن تثير في هاتين الجمهوريتين نفورا من
هذه الحملة .

ولكن الى جانب هذا الباعث كان عند البندقية وقتئذ مشاغل أخرى ،
إذ كانت متهمكة في القضاء على ثورة خطيرة بسبت في كريت (٢٢٣) .
أما بخصوص جنوا فانها كانت وقتئذ على خلاف مع الملك بخصوص بعض
المشاكل التي لا تسجل تفاصيلها في دراستنا هذه . ومع ذلك فإن لصاحبة
بيتروس تومي Petrus Thomas الداعي للحملة الصليبية ومستشار
بطرس غيليب دي ميزير Philippe de Melzières تغلبا أخيرا على
ثرواده البنادقة الذين وعدوا بتجهيز عدد من السفن يكفي لحمل إلى
قارس ، انصب على نفقتهم ، والنصف الآخر على نفقة الملك (٢٢٤) .

ثما الجنويون لانهم بعد أن استقبلوا في البداية بيتروس تومي
استقبالا فاترا انتهبوا بالاقتراع بالصبح مع الملك ، وتمهدوا بتزويد الحملة

Commen. reg. III, p. 14, no 69, p. 23, no 110 et s.; p. (٢٢٣)
25 no 126 et s.; p. 58, no 316; p. 66, no 314.

Phil. Maxmerlin, Vita S. Petri Thomae, dans les acts SS. (٢٢٤)
Boll., 29 Junv II, p. 1097, 1011, Mss. Letrie, Hist. de Chypre, III, 742 et
ss.

البيزنطية بثلاث سنين (٢٢٥) ولما حوّل حلف الملك طال آمد
 الاستعدادات (٢٢٦) ، وبعث عدد كبير من الذين كان من المتظر أن
 يشتركوا في الحملة وفي اللحظة الخامسة اقتصر اسهام جمهورية
 البندقية على سفينة حربية واحدة ، واضطر الملك أن يفتقر على تجهيز
 سفينتين أخريين وبقي السفن (٢٢٧) . وأخيرا ، في ٢٧ من يونيو ١٣٦٥
 استطاع أن يبحر إلى البندقية . وصرب مرعيا ليقابل فيه جيشه في
 رودس .

وكانت الاسكندرية هي النقطة التي اعترض الهجوم عليها في ١٠
 من أكتوبر استولى عنوة على المدينة ، وهبها (٢٢٨) . ولا كان جيشه
 قليل العدد ، وغير متين البنين ، فلم يستطع الاحتفاظ بمصر ، ومن
 ثم أعاده بعد بضعة أيام إلى السفى ، قبل وصول قوات العدو التي خرجت
 للقائه ، وكر راجعا إلى قبرص (٢٢٩) . وفي البندقية استاء الناس
 كثيرا (٢٣٠) من الخطة التي انتهجتها الحملة ، إذ اتهم بطرس على
 الاسكندرية دون أن يتيح للحامية الفينيسية بها الوقت الكافي لأن تتخذ

Phil. Marx., Op. cit., p. 1013, Ldb. Sur., II, p. 783-784; (٢٢٥)
 Magrisi.

(٢٢٦) استلوا بعد العمليات ، أرسل الدوق لورنوتشيلزي إلى قنصل البندقية في
 الاسكندرية في شهر أبريل عام ١٣٦٤ استلوا برفق مقره . وجاء على خطاب وارد من
 الملك من باريس يدل على أنه لم يفتقد إلى صل يدي في تلك السنة . أمضى الدوق أمره
 للتفصل أن يفتى ، وطلب من البابا عند كبريات السفن التجارية بالإبحار إلى مصر في
 تلك السنة . انظر

— Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1872, p. 72 et s. ; Mas Latrie, Hist.
 de Chypre, II, 263, not; Taf. et Thom., inéd.

Phil Marx., Op. cit., p. 1013, Makrisi, dans de Sacy., Chres. (٢٢٧)
 tom. arab. II, 49.

— يلاحظ القارئ في الواقع أن ٢٤ سفينة بندقية ، ولكن هذا يثبت لطف أهم في
 مصر لم يفتقروا يوزون بين السفن التي تجهزها الجمهورية والسفن التي لأجرها لملك .

(٢٢٨) كحدث بعض الأخطاء الإنجليزية .

(٢٢٩) (Walsingham, dans les Hist. réc. briann. XXVIII, a.)

p. 301 et s.; Mousch. B. Alban., ibid LXIV, p. 88 et s.)

في القصة حربية . وبروكار مطبوع رسمى بالأخبار التركية أحضرها بطي
 الإنجليزي والفرنسيين من هذه الحملة .

Phil. Marx., Op. cit., p. 1013-1017 ; Machaul Leprie d'Alex- (٢٢٦)
 andrie, publ. par Mas Latrie (1877), p. 88-109; Machaulas, p. 80 et 88,
 Pitol, p. 388 et s.

Mas Latrie, op. cit., III, 761 et s. (٢٢٠)

لنفسها إجراءات الأمم الكاثلية (٢٣١) حتى راح الفصل نفسه انقريا ليوبر
والكتير من البنادقة ضحية لأعمال النهب (٢٣٢) .

وتدل هذه الواقعة على ضعف التفاهم بين الملك والبنادقة . أما
الجنويون فقد كان لهم في ميناء الاسكندرية وقت الهجوم عليها سم
سفن بها عدد كبير من البحارة ، ولكنهم لم يشتركوا في الغارة . ومع
ذلك لما أن تمت الغزوة حتى اشتركوا في نهب المدينة (٢٣٣) . وهكذا
كان دور الجمهوريتين في هذه الحملة دورا ثانويا للماية ، ومع ذلك كانت
وظيفة انتقام السلطان شعبان الثقل عليهما منها على غيرهما : فقد نشر
اخطا دعا فيه التجار المسيحيين الى الإقامة في امن وسلام دون أن يغشوا
سوءا ، ولم يكن هذا الا خلسة منه ، فبعد القضاء بضعة أيام ، اتى
القناص ، وأصدر أوامره بالقبض عليهم والقائم في غياهب السجون ،
ولم ذلك . وابتداء من هذا الحين لم تجر أية سفينة تجارية بطبيعة الحال
أن تظهر بالذهب الى الاسكندرية . وعانى الغرب كله من هذا التوقف
في التجارة : ولما شحت التوابل في السوق ارتفع ثمنها للحال (٢٣٤) .

والجيب ان السلطان نفسه هو الذي بدأ يطلب لتسريح سبائ
المفاوضات للصالح ، فاتفق مفاوضين الى البندلية وجنوا . وأدرك البابا
أوربان الخامس للحال من هذا الأسلوب في التصرف أن السلطان يحاول
أن يلقى بدور التفرقة في العالم المسيحي ليضعف وسائله العملية ، فكتب
من فوره الى الجمهوريتين يطلبهما من القراحات السلطان الماكرو (٢٣٥) .
ولكنه كان في ذلك متأخرا : فالتوان التجاريان كانا تصبوان الى سرعة
استعادة النشاط التجاري مع مصر . وقبل وصول الرسالة البابوية الى
البندلية بوقت طويل كان الفوج ماركو كورنارو قد كتب الى شعبان
يفكره على اقتراحاته ويعلن اليه إيفساد سفيرين ، فرانسيسكو بيمبو
- Francesco Bembo ، وببيثرو سوزامزو - Pietro Sornozzo ،
وكتفى جوابا على رسالته بأنهما سوف يلقيان كل ترحيب (٢٣٦) .
ووصل السفيران بالفعل رغم تعذيرات البابا (٢٣٧) .

(٢٣١) عهد بطرس النوح لا يقوم بأي عمل ضد الاسكندرية قبل نهاية شهر أكتوبر .
وكذلك لم يلق برصه ، Bibl. de l'Ecole des chartes, 1873, p. 79

Ibid., 1873, p. 78 et ss. (٢٣٢)

Phil. de Mazères, dans Louis II, 368 et s. (٢٣٣)

Les chroniques anglaises - et Michaux, Op. cit., p. 115 et s. (٢٣٤)

Daynald, s. s. 1396, no 12, Commun. reg., III, p. 48, no 261; (٢٣٥)

هذا في نسخة من المخطوط الذي لا يحمل تاريخا والموجود في (٢٣٦)

Les commun. reg., III, p. 48, no 268, (٢٣٧)

• • من الوثائق المتداولة ما يحمل تاريخ ٢٩ يناير ١٣٦٦ ١٣٦٦, Mar lairie, III, 753.

وليس لنا علم بنص الأوامر التي أعطيت لهذا * ولكن تبعا للتاريخ المعلوم لجويوم دوماشو Guillaume de Machaut فإن هذه الأوامر كانت قاصرة على طلب إطلاق سراح مواطنيهما ، والتأكيد بأن التجارة البنادقة الذين يرغبون في الذهاب إلى مصر سوف يلقون بها المعاملة التي تكفلها لهم الامتيازات القندية (٢٣٨) . وقد حقق لهم السلطان على الأقل هذا الطلب ، وفي شهر يوسية عام ١٣٦٦ ، أرسلت الحكومة القينسية إلى سفرائها في بلاط النابا نص معاهدة أبرمتها مع السلطان ، وكلفتهم بأن يضعوا هذا النص تحت أنظار البابا لادعاه بأن موضوع هذه المعاهدة هو فقط تسوية المسائل التجارية (٢٣٩) .

وسرت إشاعة في الأوساط الكنسية بأن الأمم التجارية تفصل قسيتها على قضية ملك قبرص ، وأنهما تستعد لمقد صلح منفرد مع السلطان (٢٤٠) ، لذا حرصت الجمهورية على إحاطة البابا عدداً بأن الوفد الذي يمثل به إلى السلطان لم يكن له أية صيغة سياسية ، غير أنه من غير المعلوم أن تجرى مفاوضات دون أمل في الوصول إلى عقد صلح حقيقي ، فقل كان في بلاط مصر حزب ذو نفوذ قوي يريد الحرب (٢٤١) ، وأبدى السلطان أنه لن يوافق على معاهدة صلح مع الجمهورية إلا إذا اشترك في المعاهدة عدوه الرئيسي ملك قبرص ، وعلى ذلك انتقل السفراء إلى قبرص حيث كان الملك يستعد لإرسال حملة إلى سواحل سوريا ، فاجتمعوا في أقيامه بالمعول عنها ، وأجروا مفاوضات مع السلطان (٢٤٢) . إلا أن هذه الجهود كلها لم تسفر عن شيء لأن السلطان لم يكن في الواقع يريد الصلح (٢٤٣) .

وفي هذه الأثناء توجه هاريسو غينير ، وجيول في فوسكاريس إلى الفينيون ليشرحوا للبابا أوربان الخامس باسم جمهورية البنادقية أنه

(٢٣٨) Machaut, Op. a, p. 118.

(٢٣٩) Mss Latine, III, 730; Makrizi dans Weil, op. cit., IV, 518 et s.

— ينسب قراءة ١٣٦٦ بدلاً من ١٣٦٨ .

(٢٤٠) Phil. Mazz., i.c., p. 1017; Raynald, 1366, no 18.

(٢٤١) لهذه الأبريل عليها ، أحدثت الجمهورية صائرا مدونة على الصعيد

— Weil, Op. cit., p. 512 et s.; Mss Latine, II, 288.

(٢٤٢) Machaut, p. 118 et s.; Machaut, p. 94 et s.

(٢٤٣) Machaut, p. 123 et ss.; Machaut, p. 97 et ss.; Mss Latine, II, 292.

يمكن اعتبار الصلح قد تم ، وإن الأمر لا يتوقف إلا على ملك قبرص ، وإن الجمهورية مصممة في هذه الظروف على استعادة التجارة مع مصر دون انتظار القرارات الأخيرة التي يصدرها الملك ، ولكنها سرية قبل كل شيء على الحصول على إذن من قنصلته (٢٤٤) . وعلى ذلك منح البابا ترخيصا بأربع سفن شاحنة ، وثلاث سفن كبيرة ، ولكن لرحلة واحدة فقط ، وصرح بأنه يحتسب أي اتفاق بين البندقية والسلطان ، تم عقده ، أو جاري عقده بالخسار وكأنه لم يكن إذا كان من شأنه أن يعرقل استمرار الحرب الصليبية ضد المسلمين (٢٤٥) .

وبعد القضاء بضعة أسابيع (١٧ أغسطس) علم البابا بالاستعدادات الجارية في مصر وسورية ضد قبرص ورودس (٢٤٦) ، فاطل عن خطر عام جديد (٢٤٧) ، حتى لا يقال إن الأمم التجارية تنكس مع اسمين في الوقت الذي تتعرض فيه المراكز المتقدمة للعالم المسيحي لغاراتهم . وإذا قررت حكومة البندقية منع مرور الفرق العسكرية النابوية والخييل والأسلحة فاصطد قبرص ورودس ، فقد ألدها البابا بالغاء قرارها هذا . كما احتج ملك قبرص على ذلك (٢٤٨) .

ومع ذلك فإن الكثير من التجار الغربيين يزاول التجارة مع مصر . ويحكم فيليب دو ميزير Philippe de Mézières أن الظروف الطبيعية تجلب تاسية للغاية مع هؤلاء التجار ، ورأى فيها عقابا أنزلته بهم السماء . والشئ الذي يبسود القرب إلى المنطق أنهم لم يفلحوا لدى المسلمين سوى عقابنة مبيتة ؛ وفي حريف عام ١٣٦٦ كانت خمس سفن فينيقية راسية في ميناء الإسكندرية بين سفينة جنوبية وسفينة قطانونية ، غارتابت السلطات في وجود قنارصة بها ، وأندرت السفن بتسليم القنارصة . ورفضت السفن ، وأعقب ذلك معركة قصيرة تغلبت فيها البحرية المصرية ، وانتهز السلطان هذه الفرصة للتدبير بالبنادقة

Mss Latins, III et 86, (documents des 6, 14 et 23 juin 1366). (٢٤٤)

Commun. reg., III, p. 47, no 247 (23 juin 1366). (٢٤٥)

منذ الربيع (٢٤٦)

Archives de l'Orient latin, I, 391 et s., Psol., Cod. dipl. II, 48.

Commun. reg., III, p. 49, no 294, cf. Phil. Mex., I, c., (٢٤٧)
p. 1017.

Commun. reg., III, p. 51, no 296, p. 53, no 305, Mss Latins, (٢٤٨)
Hist de Chypre, II, 280-289.

والذين وعدوا بأن يكونوا أصدقاء له . ولكنهم تعاونوا مع أعدائه ، وأصدر أمره بالقبض على كل من واحد منهم في اقليته : فاعتقل سبعة وأربعين بندقياً من بيروت (٢٤٩) ، ولقي آخرون نفس المصير في طرابلس . وطال سجن كل من اعتقلهم السلطان بعد حادث الاسكندرية (٢٥٠) .

أصبح واضحاً أنه طالما لم يمتدح الصلح اسقاطاً متيناً بين السلطان ومملك قبرص ، فإنه لا أمل في استتباب الأمن لصالح التجارة . وفضلاً عن ذلك أعين السلطان حصاراً للجنوبيين (٢٥١) والبنادقة بأنه لا يمكن أن يمتدح صلحاً حقيقياً معهم طالما هو في حالة حرب مع قبرص . وبذلك البنادقة والجنويون والقطالونيون كل مائى ومستم ليت روح السلام في نفوس الملكين ، ولكن في اللحظة التي انقضت فيها الأمل ببلوغ هذه الغاية ، انقضت المفاوضات سلسلة من الهجمات التي شنها ملك قبرص على مدن سوريا الساحلية (ديسمبر ١٣٦٦ ، سبتمبر ١٣٦٧) (٢٥٢) . وتحدث هذا الأمر ، مدفوعاً بميوله القتالية ، بشروطه الصليبية العامة . ولكي يحققها قام بجولة ثانية في الغرب ، وقام بعض الوقت ، عام ١٣٦٨ لدى ألبانيا في روما (٢٥٣) حيث أوفدت اليه جنوا والبندقية سفارحاً ليبدلوا الجهد لخدمة على التصالح مع السلطان . وتحدثت ألبانيا نفسه بهذا المعنى ، وقبل أن يتوسط بين هاتين الدولتين ، وأذن لغرضيه اللذين يمنحهم لهذا الغرض أن يمتدحوا الصلح باسمه ، مع بعض الشروط (٢٥٤) . وكلفت جنسوا لهذه المهمة كاسانو تشيبيجلا *Cassano Cigala* ، وبارلو جستيناني *Paolo Giustiniani* ، وانتدبت البندقية نيكولو جستيناني ، وببييترو مارتييللو ، ولكن عناد السلطان قضى على كل الجهود .

Commém. reg., III, p. 63, nos 301, 302; Taf. et Thom (٢٤٩)

infé.; Machairas, p. 100; Commém. reg., II, p. 65 et s., no 219

Mss Latine, III, 329. (٢٥٠)

Machairas, p. 106 et s.; Strambaldi, dans Mss Latine, II, 347; Makrizi; de Sacy, Chronol., p. 50, et Well, Gesch. der Chalt., IV, 513 not 3. (٢٥١)

Machairas p. 103 et s. 113 et ss. Machaut, p. 206 et ss. Makrizi, dans Well, IV, 522. (٢٥٢)

Mss Latine, II, 241, not. (٢٥٣)

(٢٥٤) انظر وليتي ١٩ ، ٢٠ من مايو ١٣٦٨ في :

— Mss Latine, II, 201 et ss., 302 et ss.; Machaut, p. 219 et ss.; Machairas, p. 119 et ss.

ولم يكن الصلح قد انعقد بعد حين اغتسال أحمد بن بطرس الأول (١٧ يناير ١٣٦٩) (٢٥٥) . وفي هذه الأثناء استمر السلطان يسجن ، وينهب ، ويسب المعاملة ، وأحيانا يقتل التجار الذين يقومون في يديه . وثارت حفيظة الجمهوريتين ، فاعتزلتا أخيرا التدخل عن دور الوصاية . وإن ترمعا إلى مصر سلطنا حرية لاجبار السلطان على إطلاق سراح السجناء (معاهدة التحالف في ٢٨ من يوليوس ١٣٦٩) ودعيتا الوصي على عرش قبرص ، والرئيس الأكبر في رودس أن ينضيا إليهما . وتعاهد الجمهوريون والبنداقية على إلغاء كل تجارة مع مصر طالما استمر هذا النزاع : ونص على ذلك صراحة في المعاهدة . وفيما يتخبط سائر الأمم التجارية ، فإن البابا عزم معها هذا الاجراء بإصداره مرسوم ٢٧ يوليوس من نفس السنة (٢٥٦) . وكان لابد أن ينتهي كل شيء ، حسب الظاهر ، ولكن بعد هذه المبادرة العظيمة ، وبعد علا أوراق كثيرة بالكتابة ، انتهى كل ذلك بإرسال لثاني سفن حليفة ، انضمت لها مواقع قبالة الإسكندرية ، وأرسلت إلى السلطان اتذارا حاسما بإطلاق سراح المسيحيين . ولما لم يظهر في رده أي استعداد للاعتقال ، انسحبت السفن بعد أن تركت له إعلانا بالحرب (ديسمبر ١٣٦٩) (٢٥٧) .

ومع ذلك فإن توقع السلطان لشوب حرب جديدة في عام ١٣٧٠ ضد العرب المتحالف نجح في أخافته ، فأبى قبرص بأنه على استعداد للصلح . ولوئل هذا النبا بالفرح ، وأرسل سفراء جدد إلى مصر للمفاوضة باسم ملك قبرص ، والرئيس الأكبر برودس ، وجنوا ، والبنداقية ، سيجنوا في وضع أسس لسلام دائم بين السلطان وهذه الدول كلوسا (نوفمبر أو ديسمبر ١٣٧٠) (٢٥٨) ورغم كل الجهود التي بذلت في اليوم لم يمكن العثور على وثيقة الصلح هذه .

Mechalras , Mss Latins, III, p. 804; Taf et Thom, inéd. (٢٥٥)

Comment, reg. III, p. 82-83, nos 288, 800 809, 810, 312, 313 517-521 (٢٥٦)

تمكن الصوار العربية أنه في عام ١٣٦٩ كانت أربع سفن عربية إفريقية بالهجوم على الإسكندرية ، ولكنها ردت على أعقابها خاسرة . هذه الواقعة لا صلة بينها وبين المسألة التي أبحثها الأمم المتحالفة ، ذلك العهد الذي لم يتم كما ذكرنا بشأنه إلا في ٢٧ يوليوس . والحقبة هي قيام سفن قبرصية بمحاولة غزو الإسكندرية في أثناء سلسلة من الغارات التي شنتها على طول سواحل سوريا (في ١٠ من يوليوس) .

Mechalras, p. 161-184; weil, Gesch der Chalf., IV, 533 et s., (٢٥٧)
Machalras, p. 189 et s.

Makris dans de Sacy, Chronicon arab., II, p. 60 et dans (٢٥٨)
weil, IV, 534, Mechalras, p. 104-171; Mss Latins, II, 347 et ss.

وعلى كل حال حصلت الأمم التجارية على نتيجة مرجوة كانت مطلوبة بشدة . فقد استرد التجار الغربيون الدين ظلوا مسجونين منذ زمن بعيد أو قريب في سجون مصر وسوريا (٢٥٩) ، استردوا حريتهم ، وفتحوا المرافعة للتجارة البحرية بهذا من الآن كان مملكتا منذ زمن بعيد - وإن كلف البنايا أوريان الخامس عن إقامة المراقيل في وجه التجارة مع مصر ، فإنه وقع الحظر الذي كان قد جنده أخيراً بقرار في عام ١٣٦٩ . ومنح رخصاً جديدة (٢٦٠) . والثابت أن المريين أمرعوا بحماية أشد من ذي قبل إلى السوق التي أعيد فتحها للتجارة ، وتنافسوا في بذل الجهود لاستخلاص أقصى ما يستطيعون من ربح . ومن بين الذين تذكرهم الوثائق نجد أهالي راجوزة Ragusane ، لبناء على توصية الملك لويس ملك هنغاريا ، نجح هؤلاء في الحصول على إعفاء من الحظر البابوي (١٣٦٦) ، (٢٦١) وبعد انعقاد الصلح طلبوا من السلطان شهبان أن يمنحهم امتيازاً لتجارهم ، وحصلوا على هذا الامتياز (٢٦٢) . . .

وسوف لنناول في فصل آخر قصة تطور التجارة بين أوروبا ومصر بعد سنة ١٣٧٠ ، أما الآن فلا بد أن نضع خاتمة للفترة التي درسناها حتى الآن ، ولا يبقى علينا بعد ذلك إلا أن نلقي نظرة سريعة وعامة على الأقاليم والأسواق التابعة لامبراطورية سلطان مصر حيث يتلاقى الغربيون والشرقيون كما اعتادوا أن يتلاقوا ، وعلى الطرق التجارية التي كانوا يستولونها .

فليبيا يختص بالإسكندرية ، أول هذه الأسواق ، فانا قلنا كل ما يمكن أن يقال عنها كلما ورد اسمها في حكاية الأحداث التي نكتب عنها . ولكن دمياط التي تحدثنا عنها قليلا ، لأنها تستحق أكثر من مجرد تنويه . فنقل المدينة ، وإعادة بنائها على موقع من النيل بعيد عن البحر المقدم كما رأينا مرة موقعها الأول على الخط الذي تسلكه التجارة . ومع ذلك مازالت إيرادات جماركها كبيرة ، تزود خزانة السلطان بمعونة

(٢٥٩) وسجون دمشق أيضا ، كما ذكره ابن تيمية في كتابه ٢ Ibn Taimiyya

Choubbesh

- Well, Op, cit.

Commen. reg., III, p. 84, no 387.

(٢٦٠)

Thamer, Mon. hist. Slav. merid., I, 283.

(٢٦١)

Luccari, Distretto degli anelli di Rausa, p. 68.

(٢٦٢)

- يطلق المؤلف على شهبان اسم « ملهى سيرات » Melch Saraf والخطبة أن السلطان كان يحمل لقب ملك الأفرى .

قيمة (٢٦٣) ، وعندما زارها ابن بطوطة في عام ١٣٢٦ وجعلها موانئ
بسلع من كل نوع (٢٦٤) . وتحدثت عنها بيجولوتي كثيرا (٢٦٥) ،
ويكفي هذا لإثبات أنها كانت ومازالت قسمة الكثير من الغربيين . ومع
ذلك ففي القرن الرابع عشر قدمت زياراتهم كثيرا عما كانت في عصر
الحروب الصليبية ، ولم تسترد التجارة قليلا من الحياة من هذه الناحية
إلا في نهاية العصور الوسطى .

وفي ديباط ، كما في الاسكندرية ، كانت المواد المطلوبة والتمية
أكثر من غيرها في السوق هي الواردة من الهند . وكانت البضائع تتبع
دائما الطريق التي تكلمنا عنها في معرض الحديث عن العصور القديمة ،
فمن عدن كانت البضائع تصعد البحر الأحمر حتى عيذاب Aidab ،
ومن هنا الموانئ الأخير تتبع مجرى
نهر النيل حتى البحر المتوسط ، ويتبعى عدم الاستمارة بالصادر الغربية
للمشور على وصف صحيح لهذا الطريق ، ذلك لأن الرحلة بالنسبة إلى
الأوروبي في ذلك العصر كانت مخوفة بمخاطر شديدة ، حتى أن القليل
جدا منهم . هم الذين نجحوا في التوصل داخل تلك المناطق . من ذلك
على صيبل المثال أن سانوتو الأكبر يتصور أن عدن واقعة على الساحل
الغربي للبحر الأحمر ، وفي رأيه أن منتجات الهند كانت تنقل من عدن
إلى قوس على ظهور الجمال في تسعة أيام (٢٦٦) . وهذا زمن قليل جدا
بالتأكيد ، ومثال آخر يمدى في الخريطة القطلونية Carte catalane
التي يرجع وصفها حسب الرأي المسلم به بوجه عام إلى سنة ١٣٧٥ يخطئ
بين القصير وقوس ، وليس ذلك لأنها تضع القصير على النيل في الموضع
الذي توجد فيه قوس ، والعكس بالعكس . فإثنتين مثبتتان تماما في
موضعهما الصحيحين : فمن نتبين تماما على الخريطة خطأ يمثل مجرى
النيل ، وخطا آخر موازيا له يمثل ساحل البحر الأحمر ، ونقرأ اسم
Cusa أي قوس Kous على الخط الأول ، واسم Ches أو قصير
Kosair على الخط الثاني أي جانب Aidab (عيذاب codylp

Haytham, Hist. orient., cap. 54,

(٢٦٣)

Ibn Batouta, I, 59,

(٢٦٤)

Pagot, p. 50, 77, 121, Nice, de Pogg. Libro d'alframare,
II, 160.

(٢٦٥)

Ed. Bongars, p. 22; p. 266; Zurli di Marco Polo,

(٢٦٦)

- كان الإغريق يريجي أكثر علما بهذا الخصوص ، فخرطهم (المرسومة عام
١٣٦٧) مبحرة بخرج تجد فيه أن لنا سفحا تحمل سمات الهند إلى عدن ، ومنها بحر
البحر الأحمر حيث يصل إلى نهر لا يمكن إيراد اسمه (هو النيل ، بلينا) .

والما هناك شرح للخريطة نقرأ فيه ، وفي مدينة Chos تجلب الأناوية الواردة من الهند ، ومن هناك تنقل الى بابليون (القاهرة) والى الإسكندرية » (٢٦٧) .

هذا النص واضح ، وإذا أخذنا به ، فلا بد من التسليم بأن السفن القديمة من عدن لم تكن تنزل شحنتها الى البحر الا في القصير . غير أن الخلط والفسخ الخالشر يطبق على ميناء القصير Chos البحرى ما كان يجب أن يطبقه على مدينة قوص Chos على النيل . وفي هذا الخصوص تتوافق شهادات الجغرافيين والمؤرخين العرب بالإجماع ، وهي وحدها الجديرة بالثقة : فالسفن المحملة بالتوابل لم تكن تصعد حتى القصير ، ولكن فقط الى عيذاب . ولناخذ أولا بشهادة كاتبين في مستهل القرن الرابع عشر ، أبو الفدا ، وشهاب الدين . فالأول يذكر عيذاب على أنها مفتاح تجار اليمن (التي كانت عدن هي أهم سوق فيها) (٢٦٨) . أما الثاني فيقول إن « قوفل بحار الهند والحبشة واليمن والحجاز » تجتاز صحراء عيذاب وتتوقف عند قوص (٢٦٩) . والمؤرخي ، الكاتب في العصور الوسطى الذي عرف أحسن من غيره مصر وتاريخها يسنق على أقوال الاثنين السابق ذكرهما ، ويضيف عليها فيعرفنا بأن عيذاب هي الموقع الذي كانت تفرغ عنده منتجات الهند حتى عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) (٢٧٠) ، وأنه اعتبارا من هذا التاريخ اتخذ المسار التجاري اتجاه آخر . فمن عيذاب كانت التوابل تحصل كما كانت من قبل على ظهور الجمال حتى قوص ، مقر حكام مصر العليا ، فهذه المدينة التي كانت أقل قليلا من القاهرة من حيث أهميتها التجارية ، تضم عددا كبيرا من المخازن ، وأسواقا غامرة (٢٧١) ، ويذكر أبو الفدا قوص باعتبارها مفتاح تجار عدن ، وكان من بين سكانها عددا من التجار الأثرياء .

وكان في مصر اتحاد لتجار الجملة له فروع تمتد الى أنحاء بعيدة ، يطلق عليها اسم Karémities وي مارس أعضاؤها التجارة مع اليمن ، وبنوع خاص مع عدن ، وكانت تجارة التوابل أهم فرع في أعمالهم

Ed. Bouché et Tassu, p. 114,

(٢٦٧)

Aboulf., Géogr., trad. Reinaud, I, 167.

(٢٦٨)

Mémoires d'Aboulf., cité par Quatremère, Mém., sur l'Égypte, I, 194

(٢٦٩)

Quatremère Mém., sur l'Égypte, II, 182 et s.

(٢٧٠)

Aboulf., trad. Reinaud, I, p. 151, Ibn Batouta, I, 108 et s. ;

(٢٧١)

Quatremère, Mém., sur l'Égypte, I, 194.

التجارية (٢٧٢) ، ويملكون مستودعا في قوص ، وهذا دليل على ما لهذه المدينة من أهمية تجارية . وهناك تلمح من منتجات الفرق في مراكب (٢٧٤) تهبط مجرى النيل في خمسة عشر يوما حتى القاهرة ، ومنها تصل بطريق الماء الى الاسكندرية ، باستثناء نقلة قصيرة على اليابسة في نهاية الرحلة ، على طول الفرع الذي يتجه نحو الشمال الغربي (٢٧٥) . ذلك هو ، الى نهاية الفترة التي نبحثها في هذه الدراسة الطريق المأدب الذي تسلكه منتجات الهند والصين ، على الأقل بالنسبة الى القسم الذي يمر بمصر . وثمة سعن قليلة تنزل شحنتها في الطور Tor بشسبه جريرة سيناء ، أو في السويس حيث تنقلها قوارض الى النيل (٢٧٦) . وفي بدايات هذه الفترة أظهر عدد من قباطنة السفن انتشارهم المصنوع حتى الطور سيرا بالقرب من الساحل الغربي . ولجأ بعد امتنع هذا الاستثناء ، ولكنه عاد في الفترة التالية فأصبح القاعدة العامة .

واعتقد أنه لا فائدة من الإصرار على إثبات أن مكة كانت تتمون عن طريق عدن بمنتجات الهند والصين ، وأنه في الأعياد السنوية التي تقام

Les notes de Quatremère, dans les Not. et extr., XII, 388; (٢٧٢)
XIII, 216 et s.

Amari, Dipl. arab., p. 1011; Makrisi, Hist. des sult. mamlouks, II, 1, p. 82 et s.; II, 2, p. 167; Chroniken der Stadt Mekka, publ. par Wustenfeld, II, 385.

Quatremère, dans les Not. et extr., XIII, 218. (٢٧٣)

germe. (٢٧٤) يشار اليهم باسم Zerne العربية في نص السيد بركو ، ص ٢٩ ، ١
في : Amari, Dipl. arab., p. 339) (Amari, Dipl. arab., p. 339) في garme ،
p. 32) د oerme أو garme في بركو ، ص ٢١٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ .

germes في لاري Lonnay ص ٦٨ ، ٧١ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣٦ .

و Polvin. ٥٤ في germo, Ghislé, p. 192 في gerbe , Pegol ,
p. 78 , Tafur , p. 78 ، وأصل الأخير في ذلك وصف لمصليا

(٢٧٥) سمي هذا الفرع taligleia (Sanuto, p. 22) calizone ، عند السيد

Colis, Calix, Sigold, p. 188.

عند بركو ص ٢٤٥ ، ٢٩١ .

— كلمة شحيح العربية تعني قائد برجه عام ، ولكنها تطلق بوع خاص على فروع
شليل ، انظر :

Viaggi alla Tana, p. 164, les notes de Pegol, dans l'éd. de Sigold,
p. 130/68, de Sacy dans l'éd. d'Abdallahif, p. 429 ; M. Yule, éd. de
68 Polb, II, 874.

Ludolph, p. 84. (٢٧٦)

بمناسبة الحج حيث يقد إليها المسلمون من كل الأنحاء ، يجرى ثمة بيع
كبيرة ، وبالنسبة إلى الصريين كانت سوق مكة موردا اضافيا ، ولكن
بين القوافل كانت سوق دمشق تلعب دورا كبيرا من حيث عند الحاج
فيها ، وبالنسبة كانت القوافل تحمل عند رجليها جزءا كبيرا من السلع
الثمينة . وثمة حاجان لاتين رائدا دمشق في الفترة التي ترمسها ،
هما جويوم دي بولندسيل Guillaume de Boldersel (١٣٣٣) ،
ولودولف دي سوديم Ludolphe de Souheim (١٣٤٠) (٢٧٧) ، ذهبا
من كميات التوابل والعطور والخرائر ، والبروكار المنحوب ، والأحجار
الكرمية التي رايها . ولم يهتم لودولف دي سوديم بصدد هذه
البضائع ، ولكن بولندسيل ، الأكثر فضولا أشار إلى الطريق الذي أتت
منه ، ولم يكن هو الطريق الذي ذكرناه من قبل ، ولعله تتبع الطريق
الأكثر أهمية . فالواقع أن أكبر جزء من منتجات آسيا كان يصل إلى
دمشق لا بطريق قوافل مكة ، وإنما عن طريق الخليج الفارسي
وبفناد (٢٧٨) ، أو بطريق البحر فقط عبر فارس وبلاد ما بين النهرين .
وبخلاف هذه المواد الأجنبية ، كانت التجارة في دمشق تتمون بمنتجات
وطنية ، لأن هذه المدينة كان بها عمال حرفيون على درجة كبيرة من المهارة
في مختلف الفروع ، ولم يفت الحاجان أن يفوها بذلك .

على أن هذه اللحظة لا تناسب الدخول في التفاصيل ، لأن الحركة
التجارية المباشرة بين دمشق والغرب كانت قاصرة على الشيء القليل .
فتاجر برشلونة الذي يجازف في عام ١٣٣٥ بالاتصال من قبرص إلى
سوريا ، ويتوجه إلى دمشق ليقتد صفقات تجارية مع المسلمين رغم
قرارات الحظر الكنسية (٢٧٩) لا يبدو أنه يجد كثيرين يلعبون كما يفعل .
وحتى حلب ، ثاني سوق سورية من حيث الأهمية ، وتمتلك أسواقها
بكمية هائلة من سلع الهند ، وأطلق عليها البعض اسم « الهند
الصغيرة » (٢٨٠) لم تذكر إلا نادرا في المصادر الغربية في ذلك العصر .
ومع ذلك لابد لنا أن نذكر أن الرهب « لثاميل » (يتبع طائفة من رهبان

Ludolph. p. 98.

(٢٧٧)

(٢٧٨) من باب مروج الذهب الخريطة القاثونية لعام ١٢٧٥ (ص ١٢٢) ما يقول أيضا أن
البلد، ومنتجات الهند التي تصل من الخليج الفارسي إلى سوريا عبر بغداد ، وكذا فلسطين
مروج خاص .

Max Leiria, Hist. de Chypre III, 124.

(٢٧٩)

Hammer, Dehama, I, 182.

(٢٨٠)

القديس غريغوريوس - المترجم) الفلورنسي جيسوفاني ديي ماريتيمو
 Gov. dei Marignoli من بلك المدينة عند عودته من رحلة في الصين
 والهند ، ورأى فيها الكثير من المسيحيين يلبسون البري الغربي ويتكلمون
 الفرنسية بلهجة قبرصية (٢٨١) ، وكان معظم هؤلاء من القبارصة دون
 شك .

وبين قاماجوستا والسواحل السورية المجاورة لها ، كانت تجرى
 بطبيعة الحال حركة تجارية نشيطة . وكان من شأن الغارات المتوالية التي
 تقوم بها الأساطيل القبرصية على المدن الساحلية السورية في أواخر
 الفترة التي ندرسها أن تقطع هذه الحركة مؤقتا . لذلك فإن القليل
 الذي يعرفه هيجوثوني عن سوريا ، بقوله في مجال حديثه عن قاماجوستا ،
 فهو يشير (٢٨٢) إلى عدد من السلع التي يجدها المرء في أسواق هذا
 البلد ، من أن اسمها تدل على مصدر قبرصي : تلك هي الخيوط
 الحريرية ، والسميت (نسيج حريري تخالطه حيوط ذهبية وفضية -
 المترجم) ، والثملات (الثمالة نسيج من الصوف ووبر الماعز ، ويطلق
 على الكتفين - المترجم) ، الخ . وكانت سوريا ممتلئة هناك بقطيعها ،
 وهو ما لا الجردة ، كما نعرف ، والثوابل التي تأتي بها الثوابل . وجاء
 زمن كان فيه تجار بيروت وطرابلس يركبون البحر للذهاب إلى قاماجوستا
 ليبيعوا بها منتجات بلادهم ، وبخاصة القطن والثوابل الواردة من داخل
 آسيا (٢٨٣) . كان ذلك عصر ازدهار قاماجوستا ، ويقع ضمن عصرنا
 هذا . ولما كان التجار الغربيون من جهة يجدون بها في سهولة السلع
 الشرقية النادرة المطلوبة ، وأنهم من جهة أخرى إذا حاولوا التدوغل في
 أراضي المسلمين يتعرضون لتهديدات الكنيسة لهم بأمرهم ، وغارات
 الطرادات القبرصية ، فإن معظمهم كانوا يتوقفون هناك ويتجهبون
 للذهاب إلى سوريا .

غير أن قبرص لم تكن البلد الوحيد الذي يحول الغربيين بعيدا
 عن طريق سوريا . فمملكة أرمينيا الصغرى المسيحية كانت من حيث
 موقعها تشكل رأس الحربة لطريق تجاري جديد ، وتمتاز بأمن أولر مما
 في سوريا ، ومسافة يقطعها المسافر أقل طولا للوصول إلى البلاد المنتجة
 للتوابل ، وأخيرا إمكانية سلوك هذا الطريق دون المرور بالمنطقة المحرمة

Dohner, Monum. hist. Bohem., II, 22.

(٢٨١)

Pegol., p. 65, 77 et ss.

(٢٨٢)

Piloti, p. 306.

(٢٨٣)

للمملكة لسلطان مصر . فطالما كانت قماماجوستا مفتوحة لكل الغربيين بلا تمييز ، وطالما كانت أرمينيا باعتبارها مسيحية ، وقاموس باعتبارها بلدا صديقا يرحب بهم ، فانهم (أي الغربيين) لم يكونوا يهتمون بسوريا . ولكننا نشهد بعد قليل انقلابا يحدث في هذا الوضع . ففي بداية الفترة التالية ، سقطت قماماجوستا في أيدي الجوبيين ، واعتبارا من هذه اللحظة تحولت عنها الأمم التي تنافس جنوا . وفي هذا الوقت تقريبا ، دمر سلاطين مصر مملكة أرمينيا الصغيرة .

وفي فارس أعقب التعصب والفوضى التسامح والنظام السائد في العقود السابقة . وكانت نتيجة هذه التغيرات أن ظهر العربيون من جديد في سوريا بصورة مستمرة . ومع ذلك يبالغ ببسولوتي بعض الشيء إذ يقول انه اعتبارا من احتلال الجوبيين قماماجوستا أن بدأ سائر اللاتينيين يترددون على دمشق وبالقى مدن سورية (٢٨٤) .

وقبلا ، في أواخر الفترة التي تحدث عنها ، بدأت العلاقات المباشرة لتجارة الغرب مع سورية تتضاعف . وعندما أعطى البابا الاذن بزيارة الميلاد الإسلامية ، انتهت البنادقة هذه الفرصة . ليس فقط بإرسال سفنهم إلى مصر ، ولكن أيضا بالقيام من وقت لآخر برحلات إلى سورية ، وبخاصة بيروت . مثال ذلك في عام ١٣٤٥ (انظر بعاليه) وعام ١٣٦٦ . وكانت الارمنانية الأخيرة تتكون من ثلاث سفن كبيرة على ظهرها سبعون تاجرا . وشحنة ثمينة ، ومبلغ كبير من المال . وعند وصول القافلة ، استقبل التجار في الظاهر أحسن استقبال ، ولكن ما أن بدأت المبادلات التجارية حتى لبس الأمير قسرا على كل من كان موجودا منهم على الأرض . وفي آخرون نفس هذا المصير في طرابلس (٢٨٥) . وعندما دفع البنادقة ملك قبرص بطرس الأول إلى أن يملك الصلح مع السلطان ، كان ذلك كما نرى نصحا من أجل مصلحة ، وكانت غايتهم تحنيب مواطنيهم عواقب أعمال كيدية من هذا النوع . ولم تكن للحمية التي أبدتها القبطاليوس في اقرار السلام باعث غير هذا (٢٨٦) ، وبدأ البعض منهم بالفعل يزورون بيروت .

Piloto, p. 387, (٢٨٤)

Mechairus, p. 100; Commen. reg. III, p. 43, no. 234; p. 39, nos 301, 303. (٢٨٥)

Mechairus, p. 94, 100. (٢٨٦)

بل ودمشق مد زمن مبكر (٢٨٧) ، في فترة كان التجول في بلاد المسلمين حدثا نادرا ودليلا على الجرأة .

وإذا تسامل البعض عن مدن سوريا التي استعادت هي عودة الحركة التجارية ، نجيب بأن بيجولوتي لا يذكر سوى أربعة مواطني عكا ، وبيروت ، وطرابلس ، واللاذقية ، وحلب ، وحمص ، وحمص (ليسدا Hama) ، ودمشق ، وحماة ، واللاذقية ، وحلب ، ويقارن موازين ومكاييل هذه المدن بنظيراتها في أماكن أخرى . وفي خصوص بعض هذه المدن يذكر الرسوم الفعولية الواجب دفعها عند الدخول والخروج ، ولكن هذه المعلومات تتسم بحفاف الإحصاء ، ولا تفتح لنا رؤى كافية عن حالة التجارة في البلد . لما أهم المواطن في مملكة بيت المقدس القديمة ، تلك التي ازدهر فيها النشاط التجاري في الأسبوع الأوروبية ، فإنها صارت خراب مهجورة .

وفي عام ١٢٢٠ ، وعام ١٢٤٠ ، بعد انقضاء حوالي نصف قرن على سقوط الدول اللاتينية ، زار بعض الحجاج عكا ، وصور ، وحمص ، وقيصريه ، وعسقلان ، ويافا ، ووجدوا في هذه الأماكن مناظر الخراب الكئيبة (٢٨٨) . ولم تعمل حكومة المسلمين شيئا لاعادة بنائها ، ومع ذلك فبالنسبة الى عكا مثلا ، لم يكن الأمر يتطلب بذل جهود كبيرة . ذلك ان الحكومة لم تكن تريد ان تفرى هذه المدن القريبة لاعادة غروها ، وأنهم اذا عادوا فاستولوا عليها بحملة صليبية جديدة فإنها لن تترك في ايديهم سوى خراب . ومن بين هذه المدن ، كانت عكا وحماة هي التي لم يزل بها القليل من الحركة التجارية . غير ان الحياة التجارية أصبحت من ذلك الحين متكررة في دمشق وحلب ، وكان هناك مستقبل ينتظر المدن الساحلية التي لها صلة بتلك الأسواق الكبيرة ، مثل بيروت وطرابلس واللاذقية ، أو أنها بدأت بالفعل تكتسب بعض الشهرة ، وينوع خاص بيروت التي يصفها جويوم دي بولدسويل (٢٨٩) بأنها مدينة مثالية .

(٢٨٧) بعد ائدة لذلك بالنسبة لسلي ١٢٢٥ ، ١٢٢٨ في

Mas Latria, *Etat de Chypre*, II, 722-734.

Baldensie, p. 242-244; Luchelph de Suthem, p. 38, 48; Ibn (٢٨٨)

Beloua, I, 128; Aboufadia, *Géogr.*, II, 2, p. 17, 20, 22.

Op. cit., I, 286. (٢٨٩)

(ج) أسواق وطرق جديدة ينشئها التتار

أولا : ظهور التتار (المغول)

كان لظهور المغول (التتار) في الساحة العالمية تأثير حاسم على نمو التجارة بين الشرق والغرب ، هذه القبيلة التي لم تكن بالكاد معروفة حتى ذلك الحين ، بدأت باضطباع عدد من القبائل المجاورة لها وغسها إليها . وعندما ست قواتها بدرجة كافية ، وانطلقت خارج آسيا الوسطى بقيادة حاكمها تيموجين المنقب بجنكيزخان (أي القوي) ، مساند الاعتقاد بعودة عصر الفتوحات الكبيرة . وتتمثل طبيعة جنكيزخان وخلفائه في عجرفة لا حدود لها توحى اليهم بالطموح الى بسط سيادتهم على العالم كافة . ولكي يحققوا هذا المشروع الهائل جندوا جماعات لاحصر لها من المحاربين المدربين تدريباً جيداً ، واستخدموا خليطاً من العزيمة والرياء للتغلب على كل المقابلات التي تترض مسيرتهم ، واستضافوا بأرواح البشر بدرجة لم يعرفها أحد حتى ذلك الحين . كانوا وهم منتصرون يختمون لفتوحاتهم بمذابح بشرية حلقية ، ويولسون الخراب بمن يبقى حل قبس الحياة باستئصالهم بأساليب بارعة لم يسمح بها أحد .

ولم يلبث المغول أن ظهوروا في المراكز المتقدمة من العالم المسيحي . وفي عامي ١٢٢٢ - ١٢٢٣ اجتازوا كالمناصلة الهوياء القوقاز ، والقرم ، وجنوب روسيا . غير أن ظهورهم هذا كان مجرد ظهور عابر ، فظهروا ثانية بعد بضع سنين ، وعلى رأسهم باتوقخان . وفي هذه المرة مدوا غزواتهم المدمرة حتى سيليريا Silesia ، وبوهيميا Bohemia ، وحنغاريا (١٢٤١) ، وألقوا لهم مستوطنة دائمة في جنوب روسيا .

ولما كان العالم المسيحي في الغرب قد تعب من الحروب الصليبية ، وانقسم الى حزبين بسبب النزاع بين البابوية والأمبراطورية ، فانه لم يفكر في شيء سوى أن ينهض بجموعه ليحارب العدو المشترك . وبدأ البابوات بالدعوة الى حرب صليبية ضد المغول ، ولما رأوا أن جهودهم غير مجدية ، خطر لهم أن يستخدموا صدهم الإصلاح الرومانية ، ولهذا لجأوا الى جماعات « الصديقة » التي نشأت حديثاً ، وتميزت بحماسة دينية قوية . وكان الأمر يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة لوعظ هؤلاء الخانات التتار الذين يعتبرون أنفسهم سادة العالم حتى يخضعوا لقرينة المسيح ومبطله على الأرض . وكان لابد أيضاً من شجاعة كبيرة للتقدم على

مزاولة أي نوع من التجارة مع جنس بشري كانت شرامسته وعاداته
الثورية تبث الرعب في نفوس البشر كلهم . ولكن النجاح مهم في هذا
السبيل كال نصرا لا يقدر بشئ .

والواقع أن اعتناق القول الدين المسيحي لم يبد مستحيلا حتى تكون
كل محاولة تبدل في هذا السبيل غير مجدية . وبالفعل تكون في وسط
آسيا حول نواة هذا الجنس المسيطر كتكتل من عشائر تغم أكثر من
عنصر مسيحي . فمن بلاد ما بين النهرين وبارس حيث مقدار حركاتهم
الرئيسية ، نشر السطوريون حولهم بلا ضوابط فكرة المسيحية ، وتجن
تأثيرها في تلك النواحي . من هذا أن اب Kamites ، وهي قبيلة كبيرة
استقرت على حدود الصين ، اعتنقت منذ زمن بعيد الديانة المسيحية ، يشهد
بذلك المؤرخ المسيحي أبو الفرج (Aboulfaradj (Bar Hebraeus (٢٩٠)
والمؤرخ المسلم رشيد الدين Rachideddin (٢٩١) ، ويرد الأخير
هذه الواقعة مرارا . هذه الشهادة المزدوجة المصادرة من معسكرين
مضطادين تبدو لنا كإثبات هذا الأمر (٢٩٢) .

ولمة قبيلة أخرى لاتقل خدماته من السابق ذكرها ، وهي
قبيلة اليايمان Naimans التي استقرت على المجري العلوي لنهر
ارتش Erlich ، يزعم البعض أنها كانت تدين المذهب السطوري ، يؤكد
هذا الزعم على الأقل جويوم دو روبروك Guili de Roubrouk
وبعض الكتاب الشرقيين . إلا أن ثمة مبشر آخر ، أقوى ملاحظة من
جويوم دو روبروك ، وهو يوحنا دو يبو Oulgours دو كاربين
Jean de Plano de Carpine يقول لنا ان اليايمان كانوا وثنيين (٢٩٣) .
وعلى أية حال فالثابت أن المسيحيين كانوا يعيشون بأعداد كبيرة وسط
العشائر التي لم تدين المسيحية ، مثلا عند الأويغور Oulgours (٢٩٤) .
ويؤسس عام من الرحالة الغربيين الأوائل الذين زاروا بلاد القنار وجنوا

Hist. Dynast., éd. Peacocke, p. 437; Chron. Syr., éd. Bruns (٢٩) .
3e partie, p. cccxxxv et s.; Voy les remarques de M. d'Arvenc dans
3e partie, p. cccxxxv et s. ; Voy les remarques de M. d'Arvenc dans
l'introd de Jeh. de Plan. Carpin., p. 884 et s.

Hist. des Mongols de la Perse, éd. Quatremère, I, 93, (٢٩١)

M. Zarncke (op. cit., p. 66 et ss.), (٢٩٢)

G. de Rubr. p. 269, 295; Erdmann, Turanochin, (٢٩٣)
p. 863; Zarncke, Op. cit., p. 67.

G. de Rubr., p. 282, 288; Hayton, De Tartaris, cap. 2, (٢٩٤)

مسيحيين من المذهب النسطوري منتشرين في كل اسماهم ومهم
 لساوستهم وكناستهم (٢٩٥) . ويشغل بعض النسطوريين في بلاد
 الخانات التتار مناصب الوزراء والأطباء والمعلمين ، ويتبعون لغة
 بنغوز كبير (٢٩٦) .

وأجرا لائسي ماكان يؤويه بعض النساء المسيحيات ، أمهات
 الخانات أو زوجاتهم . وتتوقع من هذه الناحية نتائج عظيمة من الأملات
 التي اسفلت بين ذرية تيموجين (جنكرخان) وأسرة زعماء قبيلة الكيرايت
 Kerait الذين أصبحوا تابعين للتتار . هذه الأسرة المسيحية
 أنجبت أم خاني مانجسو Mangou الشيرين قبلاي ، وهولاكو ،
 وزوجة هذا الأخير ، وزوجة أرجون خان Argoun-Khan : واسماؤهن
 هي سيوركوكيتي Slourkouditi ، ودوكوز - خاتون Dokous
 Khatoun ، وأوروك Orouk ، وكان الثلاثة يمتلكن المسيحية
 صراحة ، وللاثنين الأخيرتين الفضل في تمتع المسيحيين بحظوة كبيرة
 لدى زوجيهما (٢٩٧) . وعلى عام ١٢٤٥ سافر الميشرون الأوائل الذين
 أولفهم الكرسي الرسولي إلى بلاد التتار : ولم يكن هناك في هذا الوقت
 أية معلومات عن هذا الشعب ، فلم يؤخذ في الاعتبار بعض العناصر التي
 كان من شأنها أن تكون ذات أثر فعال في هداية هذا الشعب إلى الدين
 المسيحي .

ومع ذلك انطلق راجين ، اسيلان Ascelin الدومينيكاني ،
 ويوحنا دو بيلانو كاريني الفرنسيسكاني بشجاعة الإيمان ، وتوفلا مع
 رفائهما ، أحصيا في المواقع الأممية للتتار في فارس ، والثاني إلى

G. de Rubr., p. 283, 301 et ss., etc. ; M. Polo, I, 168, 169 (٢٩٥)
 et ss., 165 et ss., 203, 308, 314. Lettre de Sempad, dans Guillaume de
 Mangis (Bouq., XX, 360 et ss.).

Abulfaraghe, Hist. dynast. éd. Fococke, p. 321; Assemani, (٢٩٦)
 Biblioth. or., III, 2, p. 106. Rachideddin, citation dans Saint-Martin,
 Notes sur l'Arménie, II, 289 et dans d'Obssac, Hist. des Mongols, II, 284
 et ss. ; G. de Rubr., p. 283, 320-326; Orpélan, dans Saint-Martin, Op.
 cit au bas de la p. 135.

Quetremère, Rachideddin, I, 90, Saint-Martin, Op. cit. (٢٩٧)
 Rachideddin, I 94 et ss. ; De Tartaria, cap 27; Idaleide, dans Brosset,
 Hist. de la Géorgie arabe, et érudite p. 416; Kiruoss de Géralag, dans
 Brosset, Deux historiens Arméniens (S. Pétersb. 1870-1871), p. 165,
 184 et dans Daburcier, Les Mongols d'après les historiens Arméniens,
 dans le Jour, asiat., V série, T., XI, p. 491, 507; Varian, dans la Suite
 de cet article, Ibid. T. XVI, p. 200 et ss., 360 et ss. , Hayton, Op. cit.,
 cap. 48 . Hammer, Gesch. des Orients, I, 385, 395.

ممسك خانات التتار أنفسهم . وفشلت هذه الارشالية الأولى تماما ،
 ورفض التتار رفضا باتا أن يمتنعوا الدين المسيحي ، وأجابوا اجابة
 خاطئة بأن على مسيحي الغرب أن يخضعوا لسلطانهم . وفشل كذلك
 البطريرك اللدان أوجين القديس لويس S. Louis ، وهما أندريه دو
 لونجيمو André de Longjumeau (١٢٤٩) ، وجويوم دو روبروك ،
 وهو راعب فلينكي (١٢٥٣ - ١٢٥٥) . وعلى أثر ذلك ضمت الأمل في
 الغرب بصورة واضحة في نهاية التتار الى المسيحية .

وفي هذا الخصوص ، كان مسيحيو الشرق أشد مثابرة . وعالجت
 أن ذاع بين النسطوريين المنتشرين في مسكر البلاط أن حانا أو أميرا ما
 حصار مسيحيا في السر ، أو أنه على وشك أن يصبح مسيحيا (٢٩٨)
 والثابت أن هؤلاء كانوا يبالغون في اظهار نفوذهم ، ويضعفون
 حصصات الأمراء التتار . والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يبدون الكثير
 من العطف على المساواة المسيحيين ، ويؤيدون كنائسهم ، ويحضرون
 اجتماعاتهم : فقط فأت هؤلاء النسطوريين أن ما يخله الأمراء مع المسيحيين ،
 يخلونه بالمثل مع الكهنة الشامانيين والبوذيين والمسلمين ، فكانوا يمنحون
 كل هؤلاء نفس الامتيازات . ولم يكن هذا السلوك يدل على تغيير في
 الدين ، وإنما يخفي لامبالاة شديدة بأمور الدين والمعتقد والشؤون
 السياسية (٢٩٩) . ولا خرجت هذه المشايكات من بين صفوف
 النسطوريين فانها ذاعت لدى مسيحي غرب آسيا ، من أرض وجورجيين
 حين كانت لهم مصدحة خاصة في نشرها في الغرب ، إذ كان يسهم فوق
 كل شيء أن تكون هناك علاقات ودية بين مسيحي الغرب وبين التتار .
 وعندما خف العرب الشيء استغاثته الغزوات الأولى ، لم يثبتوا أن يعترفوا
 بأن نير التتار آمن عليهم من نير المسلمين الذي كان ثقبلا على البعض
 منهم ، وكان الباقون مهذبين به ، وكأنه قدر لا مفر منه .

وبفضل وساطة لوية أداما سوري نسطوري ذو نفوذ ، هو الدكتور
 سيميون Siméon (١٢٤١) وملك أرمينيا حيتوم الأول Hétoum Ier
 (١٢٥٤ - ١٢٥٥) علمهم الخانات العظام معاملة طيبة غير عادية ،

Joh. de Plén, Carp. p. ٢٥٥; G. de Rubrouck, p. ٢٥٥. (٢٩٨)

Mon étude sur les Colémanes de l'église romaine dans les pays (٢٩٩)
 Ta-ara, dans la Zeitschrift J. hist. Theol., 1888, p. ٢٥٥ et ss., p. ٢٥٥,
 ٢٧٥ et s.

Kieros, dans Brosset, Op. cit., p. 137 et s. 178, Lettre du (٣)
 connétable arménien Sempad, l.c. p. ٢٥٢, l'Hist. de Sempad Orpélian,
 dans Saint Martin, Op. cit., p. 129 et ss.

ومدحهم بلا مقابل حرية ممارسة عقوسهم ، بل وصرحوا لهم أن يمشيوا
 كنائس جديدة على نفقتهم (٣٠٠) . وراعى هولاءو حال في العديد من
 اللس التي استولى عليها أن يحافظ بقدر المستطاع على أرواح المسيحيين
 وأموالهم وكنائسهم (٣٠١) . ومع أنه لم يكن مسيحيا (٣٠٢) ، إلا أن
 تصرفاته يظهر فيها تأثير زوجته النسطورية ، دوكور خاتوم ، وكان يميل
 بفضلها إلى معاملة المسيحيين بالحمس ، وأظهر لهم اعتزاله بما أبداه
 المقاتلون الجورجيون والأرمن من شجاعة في قتالهم المسلمين إلى جانبه
 القتار (٣٠٣) . وأما لتلمس هنا سببا ثانيا ، سياسيا ودينيسا لانتار
 المسيحيين الشرقيين القتار بصورة واضحة .

ويدل أن القتار قدر لهم أن يقصوا على تفوق الإسلام في آسيا .
 لذلك غلب العنصرية المباشرة التي أرلها هولاءو بقلب للإسلام بقضائه على
 الخلافة في بغداد (١٢٥٨) وأصل فتوحاته لغرا سوريا ، والضم إليه
 الجورجيون وسكان أرمينيا بأوامر من أمراهم ، ثم سكان جنوب أرمينيا
 الصغرى بقيادة ملكهم حيقوم الأول ، انضموا إليه في حمس . وبقناتهم
 تحت أملاكه عذر العالم المسيحي (٣٠٤) لم يكونوا يفتكرون في أنهم يؤدون
 واجبا مفروضا عليهم كاتباع ، وإنما يؤدون واجبا مقدسا . ولسوء الحظ
 فإن المسيرة المظلمة التي قام بها القتار وحلفائهم المسيحيون بنت
 نهايتها .

فبعد زمن قصير ، أوقمت أقوى دولة في الإسلام وهي مصر بالقتار
 مزيتي ساحقتي . ودخلت سوريا (١٢٦٠) دخول السادة العظام .
 ودخلت أرمينيا الصغرى غالبا ثمن نجاحها الماير . وكان منجو Mangou
 قد وعد ملك أرمينيا بفرو الأرض المقدسة ، وأعادتها بالنال إلى المسيحيين .

(٣٠١) Khreco, p. 126 et s., 128; d'Oshazo Hist. des Mongols, III, 241; Ricold, de Monte Crucis, dans Laurent, Peregrinationes medice oval, p. 120.

(٣٠٢) Hayton, De Tartaria, p. 424 . Varian, l.c., p. 306-305.

(٣٠٣) Malakda, l.c., p. 486; Varian, l.c., p. 304 . Hayton, p. 420; Orpélian, dans saint-Martin, Op. cit., p. 123, 122; Bar-Hebraeus, Chron. Syr., p. 148 Rachideddin, I, 94 et s.

(٣٠٤) استقبل المسيحيون احتلال القوق دمشق بلرح . والتهربوا هذه الفرصة لامتلاء
 استقبل بدمرلة . وأعادتهم . وسبهم . وتركهم القائد القوق . وهو مسيحي . يظنون
 ذلك . انظر ، القوق

Hist. des sultans mamloeks, éd. Quatremère, I, 1, p. 98; cf. p. 106.

ويبدو أن هولاء كانوا تكفل بتنفيذ ما وعد به أخوه (٣٠٥) ، ولكنه أحقق - غير أن فشل هذه الحملة أثار في نفوس مسيحي الشرق رغبة حارة بأن يوحدهوا بأي ثمن قوى التنار ، والعالم المسيحي الغربي ضد العدو المشترك ، مصر .

وعكف ميوك أرمنييا بهمة من الجالبيين على تحقيق هذه الفكرة ، ووجدوا لدى حانات التنار استعدادا تاما لذلك . وانتهى العصر الذي كان فيه الحانات العظام يندرون أمراء إنغرب بالخصوع لهم دون قيد ولا شرط . وانقسمت امبراطوريتهم الهائلة الى خانات مستقلة وكلها شاسعة وقوية ، ولكن كثيرا ما كانت أعمالهم الخارجية تمرق خلف ما بينهم من منافسات داخلية . ولم يعد في وسع سادة هذه الامارات المضطرة أن يتكلموا بالهبة المتصرفة التي كان يستخدمها الحانات العظام كآلة لنشوء انصهاراتهم . على أنه لكي يستنى القيام بأشئلة المطلوبة عند سوريا ومصر لم يكن في المستطاع الاستعانة بغير أمير واحد من هؤلاء الأمراء ، ذلك هو سيد مملكة التنار التي أسسها هولاء في فارس . فإغان الأكبر الذي أقام في العصب لم يزل يمارس على هذه المملكة نوعا من السيادة الإقطاعية ، ولكنه لم يعد يحتم بمشكون غرب آسيا .

وكان خليفة هولاء المباشر Abaka (١٢٦٥ - ١٢٨٢) ملتزما بسياسة سلفه ، متبعاً تصرفاته الطيبة مع المسيحيين (٣٠٦) ، ومن ثم اتخذ الخطوات الأولى في تنفيذ هذه السياسة ، فأولفه مرارا سفراء الى البابا وبعض أمراء الغرب يحثهم على التحالف معه وتنظيم حملة مشتركة . وأبدى ابنه أرجون Argoun (١٢٨٤ - ١٢٩١) للمساخر تلسها التي كانت لوالده من ناحية المسيحيين ، ووجه الى أمراء الغرب الدعوة اثر الدعوة للقيام بحملة صليبية ، واعدوا دياهم بتقديم جيوش ومؤن . ومن بعده واه خاتية أخسر ، اعتنقوا الاسلام ، منهم غازان Ghazan (١٢٩٥ - ١٣٠٤) وأولجايتو Oldjaïtou (١٣٠٤ - ١٣١٦) ، واجهوا دون خوف فكرة محاربة عنوهم الأكبر سلطان المماليك (٣٠٧) . ومعهم جيوش مسيحي .

ولم يفت السفراء للكلثون بحمل رسائلهم الى الغرب ، وهم

Hayton, p. 418 et s., 421.

(٣٠٥) .

Biographie du patriarche nestorien Yabalaha III (mort en 1318), trad. Slouffl, dans le Joura, asiet, 7e série, t. XVII (1881), p. 82 et ss.

Le livre sur sur les Tatars, écrit en France en 1307 par Far- (٣٠٧) méntien Hayton (Héthoum), voy Cap. 55, 58, 60.

مسيحيون في الغالب أن يلمحوا بأن سادتهم قد تحولوا تحولاً نصلياً
إلى الكامل إلى العقيدة المسيحية ، سواء كان ذلك مثبتاً أو غير مثبت في
التعليمات الروماني بها . والواقع أنه لم يكن هناك شيء من هذا ، غير
أن هذا التلميح كان له أثر طيب ، وكان للسفره يطلبون من البابا التفضل
بإيفاد مبشرين لهناية شعب التتار إلى المسيحية . وكان الدابوات سمعوا
بأن يجدوا أعواناً لهم في المسائلتين اللتين تهملهم فوق كل شيء . العودة
إلى شن الحملات الصليبية ، وهداية التتار إلى المسيحية ، ومن ثم أحسنوا
ولادة هؤلاء السفره ، أيدهم بحماس .

على أن الأسراء اللاتينيين اقتصرنا على بسند وعود لم تنسك
بالمرة (٢٠٨) . وبدا من الجيوش الصليبية التي كان الهانية ينتظرونها ،
فإنهم لم يستقبلوا سوى مبشرين يحصلون توصيات من البابا أو من أمير
مسيحي . وكان هؤلاء المبشرون يؤفون مهمتهم بصفة يستحقون عليها كل
ثناء ، وكانوا يحضرون معهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عددا
كبيرا من المسيحيين الشرقيين ، وعيشيون الكنائس والأديرة ، وينشئون
مطرايات وأبرشيات . غير أن جهودهم كلها لم تمنع جمهور الشعب
الاعتاري الكبير من أن يصدق الدين الإسلامي . وعند عام ١٢٩٥ اعتنق
الغارات الذين بقوه حتى ذلك الحين أولياء الدين آباءهم ، اعتنقوا الدين
الإسلامي . ولم يتخلروا بعد ذلك بالمرة عن الإسلام ، باستثناء واحد فقط
منهم ، هو تاجودار أحمد (١٢٨٢- ١٢٨٤) Tagouder Ahmed ،

ولحسن الحظ كانت الاعتبارات السياسية التي تفرض سلوكيات
طيبة مع الغرب تخلف من التعصب الديني الملائم لهذه الديانة . وكان
ذلك بتأثير ملوك أرمينية ، وبروح التسامح الديني الذي لم يزل حيا في
نفوس الجنس المغولي ، وإذا كان هناك بعض الانشغافات التي اقترفت
ضد المسيحيين ، فإنها لم تكن طويلة الأمد .

وهكذا ففي غضون النصف الثاني من القرن الثالث عشر تحولت
الاضيق التي شاعت بين التتار وبين العالم الغربي إلى نوع من التجاذب ،

(٢٠٨) لم يمتد ذلك جاك الثاني ، ملك أراجون الوحيد بالنبط التي أيداعا في عام
١٢٠٠ كان غزاه عن طريق بادر أوليفر (من برشلونة) ، انظر :
Capmany, Memorias, IV, 38 .

وكان قد فرض دينا أن يحصل على جزء من البلاد التي يتم فتحها ، وإن يزلزله
بالسر إلى سوريا والجزيرة بها وزيارة الأرض المقدسة دون أن يدفعوا أية جزية .
وبما يخص برشلونة ، لا شك في أن لغة « اسفار » voyage تنمى ليس فقط
وشكك الحج ، ولكن أيضا الرحلات التجارية .

فصار كل منهما يسعى إلى الآخر . الغرب بمكثرة تحويل التتار إلى الدين المسيحي ، والتتار بأمل الحصول من الغرب على إمدادات ليحاربوا عدوهم القوى . عصر . وانتهت هذه المحاولات كلها بالفشل ، من كلا الطرفين . إلا أنها أسفرت في وضع سبيلين متعاقبة في تبادل الخطابات والرسائل . ونتج عن ذلك تقارب بين الصليبيين تجنى أثره بالحرب . في غير المسائل السياسية والدينية .

وفي أثر البشر القادم إلى بلاد التتار ، أقبل التاجر ، ودم أشغال يوحنا دابهاو دي كازيني ، وأندريه دو لونجيمو ، وجيرون دو دوبرولك برسم الطريق الذي سلكه بعدهم ليس فقط العديد من رجال الدين المستعمرين بالتيشير ، ولكن أيضا الصليبيين الذين اجتذبهم إلى تلك البلاد إنشائية الرغبة في الربح . فقد فتحوا لمن ساروا عن هجمهم الطريق إلى إقطاع شاسعة ، بأن توغلوا حتى حفر الخان الأكبر في مجاورات قرية فوردوم ، وهي مدينة والمة تحتوي بحيرة بيكالك Baikal في بلاد الكلكاس Khulkas . على بعد أربعة أو خمسة أميال إقليمية من المجرى العلوي لنهر أورخان Orkhan في الموضع يسمى الآن قرية بلفاسون

Kara-Balgassoun (٢٠٩) . ولم يدخل قبلهم أي تاجر أوروبي في قلب قارة آسيا ، ومن المستحيل إثبات أن التجار الحقيقيين في موانئ الدول الصليبية قاموا برحلات كثيرة داخل آسيا بل إنه ليس لدينا مثال واحد يثبت أنهم خاطروا بالذهاب لقطع إلى بغداد أو حتى إلى صقلاب الخليج الفارسي .

وكانت دمشق وحلب الواقعة على بعد يومين أو ثلاثة أيام من البحر المتوسط كمثلان الحد الأقصى الذي لم يتجاوزه من ناحية الشرق أكثر التجار الغربيين ، ولم يكن التجار يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل كان بعض التجار الإيطاليين قد صعدوا مجرى نهر جيبيان Bysban وتوغلوا عن هذه الطريق في أرمينيا الصغرى ، في حوض نهر الفرات ، إلا أنه من المستحيل تحديد النقطة التي وصلوا إليها . وكانت سواحل البحر الأسود وبحر ألوف وقتئذ لا يتردد عليها إلا القليل النادر من التجار الغربيين . ولم يكن التجار يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل في وسط آسيا . وكان لابد لهؤلاء التجار من بذل جهد كبير ليتصرفوا

Obel Rémusat, Recherches sur la ville de Kara-Korum (٢٠٩)
Oñem. de l'Acad. des Inscr., VII (1854, p. 134 et ss.), p. 338 et s.,
Fauchier, M. Polo, p. xxviii et s., et p. 171; et Joura. Asiat., 9^e série,
T. IX, p. 50; Yule dans le Geographical Magazine, juill., 1874.

١٠ يشهد المؤلف على معلومات السائر الروسي بائس Paterin التي زار

أعمال هذه المدينة في عام ١٨٧٣ .

بأنفسهم على بلاد آسيا التي يسقط عليها الخانات سلطاتهم : وإن لم يكن ما وراء الفرات كله أرضا مجهولة عندهم ، فإن كل تلك البوادي كانت على الأقل أرضا عذراء .

وأسيما ، فحتى ذلك الحين لم يكن أي أوروبي قد زار البلاد التي تمتد شرقي آسيا ، خلف إقليم الخلفاء . ولم يكن ذلك بسبب أن هؤلاء التجار الغربيين تقتصرهم روح المغامرة ، فإن ما كان يمنهم ينوع خاص من التوسع داخل القارة الآسيوية هو التعصب الإسلامي الأتني عفا في الداخل منه على الحدود حيث كان سلاطين حلب وإيكونيوم (قونية) على الأقل يقاتلون عند معاهدات تجارية مع الإيطاليين . وفي خارج سوريا وآسيا الصغرى كانت كل خطوة يشطوها المسافرون تعرضه مزيد من الأخطار . وعلى العكس من ذلك لم يعرف المغول كما سبق أن قلنا هذا الهوس بالاحتطافات الدينية ، فالكثيرون من المسيحيين الذين التزمهم من أرطاناتهم ، وألوا بهم لسرا إلى وسط آسيا ، وكذا المسيحيون الذين استقروا بإرادتهم في إمبراطوريتهم ، امتسروا يمارسون دون أي عائق عاداتهم الدينية ويقتنعون بوجه عام بمعيشة يمسكون عليها : وتسنى تلبسهم أن يستولوا من ذلك بأنفسهم .

وكان في مقدور المسافرين المسيحيين المزودين بجوازات مرور يحصلون عليها من الخانات ، وبمصحبة حرس من المغول ، وفي حماية لوطائين أن يتوغلوا في أقسام المملكة الشاسعة التي يسكنها أقوام أفنديهم مسلمون ، مثل بلاد ما بين النهرين ، وإفارس ، وبخارى ، وتركستان . ومن حيث الحضارة ، لم يكن المغول متخلفي بدرجة لا يستطيعون معها أن يعرفوا قيمة منتجات البلاد الأخرى . وثمة حقيقة واحدة تكفي لإثبات رأي مسبق في صالحهم ، ذلك أنهم كلما استولوا على مدينة كانوا يراعون بعامة سلامة العمال من سكانها وينشئون العديد من المستوطنات الصناعية وينقلون العمال إلى موانئ مختلفة من إمبراطوريتهم (٢١٠) . وعلى ذلك كان في مقدور التجار الأجانب أن يطبقوا إلى أنهم سوف يجدون هناك كل ترحيب . وكان جنكيزخان في عصره حريصا على ألا يعرقل شيء مسير القوافل ، وكان السبب في تسوية حرب من أكبر الحروب التي حاشتها ، المناهضة الفاسية التي لقيتها في إقليم بعض سلاطين سوارزم قافلة كان قد جهرها هو بنفسه : فقد قبض على التجار الذين يشكلون القافلة عند

Les missionnaires Jean de Plano de Carpina (p. 697, 711) (٢١٠) et Simon de B. Quentin (voy. Vigne, Ballov., Spec. hist., lib. 29, cap. 77); Rashideddin, éd. Goussemben, p. 181, 329, 389; d'Oshon, Hist. des Mongols, III, 77, 80, etc. Gauthier, de Hübner, p. 279 et s., 389.

وصولهم الى اوترار Otrar ، وسلبوا ، وقتلوا ، ذلك في حين انه كان يماثل تجار هذا البلد أحسن ماملة ممكنة (٣١١) . وكان قد أقام مراكز على طول الطريق لحماية التجار (٣١٢) . وموصوف نرى خانات فارس يراعون مهمة هذا التنظيم ويقيرون قوات عديدة لحفظ الأمن في الطرق . وكانت ارادة سادة البلد تقضي بأن يلقى التجار الأوروبيون في كل مكان عونا ومساعدة . وعلى الأكل حرص خانات فارس الذين هم من أصل مغولي على مراعاة هذا السلوك لاجتذاب مسيحي الغرب الى حلفهم ضد مصر .

وهتلعا غزا الخانات القسم الغربي من آسيا ، عكفت الأمم التجارية العربية على ملا الاراغ الذي حدث بعد ضياع سوريا ، لأن الشريط الضيق من الأرض ، وهو آخر ما تبقى للفرع اللاتينية على الساحل ، كان مقدرا له السقوط ان عاجلا ام آجلا في يد مصر . وعلى ذلك وجهت هذه الأمم انظارها بطبيعة الحال صوب امبراطورية المماليك الفخاشية ، وهي تعرف من ذلك ما فيه الكفاية ، فلا يثير هذا الأمر دهشتها .

ولم يكن دخول الامبراطورية أمرا سهيا : فعمته الخروج من أرمينيا ، لم يكن على المرء الا أن يعبر سلسلة جبال طوروس ، وعلى السبلح المقابل يظا أرض المماليك . وكان لأرمينيا مرة أخرى ، باعتبارها نقطة بداية : ذلك أن ملوكها كانوا في آن واحد أصدقاء لعمال المسيحي الغربي وأتباعا للخانات المماليك . وإذا فضل المرء أن يبدأ الرحلة من امبراطورية طرمزون الصغيرة التي اضطر ملوكها أن يسلموا بسيادة الخانات المماليك ، فإن مسيرة بضعة أيام تؤدي به الى القليم (٣١٣) . وأخيرا ، كانت امبراطورية المماليك تتمتع بفضيل قسما من أوروبا ، وتضم هناك مساحة من السواحل يمكن الوصول اليها بسهولة من ناحية البحر ، وكذا الساحل الشمالي للبحر الأسود ، وسواحل بحر آزوف كلها . ولما كان انتشار حيلة من أبناء السهوب (٣١٤) ، فالحزم لم يستطيعوا من احتلالهم للواءه ليبينوا لهم أساطيل ، ومن لم كان في وسع السفن الأجنبية أن ترسو هنا دون أن تخشى لقاء من يناقشها .

ومن ذلك الحين الفتح للتجارة طريقان سلكما الغربيون فتوغلوا في قلب عالم القنار : أحدهما يبدأ من أرمينيا الصغرى أو امبراطورية

Edmann, Temudschin der Uner-schütterliche, p. 363 et s. (٣١١)

Ibid, p. 368, (٣١٢)

Güll, de Rührrock, p. 218, (٣١٣)

Cantacus, III, 193, (٣١٤)

طربرون فيؤدى أولا الى فارس ، ومن هناك ، قد يركب المسافر البحر ليعبر الخليج الفارسى ، ويواصل رحلته حتى الهند أو الصين ، والطريق الثانى يبدأ من جنوب روسيا الحالية ويجتاز وسط آسيا وينتهى الى الصين ، وتبدأ بدراسة الطريق الأول (٣١٥) .

ثانيا - أرمينية الصغرى

باعتبارها الطريق الى وسط آسيا

بعد ازدهار امانة انطاكية ، الحصن الشمالى لفنول الصليبية ، ازدهارا مؤقتا ، انكشفت منذ بضع سنوات حتى أصبحت قاصرة على مدينة انطاكية وبضعة حصون الى أن سقطت نهائيا تحت ضربات سلاطين مصر المظفرين . وكان ذلك قبل سقوط عكا برمن طويل . وأدت هذه الحسارة الى انزعاج تجارة الغرب من سوقى انطاكية واللاذقية ، فكان من الضروري العمل على إيجاد أسواق جديدة ، ولكن لأبد من استيفاء عدة شروط : لهذه الأسواق يجب أن تكون واقعة على جزء من الساحل بعيد عن غارات الكفرة (يقصد المسلمين) ، ويجب التأكد من حسن استقبال التجار بها ويجب أيضا أن تسمى الأسواق منفذا ميسورا للمنتجات الواردة من داخل القارة الآسيوية حتى تصير الى الغرب . ولحسن الحظ كان هناك بلد يجمع كل هذه المزايا : وهى مملكة مسيحية تقع على رأس الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى وسورية . ونحن نعرف ان الأمم التجارية كانت منذ زمن بعيد على علاقات ودية مع هذا البلد .

وكان هناك على الساحل المحيط بشليخ الاسكندرية ميناءان ، أولهما أصبية هو ميناء بالى (بالى)

Palī (Pala), Pottus Pallorum, Portus de Pallibus

ويقع على بعد عشرة أميال من انطاكية شمال غربى نهر جيحان . ولغة عقود موثقة فى سنتي ١٣٧٤ ، ١٣٠٠ تعرفنا بأن هذا الميناء كان بمثابة محطة يتردد عليها عدد من السفن التجارية القادمة من جنوا وبرشلونة (٣١٧) .

ولا يبدو أن فترة نشاط هذا الميناء قد طالت كثيرا بعد سنة

Esauto, dans Bongars, II, 88 et s., et les Portulans du Moyen-
Âge

١٣٠٠ ، ذلك لأن الأبحر بروشار Brochart يتحدث في تقرير له عن موانئ الخوض الشرقي للبحر المتوسط التي يسكنها أن تحتوي أسطولا في حالة تنفيذ مشروعات الحروب الصليبية التي كان يجري اعدادها وقتئذ ، فيقول عن ميناء بالورس Paloros انه ميناء مهجور ، كما انه صغير وضيق بالنسبة الى مثل هذا الأسطول (٣١٨) . نجد هذا الاسم أيضا على الخرائط البحرية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وكذا خرائط القرن الخامس عشر . وليس من الجائر أن نستنتج من ذلك أن هذه الساحة قد احتفظت بأية أهمية كميناء بحري : ذلك لسبب بسيط ، وهو أن وأضى هذه الخرائط قد اكتفوا بلمسح خرائط من سبقوهم .

وعن بعد عشرة أميال فقط من هناك ، نحو الشمال الشرقي ، غير بعيد عن أطراف ايجيه القديمة Egeo قامت مدينة حرمة ، تلك هي ثيرا وقلة آياس Lazaro ، الواقعة داخل الخليج الذي يحمل هذا الاسم ، ولعلناز على جارتها بأن لها ميناء لمسيحا ، ويؤود عنها حصان ، احدهما قائم على جزيرة قبالة المدينة (٣١٩) . وعندها يخرج المسافر من هذه المدينة ذاهبا الى شمال سورية ، لم يكن عليه الا أن يسير محاذيا لساحل خليج آياس ويجتاز مر بيلان Beilan وتستغرق هذه المسيرة بضعة أيام .

ومن الناحية الأخرى يجد المسافر نهر جيحان ، وهو صالح للملاحة على جزء طويل ، ويصب في الخليج على مسافة ليست ببعيدة من آياس (٣٢٠) ، وتتصل هذه الناحية من جهة بالديم الفرات العلوي ،

V. Sanut, l.c. et les remarques de MM. Desimoni et Ray (٣١٦) dans les Archives de l'Or, lat., I, 436; II, 1, 348.

Archiv. de l'Or, lat., I, 481, 472, 474, 472; II, 2, 40. (٣١٧)

Adyda directif, p. 202. (٣١٨)

Sanut, Rpt., à la suite des Secret, fidel oras, u. 289 et s., (٣١٩) 297; Woll, Gesch. der Chalif., IV, 381; Aboulz, Géogr. II, 2, p. 27; Archiv de l'Or lat., I, 485, 500.

(٣٢٠) ثيرا آياس بلدة قديمة على الساحل لغربي خليج آياس (الاسكندرية حاليا) . وكان الملاحون والبعثار الإيطاليون في القرن الوسطي يسمونها باسم « اجازرو » أو « اجازرو » Ajazzo/Lazaro . وكانت جزءا من إمارة أرمينيا الصغرى ، تركت فيها التجارة بين الغرب والشرق . وكانت تربطها بالنظام وبلاد الجزيرة طول برية جيدة ، ومنها بدأ حرج ماركو بولو في رحلته الى آسيا سنة ١٢٧١م . كما كانت مقر للقيم البندقي في آل عثمان .

ولقد ذكرها ابن آياس في تاريخه باسم لغة آياس التي كانت مدشلا بحريا ومطبخا لأرمينيا الصغرى -- للفرج --

(انظر دائرة المعارف الإسلامية -- حوشيد الجزء الأول ، ص ١١٥) .

ومن الجهة الأخرى بالقاليم آسيا الصغرى التي تفصلها عن أرمينيا سلسلة جبال طوروس ، وأخيرا يمكن بطريق البحر الاتصال بسهولة بقرص وسوريا .

ويحدث أبو الفدا عن الجوازات باعتبارها ميناة مشهورة ، وملقى التجار ، يعرفون إليها من البر والبحر ، ولكنه يسنسب الأصل في رخاها إلى عصر لاحق للعصر الذي قصى فيه قضاء مبرما على الدول الصنيبية ، وعلمنا غير صحيح (٣٢١) .

وقد مر ماركو بولو بهذه المدينة قبل سقوط عكا بعشرين سنة ووجد بها حركة تجارية نشيطة ، ويقول انه شاهد بها « كل أنواع التوابل ، والحارر ، والبروكار المنسج ، وسلعاً أخرى ترد إليها من داخل آسيا » ، ويأتي إليها تجار جنوا والبندقية وغيرهما ومعهم منتجات الغرب يبادلونها بمنتجات الشرق . وفي زمن هذا الرحالة المشهور كانت لاياترو نقطة انطلاق التجار والمسافرين الغربيين (٣٢٢) الذين يقصدون التوغل في داخل آسيا ، وكانت أيضا الميناة الذي يأتون إليه ليمسحوا به عائلتين إلى بلادهم . وفي الرحلة الأولى التي قام بها الاخوان ليكولو وماليو بولو Niccolo et Maffio Polo في الصين ، انطلقا من سواحل البحر الأسود ، ولكنهما مرا بآياس في عام ١٢٦٩ عند عودتهما إلى وطنهما . وكانت هذه المدينة هي التي اخذارها كنقطة انطلاق لرحلتها الثانية التي قاما بها عام ١٢٧١ بصحبة ماركو بولو الشاب (٣٢٣) .

والذي يسنسب كثيرا من كل ما رواه ماركو بولو عن آياس انه يذكر هذا الميناة على انه سوق في الدرجة الأولى من الأهمية لتجارة مختلف أنواع التوابل . وتؤكد هذه المعلومة بامتياز منح الجنويين في عام ١٢٨٨ ، ونطاق في هذا الامتياز تصادفا لبعض السلع مثل الفلفل ، والجنزيبيل ، وخشب البقم ، والثبلة التي اعتاد الجنويون أن يشترعوها في الجوزات ويصدروها من ناحية ايكوليوم (قونية) (٣٢٤) . وبعد عشر سنوات اشترى الثمان من البنادق ، وحسب ماركو ميشيل المنسب لولتاتارو Marco Michel (Lo Tataro) ، وبأولو موروسميني

Aboulf., Géogr., I, (٣٢١)

V. le Liber peregrinationis de Riccoldo di Monte Croce, dans Laurent, Perceval, p. 118, 122. (٣٢٢)

Marco Polo, éd. Panthier, I, 15, 18 et 2, 34 et 2. (٣٢٣)

Raoult des historiens des croisades, Documents arméniens, éd. Dulaurier, I, 732, 764. (٣٢٤)

Paolo Morosini اشتريا من الجوزات مسحت بالأت من الجزيريل ، من
السوح المسى بالبلدى (٣٢٥) . غير أن في هذه البراهين ما يكفيننا ،
والثابت أن الجوزات كانت على صلة بالبلاد المنتجة للتوابل عن طريق
القوافل .

والمطلوب أن نبحث أولا عن رسم الطريق الذى تسلكه التوابل .
هل كانت تمر بالمحيط الفارسى ، ثم تصعد مجرى نهر الفرات لتصل عن
طريق الأبواب القديمة Portella إلى الجوزات في خليج الاسكندرولة ؟

الجواب نعم إذا سلمنا مع السيد پوتيه M. Pothier أنه يهبط
قراءة الفقرة التى كتبها ماركو پولو في هذا الخصوص كما على : « اعلموا
أن كل التوابل والافقية الحريرية والمذبة الواردة من بلاد الفرات تحمل
الى هذه المدينة » (٣٢٦) ونقرأ بعد هذا بقليل ، كنتيجة لذلك أن « كل
من يريد الذهاب الى ارض الفرات من تجار أو غيرهم ، يتخذ طريق هذه
المدينة » . غير أن السيد بولك لا يوافق ابداً ابنت پيراهين قوية (٣٢٧) أن معنى
الفترة الأولى قد حرف بملاحظة هامشية اضيفت فيما بعد ، وأن الأمر
لا علاقة له أبداً بالفرات . وقد فهمنا المترجم اللاتينى الأسمى أن
ما فهمنا صاحب التعليق : لقد ترجمهما ببساطة بهاتين الكلمتين :
infra terram (Orienti)

والواقع أن ماركو پولو كتب في الفقرتين fraterre وهذا التعبير
يشير في فكره الى داخلية آسيا . وعلى ذلك فمن البحث محاولة العثور
في هذه الفترة على أية إشارة محددة الى البلاد التى تمر بها القوافل .

وعلى أية حال فالحقيقة التى يمكن التأكيدا هي وجود حركة تجارية
بين سورية وآسيا الصغرى . ورغم ما كان يصيب هذه الحركة كثيرا من
مخاطر وصعوبات بسبب الغارات التى يشنها خانات هولوكو ، وأياكا ،
وقالان (١٢٦٠ - ٣٠٠) وحملات سلاطين مصر ضد أرمينيا الصغرى ،
فإنها كانت مستمرة . وكان جمرات الأبواب العليقية (پورتيللا) يجمع

Romanin Stier, di Venet., III, 470 et s., M. de Ma Laire. (٣٢٥)
dans la Biblioth. de l'Ecole chariez, 1873, p. 50-64, les Commens.,
I, p. 87 et s., no 288.

(٣٢٦) ما لا شك فيه أن التركيز على الأهمية التجارية لهذه المدينة على الطريق
بين ارض الفرات وديج الاسكندرية قد عمل على الاستناد إلى القصور بها مدينة « سبس »
عاصمة أرمينيا الصغرى . ولكن سيدك الحديث يؤكد أنها هي عاصمة آداس البحرى السابق
الإشارة إليه في جملتي ٣٢٠ .

M. Polo, I, 45, note 4.

(٣٢٧)

ملوك أرمينيا إيرادات كبيرة (٣٢٨) . وكان عدد من التجار البادلقة يجتازون أيضا الحدود عند هذه النقطة وينعمون الرسوم المطلوبة (٣٢٩) ، وتجار آخرون يصلون الى أرمينيا عن طريق البحر ، ويترددون من آياص بالمستجات السورية . يشهد بذلك ميشيل ، وموروسيسي اللذان ذكراهما قبلا في حاسبة شره سنت باللات من الجفريل ، وحكا معها أيضا من حلب ثمانية عشر كيسا من القطن . ولكن كان هناك دائما تجار يسافرون الى سورية بعد ايجاز أعمالهم في أرمينيا .

وتحدثت جمهورية البندقية في عام ١٣٢٠ لصالح مواطنيها لدى الملك لأرون الخامس Léon V حتى لا تقام الصعوبات في وجه من يريده منهم الانتقال من أرمينيا الى سورية . وأبدى الملك استعداده لمساهمة الحربة المطلوبة في هذا الخصوص طالما لم يكن في حرب مع المسلمين (٣٣٠) .

نقول بعد ذلك ان سورية لم تذكر بالاسم في فقرة الوثيقة التي نعطيها هنا معناها العام ، فقد استعملت باسم البلد كلمة تبدو غامضة في ظاهرها Lusson ، غير ان النص في مجبوعه يدل على أن المقصود هو بند إسلامي مجاور ، وفي هذا ما يكفي لاستبعاد السلطنة قونية ، ثم ان كل ما قيل (في هذا النص) ينطبق بوضوح على سورية . ويجب تسريته in Sem : فالنص الأصلي به كلمة Sem (أو Schard بمعنى الشام) بوضوح ، التي كان يستعملها الأرس ويقصدون بها سورية بوجه عام ، وبخاصة الأقليم الذي به مدينة دمشق (٣٣١) . وقد يبدو عجيبا أن ينقل المترجم اللاتيني هذا الاسم الشرقي دون أن يترجمه ، مع أن هذا الاسم كان مألوفا أيضا في الغرب ، واستعمله سانوتو كثيرا ، ويقرنه دائما بأسم سورية ، مما يدل على أن الأسس ينطبقان على موضوع واحد (٣٣٢) .

-
- (٣٢٨) مثل عام ١٢٢٢ أجبروا على المرور عن نصف إيرادات بشارك بورتيللا والجزوات لملاطي بحر ، الفخر :
 — Raynald, *Annal. eccl., a.a.* 1223, no 9, T. XXIV, p. 221.
 Traité de 1207 et de 1321, dans Langlois, *Trécor*, (٣٢٩)
 p. 167, 182.
 Langlois, *Ibid.*, p. 181, (٣٣٠)
 Dubautier, dans le *Journal asiat.*, 5^e série, T. XVI, p. (٣٣١)
 283, 294 et dans le *Recueil des historiens des croisades*, Doc. armén.,
 I, 302 . Brosset, annotations de Kiracou dans *Deux historiens*
Arméniens, p. 160, not. 4; Haythou, *Hist. Orient.*, cap. 14, p. 11, éd. de
 Helmet (1935), Mas Latrie. *Traité*, Suppl. p. 81.
 Secr. *Id.*, cruc. p. 86, 87, 88, 92, 97, 243; Kunitzmann, (٣٣٢)
 Marino, *Sanudo*, Suppl., *Epist.* V, p. 250 (Tirage à part, p. 80)

ويطلق سيمولوتي أيضا عبارة *Sclama di Soria* في خصوص إنتاج القطن ، ويقارن بين مستجاته في حماة ، وحلب ، وعكا ، والبلدانية ، الأمر الذي يدل ، حسب قوله على أن هذه المدن الأربع لم تشهدها مقاطعة *Sclama* (٢٣٣) . وعلى العكس من ذلك ، في المصاحفة المذكورة قبلا ، تظهر كلمة *Sem* على أنها تعني سورية بوجه عام . وقد أوضحنا أنه حتى في الأمانة الأكثر اضطرابا ، ما أن تهدأ الأحوال حتى تسترد الحركة التجارية نشاطها من سورية إلى أرمينيا ، وبالعكس .

أما بخصوص معرفة ما إذا كان التصيبب الأكبر من منتجات الهند قد استمر يستخدم اللقيم السورية ، أي ما إذا كانت آياص تتلقى توابل الهند من طريق سورية ، فإن هذه مسألة ينبغي معالجتها على حدة ، إذ ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألة أخرى يجيب أولا إيجاد حل لها . فممنه الحشاء على الخلافة في بغداد ، هل احتفظت بلاد الدجلة والفرات ، من ناحية التجارة ، بنفس الأهمية التي كانت لها من قبل ؟ فمبدئيا هولاكو هذه المنطقة ، انتقل مركز النقل السياسي إلى شمال بلاد ما بين النهرين . أي إلى إيران . ليجي تبرير *Tartar* وبغداد ، المعاصرين القديمة والمجديدة ، لم تلبث الدائلمة في التجارة أن تحولت بتدرج بطيء ولكنه منتظم . وطالما احتفظ كل من الخلافة من جهة ، والدول اللاتينية من جهة أخرى بكمياته الخاصة ، كانت منتجات الشرق المستورة من طريق الخليج الفارسي تمر ببغداد وتصل إلى البحر المتوسط من طريق اسطاكية والبلدانية (٢٣٤) .

ومع ذلك نلاحظ أنه مع أن حركة منتجات الهند من الشرق إلى الغرب تتبع دائما نفس الاتجاه ، عن طريق الخليج الفارسي ، وبصرة وبغداد ، فإن ماركو بولو يشير إلى وجود علاقات بين تبرير والهند (٢٣٥) . ويعترف سانوتو في الجزء الأول من كتابه *Secreta fidelium Crucis* الذي ألفه في عام ١٣٠٧ أن منتجات الهند التي توجتار القسم الغربي من امبراطورية المغول لتصدر إلى الغرب كانت تمر إما ببغداد وأما بتبرير . ولكن في عصره كان هذا الطريق أقل الطرق استخداما في التجارة أما الجزء الأكبر من البضائع فكان يهبط طريق الإسكندرية ، واحتفظت

Pagol, p. 287.

(٢٣٣)

Sanuk, p. 28.

(٢٣٤)

(٢٣٥) وقد مر (ماركو بولو) بطوروس (تبريز) بعد عودته من الصين عام ١٢٦٢

أو ١٢٦٤ -

Ed. Paulmier, p. 47 et s., 80.

بغداد وتبريز بالآسيقية في تجارة التوابل الدقيقة ، مثل الكبابية (حب
الروم : نبات من الفصيلة الفلقلية يستعمل في الطب - المترجم) ،
والماردين (لردن : نبات حبيب طيب الرائحة - المترجم) ، وما شابه
هذه الأنواع ، ذلك لأن قيمة هذه المواد لا تنوقف على وزنها ، وعن ثم فإن
مكثرت نقلها برا لمسافات طويلة لا تؤثر تأثيرا محسوسا على سعر التكلفة .

وثمة سبب آخر لتفضيل هذه الأصناف : ذلك أنه لما كان ثمنها
مرتفعا ، فلابد أنها كانت تدرع في مصر وسوريا مرتفعة كثيرا ، في حين
أنها لم تكن خاضعة في امبراطورية الممولى إلا لرسم معتدل ، وأخيرا فإذا
كانت التوابل الثقيلة الوزن تنبع بمسامة طريق الاسسكنندرية ، فإن
الأنواع الرقيقة منها مثل الزنجبيل والفرفة كانت تصدر بطريق البحر .
أي عن طريق امبراطورية الممولى فلم طول المسافة ، وذلك لتجنب أسباب
الغلب (٣٣٦) .

وحى بداية القرن الرابع عشر كانت بغداد وتبريز كتفاصل مرية
بقل منتجات الهند الى العرب ، ولكن فيما بعد اجتذبت تبريز بالتصدير
هذه التجارة ، في حين تراجعت بغداد والبصرة الى المرتبة الثانية (٣٣٧) .
وعندما أقام بيچولوتي في كيرص وأرمينيا صناديق من أي انسان آخر
في متابعة تقلبات التجارة في الشرق في الفترة بين عامي ١٣٢٠ ، ١٣٥٠ .
ويبدو أنه لم يكن يعرف بغداد بالاسم ، بينما أفرد لتبريز مقرة طويلة
ينتهي منها أنه كان يجري في هذا الموقع تبادل كل أسواق التوابل ،
ولربها قبل عرضها للتجارة ، ولا تجرى هذه العملية الا في المخازن
الكبيرة . وكانت تبريز كذلك أيضا ، غير التوابل منتجات فارس ووسط
آسيا ، وكان معظم هذه البضائع يعاد تصديره صوب البحر المتوسط عن
طريق آياص . ويحدد بيچولوتي كل المراحل المتتالية بين هاتين
المديتين ، وكل الرسوم التي يدفع على طول الطريق . وفي الفترة التي
كان يقام أثناءها في أرمينيا (١٣٣٥) كانت الحركة التجارية بين المدينتين
في أوج نشاطها ، وكان ملك أرمينيا وقتها هو لاوزون الخامس ، وكان
بيچولوتي يمثل لديه بيت باردى ، وكان خان فارس يدعى أبو مسعود
Abou Said ، ومن ثم أطلق بيچولوتي على امبراطورية الممولى اسم
أرض بوسعيد Terra di Bou Said

Berzi, l.c. D, 38.

(٣٣٦)

(٣٣٧) حب دار ابن بطرقة حالي للديار (١٣٣٧) كانت بصرة قد بلغ التدهور
حدا كبيرا ، أما بغداد فلم تزل تواصل القاسية ، ورأى فيها أسواقا بدوية ابن بطرقة
II, 8, 100 et s. IV, 878

ولما كان هذا الطريق لا يمر بالقليم أرمنييا إلا بجزء صغير جدا من طوله ، فإنه من الأنسب لنا أن نصفه مع دراستنا هذه لغارسى • أما الآن ، فإما لا تقدم سوى معلومة واحدة • ذلك أن مدينة سيواس (سلفاسترو ، سافسترو) (Silva, (Salvestro, Savastro) الواقعة على هذا الطريق كان لها في ذلك الأوان أهمية تجارية كبيرة • يؤيد ذلك واقعان • أولاها أن بيجولوتى اهتم بوصف قائمة بالموازين والمكاييل المستعملة في هذا المكان مع مقارنتها بنظيراتها في قبرص وعكا (١٣٤٨) ، وثانيتهما أن جمهورية جنوا كان لها هناك اتصال في حوالي عام ١٣٠٠ (١٣٢٩) •

وإذا كان بيجولوتى قد اهتم بأن يصف بهذه الدقة الطريق التجارى من الجوزات إلى تبريز ، فهو قد فعل ذلك خدمة لمواطنيه الإيطاليين • فالواقع أن كل التجار الغربيين الذين يدرسون براعه آياس لم يكونوا يتوقعون عندها ، بل كان عند كبير منهم يواصل سيره إلى تبريز ، بل وإلى ما بعدها • لهذا كتبت جمهورية البندنية ميشيل جستينيانى Michele Giustiniani سفيرها لدى لاؤون الخامس أن يطلب من الملك ، لصالح مواطنيها تصريحاً رسمياً بأن يجتازوا السنة لذهاب إلى تبريز ، ولقد منحهم الملك هذا التصريح ووعدهم بتقديم كل ما يلزمهم من تسهيلات (١٣٤٠) •

من جهة أخرى كان التجار الغربيون الذين يتصدون قونية يبدؤون رحلتهم من الجوزات • وفي عام ١٨٨ قامت من آياس قوافل من جمال وخيل وبغال محملة بتوابل يملؤها تجار جنويون لعبرت ممرات حسن جوجلاج Gouglag على حدود أرمنييا ومسلطنة قونية (أيكوليوم) (١٣٤١) ، وربما اجتازت مثل هذه القوافل آسيا الصغرى بالحراف حتى تصل إلى القسطنطينية ، وربما كان عبور ممرات جوجلاج

Pegel, p. 7-13, 48, 50, 78.

(١٣٢٨)

— في مصر الجغرافى ابن سبيد (المجلد ١١٧١) ، كانت سيواس ذات أهمية تجارية ، ولما قربى للقوافل يربط هذه المدينة بليمرية نظر أمير القادس

Aboulf. Géogr., II, 2, p. 129.

وفي عام ١٣٧١ قام جنوى يدعى سيمون بركارى برحلة من الجوزات إلى سيواس •

انظر ١

Archiv. de l'Or. lat., I, 448 et s.

Manzoni, di storia patria, XI, 781.

(١٣٢٩)

Langlois, Trésor, p. 181; Dulaurier, dans el Recueil des hist. des crois., I, p. ciii, not 1.

(١٣١٠)

Recueil des hist. des crois., I, p. 784.

(١٣٤١)

امسهن اذا بدأ من مدينة طرسوس Tarsos . غير أن ميناء هذه المدينة قد بدأ حينئذ على ما يبدو يمثل بالرمال ، وصار الدخول اليه بطريق البحر مستحيلا . ومن ثم تحول الممر إلى ناحية آياص رغم طول المسافة الواجب قطعها (٢٤٢) .

وعاد من العلاقات مع داخل آسيا من طريق آياص بالعلاقات على سكان الأقاليم الواقعة وراء أرمينيا . فصار في مقدورهم هم أيضا ، باستخدام الطرق التجارية المؤدية إلى تلك المدينة ، أن يلعبوا إلى الشاطئ ويتاجروا مع أمم الغرب التجارية . وفي عام ١٣٦٧ استولى أمير البحر الجنوبي لوكيتو جريمالدي Luchetto Grimaldi من ميناء قريبا قوس Korykos (carco) الأرمني على سسغية كبيرة محملة ببضائع ثينة (٢٤٣) ، لمطالب أصحاب المضائق بتعويض عنها ، وكان من بينهم أرميني من آياص ، وسوريون من عكا وصور ، وأنطاكية ، وبعض رعابا البخان المعروف أياقا (٢٤٤) . وكان مسلمو مسورية يجلبون إلى سوق آياص كميات كبيرة من القطن (٢٤٥) . ولما شخص من بغداد يدعى يوسف كان يملك بها على ما يبدو متجرا مستديما (٢٤٦) .

وهكذا كان ميناء آياص وشوارعها مكتظة بالتجار من جميع الجنسيات . وهناك كان الأفراحي يتاجر علنا مع المسلم . والشئ الذي كان يفضي إلى هذا الملتقى جاذبية قوية لمسيحي الغرب في فترة كان دخول موالي المسلمين فيها محظورا بأمر البابا ، ولا وقع على المصالحات ملوكة صارمة . وذلك لأن موقع الميناء كان في أرض مسيحية ، ويقول سانوتو أن التجار الذين يخشون الحرمان الذي توقعه عليهم الكنيسة ، كانوا يلعبون إلى آياص (٢٤٧) . وإذا كان عصر ازدهار هذه المدينة يقابل

Note de Dulaurier, *Ibid.* introd., p. xiii.

(٢٤٢)

Annal. Jan, p. 261.

(٢٤٣)

Document du 23 oct. 1288; Mss Latins, Hist. de Chypre,

(٢٤٤)

II, 74-79; Langlois, Trésor, p. 148-151; Arch. de l'Or, lat., E 461.

— لا بد التسليم أنه بين التجار الشرقيين من البلاد الإسلامية الذين كانوا يزورون الدول المسيحية وأرمينيا كان يوجد عدد كبير من سكان الرسل ، واعداء الغربيين أن يظفروا عليهم اسم : Mosoulans, (Mosoulini)

Langlois, Op. cit., p. 297 et s.

(٢٤٥)

Ibid., p. 178.

(٢٤٦)

Epist. V, à la suite des Secr. fidel, orig., p. 297

(٢٤٧)

العصر الذي يطبق فيه بصرامة الخطر الذي أصدره البابورات ، فإن ذلك لم يكن نتيجة لعامل الصدفة وحده ، وأما كان نتيجة مباشرة لهذا الخطر .

ولنتناول الآن على حدة كلا من الأمم التجارية الأوروبية التي كانت تتردد على أرمينيا في هذا العصر . وقد عرضنا من قبل تاريخ علاقات البندقية بهذا البلد حتى معاهدة عام ١٢٤٥ ، وأبرمت للمعاهدة التالية في عام ١٢٧١ ، وهي بوجه عام منقولة عن المعاهدة السابقة ، غير أن ما يعطيها أهمية خاصة هو أنها لأول مرة تذكر قضاء بايل بندي متيم القائمة ثابتة في البلد (٣٤٨) . وحتى هذا الحين كانت الحالية العينية في أرمينيا تعتبر إما تابعة لنظيرتها في عكا ، أو تابعة لوطن الأم مباشرة . واعتبارا من هذه اللحظة أصبح لها أثارها الخاصة ، كما أصبح الانفصال بينها وبين جالياتها في سورية أمرا واقعا سابقا لسقوط عكا . ولا كانت أهم لحظة في تاريخ هذه الجالية هي تلك التي كانت تمثل فيها استقلالها ، والتي وصلت فيها إلى أقصى درجات الرخاء . فإن المرفوب فيه هو الحصول على أغلر المعلومات عن هذه الفترة . لذلك فانا نأسف كل الأسف للفراغ الذي نتج من فقد محاضر مجلس شيوخ البندقية (Milato) عن السنوات من ١٢٩٣ إلى ١٣٣٣ .

وليسا ليلي من السجلات في خصوص هذه الفترة (٣٤٩) نجد بضعة أسماء لبائعات وإثارة إلى بطح سفارات ، وطلبات تمويل ، وعدايا مرسلة إلى ملك أرمينيا . غير أنها لا نجد في غير هذه الوثائق ذات الأهمية الثانوية أمرا للتعليمات المحررة للسفراء ، والأوامر الصادرة إلى البائعات . ولم تكن المذاكرات بين جمهورية البندقية وملوك أرمينيا تادرة الحفوت ، ولما تقدم برهانا عن ذلك سوى المرسوم الذي تجدد ثلاث مرات ، ويظهر على الرعايا البنادقة الذهاب إلى أرمينيا . وتتميز عام ١٣٠٣ أو ١٣٠٤ بنزاع قوي يسوع خاص : فعل حين غرة استولى بايل بندي (انفريا سائوتو ؟) على رأس عدد من مواطني التجار ، وبمعازة سافيتين على الحصن القائم أمام بوابة آياس . حيث توجد الترسالة ، وسلمها للذهب والسلب ، كما استولى على الكتب من المنازل التي يملكها مواطنون وأعالي (٣٥٠) . ولم يتضح الباحث على أصناف السفر هذه ،

Langlois, Op. cit., p. 161 et ss., Tuf. et Thom., III, 118 et ss., (٣٤٨)
des actes du sénat de Venise des années 1274 et 1275.

Arch. Venet., XVIII, 124, 189, XVIII, 318-323; XX, 244. (٣٤٩)

Max Latrie. Hist. de Chypre, III, 677 et ss., 684-687, Langlois, (٣٥٠)
Trésor, p. 161 et ss., 170 et ss., Langlois, au bout de la page 171; Arch.
Venet., XVIII, 318; Langlois, p. 173; Commem. reg., I, p. 87, no 297;
Arch. Venet., XVIII, 318.

ولعلها من أعمال البار . وفي تلك الآونة بالذات ، وعلى الرغم من منع البداقة إعطاء من الضرائب والرسوم ، فرض الملك رسماً قدره ٤٪ على كل السلع التي يستوردونها (٣٥٦) . ورغم قلة المصادر المتأخرة لنا ، حاولنا استخلاص بضعة معلومات عن تصريفات البداقة في أرمينيا في هذا العصر . ففي كل عام ، في تواريخ محددة ، تقلع من البنداقية إلى آياض سفى نهر بفرص (٣٥٧) . وتجري هذه الحفمة بنظام شديد ، حتى أنه في عدد كبير من الحالات ، وبالنسبة إلى الصفقات التي تقعد في آياض كانت مواجيسد الاستحقاق تحسب بتاريخ وصول هؤلاء السفن (٣٥٨) .

كانت الجوزات هي غاية رحلات هؤلاء السفن ، والمركز الرئيسي لنجالية ، ومقر البايال البيطلي . ومنذ عام ١٢٧١ صار للبداقة بالمدينة كنيسة يتولى خدمتها تسيس منهم (٣٥٩) ، وملحق بالكنيسة مقبرة كان لابد من توسيعها في عام ١٣٢٠ (٣٥٥) : هذه المعلومات تثبت وجود جالية كبيرة العدد ، ولذا ذكرنا ضرورة توسيع المقبرة أيضا بزيادة مناح أرمينيا والأحياء القليلة المجاورة للساحل ، والتي كانت الإقامة فيها مضرة بصحة الأوروبيين ، بل ولقى على حياتهم في بعض الأحيان (٣٥٦) . على أنه إذا كانت آياض (لاجازو) مركزا تجاريا ، فإنها لم تكن تستغرق كل اهتمام البداقة ، إذ كانوا يمارسون نشاطهم في كل أنحاء أرمينيا ، في سيس (سيسية) Sis ، والمصبصة Mamistra ، وإذنة (الحنة Adana) ، وطرمسوس Tarsus ، وحصلوا لسة على ممتلكات وامتيازات ، وأظهروا أهمية في عملهم ، ونجحوا في الحصول لتجارهم في هذه المدن على نفس التسهيلات التي كانت لهم في آياض (٣٥٧) .

وكان لهم في هذا الشأن أسباب وجيهة : فقد كان في الإمكان الحصول بالداخل بسعر أقل مما في آياض (٣٥٨) على الكثير من

Arch. Venet., XVIII, 318.

(٣٥١)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 133 et ss.; Marin, Storia del Commercio de Venezia, IV, 104; V, 193; Arch. Venet., XVII, 289 et s., 293; XVIII, 318 et ss.; XIX, 108.

Langlois, Op. c., p. 198; Arch. Venet., XIX, 108.

(٣٥٢)

Langlois, p. 153, 162, 178, 184.

(٣٥٣)

Ibid, p. 181.

(٣٥٤)

Mas Latrie, Op. c., III, 118 et 123; Samut, p. 27; M. Polo, I, 34, éd. Pauthier.

(٣٥٥)

Langlois p., 177.

(٣٥٦)

المواد ، كالفراء والجلود والحبر والصوف مما يستعمل في صنع
 الثياب ، وكان لها قيم المادتين الأخرتين قيمة خاصة منذ أن تعلم البنادقة
 من الأرض صنع الثياب ، واشتملوا بصناعتها (٣٥٩) ، ولست هذه
 الصناعة بدرجة كبيرة حتى أنهم تجتنبوا تبعيتها بأية درجة للصناعة
 الأجنبية ، بأن صجوا في تشغيل عمال منهم محليا في معالجة المواد الأولية
 الخام الموجودة في البلد ، فمثلا في داخل الجالية طائفة من الصناع ،
 كسب التجار كثيرا من عملهم - غير أنهم كانوا ، أكثر من البنادقة أنفسهم
 في حاجة الى حماية فعالة من جانب حكومة الوطن الأم ، لأن لقرعهم كان
 يضرهم كثيرا لكثرة الموظفين الأرممن (٣٦٠) .

وأسوة بالبنادقة ، لم تنتظر جنوا سقوط الدول اللاتينية لهاديا
 حتى توثق علاقاتها بأرمينيا الصغرى ، فمارست مع هذه المملكة حركة
 تجارية نشيطة جدا : ولدينا عقود موثقة جنوبية ، صادرة بتاريخ في
 الجوزات نفسها (٣٦١) تحيطنا علما بالنمو المبكر لهذه التجارة ، والتشكيلة
 الكبيرة من الأقمشة التي تتفلسفها . كان التجار الجنوبيون يستوردون من
 الغرب الى أرمينيا ليبيدا وزيتا وجينا وشعيرا وجوخا وأقمشة من جميع
 الأنواع (٣٦٢) ، ويصدرون منها ثوابل كالجوزيل والفلل والنيلة والسكر
 وخشب البقم (٣٦٣) واللطن الخام والمزول (٣٦٤) ، وبخارية (٣٦٥)
 (لسيح مصمغ كان يصنع أصلا في بخاري) وحديدا وحلولا وأغصا
 وأبقارا وحمبرا وخيل وهبيدا (٣٦٦) . ولم يكن مسموحا ببيع العبيد
 المسيحيين للمسلمين ، عابرة أو بطريق غير مباشر .

Ibid. p. 181, 184.

(٣٥٨)

Ibid. p. 181, 188.

(٣٥٩)

Langlois, p. 180 et s.

(٣٦٠)

(٣٦١) عقود مبرمة في أرممن ١٢٧١ ، ١٢٧١ ، ١٢٧١ في Y'Alas (أرمينيا
 الصغرى) ووجوت أمام براتلي عقود جنوبية ، قسما ١

— Corr. Desmond, Arch. de l'Or, lat., I, 424, 534.

Rec. des hist. des crois., Doc. armén., I, p. 282-284; Arch.
 de l'Or lat., I, c., p. 530, 532 et ss.

(٣٦٢)

Rec. des hist., I, c., Arch. de l'Or, lat., I, 485, 501-508, 507-508,
 516 et ss., 519, 525.

(٣٦٣)

Arch. de l'Or lat., I, 486, 528 et s.

(٣٦٤)

Ibid. I, 488, 508.

(٣٦٥)

Ibid. I, 503; Rec. des hist., I, c.

(٣٦٦)

ولم يكن التجار الجنوبيون يبيعون هذه المواد كلها إلى بلادهم ، بل يبيعونها على طول ساحل أرمينيا ، في قرياقوس (سوق الكرسي) (٣٦٧) Korykos أو على شاطئ سورية ، في بيروت وهكا وصور (٣٦٨) على سبيل المثال . وكانوا ينقلون خشب البند من سلوقية (قديقية) Selefkibb إلى دميياط ، وهي من الثمامة التي يترددون عليها في يسر (٣٦٩) ، ويقولون برحلتهم عديدة إلى الداخل . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك ، وسوف نتاح لنا الفرصة للعودة إلى الكلام عنه .

وسيت الجالية الجنوبية في أرمينيا نموا سريعا ، ونالت استقلالها في زمن ميكر ، وفي القلب الذي يطلق على رئيس الجالية ما يكفي لاثبات ذلك . إذ كان أولا مجرد « نائب قمص » Vice-comes ، وفي العصر الذي تحدثت عنه أصبح قنصلا ، وكان لقبه بالكامل « قنصلا ونائبا » Consul et vice-comes, consul et vicarius : وهذا هو القلب الذي عرف به فيليبيو تارتارو Filippino Tartaro في عام ١٢٧٤ وليو دي نيجرو Leo di Negro في عام ١٢٧٩ (٣٧٠) . ولرى أولها في مناسبة قضية حكم فيها ، يرفض استئناف حكمه ليوسفات جنوا في صور ، ولم يكن يعترف بدرجة من اللغواء أعلى من درجته سوى محكمة « قباطنة » الجمهورية Capitaines de la Rep. (٣٧١) .

لما أن نستنتج من هذا أن الجالية الجنوبية في أرمينيا لم تنتظر تلك الدولة اللاتينية حتى تنفصل عن السلطة المركزية القاطنة في سورية . ولا يبدو أن القنصل الجنوبي في آيلاس كان عنده مجلس يساعد ، ومع ذلك كان يدعو في بعض الحالات رجالا من أهل الخبرة boni Homines ينتخبهم من بين أعضاء الجالية (٣٧٢) ، ويحمل ملفد أحكامه لقب Placarius ، ويتولى هذا أيضا شئون البيع بالمراد (٣٧٣) . ويسمى

Ibid, I, 532 et s. (٣٦٧)

Ibid, I, 468, 503, 538. (٣٦٨)

Ibid, I, 449, 469, 485, 509 et s. (٣٦٩)

Ibid, I, 445, 451, 458, 468, 476, 482, 501, 506, 524 , Ann della soc. Edg. , XIII, 101 . (٣٧٠)

Arch. de l'Or lat, I, 488, . (٣٧١)

Rec. des hist. des crois., I, c. (٣٧٢)

Arch. de l'Or lat, I, 470, 497, 503 et s., 509, 518, 519, 524, 529, 531 et s. (٣٧٣)

البناء الذي به المحكمة النصاية (*loggia in qua regitur curia consularis*) Loggia (٢٧٤) وتمتلك الجالية كنيسة مكرسة للقديس لورانس St. Laurent (٢٧٥) وملحق بها مقبرة (٢٧٦) • وينظم علاقات الجالية بحكومة البلد اتفاق عقد عام ١٢٨٨ بين الأميرال بديتو ركاريا (٢٧٧) • مفوض جمهورية جنوا في المفوض الشرقي للبحر المتوسط والملك لاؤون الثالث (٢٧٨) • وبعد أن رحل ركاريا (في ٦ من فبراير ١٢٨٩) توفي الملك ، ولما عاد في ربيع السنة نفسها ، وبعد على العرش حينئذ الناصر Hétoum II ابن لاؤون • وبناء على طلب زكاريا وهب الملك لنجوينين سوقا كانت مملوكة للأرملة رجل يدعى جوجلييلمو ستريجيا بوركو • ويقال له سنفاتيكو ، وخلص رسم الخروج على البضائع المعاد تصديرها بمعرفة النجوينين من أرمينيا إلى الأقاليم التركية (٢٧٩) •

والعجب أننا لا نملك أية وثيقة رسمية (دبلوما) من القرن الرابع عشر منحها ملك أرميني للنجوينين ، ولا أية عائلية يمكن أن تحيط علما بأحد العلاقات التجارية بين جنوا وأرمينيا الصغرى • ومع ذلك فليس هذا سببا يدعو إلى الافتراض بأن الحركة التجارية قد توقفت وقتئذ • فهذا استنتاج سابق لأوانه • والحقيقة أنه حدث في عام ١٢٩٧ أن دمر يوفيلو موروسيني Teofilo Morosini قبطان سمينة قيسية في الأقاليم الأرمينية ، في آيس غالبا سوقا يمتلكها النجوينين (٢٨٠) إلا أن هذه الواقعة لا تثبت وحدها أن الجالية النجوينية في هذا البلد قد انتهت أمورها ، فلم يكن ذلك سوى حادث من تلك الحوادث العابرة العديدة التي مر بها ما تسمى ، والتي تعيب كلا من الجاليات النجوينية والفينيقية بالتبادل على مدى الحرب الطويلة الأمد التي أثارتهما المنافسة بين

(٢٧٤) هذا هو المكان الذي تسجل به عادة العقود الرسمية •

Arch. de l'Or. lat., I, 482, 484, 485, 493, 497, 508, 512, (٢٧٥)
522, 528, 530,

Ibid., I, 484, 493, 504, 537, 581, (٢٧٦)

Lib. jur., II, 278 ; Annal. Jan., p. 322; voy. la note de M. Desimoni, dans Atti della Soc. lig., XIII, 258 et s., not. (٢٧٧)

Lib. jur., I, 168 et ss.; Langiola (Trésor, p. 139 et ss.); (٢٧٨)
Delescler (Rec. des hist. des crois., Doc. armén., I, 746 et ss.); Not et extr., IX, 97-122,

Jac. Doria (Annal. Jan.), p. 824, Saint-Martin (l.c., p. 104). (٢٧٩)

Dandolo, p. 497, Cicogna, Inscr. venez., III, 187; Romanin, (٢٨٠)
Storia di Venezia, III, 82, 85; Marat., Arch. Ital., mod. ed., II, 168.

الجمهورية (٣٨١) . وفي عام ١٢٢٥ وجد بيجولوتي الجيوش يتسمون أيضا بأنشطة جبرية كانت لهم في كل راس (٣٨٢) . ولما أن يفترض أن منشاتهم وتجارتهم ظلت قائمة حتى سقطت مملكة أرمينيا تحت ضربات أعدائها

وبالنظر إلى الوضع الملائم الذي كان لمملكة أرمينيا ، كان لابد أن يؤدي سقوط الدول التي أنشأها الفرس إلى تسمية جديدة لهذه المملكة . ويستثير بها المنافسة نعا لفرس المتاحة للكسب . ومع ذلك احتفظ المتوحدون والبيادقة بتعوق ملموس بمفضل كوفهم من الأمم الأكثر رعاية . أما مناسوهم الذين حصلوا على نص المعاملة التي كانت لهم فانهم قلائل . سذكر منهم البيت التجاري والمصري الكبير « باردى » *Bardi* الفلورنسي ، وربما نال هذا البيت هذه الخطوة بسبب ما قدمه لمملك من فروض . وعلى أية حال كان وكيله فرانشيسكو بالرونشي بيجولوتي حصص له في عام ١٣٣٥ على إعفاء تام من رسوم الدخول والخروج ، في حين أن منافسه بيت برونزي *Peruzzi* الفلورنسي أيضا ، استمر يدفع رسما قدره ٢٪ من القيمة عند الوصول وعند الرحيل .

ويؤكد بيجولوتي أن الصليبيين كانوا يستمعون أيضا بالإعفاء الكامل إلا أن هذه المعاملة تناقضها بصورة لا تقبل الجدل وثيقة رسمية (دبلوما) أرمينية اكتشفت في دار وثائق مسينا . هذه الوثيقة تحمل أعضاء لاؤون الخامس بعد رواجه بوقت قليل بأية فردريك الأول ملك صقلية . وبالنظر إلى مشاعره الودية حيال بلد حبيه ، وبعد ملك أرمينيا الصليبيين بأن يحسن وفادتهم في ولاياته ، ولم يسبه ذلك من أن يفرض رسما قدره ٢٪ على دخول السلع التي تغادر بالوزن وخروجها ، بينما اكتفى بالنسبة إلى السلع الأخرى رسم انتاج بسيط قدره ١٪ . والفترة بين تاريخ هذه الوثيقة (٢٤ من نوفمبر ١٣٣١) (٣٨٣) وتاريخ التامة بيجولوتي في أرمينيا فترة قصيرة لا تتيح صدور وثيقة أخرى تمنح للصليبيين إعفاءا تاما من الرسوم الجمركية .

أما بالنسبة إلى البيزنطيين ، فإنا نعلم من بيجولوتي أنهم كانوا يدفعون

(٣٨١) كانت سافة هذه الحرب عالية في سواحل أرمينيا ، انظر :

— Dandolo, p. 404 et ss. Archiv stor. it., App., no. 15, p. 11-15; Sanuto, Secr. fid., cruc., p. 89; Hâtham, éd. Duclaurier, dans le Rec. des hist. des crois., t. ٢, p. 489; Bouchon, III, 60.

Pegolotti, p. 43.

(٣٨٢)

Le rote de Dandolo, dans ses Recherches sur la chronologie arménienne, I (Paris 1859), p. 130 ; Langlois, p. 186-190, le Recueil des hist. des crois., t. ٢, p. 769 et ss.

(٣٨٣)

رسما حذره ٢٠٪ من قيمة السلع عند دخولها وخروجها . هذا الوضع الأدنى من وضع مسائر أمم إيطاليا لم يمنعهم من السفر في جموع كبيرة الى آياس (٢٨٤) ، ومن هناك يبحرون على طول سواحل الأرمينيا وسوريا ومصر . وكانوا يفضلون بذلك جهودهم في البلد الأخير . فكانوا يوردون اليه الحديد والخشب . رغم قراوات الخطر الكنسية (٢٨٥) . وقد تكشف لنا كل ما نعرفه عن الأعمال التجارية التي كانوا يمارسونها في صدء الخصوص عن طابق عقود مبرمة لدى موثقي العقود الجديوي ومن الذهب علينا أن نذكر كيف أن كل هذه العقود المبرمة بين بيريوس ووردو اما في محكمة جنوية ، أو في بيت تجاري خاص يملكه جنوي (٢٨٦) . غير أن هذا لا يبعث على الاعتقاد بأن البيريين لم يكن لهم محكمة خاصة بهم . فالذات أنه كان يوجد قسطنطين و مظهر ، Placarius بوزي (٢٨٧) . ترى ماذا كانت اختصاصاتهما ؟ وكان مدينة بيزانسي Plaisance (بياتشينا) . شمال وسط إيطاليا - المترجم) أيضا نصيبها (٢٨٨) . ودار نصابة loggia في الجزرات (٢٨٩) ، وكانت جاليته هناك (٢٩٠) برعايه خاصة . لأن طوائف تجار الجملة المشهورة في الوطن الأم كان اها وكلاء يتولون الأعمال التجارية والمصرفية في آن واحد (٢٩١) . وحاشا تذكر ايضاً بالنسبة الى إيطاليا تجار سيند Sicens (باقليم تـ كانيا) وأنكونا Ancone (على البحر الادرياتي) ، وكلتي مجرد ذكر هاتين اللدنتين نظراً لعدم وجود معلومات بشأنهما (٢٩٢) .

-
- Archiv. de l'Or lat., I, 467, 473, 480-482. (٢٨١)
- Ibid., I, 443 et s., 447 et s., 450, 459, 466, 468, 481 et s., (٢٨٢)
484 et s., 487 et s., 491 et s.; Saputo, dans Bongars. II 88; Langlois, Voyage en Cilicie, p. 472; Ray, Périples de Syria et d'Arménie, dans les Archiv. de l'Or lat., II, 1, p. 382.
- Arch. de l'Or lat., I, 444, 448-449. (٢٨٣)
- Arch. de l'Or lat., II, 3 p. 21, charte de l'an 1200; Charles de (٢٨٤)
1304 et de 1307, dans Langlois, Trésor, p. 166, 178; Arch. de l'Or lat., I, 467.
- Placarius Plaisancien
- Langlois, Trésor, p. 174, «Glov Beldé» Commem. reg., I 182, (٢٨٥)
- Langlois, Trésor, p. 168 - Arch. de l'Or lat., I, 484, 538 et s. (٢٨٦)
- Arch. de l'Or lat., I, 482, 508, 510, 514 et s., 523, 533 et s., (٢٨٧)
Commem., reg. II, p. 41, no. 241
- Arch. de l'Or lat., I, 484; Donesaud I commercio e la navi- (٢٨٨)
gazione dei Genovesi nel medio evo, p. 137-143.
- Arch. de l'Or lat., I, 488, 489, 490, 510. (٢٨٩)

وشارك جنوب فرنسا بنصيب في تجارة أرمينيا الصغرى * ولدينا
 جرامين مختلفة من ذلك : منها أولا أسبلة البروفانسيين المكتبة في العقود
 المبرمة لدى مولتي جنوئين في الجوريات (٣٩٣) ؟ وثانيا ، الحادث الذي
 وقع لتاجر من مرسيليا صادر أسطول فينيسي كل بضاعته مع السفينة
 التي كان يركبها * وفي قائمة السلع التي سودرت بعد انقضية للخواتم ،
 وقوطا ، وأمواس خلقة ، وصناديق صابون ، ومرابا ، وشسوعا ، وأحرمة
 بدريرية ، وباختصار مجموعة من السلع الأوروبية التي كان هذا التاجر
 يريد بيعها في الشرق الأدنى * وبعد أن سودرت بضاعته ، توجه من
 آياس إلى بلاد الروم ، ولم يكن هو المالك الوحيد لهذه الأشياء ، فقد
 كان معظمها ملكا لتجارين من مونيبيليه (٣٩٤) * وذكرنا ثلثا وثيقتين
 وسبعتين لعامي ١٣١٤ ، ١٣٢١ تحمّلان توقيع ملوك أرمينيا ، وفيها أمر
 صادر إلى موظفي الجمارك بالآلا يطلبوا من تجار مونيبيليه سوى رسم
 قدره ٢/ ، ويقول بيجولوتي أن هذا هو السعر المطبق بمسامة على كل
 البروفانسيين (٣٩٥) *

تختم هذا التعداد بالعثالوين * من المرجح أن العثالون البحري المسمى
 Consulado del Mar قد دون في العثالوين ، والثابت أنه طبق من
 البضاعة على أمة لها بحرية تلوم برحلات كثيرة إلى أرمينيا (٣٩٦) * وتردنا
 العقود المبرمة عند مولتي جنوئين في آياس باسمه بعض يورجوازي
 مرسلة (في شرق إسبانيا) يمارسون التجارة في هذا البلد (٣٩٧) *
 ففي صام ١٢٩٣ أولفد جيمس الثاني ملك أراغون بيسر دسمورس
 Pierre Desportes (Petrus de Portia) في سفارة لدى جيكاتو
 Gelkaton خان المغول ، وعهد إليه في هذه المناسبة بخطاب يسلمه إلى
 ملك أرمينيا يطلب إليه منح العثالوين سولا وحيا سكيا ، فضلا عن
 خطفي الرسوم الجمركية (٣٩٨) * والواقع أنه في الفترة التي كان فيها

Ibid, I, 498, 808.

(٣٩٣)

Langlois p. 164 et s. : Taf, et Thom., III, 374 et ss; Regest, (٣٩١)
 dans les Connem I, p. 171 no 7; p. 240, no 318 et s., p. 246, no 344;
 dans les livres V-VIII des MésI : l'Arch. Venet., JCK, 310 et s.; Bibl.
 de l'école des chartes, 3 série, III, 210.

Langlois, p. 173 et s., 185 et s.; Germain, Hist. du commerce (٣٩٥)
 de Montpellier, II 9 et s.; Dubautier, Recherches sur la chronologie
 arménienne, p. 188-191; Recueil des hist. des crois., I.c., p. 754 et
 ss.

Paréassus, Collection des lois maritimes IL Introd., p. xviii. (٣٩٦)

Arch. de l'Or. lat., I, 481-485 (année 1376). (٣٩٧)

Navarrete, dans les Memorias de l'Academia de Madrid, V, (٣٩٨)
 177 et s.

بيجولوتي موجودا في أرمينيا ، خلف الرسم الحادي وقطره ٤٪ الى النصف بالنسبة الى القطرولين ، ولعالم يدعون بهذه الخطوة لتدس الملك ، ولا يبدو أن مدينة برشلونة أقامت قنصلية لها في أرمينيا ، وعلى الأقل كان قنصلها في قبرص (في فاماغوستا) يؤدى في عام ١٣٤٧ مهام قنصل أرمينيا (٣٩٩) .

وعلى العموم بذل ملوك أرمينيا كل ما في وسعهم من أجل تقم التجارة ، وكانوا يحبون أن يروا الأمم الغربية تتنافس للحصول على مكان لها في ولاياتهم ، ولم يكلفهم أن يضمنوا تعاطف العالم للمسيحي معهم ، بل كانوا يودون أن يتقدم هذا الشعور بمصلحة مادية . ذلك لأنه من غير مساعدة فعالة من دول الغرب البحرية ، وهم مطوقون من جميع الجهات بالمسلمين منذ سقوط الدول اللاتينية ، لم يكن في مقدورهم أن يقارموا أعداءهم ، وأشد هؤلاء الأعداء بأسياسم سلاطين مصر ، كان هؤلاء السلاطين يفازون من ارمينيا تجارة أرمينيا ، ويغيظهم أن يروا مملكة مسيحية صغيرة ، مستقلة تقفل قائمة وسط جيرانها المسلمين ، ومن ثم دأبوا على مهاجمتها . ويفترض صانوتو أنهم كانوا يريدون تحويل تيار التجارة الآسيوية الكبير حتى يمر بالقليسم (٤٠٠) ، وهذا أمر محتمل ، ولكن من المرجح أيضا أن مصلحتهم السياسية كانت في الدرجة الأولى من الأهمية ، وفي نظرهم أنه لو زالت مملكة أرمينيا عن يقي في آسيا لعدة من الأرض تصبح قاعدة لعمليات جيش صليبي ، إذا ما فكر العالم المسيحي فكبرا جديا في تخطيط مشروع لاسترداد الأرض المقدسة .

وللوصول الى هذه الغاية كانت هناك وسيلة ممتازة تقتل في القضاء على مالية أرمينيا ؛ لذلك فرض عليها (سلاطين مصر) بمعاهدة عام ١٢٨٥ جزية قدرها مليون درهم (٤٠٦) ، رفعتها بمعاهدة ١٣٢٣ الى مليون وثمانى ألف درهم ، أطلقوا منها التنازل عن نصف إيرادات الملاحات وجمارك آياس ، والأبواب (اللقية) (٤٠٢) . وكان البلد نفسه فقيرا ، لا تكفى موارده لدفع هذه الجزية الضخمة ، وسد الفراغ الذى يحدث في إيرادات الجمارك ، ولواحدة هذا الموقف المزدحم ، وجد ملوك أرمينيا أنفسهم مضطرين الى فرض ضرائب باهظة على التجار الأجانب ، ولكنهم امتنعوا

Capmany, Mem., II, app., p. 68.

(٣٩٩)

Becr. d. d. cruce., p. 7.

(٤٠٠)

(٤٠١) التاريخ : تاريخ سلاطين السالك ، الجزء الثالث ، ١ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

Russett, Annual ecol., a.s. 1323, XXIV, 231.

(٤٠٢)

عن الميساس بالمعاملات التي تخضع أو تلحق رسوم الدخول والخروج واستمروا في منح « دبلومات » بهذا المسمى ، ولكنهم اتقوا على رسوم المرور بالقنوات المائية ، ورسوم رسوم الدخول في الموانئ ، ورسوم المرور بالطرق ، ورسوم الأسوار ، الخ ، وهي التي لم تذكرها المعاهدات .

ويحصل جاب ملكي consarius رسم إنتاج ، حتى على المبيعات التي يجريها تجار تابعين للأمم الأكثر رعاية (٤٠٣) . وكلما ارتفعت الجريبة الواجب دفعها لصر ، نقلت الأحماء التي تعرض على التجارة ، ولما دون شك أن يعتبر بمثابة نتيجة مباشرة لهذه الجريبة مرسومه يقضي بأنه يجب مستقبلا على التجار البساطة عند وصولهم أن يسلموا إلى دار العملة الملكية نصف الأشياء الفضية التي تكون معهم (٤٠٤) . حسده الأشياء تنقل أيضا كاهل الأمم التجارية كلها ، ولكنهم أنهم أن البساطة وحدهم هم الذين جاهروا بمطالبهم ، وتبدوا على هذه الأوضاع . وقد سبق أن رأينا أن في مستهل القرن الرابع عشر قام بإلهم على رأس بحارة سميتين من البندقية واستولى بالقوة على قلعة فوق أرض آياس وبهب كل ما وجدته هناك بما في ذلك الكثير من الأشياء التي يمتلكها شريكين وأوروبيون (٤٠٥) . ولعلنا نرى في هذا العمل افجارا لسياسة التي استتارته الاجراءات التي تحدثنا عنها سابقا . ثم أن الجمهورية وافقت أيضا بعد على تعويض الملاك الذين أصابهم أضرار في هذه المعركة . وعلى أثر ذلك كلف عدد من السفراء من قبل الجمهورية بتقديم شكوى لبلات أرمنيا ، منهم ميشيل جستينياني في عام ١٣٢٠ ، وجاكوبو بريليراني في عام ١٣٣٣ . وقد أولد هذا الأخير الر تقرير غير دلائم قلعة البايبل بيترو براجاديفو عقب هودله من أرمنيا (٤٠٦) . وتقضى التعليمات الصادرة لهؤلاء السفراء بالإصرار على إلغاء الرسوم الجديدة الخائرة بالبندقة ، أما في آياس نفسها أو في أثناء رحلاتهم

(٤٠٣) في شمس النظام الأرمني للبراتب الشر :

-- Dulaure, *Revue des hist. des crois.*, t. II, p. xcvi et ss. et particulièrement le traité de 1288, *Ibid.*, p. 745 et ss.

Langlois, p. 180, 181.

(٤٠٤)

(٤٠٥) لم يذكر المؤرخون عند الحرب ، ولم يرد لها ذكر إلا في الوثائق اللاحقة

في « الوثائق القيسية » المقصورة في :

-- Mss Latze, *Hist. de Chypre*, III, 817 et s., 484-487.

Langlois, *Trésor*, p. 185 et ss.

...

Langlois, p. 176-182, 181 et s., 188 et s.

(٤٠٦)

داخل البلد ، وكذا الغاء ضريبة قدرها تاكولان taclin (٤٠٧) يدفعها كل اسبوع اليصادقة مساجو التسلات وأصحاب العانات ، وعلى السراة ايص ان يجتجروا على شروب الازعاج والتباطؤ من جانب موظفي الجندرك ، والاهانات التي يوجهها الأهالي الأرمن الى المستوطنين (البادقة) المقراء ، وأن يشكوا لتملك نفسه من أنه لا يهتم بقضاء البابل ، وأن المستوطنين لا يبالون منه عونا كافيا ضد هديتهم للتفاسين ، وحماية لعالة صد ما يقع عليهم وعلى أموالهم من اعتداءات . وتلقى الملك لأوون الخامس كل هذه الشكاوي بروح طيبة ، ووعده بالقضاء على التبعديات التي ارتكبت بالمخالفة للمعاهدات ، وأن يحكم بالعدل .

كل هذه مشاكل بسيطة ، في الامكان محللتها ، ولكن من ناحية الصدو كان الخطر يتلاقم مع ازدياد قوته ، ويهدد وجود الملكية . وتركت غزوات المصريين وراها الخراب والدمار ، وأصيب ولاء المستوطنات التجارية . بالهوان مباشرة ؟ فالمسلمون لم ينشروا الحرق والقتل والتهب في الأرياف والمناطق التجارية وحدها ، بل أصابت هاراتهم المدن التي يسكنها المستوطنون ، طرسون وأذنة وآيس والمصيصة ، كلا منهم بدوره (٤٠٨) . ويبدو أن سلاطين الممالك كانوا يستعدون بسوء خاص آياس كمركز تجارة ارمينيا .

ولد نقيب آياس مرتين ، في عامي ١٢٦٦ ، ١٢٧٥ (٤٠٩) . ثم استولى عليها السلطان الناصر محمد مرة ثالثة ودمرها في عام ١٣٢٢ (٧٢١ هجرية) ، وأسر عددا كبيرا من المسيحيين ، واستطاع هدد آخر منهم الفرار تحت جح الظلام في صفر قيرصية ، حيث لجأوا الى قبرص وقرياقوس .

وعندما استتب الأمن في عام ١٣٢٣ استطاعت المدينة أن تنهض من تحت أنقاضها ورمادها ، واعيد بناء القلعة الحصينة على البر ، وكان لا مناص من التحل عن إعادة بناء القلعة البحرية (قلعة آياس - المراجع) .

(٤٠٧) كانت تاكولان آند تساوي تقريبا الدرهم drachme وكانت مطروا تاكولات تساوي دندرا بيزنانيا . انظر في ذلك :

— Pegolotti, p. 44 et s.; Dulaurier, dans le Recueil, I, p. 749; Desdame, dans les Arch. de l'Or lat., I, 436.

Weil, Gesch. der Chalf., IV, 53, 77 et s. 354, 357, 35-358, 360 (٤٠٨) et s., 304 et s.; Arch. de l'Or lat., I, 336 et s., 370.

Dulaurier, Rec. des hist. des crois., p. 322, 326; Weil, Gesch. (٤٠٩) der, Chalf., IV, 56, 78.; Cont. de Guili de Tyr, p. 467; Banul., p. 326.

تكان هذا موضوعا لشكوى التجار الذين بقيت بضائعهم معرضة في المستودعات لغارات العدو ، ومغاجمات القراصنة (٤١٠) .

وفي عام ١٢٣٧ (٧٣٥ هجرية - المراجع) قام المصريون بغزوة جديدة ، وفي هذه المرة لم تلج آياس من اقتحام العدو اياها الا بعد ان تمهد لأووى الخامس بهم حصار المدينة التي زعمت حديثا بغضل المعونات المالية الكبيرة التي قدمها البابا يوحنا الثاني والعشرين (٤١١) ، وأن يستقبل في جهات أخرى حاميات اسلامية (٤١٢) . ولم تنقذ كل هذه التنازلات الا لفترة قصيرة . فقد استولى المسلمون على المدينة لآخر مرة في عام ١٢٤٧ (٤١٣) وبقيت في قبضتهم ، وعيشتا توسطت البيندية بناء على طلب البابا ليمنحت السادس لاعادة المدينة الى ملك امينيا (٤١٤) ، وعيشتا قامت قوات مملكتي قبرص وامينيا محتلة بغرب الحصار على المدينة في عام ١٢٦٧ (٤١٥) ، حتى ضاعت نهائيا من أيدي المسيحيين ، وخلف الزهادها النصر الأبدي انحلال سريع . ولم يبق للمملكة ارمينيا نفسها وجود لابد قصير الا بغضل الخلافات الداخلية التي أضعفت مصر فترة من الزمن .

وفي عام ١٢٧٤ قرر عزم السلطان الملك الأشرف أن يتخلص نهائيا من هذه الدولة المسيحية ويضم لليونية *In Clivio* الى ولاياته . ولم يستطع ليتون السادس (تكفور - المراجع) أن يقاوم ، بل طُرد حتى وسط الجبال في قلعة جابان *Gaban* ، ملجأ الأخير ، ومنها نزل أسيرا الى مصر في عام ١٢٧٥ (٧٧٦ هجرية - المراجع) . واد أصيب المستوطنات التجارية في ارمينيا في الصميم بسقوط آياس ، فانفسا واصلت حيالتها بعشقة حتى تم حصار المملكة نهائيا ، والدثرت دون أن تتركها اقربا لها . وعند سكان هذا البلد في الوقت الحاضر قصة خالدة ، تحكي أن غابات الزيتون التي عادت الى حالتها البرية التي ما زالت موجودة الى

Sempad, dans le *Recueil des hist. des crois.*, l.c., p. 667 (٤١٠)
et s., *Ibid.* p. 754 et s.; *Wulf Op.*, cit., IV, 234 et s.; *Raynald, Annal. eccl.*, s.a. 1232, nos 30, 34 et s. s.a. 1323, no 9; *Sauzet, Epist.*, à la suite des *Secr.*, *Ms. cru.*, p. 289, 297 et s.

Raynald, l.c., s.d. 1231, no 30, (٤١١)

Wulf Op., cit., IV, 361, (٤١٢)

Le 25 mai, d'après la relation du pèlerin Jacques de Vêrone, dans *Roehricht et Meissner, Deutsche Pügerreisen*, p. 81, (٤١٣)

Dulaurier, l.c., p. 709; *Raynald, l.c.*, XXV, p. 454; (٤١٤)
Commém., reg., II, p. 127, no 218

Dulaurier, l.c., p. 716; *Wulf Op.*, cit., IV, 323, (٤١٥)

الآن قد زرعا الجيرون (١١٦) ، وأن حصن جوليك كالا Goulék-Qala الذي يشرف على مضيق جوليك بوغاز Goulék-Bogaz (الذي أسميناه قبل أن جوجلاج Gougleg) قد شيده أيضا الجيرون (١١٧) ، على أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة .

ثالثا - طريزون ، باعتبارها المدخل إلى وسط آسيا

كان لظاهرة التي تجلبت في جنوب شرقي آسيا الصغرى ، وإبان اجتياح آسيا الصغرى بالتدريج نظير في شمالها الشرقي ، فهناك أيضا بفضل طوق من الجبال التي تحميها من غارات الجيوش ، نجت دولة صغيرة يحكمها أمراء مسيحيون من المصير الذي انتهى إليه الكافة ؛ وكانت هذه الدولة هي البداية مقاطعة صديرة (Théma) تابعة للإمبراطورية اليونانية ، وكان حكامها الذين يحصلون لقب « دوق كالديا » Calde

يعتصمون في بعض الفترات باستقلال تام ، وفي السبعة التي استولى فيها الفرنجة على القسطنطينية ، أصبحت هذه المقاطعة إمبراطورية « إمبراطورية طريزون » وامتد كيائها هذا حتى القرن الخامس عشر ، وكان أول أمير اعتلى هذا العرش (إبريل ١٢٠٤) هو الكسيوس الأول Alexis Ier حفيد أنتونيوك ، وبذلك فإن الأسرة الحاكمة التي أسسها هي فرع من أسرة كومنينوس التي أعطت الإمبراطورية اليونانية العديد من الأباطرة الطام ، وثمة إحدى قريسات الكسيوس ، وتدعى ثامار Thamar ملكة جورجيا ، هيأت له ملجأ ، ثم زودته بجيش (١١٨) غزا به أولا إقليما شاسعا على الساحل الشمالي لآسيا الصغرى ، ولكن انكسرت إمبراطوريته في أثناء حياته فلم تعد تشكل على الساحل مسوى الحيز المحصور بين نهر تيرمودون Thernodon غربا ونهر فيز Phase شرقا . وجاء هزو التتار في الوقت المناسب (١٢٤٤) لانتفاذ البقية الباقية المهذبة دوما يتفوق سلطنة إيكويوم (قونية) الساق . وبعد أن أنزل التتار بجيش السلطان هزيمة منكرة لم تقم له بعدها قائمة ، وطردوا سلطتهم فيما وراء نهر الفرات، وبخصوص إمبراطورية طريزون ، اكتفوا بأن يأخذوا

Langlois, Voyage dans la Cilicie, p. 44.

(١١٦)

Kotachy, Raies in den östlichen Taurus, p. 71 et ss., 304 et ss.

(١١٧)

Bist, de la Géorgie, trad. Brossel, 1ère part., p. 466.

(١١٨)

منها جرية ظلت تدفع بعض الوقت ، وتركوها في لبنان تام . واسمهم ظهورهم في آسيا الصغرى اسمها غير مباشر في رحاء مدينة طريزون وازدياد أهميتها ، لأنه حول التجارة من الاتجاه الذي كانت تتسمه حتى ذلك الحين . وأصبحت طريزون بحكم موقعها على الخط الذي بدأ يسلكه تيار الحركة التجارية الكبيرة بين الشرق والغرب مرحلة من مراحل هذا الخط (٤١٩) .

ولقد سميت طريزون دالما دورا خاصا باعتبارها موقعا تجاريا . وعلا كانت من مدن الحدود الدائمة للإمبراطورية البيزنطية ، كان الروم والعرب يتقاربون فيها ويتبادلون التجارة . فهذا هو ما يذكره لنا المسعودي والاصطخري وابن حوقل (٤٢٠) . كما كانت تمارس من جهة أخرى حركة تجارية مع إقليم القوقاز وروسيا (٤٢١) . وكان عدد كبير من التجار اسلمين من سلطنة قونية ، ومن سورية وبلاد ما بين النهرين يتقاربون في سيواس Silvas حيث ينظمون القوافل ، ويسهرون بها عن طريق طريزون إلى السواحل الشرقية والشمالية للإقليم بنطس Pont (٤٢٢) . غير أن رحاءها التجاري مما نوا كثيرا بعد تدمير بغداد بأيدي هولاكو خال ، في حين كانت تبرير (طورس) المركز السياسي والتجاري لآسيا . فطالما بقيت بغداد ، كانت منتجات الشرق تنجح صوب البحر المتوسط ، وبعد سقوطها اتجه التيار التجاري ناحية الشمال لأن القوافل التي تحمل إلى البحر المنتج لتصير إلى الغرب من تبرير (طورس) كانت تفلح للوصول إلى بنطس مسافة أقصر مما تقطعه للوصول إلى البحر المتوسط . وترتب على ذلك انقلاب في الحركة التجارية ، ففي حين كان مجموع البضائع القادمة من وسط آسيا تنفذ صوب البحر المتوسط ، أصبح الآن جزءا منها ، بل وجزءا كبيرا يسلك طريق تبرير (طورس) إلى بنطس ثم إلى شاطئ البحر الأسود ، عند طريزون بنوع خاص . أما الأمازي ، وهم قليلو النشاط بطبيعتهم ، يذهبون للصناعة الصغيرة على مناعب الشروعات الكبيرة ، فانهم لم يسهموا في التجارة الكبيرة إلا بنصيب ثانوي للغاية . ولكنهم كانوا يدركون تمام الادرک المزايا التي تعود عليهم من وفود الأماني في أعداد متزايدة ، ودروا بعين الرضا نمو التسهيلات من أجل تصريف المسجات في البلد يوما

Fallmerayer, Gesch. v. Trapezunt, p. 319, (٤١٩)

M. Defrémery dans le Journ asiat., 4^e série, T. XIV, p. 468 (٤٢٠)
et par d'Ohsson dans son livre Des peuples du Caucase, p. 28.

Al-Buhārī, II, 46 et s. (٤٢١)

Ben Al-Azhar, à l'année 802 (1396-1397 ap. J.C.), cité par Defrémery Op. cit., p. 461 et s.; Schéhaheddin, p. 380. (٤٢٢)

بعد يوم . فالواقع ان اقليم الامبراطورية كان به أكثر من نوع من السلع التي يحرصها هي الأجانب . كانت العاصمة تنتج أسجة مسودة (تريكو) ، وأقدشة متعددة الأنواع من كنان (Rhizocum) ، وصوف ، ووبر الحرير (٤٢٣) . أما الجبال التي تحيط بالامبراطورية فتحوى على مناجم فضة (٤٢٤) ، وحرير ، وشب من أجود الأصناف (٤٢٥) .

قلنا ان أهالي طبريون تركوا التجارة الكبيرة للأجانب ، واستغاد القرىيون من ذلك . ولما كان وسط آسيا مفتوحا لهم في أعقاب انهيار من المعابرات المتبادلة بين حانات الفول والدول الغربية ، فلهذا تحرك عدد كبير من التجار الأوروبيين لاستغلال المجال الجديد الذي افتتح لهم ليمارسوا فيه نشاطهم . وكانت طبريون بمثابة باب من الأبواب التي نفذوا منها . ومن هناك ، كان عدد منهم يصل في الحال الى طوروس ، أو يقامر الى أبعد من ذلك ، الى قلب آسيا ، وآخرون يتقفلون حسابه ، ويستلمون البضائع التي تجلبها القوافل من الداخل . ويوجد هالك . كمنسا في آيسن تسابل الهند (٤٢٦) ، وعساقيز فارس ، وحسور الصين (٤٢٧) . والشيء المريب أن من أوائل التجار الذين تلقاهم على هذا الطريق أتت من أهالي مرسينيا ، مزودين بخطابات توصية من شارل دالجو (الذي وقع عليها بامضاه يصعبه كوت بروغاس) لامبراطور طبريون . وربما سلم أحد هذه الخطابات لعنان التتار ، وهو مؤرخ في ٧ من ديسمبر ١٢٦٦ . وخطاب آخر بتاريخ ١٣ يناير ١٢٦٧ (٤٢٨) .

فهل طرد الإيطاليون المروغليسيين على أثر ذلك من هذه السوق . أو استمرت بحريتهم (بحرية البروفنسيي) تتردد عليها دون أن تترك

(٤٢٣) Eugénie, à la suite des Eustathius opuscula, éd. Tafel, p. 373; Geach, des Kaiserthums Trapezunt, p. 321.

(٤٢٤) A. Balbouri, suivant le texte ramenné de M. Polo V. Yule, M. Polo, I, 43; Ritter, Asien, X, 372.

(٤٢٥) في داخل البلاد ، خلف سبرالوت ، Cérassote ، انظر :

— l'art. Alum, dans le chapitre relatif aux articles de commerce.

(٤٢٦) للحصول على القوافل . كانت اسمى الكينسية تتجازل لحيالا طبريون . Pegel., p. 18.

وتنقى حتى فانهم ، انظر :

— Vadi, et Thomas, Periple des Pontus Euxinus, Op. cit., p. 269; les Commerce, II, p. 160, no 666.

— هذه الملمة تمت وجود طريق ناتوي يبدأ أيضا من طبروس .

(٤٢٧) Fallmerayer, Geach, V Trapezunt, p. 318.

(٤٢٨) Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Anjio, I, 219 et s.

أثرا لمرورها ؟ لا علم لي بذلك ، وكل ما نعرفه بوجه عام عن إقامة الفريسيين في طربزون ينطبق على أفراد يشتمون إلى ثلاث مدن إيطالية : جنوة والبندقية وفلورنسا *

سوف نرى في الفصل الثاني أنه في عشر السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، استقر عدد من الجبريين بصفة دائمة في فارس ، وظهروا ظهورا عابرا في الغرب ليؤدوا به بعض المهام باسم الخانات . ومن الملمة السحت عن الطريق الذي سلكه هؤلاء في دهاهم واياهم . ولابد أن التقادري يميز بطبيعة الحال إلى التسليم ، بمسألة كل ما قيل في الفصل لسابق بأنهم كانوا يسمون بجوزات . وربما كان هذا غير صحيح ، لأنه كان هناك طريق أقصر لعمد الطريق الذي كانوا يفضلون سلكه . هذا هو ما نعرفنا به وثيقة اكتشفت أخيرا ، وهي قائمة حساب للقات سطر جالفريد دو لانجيل Galfreid de Langeis (١٢٩١ - ١٢٩٣) (٤٢٩) لورد من قبل ادوارد الأول سلفيا من انجلترا إلى فارس *

وكان أول عمل أداء لانجيل التوجه إلى جنوة ، وفي عزمه بالياكيد أن يجمع أحسن المعلومات عن الطريق الذي يتبعه القايه ، ولعله يجد رفقا سبق لهم أن سلكوا هذا الطريق . والتقى هناك بمن كان يريته إمام : الثاني بشخص يسمى بوسكاريللو دي جبرولفي Buscarello de Ghizolfi (Gulzulf) كان في خدمة أرجون غاس (١٢٨٤ - ١٢٩١) وأتى ليزور باسم هذا المعامل بلاطات روما وباريس ولندن . وأقام قبل عودته بعض الوقت في وطنه الأصل ، وكان عليه أن يصحب معه في عودته أخاه برسيفال Percivalle وابن أخيه كورادو Corrado وكانت مهمة لانجيل بالتذات تقابل مهمة بوسكاريللو ، فهي بالنسبة إلى الفارس الإنجليزي فرسة ذهبية ، تتيح له أن يسافر في صحبته (٤٣٠) . وقام الاثنان برحلة الذهب والعودة عن طريق طربزون ، حيث تزودا بما يحتاجان إليه من مؤونة في طريقهما : ومن الأشياء التي تزودا بها ، اثندريا حصانا من تاجر جنوي يدعى بنديتو Bendetto (لا تذكره الوثيقة إلا بهذا الاسم) وتركها جزءا من أمتعتهم في منزل نيكولو دوريا (٤٣٦) *

I conti dell' ambasciata al chan di Persia nel 1292, pubbl. (٤٢٩)
da Corn. Daxineoni, *Atti della Soc. Idg.*, XIII, 587-598.

Ibid., p. 582 et seq., 587 et seq., ٤92, 594-596 598, 597, 617 637, (٤٣٠)
641 et seq.

Ibid., p. 608, 614. (٤٣٦)

هذه التفاصيل تثبت وجود جالية جنوية في طبرون وهي أقدم ما نملكه من أدلة . فهو كان دوريا Dorcia هذا كما يعترض السيد ديزيموني M. Desimoni (١٢٢) فنصل جنوا في طبرون ؟ هذا سؤال لا بد أن نتركه بلا جواب أكيد . غير أنه ليس ثمة شيء يبيح لنا أن نضي عروج قنصلية جنوية في حسم المدينة في تلك الآونة . فالواقع أن الإيطاليين الذين تأكد لنا أولا وجودهم في طبرون هم الجنويون . والشاهد الذي لدينا عن ذلك مقبرة كتبها المؤرخ البيروني جوردجيوس باشيميريس Georgios Pachymères . فهو يذكر في مناسبة حدث وقع في عام ١٣٠٦ (سوف نتكلم عنه في حينه) أن الجنويين كانوا مستقرين هناك منذ زمن لديهم (١٢٣) .

ولمة حليفة أخرى تؤدي بنا الى النتيجة نفسها : ذلك أن اعتبارات الجنويين في المعاهدات المبرمة بين أباطرة طبرون والبنديقية قد اتخذت مراما بمثابة أنماط من المزاي التي يراد منها، لتبادلة . ولا بد أن تفحص حتى نعلم يرجع الى عام ١٣٠٠ (١٢٤) . فالواقع أنه في رسائل متبادلة في عام ١٣٤٥ بين دوجي جنوا والبنديقية في خصوص أرض مبيدة أجرى عليها التبادلة بعض الأسماء كما لو كانت هذه الأرض ملكا لهم ، نرى أن الأول يسمى ملكية الأرض ويثبت دعواه في « قرار ذهبي » bulle d'or مقرر منذ أكثر من خمسين عاما باللغتين اليونانية واللاتينية (١٢٥) أصدره الكسيوس الثاني امبراطور طبرون (١٢٩٧ - ١٣٢٦) يجب بموجبه هذه الأرض للجنويين ، ويفسيف الفوج أن الكسيوس ، بمنحه هذا الامتياز لمواطنيه لم يفعل سوى الاقتداء بأسلافه الذين يمنح لهم الجنويون بامتيازات أخرى .

هذه الجبهة تفتح لنا مجالا واسعا في السنوات الأولى من القرن

Ibid., p. 563,

(١٢٢)

Pachym., ed. Bonn, II, 440.

(١٢٣)

(١٢٤) كانت نيابة الجنوية كذلك أيضا في زمن بيتر ملكية خاصة به ، وبهذه التواريخ على ذلك في مقال بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩٠٢ :

— *Atti della Soc. Lig.*, XIII, 563, not. 2.

Atti della Soc. Lig., XIII, 596; Tafel et Thom., IV, 384; Marin (1907), VI, 86) et M. de Mas Latrie (*Archives des missions scientifiques* II, 348 note); Pallmeier, *Gesch.* V, Trapezunt, p. 200.

— لم تكن تفرق مطلقا والدة داخل حدود امبراطورية طبرون . وفي لغة التمهيد كانت بالأكاد معناه من ناحية أرمينيا الى بيروت

Pallmeier, *Gesch.* V Trapezunt, p. 360 . Dalbourn

الثالث عشر ، وتحتلنا نأسف على فقد مجموعة كاملة من الوثائق الرسمية (الدبلوماسية) التي أصدرها أباطرة طبريون لصالح لجنوبيين . ولقى اثنان من « دبلوماسيات » الكسيريوس الثاني نفس المصير : أولهما قرار بالتسليم استناداً إليه دوج جنوا في مراعاة مع دوج البندقية وكل ما تعلمه أن هذا القرار كان « بصفة خاصة » عهد بها إلى بييترو أرجولينو « Pietro Ugo »

أما القرار الثاني فإياه قرار ' bulle - حشيش عليه سفير آخسو . هو أوبرتو كاتانيو ديلا فولتا « Oberto Cattaneo della Volta » (١٣٦٦) . وكانت الأرض الموصاة لأوجوليو من أجل مواطنيه ، واحتلتها بالفعل واقعة عند « قلعة الأسود » (Chateau des lions Léontocastion) المسماة أيضاً قلعة أو رأس ميدان « Chateau au Cap du Meidan » (١٣٧٧) . واسم « ميدان » هذا أطلق أولاً ، زال يطبق على مكان على شكل مستطيل يقع على حضيبة تشرف على ميدان طبريون .

وكانت « قلعة الأسود » المجاورة لهذا المكان تشكل جهة مقدمة على البحر ، تشرف على الرصيف المسمى دافوس « Daphnos » . ولم يزل يرى في هذا الموقع أساسات لأبنية تعتبر من صنع الجنوبيين (١٤٧٨) . وتلهه الأرض من أيا كثيرة نظراً لوقوعها بجوار المياه ، وعلى مرتفع يشرف على المدينة ، وسوف نرى بعد قليل أن الجنوبيين كانوا يتشبثون بها . غير أن حصول الجنوبيين على هذا الموقع لم يمنهم بعد القضاء بمرح سنوات من إنه يقعدوا بعض المطالب : فقد وجدوا أنه مما يثير استغربة أن يفرض أمير صيفر تفتيش بفساحهم بعمق ، وعلى الجدارك . من حين أن عامل امبراطورية كريمة مالى امبراطور بيزنطة قد أعفاهم من الرسوم والغرائب كلها . فمن ثم أرسلوا وفداً مهمته الصل على تخطيط الأحياء الطبرية من القسارية .

ولم يكن الامبراطور الكسيس الثاني مسعدا المرافقة على تنازلات من هذا النوع . عندئذ أبدى المسويرون أنهم يريدون قطع العلاقات كلها مع طبريون . ولما كل من لهم مشقات بالمدينة ، بالاستعداد الفصايب لشخص كل أموالهم المنقولة على أسطول تجارى راس في المياه . ولم يفرغ

Atti della Soc. Lig., XIII, 518, 521, 522, 523, 529.

(١٣٦٦)

Atti della Soc. Lig., XIII, 518, 520.

(١٣٧٧)

— لم يكن هذا الموقع في الحقيقة مسوى فاحية من طبريون ، ومع ذلك فإن

« Atlante Luxoro » ذكره على أنه باسم ميدان « Medan »

— Atti della Soc. Lig., V, 182, 385,

Palmermyer, Fragments des Orient, I, 48 et s., Orig. (١٣٧٨)
Fragm., Op. cit., p. 52, 64, 88 et s. ; Hamilton, Relae in Kleinasien, I, 229.

الكسيس من عدم الظاهرة ، وكان يدرك تمام الإدراك أن (تفطاع الحركة
اقتصادية سوف يضر بتجارة الجنويين أكثر مما يضر بخرابته ، ومن ثم
أعلن أنه لا بأس عليه من رحيلهم على أن يدفعوا الرسوم المستحقة على
المصانع التي استوردوها من قبل^١ ورد الجنويون على ذلك برفض بات ،
وسارعوا بشحن بضائعهم في السفن عندئذ أرسل الأميراطور قوات
عسكرية لاجبارهم على الامتثال له ، فحدث صدام أريققت عيرت السماء ،
وعمل الجنويون أسوأ مماثلة .

وحاول الجنويون معاداة أعدائهم فاشبعوا الثيران في مسابرة
المدنية ، ولكن لسوء حظهم وصلت البيران إلى بفسائهم الكدسة على
الأرضة ، وكانت كافية لشحن اثنتي عشرة سفينة تنظرهم في الميناء .
وقد شطرتهم هذه الحسائر في الأرواح والعناد لعقد الصلح ، وسداد
الرسوم البحرية حتى تصدر أوامر أخرى (١٤٢٦) . وقعت هذه الأحداث
في عام ١٣٠٦ ، ومع ذلك تجددت المناصب ، ويسجل ميشيل باداريوس
Michel Panarion في كتابه « أخبار طبرون » أن اللاتينيين
تمردوا في عام ١٣١١ ، وفي حومة القتال اشعلوا النيران في القرية
البحرية (١٤٤٠) . وفي رأي أن هؤلاء اللاتينيين هم قطعاً الجنويون ،
والمواقع أن السنوات التالية التسميت بسلسلة من المعارك بين جنوا
وطريزون^٢ . فقد أراد الكسيس الثاني أن يأخذ بثأره لحريق ترمانته ،
فيظفر في عام ١٣١٣ «باصيلة» مع العازي ديلي ، سيد سيلوب حملة إلى
القرم ، وفي جنويز كانا وجهات أخرى في حملات القطر ضروبا من المعاملة
الكناسية في هذه المناسبة . واقتلعت من طريزون سفن طارقت السفن
الجنوية في البحر الأسود .

ومن الطرف الآخر قدم اوثاليفيساو دوريا Ottaviano Doris
والدميلينو حريللو Accelino Grillo وميجولو ليركاري Megollo
Lecari (١٤١١) وملاحون جنويزيون آخرون فاعرفوا عدداً من سفن
طريزون . وبعد أن أوقع كل من الطرفين أضراراً شديدة بالطرف الآخر
قر بهما على عقد الصلح . وفي معاهدتي ١٣١٦ ، ١٣١٦ (١٤٢) نرى

Pachymerus, II, 448-450, (١٣٦)

Panarion, dans Fallmerayer: Orig. Fragm., Op. cit., p. 15, 45 (١٤١)

ed., Destinati, Atti della Soc. Lig., XIII, 493 et ss.; Agosti (١٤١)

Giusefiniani, dans ses Annali di Genova, à l'année 1380 [éd. de 1557,
p. 145 et s.

Atti della Soc. Lig., XIII, 513 et ss., 527 et ss. (١٤٢)

الطريقين يثاليان بتوصيفات • ويبدو أن الامبراطور استرد من الجوبيين في أثناء المعارك حي ليونوكاسترون Leonokastron ، وأعطاهم نظير عقد الصلح الموقع الذي كانت تشغله فيما مضى الترسالة البحرية (٤٤٣)، ووعدهم بأن يحيطه بأسوار وأبراج وصناديق ، واشترط لذلك منح الرعايا اليونانيين من الإقامة في هذا الحي ، ويسرى هذا المنح على سائر الأجانب ، فيما عدا الكنائس المسيحية من قبل في الحي ، فانها تبقى بتصريح من القنصل ، أثناء النهار تحت تصرف رجال الدين اليونانيين لإقامة الشعائر بها ، كما يبقى الرصيف المجاور لهذا الحي تحت تصرف الجنوبيين وجدهم • ويحظر على السفن اليونانية والأجنبية الرسو هناك عند وصولها ورحيلها ، وتعرض المعاهدتان (٤٤٤) ، كما قلنا وجود قنصلية جنوية في طرizon ، وسلطة القنصل القضائية محددة حسب العرف بالنسبة الى قضاء محاكم البلد •

ولم يكن قدم العهد لسيبيا باستقرار الجوبيين بطرizon ، وصلابة موقفهم نازاه الأباطرة سوى النتائج الطبيعية لنوع القوي الذي اكتسبته هذه الأمة في شطحة ، والتفوق الذي كفله لها في البحر الأسود وجود جالية مزدهرة ومحطة بحرية قوية مثل محطة كالفا • واستطاعت جنوا مع للمطى الارتكاز حاجين أن تعمل على القضاء مستوطيات أخرى وزعايتها على طول سواحل البحر الأسود • وكانت والفة كل الثقة بأن تجلب مقابلها ، خاصة لأنه اذا دعت الحاجة الى استخدام القوة لتقرير مقابلها هذه ، فانها لم تكن بحاجة الى استخدام قوات عسكرية من إيطاليا ، ليمدها ، اما كان لها قوات على أتم استعداد في لحظة وفي كالفا •

وثمة نتيجة أخرى ، في نطاق هذه الإجراء ، تتمثل في أن المستوطنة

(٤٤٣)

«*Dalmanes Trepanodes* : Ibid, 614, 830.

• كان مرصدا للجوبيين أن يختاروا بدل العرسات مكانا آخر مماثل لها في المساحة ، ورواها في حي آخر من احياء المدينة يطلب لهم أن يختاروه ، وكذا على «*الارمن*» • باستعداد حي ليونوكاسترون ، ولكنهم لم يختاروا بهذا العرض •

Marine

(٤٤٤) تكريم السيد الأسفان جوزيف بوتر • من تدرين بعطائي نسخة من جماعة ٦٦ أكتوبر عام ١٣١٤ ، اجلت في دار وفاق تودين ، وكتب فيها السيد كاتال *Catal* ملخصا في الحياة الأولى من كتابه «*تاريخ جنوا*» ، الجزء الرابع • سي ٢٥٣ وما بعدها • اما بخصوص المعاهدة الثانية التي أبرمت في طرizon في ٩ من يولية ١٣١٥ ، وسبق حلها في جنوا في ١٦ (٢٤) • سي مارس ١٣١٦ وكنت أعرف عنها سوى ماكتبه *Canali* في المرجع السابق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٥٤ • و *Palmerayer* : — *Palmerayer, Orig. Fragm., op. cit., XV, 64.*

الجنوية في طربرون كانت مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالسلطة المركزية في
جبوا ، فكانت هناك ادارة تسمى Afficium Gazario (أى مكتب
الترقم) تتولى ادارة الشؤون الاستعمارية في البسفور ، وبنطس ، وشلون
الملاحة مع هاتين الجهتين (١٤٤٥) ، وكان هذا المكتب يصدر تعليمات الى
قباطنة الميناء التي ترسو عند طربرون ، وإلى القوافل التي تسير من
هناك الى طورس ، ويصدر أوامره الى القناصل في طربزون (١٤٤٦) *
وبالنسبة الى أهمية هذا المنصب (أى قنصل طربزون) كان تعيين من
يشغله من اختصاص السلطة المركزية ، بدلا من أن يتولاها قنصل كافا *
وكان لقنصل كافا بصفته رئيس أهم مستوطنات بنطس الحق في شغل
مجموعة من الوظائف الاستعمارية الاخرى شأنها ، حتى في خارج مقر
عمله (١٤٤٧) *

ولمساعدة القناصل في أداء مهام وظائفهم الادارية والقضائية ،
وللوزارة سلطتهم طبقا للبيادى الديوقراطية ، ألحق بهم مجلسان :
مجلس صغير ، ومجلس كبير ، يقسم الأول سنة أعضاء ، والثاني أربعة
وعشرين عضوا ، يختارون من بين افراد الجالية نفسها (١٤٤٨) *

ولم يولد البنداقية مراكزهم في البحر الأسود بقدر ما فعل الجنوويون *
وعلى أية حال فانهم لم ينتشروا مستعمرة طربزون الا بعد زمن طويل *
ولم يحسن ذكر معاهدتين عقدتا بين البندقية وامبراطور طربزون في عامي
١٣٠٣ ، ١٣٠٦ الا بعد حدوث خطأ واضح * فبالنسبة الى المعاهدة
الاولى ، يرجع الامر كله الى خطأ مطبعي وقع في طبعة مارن Marin
واحيال من جانب ديبج Depping . وما هي الحقيقة : فبمعاهدة
أبرمت بين البندقية وطربزون يرجع تاريخها الى عام ١٣١٩ م * فلي
طبعة مارن ، وبخطا مطبعي ، استبدل بهذا الرقم رقم ١٣٣ (هكذا) ،
وبدلا من اجراء شيء من الحساب لاثبات التاريخ الحقيقي ، استبدل ديبج
برقم ١٣٣ التاريخ ١٣٠٣ (١٤٤٩) *

(١٤٤) Off. Gaz., p. 307.

(١٤٦) Ibid., p. 327, 350, 365, 385; Canale, Della Crimea, I, 240, 323, 330.

(١٤٧) Canale, Della Crimea, I, 341, 343, et s., 375 et s.

(١٤٨) Off. Gaz., p. 327, 330. Le conseil de Six.

— يظهر « مجلس ستة » في معاهدتي ١٣١٦ ، ١٣١٩ *

(١٤٩) Cf., Marin, IV, 140 , et Depping, Hist. du commerce entre le Levant et l'Europe, II, 89-91.

وبالمنثور في كتاب فليمرayer على معاهدة مماثلة بتاريخ ١٣١٩ ، سلم بأن هذه المعاهدة ليست الا نسخة مطابقة لمعاهدة ١٣٠٣ . والواقع أن النصيب متماثل ، ولكن ليس هناك الا تاريخ واحد حقيقي ، ذلك هو عام ١٣١٩ . أما فيما يختص بمعاهدة ١٣٠٦ المزعومة ، فانها لم يكن لها وجود . فتبعا لما ذكره السيد جوزيف مولر M. Joseph Muller تكون هذه المعاهدة قد عقدتها جياكومو جيوسوني Giacomo Gussoni من قبل النوج بيبيترو جرادينجو والجمهورية (٤٥٠) .

وفي ذكره لهذه المعاهدة ، ادعى انه استند الى وثائق جمعها السيد تافل Tafel ، وكانت هذه المجموعة تحت نظري : فلى الوثائق المقصودة ، لم يذكر بها لا النوج ولا الامبراطور . بقيت اذن مسألة التاريخ وحدها ، وهو عام ١٣٩٦ وليس ١٣٠٦ . وعلى ذلك فاقسم دبلوماسي معروف منحه امبراطور طريزون للبيدقة كان ولم يزل دبلوماسي ١٣١٩ ، وهو الذي سلمه الامبراطور الكسيس الثاني الى بانتاليون ميشيل Pantaléon Michal (٤٥١) سفير البندقية ، ويميز بأنه يضع الأمسس لوفال جديد ، ويرى فيه الامبراطور وهو يمنح البيدقة لأول مرة سلطة تنظيم مرسى (sculera facere) في طريزون ، اسوة بالجنوبين ، ويخصص لهم لأول مرة أرضا يبنون عليها مستودعا ، وكيسة ، ومنازل للسكنى ، ويسمح لهم باقامة د بايل ، يتمتع بنفس الاختصاصات التي لثرون . لا يمكن اذن أن ننسب الا الى تاريخ هذا الدبلوماسي على أكثر تقدير الفتاح خدمات الملاحة التي تفولعا سفن (قواديس) طريزون Galeo Taperundoe ، وهي خدمات لا يتيسر لها لسوء الحظ تتبع سيرها ، الا في قهارس الموضوعات في كتب Miti الملوقة (٤٥٢) .

ولابد أن نسلم أيضا بأن البندقة لم يبدأوا قبل هذا التاريخ ، أي قبل عام ١٣١٩ في وضع أمسس مستعمرتهم في طريزون . فالواقع أن مجلس الشيوخ أرسل الى بايل هذه الناحية ، فقط بين عامي ١٣٢٠ ، ١٣٢٢ ميليا قديمه ،الة جتبه لبناء دار للتصليبة loggia وقلعت وصارل (٤٥٣) . ويستخلص من الوصل الوارد في نص المعاهدة أن

Sitzungsberichte der Wiener Akad. Philos. hist. Cl., VII, année (٤٥٠) 1881, p. 334.

Arch. stor. ital., App., IX 374-378; dans la Coll. des doc. inéd., (٤٥١) mil. hist., III (1880), p. 83 et seq. Taf. et Thoro., IV, 122 et seq.

Archiv. Ven., XVII, 289, 289, 281; XVIII, 43, 229-232, 230- (٤٥٢) 230; XIX, 296; Commem. reg., II, p. 100, no. 663.

Ibid., XVIII, 227.

(٤٥٣) :

عده المباني اقيمت ، على الأقل بصفة جزئية على الأرض التي تبارل عنها
الامبراطور للجنويين في عام ١٣٠٠ ، واستمانها في عام ١٣١٦ ، ولأيه
ان نتعرف في لفظة *Leoncastro* بالولاية (وهي تحريف لكلمة
Boedocastro عن « قلعة الأسود » *Leoncastro*) وصوف يرى ان
هذا كان سببا لوقوع نزاع بين البندقية وجنوا *

وكان أول بايل للبيسادة في طبرون هو جيوفاني سالودو
Giovanni Saludo ، ويمكن التنبؤ بذلك دون تردد ، وقد كلفه
الدوج جيوفاني مسورايزو *Giovanni Soranzo* في عام ١٣٢٠ بأن
يفرض على كل فرد من أفراد الجالية ضريبة قدرها خمسة عشر « صول »
عن كل مائة صول من ماله * وتبعا لهذه التعليمات ، استخدم سالودو
ثلث المبلغ الذي جمع على هذا النحو في بناء حي جديد ، وعلم جزءا من
باقى المبلغ ليشيل دولفينو *Michèle Dolfin* سفير البندقية عند مورو
بطرزون متوجها الى طورس ، كبديل لمصاريف سفره ، وجزء آخر لتفاجر
جيوفاني بريولي *Giovanni Priuli* مساعدة له في تجارته بقرط انه
يؤدي للدوج في نهاية شهرين رأس المال الذي استلمه مع الفوائد (٢٥٤) *

نستخلص من كل هذا : أولا ، ان المستوطنة كانت في هذه التاريخ
متهمكة بتشبيده مبالغها المخصصة للنصالح الحسام (*cavassera*)
ومساكن الأفراد *domi* (٤٥٥) ، ثانيا ، انها مع كونها في فترة
تكوينها ، قد أسهمت في التكاليف التي انقضتها الاجراءات الضرورية
لفتح طريق المواصلات بينها وبين طارس ، وهذا أمر طبيعي لأن البسادة
القيس في طبرون هم أول المستفيدين من ذلك * ولنعم ان وثيقتنا
الرسمية (الدبلوما) ، اذ لم تستلقد بعد مضمونها * ترى في هذه الوثيقة
ان الكسيس يضع البنادقة على قدم المساواة التامة مع الجنويين ، فهم
مثلهم مرنح لهم باستعمال عوازلهم ومكاييلهم ، وبأن يكون لهم
سماحة من جنسهم ، ويجعل الرسوم المفروضة على تجارة الأمتين مستقبلا
متماثلة تماما *

وفي هذا المصوح تذكر الوثيقة أولا البضائع التي سوف يحصرها
البنادقة على سفنهم ، فان أعادوا تصديرها في قوافل الى داخل آسيا ،

Taf. et Thom. IV 371 et s. (Comment. reg., I, p. 328, no 228), (1٥1)
Archiv Venet., XVIII, 880, 884.

(٤٥٥) لغة صليبية مرتبطة بلفظ الأحداث ، تستدل في الأثر الصادر عام ١٢٢٢ لتقتل
البندقية بنات *Tena* بأن يرسل لغوا مبالغ طبرون من أجل الأعمال الخاصة
بصناعات القلعة ، انظر :

Canale, Della Crimea, II, 848 (exir. des registres des Siffici)

يتحدد رسم المرور بمبلغ ٢٠ أسبر (aspres) (٢٥٦) (منه قطبي تركي قديم - المترجم) عن جملة الغاية الواحدة . فإذا استوردوا البضائع في الامبراطورية لبيعها بها ، تحصل المولة من كل من البائع والمشتري رسما مختلفا ، تبعا لما اذا كان للمشتري رعية فينيسية أو لم يكن كذلك ، أو تبعا لما اذا كانت السلعة تباع بالوزن أو بالكيل . وفي حالة البيع للأفراد من غير البنادقة يدفع البائع ٣٪ ، ورسما اضافيا قدره ١٪ أو ٢٪ اذا كانت السلعة تباع بالوزن . فلذا كان كل من البائع والمشتري يدفعان في كل منهما أن يدفع ١٪ أو ٢٪ (وتختلف القسرات في هذه النقطة) اذا كانت السلعة تباع بالوزن ، ولا يدفعان شيئا أن لم تكن كذلك (أي تباع بالكيل) (٤٥٧) . والمستورد الذي يريد أن يعيد تصدير سلعة لم يتيسر له بيعها ، يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يدفع أي رسم .

أما السلع الذهبية والفضية ، والأحجار الكريمة ، والأحزمة ، وسائر الأشياء المائلة التي يستوردها بنادقة ، ويعرضونها للبيع في البلد فانه يسمح بدخولها ممثلة من الرسوم ، فلذا أعيد تصديرها بطريق القوافل ، فانها تخضع لرسم قدره ٢٠ أسبر . ويمالغ الدبلوما في موضع فان مسألة البضائع التي يأتي بها البنادقة من داخل آسيا ، فيعرض عليها عند دخولها رسما قدره ١٢ أسبر (٤٥٨) عن جملة الغاية الواحدة ، كما يفرض على كل السلع التي تباع داخل الامبراطورية رسم انتاج قدره ٢١ .

كان عهد الكسيس الثاني الذي تدين له الألمان التجاريتان بأهم ما حصلوا عليه من أموال وامتيازات عهدا قويا مزدهرا ، ولكن بعده ، وبخاصة بعد وفاة ابنه الثاني بازيل الأول (Basile Ier) (٩٦٠) أدى وقوع بعض الفتن الداخلية إلى فقد أجزاء من الإقليم فقد تنازع السلطة حزبان كيوان ، متساويان تقريبا في القوة ، وتتابعت انقلابات الكثير

20 aspres, suivant Pegolotti, p. 13.

(٢٥٦)

— كان هذا الرسم دون شك حاسما بالرسم المفروض على غير أصحاب الامتياز ، ويغفل الكاتب لهذه انه كان يضاهي إلى هذا الرسم رسما تشبها لهذا أسبر واحد للتفصيل .

Pegol., p. 13.

(٤٥٧)

16 aspres, suivant Pegolotti, l. ١٠.

(٤٥٨) لعل هذا هو السعر المفروض على غير أصحاب الامتياز . ويذكر المؤلف هنا أيضا رسما اضافيا قدره أسبر واحد للتفصيل . وفي عام ١٣١٤ أي خمس سنوات قبل تاريخ القديس كان ١٥ أسبر كوندونات aspres commensales (وكان ساري السكول في طرابزون) تساوي دينايرا بولغيا « صبربر » beant hyperpre

وكما للحساب التي أجراه السيد ديريمولي ، تمثل كل النتيجة الأتية ، وهي :
(Ibid. 681 et ss., 678 et s.) 21 aspri = 1 florino

على فترات قصيرة ، وتركت الاضطرابات ، وأعمال النهب المتكررة شوارع العاصمة خربة عمرة . وكانت حالة الحرب الأهلية تلك سببا في انضمام الامبراطورية ، واستعمل تركمان آميد Amid (ديار بكر) هذه الحالة فأغاروا عليها .

وفي المرة الأولى (يناير ١٣٤١) تقدموا حتى العاصمة واشتعلوا فيها الحرائق . وشاركت المستعمرات بطبيعة الحال في المماناة العسيلة ، وأصبح الحي القينيسي كله وماتوا مثل سائر أنحاء المدينة . والراجع - ولو أنه لا توجد أية وثيقة تذكر ذلك - أن الحي الجنوبي عانى هذا المصير . إلا أنه في غضون إحدى هذه التوراث الشمسية الكثيرة الحدوث في طربزون أن عالى التجار الفرنجة من أزمة شديدة . ويزعم المؤرخ البيزنطي نيقولور جريجوراس Nicephore Grégoire أن جريمة قتل ارتكبتها عام ١٣٤٣ في تانا بسفلى ضد تتارى أثارت غضب أهالي طربزون ، ويرى أن مثل هذا الحادث يقع هناك كل يوم بسبب غطرسة الإيطاليين . ويضاف من هذا الضمور اللغى للأهالي على اللاتينيين وقتلوا عددا كبيرا منهم ، والتمس الآخرون الرخصة (٤٥٩) . ويحتمل كثيرا أن تكون هذه المادحة من تدبير حزب وطني متطرف ، ويبدو لنا أنه لا ضرورة لتبحث عن الباعث الحقيقي لجريمة القتل التي ارتكبت في تانا ورواها المؤلف .

وهي أية حال فانه بعد هذا الانذار بالخطر أوقف المنادقة مؤلفها تجارتهم مع طربزون . ومع ذلك ففي عام ١٣٤٤ تلقى مجلس الشيوخ أبناء طيبة من تلك الناحية ، لجازف بإرسال قاصدين على سميل التجربة وثلا لم يكن البابل ومستشاروه قد قادوا طربزون ، فقد صدر الأمر اليوم أن يتسلموا الشحنة ، ولكن رئاسة القاصدين كانوا مكلفين بالتوجه لطلب البلاط وتسلم الامبراطور بعض الهدايا ، وإبلاغه بعزم حكومتهم على ارسال سفن أخرى وتجار (٤٦٠) .

وليس في وسعنا أن نقول ما اذا كان المندقة قد حصلوا منه تلك الآونة على إعادة بناء حيهم الذي استرق ، أو اذا كانوا قد شرعوا في هذا العمل قبل قيام الثورة الشمسية التي راح ضحيتها الكثيرون ، فالأمر لم يثبت بوضوح . غير أن الثابت هو أن إعادة البناء هذه أثارت لزنا مع

Niceph. Greg., II, 637, Voy. Falmerayer, Gesch. V, Trupe- (٤٥٩)
 zist, p. 138 et s.
 Délibération du Sénat, du 15 avril 1344; Taf. et Thom., IV (٤٦٠)
 275 et s.

الجنوبيين . وتشارك للخطر التحمل دائماً بعودة غارات الترك ، رأى
البيادقة أنه من الضروري إحاطة جيهم بالحمائق وغيرها من التجهيزات .

وامتدت هذه الأعمال على الأرض التي منحت في الأصل للجنوبيين .
ورغم أن هذه الأرض قد استردت منهم ، وأعطوا في مقابلها عام ١٣١٦
موقع الترسانة البحرية ، فانهم لم يسلّموا بمسقوط حقهم في تلك
الأرض . ومع أن الامبراطور أصدر التصريح اللازم لمباشرة الأعمال ، الا
أنهم احتجوا ، وحملوه على سحب الاذن الذي أصدره . وقسم نائب الباي
الى حكومته تقريراً بهذا الموقف السيئ ، فأورد ابنه داندولو ، دوج
البندقية الى جنوا موقى العقود نيكولينو دي فراجانيسكو Nicolino de
Fraganisco وكله بمقابلة جيوفاني دي مورتا Giovanni di Murta
دوج جنوا ، وتقديم شكوى اليه من الموقف العدائي الذي اتخذته جنويو
طرېزون ، وهو موقف لا مبرر له في الواقع ، لال التجهيزات المقدمة عليه
البندقية انفسهم بقدر ما هي مفيدة للجنوبيين . وتلقى دوج جنوا بالقبول
مطالب رسول البندقية ، مع تحفظات بشأن حقوق أمته في الأرض المتنازع
عليها ، وأرسل الى مواطنيه أمراً بالآي يقيموا أية عراقيل في سبيل أعمال
الحمل التي يقوم بها البندقية (١٦١) .

أما الجنويون فانهم لم يتركوا ثأرهم لمذبحة المستعمرين الفرنجة .
ولم يفتأوا عن سبيهم القديم لليونتركس مترون . وفي عام ١٣٤٨
استولوا عنوة على كيراسوت Otranto المدينة الثانية بالامبراطورية ،
وتلبوها وأحرقوها (١٦٢) . وفي السنة التالية أقبلت ملبنتان حريتان
من كاليا ، وظهرتا قبالة طريزون ، وحاربتا البحرية الامبراطورية ؛ ومع
أنهما انتصرتا في هذه العملية ، الا أنهما انسحبتا ، ولم تحاولا الرمو
وانزال الجنه . وراح الفرنجة من سكان المدينة سحايًا هذه العملية : فقد
لهبت بيوتهم ، وألقى بهم في السجون . وبعد القضاء سنة ، ظهر الجنويون
من جديد تحت أسوار المدينة : وفي هذه المرة جئوا بثلاثة قوادس من
كاليا ، ومركب من أميسوس Amisos (سمسون Samsoon)
وكان الامبراطور ميخائيل الجالس على العرش وقتئذ ضعيفا لكبر سنه ،
فارتاع من هذا الاستعراض الحربي ، واستسلم . واستسلم الجنويون

Instruction pour le notaire, du 30 nov, 1346 : Yaf. et Thom. (١٦١)
IV, 330 et s.; ibid, 323, Lettre de Murta pour le règlement de cette
affaire et de diverses autres, ibid, 267 et ss.

Depping (T, 130).

(١٦٢) "

ليوننتوكا مسترون التي ردها اليهم الامبراطور (١٣٤٩) واحتفظوا بها دون عائق حتى سقطت الامبراطورية (٤٦٣) .

وفي السنة نفسها اوفدت جمهورية البندقية نيكولا كويريني Nicola Quirini في مهمة الى طبريون (٤٦٤) . وفي وسعنا ان نحس ما كانت تريد الجمهورية ، ذلك لان امتيازها هناك قد نقص بسبب ما اسمرده الجويون . غير ان مساعها هذا قد فشل . ولم يعد السادة يستطيعون الابهار الا في سفن حربية مسلحة ، اما لهذا السبب ، او بسبب الحرب البشارية التي نشبت في تلك الفترة بين جيورا والبندقية ، وتموق الجنويون في البحر الأسود (١٣٥١ - ١٣٥٥) (٤٦٥) .

واستأب الحركة التجارية بين طبريون والبندقية انقطاع طويل . واحيرا ابدت حكومة طبريون حكومة البندقية رغبتها في اعادة العلاقات بينهما ، فاولدت اليها سفارة (١٣٦٠) (٤٦٦) ، كما اوفد الدوج لورازو كسيلي Lorenzo Celsi جوليينو ميشيل Guglielmo Michel وكلفه ان يحيي الامبراطور الكسيس الثالث باسمه واسم بابل القسطنطينية اندريا كويريني Andrea Quirini (١٣٦٤) ، ويمثله بموافقة دولته على ارسال سفن جديدة الى طبريون ويطلب منه ان يستع جاليقها قطعة ارض ، فخصص لها الامبراطور قطعة ارض والمة اسفل دير سانت تيودور جابراس S. Théodore Gabras ومنح البعثة تخفيضا قدره ١٪ على رسم الإنتاج الخروفي على مبيعاتهم داخل الامبراطورية (٤٦٧) . ويبدو ان الارض التي خصصت لهم لم توافقتهم . ولعلك يتعين البحث في خلب الخطوة هن السبب في قيام نزاع عنيقه في السنة التالية بين رؤساء الجماليتين القينيسية والجنوية في حجرة الامبراطور ثلاث يوم حضر فيه مع حاشيته على ميدان Meidan بمذاسبة الاحتلال بعيد القيامة (٤٦٨) .

Mich. Panaretos, dans Fallmerayer, Orig. Fragm., 2^e sect., (٤٦٢)
p. 22 et s., 51.

Berchet, Del commercio del Veneti nell' Asia, p. 168, (٤٦٤)

(٤٦٥) في عام ١٣٥٢ لاجات سفن قينيسية حربية السفن الجنوية وصر رئاسة امام طبريون واسرلها ؛

Panaretos, l.c., p. 38, 52.

Filiat, Mem. del Veneti, VI, 2, p. 117. (٤٦٦)

Privilege du mois de mars 1364, dans Pasini, Code, (٤٦٧)
mesur Bibi Tourin, I, p. 222 et s.; Mikédich et Muller, Acta et diplom.,
Grac, medicevi, III, 130 et ss.

Panaretos, l.c., p. 52 60, (٤٦٨)

ولم يذكر المؤرخ ذلك ، ولكن القوم كانوا فوق الأرض المتنازع عليها ، ولم يكن من المستحيل أن تكون هذه الفكرة قد أثارت حفيظة البابا عند الفصل الحائر السيد ليوينو كاسترون . وفي عام ١٣٦٧ وصل إلى طربرون على قادس مسلح تسليحا جيدا مسافر جديد ، هو بيبترو دالمير Piliro Dalmer مؤلفا من قبل النوج ماركو كورنارو ، وحمل الامبراطور على سحب الامتياز السابق والتنازل (للبحرية) عن الرأس المسمي رأس سانت كروا Ste Grotz تبعا للكنيسة التي تحمل هذا الاسم والمقامة هناك ، ورخص للسفير بأن ينشئ على هذا الموقع حيا سكنيا يضمه سور ، وعد الامبراطور بأن يبنى له على نفقته دعامة وبرجا ، ويحيطه بخندق ، وأن يتصل بالشارج بواسطة جسور . وطالب السفير أيضا بتغيير الرسوم المفروضة على التجارة ، ولكن الامبراطور أبقى على رسوم المرور القديمة ، ولم يوافق الا على تخفيض طفيف قدره ١/٤٪ على رسم الانتاج (٤٦٩) وتمثل أهمية دبلوماسيا عام ١٩٣٧ في أنه أعطى البنادقة ملكية الأرض التي يقيمون عليها من ذلك الحين بلا انقطاع حتى سقوط طربرون . كانت هذه الأرض هضبة تشكل لساما مبتدا في البحر مثل ليونفوكاسترون ، وكانت مثلها موجودة في القسم السفلي المتصل بالشارع الذي تقوم فيه على خطين طويلين الموازيين والمخالفين المتعامدين للمستوطنين . ولم يكن هذان الحيان في نطاق سور المدينة ، بل كانا جزءا من ضاحية « اطلدائق » ، ولكنهما كانا محوطين بأسسوار ومحيطين بأبراج حصينة (٤٧٠) ، وكان منظر هذه الأسوار والأبراج من الخارج مبهما لا يتوافق مع النشاط أو الرخاء التجاري . ولم تدم الفترة الأكثر رخاءا إلا إلى عام ١٣٤٠ على أكثر تقدير ، واعتبارا من هذا التاريخ بدأت الامبراطورية ، مثلها مثل جاراتها فارس تظهر عليها علامات الانحلال التي كانت غير ملائمة لنمو الحركة التجارية .

١ (٤٦٩) Taf. et Thom. inéd. : les commém. pag. III, p. 87, no 399.

٢ (٤٧٠) على هذا النحو وصلها كلابو Clavijo الكشتال الذي مر بطربرون في عام

١٤٢٩ وهو صاحب في عهد آل سمرقند . ج ٨٢ ، ٨١ : طبع بباريس عام ١٧٨٢ ج ١ .

٣ راجع

— Fallmerayer, Fragments, p. 48, 87.

رابعاً - فارس

كان من آثار انهيار الخلافة الإسلامية على يدى هولاكو (خان المغول) القضاء على جزء كبير من أهمية بغداد والمدن المجاورة لها . فقد كانت هذه المدن الواقعة حتى ذلك الحين في قلب الحياة السياسية والتجارية للعالم الإسلامي تعيش في رخاء تام ولكن منذئذ بدأ تدهورها . حلا لم يظهر التدهور مرة واحدة ؛ فبعد أن زار ماركوبولو مدينة بغداد راج يسترسل بعبارة الإعجاب في وصف هذه البقاع الشاسعة ، وأهمية صناعة المنسوجات الحريرية والبروكار (الديباج) المذهب القائمة بها ، وتجارتها النشطة مع الهند عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسي (٤٧١)، فلم يتهمه أحد بأنه يردد قصة سمعها ، أو يتسبب الى هذه المدينة (بغداد) عظمة لم تكن لها الا في عهد الخلفاء .

وثمة رحالة آخر رأى بغداد في مستهل القرن الرابع عشر ؛ هو شمس الدين النميري Chameeddin Dimchiki فوصفها أيضاً بأنها المكان الذي تلتقي عنده سفل قادمة من الصين واليمن والهند ، وبلاد الرنج (الساحل الشرقي الأفريقي) عن طريق نهر الدجلة ، بينما بحارة الفرات يأتون اليها بمنتجات أرمينيا والغرب (٤٧٢) ، وفي زمن ماركوبولو لم يكن أحدهم يفكر في اعتبار طائفة تجار الموصل من عناصر المجد القديم ، الذين يمارسون بنوع خاص تجارة التوابل والأقمشة الثمينة التي يصنبرونها الى جهات غالية (٤٧٣) . والتجارة لا تهجر دفعة واحدة طرقاً تربط بلاداً بعيدة بعضها ببعض ، ولا تلتقط في آن واحد حلقات وطيدة . ومع ذلك فإن هذين السوقين الكبيرين لم يكونا وحدهما ؛ فبعض مناهس لهما برز منذ حين ؛ تلك هي طورس (أو تبريز) Tauris التي كانت فيما مضى حاضرة إقليم هام به عدد كبير من السكان ، وأثرت بالصناعة والتجارة ، ونمت من التدمير المغول الرهيب بخضوعها بارادتها لهؤلاء المغزاة المغول الذين اتخذوها حاضرة إمبراطوريتهم الغربية (٤٧٤) . وازداد عدد سكان المدينة من ذلك الحين زيادة سريعة ، وما لبث أن نشأ بحوار

Ed. Pauthier, p. 47 et ss.

(٤٧١)

Voyez son Manuel de cosmographie, trad. Mehren, p. 113.

(٤٧٢)

M. Polo, éd. Pauthier, p. 46 et s.

(٤٧٣)

Yaqout, p. 132-134

(٤٧٤)

المدينة القديمة مدينة جديدة سميت « البارانية » Ghazanih نسبة إلى غازان خان Ghazan-Khan الذي أسسها (٤٧٥) وفي عام ١٣٠٥ والمباني التالية بني أولجياتيو Oldjanio خليفه غازان مقما ثانيا له مدينة سنطانية جنوب شرقي طورس (تبريز) ، هي إقليم العراق المعجمي (٤٧٦) .

وسرعان ما اكتسبت هاتان المدينتان أهمية تجارية كبيرة ، ووجد في أسواقهما أولا منسوجات حريرية فاخرة ، وديباچ ، وسجاجيد مصنوعة في طورس نفسها (٤٧٧) ، ثم نحية جميلة من الأحجار الكريمة التي تخصصت المدينتان في صنعها (٤٧٨) ، وأخيرا كل السلع التي يمكن تصورها وجودها في كل أنحاء العالم ، فقد كان لطورس بالفعل أوسع ما يمكن من العلاقات (٤٧٩) . ولم يشر ماركو بولو إلا إلى جزء قليل من هذه السلع حين قال انه يمكن مشاهدة وصول البضائع إلى طورس قادمة من بلاد الموصل من جهة ، ومن جيرميسر Gemisr (كرميسور Crenisor) والهند من جهة أخرى (٤٨٠) . ويغير اسم جيرميسر هنا (ترجمته الخرفية : البلد الحار) بالتأكيد إلى الساحل الجنوبي لإيران ، ويستند على طول الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، وهو معروف بمناخه الشديدة الحرارة (٤٨١) ، ومن هناك يصل إلى داخل فارس منتجات الهند ، ولآله الخليج الفارسي ، وكان الفكر الصيني للثقافات يستفيد كثيرا من العلاقات مع طورس ، وكان هذا الفكر أهلا بالتحار الذين أجبروا على الانتقال إليه والسكنى به ، ومن ثم نشأ اصطناعة من حيث كونه مكانا للتجارة (٤٨٢) . ومع ذلك ازدهر واشتهرت أسواقه الماهرة بكافة السلع (٤٨٣) .

D'Ohsson, IV, 270 et es. ; Rachideddin, éd, Quatremère, (٤٧٥)
p. xvii.

D'Ohsson, IV, 444; Hammer, Geschichte der Uzbaze, II, 183. (٤٧٧)
et s.

Yaqut, p. 133; M. Polo, p. 89 et s. (٤٧٧)

M. Polo, p. 89 ; Ibn-Batoutin, II, 129 et s. (٤٧٨)

Ossorio da Pordenone, p. II, III ; Pagol., p. 7-9. (٤٧٩)

M. Polo, p. 89. (٤٨٠)

Ellier, Exotic, VIII, 728. (٤٨١)

D'Ohsson, IV, 487. (٤٨٢)

Ossorio, p. III. (٤٨٣)

وكانت المنتجات التي يكثر عليها الطلب في إمبراطورية التتار العربية هي الأحجار الكريمة ، من فيروز ، وياقوت أحمر ، ولازورد ، ولآله الخشب الغامسي ، وحرير سواحل بحر قزوين ، ونيلة كرمان . وكانت الصناعة الوطنية ، وبخاصة النسيج ، والتي كانت مردهرة قبلا في عهد الملوك الساسانيين تنتج أيضا سلعا جيدة تقديرا كبيرا في الخارج . وفي حثله الخصوص كانت مدينة يزد Zedd تفوق سائر المدن ، ويشتمل سكانها ، وكلهم تقريبا من الساج يصنع أجمل حوائط طبرستان ، وكانت براعتهم معروفة لدرجة أن الأقمشة الخارجة من ورشتهم كانت مطلوبة في كل بقاع الشرق . من الصين إلى آسيا الصغرى (٤٨٤) ، وتحمل هذه الأقمشة اسمها (٤٨٥) وتشره في كل أنحاء العالم المعروف . وإلى جانب هذه المنسوجات المتقطعة النظير ، احتفظت حوائط وأنطلسان نيشابور (٤٨٦) ، وهرود (٤٨٧) ، وأصفهان (٤٨٨) ، وشستر (٤٨٩) ، وشيراز (٤٩٠) بشهرتها القديمة . غير أن تمدد المراكز الصناعية في إمبراطورية التتار الغربية لا يتكامل إذا اقتصر على مراكز فارس نفسها ، لأن حدود هذه الإمبراطورية كانت تمتد بعيدا صوب الغرب ، وانقسم كردستان ، وأرمينيا الكبرى ، وبلاد ما بين النهرين . وهناك أيضا ازدهرت صناعة النسيج : فقد كان معروفًا في كل الأنحاء بروكار (ديباج)

M. Polo, p. 70; Clavijo, p. 114; Conjarfal, p. 70; Gloe, (٤٨٤) Barbero, Viaggio in Persia, p. 48; Mohammed Medjidi, cité dans Yaqout, p. 611, not.

— سوف نرى فيما بعد أن يزد كانت ذاتة على طريق للقراقل ، وهي مدينة تجارية مهمة ، ولأسواقها شهرة كبيرة : انظر بطرقة ، الجزء الثاني ، ص ٦٨ .

(٤٨٥) يذكر ماركو بولو أن هذه الأقمشة تسمى زاسدي Zedd

(٤٨٦) انظر حوائط ، ص 153 et s. Journal of the Bengal Society, XXX, p. 153 et s. (٤٨٧) الاستطرى ، ص ١٦٦ ، انظر بطرقة ، الجزء الثالث ، ص ٨١ .

(٤٨٨) انظر حوائط ، المرجع السابق ص ١٥٧ ، الاستطرى ، المرجع السابق ، بالقرن ، ص ٥٣٦ .

(٤٨٩) انظر حوائط ، والقزويني في ١

— Uytendrecht, Descriptio Iraniae persicae, p. 6, 28.

الاستطرى ، الجزء الثاني ، ص ١٦٧ ، بالقرن ، ص ٣٩٠ .

(٤٩٠) الاستطرى ، ص ٥٩ ، الاستطرى ، الجزء الأول ، ص ٣٨٣ .

Clavijo, p. 114. (٤٩١)

وإتقان إعداد والموصل ، وماردين Mardin ، وموش Mouch
وإرزيغان Erzinglian (٤٩١) .

ومن المثير عينا أن نعد كل المدن الكبيرة والصغيرة التي اشتملت
بهذه الصناعة وثمة عدد كبير من منتجاتها المصنوعة خصيصا لتناسب
مناخ هذه المناطق أو ذوق سكان هذه البلاد لم تكن تخرج من الشرق ،
فلم يكن في المستطاع تصديرها بحالتها هذه إلى أوروبا . غير أن هناك
منتجات أخرى راجت في الغرب : ولستأ نريد أن نقسم برهاننا على ذلك
خلاف العدد الكبير من الأقمشة التي توجد أسماءها الشرقية المصير
مدونة في وثائق أوروبا في العصور الوسطى ، والتي سوف نتكلم عنها
بالتفصيل فيما بعد . وعلى أية حال فإن الحرير الخام كان يطلبه دائما
التجار الغربيون ، وكان أثريا أوروبا يطلبون اللؤلؤ والأحجار الكريمة
بشلف شديد ، مثلما يطلبها الشرقيون .

وما أن انفتحت آسيا الصغرى للتجارة حتى هرعت أمم الغرب
التجارية بإيفاد مستكشفين إلى البلاد التي تحتوي على مثل هذه
الكنوز (٤٩٢) . وأول اسم تقابله من الإيطاليين الذين استتقروا في
طورس اسم البندقي بييترو فيليوني Pietro Vigioni (فيوني Vioni)
وقد حفظ إلى يومنا هذا وصيته التي كتبها في طورس في ١٠ من ديسمبر
١٢٦٤ ، وتدين إلى هذه الصناعة بالمعلومات التي حصلنا عليها (٤٩٣) .
لمن الأشياء التي أوصى بها مواد من صناعة محلية ، أجواخ من البندقية ،
ولبارديا ، وإتاليا ، وفلاندرز ومواد أخرى هي بحاصلات طبيعية من أصل
شرقي لا شك فيه كاللؤلؤ ، والسكر ، وأشياء أخرى كلعب الشطرنج ،
والسروج ، والكؤوس ، والتسعدانات ، والأكواب الزجاجية ، وهي
مشكوك في حقيقة مصدرها . ولم تكن هذه الأشياء كلها مملكا للموصى ،
ويبدو أنه كان بالأحرى وكيلة عن شركة أو سمسارا يصل كوسيط
لبعض مواطنيه .

M. Pato, p. 37 et s., 46, 48, le texte ramusien, éd. Balducci (١٩١)
Bonl p. 32; Julia, p. 67; Ibn-Batouta, II, 143; Barbero, Valaggio in Perse,
p. 28, b., Ibn-Batouta, II, 294. XC

(٢٩٧) في حوزة ههناة كتبت لهم المكاتبات بين أوروبا وأரச : وذلك في مؤلف
نفسه ١. diotismatris latin-persan-cuman, كتبه جنوي في عام ٦٢٠٢ ، ويجمع
لغاس كنيسة يندمها للتجارة .

Archiv. Venet., XXVI, 161-168,

(٢٩٧)

وإذا كان هناك أشخاص آخرون كانوا بصفة دائمة في طورس (تبريز) ، وآثفأوا جالية مستقلة لها رئيسها ، فإنه من العسير علينا أن نعلم لماذا يأمر فيثيوس بتسليم بصلاته أو البائع المحصلة من بيعها إلى باين عكا أثيني ليحفظها وديمة عنده ، ولعله كان من الرواد الأوائل في هذا الخصوص . وثمة أسماء أخرى معروفة لتجار أوروبا استقروا في فارس ، وصلت إلينا في أخبار إرساليات كاثوليكية .

وفي عهد أرجسون خان (١٢٨٤ - ١٢٩١) حامى المسيحيين وعديهم ، كان يعيش في طورس (تبريز) بصفته تاجر يبري (من بيرا) كليل اسمه أوزوليس Ozolus أو بوليس Jolus ، وصلنا اسمه محررا ، قدم للمبشرين مساعدة مادية ومعنوية ، واشترك بنفسه في مجهود البعثة بالسعي في هداية بعض الأشخاص في محيطه إلى الدين المسيحي . وقد حفظت خطابات كتبتها له في عاى ١٢٨٩ ، ١٢٩١ ، البابا نيكولا الرابع (٤٩٤) بعثته فيها ويوصى به في الوقت نفسه لدى المبشرين الفرنسيين . ولوقدت هذه الخطابات ما عرفنا أن السزبن كان لهم من يمثلهم في هذه السوق . كذلك علمنا من أخبار الإرساليات بالأحداث المتعلقة ببدايات ظهور الجنويين في فارس . ويتحدث جيوليس آدمي Gulielmus Adami (٤٩٥) الذي كان ثاني أسقف في مدينة سلطانية عن المشروعات القبطية التي وصلها الجنويون بالاتفاق مع أرجسون خان : لقد انتوى هذا القباء ميثه في الخليج الفارسي ، وتحويل تجارة الهند إلى هذا الموقع ، والترح وضع طرقات عند عند لشد الطريق ومنع السفن التجارية من الذهاب إلى مصر من طريق البحر الأحمر . ولسوء الحظ فإن النزاع الكبير بين الجويليين والجيليين ، التي ينور الشقاق في صفوف الجنويين فأصابهم بالمجز ، ومن ثم قضى على هذا المشروع الجميل (٤٩٦) .

وبعد وفاة أرجسون خان بزمن قليل ، مر الثلاثي « بولو ، بطورس (تبريز) عند عودتهم من رحلتهم في الصين (١٢٩٣ أو ١٢٩٤) ، ولم

Mosheim, Hist. eccl. Tartar., app., p. 97, 108. (٤٩٨)

De modo extirpandi Sarracenos, le Recueil des hist. des crois., (٤٩٥)
doc. armén., T. II.

Abel Rémusat Mém. de l'Acad. des Insér., VII (1824): p. 113. (٤٩٦)
382 et ss., 385, 430 et ss.; Hommer, Eichens, I, 284 e a., II,
J44; M. Polo, II, 277; Atti della Soc. Lig., III, c., IV, cc.; Giorn. Ligust.,
1874, p. 346; Abel Rémusat Mém. de l'Acad. des Insér., VII, 388 et ss.
Desimoni, Arch. stor. Ital., 1879, 4^a série, I, 205 et s.

يقت ماركوبولو في هذه المناسبة أن يذكر أن عددا كبيرا من التجار ، منهم من الجنوبيين يأتون إلى هذه المدينة ، يجذبهم إليها الأرباح الكبيرة التي يحصلون عليها . وادسوا في المدينة بالأحجار الكريمة وغيرها من السلع (٤٩٧) وفي موضع آخر غير بعيد يشير إلى واقعة حديثة ، مفصّلها أن الجنوبيين نظموا خدمة ملاحية في بحر قزوين ، وكانت بداياتها وظهورها في طورس أحداثا جرت في وقت واحد تقريبا ، وإذا فهمنا عبارات ماركوبولو بمعناها الحرفي عرفنا أن الجنوبيين سبوا منهم في هذا البحر (٤٩٨) ، ومن ثم كان عليهم أن يصعدوا بهذه السفن لهر الفين حتى الموضع الذي يكون فيه مجرى أكثر قريبا من مجرى نهر الفولجا ، ثم ينقلونها برا من النهر إلى النهر الآخر (الفولجا) (٤٩٩) . وبعد أن تحدثت ماركوبولو عن بدايات الملاحة هذه ، أضاف العبارة الآتية : " et d'Illec vient la robe geole " ، وتدل هذه العبارة على أن الجنوبيين يقتصدون استغلال السواحل الجنوبية لبحر قزوين حيث ينتج الحرير على نطاق واسع . وليس من المعقول أن يرحلوا من هناك ليتوجهوا إلى داخل فارس ، ويصلوا إلى طورس مثلا ، فالتسكين الجغرافي والسياسي للبلد (٥٠٠) لا يناسب ذلك . ويبدو أن الفرض الوحيد من التجارة في بحر قزوين هو الحرير . وفضلا عن ذلك كان هناك للوصول إلى فارس طرق أكثر ملاءمة من شعاب البورز Bours . وسوف نعود فيما بعد إلى هذا الموضوع .

كانت أرمينيا الصغرى من جهة ، وإمبراطورية طبريز من جهة أخرى ، وهما بلدان لم يكن الجنوبيون وسائل الأمم التجارية أجنبيين بالنسبة إليها ، متصليتين بطورس (تبريز) بطرق قوافل مطروقة بكثرة . ولتبدأ الطريق آيساس إلى طورس (تبريز) التجارية ، وكان يسلكه عادة التجار الإيطاليون في عهد بيچولوتي (٥٠١) . فقد ترك

Ed. Pavlier, p. 40.

(٤٩٧)

Ed. Pavlier, p. 44.

(٤٩٨)

٢ - (٤٩٩) النظر في التذييل الثاني الخامس بالحرير .

(٥٠٠) حتى عام ١٢٠٦ كان إمراء جيلان Ghilan مستقلين . وإلى هذا التاريخ قلت ، الخضم أولئك الذين ، النظر .

— Hammet, Gesch. der Schahs, II, 226 et ss.

Pagol, p. 8-11; Libro del conocimiento de todos los reynos. (٥٠١)

٣ - من المتع ملاحظة هذا الطريق ببداية الطريق الثاني Cathay . ويبدأ من

هذا الكاتب عن هذا الطريق وصفاً مصحوباً بغالبية طويلة بالإماكن التي يمر بها ، معادة أعتاداً جيداً ليستفيد منها كل الشبعتين بالتاريخ والجغرافيا : ومع ذلك لم يلق هذا الوصف ما يستحقه من اهتمام .
 وثا كان هذا الطريق يبدأ من أرمينيا الصغرى ، فقد اتخذ هاتان فرسانيان من تاريخ هذا البلد موضوعاً لدراساتهما ، وهما فيسكتور لانجسلاو Victor Langlois ، وادوار ديورييه Edouard Dulaurier ، والفرعا بضعة سطور لدليل جيولوجي هذا ، ولكنهما انقصرا على الجزء من الطريق الذي يشمل في نطاق دراستهما ، وفي غير هذا الجزء اكتفيا بالإشارة إلى بعض النقاط الرئيسية التي لم يكن في تحديدها أية صعوبة (٥٠٢) .
 وثبة عالم انجيزي ، هو السيد يول Yulo ، جعل من هذا الدليل دراسة أولى (٥٠٣) . أما أنا فقد بدلت ما في وسعي ، في انطبعة الثانية لهذه الدراسة لايفضاح بعض الغفلات ، غير أن أحسن الأعمال التي ولدها هذا الدليل هي التي قام بها السيد هـ . كيبرت H. Kiepert (٥٠٤)

ومع ذلك لم يزل هناك الكثير مما ينبغي عمله قبل كشف النقاب عن كل الأسماء التي يتضمنها هذا العمل ، خاصة وأن قسماً كبيراً من الطريق المذكور يجتاز بلاداً لم تغطها أقدام أوروية إلا في القليل النادر ، وعلى أية حال تكفي نظرة عابرة لمعرفة أن أهم المناطق الوسطى هي مسيبواس Sivas ، وارانجيسان Erzurum ، واوروم Erzeroum ، ومن هنا نستطيع تقسيم الطريق كله إلى أربعة أقسام .
 ففي القسم الأول نقرأ الأسماء التالية . اجانزو ، كوليدارا ، جاندون ، كازينا ، جالازيرا ، ذيل اميرايو ، جادو ، جالافيرا دي كازا جاكومي : Ajazzo, Coildara, Gandon, Casoco, Gavezera dell' ambaglio, Onduo, Gavezera di casa Jacomi.

ونسوء الحظ لم يذكر جيولوجي التواحي التي يجتازها المسافرين في القسم الأدنى من أرمينيا الصغرى ، وكانت كوليدارا ، وجاندون هما

٥٠٥ قبرص ، وينتقل إلى القارة (الآسيوية) عبر أرمينيا الصغرى ، وليس بهذه سبلات التركية . ويظهر أولاً لغزات عند أربو Argot (٥) ، ثم أراكس Araxe ويصل أخيراً إلى طرويس .

Langlois, Trésor des chartes d'Arménie, introd., p. 97; Dulaurier, Recueil des hist. des croisades, documents arméniens, I, introd. p. 61, Cathay, II, 296-301. (٥٠٢)

Mémoire sur l'itinéraire de l'Asie occidentale, de Pegolo (H. par (٥٠٣)
 M. Kiepert, dans les Sitzungsberichte der philos hist Cl. der Berliner Akad., 1881, p. 921 et ss. (avec carte).

فيحتل المجاورتين لحدود الولايات التابعة لملك أرمينيا وحن فارس على التوالي . كانت الأولى الواقعة على الحدود الأرمينية هي على الأرجح قلعة جوبيدار Gobidar ، ويسبق أنها من أقدم مستوطنات الأرمن في هذا الجزء من آسيا الصغرى ، ولكن لا جدوى من البحث عنها في الخرائط الحديثة إذ لا أثر لها فيها ، وهي موجودة في الجزء من سلسلة جبال طوروس Taurus التي تحد قلبية من الشمال (٥٠٥) . أما جاندون ، وكان يحصل عندها خان التناز رسم دخول قمره عقرون أسير aspon ، فلم يستطع أحد إلى الآن أن يحدد موقعها .

وبالنسبة إلى المرحلة التالية ، كازينا ، فإنه يمكن على العكس من ذلك التعرف عليها بالتأكيد تحت اسم كوكسن Coron عند الصليبيين ، وجوجيزون Gogizon عند الأرمن ، وجوكسن Geuksun عنده الترك (٥٠٦) . ولكن نتعرف جيداً على الطريق الذي سلكتاه حتى الآن . نتوقف لحظة ونتناول خريطة آسيا الصغرى التي رسمها كيبيرت ، ونلقي نظرة خاطفة على رقعة الأرض المحصورة بين لاجازو (آيسس) ، وجوكسن . هذا الفحص يدلنا بالأرجح على أن انتصار الغربيين ، عند مفادرتهم لاجازو يتقدمون بمطاه نهر جيهان (جيحان) حتى الأباد Anabad ، ثم يتقدمون من القهر متبعين واداه الأباد Anabad-sou . هذا الطريق يمر بهم تحت أسوار جبين Gében أو جابان Gaban

وقد « دبلوما » صادرة من الإمبراطور لأون الثاني Léon II في شهر مارس ١٢٠٦ تعرفنا بأن الجنود كانوا يتقدمون رسماً لصاحب هذه القلعة عند مر جيهان ، حيث يمر من الضفة اليسرى للنهر إلى الضفة اليسرى ، ثم يواصلون الطريق على طول نهر أباد الذي كان حوضه تابعاً لسلطة سيد جابان ، ومن هذا الحوض يصون دون مشقة إلى جوكسن (٥٠٧) ومن الملاحظات الثلاث التي يذكرها بيجولوتي بين جوكسن وميفاس ، النعان ليست إلا مجرد خان للقوافل gavadern

- Mathieu d'Edesse dans la Bibliothèque arménienne éd. (٥٠٥)
Dulaurié, p. 218, 432; Dulaurié Chronologie arménienne, p. 103; Ro-
couëdes hist. des crois. armén., éd. Dulaurié, I, 30; Langlois,
Trésor des chartes, p. 53, 97.
Biltier, Asien. XIX, 82 et ss., 270 et s. (٥٠٦)
M. Kiepert, (٥٠٧)

أما جادو الواقعة بين المخططين ، فهي صيغة « ومن المرجح كثيرا أن الطريق يلتوى ابتداء من جوكنس صوب الشمال الغربي حتى يصل إلى حوض نهر ساروس Sarus ، ويتبع مجرى هذا النهر حتى منبعه ، ويختار حاضرة جبل طوروس الشرقي ويصل أخيرا إلى حوض نهر هاليس Halys فلا يتحرك حتى سيفاس » .

وفي القسم الثاني ، نجد سلفاسترو ودودرياجا ، وجرينوكو ، وموغيسار .

Salvastro, Dadriaga Greboco, Mughlar

والتي ، megjip أن السيد لايجنوا لم يتعرف على سيفاس تحت اسم سلفاسترو ، لأن هذه التسمية تشبه كثيرا اسم سيباست Sébasto وهو اسم سيفاس القديم . واسم البلد نفسه باللغة الأرمنية سيفاسديا . سيفاسد Savadla, Seved (٥٠٨) الذي يذكره ماركوپولو (٥٠٩) باسم سافاست Savast ، كما ذكر في الخريطة الفلاندريية (٥١٠) ، والفرنسيسكاني الإسباني المجهول (٥١١) باسم سافاسترو Savastio وذكره أخيرا لاجيل Laugel في أخبار رحلاته Comptes de voyage باسم سافاستيت Savastio أو سسافاستوم Savastum (٥١٢) . أما دودرياجا ، المحطة الشمالية فهي في رأي قرية تدوريجا (طاليسة Todoraga) على بعد عشرة فراسخ شمال شرقي سيفاس في القسم العلوي من وادي نهر هاليس (٥١٣) . وهكذا فابتداء من سيفاس يتجه الطريق بعامدة إلى الشرق مع ميل خفيف إلى الشمال . وبمناوبة هذا الحظ حتى أوزجيان ، مقابل في الخرائط الحديثة موشما يسمى موشسار Moucher (أو ميهار Mehr) ، ولعله المكان الذي سماه بيجولوني موغيسار Mughlar . ويبدو المتور على محطة جرينوكو (بين دودرياجا وموغيسار) مفيدة لا حل لها تقريبا ، ذلك لأنه من المستحيل العثور

(٥٠٨) Brent, dans le Journ. of the geogr. Soc., VI (1835), p. 214, not I; Yule M., Pool, 2 48.

Ed. Pauthier, I, 37. (٥٠٩)

Not. et extr., XIV 1, p. 160. (٥١٠)

Libro del consueudo, p. 82. (٥١١)

Atti della soc. Idg., XIII, 594 et s., 596. (٥١٢)

Les itinéraires de Tchibatcheff, dans la 20^e livraison supplé. (٥١٣) mensuelle des Petermann's Mittheilungen, p. 13, avec la carte spéciale de Kiepert

في خريطة حديثة على أي مكان له اسم مشابه لهذا الاسم . إلا ان السيد كيبرت قد برهن ها مرة أخرى على علمه ورجاحة عقله فباتباع إرشاداته ثم تصحح خريطة الاحوة بيريجاسي Pizigani (١٣٦٧) ، بدعش إذ نجد أيضا بين ميوراس وارزنجيان محطة اجريبيوس Agreboe التي ليست في الغالب الا أروراسي Amuraci عند الرومان (٥١٤) .

وفي القسم الثالث ، ارزنجيا ، وجافازيرا سوللامونتيا ، وليجورتي ، وبولتي ، وجافازيرا فيوري دارزيروني ، وباسبي دارزيروني .
 Arzanga, Gavazera sulla montagna, Ligurti, Ponte, Gavazera fuori
 Bangai d'Arzeroni.

أما مدينة ارزنجيان فاما معروفة ، ولا داعي لأن نثريت عددا :
 وحسبنا ان نذكر ان بطرقة حين يتدح حسن تنظيم أسواقها (٥١٥) .
 ولما نجد في بقية هذا القسم سوى فندقين للقوافل ، وجسرا (على الفرات) ،
 واسما لطيفة واحدة هي ليجورتي ، لا يمكن العثور عليها في حدود
 معوماتنا الحاضرة . والطريق الذي تسلكه القوافل في الوقت الحاضر يعبر
 نهر الفرات في منتصف الطريق تقريبا بين ارزنجيان وارضروم عند
 ماماخاتون Mamakhatoun على الجسر القديم المعروف باسم كورجون
 Korgoun ولما كان من الضروري البحث عن جسر بينجولوتي الأكثر قربا
 من أرضروم ، فإن السيد كيبرت مسلم بحق أنه كان يوجد وقتئذ طريق
 يتجه أكثر الى الشمال . يستار الفرات عند Atikala على أكثر تقدير .
 وبين هذا الجسر ومدينة أرضروم لم يمد هناك سوى موضعين للتعلم
 عندهما ، أحدهما فندق للمسافرين ، والآخر يساه به دار للاستحمام
 ومكتب للمبارك يقع على الأرجح في ضاحية أرضروم .

القسم الرابع . اردروني بانبي اردروني فيرسو طوريس ، وبولوربيك ،
 وسيرميساكالو ، وأجيا ، وكالاكريستي ، وئري كيبزي ، وسوتولاركانو ،
 وسكاراكاتي ، ولوكي ، وبيانا دي فالكوينيري ، ولي كاموزوني ، وبيانا
 دين ليومي روسو ، وكوبورو ، وسالفودي ، وتوريسي .

Arzerone, Bangai d'Arzerone verso Torisi, Polioetoch, Sermessa calo,
 Piana di Falcresti, Tre chiole, sotto Larcance Scarsanti, Loches,
 Piana di Falcoletti. Il Camuzoni, Piana del Fiume rosso, Chondro, San-
 dodati, Torisi

وعين يواصن المسامر طريقه من أرصروم إلى طوروس (تبريز) بإجل
أولا الضاحية الشرقية لأرصروم وبها أيضا دار للاستحمام ومكتبة
للحصارك . وبعد مسيرة قرابة تسع ساعات يصل إلى أراكس Araxe
عند موضع يسمى بالنقة الأرمينية بولوراباج Potorabag ، أي القلعة
المستديرة (وسماها بيجولوتي Poloraback) وهناك يمر النهر على
جسر له سبعة عقود ، اسمه الحالي تشوبان - كوبري Tchoban-Kouperi

وفي نهاية السهل الذي يرويه نهر أراكس ، يخترق الجبال فيصل
إلى صر ديل بابا Delli-Baba . وعلى هذه المرتفعات على ما يبدو كان
الأوضاع الذي لم يعد له أثر الآن ، ويشير إليه بيجولوتي باسم سيرميسا
كالو Sormesa calo ، كما يشير إليه اوديريكو دابورديني Oderico
da Pordenone باسم ساريسا كالو Sarbisacalo . وبعد أن يجتاز
المسافر امر ومطة آيا Aggia التي لا يعرف موقعها ، يقابل على
مرتفع مراد Mourad منزلي للأيواء معروفين إلى الآن ، وتتردد عليها
القوافل بكثرة : كاراكيليسيه Karakilisab (كالابريسني Calabresini
عند بيجولوتي) ، واوتشيكيليسيه Utschikilisab (أي بالتركية ثلاث
كنائس ، ويسمونها بيجولوتي Tre chiese) (٥١٦)

وتوجه المحطة التالية عند مجاورات مدينة دياتي Dlyadin
الحالية على ذروة جبل (يسمونها بيجولوتي Sotto Larcasno) يرى منها إلى
الجنوب الغربي قمة جبل Masale الذي أطلق عليه خطأ اسم أراكس-
Ararat . وهي مسافة ليست بعيدة من هناك يصل المرء إلى مدينة
قرقند Karakand الحالية (يسمونها بيجولوتي سكاراكانتى Scaracanti)

وبالنسبة إلى المحطات الثلاث التالية لم يتسنى لي الآن الكشف عن
معنى الأسماء التي أطلقها عليها بيجولوتي . فضلا عن ذلك أمكن ملاحظة
أن الطريق الذي كانت تسلكه القوافل في المصور الأوسط ، ابتداء من
أرصروم يتبع على وجه التقريب نفس الاتجاه الذي تتبعه القوافل في وقتنا
الحاضر . يمكن إذن التسليم بأن الأمر كذلك بالنسبة إلى النصف الثاني
من الطريق . ويقدم السيد كيرت دليلا جديدا يمزج هذا الفرض . ذلك
أن نهر فيومي روسو Fiume rosso (٥١٧) عند بيجولوتي ليس
إلا « النهر الأحمر » (كريل تشاي-Kiril Tchay) وهو فرع من نهر أراكس

(٥١٦) Dolaurier et Langlois ; Ritzer (Berk., X, 350), cf. Yula Ca-thay, II, 301.

(٥١٧) Oderico da Pordenone Yula, Cathay, II, 2^e append., p. xlv.

يضم اسوار مدينة حوى Khos * لا يبقى اذن ، بعد ثبوت هذا ، شيء من نظرية السيد يول Yule الذي يرى في الـ ٢٥٠,٥٠٠ تحريفا لكلمة اراس Aras أو راس Ras (الاسم العربي لكلمة اراخي Arax) ، وهي نظرية تحملنا على التسليم بأن القوافل التي تذهب الى طورس تتحول عن الطريق المباشر لتصل الى خفاف النهر * نضيف أن مدينة حوى ليست حديثة كما يظنها السيد كيبرت ، لأنها كانت موجودة قبلا في العصور الوسطى (٥١٨) ، ولو كان الطريق الذي مدرسه يجتازها لذكر بيجولوتي اسم المدينة لا اسم النهر .

وبين النقطه التي يمر عندها الطريق نهر كريل نشأ وطورس ، نهاية الرحلة ، يذكر بيجولوتي أيضا محطتي كوندرو Condro وساندودي Sandoddi . والمسألة تتطلب معرفة ما اذا كان ينبغي البحث عن موقع هذين المكانين على الضفة اليمنى لبحيرة أورمية Ourmia (حاليا ريزاي Razy ، ش. غ. إيران : المترجم) أو في داخل الأراضي : فهناك من جهة طريق بين حوى وطورس يمتد بمحاذاة البحيرة ، ومن جهة أخرى تتصل المدينتان احداهما بالأخرى بطريق يسلكه الكثيرون يمر بمراند Marand وصوفيان Sofian . وينحاز السيد كيبرت الى الرأي الأول ، لأنه لم يزل يشاهد هناك مكاتب جبركية قديمة في قرى شالادان Chabadan وشاهانجان Chahadjan . ولكن كيف يمكن اثبات التماثل بين شالادان وكوندرو Condro وبين شاهانجان وساندودي Sandoddi /

تكنسنا عن الدليل الذي وضعه بيجولوتي ، وكانت غايته أن يضع خدمة للمسافرين الغربيين قائمة بالبقعات التي لا بد أن يتخلوها للذهاب بها عنهم من الجوزات الى طورس ، وعندما يمر للمسافر عبر الحدود أو يدخل نسطر المدن الكبيرة ، لا بد له أن يدفع ضريبة لمأهل البلد أو مثليه . وعند عدد كبير من المحطات ، يظهر رسم ثابت لقرنه نصف أسير aspe (عملة فضة تركية - مترجم) عن مسؤولية الدابة الواجبة ، يطلق عليها المؤلف اسما غربيا - tantanlaggo ويرى السيدان كاستريسي Castriani (٢١٩) ، ولانجسلا (٥٢٠) أن هذا الاسم

Cette ville est nommée Coya dans les Comptes de Langala, l.c., (٥١٨)
p. 310, Hoy dans Clavijo, p. 107, ChoqFigung Qudsteli, p. 306, Khosyy dans Aboulféda, Géogr., II, 2, p. 148, 163.

Archiv. slov. filol., 1ère série, append., IX 348 not., (٥١٩)

Treasure des chart., p. 94., (٥٢٠)

يتكون من كلمتين *tant* (يقدّر) ، *a* (عن) ، *auda* (قياس قديم *auda* يساوي تقريبا ١٨٨٨ مترا - المترجم) . وعلى هذا يجب على التجار العرب أن يدفعوا عند كل محطة من المحطات المذكورة بالتقايم (وهي لا تقل عن أربع عشرة محطة بين أرمروم وطورس) رسما قدره نصفه أصغر من كل أون *auda* من القماش الموجود ضمن أمتعتهم ولكن مثل هذه الضريبة الثقيلة تدعى في الواقع حظرا مطلقا .

لذلك فإن الأمر هنا لا يتعلق برسم محدد بالأون من القماش . والواقع أن بيچولوتي يضيف كل مرة عبدا أن هذه الضريبة وفادها نصف أصبر تحصل على حيلة كل دابة . فضلا عن ذلك فإن التفسير الذي ناقشه خطأ من أساسه . بمعنى أن هؤلاء العلماء يشتمون من أصل كلمة رومية اسم صربية لم يكن لها وجود إلا في داخل الإمبراطورية الشرقية العارسية (٥٢١) . ويبدو أنه كان من الواجب البحث أولا عما إذا لم تكن هذه الضريبة - شرقية في أصلها . وكان يمكن دراسة التفسير الصغير الذي وضعه بيچولوتي في مقدمة مؤلفه *Pratica della mercatura* لعرق أن كلمة *tantaula* في لغة التتار تعني *Gue: (guardia)* (رصم ، عسس) (٥٢٢) .

وس ثم يضيئ التسليم بأن الـ *tantaulaggio* كانت رسما يدفع للمراكز (العسكرية) الخاصة على لفظ مختلفة لحماية الكوافل . والواقع أنه كان في فارس في عهد حسيادة التتار ، وربما قبله تنظيم من هذا النوع لأمن الطرق . وفي عهد أربون رابع حانات التتار (١٢٨٤ - ١٢٩٩) ، كان يهدف بقيادة الرجال المتكلمين بهذه الخدمة إلى إمبر دكي وحازم ، فترتب على ذلك ضروب من العنف . فبدلا من دفع لصوصي الطرق الذين زادت جرائمهم يوما بعد يوم ، كان جهود الأمن يساعدونهم حلية . وكانوا هم أيضا يطالبون المسافرين بأكثر مما هو مفروض عليهم . وهناك أشخاص غرباء على خدمة الأمن يرتدون ثيابهم الرسمية ويستزود الأموال من المارة .

والا صارت الطرق الكبيرة شديدة الخطر ، بدأ المسافرون يهجرونها

ويسكنون الطرق المريضة المختصرة حيث يغتصون على الأقل من أعمال الإغصاب التي يفتريها الـ *Tangaitis* (الشمس) ، ولم يهودوا معرضين كثيرا للقضاء الأشخاص الخطرين الا على الطرق الكبيرة ، وعالج غاران خان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) هذه الاضطرابات بالشدّة التي كانت في طبيعته : فلم يكتب ناعدام كل من يقبض عليهم من اللصوص ، ولا أشخاص الذين يشبه تواطؤهم معهم ، بل اعتبر أيضا مراكز المراساة ، وسكان القرى الواقعة على الطرق مسئولين عن السرقات التي ترتكب فيها ، وبجوار كل مركز اقام عمودا حجرياً معلقاً عليه قائمة بالمراد المركز ، وقيمة الضريبة النظامية المقروضة .

وعلى هذه السجلات لم يعد السافرون معرضين لأن يسرقهم أي انسان ، او يستغلهم حرس المخافر أنفسهم ، وتسمى هذه القائمة « جدول العدالة » ، وكانت الضريبة نصف اكتشفية *Aktché* عن حمولة أربعة بغال ، أو جملين . وفي عهد غاران خان ، كان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف تانجول (عس) على قدم الاستعداد في كل وقت لحفظ الأمن في الطرق ، وما لبثت هذه الإجراءات أن ألحقت (٥٢٣) ، وبقيت نافذة في عهود خلفاء غازان حاش ، يشهد بذلك بيچولوي الذي كتب الفقرة التي أوردها ألفا في حياة أبو سيد خان (١٣١٦ - ١٣٦٦) .

وتبين ذلك أيضا في بعض فقرات المعاهدة التي عقدتها البنادقة مع هذا الخان نفسه في عام ١٣٢٠ ، وتجد في هذه الفقرات المراسيم الخاصة بالتانجول ، من مسئولية مشتركة بين السلطات وبين سكان الأماكن المجاورة للمخافر عن كل السرقات التي ترتكب اغرارا بالقوافل ، وحظر الخسالية بالتامولوكو *Tamtaulaco* ، وهو أي مبلغ يريد على الرسم القانوني ، ويبدو أن هذا الرسم كان وقتئذ أعلى مما كان في زمن غازان خان : فالثابت من جهة أن كلمتي « اكتشفية » و « أسير » تدلان على عملة واحدة (تساوي حوالي ٦٠ سنتيم من النقد الحالي) (٥٢٤) ، وأن لهما معنى واحدا « أبيض » ، وفي عهد أبو سيد خان ، كان يدفع لنفس القيمة (نصف أسير) عن الحمولة الواحدة ، التي كانت تدفع في عهد غازان خان عن حمولتين من الجبال أو أربع حمولات من البغال .

(٥٢٣) رشيح الدين ، نقل السيد برليارد هذه الفقرة في :

M. Bernbauer dans son Mémoire sur les localisations de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs, dans le Journ asiat., 3^e serie, T. XV, p. 589 et ss., D'Oshanson, Hist. des Mongols, IV, 470 ss.

-D'après les tableaux comparatifs des monnaies de M. (٥٢٤)
Destremont, dans son éd. de Langele, l.c., p. 647-680.

فالتاجر المسافر من الجوزات الى طورس ومعه دابة واحدة ينفق في المتوسط ١٥٢ أسير تقريبا يدفعها لمحصل الجمارك ، وللمخافر على الطرق ، بالإضافة الى ٥٠ أسير تقريبا يدفعها لمصانيع النول من قطاع الطرق الذين قد ينتهي بهم في طريقه ، أي أنه يدفع ٢٠٣ أسير في المجموع (يقول بيجولوتي ٢٠٩ ، ولكنه أخطأ في الجمع) ، وهذا المبلغ يعادل ١٢٠ غرنكا من قديما .

على معلومات كافية عن طريق آياس - تبريز ، والرسوم التي تحصل فيه . ولتلتفت الآن الى الطريق الذي كان يافسه ، طريق القوافل من طبريزون الى طورس (تبريز) .

ولسوء الحظ لا يوجد وصف خاص بأي من الطريقين ، ويكتفي بيجولوتي بالقول بأن التجار الذين يسافرون فرادى على ظهور الجماد يقطعون هذه المسافة في اثني عشر الى ثلاثة عشر يوما ، وتقطعها القوافل من ثلاثين الى اثنين وثلاثين يوما (٥٢٥) ، ولا يذكر أي من المتن التي يمر بها هذا الطريق . أما جيورفانت بربارو Gioanfranco Barbaro فإنه رسم طريقا ، ولكنه يعتمد كثيرا على الخط المستقيم الذي ينتجه من القسماج الغربي الى الجنوب الشرقي حتى يبدو لنا من المستحيل أن يكون قد استخدم بالفعل وبوجه عام في التجارة بين السوقين ، وأقصى ما يسمنا أن نسلم به هو أن بعض المسافرين قد فعلوا استخدامه (٥٢٦) .

في كلايبر Claudio الذي سافر أيضا من طبريزون الى طورس (تبريز) ، ولكنه تحول كثيرا عن الطريق المباشر ، واستغرقت رحلته (من ٢٧ أبريل الى ١١ يولية) (٥٢٧) مدة أطول بكثير من المدة المتوسطة التي ذكرها بيجولوتي ، حتى ليستحيل أن نسلم بأنه سلك الطريق المعتاد . وعلى ذلك لانا لا نستطيع أن نعتمد على هذين الوصفين لرحلات في اكتشاف اتجاه الطريق التجاري ، ونقول الشيء نفسه عن الطريق الذي سلكه الفارسي لانجيل Langalle عند عودته من مأموريته ؛ فحتى يعود الى طبريزون ، مر بمدينة خوي ، وأردجيش Badjich (على الضفة

Pagol, p. 11.

(٥٢٥)

Viaggio nella Persia, p. 48, 49.

(٥٢٦)

يتم هذا الطريق من البداية ، بشكل ملحوظ اتجاه نحو الجنوب . في خط مستقيم الى أرنجيان ، وكازبروت

Viage, p. 86-108.

(٥٢٧)

الشمالية من بحيرة فان (Van) ، ولاذكرت Melaszkert وأرضروم (٥٢٨) .

ومن المحتمل كثيراً أن طريق القوافل في العصور الوسطى لم يكره يبدأ كثيراً عن الطريق المتبع في الوقت الحاضر ، والذي يمر ببايبورت Baibourt ، وأرضروم ، وديادن Diyadin ، وحوى (٥٢٦) ، هذا الخط قد رسمته الطبيعة نفسها إلى حد ما . ومجموع أيام المسير التي ذكرها بحولتي بالنسبة إلى القوافل المتجهة من طربزون إلى طورس يساوي تماماً الزمن الذي تستغرقه القوافل في وقتنا الحاضر في اجتياز المائة واثنين مرسعا التي تفصل للمدينتين إحداهما عن الأخرى متبعة الطريق الذي يساه آغا (٥٣٠) . ويمكننا ، بالنسبة إلى اليومين الأولين من المسيرة أن نثبت بالمستندات التي بين أيدينا أن الطريقين متماثلان : فالواقع أننا نملك ٥ ديوما ، صادرا في عام ١٣١٤ ، حلتاه من قبل ، ولدينا أيضاً مذكرات عن رحلة الشمفالية لالجيل . ففي الدبلوم (٥٣١) ، يحظر الكسيسوس امبراطور طربزون كل الرعاية الروم من الانضمام إلى القوافل الجنوبية لغاية ناحية أشير إليها باسم « كابانوم » Cabanum .

ولابد لنا في هذه الصورة أن نتعرف على قرية كاراكابان Carakaban (الكابان الأسود) الواقعة في الجبل على بعد تسعة فراسخ من طربزون ، وعندنا تتوقف إلى يومنا هذا القوافل المتجهة إلى بايبورت وأرضروم (٥٣٢) . ونجد اسم هذه القرية في مذكرات لالجيل ، وكانت هذه أول رحلة يقطعها بعد قيامه من طربزون قاصداً طورس . وكانت بايبورت ثالث مرحلة (٥٣٣) : يقول السيد مولو M. Polo في طمة راموزير Ramusio

Atti della Soc. Leg., XIII, 610-614. (٥٢٨)

Blaeu, Die commercieelen Zustande Persiens, p. 216 et ss. (٥٢٩)

(٥٣٠) في تقريره عن الطريق التجاري لبشر الأسود كتب السيد م . و . جودين تفصيل النمسا في طربزون أنه لايجتياز هذه المسافة . تستغرق القوافل على الأقل من ٢٧ إلى ٣٠ يوما حتى يتكون الطريق في أحسن حال ، ويقلها أربعون يوما حتى يتكون في حال سيئة . انظر :
-- Mittheilungen über Handel Gewerbe und Verkehrsmittel, Jahr an-
née, Vienne 1810 (p. 118).

Atti della Soc. Leg., XIII, 617. (٥٣١)

Hamöten, Reisen in Kleinasien, Pontus und Armenien, I, 168. (٥٣٢)
Ritter, Erdk. XVIII, 905.

Atti della Soc. Leg., XIII, 608 : Cabanum montanum (٥٣٣)
Papertum ; cf. p. 686, Papertum.

أما قلعة يمر المساهر تحتها عند دهايه من طربزون إلى طورس (تبريز)
ويقال أنه يوجد أيضا في حصون بايبورت ، وأرضروم القديمة ، وحسن
كاليه Hassan-Kaläh ، وبأيريد بقايا القلاع التي شيدها الجوسيون
على هذه المواقع المختلفة لحماية قوافلهم (٥٣٤) . ويقابن المرء على طول
الطريق الكبير الحالي حانات للقوافل يرجع انشاؤها إلى العصور الوسطى ،
يقال أن تلك الأمانة (جنوا) هي التي أقامتها : وهذا على الأقل هو ما يحكيه
القصص الشعبي (٥٣٥) .

وقد أيد السيد برانت Brant قصص انجلترا في أرضروم هذه
القصة دون تردد ، واعتبرها حقيقة تاريخية ، رغم عدم وجود أي أثر
لهذا النوع من المنشآت في أية وثيقة . ويمضي السيد برانت إلى حد
القول بأن الجوسيين حصنوا من ملوك أرمينيا على ترخيص بالقلعة هذه
القلاع . وهذه واقعة ربما كان من المستبعد عليه أن يثبتها ذلك لأنه
في العصر الذي كانت فيه القوافل الجنوبية تجتاز الطريق من طربزون إلى
طورس ، أي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم تعد هذه الأسلاك
من رمى بعيدة حاضرة لملوك أرمينيا ، إذ كان القطر ، حتى حدود امبراطورية
طربزون الصغيرة خاضعا لحانات فارس .

ولكننا رأينا أن خدمات القنار هؤلاء كانوا حريصين على توفير أمن
الطرق ، فأقاموا لهذا الغرض مخافر عديدة ، وكانوا فضلاء عن ذلك
شديد الغيرة على سلطتهم ، فلا يسمحون لأمة أجنبية أن تشيد في
الليمم قلعة حصينة ، ولهاذا القوافل . وما تبقى من هذه المباني إلى
الآن لا يظهر عليه إلا القليل جدا من السمات الغربية حتى أن الرحالة
هاملتون Hamilton أخبر في هذه الشؤون قد تعرف بيقين أحدها على
الطرز الإسلامي ، ويقول أن الطراز الظاهر في المباني الأخرى قد يكون
بيزنطيا أو جنويا (٥٣٦) .

وحين علم أن أثارك آسيا الصغرى كانوا يصلون بسهولة كل سنة
قديم بالمرحة ما بأنه جوي ، فانا لا نعلق أية أهمية على القصص الشعبي
في هذا الخصوص . ومع ذلك فإنه لا يثبت أن الطريق التجاري في العصور

Remus, II, p. 4, b.

(٥٣٤)

James Brant, *Journeys through a part of Armenia and Asia*
Minor, dans le Journ. of the geographical Society, VI (1880),
p. 188. Hædillon, op. cit., I, 177.

Op. cit., I, 175-177, M. Karl Ritter (Brick, X, 891).

(٥٣٦)

الوسطى بقي كما كان حتى وقتنا الحاضر لا ضرورة لاجراء ذلك عن طريق الأتار ، لأن التماثل بين الطريقين لم يزل قائما . فالتوافق الخارجية من طربوزون تصل الى أرضروم عن طريق بايبورت بمسيرة مستمرة سبعة أو ثمانية أيام ، ومن هناك تتبع نفس خط السير الذي تتبعه القسوافل الخارجية من آياس ، وتستعيد مثلها من الأجسرافات التي يتلخصها الغابات التتار للمحافظة على أمن الطرق . وكانت الرسوم الواجب دفعها للمخافر القائمة على طول الطريق أقل بالتأكيد من تكاليف بناء القلاع عند المآوى الرئيسية على مراحل الطريق ، وترعى هذه القلاع ، والصرف على حامياتها .

لقد فرشنا من الحديث عن الطرق التجارية في فارس ، فإذا أردنا الآن أن نبحث عن الأمم التي يمتد إليها المسافرون الذين كانوا يستعملون هذه الطرق ، نصادف في مقدمتهم البنادقة والجنوبيين .

ويبدو أن أول قرار عام صدر في أحد حانات المغول من أسرة هولاكو لصالح البنادقة كان مرسوما سلمه رسول من « المعاهد المتتاري » إلى درج البندالية ، نصه الأصل بلغة تتارية ، وترجم إلى اللاتينية ، ولسوء الحظ ضاع النص الأصلي ، أما الترجمة فثبتت لتاريخ الوثيقة . وهو أول شهر نوفمبر عام ١٣٠٦ ، وتبدأ بهذه الكلمات .

Verbum Quoi (Ver. : Zucl) Soldani docl Venetiarum (٥٣٧)

وهنا يرر سؤال ، ألا وهو : هل كان يوجد في إحدى ممالك التتار في ذلك العصر ملك يحمل اسم جوجي Djoudji أو اسما شبيها به ؟ كان الخان الأكبر المقيم في الصين هو تيمور Timour حفيد قبلاي الأكبر (١٢٩٤ - ١٣٠٧) ، أما خان مملكة أوجوتاي Ogatai فكان يدعى تشابار Tchapar (١٣٠١ - ١٣٠٩) ، وخان مملكة تشاجاتاي Tchagatai اسمه دوا Doua (توفي عام ١٣٠٧) ، وكان ملك كبتشاك Kiptchak هو توكتاي Toktai (١٢٩١ - ١٣١٣) ، وكان ألجابتو Oldjaitou (١٣٠٤ - ١٣١٦) يحكم في فارس (٥٣٨) . ولم يكن أي من هذه الأسماء ينطبق لفظة تقوسو Quai ، ومع

(٥٣٧) Taf. et Thom., IV, 47 (Coranem reg., I, p. 69, no 289).

(٥٣٨) يذكر أولجابتو في كتاب ليهيب الجليل أسماء الملوك من سلالة جوكير خان الذي حكموا فيه في عهد ، الظرف .

- d'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 488;

Ilumner Gesch. der Ilchans, II, 144 et s., 163

ذلك منه في هذا الشكل اسم ملك تناري ، وهذا امر لا شك فيه ، لأن تاريخ الوثيقة مضمون بما لدورة الحيوانات لدى التنار ، فكان ذلك هو عام اثنيمان ، ولننظر عما اذا كان اسم الاله المؤرخ به الوثيقة لا يقترب بنا من الحل ، يقول النص *Facta in Mugantis* ، ولا بد لنا ان نرى في هذا الاسم غالبا مقاطعة موجان جلوسى نهر كور (٥٣٩) ، وهو اقليم تابع لمخانات يفضلون الإقامة به (٥٤٠) ، وهناك أرنخ خطاب أوغاييتو الى فيليب « الجيميسل » *Philippe le Bel* ملك فرنسا ، الذى سبق الإشارة اليه (٥٤١) ، وقد حرر هذا الخطاب في السنة نفسها اثنى صدر فيها الامتياز المنوح الى البنادقة ، والذي نحاول ان نعرف ماله ، ومن ثم فليس ببعيد الافتراض بان السلطان تيموس ، وأوغاييتو ليسا الا شخصا واحدا .

وثمة معلومة تؤيد هذا الافتراض : ذلك هو لقب هذا السلطان الذى لا يراه لى أية جهة أخرى مطلقا باسم خان مغولى ، فقد اتخذ أوغاييتو هذا اللقب حين اعتنق الإسلام (٥٤٢) ، ومع ذلك هناك فرق كبير بين اسمى تيموس وأوغاييتو ، فلابد ان من شئ أقوى يؤيد افتراضنا هذا ، اسمه « خي » الحشت الآتى : ذلك ان الرسول الذى سلم الدوج خطابا لسلطان كان مكنيا كذلك بان يحسن الى مواطنه بندقى اسمه بييترو رودولفسو *Pietro Rodolfo* من طرف شخص يدعى حوجة عبد الله *Rhodja Abdallah* القرارا مكتوبا بصفة تنارية ، يقتارل فيه صاحبه من أية ترغسية (او تعويض) من ضرر سببه له بييترو هذا ، ويعد بالا يعمل أى بندقى آخر مسئولية مثل هذا الضرر ، ويؤيد هذا الوعد شاهدان من الغرب ، هما بالموكشيو بوليتسو *Balduccio Buffeto (Buffero ?)* وتومازو أوجى دى سسبنا (دى سينج) *Tomaso Ugi de Sena (de Sienne)* ، وهما يقيمان بالتأكيد فى المكان الذى يقطن فيه عبد الله : ووقع الاثنان بأسمائهما بالاطالية ،

(٥٣٩) بالاصح ، مقابلة مرجان *Moghan* التالسية فى الفلت الكون من بحر خزوين ، والبرى السفلى للور اتراس ، والبرى السان للور كور ، انظر أبو الفدا ، *Géogr.*, II, 2, p. 188 et s.)
d'Ocham, Des peuples du caucase, p. 186; *Dorn, Campé*, dans les *Mém. de l'Acad. de St Pétersb.*, 7^e série XXXIII (1878).

Abel Rémusat. Second mém. sur les relat polit des princes chrétiens avec les empereurs mongols, *Mém de l'Acad des Ins*, VII (1834), p. 372, 398; *Hansm. Gesch. der Ilchans*, II, 184.

Abel Rémusat, l.c, p. 438; M. Polo, éd. Panthéon, II, 781. (٥٤١)

D'Ocham, l.c, IV, 480-480. (٥٤٢)

ويحدد الثاني حالته بهذه الكلمات Alduci (Iduci) del Soldano* (٥٤٣)

ولكننا نعلم أن أولجايتو قد أوفد في عام ١٣٠٥ - ١٣٠٦ عاملة يولدوتشي Induci (حامل المسيف Jouldouchi) واسمه توماسو Tomaso حاملا رسائل إلى فيليب الجميل ملك فرنسا ، وادوارد الثاني ملك إنجلترا ، والبابا كليمنت الخامس يلتبس بحالهم معه عند مصر (٥٤٤) . والواضح أن توماس شاهد عبد الله ، وتوماس حامل رسائل السلطان ليسا إلا شخصا واحدا ، كذلك فإن سيد أحدهما وسيد الآخر لا بد أن يكونا كذلك شخصا واحدا . بعبارة أخرى أن مانح الامتياز للبتادقة هو أولجايتو . وفي هذا الامتياز ، ذكر صراحة أنه منذ زمن بعيد كان من عادة التجار البتادقة أن يترددوا على فارس ، وكان محظورا مضايقة أي منهم بدعوى أن واحدا من مواطنيه ترك ديونا عليه في البلد ، أو أذى أي واحد من السكان . ونرى أن إقرار عبد الله إنما هو نتيجة مباشرة لهذا المرسوم . وختاما لهذه النقطة لا يبقى علينا سوى أن نصحيح التاريخ الوارد بهذه الوثيقة في النسخة التي وصلت إلينا أيدينا . ذلك أن سنة الثمان ، في التقويم التقريبي الذي تكون دورته من اثنتي عشرة سنة لا تتقابل عام ١٣٠٦ من التاريخ الميلادي ، وهو الرقم المبني بالترجمة اللاتينية ، ولكنها تتقابل عام ١٣٠٥ (٥٤٥) .

ويمكن التمسك بأن توماس أوجي (من سيبيا) الحارس الخاص لأولجايتو قد أدى مهمته في رحلة واحدة ، وسلم الرسائل المكلف بتسليمها إلى مختلف الأمراء على التوالي ، والمخطاب الذي حرره سيده إلى النوج ، وإقرار عبد الله الموقر عليه منه . حقا إن هذه الوثائق المختلفة تحسب تواريخ متباعدة بعضها عن بعض : ١٣ - ١٤ مايو ، ١٣ سبتمبر ، أوائل نوفمبر ١٣٠٥ ، ولكن يمكن القول أيضا بأن توماسو مكث في فارس إلى ما بعد تحرير الوثيقة الأخيرة . ذلك لأننا لا نتحقق من وصوله إلى بلاط روما إلا في أوائل شهر مارس عام ١٣٠٦ ، وإلى بلاط إنجلترا بعد ذلك ،

(٥٤٣) Taf. et Thom. ind., registre du premier volume des Com-memoriale, p. 54, no 252.

Abel Rémusat I.c., p. 398-401, 437, (٥٤٤)

Abel Rémusat, I.c., p. 397; Adler, Zeitrechnungen von Chatu, und Jgur, Abb der hist. phil. Cl. der Berl. Akad., Ire part. p. 370 et su.; Zeitrechnung der Chinesen, dans la même publication, année 1837, p. 208, 276 et su. (٥٤٥)

في ٧ من يوليو من السنة نفسها (٥٢٦) .

وتسجل مهمة توماسو أوجي (ورفيلسهه ، وهو رجل شرقي يدعى ممالك (Mamalik) بداية العلاقات الدبلوماسية بين امبراطورية التتار الغربية والسندية . ومن تلك الآونة بدأ مجلس الشيوخ يوجه أنظاره ناحية فارس ، ويبدو أن موضوع المفاوضات الأولى كان إتمام سفارة إلى صيدا البلد (٥٤٧) . وقبل ميشيل دولقينو في عام ١٢٢٠ هذه المهمة ، وكان عليه أن يختار بين الطريقين اللذين وصلناهما .

وثمة معلومة تعللنا على الطريق الذي اتخذناه ، ذلك أن الجيايل البندقي في طربرزو ، جيوفاني سالوتو سلمه عند مروره بتلك المدينة مبلغ خمسين « ليبرا جروسوروم » libro grossorum (٥١٨) ، وأسفرت هذه المهمة عن معاهدة في حورتنا نصها ، ولكنها طالت زحماً طويلاً تعتبر معاهدة بين البندقية وتوس ، وذلك بسبب خطأ في القراءة ، فبدلاً من كلمة طوريسيوم (Taurisium (Tauris) (طورس) الموجودة في عنوان المعاهدة ، قرئت تولىسيوم (Tulium (Tunis) (تونس) ، ولا يوجد في النص نفسه شيء يبرر هذا الخطأ (٥٥٠) .

وكان الأمير الذي تفاوضت معه البندقية يطلق على نفسه لقب « امبراطور مولسيت » imperator Mousait ، وفي ذلك العصر كان ملك تونس أميراً من أسرة « الحفصيين » اسمه « أبو يحيى أبو بكر » ، ولا يمكن أبداً أن تنطبق صفة الامبراطور أو اسم مولسيت على هذه الشخصية ، وبمعنى ذلك يطبق كل من الاسم واللقب على أبو مسيد تيمان Abou-Said-Khan (١٢١٦ - ١٢٢٦) الذي كان يحكم آنذاك فارس ، ولجده

Abel Rémusat, l.c., p. 399-401.

(٥٤٩)

« عالم هذا التاريخ يزعم في التماسيل في مقال :

Contributions à l'histoire du commerce du Levant au XIV^e siècle.

Borchet, La republica di Venezia e la Persia. Nuovi documenti (٥١٦)

regesti Venice 1866 (extr. de la Raccolta Veneta, T. I.), p. 38; l'Archiv Venet. XVII, 134, XVIII, 327, 330

Taf. of Thom., IV, 171.

(٥١٨)

Marià, Storia del commercio del Venezianj. IV, 138; Taf. et Thom., Der Doge Andreà Dandolo, p. 187.

(٥١٩)

(٥٥٠) أيدت ذلك في مؤلفي

Colonie commerciali degli Italiani in Oriente nel medio evo. II (1888), p. 82.

اسمه أحيانا في مؤلفات الكتاب الشرقيين ، وعلى النقود في شكل «بوسيد» Bou-Said . (٥٥١) ، ويحرف الكتاب الغربيون هذا الاسم فيحصلونه «بوساي» Boussay (٥٥٢) أو Boussaid Khan ، أو Bouseldan ، أو بوسيد (٥٥٣) Mussayd ، أو بونليث (٥٥٤) Bonsali . أو بوسايت Bousait (٥٥٥) ، وليس هناك بين هذه التحولات وبين اسم مونسيث Monesth إلا فروق خفيفة .

وفي المعاهدة المشار إليها يطالب السفير بأعادة الأموال التي تركها أحد الرعايا البنادقة واسمه فرنسيسكو داكاباليه Francesco da Canalo أتولى في أرمينيا Arminga ، واعتصبها دون حق شخص يدعى بدر الدين لولو Badradin Lotlo أوستجا هي بالطبع ايرلنجيان ، أما بدر الدين لولو فهو اسم شخصية فارسية كبرى كانت تلعب في ذلك العصر بالبلات دورا كبيرا (٥٥٦) . وبعد أخيرا في سجلات Miat في لسبونات ١٣٢٦ - ١٣٢٨ أن سفيرا ثانيا مولدا إلى طورس كان مكلما يبحث قضية فرنسيسكو دى كاتاليه (٥٥٧) .

والعجيب أن النص لا يذكر الكتاب الذي دون به ، ولكننا نملك قدرا كافيا من الدلائل التي تملأ هذا الفراغ وتسجل اسم طورس . فالعنوان المدون على رأس المعاهدة في Liber pactorum (٥٥٨) بالبندفية أحفث فهدا من عنوان النص نفسه ، وهذا العنوان هو Pactum Turail . وعندما ننسخ طبق الأصل ، نفضل الاستاذ مولر مشكورا فزودني بها . وقد أخطأ السيد ماس لا تيرى Mas Latrie عند نشره هذه الوثيقة في ال Liber Pactorum فقرأ Pacism Turail غير أن الأسماء ليست هي الدلائل الوحيدة التي تفصل في هذه المسألة لعسالك طورس بدلا من تورس . ذلك أننا نصادف هنا وهناك في النص أسماء موطنين من كل

D'Oshson, IV 716 et s.	(٥٥٦)
Livre de l'état du grant Cann, p. 29, 33.	(٥٥٧)
Arch. de l'Or. lat., I, 288-270.	(٥٥٨)
Arch. Venet, XVII, 270-XXVII, 95.	(٥٥٩)
Pagol., p. 9.	(٥٦٠)
Hammer, Gesch der Uchane, II, 277, 281.	(٥٦١)
Archiv. Venet., XVIII, 283.	(٥٦٢)
Lit. IV, fol. 84.	(٥٦٣)

موضع ، وأسماء خرائب يدل شكلها التركي المفقول بصورة لا تقبل الجدل
على أن المعاهدة لا يمكن أن تكون قد أبرمت إلا في تلك التواريخ .

ونذكر فيما يلي بعض هذه الأسماء : *Cherchani* - شيركوشني
أو يارجوتشي *Yargoutchi* ، وهو قاضي (٥٥٩) ، وثيلماسي *Thilmaci*
ترجمان (٥٦٠) ، وتاتولي *tatali* (٥٦١) ، وشارولي *Charauli* (٥٦٢)
من حراس الطرق ، والشرطة ، وتامجاسي ، جابي الضرائب ورسوم
الجمارك (٥٦٣) ، وتاموسا *tamusa* ، خريبة (وبالأمسبح ، الختم ،
والسمة) (٥٦٤) وتولاسو *Taulaso* (تامتولاسو *tamtulaso*) ، وهو
رسم يجبي لحماية المسافرين في الطرق الكبرى (٥٦٥) .

ويصر السيد ماسي لاتري أخيرا بحق على أن كل ما في الوثيقة
(الدبلوم) يدل على أن البلد المقصود واقع في داخل القسارية (٥٦٦) .
وباختصار فإن كل شيء يثبت أن أبو سميد خان هو محرر الوثيقة ، وفي
وسعنا أن نلخصها في بضعة أسطور (٥٦٧) : فالبنادقة سوف يتمتعون
بالحرية المطلقة في التنقل في كل أنحاء ولايات الخان ، ولهم أن يتولوا
حيثما شاءوا ، وأن يرعوا ماشيتهم ثلاثة أيام في كل موقع ، ولا يحصل
منهم ، أو من خدمهم ولراجلتهم أية خريبة خلاف الرسوم الجمركية ،
والرسم الخاص بحراس الطرق ، ولا يقتضى منهم أكثر من الرسوم والضرائب
القانونية ، ويكون سعر الرسوم والضرائب مستقبلا هو نفس سعرها يوم
إبرام المعاهدة ، ولا تحصل إلا في الزل القائمة عند الحائط للمعاهدة .

وللبنادقة الحق في أن يطلبوا من حراس الطرق مراقتهم لحمايتهم ،
فإن رفض واحد منهم هذا الطلب فعليه دفع مسئولية ما قد يحدث للطلاب

(٥٥٩) انظر بطرقة ، الجزء الثالث ، ١١ في رعييد الصين ، (الدائر كاترين ص ١٢٢) .

Brousse, Addit et éclaircies, à l'Hist. de la Géorgie, p. 489.

Pegol., p. xxiii.

(٥٦٠)

V. plus haut.

(٥٦١)

Hammer, Gesch. der Erbau., I, 38; II, 139.

(٥٦٢)

Ibid. I, 273, 284.

(٥٦٣)

Varnbécy, Uiguriache Sprachmonumente, p. 282 . Hammer, op. cit., II, 173, Pegol., p. xx.

(٥٦٤)

Voy plus haut.

(٥٦٥)

I.c., p. 74 et ss. 83, et a.

(٥٦٦)

Texte publié par M. de Mas Latrie, I.c., p. 95-102, et dans Taf. et Thom., IV, 173 et ss.

(٥٦٧)

من اصرار نتيجة لرفضه . وفي الحالة التي يهب فيها أو يسرق أحد السادقة وهو سائر في طريقه ، تلتزم السلطات ، وحراس الطرق ، وسكان الساحة أو المنطقة بالاعتود على الأشياء المسروقة ، ولا التزموا بدفع تعويض عنها . وبناء على طلب القنصل البندقي يجب على رئيس المنطقة أن يقدم المعونة والمساعدة للبنادقة وقوافلهم ، ولا يجوز بالمرء اقتضى على سائلي بريندم أو قائدي قوافلهم بأية ذريعة كانت . ولا يجوز اعتقال أي شخص من دعايا البندقية لجرمة ارتكبتها أو دبر تركه واحد من مواطنيه فكل انسان مسئول عن أفعاله وديونه الشخصية . ومن واجب السلطات أن تكون في عود السادقة ، وتلزم المدينين بالسداد .

وإذا تولى أحد البنادقة ، لا يجوز لأي شخص خلاف القنصل أن يمس الأشياء التي كان يملكها المتوفى . وإذا رفع بدائي شكواه إلى محكمة لارمسية ، فالقضية ينظرها قاض من أعلى درجة . وفي القضايا المدنية والجنائية بين « العربية » (البنادقة) ، يفتح الأطراف لقنصلهم فقط . وأخيرا ، وهذا امتياز بالغ الأهمية ، يصرح لرهباي اللاتينيين الذين يتولون الوظائف الكهوتية حيال التجار البنادقة ، أن ينشئوا بعثات دينية في المواحي التي يختارونها في الاقليم . ونحن نعلم من قبل أن ميشيل دولفينو لم يكن أول بندقي يسافر من البندقية إلى فارس ، فالتجارة بين البندقيين كانت تمارس منذ زمن بعيد .

وتبين لنا من قبل أن البنادقة ظهرت في طورس (نير) في زمن مبكر ، ولا غائلة أن تكرر هنا ما سبق أن قلناه في هذا الخصوص . وفي حوالي عام ١٣٠٢ لم تكن الرحلة من البندقية إلى طورس من طريق طرزيون تلبو في حين أن السان أمرا غير عادي (٥٦٨) : وكان البنادقة يملكون ثمة عددا من الوكالات التجارية ، لذلك كان لهم هناك قنصلهم ورئيس رجائيتهم Mayor كما تذكره المعاهدة التي حلتها ألفاسا . ورثت المستوطنة بعد قليل لوائح اإدارة عهد بتطبيقها إلى هذا القنصل وملحقه (مستشاريه) الأربعة (٥٦٩) الأربعة ، وأول اسم عرف من أسماء هؤلاء القنصل هو ماركو دي مولينو Marco de Molino . وفي ٦ من يومه عام ١٣٢٤ كتب ماركو لدوج البندقية خطايا وصنف فيه حالة المستوطنة بأنها غير طيبة . فقد حظر على البنادقة ، لصالحهم أن يتأجروا مع أحد من المسلمين .

Arch. Venet., XVIII, 268, XXVII, 84.

(٥٦٨)

Ibid., XVIII, 881, XVII, 270.

(٥٦٩)

مبلغ قدره ثلاثة امبربات aspres لصالح اثنين من البنادقة من بيت سانوتو Sanuto ، إلا أن هذا لم يكن من شأنه أن يخفف من عبء الضريبة الملقى على عاتق الجالية (٥٧٢) .

وفي الوقت نفسه رخص مجلس شيوخ البندقية لبايل طبرون أنه يفرس على كل تاجر من مواطنيه عند سفره إلى طورس (تبرير) رسماً قدره « أسبر » واحد من كل دابة ، وتشكل حصيلة هذه الضريبة إيرادات لصالح ترجمان يدعى أفاشي Avachi يبدو أنه أدى بعض الخدمات البندقية لم يقرب من بالها أبه سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن التجارة ، يثرى أحد الأجانب ، ولكن كان هناك بلا شك صلة بين هذه الضريبة والضريبة الأخرى ، ذلك لأن أفاشي هذا كان أيضاً اسم الترجمان حاجي طابري .

وبعد وفاة أبو سعيد خان (١٣٣٦) ، حدث توقف في الحركة التجارية بين البندقية وفارس ، وكانت الأعباء الضريبية على التجارة أقل ، إثرًا في هذا التوقف من تزايد الأخطار الأمنية في الطريق .

وقد انقسمت خانات فارس إلى إمارات مستقلة ، وكان أمراؤها في حروب مستمرة مع بعضهم بعضاً ، ومن ثم عجزوا عن القضاء على الفوضى التي عمت ولاياتهم . ورغم الصعوبات التي شاعت في هذه الأزمنة ، فإن البندقية لم يقرب من بالها أبه سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن بعثة فارسية موفدة من قبل الأمير أشرف الجوباني prince djoubanien Bchref ماضية في طريقها إلى جنوا ، ومن ثم أرسلت البندقية لبحال إلى ماركو فومسكاريني بايل القسطنطينية أمرا بأن يتصل بهذه البعثة ويتفاوض معها لصالح التجارة بين البندقية وفارس (٥٧٤) .

ومن المشكوك فيه أن يكون هذا المسمى قد أدى إلى نتيجة ما . على أن الفرس كانوا أيضاً راغبين في استعادة العلاقات التجارية القديمة . وفي حوزمبا خطايان موجهان إلى بايل طبرون ، وبندقة هذه المدينة من قبل السلطان أوفيس Ovels الذي كان يحكم طورس (كيريز) وأذربيجان من ١٣٥٧ إلى ١٣٧٤ (٥٧٥) يدعو فيهما التجار البنادقة بأشاح

Taf et Thom., IV, 322 et s.

(٥٧٢)

Décret du Sénat, du 16 juin 1332, dans *IBATH*, IV, 172.

(٥٧٣)

Taf et Thom., IV, 376 et s.

(٥٧٤)

D'Ohson, *Hist des Mongols*, IV, Taf et s.; Rampoldi, *Annal. musul.*, X, 82, 80, 94, 96, 104 et s., 180; *Herbelot, Biblioth. orient.*, s.v. *Avis*.

(٥٧٥)

للمودة الى طورس كما كانت حالتهم في عهد ابو سيد . ويفض لهم خلو الطرق من كل المخاطر ، وأنه ينبغي وسما في حفظ الأمن بها ، ويمنع التجار بأنهم مسؤولون في فارس أحسن استقبال ، ويدفعون بها شرائب أقل مما كانوا يدفعونه من قبل .

وفي رد تجار طبريز على الرسالة الأولى ، نرى أنهم ضعيفو الثقة ومتحفظون ، ويقولون أنه منذ عامين وصل الى طبريز تجار في استغول يضم سفنًا كثيرة ، وانظروا هناك فتح طرق المواصلات ، وقبل أن يغادروا بسلوك هذه الطرق أرادوا أن يشهقوا وصول قافلة كبيرة قادمة من طورس (تبريز) ، دلالة على زوال كل خطر في هذه الطريق ، ومن ثم يقبلون الانضمام الى هذه القافلة حين تواصل سيرها الى وطنها . والواقع أنهم كان لديهم بواعث كثيرة لأن يكونوا على حذر . وثمة تجار بنادقة أكثر جرأة ، خاطروا بالرحيل فرادى ، فكانوا ضحية السلب والنهب في الطريق ، وقبض الخان على النصوص ، وعاقبهم ، ووجه يتمويض الضحايا . ولكن لم يكن أحد يتق كثيرا بوعودته (٥٧٦) .

واعتبارا من تلك الآلة ، وطوال الفترة التي لتولى دراستها ، لا نجد أثرًا لمرور بنادقة على الطريق من طبريز الى طورس (تبريز) ونموذ الآن الى الجنوبيين ، ولتصبح تطور علاقاتهم التجارية بفارس فيما بعد رحلة ماركوبولو . ففي هذه الأثناء أنشأوا قنصلية في طورس ، واقتصادا في الاتفاق جعلوا الموظف المعين في هذا المنصب يشغل وظيفته لسنة أشهر بدلا من ثلاثة كما هو الحال في سائر القنصليات . ويساعد القنصل في أداء مهمته مجلس يضم أربعة وعشرين عضوا ، ويكنى حضور اثني عشر أو ستة عشر عضوا لتكون المداولة صحيحة .

وكان الى جانب القنصل أيضا محكمة تجارية يتجدها أعضاؤها كل أربعة شهور . وتمتد سلطة القنصل ومجلسه لتشمل كل المواطنين الجنوبيين المقيمين في فارس بصفة مؤقتة أو دائمة ، ذلك لأن طورس (تبريز) لم تكن المدينة الوحيدة التي تجلبهم اليها ، فقد كانت هناك جالية من التجار في مسطالية ، ومن غيرها تزورها قوامهم على الأقل ، وكانت هذه القوافل على ما يبدو في حركة دائمة بين طبريز وطورس (تبريز) ، وبالعكس . ولما كان من المحتمل أن يستف من القوافل الدواب التجار ، فقد كانت السلطات الجنوبية الاستعمارية في طبريز وطورس

Continued, reg., III, p 81, no 495; p, 86, no, 522; p 111, (٥٧٦)
no 719.

(تبرير) بعض الأشخاص الذين يعرفون البلد معرفة تامة باستنجاز جواب النقل وتوزيعها على القوافل .

ومن جهة أخرى ، تدل الترسيم الجديدة من حكومة جمهورية جدوا على اهتمام دائم بالمصايد عن هيئة النولة في غارس ومع وقوع أية مداخلات ، ومن ثم حظرت قبول أي ألباس (باستثناء السادة واليومانيين ، والمقصود بالألباس هم أحالي طبربرون) في القوافل أو البيوت الجنوبية . كما صدرت لائحة تنص على أنه بالنسبة إلى ما يشتريه كل جنوي في غارس ، لا يجوز أن تزيد مدة الاستحقاق على أربعة شهور ، كما لا يجوز السماح بهذه المدة إلا بتصريح من القنصل والمجلس البلديين يتعين عليهما أن يستوفيا من يسار المشتري قبل أن يرالفا على طلب الميزة (٥٧٧) .

ورغم الاحتياطات التي اتخذت لتفادي أية تمقيدات ، فقد كان من الصعير ، دون التعرض لأية صدمات اجتياز الماصفة التي حبت في أعقاب وفاة أبو سعيد وانتهت بتفكك اميراطورية البانات . وكان إقليم اذربيجان ، وعاصمته طورس (تبريز) من نصيب الأمير الجواني « حسن الصغير » وخلفه أخوه اشرف ، وهو طاغية لا دين له ولا خلق . ويحدث المؤرخ الجنوي ستيللا Stella عن هذا الماهل (الذي فرضي سلطانه في عام ١٣٤٤ على طورس والاقليم المجاور (٥٧٨) ، فيسجل له - دون أن يذكر اسمه أنه أوفد في هذا العام سفيرا حمله خطبا موجها الى النوح ، وكومون جنوا ، يؤكد دليته في أن يعيش في سلام مع الجنوين ، ويتعهد بأن يعيد اليهم كل ما كان قد سلب منهم . ويشيف المؤرخ أن الجنوين صدقوا هذه الوعود ، ضمتهم - ولكن الأمير أعد كميناً للتجار الذين وثقوا بكلامه فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، واستولى على بضائع قيمتها ٢٠٠ ٠٠٠ بالعملة الجنوبية libree grossorum

هذه الوثيقة لا يمكن أن تنسب لغير اشرف ، فهو الذي كان يحكم طورس (تبريز) في التاريخ الذي ذكره ستيللا ، وكان مكروها من رعيته لطبيعتها القاسية الحبيثة (٥٧٩) . وكان لزاما على الجنوين ألا يعرضوا أنفسهم لمخاضات من هذا النوع .

ولما كانت طورس (تبريز) في تلك الآونة قد حوصرت وحسنت

Ordinatio Tourixli dans l'Off. Gaz., p. 344-345, et les deux paragraphes précédents, p. 347 et s. (٥٧٧)

Giustiniani (Annali di Genova, fol. 121). (٥٧٨)

Voyez la relation de Stella, p. 1081, et le portrait d'Echred dans Hammer, Gesch. de Reims, II, 337 et ss. (٥٧٩)

عدة مرات ، فانهم قرروا أن يبعثوا خارج هذه المدينة عن موقع حصير
 نوع ما يبيى لهم ملجأ يأوى لشخصهم وبضائهم في حالة الخطر .
 يحكى كلانجيو Clavijo أن احتياضهم وقع على مرتفع كائن على قمة
 ومنح من طورس ، وأنهم اعتمدوا تشييد قلعة فوق هذا المرتفع ، واشتروا
 القمل هذه الأرض من أمير البلد ، واسمه سلطان غايس Soltan Gays
 . لكن هذا الأمير رفض طلبهم بدهوى أنه لا ينبغي لتجار أن يقيموا قلعة .
 يمكن بسهولة أن نتعرف في هذا الاسم على السلطان أوفيس Ovis
 الذي سبق الحديث عنه . وبعد وفاته بقليل اكتسحت عشائر تيمور لك
 فاروس ، وتحت موجاتهم الطامية اختفى لزم طويل كل الر للمستوطنة
 التجارية الجنوبية ، والغربية بوجه عام .

يتبين لنا من ذلك ، في كل ما يختص بعلاقات الأمم التجارية الغربية
 بفاروس في هذه الحقبة أن ما تعلمه عنها قليل جدا . وبقدر علما ، لم
 يبق من هذا العصر سوى امتياريين ، بحيث أن قدرا كبيرا من الاسئلة
 الهامة ، وبخاصة ما يتصل منها بوضع التجار الأوروبيين في امبراطورية
 التتار بقيت حتما دون حل . هناك مع ذلك نقطة يزودنا بشأنها بيجولوتي
 بكل الايضاحات المرغوبة : تلك هي الرسوم الجمركية ، أو « التلفة »
 Tamgha (Tamogha) باللغة التركية التتارية (٥٨٠) ؛ وهذه
 ما يقره (٥٨١) : « بالنسبة الى الأشياء البسيطة أو المشتراة بوزن البلد
 (peso de Toriel) تدفع خمسة دنانير بيزنطية (الدينار البيزنطي =
 ٦ أسبر aspres) مع خصم نصف أسبر من كل كنطار . وفيما يخص
 بالخوج والنسيج الكتاني والفراء والفضة والتصدير ، وبماعة الأشياء
 التي تباع بكميات قليلة ، وبالقياص تدفع أربعة دنانير بيزنطية الا ثلث
 دينار من كل كنطار . أما التلفة والآل فانها مغلقة بالكامل من رسوم
 الدخول والخروج .

ولا بد أن خلف هذه الرسوم ، وبخاصة إذا فودت بما كان يحصل
 منها في مصر ، والهمة التي تبدلها الحكومة في المحافظة على الأمن غير
 الطرق ، طالما كانت أسرة هولكو تتربع على العرش (٥٨٢) ، وأخيرا حرية

(٥٨٠) «Tamonga» Pagol., II, XX, «tamogha», p. 2, «Camuoc»,
 p. 3 et ٧.

(٥٨١) P. 8, 8.

(٥٨٢) حازكو بول ، ص ٦٩ ، يذكر بالفضاء التي تقدمها الحكومة للقبولة
 للتجارة ، باعتمادها بالفضاء على رسوم الطرقات ، حتى لا يعاني المسافرين من أمثالهم
 الاجرامية ، ومع ذلك لم ينصح التجار أن يزودوا بالأسلحة ليدخلوا بها عن أنفسهم هذه
 قطاع الطرق .

المسقل التي كان يجتمع بها التجار الأجانب في جميع أنحاء الامبراطورية كل ذلك لابد أن يكون له تأثير حسن على الفريسيين ، ويحث عددا كبيرا منهم على الذهاب إلى فارس طلبا للثروة ، وثمة بعض الفارسيين الفريسيين اعتبروا هذا البلد قاعدة للأعمال ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة .

وعلى أية حال لم يتوقف المبشرون في ذلك العصر عند فارس ، فقد مضى الكثير منهم إلى الهند والصين ، يذكر منهم يوحنا دي «ونتكورفينو» Jean de Montecorvino في عام ١٢٩١ ، وأودريكو دا بورديسوني Oderico da Pordenone في عام ١٣٢٠ ، وكان الطريق حرا تماما . وفي حينه كان السلافيين تدفعهم روح الارتباب إلى عدم السماح لأي أوروبي باستيلاء إقليمهم للذهاب إلى الهند ، فإن ملوك التتار في فارس لم يقيموا أية عراقيل أمام التجار الفريسيين الذين يريدون أن يمشوا من بلادهم لزيارة شبه الجزيرة (الهندية) (٥٨٣) .

وكانت طوس (تبريز) متصلة بساحل الخليج الفارسي بطريق للتواصل يمر بكاشان Kachan ويزد Yezd وكرمان Kerman وفي عصر ماركوبولو (٥٨٤) ، كان الجزء من هذا الطريق بين كرمين والساحل يربطه الموصى قطاع الطرق . وقد وقع هو نفسه عند عودته من رحلة في أيدي إحدى هذه العصابات ، ولم يخلص منها إلا بالعراة السريع المفاجيء ، والاحتيا في قلعة مجاورة ، ولم ينج في الطريق سوى سبعة من رجاله (٥٨٥) . ومع ذلك تحسنت هذه الحال ، غالبا في مستهل القرن الرابع عشر عندما حل محل الأمراء المحليين حكام من المغول (٥٨٦) . وبعض النظر عن الانقطاع التي يتعرض لها المسافرين كان هذا الجزء من الطريق شديد الوعورة ، إذ يجتاز إقليم كرمين الجبل القاحل مصدرا لمتاعب شديدة لا نظير لها . ومن ثم يشعرون حقا بالراحة والنبطة عندما يصلون في النهاية إلى السهل ، ويلجأون على بعد الخليج الفارسي وأرمز Ormuz . (هرمز) أكبر سوق في تلك المنطقة .

وفي العصر الذي وصلنا إليه الآن ، لم يكن ينوع من الاستئذنة أن تصادف اسم مرفأ سيرااف Siraaf . ولعل أبو الفدا هو الكاتب الوحيد الذي لم يزل (في القرن الرابع عشر) يتحدث عن سكان هذا البلد

Sanut, *Seor, fidel. cruc.*, p. 22.

(٥٨٢)

M. Polo, p. 72 et ss.; Oderico da Pordenone, p. 121.

(٥٨٤)

M. Polo, p. 82 et s.; cf. p. 83.

(٥٨٥)

Hammer, *Geach der Bohane*, II, 49.

(٥٨٦)

الكثيرى العدد ، وثوراتهم ، والحركة الشبيطة التى تم ميناءها بدسول
السفن إليها وحروبها منها ، والأوضح أنه فى هذه الفترة ينقل ما كتبه
مؤلف آخر (٥٨٧) . ومن قبل كانت جزيرة كيش (Kish)
التي ورثت أهمية سوق سيرات العظيمة . قد بدأت تزدري أمام سافس
أكثر ازدهاراً ! فى تلك الآونة مسطع اسم هرمز بـريق طمس كل
الأمور ، واحتفظ بهذا الـريق حتى أواخر العصور الوسطى ، وفي بداية
العصر الحديث ، تظهر هرمز ثانية أعظم من ذى قبل تحت سيادة
البرتغاليين .

ولم يكن اسم هرمز فى كل الأوقات هو اسم الجزيرة التى تعرف
به فى الوقت الحاضر . ففى مستهل العصور الوسطى كانت تسمى أيرون
Jéroun . ولكن على الساحل المجاور ، وعلى بعد بضعة فراسخ (٥٨٨) ،
قامت مدينة باسم هرمز Ormuz ، ما زلنا نرى أطلالها على بعد ستة
أو سبعة أميال الجبلية إلى الجنوب الغربى من حصن ميناب
Minab (٥٨٩) وكانت هرمز القديمة متصلة بالخليج الفارسي بقناة
بحرية لم تزل إلى الآن صالحة للملاحة فى قسم منها . ولكنها كانت
وقتها صالحة لمرور السفن المختلفة الحمولة ، ومن ثم يمكن اعتبارها ميناء
بحرياً . وفى القرن العاشر كانت تضم عدداً قليلاً من السكان ، ويقوم
تجارها متفرقين فى صواحبيها ، ومع ذلك كانت أسواقها فى ذلك الحين
موضع لمخارها ، ومصدر ثروات كبيرة (٥٩٠) .

وفى زمن الأديبى تحدث هذا الرسالة عنها فقال أنها مدينة كبيرة
وجميلة . وكانت مستودعاً لمنتجات كرمان ، نذكر فى مقدمتها السكر
وتعوداً ممتازاً من البيلة (٥٩١) . ومن دلائل الخير والفاة الحسن أن تانى
سفن من الهند تزل إليها السلع المرسلة إلى كرمان وسجستان

Aboul., Géograph., II, 2, p. 86.

(٥٨٧)

Tho-Balout, II, 230.

(٥٨٨)

وقد ابن بطرقة هذه المسافة بثلاثة فراسخ . ويؤيد الكولونيل بيل قديره هذا

Pelly (٥٨٩) انظر تالومات التى رده السيد بيل بهذا الكولونيل بيل

وهرز الجبىرى مليم برشبر Bushire (ماركو بولو ، الجزء الأول ، ١٠٥) .

(٥٩٠) الاستطرى ص ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ . ويذكر كوداما Kodama فى معلوماته

الإحصائية (الجزء عام ١٤٨) أرموز (هرمز) على أنها ميناء كرمان ، انظر

— Journ. asiat., 2e série, XX, p. 168; de même Aboulféda (trad.
Reinold, II, 24).

(٥٩١) الأديبى ، الجزء الأول ، ٤٢٤ .

وخراسان (٥٩٢) . وكانت كيش (قيس) تطمح في الاستعلاء باستكراها التجارة مع الهند ، ولم تستطع أن تشهد دون قلق هرمز وهي تحول لمصالحها جزءا من منتجات هذا البلد ، وكان ذلك يثير المنازعات حتما ، فكان كل من الأميرين اللذين يتبعهما السوفان يريد احباط قبضة السفن التجارية على التردد على مينائه وحده دون الميساء الآخر ، فكان بموجب الحرب بينهما أمرا طبيعياً (٥٩٣) .

ويبدو أن هرمز خرجت من الصراع منتصرة ، ذلك لأن ماركوبولو الذي زارها في عام ١٢٩٢ وصفها بأنها مكان تجاري هام للغاية (٥٩٤) . وكان التجار الهنود يحضرون إليها في سفنهم توايل ، وأحياناً كريمة ، والقشة ثينة ، وبروكار (ديباج) من ذهب ، وعاجها ، وسلعاً أخرى ترسل من هناك إلى كل الجهات . وكان تجار هرمز يصدرون بدورهم إلى الهند على سفنهم سلماً مخجلة ، وخاصة الخيول (٥٩٥) . وكانت سلطة أمراء هرمز تمتد إلى بضعة مواقع على الساحل الشرقي لبلاد العرب ، منها خلاط Khalat وموقع آخر حصين لم يذكر له ماركوبولو اسماً ، ولعله مسقط Mascot ، وكانت هذه الممتلكات تتيح لهم فرصاً لتوثيق علاقاتهم بالهند . وكانت خلاط تستقبل منتجات واردة من الهند ، وتصدر إليها في مقابلها خيولاً عربية (٥٩٦) .

ورغم هذه المخالفة استمرت كيش طوال القرن الثالث عشر (٥٩٧) تساهم بتسويق كبير في تجارة الهند . وأصاب كيش المصير الذي أصاب

(٥٩٢) يقول ، ص ٢٩٥ .

(٥٩٢) ابن الأثير : cité par Ibn-Alathir (éd. Tornberg, XII, 138, 139), M. Dehri mery dans ses notes sur le Gullistan de Sedi, p. 178.

— وقد توفي ابن الأثير في عام ١٢٢٣ قبل أن يشهد لوفك الحروب .

(٥٩٤) خمس الدين (ص ١٢٩) يقول على الأقل أن التجار يلبثون ويلقون مراسيم في ميناءه

(٥٩٥) M. Polo, p. 88-89, 714 et 87 p. 88, 614, 641 et 8.

حي. يذكر ماركوبولو (هرمز) فهو يحدد دون شك المدينة التالية عن اليابسة .

(٥٩٦) M. Polo, p. 713; Ibn-Batouta (II, 325) sur Kalbat; les citations d'Ibn-Alathir par M. Dehri mery, dans sa traduction du Gullistan de Sedi, p. 74, not.

(٥٩٧) Banuto, Secr. Edel, cruc., p. 22 .

— يذكر مسافرو أيضاً كيش Kish إلى جانب مدينة هرموز ، على أنها مستودع ثمر بل الهند .

*
الكثير من جرد الخليج الفارسي وحزما من سواحل بلاد العرب التي
شكل القسم الجنوبي من الخليج ، صراجا (١٢٢٩ - ١٢٣٠) أبو بكر
بن سعد ، وهو أمير من السلالة المرتبطتين بانقادات المغول في فارس
بوشاج من تبعية تكاد تكون اسمية ، وحكم إقليم فارس فارس كما حكمها
أسلافه ينقبط أتابك Atabek (١٢٣٦ - ١٣٦٠) (٥٩٨) - وبعد وفاته
ووفاته أبنائه الذين عاشوا بعده قليلا ، عدد إقليم فارس والجزر والساحل
العربي الى حانات المغول الذين تولوا إدارته من ذلك الحين عن طريق
سكاهم ومتنزيين صوميين *farmiers généraux* ، منهم جمال الدين ،
من شيراز ، الذي نسب دورا بالغ الأهمية من ١٢٩٦ الى ١٣٠٦ . وعصر الى
رتبته الروحية « ككتيغ للاسلام » رتبة « ملك الاسلام » وللقائم فارس
والعراق (٥٩٩) . ولما كان أبو بكر وبمنه جمال الدين يملكان جيش ،
فانهما كانا بالضرورة على صلة بالهند ، ووثقا علاقات ببعض أمراء
هذا البلد .

ولم تكن الحيلول تربي في غرب الهند . فكانت تستورد من أنحاء
شتى ، من الصين ، والهند الصينية (٦٠٠) ، ومجاورات ألوف (٦٠١) ،
وبلاذ الترك (٦٠٢) ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان (٦٠٣) ، وبخاصة
سواحل وجزر الخليج الفارسي ، والبحرين ، وكيش ، وهرمز . وكان
التجار الفرس والعرب يصدرولها بأعداد هائلة ، ويحصلون على أرباح
بالحاجات اليها ، ذلك أن أجود الحيلول لا تثبت أن تموت هناك ، أما لعدم
ضخمة (٦٠٤) . وكان في المستطاع تصدير أية أعداد منها دون الرداء
تحليلها للتناخ ، أو لسوء معاملتها (٦٠٥) . ويحكى وصاف *Wassaf*
وهو كزائب غزير المعلومات أنه في عصر أبو بكر ، كان يصدر من الجزر

Hammer, *Geoch. der Ilchane*, I, 237 et ss. (٥٩٨)

Hammer, *Op. cit.*, I, 240-244; II, 38, 80 et s., 83 et ss., 102, 107 et ss. (٥٩٩)

M. Polo, p. 292, 422. (٦٠٠)

Ibn-Batouta, II, 271-274. (٦٠١)

Chehabeddin, p. 178. (٦٠٢)

Ibn-Batouta, III, 274; Chehabeddin, l.c., M. Polo, p. 704. (٦٠٣)
711, 718.

Chehabeddin, p. 178, 184; 84; M. Polo, p. 67-69, 88-814 et s., 841 (٦٠٤)

M. Polo, p. 614 et s.; Wassaf, dans Elliot, *History of India*, III, 34. (٦٠٥)

والسواحل التابعة لولاياته إلى مايار *Maabar* (على ساحل كرمانيلا *Cormandel*) وكامبين *Cambaye* وجهات أخرى في الهند مشرفة على بحار الهند الشرقية. وفيما بعد عقد جمال الدين، الملتزم بالصوم لمارس *Par*، وسوندرا باندي *Soundara-Pandi* أقوى ملك لالليم مايار (١٠٧) معاهدة التزم بها الأميران، الأول منهما أن يورد سنوياً ١٤٠٠ حصان من كيش، و ١٠٠٠٠ حصان من الجزر الأخرى التابعة للفرس، وتعهد الثاني بأن يأخذ هذه الخيول بسعر الواحد ٢٤ ديناراً ذهبياً، وأن يطلع ثمن كل دابة تموت في أثناء الرحلة (١٠٨).

واستلزمته هذه التجارة حركة ملاحية دائية صوب الهند، ولا بد أن السفن التي تنقل الخيول لا تعود من رحلتها فارغة، فالليم مايار الذي يوجه إليه أكبر قدر من الواردات كان يقدم منتجات متنوعة، ويتلقى كميات ضخمة من ثمن السلع وأندرها من الصين والهند الصينية (١٠٩). لم لا يشتري تجار الخيول بكاسيهم في أسواق مايار توابل، وأحجارا كريمة، ولآله يشحنون بها سفنهم عند عودتهم؟ يقول وصف أن كل ثروات جزر الخليج الفارسي وجزءا كبيرا من السلع الكمالية في بلاد أخرى، من العراق وخراسان إلى آسيا الصغرى وأوروبا كانت ترد من مايار (١١٠)، ولذا دفعنا للوصول إلى تتبع تيار المضائق المصدرة من كيش إلى الغرب، فإن النصوص تدلنا على هذا التيار وهو يصعد جريئاً الخليج الفارسي ونهر الدجلة إلى بغداد، ويجتاز من جهة أخرى فارس لينتهي إلى طوروس (١١١).

ولكن يجب ألا نغفل عن الخليج الفارسي، فمن المهم دراسة تطور سوق من أسواق الرئيسية، ليعد انقضاء بضعة سنوات على مرور ماركو بالو، غزا هرمز جيش المنو، وأدرك الملك وغالبية السكان

Wassaf, Op. cit., M. Hammer (Gesch der Uighen, I, 240), (١٠٦)

C'est le Sonder Bandi Dwar de M. Polo (p. 602); Yule, (١٠٧)
M. Polo II, 269 et sq.).

Rachid-eddin et Wassaf, dans Elliot, Hist. of India, I, 66, III, (١٠٨)
23 et s. M. Polo, p. 614; Aboulféda (Géogr., II, 3, p. 116); M. Yule (M.
Polo, II, 273).

Rachid-eddin, dans Elliot, I, 66; Wassaf, Ibid., III, 23. (١٠٩)

Elliot, l.c., III, 32, 33. (١١٠)

M. Polo, p. 47; Sanuto, Secr. fidel. oruc. p. 22 et s. (١١١)

استعجالة المقاومة لتفوق العدو بعدد أفرادهم ، فعزوا في عدد من السفن ،
والتمسوا ملجأ مؤقتا لهم في جزيرة كشم Kichm - وبعد قليل ، قر
عزم الملك على اتخاذ جزيرة إيرون Euron (هندرابي الحالية -
المراجع) السفينة مقاما له ولشعبه ، وهي الجزيرة المجاورة لجزيرة كشم .
أما هرمز القديمة فقد هجرت وتركت حبيروها التمس . ومنذ تلك الأونة
لم يمه يسكن في أطرافها سوى بعض الأعراف القفر المسمى . يقول
توران شاه Touran-Châh الذي صار فيما بعد أمير هرمز (١٣٤٧ -
١٣٧٨) وكتب تاريخ أسلافه بلغة فارسية أن الأمير الذي هجر في هذه
هذه الأحداث يدعى من بهاء الدين أجاس سبكين Mîr-Beha-oddin
Ajas-Seïfin . ويذكر عام ٧٠٠ هـ تاريخا لهجرة السكان ، أي عام
١٣٠٠ - ١٣٠١ م . ويقسم بيدرو نيكسيرا Pedro Teixeira
سوجرا لمؤلف توران شاه ، وذلك في كتابه (١٦٢) :
Breve relacion del principio del regno Harmuz y de sus Reyes

ويذكر هذه المعلومة ولكن يفي من الخطأ ، إذ يقرض أن عام ٧٠٠ هـ
يقابل عام ١٣٠٢ م (١٦٣) . ولما كتب لاحقون ، لذكر منهم أحمد غفاري
Ahmed Ghaffari (توفي عام ١٥٦٧) ومحمد محبي Mohammed
Medjdi (١٥٩٣) نسبوا إلى الملك أسماء أخرى ، وذكروا
تواريخ مختلفة . وفي رأيهم أنه ينبغي إرجاع هجرة سكان هرمز في
الجزيرة إلى عام ١٣١٠ أو ١٣١٥ (١٦٤) . غير أن توران شاه عاش في
عصر أقرب كثيرا إلى الأحداث ، ويجب اعتبار معلوماته أصح بكثير من
معلوماتهم . والأمير على خلاف ذلك بالنسبة إلى حمد الله المستوفي
Hamdallah Mostofi من قزوین (توفي عام ١٣٤٩) الذي عاش في
عهد أقرب إلى الأحداث من عهد توران شاه - وهو كمؤرخ جدير بالثقة :
فهو يقول ، كما أورد عنه السيد أوسلي M. Ouseley (١٦٥) أن تميمين
هرمز الجديدة تم في عهد معاصره الأمير قطب الدين Koutb-oddin
ولسود الخط يستحيل التأكد من صحة ما دونه السيد أوسلي قبل جمع
كتابات حمد الله وطبعا .

Dans son ouvrage intitulé , Relaciones del origen, descendencia y succion de los Reyes de Persia y de Harmuz, Ambares, 1836. (١٦٢)

Ibid, p. 10. (١٦٣)

Ouseley, Travels in various countries of The East, more particularly in Persia, I, 187, 178. (١٦٤)

Ibid, p. 187. (١٦٥)

ولكن حتى يرضى أن هذا المؤرخ قد دون بالفعل المعلومات التي أنشأت عنه ، فيمكن بيعب لاعتسا أن نضك في ذلك ، فافتد ترى لرابا عنيما أن صططه في هذه النقطة • فتوران شاء لايء كان يعرف الدنيا الصحيح عن تاريخ قطب الدين ، سلعه وأبيه ، ومن لم يعرف ما اذا كانت هجرة سكان هرمز قد حدثت فعلا في عهد هذا الأمير أو قريبا بعد ، فهو يضع هذا الحدث قبل تولي قطب الدين الحكم بتسعة عشر عاما ، ويكتفي في روايته عن عهد هذا الأمير بالقول بأنه حجج في الدفاع عن الجزيرة ضد الغارات الآتية من الخارج ، وشن غزوات مختلفة سوف يتكلم عنها فيما بعد • ولا شك أن وطنيا ، وبخاصة اذا كان في مركز عال يمكنه أن يعرف في هذا العدد أكثر مما يعرفه أجنبي ، حتى ولو عاش الأجنبي قبله •

وهناك حجة أخرى ، أقل اقناعا في الواقع ، توجيه ضد الدين يريدون جعل الهجرة في عهد قطب الدين : ذلك أن أبو الفدا في « جغرافيته » التي فرغ من كتابتها في شهر سبتمبر عام ١٣٢١ يتحدث - بناء على أقوال شاعره عيان - عن تدمير هرمز القديمة وبناء المدينة الجديدة التي تحمل الاسم نفسه (١١٦) • خلا انه في الإمكان التوفيق بين الأمرين بوضع الحدث للمبار اليه في السنوات الأولى من حكم قطب الدين الذي تولي الحكم في عام ١٣١٩ • ولكن لابد عتداف من تسمية رواية « وصاف » لهذه الهجرة في الكتاب الثالث من تاريخه عن فارس ، فهذه الرواية تتصل على المسألة فصلا قاطعا مؤيدا لما أكده توران شاء • وقد أنجز وصاف كتابه في عام ١٣١١ ، وكان قد أعدى كتيبه الثلاثة الأولى الثمانية ال غزان خان إلى عام ١٣٠٣ (١١٧) ، ومن ثم قبل ارتقاء قطب الدين عرش هرمز بزمان طويل •

ولسوء الحظ فإن الجزء الذي كانت فيه الوقائع التي نناقشها هو بالذات الذي لم يترجم ، وبعض ما القيسية السيد هاسمر M. Haspner (١١٨) من تاريخ هرمز مشوش (١١٩) ، والبعض الآخر يخص وقائع سابقة على الهجرة أكثر مما يخص الهجرة نفسها • ينبغي لنا إذن أن نكتفي بالقول بأن وصاف ، شأنه شأن توران شاء يجعل تدمير هرمز القديمة في حوال عام ١٣٠٠ ، فالوقائع المحددة زمانها على هذا الوجه تتوافق تماما مع تاريخ جنوب فارس في ذلك العصر • وفي ذلك

Géogr., II, 3, p. 104.

(١١٦)

Haspner, Gesch. des Schahne, II, 122 et s., 181 et s., 248.

(١١٧)

Ibid, II, 50 et s.

(١١٨)

M. Yule (M. Polo, I, 113 et s.)

(١١٩)

الأوان اكتسبح البله كله حتى « الساحل » « الساخن » (Gernier) ودمره حشود الأمير كوتلوج شياه Kotlogh-Club صليل جاجاتيه Djagatai سيد الأقاليم الواقعة حبوب شرقي حانات ما وراء النهر Trausoxiane (١٢٠) .

حفا ، ان الجيش الذي دمر هرمز القديمة ، على قول توران شياه يتكون من أتراك قادمين من تركستان (١٢١) . كما يسميه أهله بينها أطلقنا عليه دواما اسم « ما وراء النهر » (١٢٢) . وكان كوتلوج شياه من سلالة چنكرخان . ولذكر أيضا أنه تبعه لأقوال مؤرخين آخرين ، أنار على سكان هرمز مصابات من قطاع الطرق (١٢٣) ، وهذا الأسلوب في مريض الوقائع ينطبق على غزوة كوتلوج شياه ، لأن هذا الأمير كان حليفا للكاراؤنام Karounahs ، وهي قبيلة من قطاع الطرق لغلن شرقي فارس ، وعلى استعداد دائم للظاهرة على الأقاليم المجاورة التي تمتاز بطبيعة أفضل (١٢٤) .

ولم يلبث أمراء قيس أن تبينوا المساورة التي يقوم بها أمراء التوقيق . حفا لم تكن جزيرة أيرون Jéroun سوى صغيرة لاحطة ، ولكنها تتحكم في مدخل الخليج الفارسي ، وفي استقامة من يسيطر عليها فإن يوقف بمرادته كل السفن التي تطول دخول الخليج للوصول إلى قيس . ولم يلبث أمراء قيس أن تبينوا المساورة التي يقوم بها أمراء هرمز اضرارا بهم ، ومن ثم جهزوا عدة حركات لوضع حد لهذه المناغسة الخطيرة . ولكنها كانت تنتهي دائما بالفشل (١٢٥) . ولم يضي زمن طويل حتى استولى قطب الدين ملك هرمز على جزيرة قيس ، والبحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، وجزء من سواحل بلاد العرب المجاورة للبحرين . ولم يحد توران شياه ، أو على الأقل تيكسيرا Teixira الذي لحق أعماله ، تاريخ هذا الحدث بعيدا قاطعا . ولكن يمكن ، تبعا لروايته التوقف عند حوالي عام ١٣٣٠ (١٢٦) . وعلى أية حال ، ففي عام ١٣٣٢ ، حين زار الرحالة

D'Chase, Hist. des Mongols, IV, 268 et ss.; Hammer, Uchus, II, 98 et ss. (١٢٠)

Teixiera, p. 11. (١٢١)

Vambéry, Gesch. Bochar's oder Transoxanien, p. 155. (١٢٢)

Elliv. de Sacy, Antiquités de la Perse, p. 277; Yaqout, p. 888, not. (١٢٣)

Not. et extr., XIV, 1, p. 282 et ss.; Yule, M. Polo, I, 94. (١٢٤)

Teixiera, p. 30 et ss. (١٢٥)

Ibid., p. 22-23. (١٢٦)

ابن بطوطة قطب الدين ، كان هذا الأمير ، الذي لم يكن يسيطر فيما مضى
الا على جزيرة هرمز ، وجزء من سواحل عمان ، كان وقتئذ قد وضع
ممتلكاته القديمة ، وأصبح يتمتع بفتوحاته الجديدة (٦٢٧) *

ومن تلك الآونة لم يعد لهرمز الجديدة منافس في الخليج الفارسي .
ورغم الاضطرابات الداخلية ، والمنازعات في سبيل العرش ، مما يزعج
تاريخها ، فإن رعاياها كان يتبع دون انقطاع مسيرة تقدمية . وسجن دارها
ابن بطوطة وجد بها مدينة كبيرة وجميلة وأسواقا مكتظة بالبضائع ،
وسلما آتية من كل أنحاء الهند فترسو عندها . وكانت السفنات التي
تنزل فيها يعاد تصديرها الى فارس ، وخراسان ، والعراق ، أي العراق
الجبلي ، وهو الإقليم الأوسط بفارس مع مدن اصلهان ، وحسدان ،
وسلطانية ، والعراق العربي ، أي ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين)
وعاصمته بغداد (٦٢٨) . ويتحدث الفريسيان اودريكو دا بوردينو
أيضا عن كميات البضائع ، والعدد الكبير من التجار الذين يتوافدون على
البصرة من كل أرجاء العالم ، ومن هؤلاء التجار اوروبيون (٦٣٦) *

وكانت هرمز بالنسبة الى الذين يسافرون الى الهند أو الصين (٦٣٢) ،
مرحلة من المراحل الرئيسية . نذكر من هؤلاء المسافرين بغروس دى
لوكالونجو Petrus de Lucalongo رفيق السفر للمبشر المشهور جان
دى مونت كورفينو Jean de Monte Corvino الذي صار فيما بعد أسقف
بكين ، كان التجميع - القادمون من بغداد أو طورس (تبريز) - يمرّون
بالجزيرة الواقعة عند مخرج الخليج الفارسي ، فكانت بالنسبة اليهم الممر

(٦٢٧) Ibn-Batuta, II, 194, 226 E.D. 283, 282 et 8; Hamdallah Meustofi, dans Hammer, Ichane, II, 321,

II, 250 et 2, (٦٢٨)

Yule, Cathay, II, append., I, p. IV. (٦٢٩)

Ed. Dehner, p. 113. (٦٣٠)

Maunderville, p. 136. يذكر موندليل بغاية البساطة والجورج . (٦٣١)

(٦٣٢) يقول موندليل ، في ٣٢٨ ان التجار الذين يذهبون من فارس الى الصين
يمرون منه وحدهم من أورموز البحر ، ويرسون عنه جولباش Golbacho ، ويذهب
انه يذهب بهذا الاسم الى كاهات Kalhat . ومن المحتمل ان سفن أورموز كانت
توسو كثيرا هناك .

للأدنى إلى الهند ، تلك العجائب (٦٣٣) ، كان هناك أيضا في داخل البلاد طرق لنوافل يمر بها حره من التجارة بين فارس والهند .
ويمكن اعتماد كابول ولحزة من أبواب الهند ، مثلها في ذلك مثل هرمز ، غير أنها لا تستطيع ، في العصر الذي ندرسه أن تذكر واحدا لأوروبي اختار هذا الطريق . حقا أن أبو الفدا (٦٣٤) يذكر المدينتين اللتين أشترتا اليهما آغا ، ويتكلم عن أهميتهما لتجارة الهند . ولكنه فيما يختص بكابول على الأخص إنما ينش من مصادر أكثر قسما . أما ابن بطوطة (٦٣٥) ، بمصره ، وهو أصغر منه سنا ، فإنه يذكر أيضا عظمة المدينتين في الماضي ، ولكنه حين زارهما ، لم تكن غزله سوى مدينة نصف خربة ، وكابول قرية صغيرة . ويمكن إذن أن نستخلص من شهادته أن هاتين المدينتين كانتا قد فقدتا في عصره كل أهمية بالنسبة إلى أسواق الشرق .

خاصة - الهند

أول حدث نصادفه في دراسة علاقات الغرب بالهند خلال الفترة التي تشغلنا في هذه النحلة هو بئمة ذات أهمية كبيرة قام بها بعض الجنويين ، وترجع هذه البئمة بالذات إلى النسبة التي أصبحت فيما تجارة العالم كله بسقوط عكا ، ولشملت بحثا عن طرق جديدة لها . ففي عام ١٢٩١ جهز ثلاثة من جنويين ، هم تديسيو دوريا Tedisio Doria (٦٣٦) ، وأوجولينو فيفالدي Ugolino Vivaldi ، وأخ لهذا الأخير ، بالاشتراك مع كثير من مواطنيهم سفيتتين حرييتين كبيرتين ، وبعثوا بها إلى ما وراء مضيق جبل طارق بحثا عن طريق إلى الهند عبر المحيط . ولما كان مؤرخو هذه البئمة كتاب حوليات (مؤرخي وقائع) جنويين ، مدعيني البئمة فبليبا ، مثل جوستينياني Giustiniani ، وفولييتا Foglietta ، فقد رفض البعض الوثوق بأخبارهم . إلا أن السيدير كانالي Canali وبرنر لم يرضيا ببطء الحوليات الجنوبية القديمة التي نشرها موراتوري

La Carte catalane p. 138.

(٦٣٣)

Geogr., II, 2, p. 203 et s.

(٦٣٤)

III, 88, 89.

(٦٣٥)

(٦٣٦) لم يكن دوريا من أعضاء الحملة ، ولم يستطع جوستينياني وفولييتا أن يؤكدوا

الاشتراك إلا بتفسير خاطئ، نفس الـ *Ann. Geo.*

Muratori : إذ تبين لها فيها الكثير من الثغرات ، ومن ثم عكفا على دراسة متعمقة لأفضل المخطوطات وأكملها ، فكتشفوا عن شهادة معاصرة ، وصاندة بلا ريب تؤيد واقع هذه الرحلة الاستكشافية (٦٣٧) . وليس هناك أي احتمال للظن في صحة هذه الوثيقة ، خاصة وأن جاكوبو دوريا Jacopo Doria كاتب الخبر من أقرباء تدهيسيو دوريا أحد الشركاء المهتمين بالمشروع .

يقول جاكوبو دوريا بصراحة أن البينة لم تكن غايتها التوسع في المعلومات الجغرافية في ذلك العصر بقدر ما كانت تثقيفا معرفة لمكانية احتيسار منتجات الهند بطريق البحر ، ودون أن تنقل من سفينة إلى أخرى (٦٣٨) . وقد عثقت هذه المحاولة ، ولم ير أحد بعد ذلك المستكشفين الجسورين ، ففي وطنهم ، في الفترة التي كتب فيها جاكوبو دوريا قصته (١٢٩٤) ، لم يعرف أحد خط سيرهم فيها بعد جوزورا Gozora ، أي المنطقة الصحراوية الواقعة في المغرب جلوبي جبال أطلس بالقرب من راس نون Noun ، والمعروفة أيضا بأسماء Gazula, Gocula, Gasula, etc. (٦٣٩) ، ومن هناك ضاع كل أثر لهم . وبعد انقضاء حوالي نصف قرن ، علم في أسبانيا أن إحدى السفينتين قد فترقت بالقرب من مدينة اسوان Amersounn ، بينما واصلت الثانية مسيرتها في اتجاه غير معروف .

أما الذين كانوا في السفينة الفارقة ، واستطاعوا الوصول إلى الشاطئ ، فيقال أن الوطنيين هناك أسروهم ، وأخلوهم إلى داخل البلد . ولما فشلت محاولة احتشرت في وقت مبكر وبلدت جبرا ، تلوه أن أحد أبناء أوجولينو فيفالدي ، اسمه سورليوني Sorleoni نظم بعثة يضي بها للبحث عن أبيه . وإذا رأى أنه من الأسير له أن يجد أباه إذا بدأ رحلته من الساحل الشرقي لأفريقيا بدلا من الساحل الغربي ، فإنه ذهب إلى مديسيو Magadoxo ، وهناك منع من مواصلة رحلته بدعوى أنه يعرض لأخطار جسام (٦٤٠) . ولما جنوى آخر ، يلحق الطوليبوتو

Annal. Jao. dans Persa, SS., XVIII 325; Bolgrano, armal (٦٣٧)
Genovesi di Caffaro, dans l'Archiv stor., 3^e série, II, 324 et ss.

Annal. Jao. l.o. (٦٣٨)

Cartes : celle des frères Pisigani, la carte catalane, et celle (٦٣٩)
de Bartol. Pareto (d'après les Mémor della Soc. geogr. Ital I, 97)

(٦٤٠) روى قصة هاني المشتري رابع فرانسيسكاني في السبيلية . مؤلف كتاب :
Libro del conocimiento de todos los reynos, etc. (p. 83, 87 et s.) :
Bolgrano, Nota sulla spedizione del fratelli Vivaldi : Atti della Soc. Lig.
XV 325; Devic, Le pays des Zends (1883), p. 60 et ss.

أوروديماري Antoniotto Usodimare كان أسعد حقا من فينالدي الصغير ، قام برحلة في الشمال في عام ١٤٥٥ ليحضر مها عاجيا فأتبع أثر السدويل الأخير الوحيد لركاب السفينة التي غرقت في عام ١٢٩١ (٦٤١) ، ودونت قصة ثوبا لشهادة أوروديماري ، ولكنها تكشف بادية ذي بدء على خطأ فيها ، ذلك أن الإليني الذين يحمل اسم فينالدي ، وهما أوغوليوس Ugolios وفاديوس Vadinos ، أستخدمتا القصة فاديوس وجويوس Gudas ، وهما يكن الأمر اليكم قصة البعثة كما دوت ، في بحر غينيا ، حدثت إحدى السفينتين على وصيف روى أما الأخرى فواصلت الرحلة وحدها حتى مدينة في ألبوبيا اسمها ميتا Meda وهي واقعة بالقرب من مصب نهر جيحون Gibon : على أن السكان لم يحسنوا استقبال هؤلاء الأجانب ، بل قبضوا عليهم ، ورفضوا رفضا باتا إخلاء سبيلهم (٦٤٢) . ولما كان مؤلف هذه الرواية قد كتبها بعد انقضاء مائة وخمسين عاما على بعثة اسوان فينالدي ، فإنه لا مانع من انكسار في صحتها . ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون قد تلقى من لسان حفيد لأحد أعضاء البعثة بقايا قصة أسرية تقليدية ، ومن جهة أخرى فإن روايته هذه تماثل أحد الرهائن الفرنسيين سكان الاسبان الذي عاش بعد هذا الحدث بخمسين عاما على الأكثر . والمدينة التي يسميها هذا الأخير اميتوان Azouan هي بالتأكيد مدينة ميتا التي ذكرها أوروديماري ، ولتبنا للطريق الذي رسمه الفرنسيون ، يتبين أنها واقعة في خليج غينيا ، أما بخصوص بحر الغينية Ghinea الذي فرقته فيه السفينة الأولى ، فلابد أن يكون هذا البحر هو الذي يفسر ساحل سينيجامبي Ségambie (السنغال وغينيا) (٦٤٣) .

ويبدو أن التسعف بالترحال إلى الهند كان وراثيا في أسرة فينالدي ، وأنشئ بهذا الاسم شركة لاستغلال التجارة مع الهند ، وثمة عضوان في الشركة ، بنديتو فينالدي الذي رحل من جنوا في عام ١٣١٥ على سفينة يقودها اجليو دي ماري ، وبيرسيفالي ستانكوني Percivallo Stancono استقر بهما المقام في الهند ، ومات هناك فينالدي في

(٦٤١) انظر خطبة لفرديناند ١٢ ديسمبر ١٤٥٥ في

— l'itinerarium Antonii Usodimari, publ. par Graberg di Henso, dans les Annali di geografia e di statistica, II (Genova 1802), p. 287

M. Codice, dans le Bulletin de la Soc. de géogr., 8^e série, V (١٩٢) (1873), p. 419, not. M. Belgarda, dans les Atti della Soc. lig. XV (1881) III, 320.

M. d'Azouan dans les Nouv. annal. des voy., 1880, III, 279 (١٦٢) et ss.

تاريخ سابق على عام ١٢٦٢ تاركا لورثته دها وبضائع وطلب القائم
بإدارة أمواله من الحكمة أن تستعفى ستانكوتي إلى جنوا ليتولى هناك
إدارة أعمال الشركة (٦٤٤) . ترى أي طريق أتبعه بنديشو فيلاندري ؟
هل حملته سفينة اجنيليو دي ماري إلى الهند بالبحر حول رأس الرجاء
الصالح ؟ كلا بالتأكيد . ذلك أنها أرسلته برا إما عند الجورات أو طريقون ،
ومن هناك اجتاز فارس حتى هرمز حيث ركب البحر ثانية .

ونعرف أن امبراطورية التتار كانت مفتوحة لكل الأوروبيين ، وأن
عددا كبيرا منهم استفادوا من حرية التنقل هذه (٦٤٥) ، في حين أن
العقبات التي كانت تقيدها حكومة مصر في وجه المسافرين كانت تسد
لهم هذا الطريق . فلم يخاف بنديشو بسوكه حفية ، من حين إلى حين إلا عدد
قليل من الأشخاص . ولم يذكر أحد المكان الذي أقام فيه في الهند
فيلاندري وستانكوتي مقر عمليناهم التجارية . وفي هذا العصر لم يكن
الأجانب قد نفدوا إلى داخل البلد ، ومن ثم فانه بافتراض وجود حركة
تجارية ، أو ثبوت قيامها بين الهند والأوروبيين ، فاننا إذا أردنا تعديده
الإماكن التي كانت المبادلات تجري فيها بصورة مباشرة . فإن أبحاثنا
على هذا الصعيد يمكن ، بل ويحب أن تقتصر على سواحل الهند ذاتها .

ولتبسيط الموضوع ، نقسم هذا الامتداد الساحلي إلى ثلاثة أجزاء .
الجزء الأول يمتد من مصاب نهر الاندوس (السند) إلى مدينة جوا
Goa الحالية ، ويمتد الثاني من جوا إلى رأس كمورن Comorin ،
والثالث من رأس كمورن إلى الشمال ضاعدا ساحل كرماندل Coromandel

في المنطقة الأولى لمصادف أولا بند ديبال Dayba
القلدية المشهورة (٦٤٦) مدينة لاهاري Lahary الأحدث ههنا
(وهي حاليًا لاري بندر Larry Bender) ، وهي ميناء كبير ثاني
اليه السفن التجارية من اليمن وفارس (٦٤٧) . وفي شبه جزيرة
جوجارات Goudjerat اجتمعت مدينة سومنات Sonmath وكانت

M. Beignone, dans l'Archiv. stor. ital., 3 série, II, 127, et (٦٤٤)
dans son étude : Della vita privata dei Genovesi (Atti della Soc. Ligure,
IV, 185).

Sanut, Saer, fidel. crde, p. 18; Petr. de Abano, Conciliator (٦٤٥)
differentiarum, l.p., III

Aboulf., Géogr., II, 2, p. 111. (٦٤٦)

Ibn-Batouta III, 112, ; cf. Yule, dans l'Indian Antiquary, III, (٦٤٧)
(1874), p. 118.

لحيما مضى قبلة مدهورة للحجاج - احتفظت بأصالتها التجارية ، رغم زوال
أصالتها التي حرمها المسلمون (٦٤٨) .

إلا أن الحياة التجارية تركزت بنوع خاص في خليج كامبيي
Cambaye ، ولم يكن اسما صوفارا Soufara (سوبارا
Souppara) ، وباروتش Barotch (باريجازا Barygaza)
ينتميان في ذلك الأوان إلى مدينتين خاملتين (٦٤٩) . وفي مواجتهما ،
على شسبه جزيرة كاتيفار Kattyvar (جوجارات Gandharate)
قامت مدينة كوكاه Koukah (حاليا جوجو Ghogho) بأسواقها
الواسعة (٦٥٠) . غير أن سوق كامبيي كانت أكثر الأسواق والمخازن
المتناثرة على شفاف الخليج ، وكان عدد كبير من التجار الآتين إلى الهند
من طريق هرمز يختون عندها رحلتهم لأنهم يجدون بها كل السلع التي
تروى لهم (٦٥١) .

فالواقع ، وبغض النظر عن منتجات النواحي المجاورة ، وفي مقدمتها
التيلة والقطن ، ومنسوجات وجلود مصنوعة في الهند نفسها (٦٥٢) ،
فإن منتجات البلاد البعيدة ، والبلاد المجاورة ترد إليها بكميات هائلة
بفضل نشاط الأهل ، وبجالية كبيرة من التجار الأجانب . وكان المظهر
الخارجي للمدينة يشهد بذلك عن رخائها ، إذ كان التجار الأثرياء
يتنافسون في بناء المساكن العاصرة (٦٥٣) . وإلى الجنوب ، على شاطئ
جزيرة ساليسيت Salsito قبالة القارة الهندية ، هل بعد حواشي
أثنى عشر ميلا الإنجليزية من مدينة بومباي الحالية (٦٥٤) ، تقوم مدينة
طانة Tana (Tanaah) العاصمة القديمة لولاية كوناكان Concan (٦٥٥) .

Aboulf., l.c. p. 110 et s. ; M. Polo, p. 666-668. (٦٤٨)

Quétif et Echard, Script. ord. Praedie., I, 543-544 et s.; Aboulf.,
l.c. p. 119; Indian Antiquary, I, 321. (٦٤٩)

Ibn-Batouta, IV, 69 et s. ; Yule, Cathay, I, 228; Giov. de
Empoli, p. 33, 41. (٦٥٠)

Hayton, dans Grynæus, Novus orbis, p. 404 et s.; Saundia
(Becr. fidel. struc., p. 32). (٦٥١)

M. Polo, p. 666. (٦٥٢)

Ibn-Batouta, IV, 83 et ss. (٦٥٣)

M. Polo, éd. Pauthier, p. 662 et ss. ; Yule, Cathay, I, 27 ; notes
à Jord. Cabal., p. vi et à M. Polo, II, 381. (٦٥٤)

Albârouni, dans Reinaud, Joura asiat., 4^e série, IV, p. 231. (٦٥٥)

وتشعل فيها تجارة استيراد وتصدير كبيرة ، وكانت صواحيها تعرض
 للملحون لمخاطر جمة ، إذ ينير عليها قراصنة يتجشعون حفية بحماية عامل
 البلد : وكان الأمر كذلك على الأقل في عصر ماركو بولو (١٢٦٠) *

وكان لاسم هذه المدينة عند الغربيين ذكرى مشؤومة : ففي عام ١٣٢١
 كان أربعة من الرهبان الفرنسيسكان متجهين الى كولام Koulam ،
 يعطون السكان على طول الطريق ، وهناك وقعوا في الأسر وضربت رقابهم
 بأمر الحاكم المسلم (١٣٥٧) * وكنت قصة استشهادهم هذه وجود غريبته
 مقبنة حتى في تلك البقعة غير المضيافة من الساحل : ذلك أنه حين أراد
 أحد أعضاء البعثة ، وقد نجا من المذبحة ، وهو اللومينيكي جوردانوس
 Jordanus أن يقوم بجسج جثث الشهداء ليدفنهم في صولافا
 Soufara ساعده في هذه المهمة شباب جلوي (١٣٥٨) *

ومن الطبيعي أن افترض أن هذا الشاب كان ينتمي الى أسرة من
 التجار الجنوبيين الكنعانيين في طانة * ولدينا بخلاف هذه الرواية خطايان
 من جوردانوس ، أحدهما مؤرخ من كوكاه Koukah J Coga - انظر فيما
 سبق) في ١٢ من أكتوبر ٣٢١ (١٣٥٩) ، والثاني من طانة في ٢٠ من
 يناير ١٣٢٤ (١٣٦٠) * فهو يحكي في الخطاب الأول قصة موت رفاقه ،
 ويقدم تقريرا عن أعمال البعثة التي سيفطلع بها وحده ، ويضيف أن
 من المكان الذي يكتب فيه يستطيع المبشرون الكاثوليك أن ينهبوا الى
 أوروبا دون مشقة ، ويقول انه عرفت ذلك من بعض التجار اللاتينيين
 الذين كان على صلة بهم *

وهكذا كان هناك في حوالي عام ١٣٢٠ في الموانئ القائمة حول
 خليج كامبي حالية من التجار الغربيين القليل العدد في الواقع * وكانت
 المعلومات التي أبلغها المستوطنون الى جوردانوس مستقاة من مصادر

M. Polo, p. 682 et su.; Aboulf. Géogr., II, 2, p. 118; Adenjo (١٣٥٦)
 da Pordenone, p. v.

MM. Kuntmann dans les Historisch-politische Blätter, (١٣٥٧)
 XXXVII (1866), p. 28-34, et, Yule, dans son Cathay : Germany, Die
 Kirche der Thomas-Christen, p. 186 et su.

Voyez la lettre du Pape Franchiscus, dans Wadding, (١٣٥٨)
 Annal. ord. minor, a.a. 1321, no. 1.

Quétif et Echard, Script. ord. proedc., I, 549 et s. (١٣٥٩)

Wadding, Annal., VI 359-361, (١٣٦٠)

صحيحة ، لأن المس التي يقطعون بها كان لها علاقات كثيرة معن (٦٦١) - ولا يفصل هذا للبناء عن الساحل الشرقي الأفريقي لا دراع صيني من البحر ، لاحتياز بحارة للسفن التجارية القادمة إلى الهند ، كان التجار العربون يقطعون للمحاريب الأحباش الذين كان وجودهم على متن السفن يثير الرعب في نفوس القراصنة (٦٦٢) . وقبل الفراغ من هذه الواقعة في قصة الإرساليات في الهند ، نود أن نذكر أيضا قصة معجزة صغيرة تتصل بها ، تحكي القصة أن تاجرا يزييا يدعى « جوانيتوس » Joannus filius Hugolinus Plesani كان في حوزته رأس أحد شهداء طائفة ، واه بفضل هذا الأثر نجا من أيدي بسطة القراصنة (٦٦٣) . ومما كان مقننا ما في هذه الحكاية الفريسة من ابتكار ، فالحقيقة بالنسبة اليها أنه في القرن الرابع عشر كان في المستطاع ادخال تلجر ييزي يرتحل في بحار الهند في سياق قصة ما دون استشارة مسخرية القارىء المتشكك .

أما المنطقة التالية المحصورة بين جوا ورأس كومورن (٦٦٤) فانها تقابل إقليم ملبار Malabar ولا مقصد بهذه التسمية الاقليم الحالي الذي يحمل هذا الاسم ، ولكننا نقصد المنطقة الأكثر اتساعا التي أطلق عليها هذا الاسم الجغرافيون العرب في ذلك العصر (٦٦٥) . وأظهر المدن الساحلية بتسباتها التجارية في هذا القسم كانت هينور Hincor (حاليا هونور Honore) (٦٦٦) ، ومنجالور Mangalore (٦٦٧) ، وهيسل Hill ، أو ايلي EN ، وقد زالت الآن من الوجود . ويتحدد موقعها بالجبل الذي يرى من بعد ، ويشكل ركن جبل «مونت ديل» Mount Dely (٦٦٨) ، جورفاتان Djorfattan ، وهي غالبيا

-
- | | |
|--|-------|
| Ibn-Batouta, II, 177. | (٦٦١) |
| Ibn-Batouta, II, 80. | (٦٦٢) |
| Wadding, Annot. ed., mss., VI, 379. | (٦٦٣) |
| M. Yule, dans l'Indien Antiquary, II (1874), p. 209 et s. | (٦٦٤) |
| Aboulf., Géogr., II, 2, p. 118 et s., Rachid-eddin, dans Elliot, History of India, I, 68 Ibn-Batouta, IV, 71; cf. Yule, Cathay, II, 486; Yule, M. Polo, II, 386. | (٦٦٥) |
| Ibn-Batouta, IV, 68 et sq. (Aboulf., l.c., p. 118) | (٦٦٦) |
| Ibn-Batouta, IV, 70 et s. | (٦٦٧) |
| Rachid-eddin, Op. cit.; Ibn-Batouta, IV, 81, M. Polo, p. 487 et sq.; Yule, M. Polo, II, 381 et s.; Cathay, II, 481 et s., Ind. Antiq., l.c., p. 209. | (٦٦٨) |

• كاناتور ، Cannore في المصور اللاحقة (٦٦٩) ، وبودافان Bodattan ، وفامادينا Pandarina الواقعة بين كاناتور ، وكاليكت Calicut (٦٧٠) لم يمد لهما أثر اليسوم ، ثم كاليكت نفسها ، وأحيا كولام Coulam (كويلون Quilon) ، *

كانت هذه النواحي كلها على اتصال ببلاد ماوراء البحار ، إما بواسطة سفنها الخاصة ، ولما بواسطة التجار الأجانب الذين يزورونها . ولا محل للدمشة من هذا العدد الكبير من الأماكن التجارية إذا فكرنا في أن حليار كانت هي البلدة الأصلية لحاصلات الهند الطيبية المطلوبة بكثرة في الخارج . وكان الفلفل ، وهو أهم هذه الحاصلات ، يملأ وحده عتدا كبيرا من السفن . نصيف أيضا الزنجبيل والقرفة ، وأنبال (الحبهان) ، والبنية ، وشجر البقم ، وبهذا لم نذكر سوى جزء من الحاصلات الخارجية لهذا البلد السعيد . وكانت الموانئ والثغور الكثيرة الممتدة على الساحل تهيئ للسفن كل التسهيلات حتى تأتي إليها وتأخذ ثمة شحناتها بالقرب من المزارع ، وتجد في كل الأنحاء أهالي أو مستوطنين يمارسون التجارة ويقومون لهم بدور الوسطاء .

وليس علينا أن نلتم حائسا إلا بملاقات التجار الغربيين بالليسوم ملبار . فبالنسبة إليهم لم تكن الموانئ التي أسلفنا ذكرها على درجة واحدة من الأهمية . ولما كان التجار الغربيون يأتون جميعا على وجه التقريب عن طريق فارس ، فمن المؤكد أنهم يفضلون التردد على مدن الهند المتصلة بهذا البلد (أي فارس) بطرق مائية ، يذكر منها ابن بطوطة بنوع خاص منجالتور وكاليكت (٦٧١) . وكانت منجالتور ولدت من أعظم مدن ملبار (٦٧٢) . أما كاليكت ، فإذا لم يكن ماركو بولو ، والخريطة القطلونية قد ذكراها ، فلا يجوز أن نستخلص من ذلك أنها لم تكن ذات أهمية ، ذلك لأن ابن بطوطة يقول صراحة أنه كان يتردد عليها سفن من كل البلاد ، وكانت ترسل سفنا إلى الخارج (٦٧٣) .

(٦٦٩) Ibn Batuta, IV, cf. Yule, Cathay, II, 488.

(٦٧٠) Ibn Batuta, IV 67, 88 ; Yule, Cathay, II 288 et s. , I, 75; Indian Antiquary, p. 210.

• لا بد أن نلاحظ هنا كانت واقعة على يد مغربي ميلا الفينزيا تركيا شمال كاليكتا .

(٦٧١) IV, 80, 89.

(٦٧٢) Aboul., l.c., p. 118.

ونقول ، حتى نكون صادقين أن تردد الغربيين على حديس المبتدئين في القرن الرابع عشر أمر محتمل ، ولكننا لا نذكره إلا بطريق الاستنتاج . والأمر على خلاف ذلك تماما فيما يختص بكونهم . فهذه المدينة الواقعة في أقصى الجنوب من بلاد الملعل (٦٧٤) ، كانت تجذب إليها أنظار العالم المسيحي الغربي ، نظرا إلى أن قسما من سكانها كان منذ قديم الزمان قد اعتنق الدين المسيحي . وكان المسيحيون النوباتيون (الذين يتبعون إلى نظرية توما الاكويني اللاهوتية - المترجم) ، أو الناصريون (٦٧٥) يشكلون ثمة عنصرا ممتازا يعتمد عليهم المبشرون في تثبيت أقدامهم بالبلد ، والتقدم به .

وفي عام ١٣٢٩ ، أنشأ البابا يوحنا الثالث والعشرون أسقفية بمدينة كولام ، وهي أسقفا بها الراهب النوبيتيكاني جوردانوس كاتالاني Jordanus Cathalani وسنمحه خطابات توصية موعودة . من بينها ما هو موجه إلى ملكي كولام وذيلي (٦٧٦) . واستلم جوردانوس مهام منصبه بعد عام ١٣٣٠ بقليل . وهي اضطر بعد بضعة سنين أن يتخلى عن منصبه ، حل محله لفترة ما الراهب المتأهل (المتأملون ، طائفة من رهبان القديس فرنسيس - المترجم) يوحنا مارنيولا Marignola الذي أقام بكونلام أكثر من سنة بقليل بعد عودته من الصين (غالبا من ١٣٤٨ إلى ١٣٤٩) (٦٧٧) . ومع أن الكنيسة الرومانية لم تنجح في تثبيت دعائم الإرساليات بصفة دائمة في هذه المدينة ، فإن الإرساليات تركت بالمدينة آثارا تشهد بمرورها بها . فقد شوهد هناك لزمان طويل كنيسة كاثوليكية شيدها دون شمسك جوردانوس (٦٧٨) ، وكانت هذه الكنيسة تجذب إليها التجار الغربيين .



- IV, 89, II, 177, 198. (٦٧٢)
 Aboull., l.c., p. 118. (٦٧٤)
 Gley de Empoli, dans Ramus, I, 146, Germann, Die Kirche der Thomasschriften, p. 208. (٦٧٥)
 Archiv. de l'Or lat., I, 278-279. (٦٧٦)
 Kunatmann, Die Mission in Colombo (Hist.-polit. Bl., XXXVII, 198 et sa.); Germann, Op. cit., p. 210 et sa., M. Yule (Cathay, I, 71 et sa.) (٦٧٧)
 .. أنه السيد يول Yule بصورة عامة إن كونبر Colombo في كولام Koulam
 Marignola, dans Dobs, p. 89. (٦٧٨)

ولكن هؤلاء التجار كانوا فضلا عن ذلك مدعويين بالرغبة في عقد صفقات تجارية مع المسيحيين القوميين ، وكان على كل تاجر ، مسوا .
 أراد ذلك أم لم يرد ، أن يتعامل معهم . ذلك لأنه يقتضى امتياز قديم .
 كان لرؤساء هذه الجالية التي أطلق عليها مارتيلولا اسم « موديلياي »
 Modiliai (٦٧٩) الاختصاص في المحافظة على الورن القانوني
 Statuti المستعمل في مبيعات ومشتريات الفلفل ، وبصامة كل
 التوابل والعلور ، وسماهم مارتيلولا لهذا السبب « صادة الفلفل » ،
 ولا يقصد بذلك فقط أنهم يمتلكون كل مزارع الفلفل في أرياض المدينة ،
 ولكن أن أي انسان لا يستطيع أن يبيع مثقالا من الفلفل دون أن يتعامل
 معهم ، ويدفع لهم أتاوة في صورة رسم عن الوزن (٦٨٠) .

ومن المسلم به أن من بين الأسباب التي تحمل الغربيين على التردد
 عن كولام ، لا تعد الأسباب التي ذكرناها آنفا إلا في المرتبة الثانية ،
 أما ما يشكل الجاذبية الأساسية لهذه السوق ، فهو الكمية الهائلة ،
 والتنوع غير العادي للسلع التي تضفي على السوق الأخيرة روعة
 خاصة (٦٨١) . ولد بالغ مارتيلولا بالتأكيد حين زعم أن كل الفلفل
 المنتشر في جميع أنحاء العالم يرد من هناك ، ولكن الحقيقة أن الفلفل
 كان يزرع بهذا البلد بالجينة ، وأن المحصول هناك جيد (٦٨٢) .
 وأعطت كولام اسمها لأزكى أنواع شجر اليشم والزنجبيل (٦٨٣) .
 وفصلا عن ذلك كان الصينيون يجلبون إليها من الصين والهند الصينية
 سلعا تادرة سوق لتجلى عنها *

فقدنا أن هذه السوق كان يتردد عليه تجار غربيون ، ونحن نملك
 في هذا الخصوص شهادة اثنين من الرحالة : الانجليزي مولد قبل
 Maundeville الذي تشمل روايته ، بين حكايات خرافية يتنوع ما
 أكثر من معلومة حقيقية ، وهو يؤكد أن البنادقة كانوا يذهبون كثيرا إلى

(٦٧٩) الأول في باللغة اللاتينية اسم منطقة المزارع في لوسلاك Vellala
 ومشار أخرى Mouthell, moubelljar
 — Note de M. Germeau, Op. cit., p. 218, ..

(٦٨٠) M. Yule (Cathay, II, 342); Margniola (p. 88, 111, 113); Le (٦٨١)
 Joazeiro de Madras, XIII, 2, 1884, p. 119; Yule, I.c., II, 378; Germeau,
 Op. cit., p. 328.

Ibn-Batouta, IV, 88, (٦٨١)

Margniola, p. 88, Odericò da Pordenone, p. xi, (٦٨٢) *

(٦٨٣) سوف نكلم عن ذلك في الفصل الخامس بالسلع التجارية .

هناك للحصول على نفس وزنجيل (٦٨٤) . أما ماريلولا فإنه يقدم بطريقة غير مباشرة شخصا جنوبيا ، تنسب في هذا البلد . هذا المبتسر يقصده ماريلولا (كان في كولام ، حيث عقد صلات مع هسوكي وقع ذات يوم أسيرا في أيدي بعض القراصنة الذين باعوه إلى شخص جنوي ، غامثنق المسيحية على يدى سيده .

وأما المنطقة الثالثة فإنها تبدأ من رأس كومور ، وتقابل على وجه التقريب الإقليم الذي سماه الجغرافيون العرب مايار Mnabar وسماه الجغرافيون المحدثون كروماندل . قلنا سابقا أن مايار كانت تتلقى من الخليج الفارسي ، وبخاصة من جزيرة قيش شحنات هائلة من البخور . وأن هذه التجارة كانت منظمة بمعاهدات مبرمة بين ملوك هذين البلدين . وكانت السفن المخصصة لهذا الغرض تنزل حمولتها عند مايار في ميناء كايل Chai (cael) - وفي وقتنا الحاضر لا تصل أية سفينة إلى الموضع الذي كانت تقوم عليه هذه المدينة . أما أطلالها التي لم تزل تحمل اسم « كايل القديمة » Vieux-Kay فإنها تشاهد في داخل الأراضي على بعد ميل ونصف من مصب نهر تمبرابارني Tamraparni بمقاطعة تنفيل Tennevely (٦٨٦) .

ويقول هاركو بولو أن ميناء كايل لم يكن يتلقى شيولا فحسب . فقد كان يرد إليه ويبلغ به منتجات أخرى من بلاد المسرب وفارس وتجري هناك حركة تجارية كبيرة . وأسهمت مجاورات مصايه اللؤلؤ في خليج منار Manar في احدها حركة نشيطة على هذا السوق . فهل كان يصل من وقت لآخر إلى كايل بعض التجار الغربيين على متن سفن فارسية ؟ ليس في وسعنا أن نثبت ذلك ، ولكن ليس في هذا ما يخالف الحقيقة . وعلى أية حال فإن كل الذين يبرون بالهند للذهاب إلى الصين كانوا يتوقفون في طريقهم عند ساحل كروماندل ، ويوزرون بعض المواقف الرئيسية ، مثل مزار ملابور Melinpor (بالقرب من مدراس) (٦٨٧) ، وبه غير القديس توماس S. Thomas ، وسوق اللؤلؤ في موتفيلي Moutfili (موتويال Motoupalie في الجنوب الغربي

M. Yule (Cathay, I. 72); Maundeville (Lond, 1727) (٦٨٤)

M. Polo, p. 641. (٦٨٥)

Yule, M. Polo, II, 307 et ss. (٦٨٦)

(٦٨٧) يقول هاركو بولو أن عدد التجار الذين يزورون هذه المدينة الصغيرة قليل جدا.
M. Polo, p. 622 et ss.

من مازوليباتام (Masoulipatam) (١٨٨) ، وهاتان المدينتان موضحتان على الخريطة الفطالولية باسمي مياپور Mirapor ، وبوتيبيليس Bottilas (١٨٩) . ولن نتابع المسافرين الى أبعد من ذلك في رحلاتهم البحرية عبر خليج البنغال ، الى سواحل الهند الصينية وجوزها ، ذلك لأنه لايبير دي لوكاسجوس Pierre de Lecalongo ولا أي من التجار الآخرين الذين ارتحلوا الى الصين بطريق البحر في الفترة التي ندرسها قد ترك لنا أية رواية في هذا الخصوص .

وإد رأى الكثيرون أنهم يجدون في الهند منتجات الصين ، فانهم ولروا على أنفسهم مشقة القيام بهذه الرحلة . ويقابل أعظم عصر للأسرة المغولية في أواخر القرن الثالث عشر ومستهل الرابع عشر عهدا من العلاقات السياسية والتجارة النشيطة بين الصين والهند .

وأراد قبلاي خان الأكبر أن يشرع أمراء سواحل الهند بسيادته . ونجح في ذلك ، وجرى تبادل السفراء ، فذهب بعضهم باسم الخان الأكبر يندرون الأمراء أن يخضعوا ، ومضى البعض الآخر يقتسمون الخان ولاه . وهذا أمراء مايار وكولام وغيرهما من بلاد الهند (١٩٠) . ومن ذلك الحين صار في وسع التجار الصينيين أن يذهبوا الى الهند دون خوف من أن يساقطهم أحد هناك ، واستغلوا هذه الظروف الملائمة لجمعوا يرسلون إليها عمدا كبيرا من المراكب الخيزرانية .

وسوف نرى حتى نلتكلم عن الصين بنوع خاص أي الموانئ تخرج منها هذه السفن . وليس علينا الآن إلا أن نبحث عن الأقاليم والمناطق الهندية التي كانت تزورها هذه السفن . يقول رشيد الدين ، ووصاف ابن « السفن التجارية الكبيرة الصينية » تدخل عادة موانئ مايار ومن الطبيعي أن يفكر أولا في موانئ دلتا كاليفري Kaveri (نيجاباتام Negapatam ، كافيريباتام Kaveripatam) . ذلك لأن هؤلاء المؤرخين والجغرافيين حين يتحدثون عن « مملكة » مايار ، لا يقصدون القطر كله الذي تطلق عليه هذه التسمية ، ولكن فقط الإقليم التابع للأمراء أسرة پانديا Pandya ، ويقع مركزه في مسسوهو تنجور Tangore .

M. Polo, p. 627 et ss.; Yule, M. Polo, II, 307, (١٨٨)

Carte catal., p. 136. " " " " (١٨٩)

Fauthier, M. Polo, p. 603 et ss., 643; Yule, M. Polo, II, 273. (١٩٠)
314 et s.

ففي عام ١٣٠٠ كانت هذه المملكة يحكمها وزير قوي ، هو العربي تقي الدين عبد الرحمن ، وكان له الحق في أن يختار بوساطة وكلائه وعملائه ، قبل أي شخص آخر ما يشاء من البضائع التي تصدرها السفن الصينية * وبعد أن يقوم هؤلاء بتفتيش السفن وأجراء الاختيار ، يصرح للتجار بإجراء مشترياتهم * أما البضائع التي لا يأخذها هؤلاء فانهم تنقل الى قيش على متن السفن التي كانت قد اضطرت المكيول وبقيت تنتظر الفرصة لتسبحن ببضائع عند عودتها (٦٩١) *

وكانت السفن * الخيزرالية * الصينية تلب ايضاً حول رأس كودون وتبقى الى موانئ ملبار حاملية ببضائعها ، من حرير خام ، واقمشة حريرية ، وديباج ، وذهب وفضة ونحاس ، وخشب الصندل ، وكيش القرلقل وغير ذلك من التوابل النفيسة * ولشبح يدور خاص الى وجود كيش القرلقل بين السلع التي تفسكن حمولة السفن الصينية ذلك ان ماركو پولو (٦٩٢) هو الذي نوه بهذه الواقعة الهامة لانها تدل على أن هذه السفن ، بعد أن تأخذ في الصين جزءاً من حمولتها من كيش القرلقل تكمّل الحمولة في الهند الصينية *

والواقع انها في طريقها تحاذي سواحل شبه الجزيرة ، ثم جزيرتي جاوة وسومطرة ، وتجد في كل مكان موانئ تساع بسهولة في الهند لمسها ، واكتفى هنا بذكر العبر ، وشجر البقم ، واللك ، والكالكور ، وجذور الخولجان (نبات طبي من الفصيلة الرنجيلية - المترجم) ، ثم الحاصلات التي تصدرها الجزر الصغيرة الى امبالجاوة وسومطرة (٦٩٣) ، وبخاصة القرلقل ، وجوز الطيب ، وخشب الصندل * ويمكن القول بأن المواصلات بين الهند الصينية والهند كانت يأكملها في أيدي تجار صينيين ، وكانت على الألف تجري بوساطة السفن الصينية وحدها * وبالفعل اشبح الى وجود تجار جاويين في كالكت ، مثلاً (٦٩١) ، في حين لا يعرف مثال واحد لسفن من الهند الصينية تحمل ببضائع الى الهند *

وكانت السفن الخيزرالية الصينية تسبح عند عودتها بالعالمين

Millet, History of India, I, 60, III, 82, 83 et les commentaires (٦٩١)
de Yüta, M. Polo, II, 289 et ss.

M. Polo, p. 284. (٦٩٢)

M. Polo, p. 281, 287, Carlo catal., p. 127; Ibn-Batouta, IV, 228 et s., 240 et ss. (٦٩٣)

Ibn-Batouta, IV, 22. (٦٩٤)

الهندية ، وبخاصة الفلفل ، وبالتسبب الى هذه المادة التي سببها
مارك بول « الأقاييه الكبيره » ، كان الصينيون هم أكبر المشترين
بالجملة لها ، ويدفعون أكبر ثمن في شرائها ، ولذلك كان يصدر منها
الى الصين كميات تزيد عشر مرات على ما يصدر الى عدن ثم الى
الغرب (٦٩٥) .

ومن بين مدن ملبار ، كانت كولام أقربها الى الصينيين ، ويترددون
عليها أكثر من غيرها (٦٩٦) . وهناك وجه اليشر لودريكو دابورديوني
Oderico da Poedenone سفينة خيزوانية أقلته الى الصين ، وكانت
تحمل قراية سبعائة مسافر ، منهم عدد كبير من التجار (٦٩٧) . وحين
اعتزم ابن بطوطة القيام بهذه الرحلة ، كان في كالكوت . ولما كان هذا
الياء يتردد عليه الصينيون بكثرة ، كان عليه أن يحتار بين ثلاث عشرة
سفينة خيزوانية (٦٩٨) . ومع ذلك فطى فصل الأمطار ترسو السفن
الصينية هائلا هند فندارينا Fendaraina (٦٩٩) ، وتذكر بعض
المصادر الصينية فانغالينا Fantalaina باعتبارها مدينة ساحلية لها
علاقات بتجار الجملة بالبلد (٧٠٠) . وأخيرا ، كانت السفن الصينية
ترسو أيضا عند جبل Hill (جبل ديل Mount Dely) ، وهي
أقصر بقعة متقدمة الى الشمال يمتد لنا أن نتتبع السفن اليها ، ولم تكن
التيس تقيم بها الا زمنا قصيرا بسبب رداءة قاع الرسو (٧٠١) .

وعكدا كان التجار الغربيون ، عند وصولهم الى الهند يلتقون
هناك صينيين معهم منتجات بلدهم ومجموعات الجزر المتناثرة على طول
طريقهم ، وكثيرا ما كانوا يتصلون هنالك بالمسلمين الذين كان يوجد
جبايات مهم في كل مدينة تقريبا من مدن السواحل . فبعد عصر
فتوحاتهم الأولى في حوض الاندوس (الهند) امتدحت قوتهم السياسية
في الاردياد في شبه الجزيرة . وفي الحقيقة كانت أقوى الولايات

M. Polo, p. 664; cf. p. 681.

(٦٩٥)

Ibn-Batouta, IV, 180; M. Polo, p. 644.

(٦٩٦)

Yule, Cathay, II, append., p. XII.

(٦٩٧)

Ibn-Batouta, IV, 88 et ss.

(٦٩٨)

Ibid, IV, 88, 90.

(٦٩٩)

(٧٠٠) التاريخ الرسمي لأسرة الحاكمة المغولية ، سنة ١٢٩٦ :
--- Pruthier, M. Polo, p. 682.

M. Polo, p. 649; Ibn-Batouta, IV, 81.

(٧٠١)

الخاصة لسلطانهم ، إمبراطورية سلاطين دلهي دولة قارية قبل كل شيء .
وكانت البقاع الساحلية التي يتجه إليها التيار التجاري بقوة ونشاط
خارج سيادتها ، ولا تسمى هذه الدولة الساحل الغربي إلا عن طريق
السند والجوجرات . حقا ، كان في هذا القطع (منذ عام ١٢٩٨) مدينة
كامبيي العظيمة الأهمية التي كان غالبية تجارها الأثريه ينتقلون
الإسلام . ولكن ابتداء من هذه المدينة حتى الطرف الجنوبي لشبه
الجزيرة ، تتتابع سلسلة من الإمارات الصغيرة التي يحكمها مهراجبات
ينتمي معظمهم للجنسية والديانة الهندوكية . ومن الصواب الافتراض
بأن في هذه الإمارات المستقلة كان العنصر الوطني هو السائد في عالم
التجارة ، وفي سائر الطبقات .

وبخصوص مملكة لار Lar الواقعة في المنطقة الموجودة بها
بمباي الحالية ، ذكر ماركو بولو (٧٠٢) أسماء بعض التجار الوطنيين من
الجنسية الهندوكية ، والمجيب أنه يصلهم بأههم برهمين
Abrahims ، ويمزق قوله هذا بذكر تفاصيل خاصة بأمولوب
محشهم . ومع ذلك فالمعروف أن البرهمين لا يمكن أن يشتغلوا بالتجارة
إلا بنوع استثنائي ، وبالمخالفة لقانون طائفهم الصارم . ومن الجائز
الاعتقاد بأن الناس الذين يتحدث عنهم ماركو بولو كانوا مجرد «بانيان»
Banians (هود براهية) عرفوا بتوسع خاص بأنهم تجار ، وقد
اختلط به الأمر فنسب إليهم اسم البراهمة وعاداتهم . ومن حيث المسألة
التي تشغلنا ، لا يصحنا كثيرا أن نعرف ما إذا كان هؤلاء القوم من البراهمة
أو البانيان . ومن ناحية أخرى ، يميز ابن بطوطة ، في جملة أئمة
في كولام بين المسلمين ، والصينيين ، والسول Soule ، ويقول إن
الأخيرين كانت لهم مكانة خاصة بسبب ثرائهم ، ولم يكن من السادر أن
يستطيع أحدهم أن يشتري وحده سفينة ويجهزها (٧٠٣) . وذكرنا
اسم سول Soule باسم تشولا Tchola وهي المملكة القديمة في
الجزء الجنوبي من ساحل كرماتندل (مايار) . ومن الجائز أن يكون
التجار من أهالي المدينة نفسها أقلية فيها ، وأن العدد الأكبر منهم أجانب
من أهالي مملكة تشولا المجاورة (٧٠٤) . وهما كان الأمر ، فإن كان

P. 634 et se. et remarques de M. Pauthier ; Yule, II, Polo, (٧٠٢)
II, 303 et s.

IV, 99 et s. (٧٠٣)

Ed. Pauthier, p. 634 et s., not., 6d. Yule, II, 299, 303. (٧٠٤)

بعض التجار الهنوس يملكون هنا وحدها مكانة مرموقة ، فذلك لا يمنع من أن الدور الرئيسي يقوم به المسلمون . وفي كل لحظة يصل قادمون جدد يدعون مستوطناتهم القديمة .

وإذا كان الهنوس يتحاشون أي احتكاك مباشر معهم ، فإنهم كانوا مع ذلك يحتررون من مصابقتهم ، إذ كان من مصيبتهم ألا يشيروا بحسب سلاطين دلهي المقاتلين الأتمناء ، والا يجملوا من مسلمي فارس وبلاد العرب ومصر أعداء لهم ، إذ كان هؤلاء عملاء لهم قيستهم في تصريف القسم الأكبر من المنتجات المحلية (٧٠٥) . وقد أحصى ابن بطوطة من مجالوز قرابة أربعة آلاف من أخوانه في الهند . وفي هندارينا كان هؤلاء يشكلون سكان ثلاثة أحياء ، بكل حي مسجده ، وفي كالكيت وكولام كان قسم كبير من طبقة التجار ، وكثير منهم من الأحميائ ، يتكون من المسلمين (٧٠٦) . ولن أذكر شيئا عن المدن الأقل أهمية حتى لا أتوقف طويلا عند هذه النقطة .

وكان في وصفي أن أخدم هنا هذا الفصل ، لو لم يضطر لي أن من الأهمية مناقشة لقرة في قرارات مجلس شيوخ الهندية (٧٠٧) استند إليها السيدان رومان Romanin وبرشيه Borchet (٧٠٨) ليؤكدنا وجود فصلية فينسية في سيام (بالهند الصينية) في أواخر القرن الرابع عشر ، وبالتسأل وجود مستوطنة تجارية فينسية . فلاما يقوم هذا التأكيد ؟ لقد تلقى مجلس الشيوخ انضماما من بيكولا بريداني Nicc. Bredani القنصل في سيام ، يتكلم فيه أعداء من منصفه يدعى أنه بقي فيه أكثر من المدة المقررة قانونا ، وفي ظروف عسيرة بنوع خاص . ويمكن تلخيص مرسوم مجلس الشيوخ في بضعة سطور : يقرر في ٢٩ من يناير ١٣٩١ (وفي الوثيقة عام ١٣٩٠ حسب الترتيب القديم) قبل (المجلس) استقالة بريداني بالنظر إلى الاضطرابات

Mon-Balaula, IV 72, 73, 100.

(٧٠٥)

Boddinthen

— يبدو أن برشيه برودان

لم يكتروا يطبقون وجود المسلمين في الهندية :

(Hong Koman v. Journal asiat., 4^e serie, VIII, 165 ; Yule, Cathay, II, 488).

أعتر ، ابن بطوطة ، الجزء الرابع ، ٨٧ ، لا أن هذا استثناء وحيد خلي ساحل ملبار .

Ibn-Balauta, IV, 80, 88 et 2, 100.

(٧٠٦)

Senate Misti, XLt fol. 134 v. (177 v.)

(٧٠٧)

Storia di Venezia, III, 340.

(٧٠٨)

«لحق تسود هذا البلد ، لكن بشرط أن يجمع القنصل مبعليه قبل رحيله ، ويجرى انتخاب نائب قنصل حتى لا يبقى المنصب شاغرا » .

يستند السيد برشيه الى هذا النص فيزعم أن بريداتي كان بالفعل قنصلا في ميام ، ويوضح ذلك فيذكر الرحلات التي قام بها بعض البيرويين الى الهند عن طريق مصر (١١٧٥) والعلاقات التي وثقتها الايطاليون في قصود النصف الأول من القرن الرابع عشر عن طريق البر والبحر ، حتى في الصين ، البلد الأبعد كثيرا من الهند * وقد أوصحت فيما قبل أن رحلات البيرويين هذه في الهند لم تزل في حاجة الى البات صحيح * والمؤكد أن عددا كبيرا من الايطاليين كان يتاجر مع الصين ، ولكن يمكن اثبات أن هذه التجارة لم تستمر مدة كافية ليتمكن أن تستنتج منها وجود قنصلية فينيسية في ميام في أواخر القرن الرابع عشر ، ولا نجد فضلا عن ذلك كلمة واحدة تدل على أن ثمة رحالة قاصدين الى الصين قد توقفوا على طريقهم في الهند الصينية (٧٠٩) وقابلوا هناك مواطنين لهم *

ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية كلها تتفق على القول بأنه قبل وصول البرتغاليين لم يؤسس الفرنسيون هناك أية مستوطنة * باختصار ، يصطدم الاليات بصعوبات يتعذر تذليلها * ولكننا نرى في فهرست سجلات *Mist* الذي يشتمل على المرسوم السابق ذكره أن المرسوم قد وضع تحت عنوان « قبرص ، أرمينيا ، سورية ، *Cypro, Armenia, Syria* » ، وهذا ينقلنا الى طريق آخر *

فالمعروف أن اسم « سورية » وعاصمتها دمشق هو « الشام » *Cham* (٧١٠) ، وقد انتقل هذا الاسم الى اللغة الدارجة عند الفرنسيين * وقد أوردت قبلا في هذا الخصوص فقرات من سانوتو الأكبر وبيجولوني ، ولدنيا أمثلة عديدة من ترجمات لوثائق أمينية وعربية ، ترك فيها المترجمون هذه الكلمة كما هي * لأنهم وافقون من أن قراعم يفهمونها (٧١١) * وعلى هذا فليس من المستغرب أن يكون هذا الاسم قد انزل في صورتها الشرقية في بعض السجلات الرسمية الفينيسية بدلا من الأسماء المعتادة : « سيريا » *Siria* ، و « ساماسيكو »

(٧٠٩) وعاصمة في ميام انجودة خارج الطريق *

Amerl, Dipl. arab. p. 481,

(٧١٠)

Cf. Layrolle, Trésor p. 181, au lieu de « Cham », il faut (٧١١) « Sira » en Sira.

أؤكد أنه إن بريدي كان قصصاً في دمشق ، أما السيد بيرشييه فيؤكد أن هذا مستحيل ، ويمطى لذلك سبب : الأول أن هذا المنصب لا يمكن أن يشغله إلا أحد النلاء ، وأن أفراد آل بريدي قد استبعدوا من طيلة النلاء ، ولم يصادوا إليها إلا في عام ١٣٨٥ . وقه هزرد بريدي طلبه في عام ١٣٩٠ على أساس أنه بقي في منصبه ربما طويلاً بعد النلاء القانونية ، وكانت المدة المتأخرة لشغل هذا المنصب هي ثلاث سنوات . ومن ثم فلا بد أنه تقلد المنصب قبل عام ١٣٨٥ ، ولكن لم يكن في وسع أي فرد من أسرة بريدي في ذلك الحين أن يمين قصصاً في دمشق لأنه لم يكن وقتئذ من النلاء .

أراء هذا الاعتراض ، اليكم ردي : بالنظر إلى النظام الذي كانت تتبعه حكومة البندقية مدة في استبدال القنصل ، فإن حالة قنصل ترك في منصبه سنة أو حتى ستة شهور فقط بعد انقضاء فترة الثلاث السنوات هي حالة استثنائية : إذ لنيس لمة ما يجبروا على ارجاع تعيين بريدي إلى ما قبل عام ١٣٨٦ ، وفي هذا التاريخ كان حائزاً بالفعل للشروط المطلوبة . ولكن السيد بيرشييه يقدم دليلاً آخر يبدو في الظاهر أكثر اقناعاً . يقول أنه في عام ١٣٩٠ كان قنصل البندقية في سورية يدعى جيوفاني مودوسيني Giovanni Modosini . ولكن يرجوعني إلى قائمة الأشخاص الذين شغلوا على التوالي هذا المنصب ، وهي قائمة حررها السيد بيرشييه نفسه (ص ٥٥) دهشت إذ تبين لي أن اسم مودوسيني لا وجود له بالمرّة : فقد قرأت في القائمة : ١٣٨٤ Franc Foscolo ، ١٣٨٦ Giov. Mocenigo ، ١٤٠٥ Franc Foscarini . والشاهد أننا هنا على أرض قليلة الصلابة ، والمعطيات التي حررت تبعاً لها القوائم من هذا النوع تصدر بعمامة من وثائق مكتوبة في تواريخ بعيدة عن الأحداث ، ومن ثم فهي مشكوك في صحتها ، وتكثر فيها الثغرات ، ويكفي مقابلتها بالوثائق الرسمية ليتبين عدم صحتها .

وفي الحالة الخاصة التي نحن بصددتها لا نعرف ما الذي يقبض وجود شخص يدعى جيوفاني مودوسيني في عام ١٣٩٠ ، أو جيوفاني مودسينجو في عام ١٣٨٦ . وعلى ذلك لا يمكن مواجهتي بهذه التواريخ لحمل على الرجوع عن الفكرة التي عرضتها ، ومبطلها أننا لا نرى في شخص نيكولا بريدي قصصاً في سبام ، وإنما هو قنصل في سوريا . وحديثات الرسوم التي تشير إلى الاضطرابات التي تتلحح أوصال البلدة موضوع الجدل تعاقب تماماً الحالة في سوريا في تلك الآونة : فقد كان

الإتايك بمعاش Putabeg Mliniach ينارح المملطان بزقونق السيادة
 على مصر وعانت سورية بنوع خاص من هذا التنافس ، وتعميت ممالك
 في مجاورات دمشق حتى شهدت المدينة الأعداء يقرعون أبوابها ،
 والفن تخطب بالنساء شوارعها (٧١٢) * وكتب تبصل فينيسي بحق
 أن الناس في هذا البلد يعيشون في قلق واضطراب شديدين *

de nos Lairs, Traité, suppl. p. 81; sin omnibus terris et (٧١٢)
 partibus de Semes,

الفهرس

المصاح	الموضوع
جزيرة قبرص ، من حيث موقعها قبالة الدولة الصليبية	
دمشقا الصغرى ، من حيث علاقات الجوار والصدالة بينها وبين	
الدول الصليبية	١٢
سورية المسلمة من حيث موقعها خلف الدول الصليبية	٢١
مصر	٢٧
١ - نمو تجارة الشرق الأدنى في أعقاب الفتح قارة آسيا ، من	
أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر الرابع عشر	٨١
(١) للمنطقة الأولى	٨٣
أولا : امبراطورية الروم في عهد آل باليولوجوس ، وإعازات	
الفرجة في بلاد الروم حتى معاهدة توزين لعام ١٢٨١	٨٣
ثانيا : بلغاريا	١٩٤
ثالثا : آسيا الصغرى التركية	٢٠٢
الجزء الثاني ، الفترة الثانية	٢٢٧
٢ - نمو تجارة الشرق الأدنى على اثر الفتح القارة الآسيوية	
(من أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر الرابع عشر)	
(ب) تيار التجارة القديم من الشرق الى البحر المتوسط عن	
طريق الجنوب	٢٢٧

الموضوع	الصفحة
أولا : مصر	٢٢٩
ثانيا : مصر ومصرية	٢٥٢
(ج) أسواق وطرق جديدة يشتت انتشار	٢٩٨
أولا : ظهور انتشار (القول)	٢٩٨
ثانيا : أرمينيا الصغرى باعتبارها الطريق الى وسط آسيا	٣٠٨
ثالثا : طبريزون ، باعتبارها المدخل الى وسط آسيا	٣٢٩
رابعا : فارس	٣٤٥
خامسا : الهند	٣٦٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٤٢ / ١٩٩٠

ISBN — 977 — 01 — 2493 — 1

رفع
مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك